رسائل الجزائرى

الثانيـة

خمسة عشرة رسالة

فى مواضع علمية وإصلاحية مختلفة

عنى بنشرها وتصحيحها

مؤلفهــــا

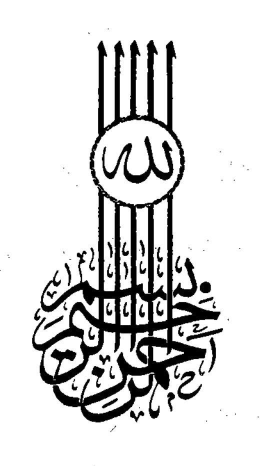
أبو بكر جابر الجزائرى

الواعظ بالمسجد النبوى الشريف

بالمدنية المنورة



دمنهور ت ٣٢٨١٩٩٠/٠٤٥



رسائل الجزائري
الثانية

Abu Baker Jaber Al Jazaery
Profit Mohd. Mosque's Teacher
Madina Munawarah
Tel. 8371500
P.O.Box 871 Saudi Arabia



أبو بكر جابر الجزائري
المدرس بالمسجد النبوي الشريف
المدينة المنورة
هاتف ٨٣٧١٥٠٠
ص.ب ٨٧١ المملكة العربية السعودية

DATE ....

التاريخ .... هـ

تفويض

فوضت أنا الموقع أدناه أبو بكر جابر الجزائري المؤلف
فوضت مكتبة أضواء المنار ودار السنة للنشر والتوزيع ومالكها
محمد بن عبد المحسن القدوس [illegible] بطباعة رسائل الجزائري الأولى
والثانية والثالثة والرابعة، وهذا تفويض مني بذلك

المفوض
أبو بكر جابر الجزائري
١٤١٥/٥/٧هـ

أبو بكر جابر الجزائري
المدرس بالمسجد النبوي الشريف

الطبعة الأولى : ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م
الطبعة الثانية : ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م



دمهور ت ٠٤٥/٣٢٨١٩٩

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد للّه ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونستهديه ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فهو المهتدى ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدى الساعة ، من يطع اللّه ورسوله فقد رشد ، ومن يعص اللّه ورسوله فلا يضر إلا نفسه ولا يضر اللّه شيئاً .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

هذا وقد تجمع لدى نحو من خمس عشرة رسالة فى مواضع علمية وإصلاحية مختلفة كنت قد نشرتها مفرقة واحدة بعد واحدة بحسب كتابتها والحاجة الداعية إليها فى سلسلة بعنوان : (من رسائل الدعوة) وقد رأيت جمعها فى سفر واحد على غرار المجموعة الأولى لتكون هذه المجموعة الثانية بإذن الله تعالى .

وقد راعيت فى ترتيبها المناسبة الموجودة بين كل رسالة وأخرى فمثلا رسالة المشاكل التى تعترض الدعوة الإسلامية إلخ . . . وضع بعدها رسالة : نماذج من الدعاة الصالحين . ورسالة الدولة الإسلامية ، وضع بعدها : هذا هو الطريق ، ورسالة دراسات فى مسائل من علوم القرآن وضع بعدها : رسالة كيف يتطهر المؤمن ويصلى ، والمناسبات بين كل رسالة والتى يليها ظاهرة لمن يتأمل .

وأخيراً لا يفوتنى أن أنبه هنا إلى أن السلامة من الأخطاء المطبعية ، وحتى غير المطبعية مما هو من سبق القلم ، أو غلبة الوهم ، أو سوء إدراك ، أو ضعف تصور لبعض القضايا أو المسائل ، لا تكاد توجد فى مؤلف صغيراً أو كبيراً فى هذا الزمان لضعف القوة العلمية من جهة ولما ابتلى به الناس من العجلة فى الأمور ، وترك التبصر والأناة من جهة أخرى ، مما سبب اضطرابات كبيرة فى حياة الناس .

ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولذا فعلى القارئ الكريم أن يقف عند كل عبارة نابئة ، أو معنى خفى ، أو تركيب قلق . بسبب تقديم أو تأخير أو سقوط حرف أو كلمة ، حتى يتبين له الحق أو الصواب ، وإلا سأل من هو أعلم منه ، وفوق كل ذى علم عليم . والله أسأل أن ينفع بهذه المجموعة من الرسائل كما نفع بسابقتها ، إنه قدير ، وبالإجابة جدير ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .


دراســات فى
مسائل من علوم القرآن

دراسات في مسائل من علوم القرآن

المسألة الأولى ـ في بيان المراد من علوم القرآن :

لكي يعرف مدلول هذا المركب الإضافي « علوم القرآن » ينبغي أن يشرح كل مفرد منه على حدة .

وعليه فالعلوم جمع علم ، وهو مصدر « علم » بمعنى أيقن أو عرف ، وهو مرادف للمعرفة والفهم مصدر عرف وفهم .

وقد اختلف في وضع حد له بحسب اختلافات مذاهب مريدي الوضع له ، فاللغويون يعرفونه : بأنه نقيض الجهل ، أو هو إدراك الشيء بحقيقته . والأصوليون يقولون : إنه معرفة الشيء على ما هو عليه . والحكماء يقولون : إنه صورة الشيء الحاصلة في العقل . وعلماء الكلام يقولون : إنه صفة نفسية تتكشف بها الأشياء لمن قامت به .

وهو في الشرع : معرفة الرب تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ومعرفة محابه تعالى ومساخطه التي أنزل بها كتابه وقام ببيانها رسوله ﷺ ، وهي أوامره ونواهيه ، وما يترتب عليها من وعد ووعيد ، مع معرفة كيفيات فعل تلك المحاسن التي بعضها من أفعال القلوب ، وبعضها من أفعال الجوارح ، وأهل هذا العلم الشرعي هم أهل الخشية لله تعالى ، دليله قوله عز وجل من فاطر : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ (1) .

وأما القرآن : فهو في الأصل مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآناً وضع علماً على كتاب الله تعالى كلا أو بعضا ، والفرقان : مثله في كونه مصدراً وضع علماً لكتاب الله تعالى يعرف به ، ولا يطلق إلا عليه .

وحده الجامع المانع : إنه كلام الله تعالى المعجز بألفاظه ومعانيه ، المتعبد بتلاوته ، المنقول بالتواتر المكتوب في السطور ، المحفوظ في الصدور .

وعلومه كثيرة ، وهي معارف جمة تتصل به اتصال الأجزاء بذواتها ، والصفات

---

(1) فاطر : ٢٨ .

بموصوفاتها ــ فمن ذلك : معرفة ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتفسيره وأحكامه ، وبلاغته وإعجازه ، وخاصه وعامه ، ومطلقه ومقيده ، ورسمه وتجويده ، ومكيه ومدنيه ، وعدد آياته وكلماته ، وكيفية نزوله ، وأول وآخر ما نزل منه ، وغريبه وإعرابه ، وقرائه وقراءاته ، والمناسبات بين سوره وآياته ، ومفسريه وطبقاتهم ، وتفاسيره النقلية الأثرية ، والعقلية العلمية ، والموضوعية الخاصة ، إلى غير ذلك من علوم القرآن التى بلغ بها بعضهم ٧٧٤٥٠ [1] علماً ، وكلها تدور على ثلاثة أمور هى أم علوم القرآن ، وعليها مداره ، وهى : التوحيد ، والأخبار ، والديانات ، كما قال ابن جرير أو التوحيد ، والتذكير ، والأحكام كما قال غيره . والمعنى لا يختلف كبيراً ولا كثيراً ، إذ التوحيد : يشمل معرفة الخالق جل وعز ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله الحاصلة بالنظر فى آياته ومخلوقاته ، ويشمل توحيده تعالى فى ربوبيته ، وألوهيته ، وفى أسمائه ، وصفاته . والأخبار : تشمل قصص الأولين ، والوعد والوعيد ، وما به كل منهما من أنواع الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وبهذا يكون التذكير والديانات : تشمل سائر الأحكام والأعمال التكليفية التى بها طهارة الباطن وصفاؤه ، واستقامة الظاهر وكماله .

هذا وسنكتفى بدراسة مسائل معينة من هذه العلوم القرآنية ، لعدم القدرة على الاستيعاب ، ولحاجة طالب التفسير إليها دون غيرها وتلك هى :

١ ــ بيان كيفية نزول القرآن الكريم ، وأول وآخر ما نزل منه .

٢ ــ أسباب النزول .

٣ ــ القراء والقراءات .

٤ ــ التفسير والتفاسير ، والمفسرون وطبقاتهم .

٥ ــ المحكم والمتشابه .

٦ ــ العام والخاص .

٧ ــ المطلق والمقيد .

٨ ــ المكى والمدنى .

٩ ــ إعجاز القرآن وكونه آية محمد ﷺ فى إثبات نبوته ، وما يستتبع ذلك من مسائل

---

(١) هذا بناء على عدد كلماته وهى ٧٧٤٤٨ مضروبة فى أربعة إذ لكل كلمة ظاهر وباطن ، وحد ومقطع .

فرعية تتعلق بهذه المسائل الأمهات .

مسألة فرعية : فى بيان تأريخ علوم القرآن :

إن بداية تأريخ علوم القرآن ترجع إلى بداية نزول القرآن نفسه حيث أمرت آية العلق : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ (١) ، أمرت بالقراءة والكتابة بالقلم ، والقلم هو آلة الكتابة والتدوين ــ كما أن آية سورة القيامة : ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه** ﴾ (٢) ، إشاره واضحة إلى جمع القرآن وقراءاته وتفسيره ، ومن علوم القرآن كما تقدم : رسمه وقراؤه وقراءاته ، وتفسيره ومفسروه ، فقد كان النبى ﷺ كلما نزلت آية ، أو آيات أو سورة ، أملاها على كتّاب الوحى من أصحابه كما تلقاها عن جبريل عليه السلام ، فكتبوها وقرأوها ، وكان يومها التطبيق العملى لما تحمله الآيات من شرائع وأحكام كافياً فى تفسيرها وبيان معانيها وما قد يخفى من ذلك لإبهامه ، بسبب إجماله ، أو عمومه ، أو خصوصه يسألون عنه الرسول ﷺ فيبينه لهم فى الحال ، لعدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة .

وتوفى رسول الله ﷺ والتحق بالرفيق الأعلى ، وزال مانع الكتابة والتدوين ، فكتبت السنة ودونت ، وجلها عبارة عن بيان للقرآن الكريم وتفسير له ، كما قال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى .

وعلى عهد أبى بكر رضى الله عنه جمع المصحف المنتمى إليه رضى الله عنه فقد قال : إن الموت أسرع بأهل القرآن ، وأنه يخشى على القرآن الضياع بموت حفاظه ، فأمر الصحابة أن يجمعوا ما بأيديهم من قرآن مكتوب ، فجاءوا به مكتوبا على الرقوق والعظام وجريد النخل وغيرها ، فكان ذلك بداية رسم القرآن وجمعه فى مصحف واحد .

وعلى عهد عثمان رضى الله عنه ظهر الاختلاف بين القراء فى بعض ألفاظ ــ القرآن الكريم ــ فأمر رضى الله عنه بجمع ما عند الناس من مصاحف فجمع ، ثم عهد إلى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، وممن عرفوا بالعدل والضبط والحفظ والإتقان ، كأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود وغيرهم ، عهد إليهم أن يكتبوا المصحف مرة أخرى ، فكتبوه فى مصحف واحد سمى فيما بعد بالمصحف الإمام ، وأتلف ما عداه

---

(١) العلق : ١ ــ ٥ .

(٢) القيامة : ١٦ ــ ١٩ .

من المصاحف التى كانت بأيدى المسلمين ، وبعث بنسخ من المصحف الإمام إلى أهل الأمصار ، كالعراق ، والشام ، ومصر ، ليقرأوا بها ويجتمعوا عليها ، وبذلك قضى على الاختلاف الذى خافه الصحابة وأبناؤهم وارتاعوا له أيما ارتياع .

واعتمد الصحابة وأبناؤهم من التابعين وتابعى التابعين على الرواية دون ـ الكتابة والتدوين ـ ، وساعدهم على ذلك ما يثمره العمل بالعلم من توضيح المعلوم وترسيخه فى النفس وتعميقه فيها ، فروى التفسير عن كبار الصحابة كعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم أجمعين . رواه عنهم تلامذتهم كمجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم وغيرهم رحمة الله تعالى عليهم أجمعين . ولما أخذ نور النبوة يخفت لتقدم الزمان رزق الله تعالى أمة القرآن بالفقهاء فاستنبطوا أحكام الفقه ودونوها ، فحملهم ذلك على أن يبحثوا عن جملة من علوم القرآن كالناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والمجمل والمبين .

وهكذا نجد أن تاريخ علوم القرآن بدأ بنزول القرآن ، وأخذ ينمو ويتطور شيئاً فشيئاً إلى القرن الرابع الهجرى ، حيث كتب الحوفى (١) تفسيراً جمع فيه العديد من علوم القرآن ، كالتفسير ، والناسخ والمنسوخ ، والأحكام والقراءات ، وفى القرن السادس ألف فى علوم القرآن كفن متميز ابن الجوزى كتابه « فنون الأفنان فى علوم القرآن » وفى القرن السابع ألف السخاوى كتابه « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز » وفى القرن الثامن كتب الزركشى كتابه « البرهان فى علوم القرآن » وفى القرن التاسع ألف السيوطى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » .

وإلى هنا كان قد اكتمل هذا الفن ، وطاب ثمره ونضج ، وأصبح من يكتب فيه إنما هو ينقل عن غيره ، ليس له فيه يد سوى الاختصار ، أو التوضيح والتصحيح .

المسألة الثانية :في بيان كيفية نزول القرآن . وأول وآخر ما نزل منه :

النزول مصدر ، نزل الشىء من أعلى إلى أسفل نزولاً إذا انتقل منحدراً من مكان أعلى إلى ما هو دون ، وسواء كان قد نزل بنفسه أو بواسطة ، ويكون فى المحسوسات والمعقولات ، فيقال : نزل المطر من السماء ، كما يقال نزل الوحى من السماء ، فالماء جسم

---

(١) هو على بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفى ، المتوفى سنة ٣٣٠ هـ واسم كتابه (البرهان فى علوم القرآن نقلاً عن كتاب مناهل العرفان) .

محسوس ، والوحى خبر معقول ، وبناء على هذا : فالقرآن الكريم وهو كلام الرب تبارك وتعالى بحروفه ومعانيه ، نزل وحياً بواسطة جبريل على قلب سيد المرسلين محمد ﷺ . قال الله جل جلاله : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** ﴾ (١) ، والروح الأمين هنا هو « جبريل عليه السلام » بإجماع أهل التفسير .

ولنزول القرآن أحوال ثلاثة ينبغى معرفتها :

الأولى : تنزله من الله تعالى إلى اللوح المحفوظ حيث كتب فيه كسائر المقدرات التى قدرها الله تعالى ، وكتبها فى هذا الكتاب الذى هو اللوح المحفوظ ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ **بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ** ﴾ (٢) وقوله عز وجل : ﴿ **إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين** ﴾ (٣) .

الثانية : تنزله من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، إذ ثبت بعدة روايات موقوفة عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ولما كان مثل هذا لا يقال بالرأى فقد سلم جماهير المفسرين صحة هذه الروايات ، ولم يروا الوقف فيها مانعاً من قبولها أو وحيا لردها ، لا سيما وفى كلام الله تعالى ما يشهد بصحتها وذلك كقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ (٥) مع العلم أن القرآن نزل على رسول الله ﷺ فى كل شهور السنة ، والليلة المباركة على الصحيح أنها « ليلة القدر » وهى لا تكون على الصحيح إلا فى رمضان ، فترجح بهذا أن نزول القرآن فيها كان جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، وإن كان اللفظ محتملاً لأن يكون معناه : ابتداء نزوله فى ليلة القدر على ضرب من التجوز ، كقوله تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ (٦) ، حيث ابتدىء نزوله فيه ، إذ فاجأ الحق الرسول ﷺ فى غار حراء ونزل عليه : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ (٧) الآية .

الثالثة : تنزله على النبى ﷺ منجماً ، نجما بعد نجم ، بحسب الأحوال والمقتضيات ، فى خلال ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً** ﴾ (٨) .

---

(١) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥ . (٢) البروج : ٢١ ، ٢٢ . (٣) الواقعة : ٧٧ ـ ٨٠ .
(٤) الدخان : ٣ . (٥) القدر : ١ . (٦) البقرة : ١٨٥ .
(٧) العلق : ١ . (٨) الفرقان : ٣٢ : ٣٣ .

ولهذا التنجيم حكم بالغة مقصودة ذكر أهل العلم منها الكثير ومنها :

١ - تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتقوية قلبه ، إذ تجدد الوحى من الوقت إلى الوقت ، وتكرار نزول الملك به يكسب الرسول ﷺ ثباتاً على الحق الذى جاء به وقام بالدعوة إليه ، وقد يزيد فى طمأنينة نفسه ، وفرح قلبه ما يراه من عناية ربه تعالى به ، وهو يبعث إليه برسوله ، وينزل عليه وحيه وكلامه . كما أن فى التنجيم للقرآن تيسيراً على الرسول ﷺ فى حفظ الوحى ، وفهمه ومعرفة حكمه وأحكامه ، وما يحصل للرسول ﷺ من هذا التثبيت والتيسير، والشعور بعناية الله مما يثلج الصدر ويفرح القلب يحصل كذلك لأصحابه وأتباعه المؤمنين به .

٢ - ما فى التنجيم من مسايرة الأحداث ومماشاة الحوادث ، إذ قد يطرأ أن يسأل صاحب التنزيل عليه الصلاة والسلام من قبل المشركين عن شىء لم يكن يعلمه ، فينزل القرآن بالجواب عنه نحو سؤالهم عن الجبال والساعة كما فى قوله : ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً** ﴾ (١) وقوله : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى** ﴾ (٢) . أو يسأل من قبل الموحدين كسؤالهم عماذا ينفقون ، وعن اليتامى كما فى قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير** ﴾ (٤) فينزل القرآن بالجواب المطلوب ، وهذا لم يكن ليتحقق لو لم ينزل القرآن منجماً .

٣ - الإعلام الواضح الصريح بأن القرآن كلام الله تعالى وليس فيه من كلام البشر شىء ، وسواء كان الرسول المنزل عليه ، أو كان غيره من سائر البشر ، إذ نزوله منجماً بحسب المقتضيات والأحوال المختلفة يدل دلالة عقلية على أن الرسول ﷺ كان يتلقاه ساعة نزوله عليه وحياً لم يكن به علم قبل تنزله ووصوله إليه .

وأكبر دلالة عن هذا كونه ينزل منجماً فى مدد مختلفة ، ويتم منسقا منظماً محكماً فصيحاً بليغاً معجزاً كأنه أملى وكتب فى جلسة واحدة ، فسبحان الله القائل : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ (٥) .

مسألة فرعية :

ثبت رواية وصح سنداً أن النبى ﷺ كان إذا نزلت عليه الآية أو الآيات يقول :

---

(١) طه : ١٠٥ . (٢) الأعراف : ١٨٧ . (٣) البقرة : ٢١٩ .
(٤) البقرة : ٢٢٠. (٥) النساء : ٨٢ .

« ضعوها فى مكان كذا من سورة كذا » مع أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، فيضعها الكاتب فى المكان الذى حدده الرسول ﷺ له فتكون أكثر التئاماً وانسجاماً وإحكاماً من اللبنات المرصفة من قبل بناء ذى خبرة عليم ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ (١) .

أما أول ما نزل منه على الإطلاق فهو صدر سورة العلق لحديث الشيخين عن عائشة رضى الله عنها وفيه قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ (٢) .

وأما سورة المدثر فتعتبر أول ما نزل من حيث أنها نزلت أول ما نزل بعد أن فتر الوحى ، ثم عاد النزول . أما أن تكون أول ما نزل مطلقاً ، فلا هذا بالنسبة إلى الأولية المطلقة ، أما النسبية فسورة الفاتحة ، والقلم ، وأول المزمل ، وسورة المسد ، فهذه من أوائل ما نزل من القرآن بلا خلاف ، كما أن أول سورة نزلت فيها سجدة هى سورة النجم ، هذا وهناك أوليات فى النزول باعتبار آخر ، وذلك كقول الصحابى أول ما نزل فى مشروعية القتال قوله تعالى : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ (٣) من سورة الحج .

وأول ما نزل فى تحريم الخمر قوله تعالي : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر** ﴾ (٤) ، وأول ما نزل فى محرمات الطعام آية الأنعام : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طعام يطعمه** ﴾ (٥) الآية ، أول ما نزل من سورة التوبة : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا** ﴾ (٦) الآية ، وأول ما نزل من سورة آل عمران : ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ (٧) ، ثم نزلت بقيتها بعد غزوة أحد .

---

(١) هود : ١ .　(٢) العلق : ١ ـ ٥ .　(٣) الحج : ٣٩ .　(٤) البقرة : ٢١٩ .
(٥) الأنعام : ١٤٥ .　(٦) التوبة : ٤١ .　(٧) آل عمران : ١٣٨ .

أما آخر ما نزل من القرآن : فإنه من سورتا المائدة ، والنصر ، لحديث مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما « إن آخر سورة نزلت : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ » وحديث عائشة عند الترمذى والحاكم « آخر سورة نزلت المائدة فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه » الحديث .

ومن الآيات آية البقرة : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله** ﴾ (١) الآية ، فقد روى أنها نزلت قبل وفاة رسول الله ﷺ بتسع ليال ، أما آية المائدة : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ (٢) ، فإنها نزلت فى حجة الوداع ، وبينها وبين وفاة رسول الله ﷺ أكثر من ثمانين يوماً ، ولعل المراد من الإكمال إكمال الشرائع ، والإحكام ، لا إكمال نزول القرآن ، ولذا قيل إنه لم ينزل بعدها حلال ولا حرام .

وهناك عدة آيات ورد عن الصحابة القول بأنها من آخر ما نزل من القرآن كآية الكلالة ، وأول هذا القول بأنها آخر ما نزل من آيات المواريث .

ومما ورد أنه آخر ما نزل آية الربا وآية الدين ، والآيتان من آخر التوبة : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ (٣) ... إلى آخر آية النساء : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾ (٤) ... ويبدو أن هذه الآخرية فى هذه الآيات نسبية وهو الحق .

وأما آخر ما نزل على الإطلاق فهو آية : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ (٥) .

مسألة فرعية :فى بيان كيفية تلقى الرسول ﷺ للقرآن الكريم :

ما من شك فى أن الرسول ﷺ كان قد تلقى القرآن وحياً من ربه عز وجل قال تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ (٨) ، وقال الرسول ﷺ نفسه فى حديث أبى هريرة عند مسلم : « ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله أمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحى الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

---

(١) البقرة : ٢٨١ . (٢) المائدة : ٣ . (٣) التوبة : ١٢٨ . (٤) النساء : ٩٣ .
(٥) البقرة : ٢٨١ . (٦) الشورى : ٥٢ . (٧) النحل : ٢ . (٨) النمل : ٦ .

وقد ذكر تعالى لوحيه إلى أنبيائه طرقا جاء ذكرها فى قوله عز وجل من سورة الشورى : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم** ﴾ (١) .

فالطريقة الأولى : لتلقى كلام الله تعالى هو : الإيحاء وهو إلقاء الكلام الإلهى فى روع المتأهل لذلك من نبى ورسول ، فيفهم عن الله تعالى ما ألقى به إليه من كلامه ، جازماً أنه كلام الله تعالى ووحيه إليه .

والطريقة الثانية : أن يكلم الله تعالى من يشاء من رسله من وراء حجاب فيسمعه كلامه ، ويحجبه عن رؤيته ، كما تم ذلك لموسى عليه السلام فى جبل الطور إذ ناداه ربه هناك وقال : ﴿ **يا موسى إنى أنا الله رب العالمين** ﴾ (٢) ، فقال موسى : يارب : أكلامك أسمع أم كلام رسولك ؟ فقال بل كلامى ، وكما كلم نبينا محمداً ﷺ بالملكوت الأعلى ليلة الإسراء والمعراج ، وفرض عليه الصلوات الخمس وراجعه فى ذلك عدة مرات كما جاء ذلك فى الحديث الصحيح .

والطريقة الثالثة : أن يرسل رسولا من الملائكة فيوحى بإذنه ما يشاء وعلى هذه الطريقة الأخيرة كان نبينا ﷺ يتلقى القرآن وكان الرسول الذى يرسل إليه من الملائكة هو جبريل عليه السلام فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول ، قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .

والملاحظ هنا أنه لما كان من سنة الله تعالى أن التفاهم التام فى الخطاب لا يتم إلا بين متجانسين ، كان لا بد من أن ينخلع أحد الرسولين جبريل أو محمد ﷺ من هيئته ليتجانس مع أخيه فيحصل التفاهم بينهما فى الخطاب ، ففى الحالة التى ينخلع فيها جبريل من هيئته التى خلقه الله تعالى عليها فيتمثل رجلاً لا يجد الرسول ﷺ أية صعوبة أو مشقة ، بخلاف ما إذا لم يتمثل له بشراً فإنه ﷺ يعالج من الشدة لينخلع عن بشريته ما يجعل جبينه يتفصد عرقا كما قالت عائشة ، وكما قال هو ﷺ : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد على فيفصم عنى وقد وعيت » .

---

(١) الشورى : ٥١ .
(٢) القصص : ٣٠ .

المسألة الثالثة : فى أسباب النزول :

إن المراد من أسباب النزول هو ذكر الحوادث (١) التى كانت سببا فى نزول الآيات ، وليس معنى هذا أن القرآن الكريم نزل كله بمقتضيات الحوادث ، بل منه ما نزل ابتداء وهو أكثره ، ومنه ما نزل جوابا لسؤال ، أو بيانا لحكم حادثة من الحوادث وهو القليل ، وكان أول من ألف فى بيان أسباب النزول على بن المدينى شيخ البخارى ، ثم ألف بعده فيه الواحدى ، ثم الجعبرى حيث اختصر كتاب الواحدى ولم يزد عليه شيئاً كما قال السيوطى ، ثم ابن حجر ، ثم السيوطى أخيراً كتابه : « لباب النقول فى أسباب النزول » .

ومما ينبغى أن يعلم فى هذا الشأن أن معرفة أسباب النزول لا تتأتى إلا من طريق الرواية الصحيحة إذ لا مجال فيها للرأى والعقل البتة ، وقد ذكر الواحدى حديثا رفعه تضمن الوعيد عن كذب القرآن بأن يقول نزل في كذا وهو لم ينزل فيه ، ونص الحديث : « اتقوا الحديث إلا ما علمتم فإنه من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

والرواية فى أسباب النزول إن كانت من الصحابى فإن حكمها حكم الرفع ، وإن كانت من التابعى فلا تقبل لعلة الإرسال إلا إذا اعتضدت بشاهد آخر ، وكان الراوى من أهل التفسير مثل مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، وسعيد بن المسيب ، ومسروق وغيرهم من التابعين .

وقد اختلف العلماء فيما إذا قال الصحابى ؛ هذه الآية نزلت فى كذا ولم يذكر سبب النزول لها أي الحادثة المعينة لها هل هو من قبيل المسند ، أو من قبيل التفسير غير المسند ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، والبخارى يجعل هذا من قبيل المسند . والصحيح أن الصحابى إذ لم يذكر سببا وإنما قال : نزلت فى كذا ، إن كلامه محتمل لبيان الحكم ، ولبيان السبب بدون ترجيح .

---

(١) من الحوادث التى اقتضت نزول الآيات . الخصومة التي دبت بين الأوس والخزرج فنزل فيها آية آل عمران : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا** ﴾ ـ الآية ١٠ ـ وقراءة من قرأ وهو ثملان « يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون » فنزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ ـ النساء : ٤٣ . أو كانت رغبة صحابى كالآيات التى وافق بها عمر ربه من ذلك آية ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ ـ البقرة ١٢٥ ـ وآية الحجاب ، وآية ﴿ **عسى ربه** ﴾ التحريم : ٥ . حيث اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة .

فائدة معرفة أسباب النزول :

إنه لا التفات لقول من قال : إنه لا طائل تحت معرفة أسباب النزول بعلة أنها ليست بأكثر من معرفة تاريخ نزول بعض الآيات القرآنية ، فقد ثبت أن لمعرفة أسباب النزول فوائد جمة هى فى غاية الأهمية منها :

١ ـ الوقوف على معنى الآية وإزالة الإشكال عنها ، إذ قال الواحدى لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، إذ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب .

وقال ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن ، ذكر هذا السيوطى فى كتابه الإتقان فى علوم القرآن .

٢ ـ معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم الشرعى وهذا مما يزيد المؤمن إيماناً ، ويجعل غير المؤمن يؤمن لما ينكشف له من علم الله ورحمته وصدق النبى فى رسالته .

٣ ـ أن يكون اللفظ عاما ويقوم دليل على تخصيصه ، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته ، إذ دخول صورة السبب قطعى ، وإخراجها بالاجتهاد ممنوع كما هو مذهب الجمهور ، وذلك كما حدث لأبى حنيفة . وحمدا لله تعالى إذ أخرج الأمة المستفرشة من قول الرسول ﷺ فى الصحيح « الولد للفراش وللعاهر الحجر » أخذا بعموم اللفظ ، ولم يبلغه السبب الذى قال فيه الرسول ﷺ : « الولد للفراش » ، فى حين أن الخبر ورد فى وليدة زمعة ، إذ قال عبد بن زمعة : هو أخى وابن وليدة أبى ، ولد على فراشه ، وقال الرسول ﷺ « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، فأثبت للأمة فراشا ، وأخرجها أبو حنيفة لأنه لم يبلغه السبب .

٤ ـ معرفة من نزلت فيه الآية إن كانت قد نزلت فى شخص ، أو أشخاص ، وتعيين المبهم فيها كتعيين المجادلة وزوجها وهما خولة بنت ثعلبة وأوس بن الصامت رضى الله عنهما ، وأهم هذه الفوائد الأربع الأولى ولكى يتضح أمر أهميتها نذكر الأمثلة الآتية :

أشكل على مروان بن الحكم فهم قوله تعالى : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم** ﴾ [1] ، وقال

---

(١) آل عمران : ١٨٨ .

لئن كان كل امرىء يفرح بما أوتى ويحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون ، حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، ورأوا أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ـ روى هذه القصة الشيخان .

فهم عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب من قوله تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ (١) الآية أن الخمر مباحة ولو علما سبب نزول الآية لما قالا ما قالا ، إذ سبب نزولها : أن أناسا قالوا لما حرمت الخمر : كيف بمن قتلوا فى سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهى رجس ؟ فنزلت الآية . روى هذا أحمد والنسائى وغيرهما ، وذكره السيوطى فى الإتقان .

أشكل على بعضهم معنى الشرط فى قوله تعالى : ﴿ **واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر** ﴾ (٢) ، حتى قال الظاهرية : لا عدة على الآيس إذ لم ترتب فأزال هذا الإشكال سبب نزول الآية ، وهو : أنه لما نزلت آية البقرة فى بيان عدد النساء قالوا : قد بقى عدد من عدد النساء لم يذكر الصغار والكبار ، فنزلت فعلم بذلك حكمهن . أخرجه الحاكم .

ما يفهم بالبداهة من عدم اشتراط استقبال القبلة سفرا أو حضرا وذلك من قوله تعالى : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ (٣) ، وهو خلاف الإجماع ، والذى يزيل هذا اللبس هو معرفة سبب نزول الآية الكريمة ، وهو صلاة المسافر على الراحلة ، والظاهرة أنها نزلت فى جماعة عميت عليهم القبلة فاجتهدوا وصلوا إلى أنحاء مختلفة ، فلما أصبحوا تبين لهم أنهم أخطأوا فى معرفة القبلة ، فأعذرهم الله تعالى .

ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما** ﴾ (٤) الآية ، من أن السعى ليس بركن فى الحج والعمرة ، لكن بمعرفة سبب نزول الآية يبطل هذا الفهم ويزول الإشكال ـ وهو أنه كان فى الجاهلية صنمان أحدهما على الصفا ، والثانى على المروة ، فلما جاء الإسلام تحرج المسلمون من السعى بين الصفا والمروة لذلك ، فأنزل الله تعالى الآية فى رفع الحرج الذى وجدوه فى أنفسهم وأما السعى فهو ركن الحج والعمرة لقول الرسول ﷺ : « اسعوا فإن الله قد كتب عليكم السعى » وكان إذا خرج إلى السعى يقول : « أبدأ بما بدأ الله به ويقرأ الآية » .

---

(١) المائدة : ٩٣ .   (٢) الطلاق : ٤ .   (٣) البقرة : ١١٥ .   (٤) البقرة : ١٥٨ .

ما فهمه الإمام مالك من حصر محرمات الطعام ، فيما ذكر من آية الأنعام ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه** ﴾ (١) الآية .

إذ الآية نزلت فى مناقضة عرض المشركين الذين كانوا على المضادة والمحادة لشرع الله تعالى حيث حرموا ما أحل الله ، وأحلوا ما حرم مكانه ، قال لهم : لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتموه ، فكانت بمثابة من يقول لشخص : لا تأكل اليوم حلاوة ، فيقول : لا آكل اليوم إلا الحلاوة ، والعرض المضادة لا النفى ولا الإثبات على الحقيقة ، فكأن الله تعالى قال لهم : لا حرام إلا ماأحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، ولم يقصد حل ما وراءه ، إذ المقصود إثبات التحريم لا إثبات الحل ، حتى قال إمام الحرمين : هذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لما استجزنا مخالفة مالك فى حصر المحرمات فيما ذكر فى الآية .

مسألة فرعية ـ عموم اللفظ وخصوص السبب :

لقد اختلف فيما إذا عم اللفظ وخص السبب بأيهما يأخذ المجتهد ؟ فذهب الجمهور وهو الحق إلى : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بدليل نزول آيات عديدة فى أسباب خاصة ، وقد عم الشارع ما دلت عليه من أحكام ، من ذلك آية الظهار . فقد نزلت فى أوس بن الصامت وزوجه خولة بنت ثعلبة ، والإجماع على أن الحكم عام فى كل من ظاهر من امرأته ، وأن الكفارة تلزمه متى أراد ـ المسيس ، وكذا آية اللعان ، فقد نزلت فى هلال بن أمية ، أو عويمر العجلانى ، والإجماع على أن من قذف امرأته ولم يكن له شهداء أن يلاعن أو يقام عليه حد القذف ، وكذا حد القذف فإنه نزل فى سبب خاص ، وهو من رمى أم المؤمنين رضى الله عنها ، ومع هذا فالإجماع على حد من قذف محصنا أو محصنة من المؤمنين والمؤمنات ، وكذا حد السرقة نزلت بسبب سرقة امرأة ثابت بن قيس ، وهو حكم عام لا ينكره أحد من المسلمين .

والصحابة إذا قالوا : آية كذا نزلت فى كذا ، لا يعنون أبداً أن حكمها خاص بمن نزلت فيه ، بل هى تتناوله أولا ثم تعم كل من هو بمنزلته ، فآية الكلالة نزلت فى جابر بن عبد الله ، ولكنها عامة فى كل من يورث كلالة من المسلمين ، اللهم إلا إذا كان اللفظ لا عموم فيه ، أى غير دال على العموم فحينئذ يقصر الحكم على من نزلت الآية فيه فقط ولا

---

(١) الأنعام : ١٤٥ .

تتعداه إلى غيره ، وذلك كآية الليل ﴿ **وسيجنبها الأتقى** ﴾ [1] فإنها نزلت فى أبى بكر الصديق وهى خاصة به لا تتناول غيره بحال ، لأن لفظ « الأتقى » لا عموم فيه ، إذ « أل » ليست موصولة فتعم ، وليست داخلة على جمع معرفة له فتعم أيضا ، وإنما هى داخلة على مفرد ، وهى للعهد فخصت بمن نزلت فيه وهو الصديق رضى الله عنه .

١ ـ إذا جاءت روايتان فى نازل واحد من القرآن وذكرت كل من الروايتين شيئا صريحا غير ما تذكره الأخرى نظر فيهما فإما أن تكون إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة ، وهنا تعتمد الصحيحة وتلغى الأخرى ، ومثالها ما روى الشيخان عن جندب قال : اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتته امرأة فقالت : يا محمد : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله : ﴿ **والضحى** ﴾ [2] إلخ ... وروى الطبرانى وابن أبى شيبة عن حفص ابن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول الله ﷺ أن جروا دخل بيت رسول الله ﷺ ، فدخل تحت السرير إلخ . وفيه امتنع الوحى من النزول كذا ليلة فلما أبعد الجرو نزلت ﴿ **والضحى** ﴾ إلخ ... فرواية الصحيحين تقدم على هذه الرواية لعدم صحتها . وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولكن لإحداهما مرجح دون الأخرى ، مثالها رواية البخارى عن ابن مسعود قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب [3] فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم : لو سألتموه ؟ فقالوا حدثنا عن الروح ؟ فقام ساعة ورفع رأسه ، فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحى ، ثم قال : ﴿ **قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ [4] ، مع رواية الترمذى عن ابن عباس : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل ، فقالوا : اسألوه عن الروح ، فسألوه فنزل ﴿ **يسألونك عن الروح** ﴾ [5] الآية . فالخبران صحيحان بيد أن الأول له مرجح دون الثانى وذلك أنه من رواية البخارى وهى تقدم على رواية الترمذى وأن راويها ابن مسعود وقد شاهد الحادثة ، بخلاف ابن عباس فإنه لم يحضر القصة ، فلذا تقدم رواية البخارى وتذكر سببا لنزول الآية ، وتلغى رواية الترمذى ، وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً فيؤخذ بهما معا باعتبار تعدد الأسباب والنازل واحد مثاله قصة كل من عويمر العجلانى ، وهلال بن أمية إذ كلاهما شكا إلى رسول الله ﷺ ماذا يصنع لو

---

(١) الليل : ١٧ . (٢) الضحى : ١ .
(٣) جريدة النخل كشط خوصها ، والجمع عسب . (٤ ، ٥) الإسراء : ٨٥ .

وجد مع امرأته رجلا ؟ فنزلت آية اللعان فى ذلك ، والقصتان صحيحتان ولا مرجح ، والجمع بينهما ممكن وهو أن يكون الزمن الذى أتى فيه السائلان متقاربا جدا فنزل الحكم لهما معا .

وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولا مرجح والجمع غير ممكن لتباعد الزمان فالحكم هنا أن تقول بتكرار النزول لفائدة تعظيم الشىء ، نزل فيه القرآن مرتين ، أو للتذكير به عند حدوث سبب خوف نسيانه ، أو لأن حكم المسألة لا يختلف فتنزل الآية تعليماً بأن الحكم واحد ، وذلك كأن يسألك أحد عن حكم مسألة فتقرأ عليه الآية المتضمنة لحكمها ، ثم يسأل آخر عن نفس القضية فتقرأ عليه نفس الآية .

٢ ـ قد يتعدد النازل والسبب واحد ، وذلك لفائدة الإقناع ، وهداية الخلق وبيان الحق كما قال صاحب مناهل العرفان .

مثاله نزول آية آل عمران لما قالت أم سلمة : يا رسول الله لا أسمع ذكر النساء فى الهجرة بشىء فأنزل الله: ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى** ﴾ (١) إلخ ، رواه الترمذى ، وروى الحاكم أنها قالت : يا رسول الله يذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات** ... ﴾ (٢) إلخ .

فقد تعددت الآيات النازلة فى هذا الشأن مع أن السبب واحد ، وهو سؤال أم المؤمنين عن عدم ذكر النساء مع الرجال فى الهجرة وغيرها من صالح الأعمال .

المسألة الرابعة ـ فى القراء والقراءات :

١ ـ القراء :

القراء جمع قارىء على وزن كاتب كتاب ، وهو اسم فاعل من قرأ يقرأ فهو قارىء ، والمراد به هنا إمام من أئمة القراءات السبع المشهورة والتى يقرأ بها المسلمون من تاريخ وجود أولئك القراء رحمهم الله تعالى إلى يومنا هذا ، وهم سبعة : نافع ، وعاصم ، وحمزة ، وعبد الله بن عامر ، وعبد الله بن كثير ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعلى الكسائى .

وهناك أئمة آخرون دون هؤلاء ، وهم ثلاثة أبو جعفر ، ويعقوب ، وخلف وبهم تكمل القراءات العشر ، ودون أولئك وهؤلاء أربعة قراء آخرون قراءاتهم شاذة ، الحسن البصرى ، وابن محيصن ، ويحيى اليزيدى ، والشنبوذى ، وبهم تكمل القراءات الأربع عشرة .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .
(٢) الأحزاب : ٣٥ .

منها سبع متواترة مشهورة ، ودونها ثلاثة وهى متواترة فى الجملة غير أنها أقل من السبع فى المرتبة ، وأما الأربع الباقية فهى قراءات شاذة لا يقرأ بها ولا يعول عليها .

وهذه نبذة يسيرة من تاريخ أولئك الأئمة القراء رحمهم الله تعالى :

نافع : وهو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى ، أخذ القراءة عن أبى جعفر القارئ ، وعن سبعين من التابعين ممن أخذوا عن عبد الله ابن عباس ، وأبى هريرة عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالمدينة النبوية توفى ١٢٩ هجرية اشتهر بالرواية عنه قالون ، وورش .

فأما « قالون » فهو أبو موسى عيسى بن مينا النحوى ، لقب بقالون لجودة قراءاته ، لأن لفظ قالون معناه : الجيد فى أصل الوضع ، قرأ على نافع واختص به كثيرا توفى سنة ٢٢٠ هجرية . (١)

وأما « **ورش** » وهوعثمان بن سعيد المصرى يكنى أبا سعيد ، ولقب بورش لشدة بياضه ، لأن الورش فى اللغة لفظ يطلق على شىء يصنع من اللبن يضرب به المثل فى البياض ، رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ، ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رئاسة الإقراء بها ، وكان حسن الصوت جيد القراءة توفى سنة ١٩٧ هـ .

عاصم : هو أبو بكر عاصم بن أبى النجود الأسدى ، فقد كان قارئاً متقنا ذا فصاحة ، وحسن صوت بقراءة القرآن ، قرأ على زر بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ ، كما قرأ أيضا على أبى عبد الرحمن بن حبيب السلمى ، معلم الحسن والحسين رضى الله عنهما ، الذى قرأ على على بن أبى طالب الذى أخذ قراءته عن رسول الله ﷺ ، روى عنه شعبة وحفص بدون واسطة ، توفى بالعراق سنة ١٢٧ هـ .

أما « شعبة » وهو مشهور بابن عياش بن سالم الأسدى ويكنى أبا بكر توفى سنة ١٩٣ هـ .

وأما « حفص » فهو أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز ، كان ربيب عاصم

---

(١) قال فيه رواية الشاطبى رحمه الله تعالى :

فأما الكريم السر فى الطيب نافع ... فذاك الذى اختار المدينة منزلا
وقالون عيسى ثم عثمان ورشهم ... بصحبته المجد الرفيع تأثلا

(٢) قال فيه وفى رواية الشاطبى :

وبالكوفة الغراء منهم ثلاثة ... أذاعوا فقد ضاعت شذى وقرنفلا
فأما أبو بكر وعاصم اسمه ... فشعبة راوية المبرز أفضلا
وذاك ابن عياش أبو بكر الرضا ... وحفص وبالإتقان كان مفضلا

تربى فى حجره وقرأ عليه ، فكان بذلك أدق من شعبة ، توفى سنة ١٨٠ هـ [٢] .

حمزة : هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفى ، قرأ على أبى محمد سليمان ابن مهران الأعمشى ، على يحيى بن وثاب ، على زر بن حبيش ، على عثمان وعلى ، وابن مسعود على رسول الله ﷺ ، كان ورعا عالما بكتاب الله تعالى مجوّدا له ، توفى بحلوان سنة ١٥٦ هـ روى عنه خلف وخلاد.

أما « خلف » فهو أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار ، كان زاهداً عابداً توفى سنة ٢٢٩ هـ .

وأما « خلاد » فهو أبو عيسى خلاد بن خالد الأحول الصيرفى ، روى عن سليم بن عيسى ، عن حمزة كان أضبط أصحاب سليم وأجلهم عرفاناً وتحقيقاً ، توفى بالكوفة سنة ٢٢٠ هـ وفيه رواية يقول الشاطبى :

وحمـزة ما أزكاه من متـورع ... إماما صبـوراً للقراءة مرتـلا

روى خلف عنه وخلاد الذى ... رواه سليـم متقناً ومحصـلا

عبد اللّه : بن عامر اليحصبى نسبه إلى يحصب فخذ من حمير ، ويكنى أبا نعيم ، تابعى جليل لقى واثلة بن الأسقع ، والنعمان بن بشير رضى اللّه عنهما ، أخذ القراءة عن المغيرة بن أبى شهاب المخزومى ، عن عثمان بن عفان عن رسول اللّه ﷺ ، توفى بدمشق سنة ١١٨ هـ اشتهر بقراءته هشام وابن ذكوان ولكن بواسطة أصحابه .

أما « هشام » فقد أخذ عن عيراك بن خالد المزى ، عن يحيى بن الحارث الذمارى ، عن ابن عامر ، وكان هشام هذا قاضياً فقيهاً محدثاً ثقة ضابطاً توفى بدمشق سنة ٢٤٥ هـ .

وأما « ابن ذكوان » فهو أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشى الدمشقى أخذ القراءة عن أيوب بن تميم ، عن يحيى بن الحارث الذمارى عن ابن عامر ، قال عنه أبو زرعة : إنه الحافظ الدمشقى ، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان فى زمن ابن ذكوان عندى أقرأ منه توفى سنة ٢٤٢ هـ .

عبد اللّه بن كثير : هو أبو محمد أو أبو معبد عبد اللّه بن كثير الدارى كان إمام الناس فى القراءة بمكة ، تحفه السكينة ويحوطه الوقار لقى من الصحابة عبد اللّه بن الزبير ، وأبا أيوب الأنصارى ، وأنس بن مالك ، روى عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أبى بن كعب عن رسول اللّه ﷺ ، وقرأ على عبد اللّه بن السائب المخزومى ، وقرأ عبد اللّه هذا على أبى

ابن كعب ، وعمر بن الخطاب وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ توفى سنة ١٢٠ هـ وقد اشتهر بالقراءة عنه بواسطة أصحابه ـ البزى وقنبل .

أما البزى : فهو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن نافع بن أبى بزة ، كان إماما ضابطا ثقة انتهت إليه مشيخة الإقراء بمكة ، روى عن عكرمة بن سليمان ، عن شل بن عبادة وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين عن ابن كثير ، كان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه توفى سنة ٢٥٠ هـ .

وأما قنبل : فهو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن محمد المخزومى المكى يكنى أبا عمرو ، ويلقب بقنبل لشدته ، إذ القنبل فى اللغة الغلام الحاد الرأس الخفيف الروح ، كان إماماً فى القراءة ضابطاً ثقة ، يؤمه الناس من أقطار الأرض ، أخذ القراءة عن أبى الحسن أحمد القواص ، عن وهب ، عن القسط بن شبل ، ومعروف كلاهما قرأ على ابن كثير توفى سنة ٢٩١ هجرية .

قال صاحب الشاطبية :

ومكة عبد اللّه فيها مقامه ... هو ابن كثير كاثر القوم معتلاً

روى أحمد البزى له ومحمد ... على سند وهو الملقب قنبلا

أبو عمرو زبان : بن العلاء بن عمار البصرى كان من أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة فى الدين ، روى عن مجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير عن ابن عباس ، عن أبى ابن كعب عن رسول الله ﷺ ، توفى سنة ١٥٤ هـ اشتهر بالقراءة عنه الدورى ، والسوسى ، ولكن بواسطة اليزيدى أبى محمد يحيى بن المبارك العدوى المتوفى سنة ٢٠٢ هجرية .

أما الدورى : فهو أبو عمر حفص بن عمر المقرى الضرير ، لقب بالدورى نسبة إلى الدور موضع من بغداد ، كان ثقة ضابطاً ، أول من جمع القراءات ، روى عن اليزيدى عن أبى عمرو توفى ٢٤٦ هجرية .

وأما السوسى : فهو أبو شعيب صالح بن زياد ، روى عن اليزيدى ، عن أبى عمرو ، وكان ثقة ضابطاً توفى سنة ٢٦١ هـ وفيه وفى صاحبيه يقول الشاطبى :

وأما الإمام المازنى صريحهم ... أبو عمرو البصرى فوالده العلا

أفاض على يحيى اليزيدى بسيبه ... فأصبح بالعذب الفرات معللا

أبو عمرو الدورى وصالحهم أبو ... شعيب هو السوسى عنه تقبلا

الكسائى : وهو أبو الحسن على بن حمزة النحوى ، لقب بالكسائى لأنه كان فى

الإحرام لا بساً كساء ، قال أبو بكر الأنبارى : اجتمعت فى الكسائى أمور كان أعلم الناس بالنحو ، وأوحدهم بالغريب ، وكان أوحد الناس بالقرآن توفى سنة ١٨٩ هجرية اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدورى .

أما « أبو الحارث » فهو الليث بن خالد المروزى ، كان من أجلاء أصحاب الكسائى ثقة وضبطاً توفى سنة ٢٤٢ هـ وأما « الدورى البغدادى » فقد تقدم وفى الكسائى وفى رواية يقول الشاطبى :

وأما على فالكسائى نعته ... لما كان فى الإحرام فيه تسربلا
روى ليثهم عنه أبو الحارث الرضا ... وحفص هو الدورى وفى الذكر قد خلا

وبعد هؤلاء الأئمة السبعة يأتى الثلاثة المتممون للعشرة وهم :

١ ـ **أبو جعفر** : وهو يزيد بن القعقاع القارى نسبة إلى موضع بالمدينة يسمى قارا أخذ عن عبد الله بن عباس ، وأبى هريرة ، عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ توفى سنة ١٣٠ هجرية ، اشتهر بالرواية عنه أبو موسى عيسى بن وردان الحذاء ، وأبو الربيع سليمان بن مسلم ابن جماز .

٢ ـ **يعقوب** : هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمى ، قرأ على أبى المنذر سلام بن سليمان الطويل ، وقرأ سلام على عاصم ، وعلى أبى عمرو توفى سنة ٢٠٥ هـ .

٣ ـ **خلف** : هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف قرأ على سليم غن حمزة كما قرأ عن ثلاثة قراء قرأوا عن عاصم توفى سنة ٢٢٩ هجرية .

وبعد هؤلاء يأتى الأربعة قراء والذين تعتبر قراءاتهم شاذة على الصحيح وهم :

١ ـ **الحسن البصرى** : وهو الحسن بن أبى الحسن يسار أبو سعيد البصرى كان سيداً من سادات التابعين تقوى وورعاً وزهداً توفى سنة ١١٠ هجرية .

٢ ـ **ابن محيص** : وهو محمد بن عبد الرحمن السهمى المكى مقرىء أهل مكة مع ابن كثير توفى سنة ١٢٣ هجرية .

٣ ـ **يحيى اليزيدى** : هو يحيى بن المبارك بن المغيرة الإمام أبو محمد العدوى البصرى المعروف باليزيدى توفى سنة ٢٠٢ هجرية .

٤ ـ **الشبوذى** : هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو الفرج

الشبوذى الشطوى البغدادى توفى سنة ٣٨٨ هـ .

(تنبيه) :

مما ينبغى التنبيه عليه هو أن القراء المذكورين من أصحاب القراءات ـ الأربع عشرة قد سبقوا بقراء من الصحابة والتابعين ممن هم أكثر حفظاً وعلماً وثقة وضبطاً ، وإنما اشتهر هؤلاء الأئمة لتفرغهم لكتاب اللّه تعالى وعنايتهم بحفظه وضبطه وتجويده ، حتى أصبحوا فيه أئمة يرحل إليهم ويأتيهم الناس من أقطار الأرض للأخذ عنهم ، لما عرفوا به من الثقة والإتقان فى الحفظ والضبط ، فاجتمعت الأمة على قراءتهم ورواياتهم وأصبحت قراءات من عداهم شاذة لا يؤخذ بها ولا تقبل من أصحابها ، فكان حالهم أشبه بحال أئمة الفقه من الأئمة الأربعة رحمهم اللّه تعالى ، فكما حفظ اللّه تعالى لأمة الإسلام دينها بالفقهاء حفظ لها كتابها بهؤلاء القراء ، وذلك تدبير اللّه لعباده المؤمنين وفضله عليهم فللّه الحمد والمنة .

ولنذكر على سبيل المثال القراء الحفاظ الأوائل وهم طبقتان :

١ ـ **طبقة الصحابة** : وعلى رأسهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد اللّه بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى ، وكل الذين أرسلهم عثمان بالمصحف الإمام إلى سائر الأقطار الإسلامية لينشروه ويعلموه حتى تجتمع الأمة عليه ، وكذلك كان والحمد للّه رب العالمين .

٢ ـ **طبقة التابعين** : وهم كسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وسالم بن عبد اللّه بن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن يسار وأخوه عطاء بن يسار ، وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب الزهرى ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ومعاذ بن الحارث ، وكل هؤلاء بالمدينة المنورة ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس ، وعكرمة ، وابن أبى مليكه ، وعبيد بن عمير ، وغيرهم وهؤلاء كانوا بمكة المكرمة .

وعامر بن عبد القيس ، وأبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وغيرهم وهؤلاء كانوا بالبصرة .

وعمر بن شرحبيل ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وزر بن حبيش ، وعبيد بن نضلة ، وأبو زرعة بن عمرو ، وسعيد بن جبير ، والنخعى ، والشعبى ، وهؤلاء كانوا بالكوفة .

والمغيرة بن أبى شهاب المخزومى صاحب مصحف عثمان ، وخليد بن سعيد صاحب أبى الدرداء ، وغيرهما وهؤلاء كانوا بالشام .

٢ ـ القراءات :

القراءات : جمع قراءة ، والقراءة مصدر قرأ يقرأ قرآنا وقراءة فهو قارىء والكتاب مقروء ، وهى فى الاصطلاح : علم بكيفيات أداء كلمات القرآن التى تختلف أحياناً بين رواية وأخرى ، وعزو كل صيغة لمن قرأ بها من أئمة القراءات .

والمقرىء : العالم بالقراءات التى رواها مشافهة عن مقرىء آخر ممن رووها بالتسلسل مقرئاً عن مقرىء إلى النبى ﷺ ، وهو يقرئها ويعلمها .

والقارىء : من شرع فى الإفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات .

نشأة علم القراءات :

إن نشاة علم القراءات كانت يوم قال الرسول ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » رواه البخارى ، فمن ثم أخذ الصحابة يتلقون القراءات فكان منهم من يقرأ بحرف واحد ، ومنهم من يقرأ بحرفين ، ومنهم من يقرأ بأكثر ، وعنهم رضى اللّه تعالى عنهم أخذ التابعون القراءات ، وأخذها عنهم تابعوهم ، وعنهم أخذها من بعدهم فامتدت سلسلة القراءات ، متواترة إلى يومنا هذا ، إذ قراءة القرآن الكريم لا تتم لأحد إلا من طريق التلقى المشافه والسماع المباشر ، لا يكفى فيها الكتابة ومجرد القراءة من الكتاب .

وبالتواتر والقراءة المشافهة والتعليم المباشر تلقى أئمة القراءات كتاب اللّه تعالى بحروفه السبعة التى نزل بها ، فأتقنوه حفظاً وضبطاً وورثوه القراء من بعدهم بأوجهه التى نزل عليها وهى سبعة ، كما جاء ذلك فى صحيح الأحاديث ومنها ما أخرجه البخارى عن ابن عباس رضى اللّه عنهما إذ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف » قال ابن شهاب الزهرى بلغنى أن ذلك فى الأمر يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام كما روى الشيخان أيضاً أن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول اللّه ﷺ فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول اللّه ﷺ فكدت أساوره ـ أو أثبه ـ فى الصلاة ، فانتظرته حتى سلم ، ثم لببته بردائه ، فقلت من

أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول اللّه ﷺ ، فقلت له : كذبت ، فواللّه إن رسول اللّه أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرأها ، فانطلقت أقوده إلى رسول اللّه ﷺ ، وقلت : يا رسول اللّه إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتنى سورة الفرقان ، فقال رسول اللّه ﷺ : أرسله يا عمر ، اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه قراءة التى سمعت يقرأها ، قال رسول اللّه ﷺ : هكذا أنزلت ، ثم قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » .

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف :

إن الحكم التى نزل القرآن على سبعة أحرف لأجلها كثيرة نشير إلى بعض منها فنقول :

١ ـ التخفيف على الأمة المسلمة والتيسير والتسهيل عليها ، فإن لهجات العرب المختلفة كان يصعب معها قراءة القرآن على لهجة واحدة لا تختلف ، والأمة أمية فى بداية أمرها بعيدة عن العلم والتعلم ، فرحمة بها أنزل اللّه تعالى كتابه القرآن الكريم على سبعة أحرف ، فيقرأ كل قبلى بما يسهل عليه ويتيسر له من تلك الحروف السبعة ، وهى عبارة عن أوجه القراءات يشهد لهذا الذى قلناه رواية الترمذى وهى رواية صحيحة لا مطعن فيها ، وفيها يقول رسول اللّه ﷺ : « قلت يا جبريل : إنى أرسلت إلى أمة أمية فيهم الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفانى الذى لم يقرأ كتاباً قط قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » . وقد تقدم فى رواية الشيخين ـ أن النبى ﷺ كان يطلب من اللّه تعالى الزيادة من أوجه القراءات واللّه يزيده حتى نزل القرآن على سبعة أحرف وانتهت الزيادة إليها ، وهى كافية شافية والحمد للّه .

٢ ـ جمع الكلمة القرآنية الواحدة بين حكمين شرعيين يحتاج كل منهما إلى جملة من الكلام مستقلة لتدل عليه ولكن بفضل قراءة الكلمة الواحدة على وجهين كانت تدل لكل وجه من القراءتين على حكم خاص ، مثال ذلك آية المائدة : ﴿ **وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ [1] ، فقد قرئت كلمة ﴿ **وأرجلكم** ﴾ بقرائتين النصب والجر ، فدلت قراءة النصب على وجوب غسل الرجلين فى الوضوء ، ودلت قراءة الجر على جواز المسح على الخفين على الشروط التى بينتها السنة فى ذلك ، ومثال آخر آية البقرة ﴿ **حتى يطهرن** ﴾ [2] . فقد قرئت بقراءتين التخفيف

---

(١) المائدة : ٦ .   (٢) البقرة : ٢٢٢ .

والتشديد ، فأفادت كل قراءة حكماً خاصاً ، فقراءة التخفيف أفادت أن الحائض إذا انقطع دم حيضها حل وطؤها لزوجها ، وأفادت قراءة التشديد أن على الحائض الغسل متى انقطع دم حيضها ، وأن الزوج لا يغشاها إلا بعد اغتسالها من حيضها .

٣ ـ بيان الحكم المبهم فى الآية بواسطة حروف من الأحرف التى قرئت بها الآية مثال ذلك آية النساء ﴿ **وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت فلكل منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث** ﴾ (١) الآية ، فإن الأخوة هنا لم يدر هل هم لأم ، أو لأب أو أشقاء ، ولكن قراءة : وله أخ أو أخت لأم ، بزيادة كلمة لأم بينت أن المراد من الأخوة هنا وهو أنهم لأم ، لا لأب ، ولا أشقاء لأم وأب .

ومثال آخر : آية المائدة وهى قوله تعالى فى بيان كفارة اليمين : ﴿ **فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم أو تحرير رقبة** ﴾ (٢) ، فإن قراءة أو تحرير رقبة مؤمنة دلتا على اشتراط الإيمان فى الرقبة ، ولولا هذه القراءة لكان الأمر مبهماً عندنا ولم نعرف ما إذا كان الإيمان مشروطاً فى الرقبة أو غير مشروط ، ولكن بفضل وجهى القراءة فى الآية زال ـ الإبهام ـ وعرفنا اشتراط الإيمان فى الرقبة المطلوبة فى الكفارة ولم نلجأ إلى الاجتهاد فى بيان الحكم .

٤ ـ دفع توهم معنى غير مراد من الآية ومثاله قراءة فامضوا إلى ذكر الله من سورة الجمعة فإن قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع** ﴾ (٣) الآية قرىء بوجهين بلفظ ﴿ **فاسعوا** ﴾ ، وبلفظ ﴿ **فامضوا** ﴾ ، فلولا قراءة فامضوا لتوهمنا أن المطلوب منا هو السرعة فى المشى إلى صلاة الجمعة فى حين أن المطلوب هو المشى بسكينة ووقار ، ولكن بقراءة فامضوا اندفع ذلك التوهم غير المراد من الآية ولهذا كان تنوع القراءات قائماً مقام تعدد الآيات .

مسألة ـ فى بيان المراد من السبعة أحرف :

إن الأنظار قد اختلفت فى بيان معنى كون القرآن قد أنزل على سبعة أحرف ، وأن الآراء والأقوال فى هذه المسألة قد تعددت وتشعبت حتى ذهب بعضهم إلى أن هذا لشبيه بالمتشابه الذى يؤمن به ، ولا يسأل عنه ، ولما لم يكن هناك داع إلى سرد الآراء التى أبديت

---
(١) النساء : ١٢ .   (٢) المائدة : ٨٩ .   (٣) الجمعة : ٩ .

فى هذه المسألة فإنا نكتفى بذكر الرأى الذى رجحه أكثر المحققين ، وهو حقيقة رأى تطمئن النفس إلى صحته وصوابه ، ويحسن القول به والتمسك بمثله وهو أنه اختلاف النطق ببعض الكلمات القرآنية وتعدد أوجه ذلك فيها تخفيفاً على الأمة وتسهيلاً عليها فبأى وجه قرأ المرء أجزأه ذلك ، كما هو زيادة بعض الحروف أو المفردات فى بعض الجمل والتراكيب ، أو نقص ذلك لحكمة من الحكم ، وقد سبقت الإشارة إلى ذكر بعضها ، وهذا بيان ذلك الاختلاف فى النطق ببعض الكلمات أو فى زيادة بعض الحروف والمفردات من بعض التراكيب أو نقصها ، وهى كلها أوجه وقراءات صحيحة .

١ ـ اختلاف فى وجوه الإعراب فى مثل ﴿ **ذو العرش المجيد** ﴾ [١] برفع المجيد على أنه خبر أى وصف لله تعالى ، وبجره على أنه وصف للعرش ، وكلا الإعرابيين صحيح ، والمعنى عليها صحيح ، ومثل هذا كثير فى كتاب الله وهو حرف من الأحرف السبعة لما فيه من التيسير والتسهيل .

٢ ـ اختلاف فى تصريف الأفعال وصيغها نحو ﴿ **ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ [٢] وبعد من سورة سبأ فهما وجهان قرىء بهما هذا الفعل ، وهما صحيحان قراءة ومعنى ، ونحو ﴿ **يعكفون** ﴾ بضم الكاف الذى هو عين الفعل وكسرها ، ونحو ﴿ **تذكرون** ﴾ ، ﴿ **وتتذكرون** ﴾ ، ﴿ **ويعلمون** ﴾ ، ﴿ **وتعلمون** ﴾ فكل هذه أوجه وهى من الحروف السبعة التى نزل بها القرآن تيسيراً وتسهيلاً .

٣ ـ اختلاف فى الأسماء بالإفراد والجمع نحو ﴿ **وتمت كلمات ربك** ﴾ بالجمع ﴿ **وكلمة** ﴾ [٣] بالإفراد ، ونحو ﴿ **ومعصية الرسول** ﴾ [٤] بالإفراد (ومعصيات) بالجمع ، ونحو ﴿ **والذين هم لأمانتهم** ﴾ بالإفراد ﴿ **ولأماناتهم** ﴾ [٥] بالجمع ، ونحو هذا كثير فى القرآن العظيم .

٤ ـ اختلاف بالتقديم والتأخير نحو ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق** ﴾ [٦] ، فقد قرىء وجاءت سكرة الحق بالموت ، بتقديم لفظ الحق على لفظ الموت ، كما قرىء ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ [٧] بتقديم لفظ الفتح على النصر ، وهكذا « إذا جاء فتح الله والنصر » غير أن هذا التقديم والتأخير لم يثبت فى المصحف الإمام لأن رسمه لم

(١) البروج : ١٥ .
(٢) سبأ : ١٩ .
(٣) الأنعام : ١١٥ . الأعراف : ١٣٧ . هود : ١١٩ .
(٤) المجادلة : ٨ ، ٩ .
(٥) المؤمنون : ٨ . المعارج : ٣٢ .
(٦) ق : ١٩ .
(٧) النصر : ١ .

يتحمله ، بخلاف الاختلافات الأخرى فإن الرسم يتحمله فلفظ « كلمة » التى قرئت بالإفراد والجمع قد تكتب التاء فيها مفتوحة فتكون إشارة إلى قراءة الجمع ، ولفظ ﴿ **مالك** ﴾ من سورة الفاتحة قد قرىء مالك بإشباع الميم ، وملك بدونه ، غير أنه ترسم فتحة الميم قائمة إشارة بها إلى قراءة مالك بالإشباع ، وهكذا فى كل ما يوافق المصحف الإمام ، أمَّا ما يخالفه فلا يثبت قراءة متواترة بعد كتابة المصحف العثمانى .

٥ ـ اختلاف بالنقص والزيادة نحو قوله تعالى من سورة الحديد ﴿ **ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ (١) فقد قرىء فإن الله الغنى الحميد بدون الضمير ﴿ **هو** ﴾ ونحو ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ (٢) من سورة التوبة فقد قرىء تجرى تحتها بإسقاط لفظ (من) وهذا الاختلاف بالنقص والزيادة ثابت فى عدة آيات من القرآن الكريم .

٦ ـ اختلاف بالإبدال أى إبدال حرف بدل آخر نحو ننشرها وننشزها قرىء بالراء والزاى ونحو وطلع منضود وطلع منضرد و ﴿ **كالعهن المنفوش** ﴾ (٣) وكالصوف المنفوش بإبدال كلمة بدل أخرى .

٧ ـ اختلاف اللهجات كالترقيق والتفخيم ، والإدغام وعدمه ، والإظهار والإخفاء والإمالة وعدمها فى شتى الكلمات القرآنية مما هو موافق للهجات القبائل القرشية التى نزل القرآن بلسانها .

فهذه الاختلافات الثابتة فى المصاحف العثمانية وكلها قراءات جائزة صحيحة تمثل الأحرف السبعة التى أنزل القرآن عليها تيسيراً وتسهيلاً ، وإن لم تكن كلها فإنها بعضها إذ المصحف الإمام كتب على آخر عرضة عرضها جبريل للقرآن على النبى ﷺ ، فمن الجائز أن تكون بعض الأحرف أى الوجوه التى قرىء بها أولاً ، قد استغنى عنها أخيراً فلم يكتب فى المصحف العثمانى .

أما أن يقال : إن المصحف العثمانى لم يكتب إلا على حرف واحد من الأحرف السبعة كما هو رأى ابن جرير الطبرى فهذا غير معقول مع وجود هذه الأوجه المختلفة من القراءات المتواترة ، نعم إن القراءات السبع ليس معناها أنها الأحرف السبعة . وأقرب دليل على بطلان هذا القول : إن القراءات عشر بل أربع عشرة قراءة .

---

(١) الحديد : ٢٤ .　(٢) التوبة : ٧٢ .　(٣) القارعة : ٥ .

وإنما القول الصحيح هو أن الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن موجودة فى القراءات المتواترة والشاذة مفرقة فيها وإن لم تكن كلها فجلها كما سبق أن ذكرنا . والله أعلم .

المسألة الخامسة ـ فى التفسير والتفاسير والمفسرين وطبقاتهم ـ

١ ـ التفسير :

إن التفسير وإن كان جزءاً من علوم القرآن وهى علوم مختلفة متعددة فإنه هو المقصود بالذات من معظمها ، لأن التفسير هو شرح كلام الله تعالى ليفهم المراد منه ، وهذا الشرح يتوقف على وسائط شتى لا يتم الشرح الكامل المبين للمراد من كلام الله تعالى إلا بها ، وتلك الوسائط من بينها علوم القرآن كمعرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه والمجمل والمبين ، والمطلق والمقيد ، والعام والخاص ، وما إلى ذلك .

ومن غير علوم القرآن مما يتوقف التفسير عليه هو علوم اللغة والصرف والنحو والبلاغة بفنونها الثلاثة ، فهذه كلها وسائط وآلات يتوقف عليها تفسير كلام الله تعالى .

معنى التفسير :

التفسير لغة : التوضيح والبيان مأخود من فسر الشيء يفسره تفسيرا إذا أبانه أو كشف عنه الغطاء فأبانه .

والتفسير بالمعنى الاسمى لا المصدرى أو هو فى الاصطلاح قد اختلف العلماء فى وضع حد له .

فقال الزركشي فى البرهان : التفسير هو : علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على محمد ﷺ وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه .

ويذكر مادة استمداده فيقول : واستمداده من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات .

ويذكر ما يساعد على تحقيقه والإصابة فيه فيقول : ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ .

وقال أبو حيان : صاحب البحر المحيط فى تعريفه : علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب ، وتتمات ذلك .

فأراد بقوله : كيفية النطق بألفاظ القرآن : علم القراءات ، وبقوله : ومدلولاتها : علم اللغة ، وبقـوله : الإفرادية والتركيبية : ما يشمل علم النحـو والصرف والبيان والبديع ، وبقوله : ومعانيها التى تحمل عليها ما يشمل الحقيقة والمجاز ، وبقوله : وتتمات ذلك ما هو كمعرفة الناسخ وأسباب النزول .

وقال بعضهم فى تعريفه : إنه علم يبحث فيه عن أحوال القرآن من حيث دلالته على مراد اللّه تعالى بقدر الطاقة البشرية .

هذه تعريفات ثلاثة نضيف إليها تعريفين لنا فنقول :

إذا كان معنى التفسير فى اللغة التوضيح والتبيين ، فالتفسير للقرآن الكريم هو شرح مفرداته ، وبيان معانيها مفردة ومركبة ليفهمها المؤمنون فتنفعهم فى تكميل إيمانهم وزيادة معارفهم وتحقيق هداهم وتقواهم .

أو هو : علم يبحث فى الكلام الإلهى مفرداً ومركباً لإظهار مراد اللّه تعالى منه فى حدود ما يوفق إليه المفسرون ، من أجل أن يعبد اللّه تعالى فيسعد بذلك العابدون له سبحانه وتعالى .

التأويل والتفسير :

هل التأويل هو التفسير أم بينهما فرق كبير ؟

إن التأويل مصدر أول الشيء يؤوله تأويلاً إذا قدره وفسره .

وفعله المجرد آل يؤول أولاً ومآلا إذا رجع ، وعليه فأول الكلام فسره بما يرجع إليه ويحتمله من المعانى .

ومن هنا يكون التأويل بمعنى التفسير فيرادفه ، وعلى هذا درج ابن جرير فى تفسيره إذ يقول : القول فى تأويل قوله تعالى كذا كذا ...... كما أثر عن مجاهد قوله : إن العلماء يعلمون تأويله أى ما يرجع إليه معنى اللفظ من المعانى المحتملة له .

ويكون بمعنى العاقبة كما فى قوله تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى اللّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ [1] أى عاقبة .

فيفارق التفسير الذى هو شرح اللفظ وبيان معناه .

---

(١) النساء : ٥٩ .

ولهذا قيل : التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية ، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية ، وذلك إن التفسير معناه : الكشف والبيان ، والكشف عن مراد اللّه تعالى لا يجزم به إلا إذا ورد عن رسول اللّه ﷺ ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحى وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع وخالطوا الرسول ﷺ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معانى القرآن الكريم .

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل ، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب ، واستعمالها ، بحسب السياق ، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعانى من كل ذلك .

التأويل بالمعنى الاصطلاحى :

وهناك معنى اصطلاحى للفظ التأويل عند كل من الأصوليين والمتكلمين وهو : صرف اللفظ عن ظاهره لمقتضى ، فإن كان المقتضى صحيحاً كان التأويل مقبولاً ، وإن كان المقتضى فاسداً كان التأويل باطلاً غير مقبول ، والمراد من المقتضى هو الدليل الصارف لمعنى اللفظ الراجح إلى المعنى المرجوح .

التأويل عند شيخ الإسلام ابن تيمية :

ويذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن التأويل بمعنى التفسير هو دلالة الكلام نفسها فما كان من الكلام طلبيا فتأويله نفس الفعل المطلوب وما كان خبرياً فتأويله هو نفس الشىء المخبر به .

آراء فى معنى التأويل :

وأخيراً نختم هذا التحقيق بعرض آراء العلماء فى معنى كل من التفسير والتأويل :

قال أبو عبيدة : التفسير والتأويل بمعنى واحد .

وقال الراغب : التفسير أعم من التأويل ، وأكثر ما يستعمل التفسير فى الألفاظ والتأويل فى المعانى .

وقال البغوى : التأويل صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة .

وقال الماوردى : التفسير القطع بأن المراد من اللفظ كذا ، والتأويل ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع على أن المعنى هو كذا ...

حكم تعلم التفسير

إن الحكم الشرعى فى تعلم تفسير كتاب اللّه تعالى هو الفرض الكفائى الذى لا يسقط إلا بوجود من يقوم به بين المسلمين ، فيتعين على الجماعات المسلمة أن يكون فيها من يعرف ما خاطبها به ربها تبارك وتعالى فى كتابه الكريم من أمور شرعه ووعده ووعيده ، وهذا أمر لا خلاف فيه بين أهل العلم ، إذ شأنه شأن كل العلوم والمعارف التى يتوقف عليها حفظ الأمة وبقاء قوتها وكمالها وسعادتها فى الحياتين ، فإنها فروض كفاية إذا وجد فى الأمة من يحسنها ويعلمها يسقط الواجب عن باقى الأمة .

هذا حكم تعلم تفسير كتاب اللّه تعالى ككل ، أما تفسيره كأجزاء فإن منه ما لا يسع الفرد المؤمن جهله بحال ، كمعرفته تعالى بأسمائه وصفاته ومعرفة توحيده فى عبادته كمعرفة ما أحل اللّه وما حرم من المناكح والمطاعم والمشارب ، وما فرض من العبادات كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ، إذ مثل ذلك معرفته متعينة على كل مسلم ومسلمة ويشهد له ما روى عن ابن عباس رضى اللّه عنهما فى قوله : التفسير أربعة : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العرب بألسنتها ، وتفسير تفسره العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا اللّه .

فقوله : رضى اللّه عنه : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته هو عين ما ذكرناه آنفا من أن بعضاً من تفسير كتاب اللّه لا يسع المؤمن جهله بحال من الأحوال ، لأنه من الفروض العينية التى لا يعذر المؤمن بتركها .

فضل علم التفسير :

إن أشرف العلوم على الإطلاق علم الشرائع الإلهية ، وذلك لما جاءت به من النور والهدى ، والإنسان فى حاجة ماسة فى حياته الدنيا إلى النور يهتدى به ، وإلى هدى يعيش عليه طوال حياته حتى يكمل فى دنياه ويسعد فيها وفى أخراه .

والقرآن الكريم قد حوى من الشرائع الإلهية ما يضمن للمتمسك بها الهداية فى الدنيا والفوز فى الآخرة ، قال ابن عباس رضى اللّه عنه : ضمن اللّه تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ (١)

---

(١) طه : ١٢٣ .

وبما أن العمل بما فى القرآن يتوقف على معرفة ما جاء فيه من عقائد وشرائع وأحكام وآداب ، وهذه المعرفة تتوقف على فهم الكتاب وتفسيره تفسيراً تنكشف به حقائقه ، وتتجلى فيه معانيه ، وتظهر أحكامه وتبين شرائعه فيسهل العمل بما فيه ، فإن طلب تفسير كتاب الله تعالى من أشرف المطالب ، وأسمى الرغائب ، وإن الجد فى ذلك والاجتهاد لمن أفضل القرب ، وأزكى الأعمال ، ولذلك بذل رجال فى حفظ القرآن ومعرفة تفسيره من الأوقات والجهود والطاقات ما لم يبذله غيرهم فيما سواه ، فابن عمر رضى الله عنه قضى نحوا من ثمان سنوات فى حفظ سورة البقرة ، وابن مسعود قال : والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته . ومجاهد بن جبر رحمه الله قال : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أوقفه عند كل آية منه ، يريد يسأله عن معناها وما فيها من هدى .

وما تفاضل العلماء فى شىء تفاضلهم فى فهم كتاب الله تعالى ومعرفة حقائقه واكتشاف أسراره ، قال على رضى الله عنه لما سئل عما خصهم به رسول الله ﷺ من معارف دون غيرهم : إلا ما فى الصحيفة وكان فيها حكم حرم المدينة النبوية ، وحكم العقل فى الديات ، أو فهما يؤتاه الرجل فى كتاب الله ، فقوله رضى الله عنه أو فهما يؤتاه الرجل فى كتاب الله تعالى دال على ما لتفسير كتاب الله تعالى وفهمه من فضل عظيم ، وشرف لأهله كبير ، ومن هنا كان طلب فهم كتاب الله تعالى بتفسيره ومعرفة ما فيه من الهدى والنور من أفضل القرب وأحسن العبادات ، وكان أهله التالون له ، والعالمون به العاملون بما فيه أهل الله وخاصته جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا فى زمرتهم وأحل علينا معهم رضوانه إنه رحيم ودود .

تفاوت الصحابة ومن بعدهم فى فهم كتاب الله تعالى

إن القرآن الكريم وإن كان قد نزل بلسان عربى مبين ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم هم أهل ذلك اللسان المتفوقين فيه بل المختصين به فصاحة وبيانا ، فإنهم رضوان الله تعالى عليهم كانوا متفاوتين فى فهم كتاب الله تعالى متفاضلين فيه غاية التفاضل ، وإذا كان هذا حال أصحاب رسول الله ﷺ وهم الذين عاصروا التنزيل ، وسمعوا من رسول الله ﷺ تفسيره ، وعلموا منه بيانه فكيف بمن أتى بعدهم فإنهم كانوا ولا شك أكثر تفاضلاً فى فهم كتاب الله تعالى ومعرفة معانيه ، وسنجلى هذه الحقيقة أكثر عند الحديث عن طبقات

المفسرين إن شاء اللّه تعالى رب العالمين ومن أمثلة تفاوت الأصحاب رضى اللّه عنهم فى معرفة معانى كلام اللّه تعالى وشواهده ما يلى :

١ ـ لما نزل قول اللّه تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهو مهتدون** ﴾ (١) تحرج الصحابة وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ هلكنا إذا ؟ وأشكل عليهم معنى الآية حتى بين لهم رسول اللّه ﷺ المراد منها ، وهو أن الظلم فيها الشرك لا مجرد ظلم النفس بارتكاب منهى أو ترك بعض الواجب ، وقال لهم ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح لقمان عليه السلام : ﴿ **يا بنى لا تشرك باللّه إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ (٢) .

٢ ـ لما نزل قوله تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ (٣) أخذ عدى بن حاتم عقالين أسود وأبيض وجعل يستيقظ من نومه ينظر فيهما ، ولم يستبن له الفجر بهما فأخبر الرسول ﷺ فبين له المراد منها ، وإنما الفجر الكاذب وما يأتى بعده من ظلام لا يلبث إلا قليلاً حتى ينبلج الفجر الصادق .

٣ ـ قرأ عمر رضى اللّه عنه على المنبر : ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ (٤) ، ثم قال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فلامها قائلاً : إن هذا لهو التكلف يا عمر . كما روى عن أبى بكر مثل هذا حتى قال : فأى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا أنا قلت فى كتاب اللّه برأى ؟ .

٤ ـ أشكل على عائشة رضى اللّه عنها قول اللّه تعالى : ﴿ **فسوف يحاسب حساباً يسيرا** ﴾ (٥) ، بعد أن سمعت الرسول ﷺ قال : « من نوقش الحساب عذب » فسألت الرسول ﷺ فأعلمها قائلاً : « إنما ذلك العرض » أما من نوقش الحساب عذب لا محالة .

والمقصود من هذا أن يعلم أن تفسير كلام اللّه تعالى والقول فيه والبحث عن مراد اللّه تعالى منه أمر عظيم ، فعلى كل من رام ذلك وقصد إليه أن يعد له عدته ويحضر له أسبابه من علم بلغة العرب يشمل مفرداتها وتراكيبها ، وآدابها ، وأساليبها ، وحقائقها ، ومجازاتها ، ومن علم بالشريعة الإسلامية عقائدها ، وأحكامها ، وعبادتها ، وعلم بالسنة رواية ودراية ،

---

(١) الأنعام : ٨٢ . (٢) لقمان : ١٣ . (٣) البقرة : ١٨٧ .
(٤) عبس : ٣١ . (٥) الانشقاق : ٨ .

ومن معرفة أقوال العلماء وأرائهم ومواهبهم ومذهبهم إلى غير ذلك ، مضافاً إليه ما لا يقل عنه أهمية وهو تقوى اللّه تعالى ، وصدق فى طاعته ، مع صحة القصد فيما يقول حتى يلقى بذلك التسديد من اللّه تعالى والعون له على ما يروم ، كما قال تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن اللّه لمع المحسنين** ﴾ (١) .

مصادر التفسير :

إن للتفسير مصادر يؤخذ منها أهمها أربعة هى :

أ ـ القرآن الكريم :

فيفسر القرآن بالقرآن وهذا أصح مصادره وأقلها عناء وأيسرها طلباً ، فالمفسر ينظر فى القرآن فيجمع ما تكرر منه فى موضوع واحد ، ويقابل الآيات بعضها ببعض فيجد ما أجمل فى موضع قد بين فى موضع آخر ، وما أطلق فى مكان قد قيد فى مكان آخر ، فيفسر المجمل بالمبين ، ويحمل المطلق على المقيد إن وجد المصير لذلك ، ويفيد العام بالخاص ، وهذه بعض الأمثلة لذلك .

١ ـ **الإجمال** : إن للإجمال فى القرآن أسباباً منها : الاشتراك فى الاسم ، ومثاله لفظ « العتيق » فإنه مشترك بين القديم ، والمعتق من الجبابرة والكريم غير أن هذا المجمل فى قوله تعالى : ﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ (٢) قد بين بقوله تعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً** ﴾ (٣) فبان أن المراد بالعتيق القديم .

أو الاشتراك فى الفعل كلفظ « عسعس » فإنه فعل مشترك بين أقبل وأدبر غير أن قوله تعالى من سورة المدثر : ﴿ **والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر** ﴾ (٤) بين المراد من عسعس وأنه أدبر ، وليس أقبل .

أو الاشتراك فى الحرف كقوله تعالى : ﴿ **ختم اللّه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** ﴾ (٥) فإن الواو حرف مشترك بين أن تكون للعطف أو ـ الاستئناف غير أن آية الجاثية بينت أنها هنا للاستئناف إذ قال تعالى : ﴿ **وجعل على بصره غشاوة** ﴾ (٦) . وهى جملة مستأنفة فدلت على أن الواو فى آية البقرة للاستئناف لا للعطف على ما قبلها .

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .　(٢) الحج : ٢٩ .　(٣) آل عمران : ٩٦ .
(٤) المدثر : ٣٣ ، ٣٤ .　(٥) البقرة : ٧ .　(٦) الجاثية : ٢٣ .

ومنها الإبهام فى اسم جنس نحو ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات** ﴾ (١) فلفظ كلمات مبهم وهو اسم جنس مجموع فبين هذا الإبهام قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ (٢) .

٢ ـ **فى حمل المطلق على المقيد** : وذلك كاشتراط العدالة فى شهود البيع ، حيث قيد الشهود بالعدالة فى الرجعة والوصية ولم يقيدوا فى البيع ، فوجب حمل هذا المطلق على ذلك المقيد لوجود المقتضى وهو الحاجة إلى المحافظة على حقوق الأفراد .

وكاشتراط الإيمان فى الرقبة حيث أطلقت فى رقبة الظهار ، وقيدت فى رقبة القتل ، فتعين حمل المطلق على المقيد لوجود المقتضى وهو كرامة المؤمن وفضله على الكافر .

٣ ـ **تقييد العام بالخاص** : وذلك كتقييد عموم قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم** ﴾ (٣) ، الآية بحالة المضطر فى مخمصة ، وكتقييد تحريم الدم المسفوح حيث أطلق تحريم الدم فى عدة آيات وقيد بوصف المسفوح فى آية الأنعام وسيأتى تفصيل هذه المسائل عند بحث عام القرآن وخاصه ، ومطلقه ومقيده ومجمله ومبينه إن شاء الله تعالى .

ب ـ السنة :

إن السنة النبوية الصحيحة تعتبر من أهم مصادر تفسير القرآن الكريم وعليها المعول وإليها المرجع فى كل ما خفى من أحكام الشرع التى جاءت فى كتاب الله عز وجل ، إذ أنها الشارحة للقرآن الموضحة له يقول الله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ (٤) ، فمن طلب تفسير حكم من أحكام الله تعالى فى كتابه وأعياه ذلك فعليه بالسنة فإنها الكفيلة بذلك ، وهذا ما فهمه معاذ رضى الله عنه وأقره عليه رسول الله ﷺ حيث قال حين بعثه إلى اليمن : « فبم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى ، قال : فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » قال ابن كثير : هذا الحديث فى المسند والسنن بإسناد جيد .

جـ ـ أقوال الصحابة :

وفى المرتبة الثالثة من مصادر التفسير تأتى أقوال الصحابة فمن لم يجد البيان فى

(١) البقرة : ٣٧ . (٢) الأعراف : ٢٣ . (٣) المائدة : ٣ . (٤) النحل : ٤٤ .

الكتاب أو السنة رجع إلى أقوال الصحابة وأحكامهم وفتاواهم فإنهم ، كما قال ابن كثير : أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها دون غيرهم ممن لم يعاصروا نزول الوحى ولم يواكبوا الدعوة الإسلامية وهى تنمو وتعظم ، والقرآن يمدها بذلك النمو وتلك العظمة لا سيما علماء الصحابة كالخلفاء الراشدين ، وعبد الله بن مسعود الذى قال : والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته. وكعبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان كتابها الذى دعا له الرسول ﷺ بقوله : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل فنالته هذه الدعوة » فكان إمام التفسير بلا منازع ، وقد اعترف بذلك كبار الصحابة وعلماؤهم كعمر ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم أجمعين .

د ـ أقوال التابعين :

إن المراد بالتابعين أولئك العلماء الصالحون الذين لم يشأ الله تعالى أن يفتحوا أعينهم على النور المحمدى ، ولم يكرموا بوجودهم فى عصر التنزيل ، لكونهم ولدوا بعد وفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحى ، غير أنهم فتحوا أعينهم على بقايا النور المحمدى بين أصحابه وأكرموا بالجلوس بين أيديهم والتتلمذ لهم ، والأخذ عنهم ما أصبحوا به قدوة لمن بعدهم وهداة لهم فى طريق الإيمان والعلم والتقوى ، فما ورد عنهم من تفسير لكتاب الله لا يعدل به غيره ، ولا يسوى به سواه مما قاله ورآه من بعدهم من علماء الإسلام وذلك لميزة الشرف الذى أكسبهم الله تعالى إياه بوجودهم فى عصر أصحاب رسول الله ﷺ عصر العلم الصحيح والفهم الصحيح ، إذ كانوا أبر الناس قلوبا ، وأصدقهم حديثا ، وأخلصهم لله عبادة ، وأكثرهم له خشية ، لا سيما كبارهم كمجاهد بن جبر الذى قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها ، ومن هنا قال فيه سفيان الثورى .

إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبى العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة فى رعيل عظيم من علماء التابعين والنابهين أولى الشأن فى فهم الكتاب والسنة رحمهم الله تعالى أجمعين .

فهذه أهم مصادر التفسير وهناك مصادر غيرها بيد أنها غير موثوقة وذلك

كالرواية عن أهل الكتاب قد تذكر كشاهد فقط للاعتبار ، وليس بحجة فى تفسير كلام الله تعالى .

وكأقوال العلماء ممن جاءوا بعد التابعين ، وكدلالة اللسان العربى على معانى القرآن حيث نزل به وعلى طرائقه وأساليبه ، فهذه يستعان بها ولا يعول عليها ، وقد يفتح الله تعالى على صالح عباده فى فهم كتابه ما قد يتفوق به الآخر على الأول واللاحق على السابق ، ولكن هذا لا يعد مصدراً من مصادر التفسير التى يرشد إليها طالب التفسير ليأخذ بها ويتعلم بواسطتها وحسبه ما تقدم ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

ما يحتاج إليه المفسر من العلوم

إن مما لا خلاف فيه بين أهل العلم أن يكون المفسر قد ألم بشتي العلوم وعرف الكثير مما لا بد منه لمعرفة كتاب الله تعالى ، والفهم الصحيح له ، وذلك أن سنن الحياة قاضية بأن كل صنعة يزاولها الإنسان لا بد له فيها من أدوات تمكنه منها ، وتساعده على إخراجها صالحة نافعة .

وعلم التفسير فن جليل من فنون العلم التى لا يدركها طالبها إلا بمعرفة أسبابها ووسائطها ، ومن هنا كان لطلب علم التفسير بالرأى أدوات لا يحل لأحد الخوض فيه إلا بعد إعداد تلك الأدوات وتوفرها مع حذقها بالقدر الذى تتسع له الطاقة البشرية المحدودة ، وتلك الأدوات هى :

١ ـ **علم اللغة العربية** : وذلك بمعرفة معانى مفرداتها بحسب وضعها ومعرفة تراكيبها ، وذوق أساليبها المختلفة ، يشهد لهذا ما روى أن مجاهداً رحمه الله تعالى قال : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغة العرب .

٢ ـ **علم الصرف** : إذ بواسطتة تعرف أبنية الكلمات وصيغ النطق بها ، كما تعرف الجموع ومفرداتها ، فكلمة (وجد) مثلا لا يعرف معناها إلا بمعرفة مصادرها فإن كان المصدرالوجود فهى بمعنى كان والكون ضد العدم ، وإن كان المصدر وجدا بضم فسكون ، فهى بمعنى إصابة الشىء والظفر به ، أو الطول والسعة فى الرزق ، وإن كان الوجد بفتح فسكون فهى بمعنى الحب الشديد ، وإن كان الموجدة فهى بمعنى الغضب ، كما أن كلمة (أم) جمعها أمهات ، وليس (إماما) كما ظن بعضهم

ذلك ففسر قوله تعالى من سورة الإسراء : ﴿ **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم** ﴾ (١) أى بأمهاتهم ، وبرر غلطه الشنيع بأن ذلك كان مراعاة لحق عيسى عليه السلام ولإظهار شرف الحسن والحسين رضى الله عنهما ، كما هو للستر على أولاد الزنى وعدم فضيحتهم .

٣ ـ **علم الاشتقاق** : وهو معرفة الكلمات المشتقة من بعضها ، ومن غير تحريف ليؤمن اللبس ويسلم من الخطأ فى المعنى فكلمة اللباس مثلا مشتقة من اللبس الذى هو الخلط ، إذ الثوب يلابس الجسم أى يخالطه ، وكلمة المسيح مثلا مشتقة من المسح ، فقد لقب عيسى ابن مريم عليه السلام بالمسيح ، لأنه كان يمسح على ذى العاهة فيبرأ بإذن الله تعالى ، وسمى المسيح الدجال مسيحا ، لأن عينه ممسوحة ، أو لأنه يمسح الأرض بطوافه بها كلها فى أقصر وقت .

٤ ـ **علم النحو** : إذ لولا الإعراب لما عرف الفاعل من المفعول فى مثل ﴿ **وورث سليمان داوود** ﴾ (٢) فلم يدر من الوارث من الموروث ، ولا الجانى من المجنى عليه فى مثل قتل اللص صاحب الدار .

٥ ـ **علم القراءات** : وقد تقدم لنا بيان فوائده وحاجة المفسر إليه .

٦ ـ **علم أصول الفقه ، والحديث ، والتوحيد** : لما يرشد إليه الأول من معرفة الخاص والعام ، والمجمل والمبين ، وكيفية استنباط الأحكام من أدلتها الشرعية ، ولما يساعد عليه الثانى من معرفة السنة المبينة للقرآن إذ به يعلم الحديث الصحيح الذى يصلح للاحتجاج والعمل ، والحديث الضعيف الذى لا يصلح للاحتجاج والعمل ، ولما يهدى إليه الثالث من معرفة ما يجب لله تعالى ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز فى حقه سبحانه وتعالى ، وكذا ما يجب للرسل ، وما يستحيل فى حقهم وما يجوز ، وكل هذا يعصم المفسر من الوقوع فى الخطأ فى فهم مراد الله تعالى من كلامه العزيز .

٧ ـ **علم التاريخ** : إذ به يعرف المفسر عن الأمم السابقة أطوارها وأدوارها وأسباب قوتها وضعفها ، وصلاحها وفسادها ، ويعرف أيامها وتاريخ وجودها ، فقد أبطل الله تعالى دعوى اليهود والنصارى فى أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا أبطلها بحجة التاريخ إذ قال تعالى : ﴿ **يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل**

---

(١) الإسراء : ٧١ .   (٢) النمل : ١٦ .

إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ (١) .

٨ ـ **علم النفس والاجتماع البشرى** : إذ بمعرفة أحوال النفس من رغبة ورهبة ، وأمل ويأس ، وضجر وصبر ، وشح وسخاء ، تعرف أوجه الخطاب المختلفة فى كلام الله تعالى وهو يخاطب الإنسان : ﴿ **يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك** ﴾ (٢) ، ﴿ **يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه** ﴾ (٣) ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جذوعا ، وإذا مسه الخير منوعا** ﴾ (٤) ، ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ (٥) وبمعرفة الاجتماع البشرى وما ترتب عليه من التعاون والتنافس ومن الاختلاف والافتراق ، وما يؤدى إليه حب السلطة وتنازع البقاء من ملاحم وحروب ، وما ينجم عن التقليد وحب الذات من حسد وبغضاء ، يعرف المفسر الكثير من أسرار القصص فى القرآن وفوائد الأمثال المضروبة فيه ، كما يسهل عليه معرفة الأحكام المدنية والجنائية وما إلى ذلك مما حواه الكتاب الكريم من خير وهداية .

(تنبيه) :

إن العلوم التى ذكرت ليست ضرورية بالنسبة لمن يفسر القرآن بالمأثور عن الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين ، وإنما هى ضرورية لمن يفسر القرآن بالرأى والعقل ، إذ هو الذى يحتاج إلى تلك العلوم ، وإلا لم يجز له أن يتكلم فى كلام الله تعالى ويقول بمجرد الرأى ، إذ هذا حرام بإجماع علماء الإسلام .

ما يحتاج إليه المفسر من معرفة الأدوات الخاصة :

إن الذى تقدم من العلوم العامة التى يحتاج إليها المفسر كان بمثابة الأدوات العامة ، وما نريد أن نذكره هنا هو بمثابة الأدوات الخاصة ، وهو عبارة عن معرفة معانى كلمات فى اللغة خاصة بعضها حروف وبعضها أسماء وظروف ، وبعضها أفعال لا يستغنى عن معرفتها المفسر بحال من الأحوال وهذا بيانها ، بعد ذكر المقدمة التالية :

---

(١) آل عمران : ٦٥ ـ ٦٧ .. (٢) الانفطار : ٦ ، ٧ . (٣) الانشقاق : ٦ .
(٤) المعارج : ١٩ ـ ٢١ . (٥) فصلت : ٤٦ .

للننظر إلى قوله تعالى : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ (١) فإنه بغض الطرف عما تحمله العبارة من أسلوب التشكيك الذى يجعل الخصم لا يتطرف فى الإنكار ، ولا فى التصامم عن سماع الحق الذى يدعى إليه ، فإن استعمال على فى الهدى ، واستعمال فى فى الضلال وهما حرفا جر ، له دلالته البعيدة وهى أن صاحب الهدى مستحل بالحق الذى هو عليه يصرف النظر ويسرحه كيف شاء لقوته وعلوه ، وصاحب الضلال منغمس فى ظلماته تائه فى مهامه لا يدرى إلى أين يتجه وإلى أين يروح ، وللننظر أيضا إلى قوله تعالى : ﴿ **فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف** ﴾ (٢) . . . الآية .

فقد عطف على الجملة الأولى والثانية بالفاء ، وعطف على الأخيرة بالواو مع أن كلا من الفاء والواو حرف عطف ، بيد أنه لما كان بين الجملتين الأولى والثانية ترتيب طبيعى ، لأن بعث المشترى يكون قبل وصوله إلى السوق قطعا ، والنظر إلى البضاعة وتخير أزكاها مترتبا على بعث أحدهم إلى السوق ، كما أن النظر إلى السلعة متقدم على شرائها ، فشراؤها مترتب قطعا على النظر إليها واختيارها ، فحسن لذلك العطف فى الجملتين الأوليين بالفاء المفيدة للترتيب والتعقيب ، ولما كان التلطف غير مترتب على أية جملة مما تقدم بل هو مطلوب فى كل حال لم تعطف جملته بالفاء فعطفت بالواو ، ومن هنا كانت معرفة معانى الأدوات من أهم المهمات لمن يخوض غمار التفسير .

وهذا بيان مختصر لجملة من تلك الأدوات الخاصة .

أ ـ الهمزة :

إن الهمزة من الأدوات التى يكثر استعمالها ، وأصل وضعها أنها للاستفهام والنداء بيد أنها فى الاستفهام أصلية ، ولذا اختصت بين أدواته الكثيرة بأمور وهى :

١ ـ جواز حذفها مع بقاء عملها نحو : ﴿ **أفترى على الله كذبا أم به جنة** ﴾ (٣) .

٢ ـ أنها ترد لطلب التصور والتصديق معا ، بخلاف هل فإنها لا تكون إلا لطلب التصديق ، وسائر الأدوات تكون للتصورفقط ، فتقول فى طلب التصور بالهمزة : أعلمت أنك مخطىء ، وتقول فى التصديق : ﴿ **الله أذن لكم أم على الله تفترون ؟** ﴾ (٤) إذ التصور إدراك مفرد ، والتصديق إدراك نسبة بين شيئين .

---

(١) سبأ : ٢٤ . (٢) الكهف ١٩ . (٣) سبأ : ٨ . (٤) يونس : ٥٩ .

٣ ـ أنها تدخل على الإثبات نحو ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء** ﴾ (١) وعلى النفى فتفيد التذكير والتنبيه والتحذير نحو ﴿ **أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ؟** ﴾ (٢) وقد تفيد التعجب من الأمر العظيم نحو ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؟** ﴾ (٣) .

٤ ـ أنها لأصالتها فى الاستفهام تقدم على العاطف بخلاف غيرها من أدوات الاستفهام نحو ﴿ **أو لم يروا إلى الطير فوقهم** ﴾ (٤) ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ (٥) ﴿ **أثم إذا ما وقع آمنتم به** ﴾ (٦) فقد تقدمت فى هذه الأمثلة وليس ذلك لغيرها ، نحو ﴿ **فكيف تتقون** ﴾ (٧) ﴿ **فأين تذهبون** ﴾ (٨) ﴿ **فأنى يؤفكون** ﴾ (٩) ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ (١٠) ﴿ **فأى الفريقين أحق بالأمن** ﴾ (١١) ﴿ **وما لكم لا تؤمنون** ﴾ (١٢) .

٥ ـ دخولها على الشرط نحو ﴿ **أئذا متنا ....** ﴾ (١٣) .

٦ ـ لا يستفهم بها إلا بعد أن يهجس فى النفس إثبات مايستفهم عنه بخلاف هل ، نحو : أعندك زيد ؟ .

ب ـ أحد :

من خصائص كلمة (أحد) أنه أكمل من لفظ واحد ، فإنك إن قلت : لا يقوم لفلان واحد ، جاز أن يقوم له اثنان ، أو أكثر بخلاف لو قلت : لا يقوم له أحد فإنه لم يجز أن يقوم له أحد ، ومن خصائص أحد أنك لو قلت : ليس فى الدار واحد جاز أن يكون من الناس والحيوان كالطير والدواب ، بخلاف لو قلت : ما فى الدار أحد فإنه خاص بالآدميين.

ومن خصائصها أيضا أن الغالب فيها أن تكون بعد النفى نحو ﴿ **أيحسب أن لم يره أحد** ﴾ (١٤) ، ﴿ **ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ (١٥) ، وإن كانت فى الإثبات جاز أن تكون بمعنى واحد نحو ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ (١٦) ، بخلاف واحد فإنها تكون بعد النفى

---

(١) النازعات : ٢٧ . (٢) طه : ١٣٣ . (٣) البقرة : ٢٤٣ . (٤) الملك : ١٩ .

(٥) المؤمنون : ١١٥ . (٦) يونس : ٥١ . (٧) المزمل : ١٧ . (٨) التكوير : ٢٦ .

(٩) العنكبوت : ٦١ ، والزخرف : ٨٧ (١٠) الأحقاف : ٣٥ . (١١) الأنعام : ٨١ .

(١٢) الحديد : ٨ . (١٣) المؤمنون : ٨٢ .ومواضع أخرى .

(١٤) البلد : ٧ . (١٥ ، ١٦) الإخلاص : ٤ . ١ .

والإثبات.

ومن خصائصها أيضا أنها تكون للمذكر والمؤنث نحو ﴿ **لستن كأحد من النساء** ﴾ (١) كما تكون للجمع أيضا نحو ﴿ **فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ (٢)، وتجمع على آحاد وآحدين بخلاف واحد فإن مؤنثه واحدة ، ولا جمع له من لفظه بل جمعه ثلاثة.

جـ ـ إذ :

من أحوال (إذ) أنها تكون اسما لما مضى من الزمان في الغالب ، وهي ظرف أو مضافة إلى الظرف نحو ﴿ **فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾ (٣) ، ﴿ **ويومئذ تحدث أخبارها** ﴾ (٤) ، وقد تكون مفعولا به في نحو ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم** ﴾ (٥) ، وتكون بدلا من المفعول به في نحو ﴿ **واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا** ﴾ (٦) بدل اشتمال من مريم ، وقد تكون ظرفا للمستقبل في نحو قوله تعالى : ﴿ **فسوف يعلمون ، إذ الأغلال في أعناقهم** ﴾ (٧) ، فيعلمون مستقبل لفظا ومعنى لدخول سوف الاستقبالية عليه فكانت بمنزلة إذا التي هي لما يستقبل من الزمن .

ومن أحوالها أيضا أنها تكون تعليلية نحو ﴿ **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون** ﴾ (٨) أي لن ينفعكم اشتراككم في العذاب لأجل ظلمكم ، ونحو ﴿ **وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ (٩) أي لأجل أنهم لم يهتدوا به يقولون هذا إفك قديم ، ونحو ﴿**وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا** ﴾ (١٠) أي لأجل اعتزالكم قومكم ومايعبدون من دون الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا .

ومن أحوالها أنها تضاف حتما إلى الجمل الإسمية أو الفعلية غير أن الفعلية لا بد وأن يكون فعلها ماضيا لفظا ، أو معنى على الأقل ، نحو قوله تعالى : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله**

---

(١) الأحزاب : ٣٢ . (٢) الحاقة : ٤٧ . (٣) التوبة : ٤٠ . (٤) الزلزلة : ٤ .
(٥) الأعراف : ٨٦ . (٦) مريم : ١٦ . (٧) غافر : ٧٠ ، ٧١ . (٨) الزخرف : ٣٩ .
(٩) الأحقاف : ١١ . (١٠) الكهف : ١٦ .

معنا ﴾ (١) ، فقد أضيفت فى الجملة الأولى إلى جملة فعلية فعلها ماض ، وأضيفت فى الثانية إلى الإسمية وأضيفت فى الثالثة إلى الفعلية وفعلها مستقبل لفظا لكنه ماض معنى .

د ـ إذا :

لإذا حالات :

الأولى : أنها تكون للمفاجأة وتختص حينئذ بالجمل الإسمية ولا تحتاج إلى جواب ، ولاتقع فى الابتداء ومعناها الحال نحو قوله تعالى : ﴿ **فألقاها فإذا هى حية تسعى** ﴾ (٢) ، ونحو قوله تعالى : ﴿ **فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون** ﴾ (٣) وكونها حرفا أرجح من كونها اسما .

والثانية : أنها ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه ، وهى متضمنة معنى الشرط ، وتختص بالدخول على الجمل الفعلية وتحتاج إلى جواب ، وهو أى الجواب فعل أو جملة اسمية مقرونة بالفاء نحو ﴿ **فإذا جاء أمر الله قضى بالحق** ﴾ (٤) ، ونحو ﴿ **فإذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير** ﴾ (٥) وقد تخرج عن الاستقبال إلى الحال فى نحو ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ (٦) ، ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ (٧) ، كما تكون للماضى فى مثل قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأوا تجارة** ﴾ (٨) الآية ... إذ نزلت الآية بعد وقوع كل ما ذكر فى الآيات قبل ، كما تخرج عن الشرطية فى نحو ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ (٩) ، فهى هنا ظرف فقط ولذا لم تقترن الجملة بعدها بالفاء .

ومن خصائصها أنها تختص بالدخول على المتيقن والمظنون وعلى الكثير بعكس أن الشرطية فإنها تستعمل فى المشكوك والموهوم والنادر من ذلك نحو قوله تعالى : ﴿ **إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم** ﴾ (١٠) إلى قوله تعالى : ﴿ **جنبا فاطهروا** ﴾ (١١) الآية ، فدخلت إذا على الوضوء لكثرته ، ودخلت أن على الغسل لقلته .

هـ ـ آل : ولها أحوال :

الأولى : أن تكون موصولة وذلك فيما إذا دخلت على أسماء الفاعلين والمفعولين نحو المسلمين والمكرمين .

---

(١) التوبة : ٤٠ . (٢) طه : ٢٠ . (٣) العنكبوت : ٦٥ . (٤) غافر : ٧٨ .
(٥) المدثر : ٨ ، ٩ . (٦) الليل : ١ . (٧) النجم : ١ . (٨) الجمعة : ١١ .
(٩) الشورى : ٣٧ . (١٠ ، ١١) المائدة : ٦ .

الثانية : أنها تكون حرف تعريف وهى نوعان :عهدية وجنسية ، والعهد إما ذكرى أو ذهنى أو حضورى ، فالذكرى نحو : ﴿ **كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول** ﴾ (١) ، والذهنى نحو ﴿ **إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه** ﴾ (٢) والحضورى نحو ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ (٣) .

والجنسية إما لاستغراق أفراد الجنس كافة وهى التى تخلفها كل حقيقة أو ادعاء فمثال الأولى ﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفى خسر** ﴾ (٤) ، استثنى منه ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ (٥) . ومثال الثانية ﴿ **آلم ذلك الكتاب** ﴾ (٦) الكامل فى بابه .

وإما لبيان الماهية وهى التى لا تخلفها كل نحو ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾ (٧) إذ لا يصح أن يقال من كل الماء ، وإنما الصحيح أنه من بعضه فقط .

والفرق بين المعرفة للماهية أى الحقيقة وبين اسم الجنس النكرة كما بين المطلق والمقيد ، فالمعرف بها يكون كالمقيد إذ معرفة الحقيقة مقيدة بحضورها فى الذهن ، واسم الجنس النكرة يدل على مطلق الحقيقة لا باعتبار قيد لها .

الثالثة : أنها تكون زائدة زيادة لازمة كالداخلة على الأسماء الموصولة أو غير لازمة كالزائدة على بعض الأعلام نحو العباس ، أو للغلبة كالمدينة والنجم .

و ـ ألا :

ولها معان منها التنبيه وتدخل على الجملة الإسمية والفعلية نحو ﴿ **ألا إن وعد اله حق** ﴾ (٨) ﴿ **ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم** ﴾ (٩) ، ومنها التحضيض وهو الطلب بحث والعرض وهو الطلب برفق ، وتختص بالدخول على الجمل الفعلية نحو ﴿ **ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة** ﴾ (١٠) .

ز ـ إلا :

ولها حالان الأولى : أنها للاستثناء متصلا ومنفصلا نحو فهمت البحث إلا مسألة ونحو ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ (١١) .

---

(١) المزمل : ١٥ ، ١٦ . (٢) التوبة : ٤٠ . (٣) المائدة : ٣ . (٤ ، ٥) العصر : ١ ـ ٣ .
(٦) البقرة : ١ . (٧) الأنبياء : ٣٠ . (٨) يونس : ٥٥ . (٩) هود : ٨ .
(١٠) التوبة : ١٣ . (١١) الانشقاق : ٢٤ ، ٢٥ . (١٢) الأنبياء : ٢٢ .

والثانية : أنها تكون بمعنى غير فيوصف بها ويعرب الاسم بعدها إعراب غير نحو قوله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ (١) أى غير الله إذ لا يصح أن تكون هنا استثنائية (٢) لأن آلهة نكره فى الإثبات فلا عموم ، فلا يصح الاستثناء منه ، ولأنه يغير المعنى حينئذ لو كان فيهما آلهة ليس فيهم الله لفسدتا ، وهو باطل باعتبار مفهومه .

حـ ـ أم :

وهى حرف عطف وتكون متصلة ومنقطعة ، فالمتصلة هى ما كان ما قبلها وما بعدها لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، وهى قسمان :

١ ـ أن تتقدم عليها همزة التسوية نحو : ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ (٣) ونحو ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص** ﴾ (٤) .

٢ ـ أن يتقدم عليها همزة يطلب بها وبأم التعيين فى نحو ﴿ **آلذكرين حرم أم الأنثيين** ﴾ (٥) وتسمى فى هذا النوع بالمعادلة لمعادلتها للهمزة فى إفادة التسوية فى القسم الأول والاستفهام فى القسم الثانى .

ويفترق هذان القسمان من أربعة أوجه :

الأول : أن الواقعة بعد همزة التسوية لا تستحق جوابا لأن المعنى معها ليس على الاستفهام.

والثانى : أن الكلام معها قابل للتصديق والكذب لأنه خبر ، والخبر محتمل للصدق والكذب بخلاف أم التعيينية فإن الاستفهام معها على حقيقة نحو أزيد عندك أم عمر ؟ فلهذا تستحق الجواب بالتعيين .

والثالث : أن الواقعة بعد همزة التسوية لا تقع إلا بين جملتين ، ولا يكون الجملتان معها إلا فى تأويل المفردين ، وتكون الجملتان فعليتين واسميتين ومختلفتين فمثال المختلفتين ﴿ **سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** ﴾ (٦) .

---

(١) الأنبياء : ٢٢

(٢) قال الرازى : ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معها الله لفسدتا ، وهذا يوجب بطريق المفهوم أنه لو كان بهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد ، وذلك باطل لأنه لو كان فيهما ألهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم .

(٣) البقرة : ٦ .
(٤) إبراهيم : ٢١ .

(٥) الأنعام : ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٦) الأعراف : ١٩٣ .

والرابع : أن أم التعيينية تقع بين المفردين وهو الغالب نحو ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء** ﴾ [١] وتقع بين جملتين ليس فى تأويل مفردين نحو أظلمت زيدا أم هو ظلمك ؟ .

أما أم المنقطعة وهى التى لا يفارقها الإضراب غير أنه تارة تكون له مجردا ، وتارة تتضمن مع ذلك استفهاماً إنكاريا بمعنى النفى فمثال الأول نحو ﴿ **آلم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه** ﴾ [٢] ، ومثال الثانى قوله تعالى : ﴿ **أم له البنات ولكم البنون** ﴾ [٣] أى بل أله البنات ولكم البنون إذ مجيئها هنا للإضراب المجرد عن الاستفهام الإنكارى باطل لما فيه إثبات المحال على الله تعالى وأم المنقطعة هذه ثلاثة أقسام :

١ ـ أن تكون مسبوقة بالخبر المحض نحو ﴿ **آلم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه** ﴾ [٤] .

٢ ـ أن تكون مسبوقة بهمزة لغير استفهام نحو ﴿ **ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها** ﴾ [٥] إذ الهمزة هنا للإنكار بمعنى النفى أى ليس لهم ذلك والمتصلة لا تقع بعده همزة الإنكار .

٣ ـ أن تكون مسبوقة باستفهام بغير الهمزة نحو ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور** ﴾ [٦] ، لأن الاستفهام لا يدخل على الاستفهام وهل هنا للاستفهام .

(تنبيهان)

الأول : قد تأتى أم محتملة للاتصال والانقطاع فى نحو ﴿ **قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ [٧] ، إذ يجوز هنا أن تكون معادلة بمعنى أى الأمرين كائن على سبيل التقرير لحصول العلم بكون أحدهما ويجوز أن تكون منقطعة أي بل تقولون على الله مالا تعلمون .

الثانى : قد تأتى أم زائدة كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ **وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ [٨] أى أنا خير ... الخ

---

(٦) النازعات : ٢٧ . (٢) السجدة : ١ ـ ٣ . (٣) الطور : ٣٩ . (٤) السجدة : ١ ـ ٣ .
(٥) الأعراف : ١٩٥ . (٦) الرعد : ١٦ . (٧) البقرة : ٨٠ . (٨) الزخرف : ٥١ ، ٥٢ .

أما المفتوحة الهمزة المشددة الميم فإنها .

حرف شرط وتفصيل وتوكيد .

وكونها للشرط دل عليه وجود الفاء بعدها لازمة نحو ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر** ﴾ [1] ، ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾ [2] وكونها للتفصيل فهو غالب أحوالها نحو أما السفينة فكانت لمساكين ، وأما الغلام ، وأما الجدار .

وكونها للتوكيد فهو مفهوم منها بدليل أن قولنا : زيد ذاهب ليس فيه توكيد ، بخلاف أما زيد فذاهب ، فإن المعنى فيه هو أن زيد ذاهب لا محالة أى مهما يكن من شيء فإن زيدا ذاهب لا محالة .

(تنبيهات)

١ ـ لا بد وأن يفصل بين أما والفاء فاصل سواء كان مبتدأ أو خبرا ، أو جملة شرطية ، أو مفعولا ، أو مجرورا ، فمثال الأول : أما زيد فذاهب . ومثال الثانى : أما فى التفسير فموعظة ، ومثال الثالث : ﴿ **فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان** ﴾ [3] ومثال الرابع : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر** ﴾ [4] ، ومثال الخامس : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ [5] .

٢ ـ ليس (أما) فى قوله تعالى : ﴿ **أماذا كنتم تعملون ؟** ﴾ [6] من نوع أما التى هى أداة شرط وتفصيل وتوكيد ، بل هى مركبة من أم المنقطعة وما الاستفهامية .

٣ ـ قد تحذف الفاء فى جواب أما إذا كان الجواب قولا نحو ﴿ **فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم** ﴾ [7] إذ التقدير فيقال لهم : أكفرتم ، وكذا ﴿ **وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم** ﴾ [8] أى أما الذين كفروا فيقال لهم : ألم تكن آياتى تتلى عليكم فحذف القول المقرون بفاء الجواب .

إما مكسورة الهمزة وتأتى لثلاثة معان :

١ ـ الإبهام فى قوله تعالى : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب**

(١) الضحى : ٩ ، ١٠ . (٢) البقرة : ٢٦ . (٣) الواقعة : ٨٨ ، ٨٩ .
(٤ ، ٥) الضحى : ٩ ، ١١ . (٦) النمل : ٨٤ . (٧) آل عمران : ١٠٦ .
(٨) الجاثية : ٣١ .

عليهم ﴾ (١) .

٢ ـ للتخيير فى قوله تعالى ﴿ **إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا** ﴾ (٢) ونحو ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ (٣) .

٣ ـ وللتفصيل فى ﴿ **إما شاكرا وإما كفورا** ﴾ (٤) .

ملاحظتان :

الأولى : لا خلاف فى أما الأولى أنها غير عاطفة ، وإنما الخلاف فى الثانية فالأكثر على أنها عاطفة ، وأنكره ابن مالك وجماعة وذلك لملازمتها غالبا الواو العاطفة ، وقالوا : إنما ذكرت مع حروف العطف لمصاحبتها لحرف العطف وهو الواو ، فالعطف إذا للواو ، لا لها .

الثانية : ليست فإما فى قوله تعالى : ﴿ **فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً** ﴾ (٥) من إما التى هى للابهام والتخيير والتفصيل بل هى إن الشرطية زيدت عليها ما فكانت إما فلننتبه .

أو : حرف عطف ترد لمعان منها :

١ ـ الشك من المتكلم نحو قوله تعالى : ﴿ **قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ (٦) .

٢ ـ الإبهام على السامع وتشكيكه نحو قوله تعالى : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ (٧) .

٣ ـ التخيير بين المعطوفين إذا امتنع الجمع بينهما نحو تزوج هندا أو أختها . كل السمك أو اشرب اللبن .

٤ ـ الإباحة حيث لا يمتنع الجمع نحو ﴿ **ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت أبائكم** ﴾ (٨) ... الآية ، ونحو جالس العباد أو الزهاد .

٥ ـ التفصيل بعد الإجمال نحو ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا** ﴾ (٩) أى قال بعضهم كذا ، وقال بعضهم كذا .

---

(١) التوبة : ١٠٦. (٢) الكهف : ٨٦ . (٣) محمد : ٤ .
(٤) الإنسان : ٣ . (٥) مريم : ٢٦ . (٦) الكهف : ١٩ .
(٦) سبأ : ٢٤. (٧) النور : ٦١ . (٩) البقرة : ١٣٥ .

٦ ـ الإضراب كـ (بل) وخرج عليه قوله تعالى : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ (١) وقوله : ﴿ **فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ (٢) ، أي بل أدنى .

٧ ـ مطلق الجمع نحو : ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ (٣) .

٨ ـ ومعنى إلا في الاستثناء ومعنى إلى وينصبان المضارع بعدهما بإضمار أن نحو قول الشاعر :

وكنت إذا أغمزت فتاة قوم كسرت كعوبها أو تستقيم

وقوله :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

وفي قراءة أبي : ﴿ **تقاتلوهم أو يسلموا** ﴾ .

• أي بالكسر والسكون حرف جواب بمعنى نعم فتكون لتصديق المخبر وإعلام المستخبر ولوعد الطالب ، ولا تقع إلا بعد استفهام وقبل القسم نحو : ﴿ **ويستنبئونك أحق هو قل أي وربي إنه لحق** ﴾ (٤) .

أي المشددة وتكون لمعان :

الشرط نحو : ﴿ **أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ (٥) .

الاستفهام نحو : ﴿ **أيكم زادته هذه إيمانا ؟** ﴾ (٦) الموصولية نحو : ﴿ **لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا** ﴾ (٧) وصلة إلى نداء ما فيه أل نحو يا ـ أيها الناس ، يأيها النبي .

الباء المفردة .

ترد لمعان أشهرها الإلصاق وهو تعلق أحد المعنيين بالآخر نحو : ﴿ **وامسحوا برؤوسكم** ﴾ (٨) ومن معانيها ما يلي :

١ ـ التعدية كالهمزة نحو : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ (٩) أي أذهبه .

٢ ـ الاستعانة وهي الداخلة على الة الفعل نحو بسم الله ، وكتبت بالقلم .

---

(١) الصافات : ١٤٧ . (٢) النجم : ٩ . (٣) طه : ٤٤ .
(٤) يونس : ٥٣ . (٥) الإسراء : ١١٠ . (٦) التوبة : ١٢٤ .
(٧) مريم : ٦٩ . (٨) المائدة : ٦ . (٩) البقرة : ١٧ .

٣ ـ السببية وهى تدخل على سبب الفعل نحو : ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه** ﴾ [(١)] ، ويعبر عنها بالتعليلية أيضا نحو : ﴿ **ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل** ﴾ [(٢)] .

٤ ـ المصاحبة نحو : « اهبط بسلام» [(٣)] « **قد جاءكم الرسول بالحق** » [(٤)] « **فسبح بحمد ربك** » [(٥)] .

٥ ـ الظرفية زمانا ومكانا نحو : ﴿ **نجيناهم بسحر** ﴾ [(٦)] ، ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر** ﴾ [(٧)] .

٦ ـ الظرفية زمانا ومكانا نحو : ﴿ **نجيناهم بسحر** ﴾ ، ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر** ﴾ وقوله : ﴿ **إلا كما أمنتكم على أخيه** ﴾ [(٨)] .

٧ ـ المجاوزة نحو﴿ **فاسأل به خبيرا** ﴾ [(٩)] أى عنه بدليل يسألون عن أنبائكم ، وهل تختص بالسؤال قيل: لا بدليل ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ [(١٠)] أى وعن أيمانهم ، ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام** ﴾ [(١١)] أى عنه .

٨ ـ التبعيض كمن نحو: ﴿ **عينا يشرب بها عباد الله** ﴾ [(١٢)] أى منها .

٩ ـ الغاية كإلى نحو : ﴿ **وقد أحسن بى** ﴾ [(١٣)] ، أى إلىّ .

١٠ ـ المقابلة وهى الداخلة على الإعواض نحو : ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ [(١٤)] ، لطيفة لم لم يقل هنا أنها للسببية ، كما قال المعتزلة ، لأن المعطى بعوض قد يعطى مجانا وأما المسبب فلا يوجد دون السبب .

١١ ـ التوكيد وهى الزائدة نحو : ﴿ **وكفى بالله** ﴾ [(١٥)] ، ﴿ **وأسمع بهم وأبصر** ﴾ [(١٦)] ، وهل هى فى كفى بالله بمعنى التوكيد والتقوية ،قال ابن هشام : هو من الحسن بمكان .

بل : وهى حرف إضراب إذا تلاها جملة ولها حالان :

الأولى : أن تكون إضرابية أى إبطالية لما قبلها نحو : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا**

---

(١) العنكبوت : ٤٠ . (٢) البقرة : ٥٤ . (٣) هود : ٤٨ . (٤) النساء : ١٧.
(٥) النصر : ٣ . (٦) القمر : ٣٤ . (٧) آل عمران : ١٢٣.
(٨) يوسف : ٦٤. (٩) الفرقان : ٥٩. (١٠) التحريم : ٨.
(١١) الفرقان : ٢٥. (١٢) الإنسان : ٦. (١٣) يوسف : ١٠٠.
(١٤) النحل : ٣٢ . (١٥) النساء : ٤٥ ، ومواضع أخرى . (١٦) مريم : ٣٨ .

سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ (١) ، أى بل هم عباد مكرمون ، فقد أبطل الدعوى الأولى وهى اتخاذ الرحمن ولدا ، وأثبت ما بعد بل وهو أن الملائكة عباد الله تعالى وليسوا بأبناء له تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

والثانية : أن تكون انتقالية أى الانتقال من غرض إلى غرض بدون الغاء الأول وإبطاله نحو : ﴿ **ولدينا كتاب ينطق بالحق وهو لا يظلمون بل قلوبهم فى غمرة من هذا** ﴾ (٢) فما قبل بل هو باق على حاله ولم يبطل ومثل قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾ (٣) ، فإن ما قبل بل هو كما قال تعالى غير أن الكلام انتقل بواسطة بل من موضوع إلى موضوع .

وإذا تلاها مفرد نحو ما جاء زيد بل عمر فهى للعطف ولم يقع مثلها فى القرآن .

بلى حرف يأتى لمعنيين .

١ ـ أن يأتى رداً لنفى يقع قبلها نحو : ﴿ **ما كنا نعمل من سوء بلى إن اللّه عليم بما كنتم تعملون** ﴾ (٤) أى عملتم ، ونحو ﴿ **لايبعث اللّه من يموت بلى** ﴾ (٥) أى يبعثهم ، ونحو قالوا ﴿ **ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ (٦) ثم قال : ﴿ **بلى** ﴾ أى عليكم سبيل .

٢ ـ أن تأتى جواباً لاستفهام دخل على نفى فتفيد إبطاله ، وسواء كان الاستفهام حقيقياً نحو أليس زيد بقائم ؟ فنقول بلى أى هو قائم ـ أو توبيخاً نحو : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى** ﴾ (٧) ﴿ **أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى** ﴾ (٨) أو تقريراً نحو : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ (٩) أى أنت ربنا .

(**لطيفة**) يروى عن ابن عباس أنه لو قال قائل بعد هذا الاستفهام : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ لو قال : نعم كفر ، إذ معناه أنه أقر بأن اللّه تعالى ليس بربهم ، والواقع خلافه إذ هو ربهم ورب كل شىء .

ثم حرف له أحوال منها :

١ ـ التشريك فى الحكم لأنها حرف عطف نحو جاء زيد ثم عمرو ، وقد يتخلف هذا فيها فتكون زائدة كما فى قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت**

---

(١) الأنبياء : ٢٦ . (٢) المؤمنون : ٦٢ ، ٦٣ . (٣) الأعلى : ١٤ ـ ١٦ .
(٤) النحل : ٢٨ . (٥) النحل : ٣٨ . (٦) آل عمران : ٧٥ .
(٧) الزخرف : ٨٠ . (٨) القيامة : ٣ ، ٤ . (٩) الأعراف : ١٧٢ .

وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه ثم تاب عليهم ﴾ (١) ، وقيل : إن الجواب مقدر وهى عاطفة عليه .

٢ ، ٣ ـ الترتيب والمهلة أى التراخى نحو سافر بكر ثم أبوه ، وقيل قد يتخلف هذا فيها كما فى قوله تعالى : ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ (٢) لأن الهداية سابقة على الإيمان والعمل الصالح ، وقيل : هو مؤول بثم دام على الهداية بدليل قوله تعالى : ﴿ **وأمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا** ﴾ (٣) ، أى داموا على الإيمان والتقوى .

٤ ـ تكون للتباين فى الصفات وغيرها من غير قصد مهلة زمانية بل ليعلم موقع ما يعطف بها حاله نحو قوله تعالى : ﴿ **ثم كان من الذين آمنوا** ﴾ (٤) حيث عطف على قوله : ﴿ **فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة** ﴾ (٥) ، مع أن الإيمان مقدم على فك الرقبة والإطعام ، وإنما عطف الإيمان يتم لتراخى الإيمان وتباعده فى المرتبة والفضيلة على العتق والصدقة لا فى الوقت لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره .

٥ ـ قد تأتى للتعجب فى مثل قوله تعالى : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ (٦) بعد قوله ﴿ **الحمد للّه الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور** ﴾ (٧) وقيل : هى هنا لتراخى وبعد ما بين الكفر وخلق السموات والأرض .

٦ ـ تأتى للاستئناف فى نحو قوله تعالى : ﴿ **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون** ﴾ (٨) ، فلذا لم يجزم الفعل بعدها ، لأنه عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الأخبار ابتداء ، كأنه قال : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

٧ ـ قد تأتى بمعنى الواو العاطفة فى مثل : ﴿ **فإلينا مرجعهم ثم اللّه شهيد على ما يفعلون** ﴾ (٩) أى واللّه شهيد .

٨ ـ وقد تأتى زائدة فى مثل قوله تعالى : ﴿ **ثم تاب عليهم** ﴾ (١٠) لأن تاب جواب إذا من قوله : ﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه ثم تاب عليهم** ﴾ (١١) .

---

(١) التوبة : ١١٨ . (٢) طه : ٨٢ . (٣) المائدة : ٩٣ .
(٤) البلد : ١٧ . (٥) البلد : ١٣ ـ ١٦ . (٦ ، ٧) الأنعام : ١
(٨) آل عمران : ١١١ . (٩) يونس : ٤٦ . (١٠ ، ١١) التوبة : ١١٨ .

ظن : الأصل فيها أن تكون للاعتقاد الراجح كقوله تعالى : ﴿ **إن ظنا أن يقيما حدود الله** ﴾(١) ، وقد تستعمل بمعنى اليقين كقوله تعالى : ﴿ **الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم** ﴾(٢) وللفرق بين التى للشك والتى لليقين فى القرآن ضابطان :

١ ـ أنه حيث وجد الظن محموداً مثاباً عليه فهو لليقين ، وحيث وجد مذموماً متوعداً بالعقاب عليه فهو للشك .

٢ ـ أن كل ظن يتصل بعده أن الخفيفة فهو لشك نحو : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول** ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ **إن ظنا أن يقيما حدود الله** ﴾ (٤) .

وكل ظن يتصل به أن المشددة فالمراد به اليقين نحو : ﴿ **إنى ظننت أنى ملاق حسابيه** ﴾ (٥) ﴿ **وظن أنه الفراق** ﴾ (٦) .

والمعنى فيه أن المشددة للتأكيد فدخلت على اليقين ، وأن الخفية بخلافها فدخلت على الشك ، مثال الأول : ﴿ **وعلم أن فيكم ضعفاً** ﴾ (٧) ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ (٨) ، ومثال الثانى : ﴿ **وحسبوا أن لا تكون فتنة** ﴾ (٩) ، والحسبان الشك .

(**تنبيه**) : قد يأتى فعل ظن بمعنى كذب كما فى قوله تعالى : ﴿ **إن هم إلا يظنون** ﴾ (١٠) أى يكذبون .

على : حرف جر لها معان أشهرها الاستعلاء حسا ومعنى : ﴿ **وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ (١١) ، ﴿ **ولهم على ذنب** ﴾ (١٢) وتكون للمصاحبة فى نحو : ﴿ **وآتى المال على حبه** ﴾ (١٣) أى مع حبه ، ونحو: ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾ (١٤) أى مع ظلمهم وتكون بمعنى من نحو : ﴿ **إذا اكتالوا على الناس يستوفون** ﴾(١٥) أى من الناس ، ونحو : ﴿ **إلا على أزواجهم** ﴾ (١٦) أى من أزواجهم لقولهم : احفظ عورتك إلا من زوجتك ، وتكون للتعليل نحو : ﴿ **ولتكبروا الله على ما هداكم** ﴾ (١٧) أى لهدايته إياكم ، وتكون للظرفية نحو : ﴿ **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها** ﴾ (١٩) أى فى حين غفلة ، ونحو :

---

(١) التوبة : ١١٨ . (٢) البقرة : ٢٣٠ . (٣) البقرة : ٤٦ .
(٤) الفتح : ١٢ . (٥) البقرة : ٢٣٠ . (٦) الحاقة : ٢٠ .
(٧) القيامة : ٢٨ . (٨) الأنفال : ٦٦ . (٩) محمد : ١٩ .
(١٠) المائدة : ٧١ . (١١) الجاثية : ٢٤ . (١٢) المؤمنون : ٢٢ .
(١٣) الشعراء : ١٤ . (١٤) البقرة : ١٧٧ . (١٥) الرعد : ٦ .
(١٦) المطففين : ٢ . (١٧) المؤمنون : ٦ . المعارج : ٣٠ . (١٨) البقرة : ١٨٥ .
(١٩) القصص : ١٥ .

﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان** ﴾ (١) أى فى زمن ملكه .

وتكون بمعنى الباء فى نحو **حقيق على أن لا أقول على الله** أى بأن كما فى قراءة أبى .

فائدة :

حيث وردت على فى حق الله تعالى فإن كانت فى جانب الفصل كان معناها الوقوع وتأكيده نحو : ﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ (٢) .

عن : حرف جر أشهر معانيه المجاوزة : نحو : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره** ﴾(٣) أى يجاوزونه ويبعدون عنه ولها معان أخرى منها :

البدل فى نحو : ﴿ **واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً** ﴾ (٤) .

التعليل نحو : ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة** ﴾ (٥) أى لأجل موعدة وتكون بمعنى على فى نحو : ﴿ **فإنما يبخل عن نفسه** ﴾ (٦) ، وبمعنى من فى نحو : ﴿ **يقبل التوبة عن عباده** ﴾ (٧) بدليل فتقبل من أحدهما ، وبمعنى بعد فى نحو : ﴿ **يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾ (٨) بدليل أن فى آية أخرى ﴿ **من بعد مواضعه** ﴾ (٩) .

عند : ظرف مكان تستعمل فى الحضور والقرب حسيين كانا أو معنويين نحو ﴿ **فلما رآه مستقراً عنده** ﴾ (١٠) ، ﴿ **عند سدرة المنتهى** ﴾ (١١) ، ونحو : ﴿ **قال الذى عنده علم من الكتاب** ﴾ (١٢) ، ﴿ **ابن لى عندك بيتاً فى الجنة** ﴾ (١٣) فالعندية هنا دالة على قرب الشرف ورفعة المنزلة .

ولا تستعمل إلا ظرفاً أو مجرورة ، نحو : ﴿ **قال الذى عنده** ﴾ (١٤) وفيمن عندك وتعاقبها لدى ولدن نحو : ﴿ **لدى الحناجر** ﴾ (١٥) ولدى الباب ﴿ **وعلمناه من لدنا علماً** ﴾ (١٦) .

---

(١) البقرة : ١٠٢ . (٢) البقرة : ١٨٥ . (٣) الرعد : ٤٠ .
(٤) النور : ٦٣ . (٥) البقرة : ٤٨ ، ١٢٣ . (٦) التوبة : ١١٤ .
(٧) محمد : ٣٨ . (٨) الشورى : ٢٥ . (٩) النساء : ٤٦ . المائدة ١٣ .
(١٠) المائدة : ٤١ . (١١) النمل : ٤٠ . (١٢) النجم : ١٤ .
(١٣) النمل : ٤٠ . (١٤) التحريم : ١١ . (١٥) النمل : ٤٠ .
(١٦) غافر : ١٨ . (١٧) الكهف : ٦٥ .

الفاء : وترد على أوجه :

الوجه الأول أن تكون عاطفة فتفيد ثلاثة أمور :

أحدهما : الترتيب معنوياً كان نحو : ﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ (١) أو ذكريا ، وهو عطف مفصل مجمل نحو : ﴿ **فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه** ﴾ (٢) ، ونحو : ﴿ **سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا اللّه جهرة** ﴾ (٣) ، ﴿ **ونادى نوح ربه** ﴾ (٤) فقال : ولو قيل فى هذه أنها تفسيرية لكان له وجه ، إذ هو تفصيل بعد إجمال وذلك هو التفسير .

ثانيهما : التعقيب وهو فى كل شىء بحسبه وبذلك ينفصل عن التراخى فى نحو : ﴿ **أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة** ﴾ (٥) ، ﴿ **خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة** ﴾ (٦) .

ثالثها السببية نحو : ﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ (٧) ، ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه** ﴾ (٨) .

الوجه الثانى : أن تكون لمجرد السببية من غير عطف نحو : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك** ﴾ (٩) لأنه لا يعطف الإنشاء على الخبر ، ولا الخبر على الإنشاء فهى هنا لمجرد السببية .

الوجه الثالث : أن تكون رابطة للجواب حيث لا يصلح لأن يكون شرطاً بأن كان جملة إسمية أو فعلية فعلها جامد أو طلبى ـ أمر ـ أو استفهام نحو : ﴿ **إن كنتم تحبون اللّه فاتبعونى** ﴾ (١٠) ، ﴿ **قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ (١١) ، أو ما فى لفظا ومعنى ومقرون بحرف استقبال .

الوجه الرابع : أن تكون للاستئناف فى نحو : ﴿ **كن فيكون** ﴾ (١٢) بالرفع .

فى : حرف جر له معان : أشهرها الظرفية نحو : ﴿ **غلبت الروم ، فى أدنى الأرض** ﴾ (١٣) حقيقة كما فى هذه الآية أو مجازاً فى نحو : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ (١٣) ، ﴿ **لقد كان فى يوسف وأخوته آيات** ﴾ (١٤) .

---

(١٩) القصص : ١٥ . (١) البقرة : ٣٦ . (٢) النساء : ١٥٣ .
(٣) هود : ٤٥ . (٤) الحج : ٦٣ . (٥) المؤمنون : ١٤ .
(٦) القصص : ١٥ . (٧) البقرة : ٣٧ . (٨) الكوثر : ١ ، ٢ .
(٩) آل عمران : ٣١ . (١٠) الملك : ٣٠ . (١١) البقرة : ١١٧ . ومواضع أخرى .
(١٢) الروم : ٢ ، ٣ . (١٣) البقرة ١٧٩ . (١٤) يوسف : ٧ .

وتأتي للمصاحبة نحو : ﴿ **ادخلوا فى أمم** ﴾ (١) أى معهم ، ونحو فى تسع آيات أى معها .

وتأتي للتعليل نحو : ﴿ **فذالكن الذى لمتننى فيه** ﴾ (٢) أى لأجله ، ﴿ **لمسكم فيما أفضتم فيه** ﴾ (٣) أى لأجله .

وتأتي للاستعلاء نحو : ﴿ **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾ (٤) أى عليها .

وتأتي بمعنى الباء نحو : ﴿ **يذرؤكم فيه** ﴾ (٥) أى بسببه ، وبمعنى إلى نحو : ﴿ **فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ (٦) أى إليها وبمعنى من نحو ﴿ **يوم نبعث فى كل أمة شهيداً** ﴾ (٧) أى منهم ، بدليل الآية الأخرى ، وبمعنى عن نحو : ﴿ **فهو فى الآخرة أعمى** ﴾ (٨) أى عنها(٩) .

وتأتي للمقايسة وهى الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق نحو : ﴿ **فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل** ﴾ (١٠) .

قد : وهى حرف مختص بالدخول على الفعل المتصرف الخبرى المثبت المتجرد من ناصب وجازم ومن حرف تنفيس ماضياً كان أو مضارعاً ولها معان منها :

١ ـ التحقيق مع الماضى نحو : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ (١١) ، وتقربه من الحال فقولنا : قام زيد ، محتمل لأن يكون قيامه قريباً من زمن الإخبار أو بعيداً لكن إذا قلنا : لقد قام زيد كان قيامه فى الحال ، أو قريباً منه مثاله قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة .

٢ ـ وجوب دخولها على الماضى الواقع حالاً أما ظاهرة نحو : ﴿ **وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا** ﴾ (١٢) ، أو مقدرة نحو : ﴿ **هذه بضاعتنا ردت إلينا** ﴾ (١٣) أى قد ردت إلينا وقوله : ﴿ **أو جاءوكم حصرت صدورهم** ﴾ (١٤) أى قد حصرت صدورهم .

---

(١) الأعراف : ٣٨ . (٢) يوسف : ٣٢ . (٣) النور : ١٤ .

(٤) طه : ٧١ . (٥) الشورى : ١٠ . (٦) إبراهيم : ٩ .

(٧) النحل : ٨٩ . (٨) الإسراء : ٧٢ .

(٩) هذا غير صحيح بدليل ﴿ **لم حشرتنى أعمى** ﴾ طه : ١٢٥ . إذ لا مانع من أن يحشر الكافر أعمى وهو حق ثابت بالكتاب والسنة .

(١٠) التوبة : ٣٨ . (١١) المؤمنون : ١ . (١٢) البقرة : ٢٤٦ .

(١٣) يوسف : ٦٥ . (١٤) النساء : ٩٠ .

٣ ـ التقليل مع المضارع نحو قد يصدق الكذوب أى لتقليل الفعل الذى دخلت عليه وقد تكون للتأكيد والتحقيق مع المضارع فى مثل قوله تعالى : ﴿ **قد يعلم ما أنتم عليه** ﴾ (١) ، ﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم ...** ﴾ (٢) الآية .

٤ ـ التكثير نحو : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء** ﴾ (٣) أى كثيراً ما نرى تقلب وجهك فى السماء .

٥ ـ التوقيع نحو قد يقدم الغائب ، يقال لمن يتوقع قدومه وعليه خرج قوله تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾ (٤) ، لأن خولة الشاكية كانت متوقعة إجابة ربها تعالى لدعائها .

الكاف : وهى حرف له معان منها :

١ ـ التشبيه وهو أشهرها نحو : ﴿ **وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام** ﴾ (٥) .

٢ ـ التعليل نحو قوله تعالى : ﴿ **واذكروه كما هداكم** ﴾ (٦) أى لأجل هدايته إياكم ونحو : ﴿ **ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ (٧) أى أعجب لعدم فلاحهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **اجعل لنا إلها كما لهم آلهة** ﴾ (٨) . أى لأجل أن لهم ألهة .

٣ ـ التوكيد وهى زائدة وخرج عليه قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾ (٩) ، إذ لو كانت غير زائدة للزم إثبات المثل لله تعالى وهو محال ، والتقدير ليس مثل الله تعالى شىء وإنما أفادت التوكيد وهى زائدة ، لأن نفى مثل المثل نفى للمماثلة بطريق برهانى عجيب . لأنه إذا بطل أن يكون للمثل مثل بطل أن يكون للذات مثل من باب أولى .

٤ ـ ترد اسماً بمعنى مثل فتكون فى محل إعراب ، ويعود عليها الضمير نحو قوله تعالى : ﴿ **كهيئة الطيرفأنفخ فيه** ﴾ (١٠) فالضمير فى فيه عائد على الكاف الاسمية وهى محل نصب لتخلق المتقدمة .

٥ ـ وتكون حرف خطاب فى مثل أسماء الإشارة نحو ذاك وذلك ، وكذا فى الضمائر على الراجح نحو إياك وقيل : هى مضاف إلى لفظ إيا الذى هو ضمير نصب .

---

(١) النور : ٦٤ . (٢) الأحزاب : ١٨ . (٣) البقرة : ١٤٤ .
(٤) المجادلة : ١ . (٥) الرحمن : ٢٤ . (٦) البقرة : ١٩٨ .
(٧) القصص : ٨٢ . (٨) ص : ٥ (٩) الشورى : ١١ .
(١٠) آل عمران : ٤٩ .

كاد : وهى فعل ناقص يكون منه الماضى والمضارع فقط ، واسمه مرفوع وخبره مضارع مجرد من أن ومعناه المقاربة ، فنفيه نفى للمقاربة وإثباته إثبات لها ، نحو كاد يحفظ الدرس أي قارب حفظه ولم يحفظه ، وما كاد يحفظ أى لم يقارب حفظه ، وعليه فقول الكثيرين بأن كاد نفيها إثبات وإثباتها نفى ليس صحيحا .

كان : فعل ماض ناقص ومعناه فى الأصل المضى والانقطاع نحو : ﴿ **كانوا أشد منكم قوة** ﴾ [١] ، وتأتى بمعنى الدوام والاستمرار نحو : ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾[٢] . أى لم يزل كذلك أزلا وأبدا ، وعلى هذا تخرج جميع صفات الله تعالى المقترنة بكان ، ولذا قال الرازى : كان فى القرآن على خمسة أوجه :

الأول : بمعنى الأزل والأبد نحو : ﴿ **وكان الله عليما حكيما** ﴾ [٣] .

الثانى : المضى والانقطاع وهو الأصل نحو : ﴿ **وكان فى المدينة تسعة رهط** ﴾ [٤] .

الثالث : بمعنى الحال نحو : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ [٥] .

الرابع : بمعنى الاستقبال نحو : ﴿ **يخافون يوما كان شره مستطيرا** ﴾ [٦] .

الخامس : بمعنى صار نحو : ﴿ **وكان من الكافرين** ﴾ [٧] .

وتأتى كان بمعنى ينبغى فى نحو : ﴿ **ما كان لكم أن تنبتوا شجرها** ﴾ [٨] ، ﴿ **ما يكون لنا أن نتكلم بهذا** ﴾ [٩] ، وبمعنى حضر أو وجد نحو : ﴿ **وإن كان ذو عسرة** ﴾ [١٠] أى وجد ، ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ [١١] كما ترد زائدة للتأكيد فى نحو : ﴿ **وما علمى بما كانوا يعملون** ﴾ [١٢] ، أى بما يعملون .

كل : اسم موضوع للدلالة على الإحاطة .

بأجزاء المفرد نحو أكلت الرغيف كله ، ﴿ **ولا تبسطها كل البسط** ﴾ [١٣] ، أو لاستغراق أفراد اسم الجنس المضاف هو إليه نحو : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ [١٤] ، ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ [١٥] ، فإن كان للتوكيد لازم الإضافة نحو جاء القوم كلهم ، وأكلت الخبزة كلها ، وإلا فيجوز إضافته وقطعه عنها نحو ﴿ **كل الطعام**

---

(١) التوبة : ٦٩ . الروم : ٩ . (٢) النساء : ٩٦ . ومواضع أخرى . (٣) النساء : ١٧ . ومواضع أخرى .
(٤) النمل : ٤٨ . (٥) آل عمران : ١١٠ . (٦) الإنسان : ٧ .
(٧) البقرة : ٣٤ . (٨) النمل : ٦٠ . (٩) النور : ١٦ .
(١٠) البقرة : ٢٨٠ . (١١) النساء : ٤٠ . (١٢) الشعراء : ١١٢ .
(١٣) الإسراء : ٢٩ . (١٤) آل عمران : ١٨٥ . (١٥) الإسراء : ١٣ .

كان حلاً لبنى إسرائيل ﴾ (١) ، ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ (٢) .

(تنبيه)

إن أضيفت كل إلى نكرة وجب مراعاة معناها ، فلذا جاء الضمير مفردا مذكرا فى قوله تعالى : ﴿ **وكل شىء فعلوه من الزبر** ﴾ (٣) ، وجاء مفردا مؤنثا فى قوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ (٤) .

وإن أضيفت إلى معرفة جاز مراعاة لفظها ومعناها فمثال الأول : ﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ (٥) فروعى هنا لفظ كل ، وكذا قوله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ، فقد روى فيه أيضا لفظ « كل » وهو مفرد مذكر فلذا لم يقل راعون ، ولا مسئولون .

ومثال الثانى : كل الطلاب واقف بالباب ، أو واقفون بالباب ، وإن قطعت عن الإضافة جاز مراعاة لفظها ومراعاة معناها نحو قوله تعالى : ﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾ (٦) ، فروعى هنا لفظها ، وقوله : ﴿ **كل له قانتون** ﴾ (٧) فروعى هنا معناها وعلة هذا أن لفظ كل مفرد ، ومعناها الجمع ، فلذا جاز مراعاة لفظه ومعناه .

مسـألة :

كل : إذا وصلت بما صارت أداة لتكرار الأفعال ، وعمومها قصدى ، وفى الأسماء ضمنى نحو : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها** ﴾ (٨) ، فإذا جردت منها انعكس الحكم وصارت عامة فى الأسماء بالقصد ، وفى الأفعال بالضمن فقط ، ويظهر الفرق بينهما فى قول المرء : كل امرأة أتزوجها فهى طالق ، تطلق كل امرأة يتزوجها ، وتكون عامة فى جميع النساء لدخولها على الإسم وهو قصدى ولو تزوج امرأة ثم تزوجها مرة أخرى لم تطلق فى الثانية ، لعدم عمومها قصدا فى الأسماء ، ولو قال : كلما تزوجت امرأة فهى طالق فتزوج امرأة مرارا طلقت فى كل مرة ، لاقتضائها عموم الأفعال قصدا وهو التزوج .

---

(١) آل عمران : ٩٣ . (٢) يس : ٤٠ . (٣) القمر : ٥٢ .
(٤) آل عمران : ١٨٥ . (٥) مريم : ٩٥ . (٦) الإسراء : ٨٤ .
(٧) البقرة : ١١٦ . الروم : ٢٦ . (٨) النساء : ٥٦ .

لعل : حرف تنصب الاسم وترفع الخبر وله معان منها :

١ ـ التوقع وهو الترجي في المحبوب نحو : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ [١] .

والإشفاق في المكروه نحو : ﴿ **لعل الساعة قريب** ﴾ [٢] .

٢ ـ التعليل نحو : ﴿ **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ [٣] .

٣ ـ الاستفهام في نحو : ﴿ **لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ [٤] ، ﴿ **وما يدريك لعله يزكى** ﴾ [٥] ولذا علق بيدرى .

وحكى البغوى عن الواقدى أن لعل في القرآن كلها للتعليل ، إلا في قوله : ﴿ **لعلكم تخلدون** ﴾ [٦] فإنها للتشبيه ، ولذا قرىء في الشاذ كأنكم تخلدون .

لو : وهى حرف شرط في المضى يصرف المضارع إليه ، عكس أن الشرطية وتختص بالدخول على الفعل ولو تقديرا نحو : ﴿ **قل لو أنتم تملكون** ﴾ [٧] .

وجوابها مضارع منفى بلم أو ماض مثبت أو منفى بما ، والغالب على المثبت دخول اللام عليه نحو : ﴿ **لو نشاء لجعلناه حطاما** ﴾ [٨] ، والغالب على المنفى تجرده منه نحو : ﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه** ﴾ [٩] .

(تنبيه)

قد ترد لو شرطية في المستقبل وهى التى يصح موضعها أن نحو : ﴿ **ولو كره المشركون** ﴾ [١٠] كما ترد للتمنى نحو : ﴿ **لو أن لنا كرة** ﴾ [١١] فيصح وقوع ليت بدلها .

أقسام التفسير

إن واقع التفسير اليوم يجعله عدة أقسام ، وإنه ليجمل بطالب التفسير أن يعلم بما يمكن من هذه الأقسام العدة ، ليكون على بصيرة في فهم كتاب الله تعالى ، وبيانه للناس بلاغا عن رسول الله ﷺ القائل : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » في الصحيح .

وسنذكر بعون الله تعالى هذه الأقسام بإيجاز فنقول :

---

(١) البقرة : ١٨٩ . ومواضع أخرى .　(٢) الشورى : ١٧ .　(٣) طه : ٤٤ .
(٤) الطلاق : ١ .　(٥) عبس : ٣ .　(٦) الشعراء : ١٢٩ .
(٧) الإسراء : ١٠٠ .　(٨) الواقعة : ٦٥.　(٩) الأنعام : ١١٢ .
(١٠) التوبة : ٣٣ ، والصف : ٩ .　(١١) البقرة : ١٦٧ ، الزمر : ٥٨ .

الأول منها التفسير بالمأثور وهو أربعة أنواع :

الأول : تفسير القرآن بالقرآن ، وذلك كأن يذكر الله تعالى فى كتابه لفظا مجملا ويبينه بلفظ آخر مثال ذلك « الهلع » فى قوله تعالى من سورة المعارج : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا** ﴾ [1] فإنه فسره بقوله : ﴿ **إذا مسه الشر جزوعا وإذ مسه الخير منوعا** ﴾ [2] ، « وعسعس » فى قوله من سورة التكوير : ﴿ **والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس** ﴾ [3] فإن لفظ « عسعس » محتمل لإقبال الليل وإدباره ففسره قوله تعالى من سورة المدثر : ﴿ **والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر** ﴾ [4] ، ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه** ﴾ [5] من سورة البقرة فإن الكلمات المبهمة هنا فسرت بقوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ [6] ، ﴿ **أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم** ﴾ [7] ، من سورة المائدة ، فما يتلى علينا مجمل فسر بقوله تعالى من السورة نفسها : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ...** ﴾ [8] الآية .

وهذا النوع من أنواع التفسير بالمأثور هو أصحها وأسلمها ، ولذا قال السلف : خير ما فسر به القرآن القرآن .

الثانى : تفسير القرآن بالسنة ، وهذا النوع مساو فى الصحة والسلامة للنوع الذى تقدمه على شرط أن تكون السنة المفسرة ثابتة عن النبى ﷺ ، صحيحة لا مطعن فيها ، مثال ذلك تفسيره ﷺ الظلم بالشرك فى قول الله تعالى من سورة الأنعام : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ [9] فقد خفى معنى الظلم هنا على الصحابة ، فخافوا أن يكون معنى الظلم هنا عاما يشمل ظلم كل امرىء لنفسه بذنب من الذنوب ، فسألوا الرسول ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه يا رسول الله ؟ فقال لهم ﷺ : إنه الشرك : ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿ **يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [10] من سورة لقمان .

وتفسيره ﷺ المغضوب عليهم باليهود ، والضالين بالنصارى من سورة الفاتحة .

وتفسيره الخيط الأبيض والخيط الأسود من قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **وكلوا**

(١ ، ٢) المعارج : ١٩ ـ ٢٠ . (٣) التكوير : ١٧ ، ١٨ . (٤) المدثر : ٣٣ ، ٣٤ .
(٥) البقرة : ٣٧ . (٦) الأعراف : ٢٣ . (٧) المائدة : ١ .
(٨) المائدة : ٣ . (٩) الأنعام : ٨٢. (١٠) لقمان : ١٣ .

واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ﴾ [1] ، فسره بظلمة الليل وضياء النهار ، وتفسيره ﷺ الحساب اليسير فى قوله تعالى : ﴿ **فسوف يحاسب حسابا يسيرا** ﴾ [2] من سورة الانشقاق فسره بالعرض ، إذ حدث مرة فقال : « من نوقش الحساب عذب » ففهمت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن بين الآية والحديث المذكورين تعارضا فسألت الرسول ﷺ عن ذلك ؟ فقال لها : « إنما ذلك العرض » .

الثالث : تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابه رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، كابن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وغيرهما من كبار الصحابة وعلمائهم كأبى بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، فمتى صحت الرواية عنهم فى تفسير لفظ قرآنى تعين قبوله ، ولا يصح العدول عنه إلى قول غيره من أقوال التابعين ومن أتى بعدهم ، وذلك لأن الصحابة رضى الله عنهم شهدوا نزول القرآن وبيان الرسول ﷺ له بالقول والفعل ، وطبق عليهم كما نزل وأمروا به ، مع سلامة عقائدهم وطهارة أرواحهم وخلوص ألسنتهم من لوثة العجمية لعدم اختلاطهم بالأعاجم من الناس كثيرا ، فلذا كانوا أعرف الناس بكلام الله تعالى بلا منازع .

الرابع : المأثور عن التابعين ، وهم تلامذة ابن عباس ، وابن مسعود ، وعلى ابن أبى طالب ، وأبى بن كعب الأنصارى ممن تلقوا التفسير عن كبار الصحابة وعلمائهم ، وأولئك هم كمجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وطاووس ، والضحاك ، ومسروق ، وقتادة ، والحسن البصرى ومن إليهم .

فالمروى من التفسير عن هؤلاء وأمثالهم من التابعين يقدم ويفضل عن تفسير من أتى بعدهم من علماء الإسلام على اختلاف طبقاتهم ، وتباين شأنهم فى التفسير ، وذلك لأن ما يروى عن التابعين من التفسير غالبه مأثور عن الصحابة أو مرفوع إلى النبى ﷺ ، ومن هنا وجب اعتباره والأخذ به وتقديمه على غيره من تفسير من أتى بعدهم ، وهذا إن صحت الرواية عنهم ، وانتهت بسند صحيح إليهم ، وإلا فلينظر فيه فإن وافق سبيل الله تعالى وسار معها قبل ، وإلاوجب رده والإعراض عنه ونعنى بسبيل الله تعالى هنا أن يكون التفسير للفظ القرآنى موافقا لدلالة اللفظ عليه بلا تكلف ، وأن يكون هاديا إلى ما يهدى إليه القرآن الكريم من توحيد الله تعالى وعبادته بفعل أوامره واجتناب نواهيه وإقامة حدوده ، ومن الإيمان برسوله محمد ﷺ وطاعته وتعزيزه وتوقيره وتعظيمه ومحبته ومحبة آل بيته

(١) البقرة : ١٨٧ . (٢) الانشقاق : ٨ .

وأصحابه ، ومن نصر دينه وأمته وموالاتها ، وموالاة من يواليها ومعاداة من يعاديها ، أما إذا كان التفسير المأثور لا يهدى إلى مثل هذا ، بل يهدى إلى نقيضه فهو باطل مردود لا يقبل وإن صح فيه النقل عن التابعى أو الصحابى ، وحاشا أن يصح من هذا النوع شيء ، لأن الله حافظ هذا الدين وعاصم هذه الأمة من الاجتماع على الخطأ والضلالة .

هذا وإن هذه الأنواع الأربعة من أقسام التفسير وإن تفاضلت فيما بينها فكان أولها أعلاها ، وآخرها أدناها فإنها تندرج كلها تحت قسم واحد وهو التفسير بالمأثور المقابل للتفسير بالرأى أو المعقول .

الثانى من أقسام التفسير :

وهو التفسير بالدراية العلمية ، وحقيقتها : أن يكون المفسر لكتاب الله تعالى ذا علم ودراية واسعة بالشريعة الإسلامية أصولاً وفروعاً ، فيفسر كلام الله تعالى ، لبيانه للناس وهدايتهم به معتمداً فى تفسيره على بيان القرآن نفسه وعلى ما صح من تفسير النبى ﷺ ، وتفسر أصحابه والتابعين لهم ، ثم على دلالة الألفاظ القرآنية على معانيها ، إذ صاحب الدراية العلمية كان قد عرف لغة العرب التى نزل بها القرآن وحفظ مفرداتها وفهم تراكيبها ، وتذوق أساليبها وألم بإشاراتها وكناياتها .

وهو بهذا يكون قد جمع بين التفسير بالرواية والدراية ، فأصبح أقرب إلى فهم كتاب الله تعالى ، وأبعد عن الوقوع فى الخطأ فيه ، وهذا التفسير المحمود صاحبه ، المطلوب وجوده بين المسلمين ، والمعول عليه فى فهم كتاب الله تعالى والعمل به ، والاهتداء بهديه ، وأقرب مثال للتفسير من هذا النوع هو تفسير ابن جرير الطبرى المعروف : بجامع البيان ، وكذا تفسير أبى الفداء ابن كثير رحمهما الله تعالى ورضى عنهما .

القسم الثالث من أقسام التفسير :

التفسير بالرأى وبالمعقول ، وهو تفسير كتاب الله تعالى بغير المنقول والمأثور عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بل هو تفسير باجتهاد المفسر الخاص ، ورأيه الذى تكون له من معارفه السابقة التى من بينها معرفة اللغة العربية بمفرداها وتراكيبها ، وأساليبها البلاغية المختلفة ، والقول الفصل فى هذا : أن المفسر بالرأى إذا كان من أهل المعرفة بشريعة الإسلام أصولاً وفروعاً ، وكان من أهل الإيمان والتقوى ، وكانت معرفته بلغة العرب معرفة واسعة كافية جاز له ذلك ، إذ هو مأمون من أن يضل بكتاب الله فيحرم ما

أحل أو يحلل ما حرم ، أو يلصق به ما ليس منه ، أو يخرج عن دائرة ما يدعو إليه القرآن ويهدى إليه من الإيمان والتقوى ، وإن كان المفسر بالرأى قليل المعرفة بلغة العرب بعيداً عن صادق الإيمان وحقيقة التقوى فإنه يحرم عليه أن يفسر القرآن بمحض رأيه ومجرد عقله ، وذلك لما يقضى به الأمر إلى القول على اللّه تعالى بدون علم وهو من أعظم الذنوب ، وأكبر الخطايا لقول اللّه تعالى : ﴿ **قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير حق ، وأن تشركوا باللّه ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على اللّه ما لا تعلمون** ﴾ (١) ، ولقول الرسول ﷺ : « واتقوا الحديث علىَّ إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » رواه الترمذى وإسناده لا بأس به .

(تنبيه)

قد يستثنى من التفسير بالرأى الممنوع ما كان من جنس التدبر لكتاب اللّه تعالى للعبرة والاتعاظ ، إذ المؤمن مطلوب منه أن يقرأ القرآن ويتدبره قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب** ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ (٣) ، ومن هنا كان لا بأس بالمؤمن ولو قلت معرفته باللغة العربية وبالشريعة الإسلامية أن يقرأ ويتدبر معانيه لما يكسبه ذلك من الخشية ورقة القلب ، وصلاح الخلق والحال .

القسم الرابع : التفسير بالإشارة :

إن هذا القسم من أقسام التفسير هو فى حقيقته تحريف لكلام اللّه تعالى وافتراء على اللّه عز وجل ولذا هو محرم باطل لا تحل قراءته ، ولا يجوز نقله وتداوله إلا لبيان فساده والرد عليه وإنكاره ، وهو ضربان :

الأول : ما كان من تفسير الصوفية ، فإنهم وإن لم يأتوا فيه بباطل من القول وزور غير أنهم قالوا على اللّه تعالى ما لم يقل ، وألزموه بمعنى لم يرده وكفى بهذا إثماً عظيماً وضلالا مبيناً .

وهذا نموذج من تفسيرهم بالإشارة : لما أنهى النيسابورى تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن اللّه يأمركم أن تذبحوا بقرة ...** ﴾ (٤) الآيات قال فى التفسير الإشارى : ذبح البقرة إشارة

---

(١) الأعراف : ٣٣ . (٢) ص : ٢٩ .
(٣) النساء : ٨٢ . محمد : ٢٤ . (٤) البقرة : ٦٧ .

إلى ذبح النفس البهيمية ، فإن فى ذبحها صلة القلوب بالله تعالى وهو الجهاد الأكبر . ما هى ؟ إنها بقرة أى نفس تصلح للذبح بسيف الصدق « لا فارض » فى سن الشيخوخة فيعجز عن وظائف سلوك الطريق لضعف قوته البدنية كما قيل : الصوفى عند الأربعين لا فارض ، « ولا بكر » فى سن شرخ الشباب يستويه شكره .

﴿ **عوان بين ذلك** ﴾ [1] لقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة** ﴾ [2] صفراء إشارة إلى صفرة وجوه أصحاب الرياضات ﴿ **فاقع لونها** ﴾ [3] يريد صفرة زين لا صفرة شين فإنها سيما الصالحين ، ﴿ **لا ذلول تثير الأرض** ﴾ [4] لا تحتمل ذلة الطمع ، ولا تثير بألة الحرث أرض الدنيا لطلب زخارفها ومشتهياتها ﴿ **ولا تسقى الحرث** ﴾ [5] لا تسقى حرث الدنيا بماء الوجه عند الخلق فيذهب بهاؤه عند الحق .

﴿ **مسلمة** ﴾ [6] من آفات صفاتها ، وليس علامته طلب غير الله تعالى .

الثانى : ما كان من تفسير غلاة الباطنية وزنادقه الشيعة وضلالهم ، وهذا نموذج لتفسيرهم لبعض آيات الكتاب الكريم .

﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ [7] أى عائشة رضى الله عنها وأخزاهم ولعنهم .

﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ [8] أى موالاة على رضى الله عنه ، الوضوء عبارة عن موالاة الإمام .

الغسل : تجديد العهد ممن أفشى سراً من أسرارهم من غير قصد .

الصفا : النبى ﷺ ، والمروة على رضى الله عنه .

الجنة : راحة الأبدان من التكاليف ، والنار : مشقة الأبدان بمزاولة التكاليف .

أنهار الجنة : اللبن ، العلم الباطن : الخمر : العلم الظاهر ، العسل : علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة .

هذا والتقويم الصحيح لهذا الهراء الباطل هو أنه ليس بتفسير لكلام الله تعالى ، وإنما هو تحريف له وتبديل وتغيير ، يريد أصحابه من وراءه إفساد ملة الإسلام والقضاء عليه ،

---

(١) البقرة : ٦٨ . (٢) الأحقاف : ١٥ . (٣) البقرة : ٦٩ . (٤) البقرة ٧١ .
(٥ ، ٦) البقرة : ٧١ . (٧) البقرة : ٦٧ . (٨) المائدة : ١ .

لأنهم لم يكونوا أبداً مسلمين ولا مؤمنين ، وإنما هم مجوس حانقون عن الإسلام كائدون له ، لم يفتؤوا متعاونين فى الظاهر والباطن مع أعداء الإسلام من اليهود والنصارى ، فاللهم العنهم واقطع دابرهم وأرح أمة الإسلام منهم ، ومن كيدهم وشرهم ، إنك على كل شىء قدير .

(تنبيهان) :

الأول : إن هناك ما يسمى بالتفسير العلمى والمراد به استنباط العلوم الكونية والآلية الصناعية من آيات القرآن الكريم كالحساب والجبر والطب والهندسة والنجوم والسحر والهيئة والفلك والذرة وما إلى ذلك من العلوم الكونية والمعارف البشرية .

وقد قال بهذا النوع من التفسير بعض علماء الإسلام المتقدمين كالغزالى والسيوطى ، والمتأخرين كصاحب الجواهر ، إذ حشا تفسيره بالعلوم الكونية بصورة لا نظير لها ، وقد أنكر هذا الضرب من التفسير الإمام الشاطبى رحمه اللّه تعالى ، وهومحق لأنه خروج بالقرآن عن القصد الأول منه ، والذى هو الهداية الروحية والعقلية ، والاستقامة على منهاج الحق والخير لإعداد الإنسان للكمال وتهيئته بالإيمان والعلم والتقوى لسعادة الدنيا والآخرة .

الثانى : أن بعض أهل العلم تناول من كتاب اللّه تعالى جانباً خاصاً فأولاه عنايته وخصه بالشرح والتفسير دون سائر ما فى القرآن الكريم من آيات بينات ، ويسمى هذا بالتفسير (الموضوعى) وذلك لتناوله موضوعاً خاصاً كالأحكام ، أو الأمثال ، أو القصص ، أو الجدل ، أو الإعجاز ، أو الناسخ والمنسوخ ، وما إلى ذلك ، ومن أشهر هذه التفاسير الموضوعية أحكام القرآن للجصاص ، وأحكام القرآن لابن العربى ، وأسباب النزول للواحدى ، وإعجاز القرآن لمصطفى صادق الرفاعى .

التفاسير :

بعد بياننا للتفسير بالمعنى الاسمى ، وبياننا لحكمه وفضله ، ومصادره وأقسامه ، وما يحتاج إليه المفسر من العلوم العامة ، وما يحتاج إليه من الأدوات الخاصة ، نذكر الآن جملة من التفاسير بالمعنى المصدرى ، سواء منها ما كان بالمأثور والرواية ، أو ما كان الرأى والدراية ، والقصد من هذا وضع قائمة بأسماء أشهر التفاسير قديماً وحديثاً يذكر فيها إمام كل تفسير اسم صاحبه وتاريخ وجوده وقيمة تفسيره من الناحية العلمية ليرغب فيه ، أو

يرغب عنه ، ليكون طالب التفسير ذا إلمامة بطائفة من التفاسير المتداولة وغيرها ، والعلم بالشيء خير من الجهل به ، وها هى تلك القائمة مرتبة بحسب تاريخ وجود أصحابها الزمانى :

١ ـ **جامع البيان فى تفسير القرآن** : للإمام ابن جرير الطبرى ، المولود سنة ٢٢٤ هـ وهو يقع فى ثلاثين جزءاً ، جمع فيه مؤلفه بين الرواية والدراية ، إذ صنيعه فيه أنه يشرح اللفظ القرآنى شرحاً يبرز معناه فى صورة واضحة جلية فى عبارة مختصرة شافية ـ فى غالب تفسيره ـ ثم يعقب على ذلك يذكر المأثور من أقوال أهل التفسير كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وسعيد بن جبير وغيرهم مستشهداً بالمأثور على صحة ما ذهب إليه فى تفسير الآية التى فسرها ، وهو لسبقه فى الجمع بين الرواية والدراية يعتبر إماما بحق لكل من أتى بعده من المفسرين ، ويعد تفسيره مرجعاً مهماً فى باب التفسير ، لا يستغنى عنه بحال .

ويلاحظ هنا أن الإمام ابن جرير الطبرى رحمه اللّٰه تعالى كان قد تمذهب بمذهب الإمام الشافعى فترة من الزمن ، ثم كون مذهباً خاصاً به اجتهاداً منه فى نصوص الكتاب والسنة فتحرر من التقليد ، فلذا لم يظهر فى تفسيره أى تأثر بأى مذهب من المذاهب الفقهية على خلاف للمفسرين المقلدين .

٢ ـ **بحر العلوم** : لأبى الليث السمرقندى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ وهو من التفسير بالمأثور غير أنه لا يذكر إسناده إلى من يروى عنهم ، ولا يعقب فى الغالب على الروايات التى يوردها عن السلف مستشهداً بها على المعنى القرآنى الذى يقول به على خلاف ما عليه الإمام ابن جرير فى تفسيره ومن مميزات هذا التفسير أن مؤلفه يذكر الإشكالات التى قد ترد على ظاهر اللفظ القرآنى ثم لا يجيب عنها ، كما يعرض للفظ الذى يوهم الاختلاف أو التضاد ويزيل الإبهام ، ولذا فالتفسير قيم نافع وهو يقع فى ثلاثة مجلدات كبار مخطوطة حيث لم يطبع بعد ، خرج أحاديثه زين الدين قاسم بن طلوبغا الحنفى سنة ٨٥٤ هـ .

٣ ـ **الكشف والبيان عن تفسير القرآن** : لأبى إسحق الثعلبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ وهو تفسير كبير الموجود منه أربع مجلدات مخطوطة تنتهى إلى آخر سورة الفرقان ، بمكتبة الأزهر ، وباقيه مفقود ، وقيل يوجد هذا التفسير بمكتبة إسكوريال من أسبانيا .

وهذا التفسير جمع فيه مؤلفه بين النقل والعقل ، يتوسع مؤلفه فى المسائل النحوية والفقهية ويكثر النقول ، ولا يميز بين صحيحها وضعيفها حتى قيل فيه : إنه كحاطب ليل ، قال فيه شيخ الإسلام بن تيمية : والثعلبى هو فى نفسه كان فيه دير ودين ، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد فى كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع ، ومن كلمة شيخ الإسلام هذه تظهر قيمة هذا التفسير الذى قال فيه مؤلفه : إنه جمعه مستخرجاً إياه من زهاء مائة كتاب .

٤ ـ **معالم التنزيل** : لأبى محمد البغوى المحدث الشافعى المتوفى سنة ٥١٠ هـ وهو تفسير مطبوع على هامش تفسير ابن كثير ، وهامش الخازن وهو جامع بين الرواية والدراية ، مهذب لا بدع فيه ، ولا تضليل به ، نقله المؤلف من تفسير الثعلبى كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد سئل عن أى التفاسير أقرب إلى السنة : الزمخشرى أم القرطبى ، أم البغوى أم غير هؤلاء ؟؟ فقال : وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها فأسلمها من البدع والأحاديث الضعيفة البغوى ، لكنه مختصر من تفسير الثعلبى وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التى فيه ، وحذف أشياء غير ذلك ، ومن هذه الكلمة لشيخ الإسلام تظهر قيمة معالم التنزيل للبغوى ، وأنه تفسير نافع صالح للاستفادة منه ، والتعويل على ما جاء فيه فى باب التفسير ، وقال فيه صاحب كتاب التفسير والمفسرون الشيخ محمد حسين الذهبى ، والذى اعتمدنا عليه فى كتابة هذه التراجم قال فيه : وعلى العموم فالكتاب فى الجملة أحسن وأسلم من كثير من كُتب التفسير بالمأثور ، وهو متداول بين أهل العلم .

٥ ـ **المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز** : لأبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى المغربى المتوفى سنة ٥٤٦ هـ .

وهو تفسير جليل جامع بين الرواية والدراية عمدة فى التفسير والحق يقال : يرغب فيه ويعول عليه ، كان هذا التفسير المبارك مخطوطة وقد يسر اللّه تعالى طبعه فى هذه الأيام فطبع وأصبح الحصول عليه سهلاً متيسراً والحمد للّه .

قومه ابن خلدون بقوله فى مقدمته : جاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى ، فنكتفى بكلمة ابن خلدون هذه فى تقويم هذا التفسير الجليل .

٦ ـ **مفاتيح الغيب** : لأبى عبد اللّه التميمى البكرى الطبرستانى الرازى ، والمعروف بالفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

والكتاب موسوعة علمية فى المعقولات ، يقوم على أساس الدراية فقط ولا شىء من الأثر والرواية فيه إلا ما قبل وندر ، فهو من باب التفسير بالرأى والمعقول حتى قال بعضهم : إن تفسير الرازى فيه كل شىء إلا التفسير ، وليس كما قال بل فيه من التفسير الشىء الكثير ، وإنما عيبه أن صاحبه حانق على السلفية ناقم عليها متعصب لمذهب الخلف القائم على أساس تأويل صفات الحق عز وجل وهو مذهب باطل ، وبالجملة : فصاحب هذا التفسير فى باب الصفات يكاد يكون جهمياً خالصاً والعياذ باللّه تعالى ، وإن تعجب فعجب قولهم فى تفسيره ، وقد ألف ابن خزيمة كتاباً سماه كتاب التوحيد وهو كتاب الكفر ... ومن خلال النظر فى هذه الكلمة تظهر قيمة هذا الكتاب ومدى انتفاع المسلم به !!!

٧ ـ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** : للقاضى البيضاوى الفارسى الشافعى المذهب المتوفى سنة ٦٨٥ هـ أخذه مؤلفه من عدة تفاسير كالكشاف للزمخشرى ، ومفاتيح الغيب للرازى وغيرهما ، وكان مؤلفه رحمه اللّه تعالى عالماً ضليعاً فى شتى الفنون وخاصة فى العلوم العربية ، فجاء تفسيره مرجعاً يرجع إليه فى كثير من المسائل العلمية الدقيقة ، ولذا تداوله العلماء وعلقوا عليه وحشوا حتى بلغت حواشيهم ما ينيف على أربعين حاشية من بينها حاشية الشهاب الخفاجى .

وصف هذا التفسير صاحب كشف الظنون فقال : كتاب عظيم الشأن غنى عن البيان لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعانى والبيان ، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام ، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالإشقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات ، وضم إليه ما ورى زناد فكره من الوجوه المقولة فجلا رين الشك عن السريرة ، وزاد فى العلم بسطة وبصيرة .

ومن خلال وصف صاحب كشف الظنون له تظهر قيمة هذا التفسير المعدود من التفسير بالرأى والدراية لا بالمأثور والرواية .

٨ ـ **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** : لأبى البركات النسفى الحنفى المتوفى سنة ٧٠١ هـ وهو تفسير متوسط الحجم يقع فى أربع مجلدات ، أخذه مؤلفه من الكشاف للزمخشرى ، ومن أنوار التنزيل للبيضاوى ، قال صاحب كشف الظنون فى وصفه :

مختصراً من تفسير الكشاف جامعاً لمحاسنه متحاشياً مساوئه ، ومن تفسير البيضاوى حتى أنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريباً منه ويضمنها تفسيره .

وهو من التفسير بالدراية وينتصر صاحبه فى المسائل الفقهية للمذهب الحنفى ويعرض للقراءات السبع ولا يزيد عليها ، وبالجملة : فالكتاب صالح للنظر فيه والاطلاع عليه والأخذ منه عند الحاجة إليه .

٩ ـ **لباب التأويل فى معانى التنزيل** : لعلاء الدين الخازن المتوفى بحلب سنة ٧٤١ هـ وقع هذا التفسير فى سبع مجلدات ، أخذه مؤلفه من البغوى ومن عدة تفاسير ، سمته أنه يكثر من الإسرائيليات ، وغرائب الأخبار ، ونفائس الآثار ، وفيه من شتى العلوم والحق يقال ، وهو تفسير نافع وخاصة فى باب الوعظ والإرشاد جمع بين الدراية والرواية غير أنه إلى الدراية أقرب إلى الرواية على كثرة ما فيه من الروايات والأخبار .

١٠ ـ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** : لنظام الدين أبى الحسن الخراسانى المعروف بالقمى النيسابورى المتوفى حسبما قال صاحب كشوف الظنون سنة ٧٢٨ هـ وهو تفسير بالمعقول أخذه مؤلفه من عدة تفاسير من بينها الكشاف للزمخشرى والتفسير الكبير للرازى وغيرهما .

وهو تفسير جامع لشتى العلوم والفنون كالقراءات والفقه ، وعلم الكلام والفلسفة ، والكونيات ، ولم يخل حتى من الإشارات الصوفية ، فكان بذلك تفسيراً جامعاً لا يستغنى عنه طالب العلم ، ولنترك لصاحب روضات الجنات ، يقوم لنا هذا الكتاب فيقول : تفسير القمى من أحسن شروح كتاب اللّه تعالى المجيد وأجمعها للفوائد اللفظية والمعنوية ، وأحوزها للفوائد القشرية واللبية ... والكتاب مطبوع على هامش ابن جرير الطبرى ، ومتداول بين أهل العلم فى الشرق والغرب .

١١ ـ **البحر المحيط** : لأبى عبد اللّه محمد بن يوسف الغرناطى المعروف بأبى حيان المتوفى سنة ٧٤٥ هـ وهو تفسير جليل يقع فى ثمانى مجلدات كبيرة ، وهو من التفسير بالدراية ، سمته الخاصة به الإعراب للمفردات القرآنية وشرحها بعناية كافية ، ولا يخلو من اللطائف كالمناسبات بين السور والآيات ولا من النكات البلاغية ، والمسائل الفقهية ، وهو مرجع من مراجع التفسير بحق ، أخذ مؤلفه الكثير من تفسيرى : ابن عطية والزمخشرى ، واعتمد كل الاعتماد على كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير لأبى النقيب رحمه اللّه تعالى ، والذى بلغت أجزاؤه مائة جزء كما قال عنه أبو حيان نفسه .

١٢ ـ **تفسير القرآن العظيم** : لعماد الدين أبى الفداء ابن كثير الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ وشهرة هذا التفسير تغنى عن التعريف به وهو تفسير جامع بين الرواية والدراية ، خال من البدع والضلالات ، يقرر عقيدة السلف وينصرها ويذكر من الروايات صحيحها وسقيمها حتى إذا قضى ما أراده شاهداً ، أو عظة أوعبرة على تلك الروايات وصحح صحيحها وأبطل باطلها ، فلذا كان هذا التفسير من أنفع التفاسير وأكثرها تداولاً بين علماء المسلمين ، وهو متوسط بين الطول والقصر ، يقع فى أربع مجلدات كبيرة ، وقد اختصره الشيخ نسيب الرفاعى الشامى بحذف كل الروايات الضعيفة منه والاكتفاء بالروايات الصحيحة فيه .

١٣ ـ **تنوير المقياس من تفسير ابن عباس** : ولم يكن ابن عباس قد جمع هذا التفسير ولا كتبه ، وإنما جمعه أبو طاهر الفيروزآبادى صاحب القاموس المحيط المتوفى رحمه اللّه وأسانيده فيه لا تخلو من الوضع بحال وحسبنا أن يقول الإمام الشافعى رحمه اللّه تعالى : لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبه مائة حديث ، وقيمة هذا التفسير العلمية أنه ينظر فيه ، ولا يعول عليه ، وهو يعد من التفسير بالمأثور على كل حال .

١٤ ـ **الجواهر الحسان فى تفسير القرآن** : لأبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى الجزائرى المتوفى سنة ٨٧٦ هـ وتفسيره يقع فى أربع مجلدات ، وهو عبارة عن اختصار كامل لتفسير ابن عطية مع نقول أخرى نقلها مفسرة من أكثر من مائة تفسير ، إذ قال رحمه اللّه تعالى فى مقدمته ما نصه : فإنى قد جمعت لنفسى ولك فى هذا المختصر ما أرجوا أن يقر اللّه به عينى وعينك فى الدارين ، وقد ضمنته بحمد اللّه تعالى المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة مما رأيته أو رويته عن الإثبات ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما فيها تأليف إلا وهو لإمام مشهور بالدين ، ومعدود فى المحققين أ هـ .

ومن كلمة المؤلف هذه تظهر قيمة هذا التفسير ، وأنه تفسير جامع بين الرواية والدراية جدير بالنظر فيه والإطلاع والاستفادة منه ، وحسبه أن يكون مختصر المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسى ، فجزاهما اللّه خيراً على عملهما ، وصالح نيتها .

١٥ ـ **الدر المنثور فى التفسير المأثور** : للحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وهذا التفسير هو التفسير الوحيد الذى رأيناه للمتأخرين لم يجمع إلى الرواية

الدراية ، فهو أثرى محض ، أو رد فيه مؤلفه ما أمكنه ووصلت إليه يده من الأحاديث التى رواها السلف فى التفسير ، سواء ما كان منها صحيحاً أو ضعيفاً . أو موضوعاً ، ولم يتعرض لما رواه فى هذا التفسير من الآثار بتصحيح أو ترجيح ، فلهذا يحتاج هذا الكتاب إلى تخريج أحاديثه بتصحيح ما صح منها ، وتضعيف ما ضعف ، لتكون الفائدة منه أكبر والأخذ منه أنفع وأسلم ، والكتاب يقع فى ستة مجلدات اختصره مؤلفه من كتاب كبير له يسمى « ترجمان القرآن » كان قد جمع فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف ، وقيمة هذا التفسير لا تنكر وفوائده لا تحد ولا تحصر وذلك لمن كان ذا خبرة بنقد الأحاديث ، ومعرفة صحيحها وسقيمها وعليه : فليكن المطالع لهذا الكتاب على حذر ، والأخذ منه على بينة من الأمر حتى لا يعنى غير الثمر ولا يدخر مالا يدخر .

١٦ ـ **تفسير الجلالين** : جلال الدين المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ وجلال الدين السيوطى ، اشترك هذان العالمان فى تأليفه ، ففسر الجلال المحلى سورة الكهف وما بعدها إلى سورة الناس ، ثم فسر سورة الفاتحة وتوفى فجاء الجلال السيوطى ففسر البقرة وما بعدها إلى آخر سوة الإسراء فنسب التفسير إليهما معاً ، وهو تفسير مبارك نفع اللّه تعالى به ، ولولا تأويل الجلالين آيات الصفات جرياً منهما على مذهب أهل الكلام لكان هذا التفسير من أجل التفاسير وأكثرها نفعاً وبركة ، فإنه على اختصاره مفسر لكلام اللّه تعالى مبيناً المراد منه ، وهو يعتبر من التفسير بالدراية يطبع أحياناً على هامش المصحف الكريم ، ويطبع أحياناً جزءاً مستقلاً وعليه حاشية للصاوى تحتاج إلى تصحيح وتنقيح ، إذ كثيراً ما يتهجم على أعلام السلفيين ويطعن فيهم بل يسبهم ويشتمهم وما كان له ذلك لولا فساد معتقده وضلال عقله والعياذ باللّه تعالى ، ولولا تخبط الصاوى فى مسائل العقيدة ، وعداؤه السافر للسلفيين لكانت حاشيته نافعة ومفيدة ، ومن ميزة تفسير الجلالين أنه إذا كان اللفظ القرآنى يحتمل معنيين أو أكثر أنه يأخذ بما رجحه أهل التفسير منها ، فلذا كان أصح التفاسير العقلية المعتمدة على الدراية دون الرواية .

١٧ ـ **السراج المنير** : للعلامة شمس الدين الشربينى المعروف بالخطيب الشربينى المتوفى سنة ٩٧٧ هـ ، وهو تفسير وسط بين الطول والقصر أخذه مؤلفه من عدة تفاسير كالبغوى ، والبيضاوى ، والرازى ، وغيرهم فجمع فيه بين الرواية والدراية ، إن

عرض للقراءات لا يتجاوز بعض السبع منها ، وإن تعرض للإعراب لم يتجاوز ما تدعو إليه الحاجة ، يعنى بالمسائل الفقهية ويقررها يوهن الأحاديث والآثار الضعيفة وينبه عليها ولا يغفلها ، يذكر فى الغالب المناسبات من الآيات تبعاً للرازى وغيره ، يورد الإسرائيليات أحياناً ولا يتعقبها بتصحيح ولا إبطال على خلاف ما يورد من السنن والآثار فإنه كما ذكرنا منها يصح منها الصحيح ، ويضعف الضعيف ، وبالجملة : فهذا التفسير المعروف بالسراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير ـ تفسير صالح للاطلاع عليه ، والأخذ منه والانتفاع به وقد قومه مؤلفه فى كلمة ختامية هذا نصها : فدونك تفسيراً كأنه سبيكة عسجد ، أو در منضد ، جمع من التفاسير معظمها ، ومن القراءات متواترها ، ومن الأقاويل أظهرها ، ومن الأحاديث صحيحها وحسنها ، محرر الدلائل من هذا الغث ، مظهراً لدقائق استعمالنا الفكر فيها إذا الليل جن .

١٨ ـ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** : لأبى السعود المتوفى بالقسطنطينية سنة ٩٨٢ هـ ، وهو تفسير متوسط بين الطول والقصر مطبوع فى خمسة مجلدات ، يمتاز بدقة تعبيره ، وحسن بلاغته ، ومتانة أسلوبه يعرض عن قصد لبلاغة القرآن وإعجازه ، يشرح الألفاظ القرآنية بأجود الكلمات العربية ، يكشف أحياناً عن المناسبات بين الآيات السابقة واللاحقة ، قلما يورد الإسرائيليات ، يذكر الأحكام الفقهية ويرجح بلا إطالة ولا يبدى التعصب لمذهب معين من مذاهب أهل الفقه ، لا يغفل ذكر القراءات ولا يعض أوجه الإعرابات ، ولذا كان هذا التفسير من أجل تفاسير المتأخرين ، أقبل عليه العلماء وقد أولوه وامتدحوه وأثنوا عليه ، قال صاحب العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم : وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأزمان ، ولم تقرع به الآذان ، فصدق المثل السائر ، لم يترك الأول للآخر ، وقال فيه صاحب الفوائد البهية فى تراجم الحنفية : وقد طالعت تفسيره وانتفعت به وهو تفسير حسن ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل ، متضمن لطائف ونكات ومشتمل على فوائد وإشارات ، وقال فيه صاحب كشف الظنون : انتشرت نسخه فى الأقطار ووقع له التلقى بالقبول من الفحول الكبار ، حسن سبكه ، وصدق تعبيره فصار يقال له : خطيب المفسرين ، ونكتفى فى تقويم هذا الكتاب بما قال أهل العلم فيه ، وهو تفسير بالدراية لا بالرواية لا عيب فيه يذكر ، ولا شين به يشهر غير تقليد مؤلفه لصاحب الكشاف فى ذكر أحاديث فضائل السور وهى

أحاديث موضوعة عند أهل المعرفة بالخبر .

١٩ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** : للقاضي محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ وهو تفسير وسط بين القصر والطول يقع في خمسة مجلدات كبيرة ، حوى من العلوم والمعارف ما جعله في طليعة كتب التفسير المعتبرة ذات القيمة والشهرة فهو يعرض للمسائل الفقهية ويحررها بإخلاص وصدق نية بعيداً عن التبعات المذهبية ، كما يعرض عند الحاجة إلى المناسبات بين الآيات وإن كان ينكر التكلف في هذا ويعيبه على أصحابه .

يشير إلى القراءات ، ويخرج عليها بعض معاني الآيات ، ولا يغفل الاستدلال بالآثار ولا الاستشهاد بالأشعار ، يعتمد في نقله كثيراً على القرطبي ، وابن عطية ، والنحاس ، وميزة هذا التفسير أنه سلفي المذهب والعقيدة ، لا يرى رأي الخلف في الصفات ولا يتعصب تعصب المقلدين في الفقهيات ، فكان باعثاً لقارئه على النظر والاجتهاد نافخاً فيه روح التحرر من تقليد الآباء والأجداد وبالجملة : ففتح القدير جدير بالاطلاع عليه ، والأخذ منه ، والانتفاع به لسلامته وصحة ما فيه ، وناهيك بتقرير الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة دراسته في كل كلياتها على تباينها واختلافها .

٢٠ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** : لشهاب الدين السيد محمود أفندي البغدادي المعروف بالألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ وهو تفسير جليل جمع فيه مؤلفه بين الرواية والدراية ، وانتقى له صفوة علوم من تقدمه من المفسرين كابن عطية ، والزمخشري ، والرازي ، والبيضاوي ، وأبي السعود ، وغيرهم فتراه إذا نقل عن البيضاوي يقول : قال القاضي ، وإذا نقل عن الرازي يقول : قال الإمام ، وإذا نقل عن أبي السعود يقول : قال شيخ الإسلام ـ لقد حوى هذا التفسير علوماً شتى ، وفنوناً عدة ، ففيه الأدب والنقد ، وفيه البلاغة ونحو وفيه الفقه والقراءات ، وفيه البحث من المناسبات بين السور والآيات ، وفيه العلوم الطبيعية والكونية والسياسة الشرعية ، كان مؤلفه سني المذهب سلفي المعتقد غير أنه جاري أرباب الإشارات من متهوكي التصوف فخلط تفسيره بالتفسير الإشاري ، وهو تفسير مذموم ، لا خير فيه ، كما سبق لنا القول فيه بيد أنه لما كان يجعله في آخر بحث الآيات مستقلاً عن التفسير لم يشن تفسيره ولم يضر به .

٢١ ـ **تفسير المنار : للشيخين المصلحين الجليلين** : الشيخ محمد عبده المصري ، والشيخ محمد رشيد رضا الشامي من علماء القرن الرابع عشر الهجري وتفسيرهما « المنار »

يقع فى اثنى عشر مجلداً ،وهو تفسير لم يكتمل لوفاتهما قبل إكماله ، ويا للرزية إذ توفى الشيخ محمد عبده فى منتصف سورة النساء ، وتوفى الشيخ محمد رشيد رضا فى منتصف سورة يوسف عليه السلام ، وكون هذا التفسير لم يكتمل لوفاة صاحبيه لم ينقص ذلك من قدره ولم يحط من قيمته فإنه والحق يقال : تفسير لم يؤلف مثله فى باب التفسير قط ، وقد قرأت هذا الكتاب ونفعنى اللّه تعالى به كثيراً ولم أر له نظيراً فى شرح الآيات القرآنية ، وبيان ما فيها من الهداية الإلهية ، إنه بحق تاج التفاسير ولو كمل لما كان له نظير ، لا يستغنى عنه المصلح والداعى بحال ، إذ هو خير كتاب فى التفسير عقيدة وهداية ودراية ورواية أدباً ولغة حديثا وفقها ، إصلاحاً وسياسة ، فجزى اللّه تعالى مؤلفيه خير الجزاء وأسكنهما جنة المأوى .

٢٢ ـ **أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن** : للعلامة الشيخ أبى عبد اللّه محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطى السلفى نزيل المدينة النبوية المتوفى بمكة المكرمة سنة ١٣٩٣ هـ .

وهوكتاب يقع فى ثمان مجلدات كبيرة ، وهو من أصح التفاسير وأكثرها نفعاً وبركة ، لأنه من تفسير القرآن بالقرآن ، ولأن مؤلفه رحمه اللّه تعالى كان على جانب كبير من التقوى والصلاح ، جمع فيه مؤلفه بين الرواية والدراية وهو وإن لم يكن تفسيراً لكل أى القرآن الكريم ، لالتزام صاحبه بتفسير مجمل الآيات القرآنية بمبينها من الكتاب ، فإنه كريم جمع علوماً شتى كالبلاغة ، والبيان ، والفقه ،والأصول ، يمتاز بطابعه السلفى ، إذ هو يقرر العقيدة السلفية وينصرها ، ويذكر المسائل الفقهية ، ويحررها على ضوء الكتاب والسنة ، ولا يتعصب لمذهب معين من مذاهب الفقهاء رحمهم اللّه ينصر منها ما نصره الدليل الشرعى من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس وبالجملة : فالكتاب قيم نافع يجمل اقتناؤه ، ويحسن الرجوع إليه والاعتماد عليه لا سيما مقدمته فإنها من أنفع المقدمات لفهم كتاب اللّه تعالى وتفسيره يتعين على طالب التفسير دراستها والإلمام بها فإنها مفيدة جداً ونافعة بإذن اللّه تعالى .

طبقات المفسرين

بعد أن عرفنا التفسير والمفسرين ، وعرفنا جملة من تفاسيرهم يحسن بنا أن نعرف طبقات المفسرين .

إن المفسرين طبقات أربع : أعلاها أولها ، وأدناها آخرها .

فالطبقة الأولى : هى طبقة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وأهل هذه الطبقة من رجال التفسير مختلفون فمنهم المكثر ومنهم المقل ، فمن المكثرين عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى بن كعب ، ومن المقلين أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو موسى الأشعرى ، غير أن هؤلاء أكثر رواية فى التفسير من أبى هريرة ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

المروى عنهم التفسير من الصحابة :

والذين روى لهم التفسير من الصحابة وكانوا فيه أئمة أربعة : هم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى ابن كعب ، وذلك لجلالتهم وفضلهم ومزيد علمهم . فابن عباس رضى الله عنهما كان يسمى حبر هذه الأمة ، ويلقب بترجمان القرآن ، دعا له الرسول ﷺ بأن يفقهه فى الدين ، ويعلمه التأويل فنالته دعوة الرسول ﷺ ، كان عمر رضى الله عنه يقدمه على مشايخ الصحابة ويعرض عليه ما يشكل من المسائل ، وقال فيه على رضى الله عنه : أن ابن عباس ينظر إلى الغيب من وراء ستر دقيق .

وأما عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فيكفيه شرفاً وفضلاً أن يقول فيه الرسول ﷺ : « من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » .

أثنى عليه عمر لما قال لأهل الكوفة : إنى قد بعثت عماراً أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى ، وكان رضى الله عنه يقول : « والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته ، وكيف لا يكون كذلك وهو القائل : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

وأما على بن أبى طالب فحدث عن فضله وفضائله وعلمه بكتاب الله وفقهه ولا حرج ، فقد واكب الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى وعاش أحداثها ، وحمل راياتها ، وبرز فيها جهاداً وعلما ، وفتياً ، وقضاء ، قال عنه ابن عباس الحبر : ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب ، وذكر قوله : والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت

وأين نزلت ، وإن ربى وهب لى عقلاً عقولا ، ولساناً سؤولا .

ومن أقوى الأدلة على جلالة على فى التفسير قوله وقد سئل : هل خصكم الرسول بشىء أهل البيت ؟ فقال لا ، إلا فهما يؤتاه الرجل فى كتاب اللّه تعالى . أو ما فى هذه الصحيفة ، وكان فيها بيان الديات ، وحرم المدينة .

وأما أبى بن كعب الأنصارى أبو المنذر فإنه أول من كتب لرسول اللّه ﷺ ، أثنى عليه عمر رضى اللّه عنه قال : أبى سيد المسلمين قال فيه رسول اللّه ﷺ : « أقرؤهم أبى بن كعب » ، ولما نزلت سورة البينة أمر اللّه تعالى الرسول ﷺ أن يقرأها عليه ، فقال يا أبا المنذر : إن اللّه تعالى أمرنى أن أقرأ عليك سورة البينة ، فقال كعب اللّه سمانى لك ؟ قال نعم ، فجعل أبى يبكى من الفرح بنعمة اللّه وفضله ورحمته عليه ، وزاد فى مكانة أبى العلمية علمه بالكتاب الأول ، و الديانات السالفة واستكتاب الرسول ﷺ له فى الوحى فحاز بذلك ما لم يحزه غيره من علوم القرآن والسنة ، وكان وارث النبوة بحق ، ولا عجب مع هذا أن يكون أبى فى طليعة أئمة التفسير من أصحاب رسول اللّه ﷺ .

فالرواية عن هؤلاء الأعلام الأربعة هى أصل التفسير ومصدره لدى التابعين وتابعيهم ، ومن أتى بعدهم من علماء هذه الأمة ، ولذا كان لكل واحد من هؤلاء الأئمة الأربعة الأعلام رواة طرق انتقل بها علم التفسير إلى من بعدهم .

ومن هنا وجد الفرصة سانحة الوضاعون والدساسون فأخذوا يضعون القول على هؤلاء وينسبون إليهم بغية التضليل والإفساد ، فكان إذا لابد من إحصاء تلك الطرق ونقدها وبيان الصحيح من الفاسد منها ، فما ثبت عن هؤلاء الأعلام بروايات ثابتة ، وطرق صحيحة ، وإلا رد ولم يقبل .

وهذا بيان أولئك الأعلام وطرق الرواية عنهم :

١ ـ الرواية عن ابن عباس :

إن الرواية عن ابن عباس رضى اللّه عنه فى التفسير بلغت من الكثرة بحيث لا يكاد يخلو تفسير لآية فى كتاب اللّه تعالى إلا ولابن عباس رواية فيه ، ولكن فهل كل هذه الروايات ثابتة عنه صحيحة ؟ والجواب قطعاً لا ... وإنما شهرة ابن عباس وباعه الطويل فى علم التأويل جعلت كل من يرى رأيا من أهل الباطل ويريد إلصاقه بالكتاب العزيز رفعه إلى ابن العباس ، بيد أن اللّه تعالى قيض حفظاً لدينه وكتابه من اللعب والعبث به رجالاً من السلف تتبعوا تلك الروايات وصححوا منها ما صح وأبطلوا ما بطل ، وهذه هى الرواية

الصحيحة عن ابن عباس وأجود الطرق إليه رضى الله عنه :

١ ـ طريق معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وهذه هى أجود طرق إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال فيها الإمام أحمد : إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة عن ابن عباس لو دخل فيها رجل إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً ، وقال الحافظ بن حجر : هى عند البخارى عن أبى صالح وقد اعتمد عليها فى صحيحه فيما يعلق عن ابن عباس .

وقد اعتمد هذه الطريق ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن المنذر بواسطة بينهم وبين أبى صالح ، وعلى بن أبى طلحة احتج به مسلم فى صحيحه وكذا سائر أصحاب السنن .

٢ ـ طريق قيس بن مسلم الكوفى عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس وهذا الطريق صحيح على شرط الشيخين ، وكثيراً ما خرج منها الفريابى والحاكم فى المستدرك .

٣ ـ طريق محمد بن إسحاق صاحب المغازى والسير عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس وهو طريق حسن الإسناد .

٤ ـ طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير تارة ، عن أبى مالك وتارة عن أبى صالح ، عن ابن عباس .

(تنبيه)

السدى الكبير وإن اختلف فيه فإن مسلماً خرج له ، وكذلك أصحاب السنن الأربعة ، وهو تابعى متشيع ، قال السيوطى فى الإتقان : وروى عن السدى الأئمة مثل الثورى ، وشعبة بن الحجاج ، غير أن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر ، وأسباط لم يتفقوا عليه ، ومع هذا فقد قالوا : إن أمثل التفسير تفسير السدى الكبير .

هذه أربع طرق للرواية عن ابن عباس فى التفسير تعتبر طرقاً صالحة مقبولة عند أكثر أهل العلم ، وما عداها كطريق الضحاك بن مزاحم الهلالى ، عن إبن عباس وطريق مقاتل بن سليمان ، وطريق محمد بن السائب الكلبى وطريق عطية العوفى فإنها طرق غير مأمونة ولا مرضية عند أهل العلم بهذا الشأن .

٢ ـ الرواية عن عبد الله بن مسعود :

للرواية عن ابن مسعود خمس طرق كلها صالحة مرضية عند أهل العلم إلا الخامسة

منها فإنها طريق أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، وعيبها أن الضحاك لم يلق ابن مسعود فكانت منقطعة لذلك .

الأولى : طريق الأعمش ، عن أبى الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود وهذه أصح أسلمها ، وقد اعتمدها البخارى فى صحيحه .

الثانية : طريق مجاهد ، عن أبى معمر ، عن ابن مسعود وهذه أيضاً طريق صحيحة .

الثالثة : الأعمش ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود وهى طريق صحيحة خرج البخارى منها .

الرابعة : طريق السدى الكبير ، عن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود خرج منها الحاكم فى المستدرك مصححاً ما يخرجه منها .

الخامس : طريق أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود . وقد تقدم وجه عيبها .

٣ ـ الرواية عن أبى بن كعب :

إن الرواية عن أبى بن كعب لكثيرة جداً ، ولم تسلم من الوضع والكذب وما حرر أهل العلم من تلك الروايات المتكاثرة المتعددة هو طريقان بهما يثبت التفسير عن أبى بن كعب رضى اللّه عنه والطريقان هما :

١ ـ طريق أبى جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب .

٢ ـ طريق وكيع ، عن سفيان ، عن عبد اللّه بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه .

فهذان الطريقان هما اللذان يثبت بهما التفسير عن أبى وما عداهما فغير مأمون من الكذب والوضع ، فالطريق الأولى أخرج منها الحاكم وأحمد فى مسنده ، وكذا ابن جرير وابن أبى حاتم ، والثانية أخرج منها أحمد فى المسند وإسنادها حسن لضعف عبد الله بن محمد بن عقيل ، قال فيه الترمذى : إنه وإن كان صدوقا فقد تكلم فيه ، وقال فيه البخارى : كان أحمد بن حنبل وإسحق بن إبراهيم والحمدى يحتجون بحديث عبد الله البن محمد ابن عقيل ، وهو مقارب الحديث .

٤ ـ الرواية عن على رضى الله عنه :

إن الرواية عن على رضى الله عنه خطرة جدا ، تحتاج إلى بحث وتحر كبيرين وذلك لما وضع عليه الشيعة من الكذب الذى لا يعد كثرة تأييد لمذهبهم الباطل الذى ما وضع إلا

لضرب الإسلام والتخلص منه .

ولذا فإن أهل العلم بالرواية لم يعتمدوا فى الرواية إلا ثلاث طرق فقط هى :

١ ـ طريق هشام ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة الساعاتى ، عن على وهى طريق صحيحة خرج منها البخارى وغيره .

٢ ـ طريق ابن أبى الحسين ، عن أبى الطفيل ، عن على وهذه طريق صحيحة خرج منها ابن عيينة فى تفسيره .

٣ ـ طريق الزهرى ، عن على زين العابدين ، عن أبيه الحسين ، عن أبيه على وهذه طريق صحيحة جدا حتى عدها بعضهم من أصح الأسانيد مطلقا ، غير أنها لم تشتهر كالطريقين قبلها نظرا لما ألصقه الضعفاء والوضاعون بزين العابدين من الروايات الباطلة .

الطبقة الثانية ـ طبقة التابعين :

إنه بعد انقراض علماء التفسير من الصحابة رضى الله تعالى عنهم حل محلهم فى بيان كتاب الله تعالى وتفسيره للناس جماعة من التابعين هم فى الواقع تلامذة أولئك الأعلام الأجلاء من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهؤلاء التابعون الوارثون لعلم الصحابة هم :

١ ـ مجاهد بن جبر المكى المقرىء المفسر أبو الحجاج المخزومى مولى السائب بن أبى السائب كان أحد الأعلام الأثبات ، ولد فى خلافة عمر وتوفى بمكة وهو ساجد سنة ١٠٤ هـ .

٢ ـ عكرمة هو أبو عبد الله عكرمة البربرى المدنى مولى ابن عباس ، وأصله من بربر المغرب ، روى عن مولاه ابن عباس ، وعن على بن أبى طالب ، وعن أبى هريرة وغيرهم .

٣ ـ سعيد بن جبير وهو أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالبى مولاهم كان حبشى الأصل أسود اللون أبيض الخصال سمع جماعة من الصحابة . روى عن ابن عباس ، وابن مسعود وغيرهما ، توفى فى شعبان سنة ٩٥ هـ قتله الحجاج بن يوسف لا جزاه الله خيراً .

٤ ـ طاوس هو أبو عبدالرحمن طاوس بن كيسان اليمانى الحميرى مولى بحير بن رسان ، وقيل مولى همدان ـ روى عن العبادلة الأربعة وغيرهم ، كان من عباد أهل اليمن ، سادات التابعين توفى بمكة سنة ١٠٦ هـ .

٥ ـ عطاء هو أبو محمد عطاء بن أبى رباح المكى القرشى مولاهم روى عن ابن ابن عباس ، وابن عمر ، وابن عمرو وغيرهم كان من سادات التابعين فقها وعلما وورعا ، قال فيه أبو حنيفة : ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء ، ولا لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفى . توفى سنة ١١٤ هـ كان رحمه الله أسود أعور أفطس أشل أعرج ، وعمى قبل وفاته رحمه الله رحمة واسعة .

إن هؤلاء الأعلام الخمسة كانوا بمكة التى تعتبر مدرسة ابن عباس وهم تلامذته فيها ، ودون هؤلاء أئمة آخرون هم أبو العالية ، ومحمد بن كعب القرطى المدنى ، وزيد بن أسلم ، كانوا بالمدينة ونعتبر مدرستهم وعنهم أخذ أهل المدينة التفسير وروايتهم رحمهم الله تعالى كانت عن على ، وابن عباس ، وأبى .

ودون هؤلاء الأئمة أعلام آخرون هم علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، ومرة الهمدانى ، وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى وكانوا جميعا بالعراق التى تعتبر مدرسة بن مسعود فى التفسير .

فعن هؤلاء الأئمة الأعلام من كبار التابعين وساداتهم أخذ التفسير ورواه عنهم من جاء بعدهم وهم يعرفون بتابعى التابعين ، وهى الطبقة الثالثة من طبقات المفسرين .

ملحوظة :

قد اختلف فى قبول التابعى فى التفسير وأخذه عنه على مذهبين فقال قوم : يقبل قول التابعى فى التفسير ويؤخذ عنه ، وقال آخرون : لا يقبل ولا يؤخذ به إن كان مجرد قول له أو رأى ارتاه ، أما إن كان مستنده الرواية يرفعها إلى النبى ﷺ أو يوقفها على الصحابة فإن ما قاله التابعى يقبل ويؤخذ به قطعا .

وما نراه فى المسألة : أنه يستأنس بقول التابعى فى التفسير ويتخذ شاهدا ويعتبر به ، ولكن لا يكون حجة على من خالفه ، اللهم إلا إذا كان قد أجمع التابعون على القول والرأى فإن إجماعهم إذا يكون حجة على من خالفهم فيه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال الحجاج وغيره : أقوال التابعين ليست حجة فكيف تكون حجة فى التفسير ؟ يعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب فى مونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم

حجة على بعض ولا على من بعدهم ويرجع فى ذلك إلى لفظ القرآن ، أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة فى ذلك .

الطبقة الثالثة :

إن الطبقة الثالثة للمفسرين هى طبقة تابعى التابعين ورجالها هم أئمة العلم الذين ورثوا التفسير والعلم عن سادات التابعين وكبارهم ، وأعلام هذه الطبقة هم سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هرون ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبى إياس وغيرهم كأبى بكر بن شيبة ، وعلى بن أبى طلحة والبخارى ، وكانوا جميعا من رجال الحديث ورواته ونقاده المختصين ، فلذا كان جمعهم للتفسير ليس استقلالا وإنما كان تابعا لأبواب الحديث المختلفة ، والتى منها التفسير كما هو مشاهد اليوم فى صحيح البخارى وغيره .

الطبقة الرابعة : من طبقات المفسرين :

إن رجال هذه الطبقة الرابعة من طبقات المفسرين هم الذين جاءوا بعد تابعى التابعين آخذين عنهم متتلمذين لهم ، بيد أنهم فصلوا التفسير عن أبواب الحديث فاستقل فى عهدهم التفسير عن الحديث وأصبح علما قائما بذاته ، مستقلا بنفسه .

ورجال هذه الطبقة أشهرهم ابن ماجة ، وابن جرير ، وأبوبكر بن المنذر النيسابورى ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ بن حيان ، والحاكم ، وأبو بكر بن مردوية رحمهم الله تعالى أجمعين .

وكان تفسير هؤلاء كمن سبقهم من أئمة التفسير من تابعى التابعين ، والتابعين مرويا بالأسانيد إلى رسول الله ﷺ ، أو إلى الصحابة أو التابعين ، ولم يكن فيه شىء من غير المأثور اللهم إلا ما كان من ابن جرير الطبرى فإنه أول من جمع فى تفسيره بين الرواية والدراية حيث كان يجمع الروايات المأثورة ويرجح بعضها على بعض ، ويزيد ما تدعو الحاجة إليه من إعراب لفظ أو توجيه قراءة ، أو شاهد من شعر العرب ، ثم يذكر ما يفسر به الآية فيقول : القول فى تأويل قول الله تعالى كذا وكذا ويذكر التفسير الذى حصل عليه من الرواية والدراية ، فكان بذلك أول من جمع بين التفسير بالمأثور والمعقول ، وبه أصبح إماما للمفسرين الذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا .

ملاحظة :

عندما يتناول أحدنا تفسير مجاهد ، أو تفسير سفيان بن عيينة، أو غيره من تفاسير التابعين يستقله جدا ، فإذا نظر إلى تفسير ابن جرير ومن أتى بعده من تفاسير الطبقة الرابعة ، ومن جاء بعدهم يجده كبيرا ذا مجلدات عدة قد تبلغ العشرات فيتساءل عن السبب ونحن نجيبه فنقول : إن هذا عائد إلى أن أهل العصر الأول عصر الصحابة لم يكونوا فى حاجة إلى تفسير أكثر من بعض المعانى القرآنية ، لأن القرآن نزل بلغتهم وعلى أساليب محادثاتهم فلم يصعب عليهم فهم معناه ، ثم جاء أهل عصر التابعين فكانت حاجتهم إلى فهم كثير من معانى القرآن لاختلاطهم بالعجم وسريان لوثة العجمة إلى ألسنتهم ، ثم جاء أهل عصر تابعى التابعين فكانت حاجتهم أكبر إلى فهم كثير من معانى القرآن لأن العربية ضعف سلطانها بينهم وأخذت العجمة تطغى فيهم لانتشار الإسلام فى العالم وإقبال المسلمين عليه ، ثم جاء أهل العصر الذى بعدهم فكانوا لا يعرفون العربية إلا بالتعلم والدراسة فكانت حاجتهم إذا لا إلى بعض معانى القرآن بل إلى كل كلمة ومعنى فى القرآن .

ومن هنا بالطبع سوف يكبر التفسير بكبر الحاجة فبدل أن كان يفسر من القرآن بعض المعانى ، ثم بعض المعان منه والكلمات أصبح يفسر كل ألفاظه ومعانيه .

المناسبات من السور والايات

معنى المناسبات :

المناسبات جمع مناسبة وهى فى اللغة : المشاكلة والمقاربة ، قال الحافظ السيوطى فى الإتقان : مرجعها فى الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص ، عقلى أو حسى ، أو خيالى ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهنى كالسبب والمسبب والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين .

فائدتها :

إن الفائدة من وجود المناسبة بين الآيات هى جعل أجزاء الكلام بعضها لا آخذا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف كالبناء المحكم المتلائم الأجزاء ، وبما أن القرآن الكريم معجز بألفاظه ومعانيه ، ألفاظه فى غاية الفصاحة ... ومعانيه فى غاية الصرف بحيث لا يدانى فى ذلك بحال من الأحوال ، فإن وجود مناسبات بين آية وسورة تربط بين

أجزائه ربطا محكما حتى لكأن كلماته المباركة الطيبة قد نظمت فى سلك من نور ، **أقول :** فإن فى وجود هذه المناسبات لمظهر آخر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فمعرفة الأسباب إذا هى الوقوف على سر من أسرار كون القرآن معجزا ، وأى إعجاز أكبر من أن يقول قائل ، أو يتكلم متكلم مدة ثلاث وعشرين سنه تقريبا وفى ظروف مختلفة ، وأحوال متباينة ، ودواع متنوعة فيبلغ قوله مائة وأربع وعشرة سورة عدد آياتها ستة آلاف آية وزيادة ، وعدد كلماتها سبع وسبعون ألف كلمة وزيادة .

ثم يأتى كلامه على طوله وكثرته وتنوع أغراضه ، فى هذه الفترة الطويلة من الزمن يأتى منسجما متلائما مرصوفا محكما ، لا خلل فيه ، ولا انفكاك بين أجزائه متناسب المبادىء والخاتم ، والأوائل والأواخر حتى لكأنه قيل فى ساعة واحدة ، وفى موضوع واحد ، اللهم إن هذا لهو الإعجاز المبين ، الذى وقفت البشرية دونه عاجزة لا تبدىء ولا تعيد منذ أن نزل إلى أن يرفع .

اختلاف العلماء فى المناسبات بين الايات والسور :

لقد اختلف أهل العلم قديما وحديثا فى هل توجد حقيقة مناسبة بين كل آية وآية من القرآن الكريم ، وبين كل سورة وأخرى من سوره العظيمة العديدة ؟

فقال قوم : يوجد ذلك ، وقال آخرون : بنفيه فى الجملة ، ونكتفى بعرض رأيين مختلفين فى هذه المسألة العلمية ، لنثبت بذلك هذا الخلاف ، ثم نورد ما نراه حقا وصوابا فى المسألة .

الرأى النافى :

صاحب هذا الرأى هو عز الدين بن عبد السلام إذ قال: المناسبة علم حسن لكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله وآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة ، لم يقع فيه الارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه ، إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الكلام فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة ، شرعت لأساب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض اهـ .

الرأى المثبت :

وصاحب هذا الرأى هو الشيخ ولى الدين الملوى ، إذ قال : قد وهم من قال : لا

يطلب للآى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف على وفق ما فى اللوح المحفوظ مرتبه سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر ، الذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شىء عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ، ففى ذلك علم جم ، وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له ا هـ .

إنه من خلال هذا العرض لهذين الرأيين المختلفين يعلم أن أهل العلم على خلاف فى هذه المسألة ، فهم ما بين مثبت لها مطالب بتقريرها والبحث عنها ، وبين ناف لها ناه عن البحث عنها .

ومن المثبتين لها الشيخ بدر الدين البقاعى الذى ألف تفسيرا فى ذلك سماه « نظم الدور فى تناسب الآى والسور » ، والشيخ أبو جعفر بن الزبير شيخ أبى حيان ، إذ ألف كتابا فى ذلك سماه « البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن » ـ والحافظ السيوطى إذ ألف جزءا سماه « تناسق الدور فى تناسب السور » .

ومن النافين لها بل من المنكرين على مثبتيها القاضى الشوكانى صاحب تفسيرفتح القدير ، إذ كتب فى رد هذه المسألة نيفا وأربعين سطرا من تفسيره عند قوله تعالى : **﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾** [(١)] من أول سورة البقرة ، وقال منهيا كلامه : ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي تعثر فى ساحتها كثير من المحققين ، وإنما ذكرنا هذا البحث فى هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بنى إسرائيل بعد أن كان قبله مع آدم أبى البشر عليه السلام ، فإذا قال متكلف : كيف ناسب هذا ما قبله ؟ قلنا : لا كيف ...

هذا ورأينا فى هذه القضية هو أن نفى وجود المناسبات بين السور والآيات فى الجملة خطأ لا يقر عليه صاحبه لأن بعض المناسبات ظاهر يكاد ينطق لا ينكره إلا مكابر ، وسكوت علماء السلف عن البحث عن المناسبات ليس دليلا على عدم وجودها ، كما أن جهل بعض أهل العلم بها لا يكون كذلك دليلا على عدم وجودها .

كما أن إثبات المناسبات بين كل السور والآيات بالتفصيل قد يكون تكلفا لا يحمد

---

(١) البقرة : ٤٠ .

عليه صاحبه ، ولا يوافق عليه ، وذلك لا لأن المناسبات غير موجودة فعلا بل لعجز الإنسان عن الإحاطة بذلك والوصول إلى غاياته ، فالقضية إذا هى كما قال القائل :

والنجم تستصغر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر .

فالمناسبات موجودة غير أن بعضها يكون ظاهراً وبعضها يكون خفيا ، فما كان ظاهرا طلبناه وقلنا به ، وما كان خفيا وكلنا أمره إلى منزله سبحانه وتعالى ، ولا عيب على من جهله ولا ضرر على من ترك البحث عنه والخوض فيه .

هذا هو رأينا فى هذه المسألة أبديناه واضحا والله نسأل أن يكون حقا وصوابا .

قاعدة فى معرفة المناسبات :

إن من الآيات ما يكون بعضه متعلقا ببعض كأن تكون الثانية متممة للأولى فمثل هذا لا تطلب له مناسبة ، لأنه مرتبط ببعضه البعض ارتباط الكلى بجزئياته نحو قوله تعالى : ﴿ **والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها** ﴾ (١) إلى قوله تعالى : ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ (٢) فهذه عشرة آيات مرتبطة ببعضها البعض لأنها أجزاء قسم وجوابه فمثلها لا يبحث لها عن مناسبة تربط بينها .

وكذلك الحال إذا كانت الآية الثانية مقررة لمعنى الأولى مؤكدة له ، أو كانت مفسرة لها أو بدلا منها ، ككثير من آى القرآن الكريم فمثل ذلك لا تطلب له المناسبة لكون الآيات مرتبطة ببعضها ارتباط المفسر بالمفسر ، وبالمؤكد له ، والبدل بالمبدل منه نحو : ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة** ﴾ (٣) فآية ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة** ﴾ بيان لمعنى آية الغاشية وآية ﴿ **عاملة ناصبة** ﴾ صفة لآية ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة** ﴾ ، فمثل هذه الآيات لارتباطها ببعضها البعض لا تطلب لها المناسبة ولا معنى لذلك .

أما إذا لم يظهر بين الآيات ارتباط فإنه ينظر ، فإن كانت الثانية معطوفة على الأولى بحرف العطف المشترك فى الحكم فإنه لا بد من مناسبة هناك بين المعطوف والمعطوف عليه ، مثال ذلك : ﴿ **قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ (٤) فآية ﴿ **وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ معطوفة على آية ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ ، والمناسبة : هى فعل طاعتين مختلفتين هما زكاة الفطر ، وذكر الله فى صلاة العيد ، ترتب عليهما فلاح فاعلهما .

(١ ، ٢) الشمس : ١ ــ ١٠ . (٣) الغاشية : ١ ــ ٣ . (٤) الأعلى : ١٤ ، ١٥ .

وإن لم تكن الثانية معطوفة على الأولى وبدت أنها مستقلة تماما عن الأولى بحث حينئذ عن المناسبة بينهما فقد تكون :

١ ـ التنظير ، لأن إلحاق النظير بالنظيرمن دأب العقلاء ، وذلك كقوله تعالى من سورة الأنفال : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك الحق ...** ﴾ (١) الآية ، فإن هذه الآيات بدت وكأنها مستقلة عما سبقها ، ولا مناسبة بينهما فى حين أن المناسبة قوية وهى التنظير بين الآيات السابقة وهى ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾ (٢) ، فالنظير الأول هو كراهية الأصحاب رضى الله عنهم لنزع الغنائم من أيديهم مع رغبتهم فيها وحرصهم عليها ، فقد كرهوا هذا وسوف تكون عاقبته خيرا لهم ، والنظير الثانى هو كراهية بعضهم للخروج مع الرسول ﷺ لتلقى قريش وقتالها فى بدر مع أن العاقبة كانت خيرا لهم ، فالمناسبة بين هذه الآيات كانت التنظير .

ومن هذا قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا** ﴾ (٣) الآية ، فإنها بدت وكأنها لا مناسبة لها بما سبقها ، غير أن الواقع أن هناك مناسبة قوية وهى التنظير بين الآيات ، وذلك أن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ، وجعل المسلمين يستقلون عن اليهود الخصوم لهم فى قبلتهم كان نعمة من الله تعالى على المسلمين ، هى كنعمة إرسال الله تعالى فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم .

(تنبيه) :

١ ـ كل ما لا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة وعلة وجواب فهو من نفس الكلام .

٢ ـ التضاد بين المعانى التى تحملها الآيات ، إذ بضدها تتبين الأشياء ، والتضاد هو أن يذكر الإيمان ويذكر ما يضاده وهو الكفر ، أو يذكر النعيم ويذكر ما يضاده وهو الشقاء وما إلى ذلك من المتضادات حسا أو معنى ... مثال ذلك ما جاء فى فاتحة سورة البقرة ، حيث ذكر تعالى المتقين وصفاتهم وما جازاهم به من الهداية فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، ثم ذكر الكافرين وصفاتهم وما أعده لهم من عظيم العذاب ، فكانت المناسبة بين الآيات الضدية ومثل هذا كثير فى القرآن الكريم كالترغيب ، والترهيب ، والوعد ، والوعيد ، والحق ، والباطل .

---

(١) الأنفال : ٥ . (٢) الأنفال : ١ . (٣) البقرة : ١٥١ .

٣ ـ الاستطراد وهو ذكر معنى في كلام ، وقبل الانتهاء منه يذكر معنى آخر ، وبعد الانتهاء منه يعود إلى المعنى الأول فيتممه ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى** ﴾ (١) فإن السياق كان بيان فتنة إبليس لآدم وزوجه عليهما السلام وبيان كيف أخرجهما من الجنة بوسواسه لهما ، وقبل انتهاء السياق استطرد فذكر منته تعالى على بنى آدم بما أنزل عليهم من اللباس وأرشدهم إلى الشكر بالتقوى عاد إلى السياق الأول يحذر بنى آدم من فتنة الشيطان حتى لا يفتنهم عن دينهم فيجلب لهم الشقاء والحرمان .

٤ ـ حسن التخلص ، وهو قريب من الاستطراد نحو قوله تعالى : ﴿ **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ (٢) إلى قوله : ﴿ **ولا تخزنى يوم يبعثون** ﴾ (٣) فإنه تخلص إلى ذكر المعاد ووصفه الجنة والنار .

(تنبيه) :

الفرق بين الاستطراد وحسن التخلص هو : أن الاستطراد يترك صاحبه المعنى الذى كان يتكلم فيه فجأة ، ويذكر معنى آخربسرعة ، ثم يعود إلى المعنى الأول فيتممه ، وأما حسن التخلص فإن صاحبه لا يعود إلى السياق الذى كان يقول فيه بل يتركه ولا يعود إليه بمجرد أن يتخلص منه إلى السياق الجديد لأدنى مناسبة كلامية .

٥ ـ الانتقال من حديث إلى حديث آخر تنشيطا للسامع مفصولا بكلمة : هذا . وهو ضرب من حسن التخلص مثاله قوله تعالى من سورة ص وقد ذكر الأنبياء وكراماتهم ، ثم قال : ﴿ **هذا وإن للمتقين لحسن مآب** .. ﴾ (٤) الآية ثم لما ذكر ما أعد للمتقين من النعيم المقيم فى دار السلام قال : ﴿ **هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم** ... ﴾ (٥) الآيات ، فذكر أهل النار وما لهم فيها من ألوان العذاب وصنوف الشقاء .

٦ ـ حسن المطلب وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقديم الوسيلة إليه نحو : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين ، أهدنا الصراط المستقيم** ﴾ (٦) ، فقد خرج إلى الغرض وهو سؤال الهداية بعد ذكر الوسيلة من حمد الله وتمجيده والتقرب إليه بعبادته وحده .

---

(٢) الأعراف : ١٦ . (٢ ، ٣) الشعراء : ٨٢ ، ٨٧ . (٤) ص : ٤٩ .
(٥) ص : ٥٥ . (٦) الفاتحة : ٥ ، ٦ .

(**تنبيه**) :

إن المناسبة بين السور أخفى من المناسبة بين الآيات ، ومع هذا فقد تكون أحيانا المناسبة بين السورة والأخرى فى غاية الظهور ، كما هى بين سورتى الفيل وقريش ، وقد تكون خفية لا يتفطن لها إلا الحذاق ، كما هى بين سورتى العلق والقدر ، فإن الضمير فى ﴿ **أنزلناه** ﴾ عائد إلى القرآن الذى أمر الرسول ﷺ بقرائته فى قوله : ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ (١) وعود الضمير على متقدم دال على ارتباط كامل بين السابق واللاحق ، فهذه المناسبة خفية جدا ومن أجلها وضعت القدر بعد العلق .

قاعدة هامة فى معرفة المناسبات :

ذكر السيوطى فى الإتقان أن بعض المتأخرين قال : (إن الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسات الآيات والسور فى جميع القرآن هو أن تنظر إلى الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء استشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية وسورة وسورة) .

المحكم والمتشابه

تمهيد :

يحسن بنا قبل أن نقول فى المحكم والمتشابه من كتاب الله تعالى أن نعرف مدلول هذا اللفظ « المحكم والمتشابه » فى لغة العرب التى نزل القرآن بها كما قال تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** ﴾ (٢) وعليه فالمحكم اسم مفعول من أحكم الشىء يحكمه إحكاما فهو محكم له ، والشىء محكم كمتقن وزنا ومعنى ، يقال : أتقن الشىء إتقانا فهو متقن أى محكم وموثق ،

---

(١) العلق : ١ .　　(٢) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥ .

وأحكمه إحكاما إذا أتقنه ومنعه من الخلل والفساد والاضطراب ، ومنه أحكم البناء إذا أتقنه بالرصف والإحكام حتى منعه من التداعى والسقوط ، واشتقاق هذه المادة ـ مادة الحكم ـ من حكمة الفرس وهى حديدة توصل باللجام وتجعل فى فم الفرس تمنعه من التصرف فى مشيه وجريه على خلاف ما يريد راكبه .

ومن هنا قالوا : حكمه وأحكمه إذا منعه من فعل شر أو فساد ، وسموا الحاكم حاكما ، لأنه يمنع الناس فعل ما لا يجوز فعله ، وسميت الحكمة حكمة وحكما ، لأنها علم وفقه دقيقان يمنعان صاحبهما من فعل ما لا ينبغى فعله .

والمتشابه : اسم فاعل من تشابه الشىء عليه فهو متشابه إذا شبه بعضه بعضا فلم يميزه ، ومثله اشتبه عليه الأمر اشتباها إذا اختلط فلم يقدر على التمييز بين أفراده ، ومن الأول قول الله تعالى فى بنى إسرائيل : ﴿ **إن البقر تشابه علينا** ﴾ [1] ، أى شبه بعضه بعضا فلم نهتد إلى البقرة المطلوبة منا .

وفى حديث مسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات » ، وفى لفظ متشابهات والمعنى واحد وهو أن الشىء يتجاذبه طرفا الحلة والحرمة فيتردد بينهما لما فيه من مقتضيات كل منهما فليس أمره على كثير من الناس ولا يميزه إلا العلماء ، فإن كان حلالا ألحقوه بالحلال ، وإن كان حراما ألحقوه بالحرام ، وأما غير العالم فإنه يتركه لئلا يفعل ما لا يجوز فعله .

المحكم والمتشابه فى الاصطلاح :

ذلك مدلول كلمتى المحكم والمتشابه فى عرف اللغة أما مدلولهما فى عرف الشرع فإنه قد يختلف فى عرف اللغة ولكنه لا يفارقه بعيدا حيث أن كلا منهما لم يخرج عن الإحكام والمنع فى الأول ، واللبس والخفاء فى الثانى ، وهذا بسط ذلك وبيانه : ورد ذكر المحكم والمتشابه فى عدة مواضع من القرآن الكريم .

الأول : قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾ [2] .

---

(1) البقرة : ٧٠ .　　(٢) آل عمران : ٧ .

والثانى : قوله تعالى من سورة هود عليه السلام : ﴿ **الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ (١) .

والثالث : قوله تعالى من سورة الزمر : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** ﴾ (٢) .

وبالرجوع إلى هذه الآيات يتبين لنا :

أن آية آل عمران قد أثبتت وجود محكم فى القرآن ، ومتشابه ، وأن آية هود قد أثبتت أن فى آى القرآن إحكاما ، وتفصيلا ، وأن آية الزمر قد أثبتت أن بين آيات القرآن الكريم تشابها ، وفيها تكرارا ، وبالدراسة لهذه الآيات نرى أن آية الزمر تقرر أن القرآن الكريم آيه متشابه فى حروفه وكلماته وجمله وتراكيبه ، وفى قصصه وأخباره ، وفى وعده ووعيده ، متشابه فى عدل أحكامه وصدق أنبائه ، وفى جمال تراكيبه وحسن تنسيقه وقوة إعجازه وصحة براهينه ، وأنه فى تشابهه وتكراره كسلسلة ذهبية مفرغة لا يدرى أين طرفاها ؟ ولا يميز بين حلقاتها لحسنها وتشابهها .

وأن آية هود عليه السلام تقرر أن القرآن الكريم لحكم نظمه ومعناه ، فلا خلل فى كلماته وتراكيبه ، ولا تضاد أو اختلاف بين معانيه ومفاهيمه ، ولما كان الإحكام والإتقان لمنع الخلل يقتضى الإجمال وكان الإجمال يقتضى التفصيل فصل الله تعالى كل مجمل فى كتابه ، وأخبر عن ذلك بقوله : ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ (٣) .

وأن آية آل عمران تقرر : أن آى القرآن الكريم ينقسم إلى قسمين إلى محكم ومتشابه وأن المحكم هو أصل القرآن ومعظمه ، وأن المتشابه آيات قليلة منه ، وأن أهل زيغ القلوب يعرضون عن المحكم منه فلا يعملون به ولا يهتدون بهديه ، ويقبلون على المتشابه منه يتبعونه لإثارة الفتن تضليلا وتشكيكا ، وأن ـ المتشابه منه ما استأثر الله بعلمه ، ومنه ما اختص أهل الرسوخ فى العلم بمعرفته ، وأن المؤمنين الصادقين هم الذين يؤمنون بمحكم القرآن ومتشابهه فيعملون بالمحكم الذى علموه ، ويفوضون أمر المتشابه إلى الله منزله ويقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب .

---

(١) هود : ١ . (٢) الزمر : ٢٣ . (٣) هود : ١ .

والسؤال الآن هو ما المراد بالمحكم والمتشابه الذى انقسمت آيات القرآن إليهما ؟

والجواب يكون بدراسة هذه الآية مرة أخرى ، قوله تعالى : ﴿ **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** ﴾ [(١)] ... فما المراد بالمحكم والمتشابه من آيات القرآن الكريم ؟

لقد سبق أن قلنا : إن مرد مادة الإحكام إلى المنع من وقوع خلل أو اضطراب أو إفساد ، وأن مرد مادة المتشابه إلى اللبس والخفاء ، وعليه : فالمحكم من آيات القرآن ما كان واضح المعنى دالا على حكم شرعى فى العقائد والعبادات أو المعاملات أو الآداب ومكارم الأخلاق هو نص فيه أو ظاهر ، لا إجمال فيه فيفصل ، ولا خفاء فيه فيؤول .

والمتشابه : ما كان خفى المعنى لم يسق للدلالة على حكم شرعى تتوقف على مثله سعادة الإنسان أو شقاؤه فى الحياة الدنيا والآخرة ، وخفاء معناه كائن لعجز الإنسان عن إدراكه أو لغرابة لفظه أو اشتراكه أو إجمال معناه أو إيجاز لفظه .

وبناء على هذا فالمتشابه نوعان :

أحدهما : ما كان خفاء معناه عائدا إلى عجز الإنسان عن إدراكه والإحاطه به ، وذلك كإدراك كنه ذات الله تعالى ، وكنه صفاته عز وجل ، وكمعرفة الغيوب التى أخبر تعالى عنها واستأثر بعلمها كآجال الناس ومصائرهم ، ووقت قيام الساعة ، وزمان ظهور علاماتها الكبرى كخروج الدابة ، وظهور المسيح الدجال ، وما إلى ذلك مما لا سبيل للإنسان إلى معرفته وإدراك كنه حقيقته .

وثانيهما : ما كان خفاء معناه عائدا إلى إجمال فى المعنى ، أو اختصار فى اللفظ ، ونحو ذلك وهذا يعلمه أهل العلم الراسخون فيه ، ويجهله سواهم من عامة الناس ، ويدل على هذا التقسيم الآية الكريمة التى نحن بصدد الكلام عليها إذ قوله تعالى : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ [(٢)] ، بالوقف التام على اسم الجلالة يشير إلى النوع الأول من المتشابه وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه دون عباده لحكم اقتضت ذلك ، وهذا النوع هوالذى يحرم على العبد الخوض فيه ، ويجب عليه التفويض فى أمر فهمه إلى منزله ، يدل لهذا قوله ﷺ وقد قرأ الآية ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** ﴾ [(٣)] إلى ﴿ **وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾ [(٤)] ثم قال : فإذا رأيتم الذين

---

(١) آل عمران : ٧ .	(٢ ، ٣ ، ٤) آل عمران : ٧ .

يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله تعالى فاحذروهم [1] ومن أجل هذا ضرب عمر صيغا حتى جعل ظهره دبرة ، كلما برأ جلده حتى صار ظهره كالدبرة لأنه وجده يتبع المتشابه من الآيات ، ويقول فيها للفتنة والتضليل ، ثم نفاه ومنع على الناس مخالطته والاتصال به حماية لهم من فتنته والعياذ بالله .

كما أن الوقف فى الآية على قوله تعالى : ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ [2] ، وتركه على اسم الجلالة فتكون الواو للعطف لا الاستئناف ، يشير إلى النوع الثانى ويدل عليه إذ من القرآن ما هو خفى الدلالة بسبب غرابة اللفظ كالأب فى قوله تعالى : ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ [3] ، أو اشتراكه بن معان متعددة كلفظ اليمين فى قوله تعالى : ﴿ **فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾ [4] فلفظ اليمين غير ظاهر المعنى لتردده بين معان مختلفة وهى اليد والقوة والإقسام ، أو ابجازه كقوله تعالى : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾ [5] أو تقديمه وتأخيره كقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما** ﴾ [6] ، فتأخير قيما سبب خفاء بخلافه لو تقدم فكان أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا لكان لاخفاء فيه ، غير أنه يفقد الحكمة المقصودة منه.

بيد أن أحبار الأمة وعلماؤها يعلمون تأويل هذا الخفى ويبينونه للناس كما هو معلوم بين المسلمين ومشاهد فى كل زمان ومكان ، ولعل قول على رضى الله عنه « أو فهما يؤتاه الرجل فى كتاب الله » يشير إلى هذه الحقيقة وهى أن من المتشابه من الآيات ما يعلمه الراسخون فى العلم كما هو ظاهر الآية الكريمة ، ويؤكدها دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ، فنالته دعوة الرسول ﷺ فأصبح ترجمان القرآن ، وقد سئل عن هذه الآية فقال : إنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله .

إيضاحات :

الأول : اختلف العلماء سلفا وخلفا فى تحديد مدلول لفظ المحكم والمتشابه فى هذه الآية ، وهذه بعض أقاويلهم :

١ ـ المحكم الواضح الدلالة الظاهر الذى لا يحتمل النسخ ، والمتشابه الخفى الذى لا يدرك معناه عقلا ولا نقلا وهو استأثر الله بعلمه كقيام الساعة والحروف المقطعة .

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما . (٢) آل عمران : ٧ . (٣) عبس : ٣١ .
(٤) الصافات : ٩٣ . (٥) النساء : ٣ . (٦) الكهف : ١ .

٢ ـ المحكم ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل ، والمتشابه هو ما استأثر الله تعالى بعلمه كقيام الساعة وخروج الدجال ، والحروف المقطعة .

٣ ـ المحكم ما لا يحتمل إلا وجها واحدا ، أما المتشابه فهو ما احتمل عدة وجوه .

٤ ـ المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه عكسه وهو ما احتاج إلى بيان ولم يستقل بنفسه ، فكان تارة يؤول بكذا ، وتارة يؤول بكذا لاحتماله عدة وجوه فحصل الاختلاف فى تأويله .

٥ ـ المحكم هو السديد النظم والترتيب الذى يفضى إلى إظهار المعنى المستقيم من غير مناف ، وأما المتشابه فهو الذى لا يحيط العلم بمعناه المطلوب من حيث اللغة إلا أن تقترن به أمارات أو قرائن تبينه .

٦ ـ المحكم ما كان نصا أو كان ظاهرا ، والمتشابه ما لم يكن كذلك ، لأن اللفظ الذى يحمل معنى إما أن يحمل معنى آخر غيره أولا ، الثانى النص ، والأول إما أن تكون دلالته على ذلك الغير أرجح أولا الظاهر ، والثانى إما أن يكون مساويا أولا ، الأول هو المجمل الثانى المؤول ، فالمشترك بين النص والظاهر هو المحكم ، والمشترك بين المجمل والمؤول هو المتشابه .

الثانى : إن منشأ المتشابه يعود إلى أمرين قد أشرنا إليهما آنفا وهما :

١ ـ عجز الإنسان عن إدراك ما لا يمكن إدراكه ، وذلك كمعرفة ذات الرب تبارك وتعالى ، وإدراك حقيقة صفاته كاستوائه على العرش ونزوله إلى السماء الدنيا ، ومجيئه لفصل القضاء ، ومثل هذا الغيب الذى يجب الإيمان به ، والإنسان عاجز عن إدراك كنه حقيقته كالبعث والجزاء ونعيم الجنة ، وشقاء النار ، وكعذاب القبر ونعيمه ، وسؤال الملكين فيه .

ومن هذه الحروف المقطعة فى فواتح عدد من السور فى القرآن الكريم .

وهذا أحد نوعى المتشابه فى الآيات القرآنية .

٢ ـ هو ما يمكن فهم معناه غير أنه لتشابه معناه خفى خفاء لا يتأتى لغير الراسخين فى العلم تأويله وفهم معناه وقد قدمنا أن هذا الخفاء مرده إلى اللفظ ، أو إلى اللفظ والمعنى معا .

فالأول : ما كان خفاؤه بسبب غرابة اللفظ نحو كلمة الأب فى قوله تعالى : ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ (١) ، أو كان بسبب اشتراكه كلفظ اليمين فى قوله تعالى : ﴿ **فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾ (٢) ، أو كان سببه إيجاز اللفظ وقد تقدم مثاله ، أو بسط اللفظ كقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ (٣) ، إذ سبب خفاء معناه كان لزيادة الكاف فيه ، إذ لو قيل ليس مثله شيء لكان واضحا فى معناه ، لكن لما زيد الكاف لحكمة عالية أرادها الله تعالى وجد خفاء فى المعنى يعجز عن إدراكه غير الراسخين فى العلم .

والثانى : ما كان اشتباهه الذى تسبب عنه خفاؤه فى الفظ والمعنى معا وذكر له الراغب الأمثلة الآتية .

١ ـ ما كان من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو اقتلوا المشركين .

٢ ـ ما كان من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾ (٤) .

٣ ـ ما كان من جهة الزمان كالناسخ والنسوخ نحو : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾ (٥) .

٤ ـ ما كان من جهة المكان والأمور التى نزلت الآية فيها نحو : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ﴾ (٦) ونحو : ﴿ **إنما النسيء زيادة فى الكفر** ﴾ (٧) فإن من لم يعرف عاداتهم فى الجاهلية يتعذر عليه فهم هذه الألفاظ القرآنية.

٥ ـ ما كان من جهة الشروط التى يصح بها ويفسد كشروط الصلاة والنكاح .

الثالث :ذكر أهل العلم أن للمتشابه من آيات الكتاب حكما عالية ، وذكروا منها ما يلى :

١ ـ رحمة الله بالعباد اقتضت أن لا يطلعهم على الغيب ، إذ ليس في صالح الإنسان أن يطلع على الغيب ، أو يعلم ما أخفى عليه ، إذ لو اطلع على ذلك لربما هلك به .

٢ ـ الابتلاء والاختبار وهى حكمة من الإيمان بالغيب ، إذ لو علم الإنسان بالمشاهدة الملائكة ورأى بعض أحوال الآخرة عيانا كرؤية عذاب القبر ونعيمه وما إلى ذلك لما كفر أحد ، والإيمان قائم على أساس الغيب والتصديق به .

---

(١) عبس : ٣١ . (٢) الصافات : ٩٣ . (٣) الشورى : ١١ . (٤) النساء : ٣ .
(١) آل عمران : ١٠٣. (٢) البقرة : ١٨٩ . (٣) التوبة : ٣٧ .

٣ ـ إقامة الدليل على عجز الإنسان وضعفه مهما عظم استعداده وغزر علمه إذ الحروف المقطعة آلم ، طس ، حم ، من جنس كلامه المؤلوف له المعتاد عنده ، ومع هذا وهى ذات معانى كبيره لم يعرف لها ، معنى وكانت من المتشابه عليه وذلك لعجزه ، فإذا ظهر له عجزه تواضع لله وخضع له ، وعلم أنه لا علم له إلا ما علمه الله كما قالت الملائكة : عندما قام دليل عجزها : ﴿ **سبحانك لا علم لنا ألا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ (١) .

٤ ـ ابتلاء العقول بالمتشابه ليظهر إيمانها وتصديقها وإسلامها وإذعانها أو يظهر كفرها وجحدوها كابتلاء الأبدان بالتكاليف الشرعية لتقوم بها ، وتفعلها طاعة لله وتسليما .

فوائد :

الأولى : قالت العلماء : يجب رد المتشابه إلى المحكم فى ذات الله وصفاته فيرد كل ما أوهم التشبيه إلى قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (٢) .

ويرد كل ما أوهم غير العدل من أفعال الله تعالى وأحكامه إلى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ (٣) .

ويرد كل ما أوهم نسبة الخلق إلى غير الخالق إلى قوله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ (٤) .

ويرد كل ما أوهم نسبة الهداية والإضلال إلى غير الله تعالى إلى قوله عز وجل : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا كأنما يصعد فى السماء** ﴾ (٥) .

الثانية : أخرج ابن مردوية عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به » .

الثالثة : فى آيات الصفات وأحاديثها مذهبان لدى المسلمين مذهب حق وهو

---

(١) البقرة : ٣٢ . (٢) الشورى : ١١ . (٣) النحل : ٩٠ .
(٤) الزمر : ٦٢ . (٥) الأنعام : ١٢٥ .

مذهب السلف ، ومذهب باطل ، وهو مذهب الخلف ، فمذهب السلف هو : الإيمان بظاهرها مع تنزيه الله تعالى عما يوهمه ذلك الظاهر من تشبيه الخالق بالمخلوقين ، وتفويض الأمر فيه إلى الله تعالى .

ومذهب الخلف هو : تأويل ما ورد من نصوص في ذلك بحمله على المجاز أو الكناية ليتفق النقل مع العقل ، ويجمع المذهبين قول صاحب الجوهرة :

وكل نص أوهم التشبيها   أوله ، أو فوض ورم تنزيها

الرابعة : يجب على كل مسلم ومسلمة إزاء آيات الصفات وأحاديثها ستة أمور وهي :

١ ـ **التقديس** : وهو تنزيه الرب تعالى عن مشابهته للحوادث ، مع إيمانه الجازم بما وصف الله تعالى به نفسه في آياته ، أو وصفه به رسوله في أحاديثه من صفات ذاتية كاليد والأصبع والقدم والعين ، أو صفات فعلية كالاستواء والنزول والمجيء ، تحقيقا لمفهوم قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (١) ، إذ مفهوم هذه الآية الكريمة المحكمة : هو تنزيه الله تعالى عن صفات المحدثين وسمات المخلوقين ، وإثبات صفتي السمع والبصر له عز وجل ، وهذا معنى قول أهل العلم : إثبات لا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل .

٢ ـ **التصديق** : وهو الإيمان بما قاله الله تعالى ، وقاله رسوله ﷺ ، وأن ما ذكر الله تعالى عن نفسه وما ذكره عن رسوله هو حق على الوجه الذي أراده الله وأراده رسوله ﷺ .

٣ ـ **الاعتراف بالعجز** : وهو أن يقر العبد بالعجز عن إدراك كنه ذات الرب تعالى ، وإدراك كنه صفاته سبحانه وتعالى ، كما قال مالك وقد سئل عن قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ (٢) ، الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ، وكما قال ابن عباس ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، ومن ادعى علمه فهو كاذب .

٤ ـ **السكوت عن السؤال إزاء ذات الرب تعالى وصفاته ، فلا يسأل** : كيف ذات الله تعالى أو كيف يده أو قدمه ، أو مجيئه ، أو استواؤه ، كما قال مالك رحمه الله

---

(١) الشورى : ١١ .   (٢) طه : ٥ .

تعالى : والسؤال عنه بدعة .

٥ ـ **الإمساك عن التصرف فى الألفاظ الواردة فى ذات الله تعالى وصفاته** : وهو الإقرار لتلك الكلمات كما هى بدون تصريفها ، ولا تفريعها ، ومثال ذلك :

فقد وصف الله تعالى نفسه بأنه استوى على العرش ، وقال تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ (١) ، فلا يجوز أن نقول الرحمن جلس على عرشه ، ولا نقول يستوى بالمضارع ، ولا هو مستو باسم الفاعل ، فلا نصرف الفعل الذى دل على صفة من صفات الرب تبارك وتعالى ، إلا إذا ورد عن النبى ﷺ تصريفه إلى مضارع ، أو إلى اسم فاعل مثلا ، ولا نفرع عنه فنقول فى صفة اليد : الكف ، والساعد ، والعضد لأنها من لوازم اليد ، بل نذكر اللفظ الوارد فى الكتاب أو السنة ونمره كما ورد بلا تصريف ولا تفريع ، تحاشيا للقول على الله تعالى بدون علم وهو من أعظم أنواع الذنب .

٦ ـ **الكف** : وهو كف العقل عن التفكر فى ذات الله تعالى وفى كنه صفاته عز وجل ، لاستحالة إدراك ذلك ، ولما يؤدى إليه من التشبيه والتمثيل المنزه عنهما الرب تعالى ولذا ورد (٢) « وتفكروا فى مخلوقات الله ولا تفكروا فى ذات الله » فإن التفكير فى المخلوقات يزيد فى قوة الإيمان بالخالق عز وجل ، وأما التفكر فى ذاته وهو طلب ما لا سبيل إلى إدراكه فإنه يؤدى إلى الأوهام والوساوس والظنون والشكوك ، وهى كلها مهلكات للعبد والعياذ بالله تعالى .

العام والخاص

تعريف:

إن العام من الألفاظ الشرعية كتابا كانت وسنة هو ما استغرق كل صالح له من غير حصر نحو لفظ « كل » من قوله تعالى : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ (٣) .

---

(١) طه : ٥ .

(٢) ذكره ابن كثير فى سورة النجم عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ ـ آية : ٤٢ ـ ونصه : والحديث الآخر الذى فى السنن : « تفكروا فى المخلوقات ولا تفكروا فى ذات الله ، فإن الله تعالى خلق ملكا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلثمائة سنة » .

(٣) طه : ٢٦ .

والخاص خلافه وهو اللفظ القاصر على ما دل عليه نحو لفظ محمد رسول الله ﷺ ، فالاسم الكريم (محمد) خاص بما دل عليه ولا يتناول غيره .

ألفاظ العموم :

إن للعموم ألفاظ خاصة هى كالأدوات له وهى :

١ ـ كل مبتدأ نحو : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ [١] ، أو تابعه نحو : ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ [٢] .

٢ ـ الذى نحو : ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون** ﴾ [٣] .

٣ ـ اللذان نحو : ﴿ **واللذان يأتيانها منكم فأذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما** ﴾ [٤] .

٤ ـ الذين نحو : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [٥] .

٥ ـ التى نحو : التى تحفظ فرجها وتؤدى فرضها تستوجب رضا ربها .

٦ ـ اللاتى نحو : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن** ﴾ [٦] الآية .

٧ ـ أى نحو : ﴿ **أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ [٧] .

٨ ـ ما الشرطية نحو : ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾ [٨] .

٩ ـ من الشرطية نحو : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ [٩] .

١٠ ـ الجمع المضاف نحو : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم** ﴾ [١٠] .

١١ ـ المعرف بأل نحو : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ [١١] ... الآية .

١٢ ـ اسم الجنس المضاف نحو : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره** ﴾ [١٢] ، أى كل أمر من أوامره .

---

(١) الرحمن : ٢٦ . (٢) الحجر : ٣٠ ، ص : ٧٣ . (٣) الزمر : ٣٣ .
(٤) النساء : ١٦ . (٥) العنكبوت : ٦٩ . (٦) النساء : ١٥ .
(٧) الإسراء : ١١٠ . (٨) البقرة : ١٩٧ . (٩) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(١٠) النساء : ١١ . (١١) المؤمنون : ١ . (١٢) النور : ٦٣ .

١٣ ـ النكرة فى سياق النهى نحو : ﴿ **فلا تقل لهما أف** ﴾ (١) .

١٤ ـ النكرة فى سياق النفى نحو : ﴿ **وإن من شىء إلا عندنا خزائنه** ﴾ (٢) .

١٥ ـ النكرة فى سياق الامتنان نحو : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾ (٣) .

العام أنواع ثلاثة :

إن العام من الألفاظ الشرعية ثلاثة أنواع هى :

الأول : العام الباقى على عمومه وهو نادر جدا ، وعزيز فى الأحكام الفرعية ، إذ ما من عام إلا ويتصور فيه الخصوص ، فلننظر إلى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ (٤) فإننا نجد لفظ الناس عاما يتناول فى الظاهر كل بنى آدم ذكورا وإناثا غير أنه فى الواقع مخصوص بغير المكلفين .

ولفظ الميتة فى قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة** ﴾ (٥) عام فى كل ميتة لأنه معرف بأل غير أنه مخصوص بحالة الاضطرار وبميتة الحوت والجراد .

أما فى غير الأحكام الفرعية فإن العام موجود بكثرة نحو : ﴿ **إن الله بكل شىء عليم** ﴾ (٦) و ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئا** ﴾ (٧) ، ﴿ **ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ (٨) فالنكرات الثلاث فى هذه الجمل القرآنية عامة ولا يدخلها الخصوص أبدا قال السيوطى رحمه الله تعالى : بعد الفكر الطويل قد استخرجت آية من كتاب الله فى الأحكام لا يدخلها التخصيص بحال وهى قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم** ﴾ (٩) فإنه لا خصوص لها .

الثانى : العام المراد به الخصوص وهو اللفظ العام الذى لم يرد الشارع شموله لجميع أفراده ، وذلك كأن يكون العام ذا أفراد فيطلقه الشارع وهو لا يريد إلا فردا من أفراده ، فيكون من قبيل العام الخاص نحو لفظ « الناس » وهو لفظ عام فى جميع الناس غير أنه أريد به فرد واحد من أفرادهم وهو نعيم بن مسعود الأشجعى ، أو أعرابى ابن خزاعة ، وذلك فى قوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم**

---

(١) الإسراء : ٢٢ . (٢) الحجر : ٢١ . (٣) الفرقان : ٤٨ .
(٤) الحج : ١ . (٥) المائدة : ٣ . (٦) الأنفال : ٧٥ . ومواضع أخرى .
(٧) يونس : ٤٤ . (٨) الكهف : ٤٩ . (٩) النساء : ٢٣ .

فاخشوهم فزادهم إيمانا ﴾ (١) فلفظ الناس الأول أطلق وأريد به فرد واحد ، وهو نعيم بن مسعود ، أو أعرابى ابن خزاعة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ (٢) فلفظ الناس عام أريد به الخاص وهو رسول الله ﷺ حسده اليهود على نبوته وفضله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب** ﴾ (٣) فلفظ الملائكة عام فى جنس الملائكة عليهم السلام غير أنه أريد به فرد واحد منهم وهو جبريل عليه السلام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ (٤) ، فالموصول لفظ عام يتناول كل الكافرين ، ولكنه مخصوص هنا بمن سبق فى علم الله تعالى شقاوتهم بعدم إيمانهم مهما جاءهم من بشير ونذير .

الثالث : العام المخصوص : وهو اللفظ العام يرد عليه ما يخصصه من أدوات التخصيص ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ **والعصر . إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا ...** ﴾ (٥) الآيات ، فلفظ الإنسان عام فى كل إنسان ورد عليه المخصص وهو الاستثناء فأصبح خاصا بالكافرين دون المؤمنين الصالحين .

والمخصص إما أن يكون متصلا أو منفصلا ، والمتصل منه خمسة أنواع كلها وردت فى القرآن الكريم وهى :

١ ـ الاستثناء نحو قوله تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ (٦) فالموصول عام هنا وخصص بالاستثناء فمن تاب منهم رد عليه اعتباره فى قبول شهادته ، ورفع عنه وصف الفسق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ (٧) فلفظ كل شىء عام فى كل شىء غير أنه خصص بالاستثناء فأخرج منه وجه الحق تبارك وتعالى فلا يلحقه الفناء والهلاك .

٢ ـ الوصف نحو : ﴿ **وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ (٨) فلفظ نسائكم عام ، لأنه نكرة مضافة

---

(١) آل عمران : ١٧٣ . (٢) النساء : ٥٤ . (٣) آل عمران : ٣٩ . (٤) البقرة : ٦ .
(٥) العصر : ١ ـ ٣ . (٦) النور : ٤ ، ٥ . (٧) القصص : ٨٨ . (٨) النساء : ٢٣.

إلى معرفة فهو عام فى كل النساء غير أنه خصص بالوصف وهو قوله اللاتى دخلتم بهن .

٣ ـ الشرط نحو قوله تعالى : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ (١) ، فلفظ الذين يبتغون عام فى كل عبد يطلب المكاتبة غير أنه خصص بالشرط وهو قوله تعالى : ﴿ **إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ (٢) .

٤ ـ الغاية نحو قوله تعالى :﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ (٣) فالموصول عام فى كل أفراده بحيث يقاتل كل أفراده غير أنه خصص بالغاية وهى إعطاؤهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإذا أعطاها الفرد أو الجماعة كف عنهم القتال .

٥ ـ بدل البعض نحو قوله تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾ (٤) فلفظ الناس عام فى كل فرد من أفراد المسلمين غير أنه خصص ببدل البعض وهو من استطاع إليه سبيلا ، فمن بدل لفظ الناس العام .

وأما المخصص المنفصل فقد يكون آية مذكورة فى موضع آخر من كتاب الله تعالى ، أو يكون سنة نبوية صحيحة ، أو يكون إجماعا ، أو قياسا فمثال الآية قوله تعالى : ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ (٥) فإنه عام فى كل مطلقة غير أنه خصص بآية الأحزاب ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها** ﴾ (٦) كما خصص بقوله تعالى من سورة الطلاق : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ (٧) فآية الاعتداد بالإقراء عامة فى كل مطلقة غير أنها خصصت بالمطلقة قبل البناء حيث لا عدة عليها ، وبالحامل والآيس فإن عدة الأولى بوضع حملها وعد الثانية بالأشهر وهى ثلاثة أشهر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾ (٨) وهو عام فى كل النساء غير أنه مخصوص بآية النساء ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم** ﴾ (٩) ... إلخ ومثال العام

---

(١) النور : ٣٣ . (٢) النور : ٣٣ . (٣) التوبة : ٢٩ .
(٤) آل عمران : ٩٧ . (٥) البقرة : ٢٢٨ . (٦) الأحزاب : ٤٩ .
(٧) الطلاق : ٤ . (٨) النساء : ٣ . (٩) النساء : ٢٣ .

المخصوص بدليل منفصل من السنة قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم** ﴾ (١) فإن هذا اللفظ القرآني عام في كل ميتة ودم فخصصته السنة وهي قوله ﷺ : « أحل لنا ميتان ودمان فالميتان السمك والجراد ، والدمان الكبد والطحال » ومنه قوله تعالى : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ (٢) فهو لفظ عام في كل بيع وفي كل ربا غير أن الأول خص بما نهى عنه رسول الله ﷺ من سائر البيوع الفاسدة كبيع ما ليس عنده ، وبيع الغرر ، وبيع المحرم كالخمر والصور وما إلى ذلك ، والثاني خص ببيع العرايا حيث أجاز ذلك الرسول ﷺ رخصة للأمة لحاجتها لذلك ، ومنه ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ (٣) فهو عام في كل سرقة غير أنه خص بالسنة بما دون ربع دينار ، ومثال خاص بالإجماع آية المواريث وهي عامة في كل وارث مخصوصة بالعبد فإنه لا يرث إجماعا ، ومثال ما خص بالقياس آية الزنا : ﴿ **فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾ (٤) خص منها العبد بالقياس فإنه لا يجلد إلا خمسين جلدة قياسا على الأمة التي عليها نصف العذاب فقط بقوله تعالى : ﴿ **فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾ (٥) .

فروع :

الأول : يوجد بقلة خاص قرآني مخصص لعموم سنة نبوية مثاله قوله تعالى : ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ (٦) فإنه مخصص لعموم قوله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ... وأن محمدا رسول الله » ومن قوله تعالى : ﴿ **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين** ﴾ (٧) ، فإنه مخصص لعموم قوله ﷺ : « ما أبين من حي فهو ميت فالأصواف والأوبار والأشعار تبان بالجزمن الحيوان الحي » ، وهي طاهرة حلال بالإجماع ، فخص القرآن عموم السنة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ (٨) فقد خص عموم قوله ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » .

الثاني : اختلف في العام إذ سيق للمدح أو الذم فهل يبقى على عمومه أو لا ؟ ، والمذهب الوسط في هذه المسألة الفرعية أنه يبقى على عمومه ما لم يعارضه عام آخر لم

---

(١) المائدة : ٣. (٢) البقرة : ٢٧٥ . (٣) المائدة : ٣٨ . (٤) النور : ٢ .
(٥) النساء : ٢٩ . (٦) التوبة : ٢٩ . (٧) النحل : ٨٠ . (٨) الحجرات : ٩ .

يسق لذلك ، فإن عارضه خص ولم يعم مثاله مع عدم المعارض قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم** ﴾ (١) ، فإن لفظ الأبرار والفجار كل منهما عام وبقى على عمومه فى كل بار وفاجر ، وإن سيق الأول للمدح والثانى للذم ، ومثاله مع المعارض قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ (٢) ، فإنه سيق للمدح وهو عام وظاهره أنه يعمّ الأختين بملك اليمين جمعا بينهما ، غير أنه عارضه فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وأن تجمعوا بين الأختين** ﴾ (٣) فإنه شامل لجمعهما بملك اليمين ولم يسق للمدح ، فحمل الأول على غير ذلك بأن لم يرد تناوله له .

ومثاله فى الذم قوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ (٤) الآية فإنه سيق للذم وظاهره يعم الحلى المباح ، غير أنه عارضه فى ذلك حديث جابر : « ليس فى الحلى زكاة » فحمل الأول على غير ذلك .

الثالث : اختلف فى ثلاثة من أنواع الخطاب هل تعم أو تخص من خوطب بها لا غير وهى :

١ ـ خطاب الرسول ﷺ نحو : ﴿ **يأيها النبى** ﴾ (٥) ﴿ **يأيها الرسول** ﴾ (٦) فقيل : يعم أمته ، لأن أمر القدوة أمر لأتباعه وقيل : لا يعم لأن الصيغة خاصة به ، والصحيح فى هذه المسألة أن القرائن هى التى تحدد ، فإن دلت قرينة على عمومه عم ، وإن دلت على خصوصه خص ، فمثال الخاص للقرينة قوله تعالى : ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ (٧) ، ومثال العام : ﴿ **يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾ (٨) ، ﴿ **يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة** ﴾ (٩) فالأول خاص به ﷺ لأنه هو المبلغ عن الله تعالى ، والثاني والثالث عام يتناول الأمة لأن ـ تقوى الله مأمور بها النبى ﷺ وأمته ، وكذلك الطلاق الأول ـ العدة مأمور به النبى ﷺ وأمته .

٢ ـ الخطاب ﴿ **بيأيها الناس** ﴾ هل يشمل الكافر والعبد فى المسألة خلاف والأصح أنه يشملهما لعموم الخطاب .

٣ ـ الخطاب ﴿ **بيأيها الناس** ﴾ هل يشمل المؤمنين ، الأصح أنه لا يعمهم ، كما أن

(١) الانفطار : ١٣ ، ١٤ . (٢) المؤمنون : ٥ ، ٦ . (٣) النساء : ٢٣ .
(٤) التوبة : ٣٤ . (٥) ورد فى القرآن الكريم ١٠ مرات . (٦) ورد مرتين فى القرآن الكريم .
(٧) المائدة : ٦٧ . (٨) الأحزاب : ١ . (٩) الطلاق : ١ .

الخطاب ﴿ **بيأيها الذين آمنوا** ﴾ لا يشمل أهل الكتاب ، لأنهم غير مكلفين بفروع الشريعة .

المجمل والمبين

.تعريف:

ما المراد بالمجمل والمبين ؟ ؟

إن المراد بالمجمل من كلام الله وكلام رسوله ﷺ هو ما كان خفى الدلالة على المعنى المراد منه ، والمبين خلاف المجمل وهو ما اتضحت دلالته ، وفهم المعنى المراد منه .

ووجود مجمل فى كلام الله تعالى أمر لا ينكر غير أن المجمل هو مما لا تتوقف عليه سعادة الأمة الإسلامية وكمالها فى الدنيا والآخرة ، وإن وجد مجمل له مساس بحياة المسلمين فإنه يوجد له مبين قطعا سواء من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ .

أسباب الإجمال :

للإجمال أسباب هى :

١ ـ الاشتراك وهو أن يدل اللفظ القرآنى على معنيين أو أكثر مثل كلمة (عسعس) فإن أصل وضعها الدلالة على معنى الإدبار والإقبال فكان قوله تعالى : ﴿ **والليل إذا عسعس** ﴾ (١) مجملا لأنه متردد بين أدبر وأقبل غير أنه وجد له مبين من سورة المدثر وهو قوله تعالى : ﴿ **كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر** ﴾ (٢) فبين أن عسعس معناه أدبر فى آية التكوير كما أن لفظ « القرء » مجمل لتردده بين الطهر والحيض واحتماله كلا منهما غير أن السنة بينت المراد منه وأنه الطهر ، وذلك لحديث الصحيح وهو أن ابن عمر طلق امرأته وهى حائض فأخبر عمر رضى الله عنه رسول الله ﷺ ذلك ، فقال له : « مره ليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها » ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء ، إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** ﴾ (٣) .

٢ ـ الحذف أى حذف حرف من حروف المعانى من التركيب فيتسبب عن حذفه خفاء فى المعنى المراد مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **وترغبون أن تنكحوهن** ﴾ (٤) فإن

---

(١) التكوير : ١٧ . (٢) المدثر : ٣٢ ـ ٣٤ . (٣) الطلاق : ١ . (٤) النساء : ١٢٧ .

المحذوف قبل أن المصدرية قد يكون (فى) وقد يكون (عن) ، فإن كان (فى) كانت الرغبة فى نكاحهن ، وإن كان المحذوف (عن) كانت الرغبة فى عدم نكاحهن.

٣ ـ اختلاف مرجع الضمير فإن قوله تعالى من سورة فاطر : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ (١) ، قد اختلف فى مرجع الضمير من قوله يرفعه هل هو عائد إلى عائد العمل الصالح ، أو إلى الله تعالى فسبب هذا الاحتمال خفاء فى المعنى فكان إجمالا فى الكلام .

٤ ـ احتمال العطف والاستئناف فى قوله تعالى : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ... ﴾ (٢) فإن الواو فى والراسخون محتملة للعطف ، فيكون الراسخون فى العلم يعلمون تأويل بعض المتشابه ، فسبب هذا الاحتمال إجمالا فى اللفظ .

٥ ـ التقديم والتأخير لبعض أجزاء الكلام يسبب إجمالا فى المعنى وخفاء فى المراد منه ، مثال قوله تعالى : ﴿ **يسألونك كأنك حفى عنها** ﴾ (٣) .

فإن أصل التركيب : يسألونك عنها أى عن الساعة كأنك حفى بها ، فلما أخر لفظ عنها عن موضعه سبب خفاء فى المعنى فكان إجمالا فى التركيب ، ومثله : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما** ﴾ (٤) فإن أصل التركيب أنزل على عبده الكتاب قيما ، ولم يجعل له عوجا ، فلما أخر لفظ قيما سبب خفاء فى المعنى فكان التركيب به مجملا .

إيضاح :

قد يقع التبيين متصلا نحو قوله تعالى من الفجر بعد قوله : ﴿ **كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ (٥) ، فقوله من الفجر بيان للخيطين اللذين يحتمل أن يكون المراد منهما حقيقتهما أو كنايتهما وهى ضوء النهار وظلام الليل .

وقد يقع البيان منفصلا فى آية أخرى بعيدا من الآية المجملة المطلوب لها البيان نحو قوله تعالى : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات** ﴾ (٦) ، من سورة البقرة فإن الإجمال فى الكلمات جاء بيانه فى سورة الأعراف وهو قوله تعالى : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم**

---

(١) فاطر : ١٠ . (٢) آل عمران : ٧ . (٣) الأعراف : ١٨٧ .
(٤) الكهف : ١ . (٥) البقرة : ١٨٧ . (٦) البقرة : ١٣٧ .

تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (١) كما أن قوله تعالى من سورة القيامة : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ (٢) دال على جواز رؤية الله تعالى يوم القيامة ، ومبين لآية الأنعام وهى قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ (٣) ، وأن المراد من عدم إدراك الأبصار له الإحاطة به لا مجرد الرؤية الثابتة بآية سورة القيامة الآنفة الذكر، وكذا قوله تعالى : ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره** ﴾ (٤) ، بعد قوله : ﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾ (٥) فإنها بينت أن المراد به الطلاق الذى يملك المطلق الرجعة معه ولولاها لكان الطلاق منحصرا فى الطلقتين ، وقد ورد أن النبى ﷺ سئل عن الطلقة الثالثة ؟ فقال : « التسريح بإحسان » ونحو قوله تعالى من سورة الزخرف : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا** ﴾ (٦) ، فالموصول مجملا لا يدرى المراد منه ، وبين بأنه الأنثى من سورة النحل فى قوله تعالى : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به** ﴾ (٧) .

وقد يقع التبيين بالسنة مثل قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ (٨) ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ (٩) فهذه كلها مجملة لاتدرى كبقياتها ، وما هو المراد منها حتى بينها الرسول ﷺ بقوله وعمله فأصبح المراد منها ظاهرا معلوما يباشره كل مسلم .

المطلق والمقيد

تعريف:

المطلق : اسم مفعول من أطلق فى كلامه عممه ولم يقيده .

والمقيد : خلافه وهو اسم مفعول من قيد الكلام تقييدا . إذا بين معناه وحدده ، فمثال القول المطلق قوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ (١٠) ، فإن الشهود لم يقيدوا فى هذه الآية بأى قيد يحددهم ، ومثال القول المقيد قوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ (١١) ، فإن لفظ الشهود هنا قيد بالعدالة .

---

(١) الأعراف : ٢٣ . (٢) القيامة : ٢٢ ، ٢٣ . (٣) الأنعام : ١٠٣ . (٤) البقرة : ٢٣٠ .
(٥) البقرة : ٢٢٩ . (٦) الزخرف : ١٧ . (٧) النحل : ٥٨ ، ٥٩ . (٨) البقرة : ٤٣ . ومواضع أخرى .
(٩) البقرة : ١٩٦ . (١٠) البقرة : ٢٨٢ . (١١) الطلاق : ٢ .

أدوات التقييد :

إن للتقييد أدوات منها :

١ ـ القيد بالوصف وذلك كقوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم** ﴾ [١] فلفظ الدم هنا مطلق يعم كل دم ، غير أنه قيد بالمسفوح من آية الأنعام : ودما مسفوحا فحل ما عداه من الدماء غير المسفوحة وهى المختلطة باللحم والعظم .

٢ ـ القيد بالشرط فى مثل قوله تعالى : ﴿ **فيمت وهو كافر** ﴾ [٢] من قوله من سورة البقرة : ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والاخرة** ﴾ [٣] ، فلفظ من يرتد مطلق عام فى كل مرتد وظاهره أن كل مرتد يحبط عمله كقوله تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الاخرة من الخاسرين** ﴾ [٤] من سورة المائدة ، غير أن قوله تعالى : ﴿ **فيمت وهو كافر** ﴾ [٥] وذكر قيدا فلا يحبط عمل مرتد إلا إذا مات وهو كافر والعياذ بالله تعالى .

٣ ـ القيد بالغاية ومثاله قوله تعالى فى آية الوضوء : ﴿ **فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** ﴾ [٦] فقد قيد غسل اليدين بالمرافق ، والمطلق فى آية التيمم إذ قال تعالى : ﴿ **فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه** ﴾ [٧] فقيد هذا المطلق بذاك المقيد فكان بعض العلماء يمسح اليدين إلى المرفقين فى التيمم .

كيفية العمل فى المطلق :

إن كيفية العمل فى هذه المسألة الأصولية المتعلقة بنصوص الكتاب والسنة المطلقة والمقيدة هى : أن يحمل المطلق على المقيد قياساً من جهة وكون الوضع اللغوى يقتضى هذا من جهة أخرى ، لأن العرب من أساليب كلامهم الإيجاز والاختصار فيطلقون اللفظ أحياناً ولا يقيدونه اكتفاء بما قيد به فى موطن آخر من كلامهم .

وعليه : فيحمل النص الشرعي المطلق على المقيد بقيد من القيود التى ذكرناها آنفا ، وهذا بشرط أن يتحد الحكم ولا يختلف ، أما إذا اختلف فإنه لا يحمل مع الاختلاف مطلق على مقيد .

---

(١) المائدة : ٣ .　(٢ ، ٣) البقرة : ٢١٧ .　(٤) المائدة : ٥ .
(٥) البقرة : ٢١٧.　(٦) المائدة : ٦ .　(٧) النساء : ٤٣ ، المائدة : ٦ .

أمثلة لما اتحد فيه الحكم فحمل المطلق فيها على المقيد :

١ ـ تحريم الدم ورد مطلقاً في ثلاث آيات من القرآن وورد في آية رابعة مقيداً وهي آية الأنعام إذ قال تعالى : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة و دما مسفوحاً أو لحم خنزير** ﴾ (١) ، فقد ذكر هنا الدم مقيداً بالمسفوح وهو السائل فحمل المطلق في الآيات الأخرى على هذا المقيد فكان لا يحرم من الدم إلا ما كان مسفوحاً أما ما كان بالعروق أو المخ أو اللحم فلا يحرم لأنه ليس من المسفوح .

٢ ـ تقييد آيات المواريث المطلقة بالآيات المقيدة كقوله تعالى : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ (٢) إلخ ، فإنها مطلقة وآية ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾ (٣) مقيدة فحملت المواريث المطلقة على المقيدة فلا تقسم تركة ورثتها إلا بعد إخراج الوصية وتسديد الدين .

٣ ـ إطلاق الشهادة في البيع في قوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ (٤) وتقييدها بالعدالة في الإشهاد على الطلاق والرجعة والزواج لقول الله تعالى : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ (٥) فحمل المطلق على المقيد واشترطت العدالة في شهود البيع وغيره .

٤ ـ أطلق لفظ ﴿ **الرقبة** ﴾ في آية الكفارة الظهار واليمين ، وقيد بالإيمان في آية كفارة القتل ، فحمل أهل العلم المطلق على المقيد واشترطوا لصحة العتق إيمان المعتوق ، فلا تجزىء رقبة كافرة في كفارة ظهار أو يمين ، كل هذا لأن الحكم متحد في هذه الأمثلة التي قدمنا ، أما إذا اختلف الحكم فلا يحمل مطلق على مقيد .

مثالان لما اختلف فيه الحكم :

١ ـ ورد الأمر بغسل الأعضاء الأربعة في الوضوء ، والأمر بمسح عضوين في التيمم فقط وهما الوجه واليدان ، فهل يحمل مطلق التيمم على مقيد الوضوء فيمسح الرأس والرجلان في التيمم ؟ والجواب لا ، وذلك لاختلاف الحكم وهو أن الوضوء عبادة خاصة ، والتيمم عبادة خاصة ، فلا يصح فيهما حمل مطلق إحداهما على مقيد الأخرى .

٢ ـ ذكر في كفارة الظهار ثلاثة أمور : الصيام والعتق والإطعام ، ولم يذكر في كفارة

(١) الأنعام : ١٤٥ . (٢) النساء : ١١ . (٣) النساء : ١١ ، ١٢ .
(٤) البقرة : ٢٨٢ . (٥) الطلاق : ٢ .

القتل إلا العتق والصيام ، فهل إذا عجز القاتل عن العتق لعدم وجود ما يعتق أو لعدم وجود ما يشترى به الرقبة ينتقل إلى الإطعام كصاحب كفارة الظهار ؟

والجواب لا ، وذلك لاختلاف الحكم إذ الأول ظاهر من امرأته ، والثانى قتل نفساً مؤمنة ، فلا يحمل المطلق فى كفارة القتل على المقيد فى كفارة الظهار .

(تنبيه)

إن دل دليل على إطلاق لفظ وجب إبقاؤه على إطلاقه ، وإن دل دليل على تقييد لفظ وجب تقييده ، مثاله : فقد دل الدليل على وجوب تتابع صيام كفارة الظهار والقتل فوجب العمل على ذلك ، ودل الدليل على تفرقة صيام التمتع بقوله تعالى : ﴿ **فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم** ﴾ (١) فوجب العمل على تفريقه ، وأطلق صيام كفارة اليمين وقضاء رمضان ، فوجب بقاؤه على إطلاقه لأن إلحاقه بأحد القيدين ليس بأولى من الآخر ، وذلك لتنافى القيدين بالتفرقة والتتابع .

إعجاز القرآن
وكونه آية محمد فى إثبات نبوته ﷺ

تمهيد :

إن البحث فى إعجاز القرآن ، وإثبات كونه معجزاً ليس مقصوداً لذاته وإنما هو وسيلة لأشرف غاية وأنبلها ، وهى إثبات نبوة من نزل عليه ، وأوحى به إليه ، وذلك لتوقف سعادة الإنسان وكماله على الإيمان بهذه النبوة ، والحياة على منهاجها القويم ، صلى الله على صاحبها أفضل صلاة وسلم عليه أزكى تسليم ، ومن هنا فقد عنى كثير من أهل العلم قديماً وحديثاً بإعجاز القرآن فألفوا فيه الرسائل ووضعوا الكتب لما فى ذلك من إثبات الرسالة المحمدية وتقريرها ، تلك الرسالة التى لو أخذت بها البشرية لنجت من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، ومن بين الذين ألفوا فى هذا الموضوع وكتبوا الحافظ السيوطى فى « الإتقان » والزركشى فى « البرهان » والزرقانى فى « مناهل العرفان » ، وقبلهم الخطابى والرمانى ، والزملكانى ، والباقلانى ، وما كتبه الأخير قال فيه ابن العربى المعافرى : إنه لم يؤلف مثله .

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

تعريف :

الإعجاز : مصدر أعجزه الشيء يعجزه إعجازاً إذا فاته ولم يقدر عليه ، ومنه : ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض** ... ﴾ (١) الآية . ، وإعجاز القرآن لفظ مركب تركيباً إضافياً أضيف فيه المصدر إلى فاعله ، وحذف مفعوله ، إذ التقدير : إعجاز القرآن الخلق فى الإتيان بمثله كلا ، أو بعضاً كسورة أو عشر منه .

بداية التحدى :

إن بداية تحدى القرآن الكريم للعرب الذين نزل بلغتهم كانت يوم أنكروا أن يكون ـ القرآن كلام اللّه تعالى ووحيه أنزله على رسوله المستلزم لإنكار نبوة صاحبه المنزل عليه محمد ﷺ .

كيف كان التحدى ؟

إنه لما واجهت قريش دعوة التوحيد ـ لا إله إلا اللّه ـ واضحة صريحة مستهدفة أوثانها تريد إزالتها والقضاء عليها بل وإنهاء وجودها الذى طالما حجب القلوب عن نور الحق والعقول عن هدى اللّه ، أن تفكر فيه ، أو تهتدى به ، وكان القرآن الكريم هو حامل راية الكفاح ضد تلك الآلهة ، يوالى هجماته المركزة على باطل الأوثان وأهله ، فيسفه الأحلام ويسخر من عقول المشركين ويستهجن سلوكهم ، ويتحداهم فى آلهتهم كما هو ظاهر آياته التالية :

﴿ **إنكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ (٢) .

﴿ **إن الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ (٣) .

﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون اللّه من لا يستجيب له يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ (٤) .

﴿ **أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ (٥) .

---

(١) العنكبوت : ٢٢ ، الشورى : ٣١ . (٢) الأنبياء : ٩٨ . (٣) الحج : ٧٣ .
(٤) الأحقاف : ٥ ، ٦ . (٥) الأعراف : ١٩١ ، ١٩٢ .

﴿ إن الذين تدعون من دون اللّه عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ (١) .

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ (٢) .

لما واجهت قريش حامية حمى الوثنية والذائدة عن حياضها بسيف عزم باطلها لما واجهت دعوة الحق : **﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾** (٣) .

لما واجهت هذه الدعوة فى حرارتها وقوة تأثيرها لم تجد بداً من أن تثير الشبه حول حامل رايتها وهو القرآن ، فتشكك الناس فيه وفى صحته وخيريته ، وسلكت لذلك مسالك متعددة ، فقالت : **﴿ ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾** (٤) ، **﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾** (٥) ، **﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾** (٦) ، **﴿ إن هذا إلا إفك افتراه ﴾** (٧) ، **﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾** (٨) ، وأخيراً قالت : **﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾** (٩) ، ولما بلغت هذا الحد من التبجح والاستهتار والاستخفاف تعين تحديها كسراً لحدة تغاليها فى الباطل وتعاليها على الحق ، وهكذا بدأ التحدى فأنزل اللّه تعالى فى ذلك قوله من سورة الإسراء : **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾** (١٠) .

ومعنى هذه الآية : هو قطع طمع معارضة القرآن والانتصار عليه ، واستحالة الإتيان بمثله حتى لو اجتمع على ذلك الإنس والجن ، وكان بعضهم لبعض كمساعداً ومعيناً .

كما أنزل قوله جل ذكره : **﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ،**

---

(١) الأعراف : ١٩٤ ، ١٩٥ . (٢) الأعراف : ١٧٩ . (٣) فصلت : ٦ ، ٧ .
(٤) الأحقاف : ١٧ . (٥) المدثر : ٢٤ . (٦) المدثر : ٢٥ .
(٧) الفرقان : ٤ . (٨) الفرقان : ٥ . (٩) الأنفال : ٣١ .
(١٠) الإسراء : ٨٨ .

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ﴾ (١) .

وأنزل قوله فى تحدى المشركين لا بالقرآن كله ، ولا بعشر سور مثله بل سورة واحدة من مثله : ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾** (٢) .

إلى أين انتهى هذا التحدى ؟

إن هذا التحدى القرآنى الكبير قد انتهى بيأس المشركين يأساً تاماً من أن يعارضوا القرآن المعجز لهم بأى وجه من الوجوه ، ومن هنا غيروا خطتهم فى محاربتهم للحق ، وفى دفاعهم عن الباطل فراحوا يطالبون النبى ﷺ بالمعجزات المادية الحسية كالتى كانت للأنبياء من قبله ، ﴿ **فقالوا لولا يأتينا بآية من ربه** ﴾ (٣) ، ﴿ **وقالوا يأيها الذى أنزل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين** ﴾ (٤) ، ﴿ **وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه** ﴾ (٥) ، وهم يعبثون بهذه الخوارق الكونية وهو ما يعرف فى لسان الشرع بالمعجزات وهى الأمور الخارقة للعادة المقرونة بالتحدى السالمة عن المعارضة كناقة صالح وعصى موسى عليهما السلام ، وألحوا فى المطالبة ، والله تعالى لم يجبهم لذلك رحمة بهم ، إذ من سنته تعالى فى هذا الشأن أن الناس إذا طالبوا بالآيات وألحوا فى طلبها يجابون لها مشروطة بإيمانهم أو هلاكهم ، وهو يعلم أن هؤلاء المشركين فاقدون لكل استعداد يجعلهم يؤمنون إن رأوا الآيات ، كما قال تعالى : ﴿ **ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله** ﴾ (٦) ، ﴿ **ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾ (٧) ، فلذا لم يجبهم تعالى لهذا بل كان يصرفهم عنه كلما طلبوا منه ، وليس معنى هذا أن الله تعالى لم يعط نبيه محمداً ﷺ من المعجزات ما يؤمن عليه البشر فقد أعطاه عشرات المعجزات ، كحنين الجذع له ، ورده عين قتادة بعد ما تدلت على وجنته ، وكتكثير الطعام له حتى أن المد الواحد يكفى بضعة مئات ، غير أن هذه المعجزات ما

(١) هود : ١٣ ، ١٤ . (٢) يونس : ٣٧ ، ٣٨ . (٣) طه : ١٣٣ .
(٤) الحجر : ٦ ، ٧ . (٥) الأنعام : ٣٧ .
(٦) الأنعام : ١١١ . (٧) الحجر : ١٤ ، ١٥ .

كانت مقرونة بالتحدى كراهية أن لا يؤمن بعدها من طلبها ، فيهلك .

أكبر آية وأعظم معجزة :

إن أكبر آية على وحدانية اللّه تعالى ، وصدق نبوة رسوله محمد ﷺ هو القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته وبشرائعه وأحكامه بعلومه ومعارفه ، بغيوبه وأنبائه ، بهدايته وتأثيره ، بسلامته وحفظه .

لما ألح المشركون فى طلب الآيات كما جاء ذلك فى مواضع شتى من القرآن الكريم قال تعالى لهم : ﴿ **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾ (١) فأكبر آية كانت لمحمد ﷺ على صدق نبوته وثبوت رسالته هى هذا القرآن الكريم ، وهى آية عقليه باقية ببقاء البشرية على هذه الكرة الأرضية ، وفيها يقول عليه الصلاة والسلام كما فى الصحيح « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه اللّه إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

إن المعجزات العادية والآيات الكونية تنتهى بالساعة التى ظهرت فيها ، وبالأفراد الذين شاهدوا ظهورها ، فهى لذلك محدودة التأثير سريعة الزوال والنسيان ، وإن قامت بها الحجة على من شاهدها ، فإن من لم يشاهد لم تقم بها عليه حجة ، من هنا كانت آية القرآن العظيم أعظم الآيات ، وأكثرها نفعاً ، وأجلها قدراً ، وأكبرها تأثيرا على النفوس لأنها آية عقلية ، سلطانها على النفوس أقوى من سلطان الآيات الكونية فلذا قال ﷺ : « فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » أى اتباعاً ، وهو كما قال : فلم تكن أمة فى الأرض من أمم الدين الصحيح أكبر من هذه الأمة المحمدية .

وإذا كان القرآن أكبر آية فإن كون النبى محمد ﷺ أمياً لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدى أستاذ قط ، ثم هو يوحى إليه بمثل هذا القرآن العظيم فيمليه على أصحابه فيكتبونه آيات وسورا حتى يكتمل سفرا لاسفر أعظم منه فيه من شتى الفنون والعلوم ، وصنوف الهداية الإلهية ما هو عجب فى بابه فيحيى اللّه به نفوساً ميتة ، ويفتح به قلوباً غلفاء ، ويسمع به آذاناً صما وتتحقق على شرائعه وآدابه حضارة إسلامية لم تر عين الوجود مثلها ، إن هذا لمعجزة من أعظم المعجزات كما قال القائل :

---

(١) العنكبوت : ٥١ .

وأخيراً :

وبعد الصراع المرير بين التوحيد والشرك فى مكة ، وبعد استنفاذ المشركين كل قواهم فى محاربة دعوة التوحيد وصاحبها وكتابها : دعوة التوحيد هى لا إله إلا اللّه ، وصاحبها هو محمد رسول اللّه ﷺ ، وكتابها هو القرآن الكريم ، حتى عذبوا كل من يقول لا إله إلا اللّه ، محمد رسول اللّه ، وألجأهم إلى الهجرة إلى الحبشة مدة وإلى المدينة أخرى ، وبلغ بهم حرصهم على خنق دعوة الحق فى مهدها والقضاء عليها قبل اكتمالها ، واستفحال أمرها حتى جعلوا نقاط تفتيش على مداخل مكة المكرمة ليتعرفوا إلى هوية كل داخل إلى مكة ، وفى القرآن الكريم مصداق هذا : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم : قالوا أساطير الأولين** ﴾ (١) ، إذ كان الرجل يسمع لدعوة الحق فى مكة فيأتى ليتعرف عليها فيسأل فى نقاط التفتيش عما جاء به ، فيقول : سمعت كيت وكيت ، فيقولون له : أساطير الأولين : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ (٢) .

بعد هذا أو ذاك ، وبعد حرب ضروس ذاق فيها المشركون مرارة القتل والأسر ، والهزيمة على أيدى من استضعفوهم بالأمس واضطهدوهم ، وألجأوهم إلى الهجرة وترك الدار والأهل والمال ، يرفع من دار الهجرة صوت علوى كريم : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا للّه أنداداً وأنتم تعلمون ، وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون اللّه إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ (٣) .

إن هذا الصوت العلوى الذى ارتفع لهم من المدينة النبوية معقل التوحيد ، ومأرز الإيمان ، وعاصمة الإسلام يعاودهم مرة أخرى فيخاطب ضمائرهم ، وينادى عقولهم ، ويحرك مشاعرهم ، فيدعوهم إلى عبادة ربهم ليقوا أنفسهم من نقمه وسخطه وعذابه ، محذراً إياهم من الإصرار على الشرك بعد معرفتهم بطلانه ، وسوء عاقبة أهله ، ويدعوهم إلى التعقل والتفهم فيقول : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ (٤) إن المفروض فيكم أن لا يبقى عندكم إلى الآن شك فى أن ما أنزله اللّه تعالى

---

(١) النحل : ٢٤ . (٢) فصلت : ٢٦ . (٣) البقرة : ٢١ ـ ٢٤ . (٤) البقرة : ٢٣ .

على عبده ورسوله محمد ﷺ هو الحق والخير والرحمة والهدى ، وعلى فرض بقاء شيء من الشك فى نفوسكم فعارضوه فأتوا بسورة من أمى مثل صاحبه الذى نزل عليه ، ولكم أن تستعينوا على ذلك بكل من ترون أنه يعينكم على الخروج من ورطتكم ، من شاهد وغائب ، إن كنتم صادقين فى دعواكم أنكم لم تستعينوا أن يكون هذا النور نزل من عند اللّه على من اصطفاه اللّه له فأوحاه إليه ، وأنزله عليه .

ثم يحملهم على اليأس النهائى فى معارضة فيقول لهم : ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ (١) ، ويطلب إليهم بعد وضوح الدليل على عجزهم أن يكفوا وجوههم من النار التى هى لازمة للكافرين المجاحدين المعاندين .

ومن يوم أن قال تعالى : ﴿ **ولن تفعلوا** ﴾ إلى يومنا هذا كان الزمن قد تجاوز ألفاً وثلثمائة ونيفاً وتسعين سنة ، ولم يستطع المشركون المناوئون للقرآن من كل الأمم والشعوب لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، فهذا هو التحدى القرآنى للعالمين ، وهذا هو إعجاز القرآن للناس أجمعين ، فبم كان هذا الإعجاز أبألفاظ القرآن دون معانيه ؟ أم بألفاظه ومعانيه ؟ أم كان بصرف ربانى لمعارضيه ؟ .

القرآن معجز بألفاظه :

إن ألفاظ القرآن الكريم مفردات وجملاً وتراكيب وبغض الطرف عما تحمله من معانى جليلة جميلة معجزة بأتم معنى كلمة الإعجاز ، فلا طاقة لأحد من الناس أن يتحداها ويأتى بمثلها ، وذلك لا نتقائها من سامى الكلمات فى لغة العرب وشريف مفردات لغتها لفى الذروة ، من ذلك فلم ترد كلمة واحدة من عشرات آلاف الكلمات مستهجنة أو مسترذلة أو غير فصيحة فى بابها ، وهذا يقر به ويعرفه كل ذى ذوق بلغة العرب ومعرفة فصاحة مفرداتها وبلاغة تراكيبها ، والأكثر إعجازاً من ذلك تناسب الكلمات عند إسنادها ، وفى حال تركيبها فتتلائم فى الجمل وتتآخى فى التراكيب وتتناسب فى الكلام حتى تكون كأنها سبيكة ذهبية أو صوت ملائكى يهز القلوب هزاً ، ويحرك الضمائر والمشاعر تحريكاً ، لا يفعل مثله أى كلام على الإطلاق وهذه صورة من ذلك التناسب : جاء من سورة الرحمن : ﴿ **وجنى الجنتين دان** ﴾ (٢) ، فلفظ « الجنى » رقيق جميل ولفظ « الجنتين » أكثر رقة وجمالاً ولفظ « دان » له نغم خاص ذو حلاوة غريبة ، وعند التركيب تكون من تلك الكلمات الثلاث كلام تقصر دونه قرائح البلاغيين ، وتنعقد عن مثله ألسنة

---

(٣) البقرة : ٢٤ . (٢) الرحمن : ٥٤ .

البيانيين ، وما ذاك إلا لجمال الكلمات وتناسب تركيبها إذا لو طلبنا فى لغة العرب مفردات ثلاث أخرى تنوب كل واحدة منها عن الأخرى وركبناها فقلنا : « وثمر البستانيين قريب » لأصبح التركيب فى غاية الحطة والسفول ، ولما بقى له من حلاوة ولا طلاوة .

وجاء من سورة أخرى : ﴿ **وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب** ﴾ (١) فمفردات هذا التركيب كل واحد منها فى غاية الجمال والفصاحة « أخرى تحبونها » ، « نصر » ، « من الله » ، « وفتح قريب » ولما ركبت ازدادت حسناً وجمالاً ولو أردنا استبدال كل كلمة بما يدل على معناها فقلنا : واحدة تودون تأييد من الإله ، وانتصار دان ، لكانت الكلمات هابطة لاجمال فيها ولاحسنا ، ولو ركبناها وقلنا : وواحدة تودونها تأييد من الإله ، وانتصاراً دان ، لكان الكلام ، ممجوجاً ساقطاً بارداً ، تغلق دونه طرق الإسماع وتقفل أمامه أبواب القلوب ، وهذا دال على أن القرآن معجز بألفاظه مفردة ومركبة كما قلنا سابقاً .

القرآن معجز بمعانيه :

وكما أن القرآن معجز بألفاظه هو معجز كذلك بمعانيه ، ولهو بمعانيه أشد إعجازا منه بألفاظه وتراكيبه ، وهذا بيان ذلك .

إن معانى الخير والهدى ، والرحمة والإحسان ، والحق والعدل ، والمعروف والجميل ، هذه المعانى هى التى جعلت القرآن العظيم يتسامى فوق كل كلام بشرى ، ويرتفع إلى مستوى تستحيل معه مداناته فضلاً عن مساواته والتفوق عليه ، ولكل هذه المعانى النبيلة مظاهر تتجلى فيها :

المظهر الأول : مظهر الخير :

لقد قرر القرآن معانى الخير كلها ، وجاء بها ، ودعا إليها ، فأمر بالبر والتعاون عليه فى قوله فيه : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾ (٢) والبر : اسم جامع لكل خير ، ونهى عن ضد الخير وهو الشر وحذر من إتيانه فى قوله : ﴿ **ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ (٣) والإثم : اسم جامع لكل ضار فاسد يضر بالإنسان فى جسمه أو عقله أو عرضه أو روحه ، وأمر بالصدق ، وهو من الخير أمر به فى القول والفعل ونهى عن ضده وهو الكذب والخيانة فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ (٤) وقال : ﴿ **يأيها**

---

(١) الصف : ١٣ .	(٢ ، ٣) المائدة : ٢ .	(٤) التوبة : ١١٩ .

الذين آمنوا لا تخونوا اللّه والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ [1] وأمر بصلة الرحم وإيتاء ذى القربى ما هـو حق لهم من المعروف والبر والصـلة والإحسان وهذه كلها من الخير ، فقال : ﴿ **والذين يصلون ما أمر اللّه به أن يوصل** ﴾ [2] ، ومما أمر اللّه به أن يوصل هو الأرحام ، لأنها رباط المجتمع السليم القوى الذى يوفر لأفراده السعادة والهناء ، وقال : ﴿ **فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل** ﴾ [3] وأمر بالوفاء فى كل العهود والعقود والالتزامات الشخصية والدولية فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ [4] وأمره بها نهى عن أضدادها من النكث والخلف والنقض ، وأمر بالزكاة ودعا إلى الصدقات إشاعة للخير بين الناس ، وتعميماً للفضل بينهم والإحسان ، ونهى عن البخل والشح ومنع المعروف فقال : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ [5] ، وقال : ﴿ **والمتصدقين** ﴾ [6] ، وقال : ﴿ **وأقرضوا اللّه قرضاً حسناً** ﴾ [7] .

المظهر الثاني ـ مظهر الهدى :

إن دعوة القرآن إلى الهدى العام فى العقيدة والفكر ، والعقل والعمل فى عشرات من آياته ، مع نهيه الواضح الصريح عن كل ضروب الضلال وطرقه ، لأمر يدعو إلى العجب حقاً ، فإنه لم يعهد مثله فى كتاب سماوى قط ، ولنسمع إليه وهو يدعو إلى الهدى فى العقيدة ويقول : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ [8] ، ويقول : ﴿ **إن ربكم اللّه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك اللّه رب العالمين** ﴾ [9] ويقول : ﴿ **إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه** ﴾ [10] ويقول : ﴿ **اللّه خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [11] ويقول : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ [12] هذا كله فى عقيدة الإيمان بالرب تعالى وتوحيده فى ألوهيته وعبادته .

ويقول فى عقيدة البعث والجزاء : ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم**

---

(١) الأنفال : ٢٧ . (٢) الرعد : ٢١ . (٣) الروم : ٣٨ .
(٤) المائدة : ١ . (٥) البقرة : ٤٣ . ومواضع أخرى . (٦) الأحزاب : ٣٥ .
(٧) المزمل : ٢٠ . (٨) البقرة : ٢١ . (٩) الأعراف : ٥٤ .
(١٠) فصلت : ٦ . (١١) الروم : ٤٠ . (١٢) البقرة : ١٦٣ .

ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ (١) ويقول : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

ويقول فى هدى الفكر والعقول : ﴿ ومن الناس من يجادل فى اللّه بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل اللّه ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ (٣) ويقول : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا للّه مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ (٤) ، ويقول : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل اللّه من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٥) ، ويقول فى هدى الأعمال وصلاح السلوك : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع اللّه ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٦) ، ويقول : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٧) ، ويقول : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٨) ، ويقول : ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللّه فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (٩) .

المظهر الثالث فى الرحمة والإحسان :

إن دعوة القرآن إلى الرحمة والإحسان لتكاد تكون هى المظهر العام له ، فما من حكم من أحكامه إلا وطابع الرحمة والإحسان فيه واضح جلى حتى ولو كان فى قطع يد السارق ، أو جلد الزانى أو رجمه ، وزيادة عن كون القرآن كله رحمة كما قال منزله سبحانه وتعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (١٠) ، ﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة

---

(١) الحج : ٥ .
(٢) فصلت : ٣٩ .
(٣) لقمان : ٢٠ ، ٢١ .
(٤) سبأ : ٤٦ .
(٥) البقرة : ١٦٤ .
(٦) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .
(٧) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٨) النساء : ١٢٤ .
(٩) النساء : ١١٤ .
(١٠) الإسراء : ٨٢ .

للمؤمنين ﴾ (١) ، فإن دعوته إلى الرحمة والإحسان قوية صادقة تتجلى فى العديد من سوره فمن سورة البلد يقول : **﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتوصوا بالمرحمة ﴾** (٢) .

ومن سورة النحل يقول : **﴿ إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾** (٣) ، ومن آل عمران يقول : **﴿ فبما رحمة من اللّه لنت لهم ﴾** (٤) ، ومن سورة المؤمنون يقول : **﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾** (٥) ، ومن سورة البقرة يقول : **﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾** (٦) ، **﴿ وأحسنوا إن اللّه يحب المحسنين ﴾** ومن سورة الأنعام يقول : **﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾** (٧) ، وحسبنا فى ذلك أن تكون أول سورة منه ، بل وأول آية تحمل معنى الرحمة وتشيعها إلى أبعد حدودها **﴿ بسم اللّه الرحمن الرحيم ، الحمد للّه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ﴾** (٨) .

المظهر الرابع ـ فى الحق والعدل :

إن القرآن الكريم نزل بالحق ولإحقاق الحق ، قال تعالى : **﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾** (٩) وقال : **﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾** (١٠) ، وقال : **﴿ يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾** (١١) كما أن الدين الذى القرآن كتابه هو دين الحق قال تعالى فيه : **﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى باللّه شهيداً ﴾** (١٢) وقد أقام اللّه تعالى منزله أمر السماء والأرض على الحق قال تعالى : **﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾** (١٣) ودبر تعالى الكون له على مبدأ الحق : **﴿ يريد اللّه أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾** (١٤) .

أما العدل فقد أمر اللّه تعالى به : **﴿ إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾** (١٥) وأرسل الرسل وأنزل الكتاب والميزان لإقامة العدل فى الأرض كما قال تعالى : **﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس**

---

(١) يونس : ٥٧ . (٢) البلد : ١٧ . (٣) النحل : ٩٠ . (٤) آل عمران : ١٥٩ .
(٥) المؤمنون : ٧٥ . (٦) البقرة : ٨٣ . (٧) الأنعام : ١٥١ .
(٨) الفاتحة : ١ ، ٢ . (٩) النساء : ١٠٥ . (١٠) الإسراء : ١٠٥ .
(١١) يونس : ١٠٨ . (١٢) الفتح : ٢٨. (١٣) الحجر : ٨٥ .
(١٤) الأنفال : ٧ ، ٨ . (١٥) النحل : ٩٠ .

بالقسط ﴾(١) . والقسط هو العدل ، وأمر اللّه تعالى بالعدل فى القول والفعل والحكم ، فقال تعالى : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا ، هو أقرب للتقوى وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾(٣) .

وأخيراً فهذه المعانى الخيرة الكريمة السامية الشريفة من الهدى والرحمة والإحسان والعدل والحق لم يكن فى استعداد أى إنسان أن يأتى بمثلها ، ولم يعرف فى أمة من الأمم كتاب حوى مثلها وقرر أصولها ودعا إلى إقامة الحياة البشرية على أسسها ، إنه يمثل هذه المعانى الرفيعة التى ضمها القرآن العظيم بين آياته وكلماته كان الإعجاز ، الإعجاز الحق الذى لا مرية فيه ، فإن القرون تمر متطاولة والتحدى قائم ، والإنس والجن عاجزون عن الإتيان بمثله ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾(٤) .

وها هو ذا الكذاب الأثيم مسيلمة يعارض سورة من أقصر سور القرآن الكريم فيهزم مفضوحاً شر فضيحة ، إذ يقول فى معارضة سورة الكوثر : (إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وهاجر ، إن شانئك هو الكافر) .

فلننظر إلى كذبه وهرائه أنه يقول : إنا أعطيناك الجواهر ، فهل مسيلمة أعطى محمداً جواهر لا ، واللّه ، ولا جوهرة واحدة ، وهل لدى رسول اللّه ﷺ جواهر ؛ لا ، واللّه ما له من جواهر ، ويقول : إن شانئك هو الكافر ، فهل كان فى قريش من ينسب محمداً إلى الكفر ؟ لا ، واللّه ما قال له أحد يوما إنك كافر ، فكيف يصح إذا قوله : إن شانئك هو الكافر . إذ هذا القول يستلزم أن قائلاً قال له : إنك كافر فينفى عنه هذا القول ويرد على من نسبه إليه مقصوراً عليه .

إن أدنى تأمل يكشف زيف الكذاب مسيلمة ، ويظهر الفرق الكبير بين معانى القرآن السامية الشريفة وبين تفاهات مسيلمة الساقطة الهابطة المجردة من كل معانى الصدق والحق والخير والمعروف .

---

(١) الحديد : ٢٥ . (٢) الأنعام : ١٥٢ .
(٣) المائدة : ٨ . (٤) الإسراء : ٨٨ .

آيات الإعجاز فى القرآن :

الأولى :عجز العرب عن مناهضته : إن عجز العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان لا سيما فى الفترة التى كان ينزل فيها القرآن عجزهم عن مناهضته ومعارضته مع دواعى المعارضة له لأكبر آية وأعظم دليل على إعجاز القرآن لكل من رام معارضته أو يرومها إلى يوم الدين ، إن سكوت أولئك الفصحاء البلغاء والقرآن يتحداهم ﴿ **فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ (١) لم يكن إلا سكوت عجز وانهزام أمام سلطان القرآن العظيم الذى قهر نفوسهم وسخر من عقولهم ، وسفه أحلامهم وقطع طريق النصرة عنهم ، فاعترفوا بجلاله وعظيم سلطانه ، وها هو ذا الوليد بن المغيرة يسجل اعترافه بعجزه أمامه فيقول وهو يخاطب بعض رجال قومه : فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .

هذه شهادة عدو لدود له وهى تقرر أن القرآن يعلو ولا يعلى عليه ، وأنه يحطم مادونه ، والفضل ما شهدت به الأعداء كما قيل .

الثانية ــ أنباء غيبه : إن من آيات الإعجاز القرآنى إخباره بالغيب الذى يشمل غيب السماء والأرض والحياة الدنيا والآخرة فإنه ليس فى استطاعة أى إنسان أن يخبر بغيب السماء ، ويتحدث عن الملكوت الأعلى إلا أن يكون رسولا يوحى إليه بذلك ، والقرآن الكريم وصف الحياتين ، وما فيهما من دقيق وجليل ، تكلم على مبدأ الخليقة ومنتهاها ، وبداية الانقلاب الكونى ونشوء الحياة الثانية ، تحدث عن الأمم الماضية والشعوب الغابرة متعرضا لتفاصيل فى أخبارها يتعذر على من عاش أحداثها ، وشاهد وقائعها أن يقول فيها بمثل ما قال القرآن الكريم فيها ، ولم تكن أنباء غيبه محصورة فيما مضى من أحداث الكون ووقائعه ، ولا مصورة على غيب السماء والدار الآخرة حيث لا مطمع لأحد فى معرفة ذلك والقول فيه إلا من طريق الوحى الإلهي ، بل تناولته أنباء غيبه المستقبل القريب والبعيد ، فقد قرر هزيمة فارس وانتصار الروم عليها وأخبر بها قبل وقوعها بسبع سنين ، أخبر بهزيمة قريش فى بدر قبل وقوعها بنحو من سبع سنين فقال : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ (٢) ، وكان الأمر كما قال : قرر أن أولئك الخائفين بالمدينة والذين قضوا فترة

---

(١) يونس : ٣٨ .   (٢) القمر : ٤٥ .

يظلون فيها بأسلحتهم يحملونها على عواتقهم ويبيتون بها مضاجعة لهم لا تفارقهم ، أخبر أنه سيستخلفهم فى الأرض ، ويمكن لهم فيها ويبدل خوفهم أمناً ، ولم يمض على إخباره بهذا أكثر من سبع سنوات حتى أصبحوا خلفاء فى الأرض يدبرون ملكها بلا منازع ، ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾ (١) .

ومن أعظم غيوبه فى الأرض إعلانه عن نظام الزوجية فى كل الكائنات إذ قال : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين** ﴾ (٢) : وقال : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ (٣) ، وتصديق الحياة له فيما أعلنه وقرره ، فقد وصلت الكشوفات العلمية والبحوثات الكونية إلى معرفة ما أخبر به القرآن ، وانتهت إلى تقرير ما قرره منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة ، وهو أن كل ذرة فى الكون مكونة من ذكر وأنثى ولم يخرج شىء عن نظام الزوجية أبداً ، وصدق الله العظيم ، ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ (٤) .

الثالثة ـ سلامة تراكيبه وصحة معناه : إن القرآن ـ والذى نزله ـ لأصدق حديث وأصحه وأبلغ كلام وأفصحه ، فلا كلام أسلم منه فى ألفاظه ومعانيه ، ولا كلام يدانيه فى خيريته وطيبته ، إنه أبعد كلام عن الإسقاط والسقوط والهبوط ، إنه لم توجد فيه ـ والله ـ ولو إشارة بإذن إلى فعل شر أو باطل أو فاسد أو قبيح ، فضلا عن عبارة تدعو إلى شىء من ذلك أو غيره من كل أنواع الظلم أو الفساد أو القبح أو الشر .

إنه لم يتناقض فى حكم من أحكامه ، ولم يختلف فى خبر من أخباره ، ولم يوجد فيه خلل فى لفظ ولا تركيب ولا معنى ، على كثرة أحكامه وأخباره ، وجمله وتراكيبه ، وعلى اختلاف أحوال نزوله ، وطول الزمن الذى نزل فيه .

الرابعة ـ أمية من نزل عليه : إن من أعظم آيات القرآن أن يأتى به أمى لم يقرأ ولم يكتب قط ، ولم يدخل كتابا أو مدرسة ولم يجلس بين يدى أستاذ أبدا فى حين أن ما حواه كتابه من العلوم الإلهية والبشرية ما يحير الفكر ويدهش العقل لدقته وصحته واتساع نطاقه حتى شمل القانون ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع وعلوم الأديان ، ومبادىء الصحة والنظريات الفلكية ، والعلوم النفسية ، وما إلى ذلك مما يحيل العقل البشرى وجوده عند

---

(١) النور ٥٥ .
(٢) الذاريات : ٤٩ .
(٣) يس : ٣٦ .
(٤) الذاريات : ٤٩ .

أمى من البشر ، غير أنه وجد فعلا عند النبى الأمى محمد ﷺ ، فدل على أنه نبى الله ورسوله ، وإنالكتاب كلام الله ووحيه ، وأن الإتيان بمثله مستحيل وهذا هو الإعجاز القرآنى الذى دل عليه أمية من أنزل عليه وصدق من قال :

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

ومن قال :

الله أكبر إن دين محمد وكتابه   لا هدى وأقوم قيلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده   طلع الصباح فاطفىء القنديلا

أوجه الإعجاز فى القرآن :

قال كثير من أهل العلم فى أوجه الإعجاز القرآنى ، وحدد كل منهم ما رآه وجها للإعجاز ، ومن بين أولئك العلماء الذين تكلموا فى أوجه الإعجاز فى القرآن القاضى أبو بكر الباقلانى إذ قال : وجه الإعجاز ما فيه من النظم والتأليف والتوصيف وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ، ومباين الأساليب خطاباتهم ، ولهذا لم يمكنهم معارضته.

وقال الرازى : وجه الإعجاز الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من العيوب .

وقال آخر : وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به ، لا مطلق التأليف بأن اعتدلت مفرداته تركيبا وزنة ، وعلت مركباته معنى ، بأن يوقع كل فن فى مرتبته العليا فى اللفظ والمعنى .

وقال آخرون : بعض ما ذكر وغيره ، وكلامهم متداخل يكمل بعضه بعضا .

وأقول : إن وجه إعجاز القرآن كائن فى فصاحة مفرداته وجمالها ، وحسن تراكيبه وبلاغتها ، وشرف معانيه وسلامتها من الاختلاف والتضاد ، أو التعارض والتناقض ، وفى كونه منزلا على أمى لم يقرأ ولم يكتب .

مسائل :

اختلف كثير من أهل هذا الفن فى عدة مسائل منه نوردها هنا ، ونذكر ما هو الراجح منها بحسب ما يبدو لنا والله الهادى إلى أوجه الحق والصواب :

١ ـ هل الإعجاز القرآنى يوجد فى كل آية من القرآن ، أو فى سورة منه أو فى كل آياته وسوره ؟

فى هذه المسألة مذهبان ، والصحيح : أنه معجز بكله ، ومعجز بالسورة منه أو أكثر ، أما الآية منه ، والآيتان فليس فيهما وجه الإعجاز لأن التحدى كان به كله كما فى آية بنى إسرائيل : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن** ﴾ [١] . . . الآية ، كما كان بعشر سور منه فى آية هود : ﴿ **أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** . . ﴾ [٢] الآية ، كما كان بسورة واحدة منه كما فى آيتى يونس والبقرة : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ [٣] .

٢ ـ هل يوجد بين مفردات القرآن وتراكيبه تفاوت فى الفصاحة والبلاغة ؟

والجواب : نعم ، وحكمة ذلك التفاوت : أنه جار على كلام العرب المتحدين به وكلامهم إذا طال يشمل الفصيح والأفصح ، فلكى يتم الإعجاز بالقرآن جاء على سنن كلامهم جامعاً بين الفصيح والأفصح ، والبليغ والأبلغ ، مع أن كل كلمة منه ، وكل تركيب بالذروة العليا من الفصاحة والبلاغة .

٣ ـ هل من إعجاز القرآن الصرف عن معارضته ؟

والجواب أن الصرفة وإن قال بها بعض أهل العلم فإنها لم تقع بدليل محاولة غير واحد معارضة القرآن ومن بين من حاول ذلك مسيلمة الكذاب ، وقد سبق فى أثناء بحث هذا الموضوع بيان معارضته لسورة الكوثر المباركة حيث قال عليه لعائن الرحمان : (إن أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وهاجر إن شانئك هو الكافر) .

وعليه فإعجاز القرآن كان بنظمه المرصف المحكم ، وبلاغته البالغة حدا يعجز الوصف عنه وبعلومه المختلفة ، وغيوبه الكثيرة ، ولم يكن بالصرفة كما قال النظام المعتزلى ، ولا كما قال أبو إسحاق الإسفراييني السنى .

ومع هذا فإنه مادام الغرض من الإعجاز هو إثبات أن القرآن كلام الله تعالى ، وأن المنزل عليه هو رسوله فإن الصرفة عند من يراها تحقق هذا ، الغرض وتفيده قطعا ، إذ صرف الله تعالى الناس عن معارضة القرآن معناه : أيها الناس إن كنتم فى شك من صحة ما أنزلت على عبدى ورسولى فأتوا بسورة من مثله ، فإن عجزتم عن ذلك كان عجزكم

---

(١) الإسراء : ٨٨ .　(٢) هود : ١٣ .　(٣) البقرة : ٢٣ .

دليلا على أن هذا القرآن وحيي وكلامي ، فآمنوا بي وبرسولي ، فصرفهم عن المعارضة وهم قادرون عليها أظهر لقدرة الله تعالى وإثبات وحيه ورسوله ، والله أعلم وكتابه أعز وأحكم .

كون القرآن معجزة محمد ﷺ

وأخيراً تأتي حصيلة البحث ونتيجته (بحث كون القرآن معجزا) وهي إثبات نبوة من نزل عليه وتقرير رسالته بين العالمين .

لقد سبق أن ذكرنا في سياق هذا الموضوع أن سر الإعجاز القرآني وعلته هو كونه معجزة للذي أوحي به إليه وشرف بإنزاله عليه ، والقصد من وراء ذلك أن تؤمن البشرية به ، وتعمل بهديه فتكمل وتسعد في دنياها ، تكمل في آدميتها وتسعد في حياتها ، كما تتهيأ بذلك لكمال الآخرة وسعادتها .

ولما كانت المعجزات ضرورة لا بد منها لتصحيح دعوى النبوة وإثباتها لمن ادعاها من أنبياء الله ورسله عليهم السلام ، فقد أعطى الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ أعظم معجزة عقلية خالدة بخلود الحياة باقية ببقائها وهي القرآن تقريرا لنبوته وإثباتا لرسالته.

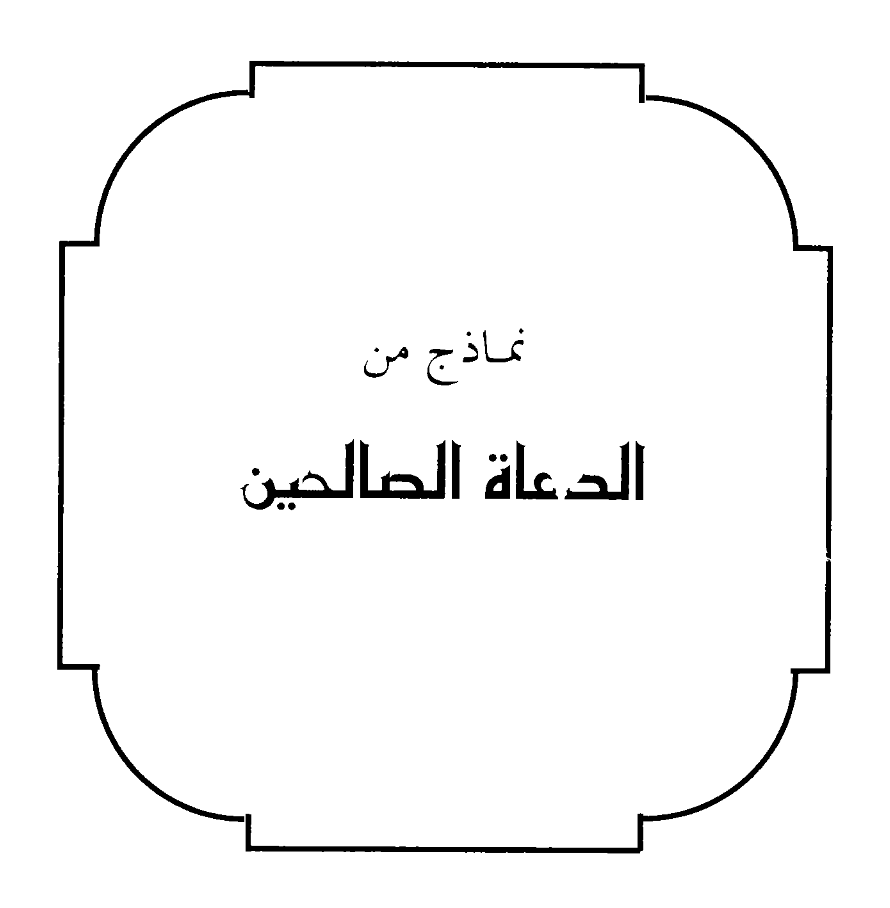
فالقرآن العظيم إذا بإعجازه للناس عن الإتيان بمثله ، أو بسورة من مثله هو معجزة معنوية عقلية من أعظم المعجزات تفوق كل المعجزات التي أوتيها من قبله من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام كما تفوق المعجزات المادية الكونية التي كانت له ﷺ وهي كثيرة ، والتي كانت خالية من التحدي غير مقرونة به ، لمانع منع من ذلك وهو عدم استعداد قومه للإيمان بتلك المعجزات فيما لو تحداهم بها ، فرحمة بهم لم يجيبهم إلى ما طلبوا من الآيات مع إلحاحهم في ذلك ، إذ لو أجابهم فأراهم الآيات المادية التي طلبوها ولم يؤمنوا لأهلكهم عامة كما هي سنته تعالى في الأمم السابقة ، فلذا كان يحيلهم على معجزة القرآن العلمية الخالدة ، ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الايات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾ (١) .

ومن هنا كانت المعجزة الحقة الخالدة لمحمد ﷺ هي معجزة الوحي الإلهي ، يتلوه رسول الله ﷺ فيهدي به الله من شاء من عباده ويدخله في رحمته ، وهي معجزة علمية

(١) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١ .

عقلية تتناسب مع تطور العقل البشرى وتقدمه العلمى ، وتتفق مع عموم رسالته ﷺ وخلودها فهى معجزة أكبر فائدة من غيرها وأعظم أثرا فى هداية الناس ، وهذا ما أفصح عنه رسول الله ﷺ فى حديث البخارى بقوله : « ما من الأنبياء نبى إلا أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وكان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وقد حقق الله رجاءه ، والحمد لله .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين .


نماذج من
الدعاة الصالحين

نماذج من الدعاة [1]

الصالحين

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه .

وبعد : فإن دعاة الإسلام فى كل زمان ومكان هم دعاة الحق والخير الناهون عن الباطل والشر .

الإسلام : ونعنى بالإسلام : دين الله الذى جاءت به كل الرسل عليهم السلام .

دعاة الإسلام : ونعنى بدعاة الإسلام : أولئك المصطفين الأخيار من أنبياء الله تعالى ورسله نوحا عليه السلام فمن بعده إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، وحوارييهم وأنصارهم ممن يتبعون سنتهم ويهدون بهديهم .

الحق : ونعنى بالحق : الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده بما شرع لعباده أن يعبدوه به من كل أعمال القلوب ، والألسن ، وسائر الجوارح ، ليعدهم به للكمال والسعادة فى الحياتين.

الخير : ونعنى بالخير كل الفضائل النفسية والخلقية مما ينجم عنه طيبة النفس وطمأنينتها ، وهدوء الخاطر وصلاح البال ، مما تتحقق به لسعادة الإنسان فى هذه الحياة ، ويتهيأ به للسعادة فى الدار الآخرة .

الباطل : ونعنى بالباطل : الإيمان بالطاغوت وعبادته دون الله تعالى أو مع عبادته عز وجل من كل ألوان الكفر وضروب الشرك ، وما يستتبع ذلك من البدع والأهواء المنافية للشرع والعقل معا .

---

(1) النماذج : جمع نموذج ، والأنموذج مثله ، وقال صاحب القاموس فى الأخير لحن ومعناه : المثال (معرب) ، والجمع : نموذجات وأنموذجات ، وقول صاحب القاموس لحن خطأ فيه كثيرون ، وقالوا إنها دعوى لا تصح له ، وسمى الزمخشرى الأنموذج .

الشر : ونعنى بالشر كل الرذائل والخطايا مما يفقد الإنسان طهارة نفسه ، وفضائلها ، ويحرمه السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذه أمثلة حق صادقة ، ونماذج حية ناطقة تمثل مواقف شتى للدعاة الصالحين ، وهم يدعون إلى الحق والخير ، وينهون عن الباطل والشر ولنبتدىء بأول أولئك الرسل نوح عليه السلام ، فنستعرض جوانب من حياة هذا الداعية الكبير ، لتكون نموذجا صالحا للداعية المسلم اليوم يأخذ به ، وينسج على منواله فيكمل فى دعوته ، ويشرف بها ، ويبلغ الغاية المنشودة فيها ، وهى هداية وإصلاح من أراد الله تعالى هدايتهم وإصلاحهم من الناس .

أ ـ نوح عليه السلام :

فمن هو نوح عليه السلام ؟ وما هى الجوانب الهامة فى حياته الدعوية التى يمكن للداعية المسلم الاستفادة منها فى مجال الدعوة الإسلامية ؟

إن نوحا هو عبد الله ورسوله نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ (إدريس) بن برد ابن مهلاييل بن فينسن بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام ، هكذا يقول النسابون ويقولون : إن بينه وبين آدم عشرة قرون أى ألف سنة ، هذا هو نوح عليه السلام .

وأما الجوانب الهامة فى حياته الدعوية فهى تتمثل فى الأرقام التالية :

١ ـ طول صبره .

٢ ـ صدق لهجته .

٣ ـ تلوينه أسلوب دعوته .

٤ ـ شجاعته وعظم توكله على ربه عز وجل .

٥ ـ صدق لجاءه إلى ربه سبحانه وتعالى .

١ ـ صبره الطويل :

وعن صبره الطويل نقول : إن نوحا عليه السلام قد قضى فى الدعوة إلى ربه تعالى من أجل أن يؤمن به ، ويعبد وحده ، دون سواه ، قضى دهرا طويلا ، دعا فيه قومه إلى عبادة الله تعالى وحده ، وإلى تقواه ، وإلى طاعته هو بوصفه رسول الله والمبلغ عنه فقال : ﴿ **يا قوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ [١] .

ولاقى فى ذلك من الأذى ما لم يلقه كثير من الداعين إلى الله تعالى ، فقد كذبه قومه ووصفوه بالجنون ، ووصفوا أتباعه من المؤمنين بالاسترذال ، ولم يعترفوا لهم بأى فضل عليهم ، فقالوا : ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** [٢] **بادى الرأى** [٣] ، **وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾ [٤] ، ولم يقفوا عند حد

(١) نوح : ٣ ـ ٤ .

(٢) الأراذل : جمع الأرذل : أى أكثر رذالة ، وهو المحتقر الذى لا فضيلة له .

(٣) بادىء الرأى : أى ابتداء من غير تفكر فيك ، ولو فكروا فيك لما اتبعوك .

(٤) هود : ٢٧ .

التكذيب والعيب بل تجاوزوه إلى التهديد بالموت ، فقالوا : ﴿ **لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ (١) والرجم عندهم بالحجارة وسيلة من وسائل الإعدام ، كرجم الزناة المحصنين في الإسلام .

ولما أنذرهم عاقبة شركهم وتكذيبهم وإجرامهم ، وخوفهم بعذاب الله تعالى سخروا منه ، وطالبوه بالعذاب متحديين له في ذلك ، فقالوا : ﴿ **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ (٢) .

قضى نوح عليه السلام في دعوته دهرا طويلا فلم يكل خلاله ولم يمل حتى أوفى على تسعمائة وخمسين عاما ، وبعدها رفع شكواه إلى ربه عز وجل فقال : ﴿ **رب إن قومي كذبون ، فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين** ﴾ (٣) وقال : ﴿ **أني مغلوب فانتصر** ﴾ (٤) .

وبعد أن سبر غور القوم وحلل نفسياتهم ، وعرف مركب طباعهم ، وأيقن أنهم لا يؤمنون ، بناء على وحي الله تعالى له بذلك : ﴿ **أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ (٥) ، وعلى ما شاهده من حال أجيالهم المتلاحقة وهم يتواصون بالكفر به وبتكذيبه في دعوته ، دعا عليهم قائلا : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ (٦) ، ولم يكن هذا عن قلة صبر منه عليه السلام ، وإنما كان خوفا منه على الجماعة المؤمنة أن يفتنها أولئك الكفار الفجار فيحولوها عن معتقدها ، ويضلوها عن سبيل ربها ﴿ **إنك إن تذرهم يضلوا عبادك** ﴾ فلذا دعا ربه بهلاك الكافرين وتدميرهم قطعا لدابر الكفر والكافرين ، وإنهاء لفتنة الشرك في الأرض والمشركين .

٢ ـ صدق لهجته :

وعن صدق لهجته نقول : إنه كان عليه السلام صادق اللهجة ، واضح البيان وافي النصيحة ، ظهر ذلك من أقواله ، وهو يخاطب قومه في شتى المواقف والعديد من المجالات ، فلنستمع إليه وهو يخاطب قومه آمرا إياهم بعبادة الله وحده ، إذ لا إله لهم غيره ، معللا لهم أمره بعبادة الله وحده بخوفه عليهم عذاب يوم عظيم ، فيقول : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ (٧) .

---

(١) الشعراء : ١١٦ . (٢) هود : ٣٢ . (٣) الشعراء : ١١٧ ، ١١٨ . (٤) القمر : ١٠ .
(٥) هود : ٣٦ . (٦) نوح : ٢٦ ، ٢٧ . (٧) الأعراف : ٥٩ ـ ٦٣ .

ولما رد عليه ملأهم قائلين : ﴿ **إنا لنراك فى ضلال مبين قال : يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين و أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ولعلكم ترحمون** ﴾ (١) ، وقال فى بداية دعوته وهو يبلغها قومه لأول مرة : ﴿ **ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين ، فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ (٢) ولما ردوا عليه دعوته قائلين : ﴿ **أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾ (٣) ؟ ، رد عليهم قائلا : ﴿ **وما علمى بما كانوا يعملون ، إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين** ﴾ (٤) .

ومن خلال هذا الحوار القصير فى هذه الجمل التى جاءت فى القرآن الكريم وسمعناها عنه عليه السلام وهو يدعو قومه إلى الإيمان بالله وعبادته وحده دون من سواه ، تظهر الحقيقة التى لفتنا النظر إليها وقررناها ، وهى صدق لهجته عليه السلام فى دعوته ، وصدق اللهجة (٥) فى الدعوة عامل من عوامل نجاحها ، والبلوغ بها إلى غاياتها .

٣ ـ تلوينه أسلوب دعوته :

وعن تلوينه أسلوب دعوته نقول : إن نوحا عليه السلام لم يدخر وسعا ، ولم يأل جهدا فى سبيل إبلاغ دعوته ، ونشرها بين قومه ، حتى ملوا ذلك منه ، وضجروا له فكانوا يجعلون أصابعهم فى أذانهم حتى لا يستمعوا ما يقول لهم ، وما يدعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة ما سواه ، ويستغشون ثيابهم فيغطون بها رؤوسهم حتى لا يروه ولا ينظروا إليه من شدة كراهيتهم له وبغضهم إياه .

ولم يمنعه ذلك من مواصلة دعوته فيهم متذرعا بكل الوسائل الممكنة ، فلم يترك بابا لإبلاغ دعوته إلا طرقه ، ولا سبيلا إلا سلكها ، وكان لحكمته فى دعوته يراعى حال مدعويه ، فيسر القول إلى بعضهم ، ويجهر به إلى بعض آخر بحسب ما تتطلبه حال الأشخاص المدعويين ، إذ من الناس من يكون ذا أنفة وحمية وكبر لا يرضى أن يجهر له بالقول ، أو يدعى إلى الحق والخير ، أو التوبة والاستغفار علانية بين الناس ، ومنهم السهل الطبع اللين العريكة ، الذى لا يشمئز من دعوته جهرا ، ولا ينقبض أو يغضب إذ دعى إلى الحق والخير بين الناس .

---

(١) الأعراف : ٥٩ ـ ٦٣ . (٢ ، ٣ ، ٤) الشعراء : ١٠٦ ـ ١١٥ .

(٥) اللهجة : اللسان ، ولغة الإنسان التى جبل عليها واعتادها ، يقال فلان فصيح اللهجة ، وصادق اللهجة ، (منجد) .

وهذا من نوح عليه السلام تلوين لدعوته ، وبحث لها عن كل ما يمكنها من الذيوع والانتشار ، ثم الفوز والانتصار ، ولنستمع إليه وهو يعرض شكاته ويرفعها إلى ربه تعالى ليعذره وينصره : ﴿ **قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى أذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ما لكم لا ترجون لله وقارا** (١) **وقد خلقكم أطوارا** ﴾ (٢) فمن خلال هذه الشكاة التى رفعها نوح إلى ربه تتجلى حقيقة دعوة نوح عليه السلام ، وأنه كان ذا بصيرة فى دعوته وعلم بها ، يلون أساليبها ، ويتحين الفرص لإبلاغها وإنجاحها ، يعتمد فى دعوته على أسلوب الترغيب طورا والترهيب طورا آخر ، ليأخذ النفوس بالحكمة ويحذ بها إلى محيط الدعوة بالرغبة أو الرهبة ، وهذا شأن الداعية الحكيم فى دعوته العليم بها البصير بمتطلبات نجاحها .

٤ ـ شجاعته وعظم توكله :

وعن شجاعتة وعظم توكله أقول : إن نوحا عليه السلام كان ذا شجاعة عظيمة شأنه شأن سائر الأنبياء والمرسلين ، وإن تفاوتوا فى ذلك قوة وضعفا ، أما توكله على ربه تعالى فقد كان مضرب المثل بحق ، وتتجلى هاتان الصفتان : قوة الشجاعة ، وعظم التوكل فى الموقف التالى : جاء من سورة يونس عليه السلام قول الله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركائكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم أقضوا إلى ولا تنظرون** ﴾ (٣) وبتدبر هذه الآية الكريمة على النحو التالى :

نوح عليه السلام يشعر بأن قومه قد استثقلوا ظله وسئموا الحياة معه ، وما أصبحوا يطيقون سماع كلامه ، ولا رؤية وجهه كل ذلك كان نتيجة لدعوته إياهم إلى عبادة الله تعالى وتقواه ، وهم يصرون على الشرك والفسق ولا يريدون تركهما ولا تحول عنهما بحال .

---

(١) ترجون : بمعنى تأملون من الله تعالى وقارا لكم إن أنتم آمنتم به وعبد تموه وحده دون سواه : أو ترجون بمعنى تعتقدون أى ما لكم تعتقدون وقار الله وتعظيمه بأن تعبدوه وحده وتتركوا عبادة غيره وهو قد خلقكم أطوارا ... الخ .

(٢) نوح : ٥ ـ ١٤ . (٣) يونس : ٧١ .

كما يشعر أن قومه يهددونه بالقتل ويتوعدونه به فى غير موطن : ﴿ **قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ (١) ، فيعلمهم فى وضوح أنه لا يخاف الموت ولا يرهبه ، وأنه قد توكل على ربه عز وجل ، فلذا هو لا يخاف سواه ، ولا يعتمد على غيره بحال من الأحوال ويدلل على عدم خوفه من الموت ، وعلى عظم توكله على ربه فيرشدهم إلى طريقة قتله والتخلص منه إن كانوا يعتزمون ذلك حقا ويريدونه ويبالغ فى التدليل على شجاعته وعظم توكله على ربه ، فينبههم إلى أنهم عندما يجمعون أمرهم على قتله ينبغى لهم أن لا يترددوا فى ذلك ، حتى لا يفشلوا فى مهمتهم ولايكون أمرهم غمة عليهم .

بهذا التدبر للآية يتضح لنا أن نوحا عليه السلام كان من أقوى الناس شجاعة ومن أعظمهم توكلا على ربه تعالى .

وقوة الشجاعة ، وعظم الوثوق فى الله تعالى والتوكل عليه من أخص صفات الدعاة الصالحين وبدونهما لا يقوى الداعى على تحمل رسالة الدعوة إلى الله تعالى وإبلاغها إلى الناس .

صدق لجأه إلى ربه :

وعن صدق نوح فى لجئه إلى ربه نقول : إن نوحا عليه السلام كان صادق اللجأ إلى الله تعالى منيبا إلى ربه مسلما إليه متوكلاً فى كل شأنه عليه يظهر هذا بوضوح فى مثل قوله : ﴿ **إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت** ﴾ (٢) وفى قوله : وقد ازدجره قومه بعد صراع مرير تجاوزت مدته مئات السنين : ﴿ **أنى مغلوب فانتصر** ﴾ (٣) ، قال تعالى فى الإخبار عن حاله مع قومه فى تكذيبهم له ، وزجرهم إياه : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ، فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر** ﴾ (٤) أى انتصر يا ربى ، فانتصر الله تعالى له فأنجاه وأغرق أعداءه ولما هدده قومه وتوعدوه ، وقالوا : ﴿ **لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ (٥) لجأ فى صدق إلى ربه يطلب نصرته ، وأن يخلصه من قومه العتاة الطغاة الفاسقين فقال : ﴿ **رب إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين** ﴾ (٦) ، كما قال تعالى عنه : ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم**

---

(١) الشعراء : ١١٦ .
(٢) يونس : ٧١ .
(٣) القمر : ١٠ .
(٤) القمر : ٩ ، ١٠ .
(٥) الشعراء : ١١٦ .
(٦) الشعراء : ١١٧

الباقين ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على نوح في العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ (١) .

وأخيرا فنبى الله تعالى نوح عليه السلام اجتمع له من صفات الكمال فى الداعية ما كان به أول الدعاة فقد جمع بين طول الصبر ، وصدق اللهجة ، وكمال البيان ، وتلوين الأسلوب مراعاة لحال من يدعوهم بعد معرفته لنفسياتهم وعظم الشجاعة ، وقوة التوكل وكمال الوثوق ، وصدق اللجأ ، وهى صفات ما اجتمعت لداع من دعاة الحق والخير ، والناهين عن الباطل والشر إلا كان مثالا يحتذى ، وكانت حياته نموذجا صالحا يتمثل بها فى حياة الدعوات الإصلاحية بين بنى الناس .

فعلى أبنائنا النابهين الذين اختاروا لأنفسهم أن يكونوا دعاة حق وخير وأئمة هداية وإصلاح أن يتحلوا أولا : بالصبر واليقين لقول الله إذ بهما تنال الإمامة فى الدين ، قال تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ (٢) .

وثانيا : أن يترسموا خطى الدعاة الصالحين وينسجوا على منوالهم ، وقد قدمنا لهم أصدق نمودج للداعية الصالح عرفته البشرية بعد سيد الدعاة محمد ﷺ ، ألا وهو أبو البشر الثانى نوح أحد أولى العزم من الرسل ، فليذكروا منه طول صبره ، وصدق لهجته ، وكمال بيانه ، وتلوينه لأسلوب دعوته ، وعظم شجاعته وقوة توكله وصدق لجأه إلى ربه ، فإنهم بذلك يكتسبون من صفات الكمال فى الدعاة ما يعينهم على أداء مهمتهم وإبلاغ رسالتهم ، حقق الله تعالى لهم ذلك .

وسلام على نوح في العالمين ، وعلى محمد فى المرسلين

والحمد لله رب العالمين

---

(١) الصافات : ٧٥ ــ ٨١ .

(٢) السجدة : ٢٤ .

ب ـ إبراهيم عليه السلام

من هو إبراهيم ؟

إنه أبو الأنبياء والضيفان إبراهيم بن آزر « تارخ » بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

هذا هو إبراهيم فى نسبه اسما وكنية ، أما إبراهيم فى كمالاته النفسيـة ، فإنه أمة كاملة ، وليس فردا واحدا ، كما قال عنه ربه تعالى فى كتابه الكريم القرآن العظيم : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم** ﴾ (١) .

وذلك لما جمع الله تعالى فيه من الكمالات البشرية التى لا تجتمع إلا فى الأمة من الناس (العدد الكثير) فقد طفحت حياة الخليل بصنوف الابتلاءات ، وضروب البطولات ما أصبح به مثـالا صالحـا ، وأسوة حسنة لكل راغب فى الكمال البشرى يفوز به بين العالمين ، هذا وإن المرء ليحار عندما يريد أن يستعرض حياة كريمة شريفة ، نادرة فى خصائصها فذة فى نعوتها وشمائلها كحياة إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، إذ تزدحم أمامه جحافل الكمالات الإبراهيمية ، فلا يدرى ماذا يستعرض منها ، وقد تشاكلت فى الحسن وتسامت فى الجلال والجمال ، وهذه كواكبها الزهر تلوح فى سماء الحياة الإبراهيمية أنها : الدعوة ، والحجة ، والبلوى ، والهجرة ، والخلة ، والقدوة ، والرحمة ، والأمة ، وزاد فى إشراق هذه الكواكب أن الأرض يومها كانت مقفرة من الحق والخير ، مظلمة لا ضوء فيها ولا نور ، ساد فيها الظلم وتحكمت فى أهلها الأوثان انحرفت فيها الفطر البشرية ، وتحجرت منها العقول الآدمية ، فعبد الناس الأصنام ، وخنعوا للظلم واستكانوا للطغيان ، والآن وقد أظلمت سماء الحياة البشرية ، وتغشت أرضها ، وحل بها ما كان بأرض بابل والكلدانيين من سائر أنواع الكفر والظلم والشر والفساد والطغيان .

فهل لنا أن نستعير لها من كواكب الحياة الإبراهيمية ما تستنير به وتشرق من جديد ، ولم لا . . . ؟ وما المانع لنا . . . ؟.

وعليه فبسم الله ، وعلى بركته نستعرض تلك الصفات الثمانية التى عددناها كواكب

---

(١) النحل : ١٢٠ ، ١٢١ .

زهرا فى حياة إبراهيم الخليل ، صفة بعد أخرى ، وما منها إلا وتمثل جانبا هاما من حياة إبراهيم المفعمة بجلائل الأعمال ، وعظائم مثل الكمال ، فلنستعرضها علنا نكتسب من حياة أبى الأنبياء وإمام الموحدين إبراهيم الخليل ما يساعدنا على النهوض بأعباء ما أنيط بنا بوصفنا ـ مسلمين ـ من واجب الدعوة إلى الله تعالى ليعبد وحده بما شرع أن يعبد به فيكمل بذلك العابدون فى دنياهم ويسعدوا فى أخراهم .

١ ـ إبراهيم الدعوة :

عند التأمل لا يرى أن هناك مبالغة فى نسبة إبراهيم إلى الدعوة وإضافته إليها فى قولنا : إبراهيم الدعوة ، أو فى كل ما ننسبه إليه من صفاته الكمالية التى امتاز بها عليه السلام ، وذلك لأن إبراهيم عليه السلام غلبت عليه هذه الصفات فأصبحت كل صفة تمثل شخصية مستقلة ، وذاتا متميزة متفردة فإبراهيم يمثلها وهى تمثله فقولك دعوة إبراهيم ، كقولك إبراهيم الدعوة ، سواء بسواء فعن إبراهيم الدعوة نقول : إن إبراهيم عليه السلام قد اضطلع بأمر الدعوة إلى الله تعالى فى سن مبكرة جدا ولعل فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل** ﴾ (١) ، دلالة واضحة على أنه ابتدأ الدعوة إلى الله فى حداثة سنه ، ويرجح هذا أيضا أنه بدأ بدعوته أباه قبل قومه وذلك لكونه فى حجره وكفالته .

وفى دعوة إبراهيم أباه إلى عبادة الله تعالى وحده ، وخلع عبادة الأصنام قبل دعوة غيره من أهل بلاده دلالة قوية على رشد إبراهيم وحكمته ، فقد أمر نبينا محمد ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين فى قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ (٢) ، فجمعهم ودعاهم كما جاء ذلك مبينا فى سيرته ﷺ حيث ناداهم فعم وخص حتى قال : « يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا ، أنقذى نفسك من النار » والآيات القرآنية التى عرضت دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه هى آيات سورة مريم عليها السلام ، فلنوردها ولنقف على موطن العبرة والهداية منها .

قال تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت : لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئا** ﴾ (٣) ، ففى نهيه عليه السلام أباه عن عبادة الأصنام بأسلوب الاستفهام الذى هو أخف على النفس من صيغة النهى (لا تفعل) مظهر من مظاهر الحكمة فى الدعوة ، لأن آزر بحكم أنه والد كبير السن له حق التبجيل

---

(١) الأنبياء : ٥١ . (٢) الشعراء : ١١٤ . (٣) مريم : ٤١ ـ ٤٥ .

والاحترام يتنافى معه مخاطبته بصيغة الأمر الدالة على العلو والقهر ، وفى وصفه إله آزر الذى يعبده بأنه لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنه شيئا متى أراد الله تعالى أن يعذبه إن هو استمر على الكفر به وعبادة غيره ، مع أنه إخبار بالواقع الذى لا ينكره آزر عليه لعائن الله ، إلا أنه أسلوب دعوى عال لا يرقى إليه إلا ذو القدم الراسخة فى الدعوة ، لأن آزر كان غافلا تماما عن كون آلهته لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، وإنما يعبدها تقليدا لغيره من أهل بلاده ، فيسلب إبراهيم عنها أخص صفات الألوهية كان قد أماتها فى قلبه ، وهيأه بذلك للإيمان بالله السميع البصير الذى هو على كل شيء قدير .

وقوله له : ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾ [1] فإنه عليه السلام تحاشى أن يصم والده بوصمة الجهل التى يأباها الإنسان حتى ولو كان جاهلا حقا ، كما أنه لم يصف نفسه بالعلم تمدحا وتعاليا على والده ، وإنما أخبره أنه جاءه من العلم ما لم يأته هو ولو أتاه ما أتى إبراهيم من العلم لما طلب له إليه أن يقوده إلى الهدى ، ولكان هو القائد له ولنفسه أيضا ، وهو أسلوب عظيم لا يشعر معه المدعو بأدنى غضاضة ، أو أية إهانة ، أو انتقاص كرامة ، فلا يتعقد نفسيا ولا يتحطم شخصيا ، ومتى بقيت للمدعو كرامته وشخصيته أمكنه أن يأخذ مع الداعى له ويعطى ، وهو طريق الوصول إلى معرفة الحق ، وبالتالى إلى الهداية المطلوبة لمن شاءها الله تعالى له .

وقوله له : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** ﴾ [2] .

فإنه بعد إقناعه والده أن ما يعبده لا يسمع ولا يبصر ، ومن كان كذلك لا يعبد عقلا ولا شرعا ، مع استمرار آزر على عبادته أعلمه فى هذه الجملة الكلامية أنه إنما يعبد الشيطان ، ونهاه عن ذلك معللا له النهى بأن الشيطان كان وما زال للرحمن عز وجل عصيا ، وطاعة العاصى تعرض المطيع للعذاب الذى ينال العاصى ، إذ ـ طاعة العاصى للسلطان تعتبر معصية للسلطان نفسه ، وبذا ينالهما جزاء المعصية معا ، ولهذا قال له فى إشفاق ورحمة به : ﴿ **يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** ﴾ [3] ، إذ يجمعه وإياه صعيد العذاب بعد أليم التوبيخ والعتاب فتتم الولاية بينهما بسبب القرب الذى حصل لهما .

(١ ، ٢) مريم : ٤١ ـ ٤٥ .

(٣) مريم : ٤٥ .

وقوله له : ﴿ **سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حنفا** ﴾(1) ، بعد غضب والده عليه وتهديده له بعذاب الرجم بالقول أو الفعل ومطالبته بالبعد عنه وهجرته له دهرا طويلا ، إذ قال له : ﴿ **أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا** ﴾ (2) ، أقول : إن قوله له : ﴿ **سلام عليك سأستغفر لك ربى** ﴾ (3) ، بعد كل الذى سمع منه من تهديد ووعيد ، وما قد يراه من هجران وحرمان ، لقول من أسد الأقوال لا يقوله إلا من أوتى رباطة الجأش ، ورحمة القلب ، وهما من ضروريات الداعى الناجح ، ولذا كان الخليل إمام الدعاة وقدوتهم فى الحياة .

وبعد هذا العرض والسماع لدعوة إبراهيم لأبيه وأقرب الناس إليه نستعرض دعوة إبراهيم وهو يوجهها إلى قومه وأهل بلده لنقف على مظاهر كماله فى دعوته العامة بعد الخاصة ، ولنطلب ذلك من سورة العنكبوت إذا جاء فيها قول الله تعالى : ﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ، وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ (4) .

ففى هذه الجمل الكلامية التى وجهها إبراهيم عليه السلام إلى قومه الوثنيين ، وحكاها عنه القرآن الكريم ، لتكون حافزا كبيرا للمنزل عليه نبينا محمد ﷺ على إبلاغ دعوته إلى قومه ، وثباته عليها ، ائتساء بإبراهيم إمام الموحدين واقتداء به فى مجال الدعوة والبلاغ المبين .

كما تكون درسا نافعا لكفار قريش ، ولكل مشركى العرب ، إذ يتعلمون من خلالها بطلان الشرك الذى هم عليه ، وأحقية التوحيد الذى يدعون إليه .

ففى قوله : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ (5) .

فى هذا القول الكريم من مظاهر العلم والحكمة وسلامة التوجيه ، وحسن الدعوة ما

---

(1) مريم : ٤٧ . (2) مريم : ٤٦ . (3) مريم ٢٧ . (4 ، 5) العنكبوت : ١٦ ـ ١٨ .

لا يقادر قدره ، الأمر الذى يجعل إبراهيم أحد نماذج الدعاة الصالحين ، الذين يؤتسى بهم ويقتدى باتباعهم .

وإن أمعنا النظر وأعملنا الفكر فى هذه الكلمات التى ألقاها إبراهيم فى قومه دعوة لهم إلى الحق ، وإرشادا لهم إلى سبيله تجلت لنا ينابيع الحكمة وعناصر العلم الغزير الواسع وأساليب البيان الفتان .

إن فى قوله : (**يا قوم**) بدل (أيها المشركون) من استمالة قلوب القوم ، واستهواء نفوسهم ما يجعلهم لا ينفرون من سماع دعوته ، والتأمل فيها ، لأن القومى عادة لا يريد لقومه ما يضرهم أو يسىء إليهم ، ولكن يريد لهم ما ينفعهم ويرفعهم .

وفى قوله (**اعبدوا الله**) تقرير منه للإيمان بوجود الله تعالى ، ونفى للتعطيل الذى هو مذهب الملاحدة الدهريين ، لأن أمرهم بطاعة الله تعالى مستلزم للإيمان به عز وجل .

وفى قوله (**اتقوه**) بعد أمرهم بعبادة الله تعالى ، نهى لهم عن الشرك فى عبادته سبحانه وتعالى ، لأن التقوى لله تعالى مستلزمة لعدم قطع عبادته ولإفراده تعالى بها ، وعدم إشراك غيره فيها ، فيكون قوله هذا كقول الله تعالى فى القرآن الكريم من سورة النساء : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** ﴾ [1] .

وفى قوله : ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ ما يجذبهم إلى التعقل والتفكر فيما يدعوهم إليه من الهدى والخير ، حيث أشعرهم بأن ما يدعوهم إليه من عبادة الله وتقواه بنفى الشرك عنه ، والاستمرار فى عبادته خير لهم فى الحال والمال من الكفر والشرك لما يثمره الإيمان والطاعة والتوحيد من الكمال النفسى ، والاستقامة فى الحياة الدنيا وما يستتبع من سعادة الدنيا والآخرة ، ولما يعقبه الكفر والشرك والعصيان من آثار سيئة فى النفس والسلوك ، وما يستلزم ذلك من الردى والشفاء والهلاك فى الحياتين .

وفى قوله : ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ ، دعوة لهم إلى الارتفاع بنفوسهم عن منحدر التقليد والجمود إلى مستوى العلم والتفكير ، فإن من يعلم الخير والشر ، والحق والباطل ويقدر على التمييز بينها يدرك أن عاقبة الحق والخير أحمد من عاقبة الباطل والشر ، وأن عبادة الله وتقواه خير من الكفر والشرك ومعصية الله .

وفى قوله : ﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا** ﴾ [2] قصر لهم على

---

(١) العنكبوت : ١٦ ــ ١٨ .
(٢) العنكبوت : ١٦ ، ١٧ .

الحقيقة التى يتجاهلونها وهى أنهم ليسوا على شىء فى عبادتهم لأوثانهم ، لأن الأوثان من صنع أيديهم ، وبذلك لم تعد تكن أبدا أهلا لأن تعبد مع الله الخالق لكل شىء ؛ إنها فى الواقع لم تعد أن تكون إفكا ائتفكوه ، وكذبا اختلقوه ، فلا يصح عقلا أن تعبد بحال من الأحوال ، وهى مفتقرة فى وجودها إلى من صنعها ، ولو حكم العقل فى القضية لحكم بعبادة الصانع وبطلان عبادة المصنوع .

وفى قوله : ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا** ﴾ (١) برهنة منه عليه السلام على بطلان عبادة تلك الأوثان ، لأنها لا تملك لعابديها رزقا ، والإله يعبد ويتوسل إليه بالطاعة وشتى القرب ليهب الرزق والخير والبركة والعافية ، فإن كان لا يملك ذلك فهو لا يهبه ، ولذا فلا حق فى عبادته وطاعته ، وهكذا قرر إبراهيم بطلان آلهة قومه بهذا المنطق من الكلام ، لحكمته وعلمه عليه السلام .

وفى قوله : ﴿ **فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له** ﴾ (٢) : بناء لصرح التوحيد على أساس بطلان الشرك وتهاويه ، فإن الآلهة التى لا تملك الرزق يجب أن نرفض عبادتها ، وأن يتجه المفتقرون إلى الذى يملكه ويعطيه فليعبدوه ليهبهم الرزق ، وليشكروا له ذلك ليحفظه عليهم ويزيدهم منه ، فإن شكر النعم بحفظ العبد ويستوجب المزيد .

وفى قوله : ﴿ **إليه ترجعون** ﴾ (٣) : تذكير لهم بالمعاد والحياة الآخرة ، ليربى فى نفوسهم ملكة التقوى لله تعالى ويحيى فى قلوبهم عقيدة البعث والجزاء التى قد تكون الوثنية أتت عليها وأماتتها فى نفوسهم .

وفى قوله : ﴿ **وإن تكذبوا فقد كذب أمم قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ (٤) ، إعلان منه عليه السلام أنه يتكلم من مركز القوة وأنه ليس براعب ولا راهب فهو يقول قولته ، وينفذ دعوته فإن استجابوا وآمنوا ووعدوا واستقاموا نجوا من العذاب وفازوا بالنعيم ، وإن كذبوا فليس ذلك بضائره شيئا ، فقد كذب الذين من قبلهم رسلهم كهود وصالح ، ونوح من قبل ، وما ضر ذلك رسل الله فى شىء بل أنجاهم الله وأهلك المكذبين ، وليس هناك ما يخافه الدعاة إلى الله تعالى من عدم استجابة الأقوام لهم ، إذ ما عليهم إلا البلاغ المبين ، وقد بلغوا وبينوا .

٢ ـ إبراهيم الحجة :

وعن إبراهيم الحجة نقول : لقد أخبر الرب تبارك وتعالى أنه أتى خليله إبراهيم حجته

(١ ، ٢) العنكبوت : ١٦ ، ١٧ . (٣ ، ٤) العنكبوت : ١٧ ، ١٨ .

التى تفوق كل حجة ، وتعظم سائر الحجج ، أنها حجة خالق العقول والحجى يمنحها من يشاء ، وقد وهبها إبراهيم ليتغلب بها على كل من يحاجه ، ويريد أن يحاجه ، قال تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾ (١) .

ولما كانت قوة الحجة من أسباب النصر على الخصوم ، وكان الداعية المسلم يعتمد على قوة الحجة فى دعوته لأن ذلك من أسباب نجاحها فإنا نستعرض هنا موقفين عظيمين لإبراهيم عليه السلام قارع فيهما الحجة وانتصر فيهما على خصوم التوحيد من قومه ، ليشاهد من خلال الاستعراض كيف كان الخليل عليه السلام يرد حجج المبطلين ، وينتصر على الظالمين والمشركين بما آتاه الله من العلم والحكمة ، وقوة الحجة لعل من يقتدى به عليه السلام فى أساليب دعوته وكيفية استخدام حجة ربه ليظهر على خصومه وينتصر على أعداء دعوته .

الموقف الأول : كان له مع الطاغية النمروز البابلى الذى ادعى الربوبية أول من ادعاها من الخلق ، وقد عرض هذا الموقف القرآن الكريم عرضا موجزا فى عدة جمل لا تتجاوز العشر حيث قال الله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ (٢) .

وعرض هذا الموقف يكون كالتالى : بابل من بلاد العراق ملك جبار يقال له : النمرود ابن كنعان بن كوشى بن سام بن نوح عليه السلام ، امتد ملكه حتى شكل كل المعمورة يومئذ ، ودام زمن ملكه نحوا من أربعمائة سنة ، فغره طول العمر وسعة الملك ، وقوة السلطان فادعى الربوبية ، كما ادعاها من بعده فرعون مصر على عهد موسى عليه السلام ، فحضر مجلسه إبراهيم عليه السلام بعد حادثة إلقائه فى النار ونجاته منها ، فدعاه إلى الإيمان بالرب تبارك وتعالى فأنكر الطاغية أن يكون هناك رب غيره ، وأخذ يناظر إبراهيم فى شأن وجود الله تعالى وربوبيته لكل شيء ، وما حمله على ذلك إلا كبرياؤه واغتراره بسعة ملكه وطول عمره .

وحاول الطاغية أن يقنع إبراهيم بأنه لا رب له إلا هو ، وأنه هو الرب لا غير فأنكر

---

(١) الأنعام : ٨٣ .
(٢) البقرة : ٢٥٨ .

عليه ذلك إبراهيم ورده ، وكان الطاغية قد سأل إبراهيم عن ربه فقال : إبراهيم ﴿ **ربى الذى يحيى ويميت** ﴾ فعرفه له بصفاته الخاصة به ، وهى الإحياء والإماتة ، وهما من مظاهر وجود الله تعالى وعلمه وقدرته ، وتدبيره للكون والحياة ، لأن من قدر على إعطاء الحياة وسلبها قادر على كل شيء ممكن فى هذه الحياة ، وهو الرب الحق الذى يستحق عبادة الخلق ، أما من لا يحيى ولا يميت ولا يرزق الأحياء ، ولا يدبر حياتهم فليس للربوبية بحال من الأحوال ، وعرف الطاغية أنه مهزوم أمام هذه الحجة الباهرة وقال من أجل الحفاظ على مركزه والبقاء على ماء وجهه وصيانة لموقفه المنهار أمام قوة الحق : ﴿ **أنا أحيى وأميت** ﴾ ، وبهذا قد اعترف ضمنا أن هناك ربا غيره ، وكل ما فى الأمر أنه هو أيضا رب يحيى ويميت كما يحيى رب إبراهيم ويميت ، وتقول الأخبار : إنه عمد إلى جانيين فى السجن قد استوجبا القتل فدعاهما إلى مجلسه فنفذ حكم الإعدام فى أحدهما وعفا عن الآخر ، وبذلك خدع عقول الحاضرين من أهل بطانته ورجال مجلسه ، وأنه فعلاً يحيى ويميت ، إلا أن إبراهيم تفطن للخدعة وعرف المغالطة وقال له : إنك أحييت حيا ، ولم تحيى الميت والرب الحق يحيى الميت ويميت الحى ، وإن بقيت على مغالطتك فإن اللّه يأتى بالشمس من المشرق صباح كل يوم ، فأت بها أنت من المغرب ، ولم يجد الطاغية فى هذا مجالاً للمغالطة والتضليل كما وجد ذلك فى الأولى ، كما أنه لم يجد ما يقدمه حجة تدحض حجة إبراهيم ، فانقطع الطاغية وبهت ، وبان زيف حجته وبطلت دعواه ، وقامت الحجة عليه للّه .

نتائج هذه المناظرة :

نلخص ثمرة هذا الموقف فى النقاط الست التالية :

١ ـ قوة السلطان وسعة الملك وطول العمر من موجبات الغرور والطغيان للإنسان .

٢ ـ الدعاة يغشون مجالس الملوك لنصحهم ووعظهم وإرشادهم ، أو لدعوتهم إلى ربهم ، ولا ينقص ذلك من شرفهم ولا يمس بكرامتهم .

٣ ـ صاحب الرسالة يبلغها ولا يهاب فى ذلك سلطاناً ولا يخاف بطشاً ولا عدوانا .

٤ ـ الإدلاء بالحجة يكون بعد الإنكار أو ظهور علاماته .

٥ ـ الانتقال بالحجة من القوية إلى الأقوى لإفحام الخصم وإقامة الحجة عليه .

٦ ـ النصر والغلبة لدعاة الحق وناصريه ، والهزيمة والانكسار لدعاة الظلم والقائمين عليه .

وأخيراً إن السر في هذا الانتصار الباهر الذى حققه إبراهيم على خصمه النمرود عليه لعائن اللّه تعالى هو موالاة اللّه تعالى لإبراهيم فإن من والاه اللّه تعالى أخرجه من كل ظلمة ، وأمده بكل نور وبه ينتصر ويظهر إذ ذكرت هذه القصة تدليلاً على قوله تعالى : ﴿ **اللّه ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[1] .

الموقف الثانى : جاء هذا الموقف فى قول اللّه تعالى من سورة الأنعام ، وحاجه قومه ، قال : ﴿ **أتحاجونى فى اللّه وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم باللّه ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾[2] .

ولنستعرض أحداث هذا الموقف على النحو التالى :

إنه بعد أن ألان إبراهيم جانبه لوالده ، وعرض عليه دعوة اللّه تعالى فى لطف وظرف وأدب ، وازداد عتو آزر وظهر إصراره على كفره ، وعدم تراجعه عن موقفه العدائى لإبراهيم داعى اللّه تعالى الأمين ، هنا تغير موقف إبراهيم إزاء آزر ، فاتسم بنوع من الشدة والصرامة فقال ما قصه اللّه تعالى فى كتابه من سورة الأنعام : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أأتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين** ﴾[3] ، وفى هذا تصريح كامل بتضليل آزر وقومه خال من كل مواربة أو مجاملة .

ورأى إبراهيم عليه السلام أن يسلك فى هداية قومه طريق الوقوف بهم على مظاهر الكون ، وآيات اللّه فيه ليريهم خطأهم فى عبادة غير اللّه تعالى من تلك الأصنام التى لا تخلق شيئاً ولا تنفع ولا تضر أحداً علهم يثيبون إلى رشدهم ويعودون إلى عبادة ربهم الحق الذى خلقهم ورزقهم ويميتهم ثم يحييهم وهو على كل شىء قدير .

فلما أظلم الليل بغروب شمس النهار ، وطلع كوكب من الكواكب المنيرة ونظر إليه وقال فى أسلوب استفهامى إنكارى : هذا ربى أى أهذا ربى ؟ كما تزعمون ؟ فلما أفل الكوكب وغاب بغروبه فى الأفق قال : لا أحب الأفلين ، وبذلك قرر عدم صلاحية الكوكب للألوهية لذهابه وطلب غيره مما قد يصلح لذلك ، ﴿ **فلما رأى القمر بازغاً قال**

---

(١) البقرة : ٢٥٧ . (٢) الأنعام : ٨٠ ، ٨١ . (٣) الأنعام : ٧٤ .

هذا ربى فلما أفل ﴾ [1] القمر ، ﴿ **قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين** ﴾ [2] ، فأرى إبراهيم قومه وأسمعهم أنه باحث عن آية ، طالب له متطلع إلى يوم يعرف فيه ربه الذى خلقه ورزقه وخالق كل العالمين حتى رأى ـ الشمس بازغة وهى أعظم كوكب فى السماء وأكثر الكواكب إشراقاً ونوراً وضياء فلما رآها ﴿ **قال هذا ربى هذا أكبر** ﴾ [3] ، فلما أفلت بغروبها وذهاب جرمها واختفائه عن أعين الناس واجه قومه بالحقيقة التى ينشدها لهم ﴿ **يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين** ﴾ [4] ، وهنا حاجه قومه فى توحيد ربه فأنكروا عليه ذلك كما أنكروا عليه براءته من آلهتهم فانبرى لهم قائلاً : ﴿ **أتحاجونى فى اللّه وقد هدان** ﴾ [5] ، فكيف يصح عقلاً أن أتنكر لربى رب السموات والأرض فأنكر وجوده أو أنكر توحيده ، والحال أنه قد هدانى لمعرفته فعرفته ، وإلى صراطه المستقيم فسلكته ، أبعد كل هذا تحاجونى فى ربى أما ترون أم أنكم قوم لا تعقلون ؟ ، ولما رأوا من إبراهيم الإصرار على التوحيد ، وإبطال الشرك والتنديد به ، وشاهدوا استخفافه التام بآلهتهم المدعاة الباطلة خوفوه بآلهتهم ، وأنها ستنتقم لنفسها ولعابديها منه إن هو بقى على معاداتها والاستخفاف بها والسخرية منها .

فرد عليهم إبراهيم قائلاً : سأبقى على توحيد اللّه ، وعلى الدعوة إليه ، منددا بشرككم ساخراً من آلهة باطلكم ، ولا أخاف تلك الآلهة التى تشركون بها أن تصيبنى بشىء ، إذ أنها لا تنفع ولا تضر لضعفها وحقارتها ، إن هى إلا أصنام نحتموها بأيديكم ، وعبدتموها بأهوائكم ، فكيف تضر ، أو يخاف منه ضر أو شر ، اللهم إلا إذا أراد ربى أن يصيبنى بشىء عقوبة لى تقصير منى فى عبادته ، أو ابتلاء لى فى طريق دعوته للصبر عليها ، أو أتخلى عنها ، فإن ذلك من مقتضيات حكمة اللّه وعلمه ، فقد وسع ربى كل شىء علما .

ثم بعد إقامة الحجة عليهم فى بطلان آلهتهم وعجزها عن إصابته بأى أذى أو سوء لم يرده اللّه تعالى له ، أقبل عليهم يوبخهم بجهلهم وغفلتهم وعدم تذكرهم إذ لو علموا بطلان ما هم عليه ، ولم يجهلوا الحق الذى يدعون إليه ، ولم يغفلوا عن واقع الحياة التى يعيشون وتذكروا فى أنفسهم أن ما يخوفون به إبراهيم ، إنما هو جماد لا حياة فيه ، ولا سمع ولا بصر له فكيف يمكنه أن يضر إبراهيم ، أو يناله بأدنى سوء ، لما خوفوه عليه السلام بما اتخذوا من أصنام آلهة ، ولكنهم جهلاء غافلون فاقدون لكل تدبر أو تذكر .

(١ ـ ٥) الأنعام : ٧٧ ـ ٨٠ .

وبعد أن وبخهم على جهلهم وغفلتهم ، وعدم تذكرهم ، عاد لحجاجهم عله يكسر من أغلال تقليدهم ويمزق غفلتهم ، ويخفف من تبلد حسهم فيتبينوا الحق ويرجعوا إليه فتتم هدايتهم وينجوا من غوايتهم ، فقال لهم فى أسلوب الاستفهام التعجبى المثير للنفس ، المحرك للضمير : وكيف أخاف أنا ما أشركتم من آلهة لا سمع لها ولا بصر ، ولا قدرة لها على نفع أو ضر ، ولا تخافون أنتم أنكم أشركتم فى ربوبية الله تعالى وعبادته ما لم ينزل به سلطاناً من هذه الأوثان التى تعبدون ، والآلهة التى تزعمون ، مع أن الشرك ظلم عظيم يستوجب فاعله العقوبة الشديدة والعذاب الأليم .

وختم حجاجه عليه السلام بقوله : فأى الفريقين أحق بالأمن من الخوف إن كنتم تعلمون ، فريق الإيمان والتوحيد والطاعة ؟ وهو أنا ، أم فريق الكفر والشرك والمعصية ؟ وهو أنتم ، أجيبوا عن سؤالى هذا إن كان لديكم علم تجيبون به ، وإلا فاعترفوا بجهلكم ، وضعف مسلككم فى حجاجكم ، فإن ذلك أولى بكم ، وأليق بمثلكم أيها المحجوجون المغلوبون .

وإلى هنا انتهى الحجاج بين إبراهيم وقومه بانتصار إبراهيم وغلبته وانكسار قومه وهزيمتهم ، والنتائج التى تستخلص من هذا الحجاج قد تلخص فيما يلى :

١ ـ مراعاة الأدب فى الدعوة والمناظرة بعدم استعمال الكلمة الخشنة النابية ، إلا إذا خرج الخصم المجادل عن تلك الحدود من الآداب المرعية فى الجدال والمناظرة .

٢ ـ مراعاة حال المدعو ، وتقديم البيان والهدى إليه شيئاً فشيئاً والأخذ بيده تدريجاً تدريجاً إلى أن يوصل به إلى محيط الهدى ودائرة النجاة إن قدر له ذلك ، وإلا فقد أعذر إليه وبرئت ذمة الداعى .

٣ ـ من واجب منكر الباطل على غيره أن يتبرأ منه كما تبرأ إبراهيم من الشرك والمشركين ، والازدراء منه بتناقضه ، إذ كان ينهى عن الشىء ويفعله أو يرضى به .

٤ ـ تخويف المشركين إبراهيم من آلهتهم أن تمسه بسوء ، سنة باقية فى الناس إلى اليوم ، فكثيراً ما يخوف القبوريون اليوم المصلحين من الأولياء والصالحين الأموات إذا المصلح الداعى أنكر على الناس دعائهم والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم .

٥ ـ صاحب الحق أولى بالدفاع عن حقه وتحمل الأذى فى ذلك من صاحب الباطل ، غير أن الناس اليوم على خلاف ذلك فإنا نرى أصحاب الباطل يبذلون الكثير من الجهد

والمال فى سبيل نصرة باطلهم ويتحملون فى سبيل ذلك الكثير من الأتعاب ، ونرى على العكس من ذلك أصحاب الحق فإنهم فى الغالب لا يبذلون لنصرة حقهم نفسا ولا مالا ، ولا يتحملون تعباً كبيراً ولا صغيراً .

٦ ـ الحق وإن ظهر لا بد له من تأييد بقوة حجة ، أو سلطاناً ، وإلا لما سلم أهل الباطل له ، ولا ما أذعنوا له ، واعترفوا به .

والحق وإن علا ليس بمؤيد ... حتى يحوط بجانبيه حسام

خط الرسول بيديه خندقاً ... ومشى تحوطه قنى وسهام

٣ ـ إبراهيم (البلوى) :

وعن إبراهيم البلوى نقول : إن ما ابتلى به إبراهيم عليه السلام من صنوف البلوى ، وضروب الامتحان ليعد وحيداً فى بابه ، فريداً فى حياة الابتلاء والاختبار ، إنه لم يعرف فى تاريخ البشرية الطويل وخاصة بين أصحاب الرسالات من ابتلى ابتلاء إبراهيم الخليل ، كل ذلك ليعد لمنصب الإمامة التى لم يتسمه ولم يرق إليه سوى إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى فى ذلك : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً** ﴾ (١) .

إن ما ابتلى به إبراهيم فصبر له وفاز بحسن عقباه لكثير جدا ، وها نحن نذكر طرفاً منه :

١ ـ إرساله وحده إلى أمة غارقة فى الوثنية : ضاربة فى الضلال ، على رأسها ملك جبار طال عمره واتسع ملكه فغره ذلك فادعى الربوبية ، فهو لا يرى رباً سواه ، ولا ملكاً حاكماً غيره إلى مثل هذه الأمة وهذا الملك يبعث إبراهيم ليندد بالشرك والوثنية ويصرخ فى وجه الظلم والطغيان فيحمل رسالته بكفه وينادى بأعلى صوته : ﴿ **ماذا تعبدون أئفكاً آلهة دون اللّه تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ؟؟** ﴾ (٢) ﴿ **ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** ﴾ (٣) ﴿ **ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين** ﴾ (٤) ، ﴿ **هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وأباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين** ﴾ (٥)

---

(١) البقرة : ١٢٤ . (٢) الصافات : ٨٥ ـ ٨٧ .

(٣) الأنبياء : ٥٢ . (٤ ، ٥) الشعراء : ٧٠ ـ ٧٧ .

﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾ [(1)] .

٢ ـ **إلقاؤه فى النار** : ورأى المشركون آلهتهم متساقطة مبعثرة متناثرة فثارت ثائرتهم ، وتأججت نار الحمية فى قلوبهم ، وتساءلوا عمن فعل بآلهتهم الخراب والدمار ، وألحق بها الخزى والعار ، وعلموا أنه الفتى الساخط عليها الناقم منها إبراهيم وأحضروه وناظروه فكبتهم وأذلهم وألحق المهانة بهم وبآلهتهم ، فحاكموه وظلما حكموا عليه ، فبنوا تنوراً أعظم تنور وأحرقوا فيه النار حتى كانت جحيماً لا تطاق القوه فيها ، فكان هذا كذلك امتحاناً من أقسى الامتحانات ، وابتلاء نادراً فى باب الابتلاءات .

٣ ـ هجرته إلى الشام :

وثالث الابتلاءات أن يهاجر إبراهيم فيترك أهله وبلاده ، ويقول : ﴿ **إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم** ﴾ [(2)] إنه بعد أن أنجاه الله من النار بكلمة الله تعالى : ﴿ **يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾ [(3)] فكانت كما أراد الله برداً وسلاماً على إبراهيم ، فخرج منها ولم يمسسه سوء ، ولم ينله مكروه ، قرر إبراهيم الهجرة فخرج مهاجراً يؤم أرض الشام وبلاد كنعان ، فخروجه من بلاده عليه السلام تاركاً كل شيء وراءه وهو يتجه إلى مجهول من البلاد ليس له فيه صديق أو حميم يعتبر ابتلاء من أعظم أنواع الابتلاءات .

٤ ـ إسكانه امرأته وولده بوادى مكة :

بأمر الله تعالى أسكن إبراهيم هاجر إسماعيل وولدها وادى مكة حيث لا زرع ولا ضرع والمرأة شقيقة الرجل ، والولد فلذة كبده ، فليس من غير الإبتلاء القاسى الشديد أن يضع الرجل زوجه وولده فى مكان بعيد ليس فيه ماء ولا مرعى ، ولا جار ولا دار ، ويقفل راجعاً فتقول له امرأته : لمن تتركنا هنا ؟ آلله أمرك ، فيقول : نعم ، فتقول : إذا فاذهب فإنه لا يضيعنا ، ويذهب ويترك امرأته وولده امتثالاً لأمر ربه تعالى .

---

(١) الأنبياء : ٥٧ ، ٥٨ . (٢) العنكبوت : ٢٦ .
(٣) الأنبياء : ٦٩ .

٥ ـ رؤياه ذبح ولده :

ومن أعظم البلايا التى ابتلى بها إبراهيم وحى اللّه تعالى إليه مناماً أن يذبح ولده إسماعيل قرباناً له تعالى ، إنه بعد أن كبر إسماعيل وبلغ حد السعى والعمل رأى إبراهيم عليه السلام رؤياه العظيمة التى توحى بذبح إسماعيل قربانا للّه تعالى فقال لإسماعيل الغلام : ﴿ **يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟** ﴾ (١) ، فأجابه إسماعيل قائلاً : ﴿ **يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء اللّه من الصابرين** ﴾ (٢) ، وخرج إبراهيم بإسماعيل إلى منى ليذبحه هناك ، وفعلا تله للجبين ، وأمر مديته على رقبة الابن الصابر وإذا الحديد لم يقطع ، وإذا بمناد يقول : خذ الكبش واترك الغلام ، وفداه اللّه بذبح عظيم فذبحه ونجا إسماعيل وقال اللّه تعالى : ﴿ **يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ (٣) .

٦ ـ بناء البيت :

إذا كان التكليف من الإبتلاء فإن تكليف إبراهيم ربه ببناء بيت له بوادى مكة حيث لا رجال ولا مال ولا عدة ولا عتاد فيقوم إبراهيم بمساعدة ولده إسماعيل بإنشاء بيت عظيم عجزت قريش وهى أمة عن إتمامه عند تجديد بنائه لتكليف جد شاق ابتلى به إبراهيم إعداداً له ليصبح إمام الناس وخليل رب العالمين ، ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود** ﴾ (٤) ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ (٥) .

ونهض إبراهيم بهذا التكليف وبنى البيت الذى أمر ببنائه ، فكان هذا نوعاً من الابتلاء الذى ابتلى به إبراهيم فصبر عليه ، فكان بذلك إبراهيم البلوى والوفاء .

٧ ـ ختانه نفسه :

وآخر هذه البلايا التى ابتلى بها إبراهيم فصبر لحكم ربه برضا مولاه الذى ابتلاه أمر اللّه تعالى له بأن يختتن بعد أن بلغ ثمانين من السنين ، فاختتن إبراهيم بقدوم ، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ فى صحيح الأحاديث .

(١ ، ٢) الصافات : ١٠٢ . (٣) الصافات : ١٠٤ ، ١٠٦ .

(٤) الحج : ٢٦ . (٥) البقرة : ١٢٧ .

إنه بهذه السلسة ذات الحلقات السبع من الابتلاءات العظيمة أصبح بها إبراهيم بحق إبراهيم البلوى الوفاء ، وفاز بلقبين عظيمين لم يفز بهما غير إبراهيم وهما الإمامة ، والخلة ، فكان إبراهيم إمام الموحدين ، وخليل رب العالمين .

فسلام عليه فى العالمين ، وسلام عليه فى المرسلين

٤ ـ إبراهيم (الهجرة) :

إن الهجرة فى دين اللّه تعالى شأناً ناهيك بها إنها تعدل الجهاد فى ذات اللّه كما قال تعالى : ﴿ **والذين هاجروا فى سبيل اللّه ، ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم اللّه رزقاً حسناً ، وإن اللّه لهو خير الرازقين ، ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن اللّه لعليم حليم** ﴾ (١) .

ومن هنا كان العالمون من سلف هذه الأمة يقول أحدهم : لا أبالى أكنت فى قبر مجاهد ، أو مهاجر .

وما ذاك إلا أن الابتلاء بهما متساو فى المشقة ، متعادل فى المثوبة والأجر .

وإبراهيم عليه السلام أول من سن الهجرة فى ذات اللّه فقال بعد أن أنجاه اللّه من النار ﴿ **إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم** ﴾ (٢) ، فهاجر من بابل العراق إلى الأرض المباركة من الشام ، وترك وراءه الوطن والأهل والمال ، واتجه إلى أرض مجهولة لديه ، وبلاد بعدت عليه ، فراراً بدينه ، وهجراً لقومه وأهله وما يعبدون من دون اللّه ، فخرج إبراهيم ومن آمن معه وهو ابن أخيه لوط عليه السلام ، واتخذ من أرض الشام دار هجرة ، فكانت الشام تعرف بعد ذلك (بمهاجر إبراهيم) ، وسن هذه الهجرة كغيرها من الهجر فى ذات اللّه : أن يتمكن المهاجر من عبادة اللّه تعالى بعد أن عجز عنها فى بلاده ، وبين قومه وأن لا يرى المنكر أمامه وهو عاجز عن تغييره ، وأن يطلب من الأسباب ما يمكنه من الجهاد نصرة للحق وأهله ، وإرغاماً للباطل وحزبه .

٥ ـ إبراهيم (الخلة) :

وعن إبراهيم الخلة (٣) نقول : إن إبراهيم عليه السلام بذل كل شىء فى سبيل حب

---

(١) الحج : ٥٨ ، ٥٩ . (٢) العنكبوت : ٢٦ .

(٣) الخلة : أقصى المحبة وفى وجه اشتقاقها أقوال كثيرة أشهرها وأقربها أنها من تخلل الحب كل مسالك النفس وتعلقه بكل جزئيات البدن ، وعليه قول القائل : قد تخللت مسلك الروح فى وبذا سمى الخليل خليلاً .

اللّه تعالى فغلب عليه ذلك حتى كان لا يطعم الكافر طعام ولا يسقيه شراباً ، وإلى ذلك الإشارة فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم باللّه واليوم الآخر** ﴾ (١) ، فقد طلب الرزق من الثمرات لمن آمن فقط دون من كفر ... فرد اللّه تعالى ذلك بقوله : ﴿ **ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير** ﴾ (٢) .

وفى هذا تقول الآثار : إن كافراً استقرى إبراهيم يوماً فسأله طعاماً فقال له : أن تؤمن بربى أطعمك ؟ فقال الكافر : لا أترك دينى من أجل لقمة طعامك وانصرف . فأوحى اللّه تبارك إلى إبراهيم : عبدى أطعمه منذ سبعين سنة وهو كافر بى ولم أمنعه الطعام لكفره ، وأنت استطعمك يوما فاشترطت عليه أن يترك دينه الذى هو عليه منذ سبعين ، فلحقه إبراهيم واعتذر إليه وأطعمه ، فقال له الكافر : ما بذلك يا إبراهيم ؟ قال : لقد أوحى اللّه إلى بكذا وكذا ، فقال الكافر : أو قد وقع هذا ؟ مثل هذا ينبغى أن يؤمن به ويعبد فأسلم الكافر .

وتقول الآثار : إن جبريل وميكائيل وإسرافيل لما نزلوا ضيفاً على إبراهيم وهم فى طريقهم إلى قرى لوط ، وقدم لهم الطعام وامتنعوا أن يأكلوا ، فقال لهم ألا تأكلون ؟ فقالوا : إنا لا نأكل طعاماً إلا بحقه ، فقال : كلوا بحقه قالوا : وما حقه ؟ قال أن تسموا اللّه فى أوله وتحمدوا اللّه فى آخره ، فالتفت جبريل إلى ميكائيل وقال : حق للرجل أن يتخذه ربه خليلا .

ومهما يكن فإن الخلة نالها إبراهيم ـ كما قال تعالى : ﴿ **واتخذ اللّه إبراهيم خليلا** ﴾ (٣) ـ نالها بتوحيده وصبره وصدقه وحبه ووفائه ورحمته وهجرته وطاعته ونصيحته ، ومن أعظمها أن يطلب إليه الحبيب أن يقدم له فلذة كبده فلم يتردد إبراهيم وقدم إسماعيل قرباناً للّه تعالى فأي ابتلاء أعظم من هذا الابتلاء ؟ وكيف واللّه تعالى يقول فيه : ﴿ **إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ (٤) .

٦ ـ إبراهيم (القدوة) :

وعن إبراهيم القدوة نقول : إن إبراهيم بمواقفه البطولية المشرفة تأهل لأن يكون قدوة

(١ ، ٢) البقرة : ١٢٦ . (٣) النساء : ١٢٥ . (٤) الصافات : ١٠٦ ـ ١١٠ .

لمن جاء بعده من أهل الإيمان والصلاح ، وحسبنا فى ذلك أن يقول اللّه تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون اللّه كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ، أبداً حتى تؤمنوا باللّه وحده** ﴾ (١) .

فقد جعل اللّه تعالى إبراهيم قدوة لأهل الإيمان يقتدون به فى شتى مواقفه التى نجملها فيما يلى : فى توحيد اللّه ، فى البراءة من الشرك وأهله ، فى الهجرة فى ذات اللّه ، فى الصبر على طاعة اللّه ، فى الوفاء بكل التزام للّه .

ضرب إبراهيم المثل فى كل هذه الجوانب من حياة الإيمان والإسلام والإحسان فأصبح مثالاً يحتذى ، وقدوه صالحة بها يقتدى .

٧ ـ إبراهيم (الرحمة) :

وعن إبراهيم الرحمة نقول : إنه لا أدل على رحمة إبراهيم التى غلب وصفها عليه حتى أصبح يعرف بها من أن يبتليه ربه تعالى بذبح ولده إسماعيل ، لأنه ابتلاء يرفع المبتلى إلى درجة الخلة يكون أقسى أنواع الابتلاء ، وأشده ، فالأمر بذبح فلذة الكبد امتحاناً من رجل عرف بالرحمة القلبية حتى كان ينادى بالأب الرحيم ، دال على رحمة إبراهيم وشاهد صدق عليها .

ومن مظاهر رحمة إبراهيم قوله وهو يناجى ربه : ﴿ **فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم** ﴾ (٢) ، فإن فى قوله : ﴿ **فإنك غفور رحيم** ﴾ تلويحاً أشبه بتصريح بأن يقول : ومن عصانى فيما هو غير الشرك والكفر فاغفر له وارحمه ، فإنك غفور رحيم .

٨ ـ إبراهيم (الأمة) :

وعن إبراهيم الأمة نقول : إن وصف إبراهيم بلفظ الأمة كان من وصف اللّه تعالى له بذاك فى قوله من سورة النحل : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا للّه حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه** ﴾ (٣) .

ووصف اللّه تعالى هذا له بأنه أمة يعتبر شهادة من اللّه تعالى له بذلك وكفى باللّه شهيداً .

---

(١) الممتحنة : ٤ .　　(٢) إبراهيم : ٣٦ .　　(٣) النحل : ١٢٠ ، ١٢١ .

ومعنى أمة : أنه جامع للكمالات والفضائل التى لا توجد مجتمعة إلا فى أمة من الناس وهو العدد الكبير ، كما أن معنى أمة دال على أن ما تقوم به الجماعة من الناس يقوم به الفرد الموسوم بأنه أمه ، وعلى سبيل المثال نقدم رسول اللّه لهذه الأمة محمد ﷺ ، فنجده فداه أبى وأمى كان قائماً بما تقوم به أمة من الناس وتعجز عنه ، فالرسالة ، والإمامة والقضاء ، والإفتاء والقيادة فهذه المهام من المناصب لا يقوم بها عادة إلا أفراد عديدون فإذا قام بها فرد كان بذلك أمة وصح وصفه بأنه وحده أمة .

وهكذا كان إبراهيم أمة فإنه عاش دهراً طويلاً لا يعبد اللّه ويوحده فى الأرض إلا هو ، ولا يأمر بمعروف وينهى عن منكر فى الأرض سواه ، ثم قد جمع من الفضائل النفسية وكمالات البشرية مالا يجتمع عادة إلا فى العدد الكثير من الناس .

والعبرة من هذه الصفات الكمالية التى استعرضناها لإبراهيم عليه السلام هى أن يجد فيها الداعية المسلم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فيتمثلها فى حياته وهو قائم برسالة الحق والخير يعرضها على الناس ويدعوهم إلى الأخذ بها والتمسك بما فيها من الإصلاح والهدى ليكملوا ويسعدوا ، فتساعده على حمل رسالته والوصول بها إلى حيث يريد أن يصل بها من إصلاح الناس وهدايتهم ليكملوا ويسعدوا فى الحياتين ، وسلام على إبراهيم فى المرسلين ، والحمد للّه رب العالمين .

جـ ـ موسى الكليم

من نماذج الدعاة إلى اللّه تعالى ، وإلى الحق والخير موسى النجى الكليم عليه الصلاة والتسليم .

ترجمته :

فمن هو موسى الكليم ؟ إنه موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، لقب بالكليم وهو لقب تشريف عظيم ، إذ كلمه ربه تعالى كفاحا أى مواجهة بدون واسطة ملك أو غيره ، كما يلقب بالنجى لمناجاة اللّه تعالى له ، وثم له الكلام والمناجاة بطور سيناء ، قال تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا** ﴾ (1) .

---

(1) مريم : ٥١ ـ ٥٣ .

كانت حياة هذا الرسول الكريم والداعية المخلص العظيم مليئة بالبطولات والتضحيات موحية بمعانى القوة والكمال ، والخير والجمال ، وإنه لمن غير المتيسر استعراض كل تلك الحياة ، والوقوف منها على كل مواطن العظة والعبرة فلذا حسبنا منها لقطات قليلة ، ونظرات عابرة يسيرة تعود على من يقف عليها ، وينظر فيها بفوائد روحية ، وطوائلة خلقية لم يتوفر على مثلها لو درس حياة أمم وأجيال ، من غير أمثال هؤلاء الرجال .

هذا وما سنلقى عليه نظرة خاطفة من حياة موسى النجى الكليم وهى كما تقدم مليئة بالعبر والعظات ، زاخرة بالبطولات والتضحيات ، هو الكمالات النفسية التالية :

بلاؤه وصبره ، نجدته وعفته ، قوته وأمانته ، شجاعته وقوة حجته ، صدقه ووفاؤه ، إخلاصه وتوكله ، علمه وتواضعه .

بلاؤه وصبره :

فعن بلائه وصبره نقول : إن البلاء الذى اكتنف حياة النجى الكريم موسى الكليم عليه السلام من لدن ولادته إلى وفاته ، لبلاء عظيم ، وفى قوله تعالى من سورة طه : ﴿ **وفتناك فتوناً** ﴾ [1] إشارة واضحة إلى صنوف البلاء الذى لازم حياة موسى الكليم من المهد إلى اللحد فسلام عليه فى المبتلين ، وسلام عليه فى الصابرين .

وها هى ذى نقاط سوداء نشير بها إلى صور عدة من ذلك البلاء : وفى ذلك عبرة للمعتبرين ، وذكرى للذاكرين .

خوف أمه عليه ، وهى حامل به ، من أن يطلع عليه مجرمو آل فرعون ساعة وضعه ، فيذبحوه تنفيذاً لقرار فرعون بذبح المواليد الذكور فى ذلك العام .

وضعه فى صندوق خشبى وإلقاؤه فى اليم كلما أحست أمه بحركة ، أو سمعت صوتاً عند باب منزلها خوفاً عليه من آل فرعون أن يقتلوه ، حتى كان يوم انقطع فيه الحبل وذهب الماء بالتابوت إلى قصر آل فرعون الناقمين عليه الطالبين له ، فكان هذا فتوناً أى فتون .

تحريم الله تعالى المراضع عليه ، فلم يرضع منهن واحدة وهو يتضور جوعاً ، ويتألم عطشاً فترة من الزمن ، حتى رد إلى أمه فأرضعت وأخذت أجرة عليه ، فكان هذا بلاء ، وكان فتوناً أى فتون .

---

(١) طه : ٤٠ .

هم فرعون بقتله لما تشاءم منه ، حتى شفعت آسيا له بقولها : ﴿ **قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ (١) فكان هذا بلاء به وفتوناً له أى فتون .

قتله القبطى (خطأ) وما لحقه من جراء ذلك من الهم والغم ، وما أصابه من الخوف نتيجة ائتمار الملأ به ليقتلوه ، بالنفس التى قتلها ، فقضى أياماً خائفاً يترقب ، فكان هذا بلاء عظيماً صبر موسى عليه .

هجرته وحده من أرض مصر إلى مدين بلا زاد يأكله ولا ظهر يركبه فناله من الجوع والإعياء ما هو بلاء أو أشد من البلاء .

رعيه الغنم بالصحراء وهو الذى عاش فى قصور الأمراء حتى قضى عشرا من السنين فى أرض الغربة بعيداً عن والدته وأخته وأخيه ، فكان هذا من البلاء الذى نزل به وصبر عليه .

تكليفه وإن كان فيه تشريفه بحمل رسالة إلى فرعون الطاغية الجبار ، مدعى الربوبية وزاعم الألوهية ، مضمونها : أن يتخلى عن دعوى الربوبية والألوهية لله ويعبد الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، وأن يرسل مع موسى بنى إسرائيل عباد الله إلى الأرض المقدسة التى كتب الله ، فكان فى هذا من البلاء ما فيه ، فصبر موسى عليه .

خوضه المعركة الفاصلة بينه وبين السحرة تلك المعركة التى أوجس فيها موسى خيفة حتى قال له ربه تعالى : ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ (٢) ، فكان هذا من البلاء .

حجاجة لفرعون وآله عدة سنين يقارع فيها الحجة بالحجة ويقابل فيها البرهان بالبرهان ، ويسمع فيها من التهديد والوعيد ، ما هو بلاء أو أعظم من البلاء .

رده بعض بنى إسرائيل فى غيبته بعبادتهم العجل ، وما ناله فى ذلك من هم وما أصابه من حزن وغم وما تملكه من جزاء ذلك من غضب حتى ألقى الألواح فتكسرت وأخذ برأس هارون أخيه يجره إليه عاتباً عليه مؤنباً إياه ، أليس هذا من البلاء ، فصبر عليه موسى .

خروجه بخيار قومه إلى الطور ليطلب لبنى إسرائيل التوبة ويسأل لهم العفو والمغفرة ، وتعنت أولئك المختارين معه ، وطلبهم رؤية الله جهرة ، حتى أماتهم الله وأحياهم بأخذ الصاعقة لهم وهم ينظرون ، وعدم أخذهم التوراة ، وتمردهم على موسى فى ذلك حتى شق الله الجبل فوق رؤوسهم فأخذوها مكرهين خائفين ، أليس هذا من البلاء المبين ؟

---

(١) القصص : ٩ .　　(٢) طه : ٦٨ .

لموسى الكليم ؟ وقد صبر عليه .

اشتراط اللّه تعالى لقبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضا ففعلوا حتى بكى موسى وهارون خوفاً من فناء بنى إسرائيل ، وسألا اللّه تعالى أن يرفع عنهم القتل فاستجاب اللّه تعالى لهم ، وتاب على بنى إسرائيل إنه هو التواب الرحيم ، أليس هذا من البلاء المبين الذى صبر عليه موسى الكليم ؟

خروجه مع بنى إسرائيل لقتال العمالقة بأرض القدس ، ونكول قومه عن قتالهم ، وإظهارهم الجبن والخوف منهم بقولهم ﴿ **إن فيها قوماً جبارين** ﴾ ، ﴿ **لن ندخلها حتى يخرجوا منها** ﴾ ، وإسائتهم الآدب معه عليه السلام إذ قالوا له : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** ﴾ (١) ، أليس هذا من البلاء المبين ؟

ما قضاه فى التية مع بنى إسرائيل من حياة طويلة تعرض فيها لألوان من تعنت بنى إسرائيل وسوء أدبهم ، وقبح سلوكهم الأمر الذى لا يطيقه إلا مثل موسى الكليم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، أليس هذا من البلاء المبين والصبر العظيم الذى جعل موسى فى عداد أولى العزم الصابرين ؟ لاقى موسى عليه السلام كل هذه الضروب من البلاء ، فصبر عليها ، فكان بذلك أحد أولى العزم الصابرين الذى أمر إمام الأنبياء محمد ﷺ بأن يصبر كما صبروا فى قول اللّه تعالى : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ (٢) ، وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم ، عليهم السلام .

نجدته وعفته :

وعن نجدة موسى وعفته المثاليتين نقول : ومن كمالات موسى الكليم النفسية والخلقية نجدته وعفته ، وهما خلتان كريمتان يتنافس فى اكتسابهما والاتصاف بهما أعاظم الرجال ، وبما أن هاتين الخلتين تغلبان على حياة الكليم الروحية والخلقية فإنا نكتفى بذكر حادثتين وعرض موقفين تتجلى لنا فيهما خلتا النجدة والعفة عند موسى النبى النجى عليه السلام .

إن الحادثة الأولى وحياة موسى كلها أحداث : مروره بالقبطى والإسرائيلى وهما يقتتلان ، واستغاثه الثانى به ليخلصه من الشدة التى أنزلها الأول به ، وما تردد موسى فى نجدته وإغاثته حيث وكزة القبطى وكزة قضى فيها عليه ، فكانت هذه مظهراً من أجل المظاهر لنجدة موسى وقوته .

---

(١) المائدة : ٢٤ .　　(٢) الأحقاف : ٣٥ .

والثانية : كانت عندما جلس تحت الشجرة يستظل بظلها قريباً من ماء مدين والرعاة يسقون ويصدرون ، وامرأتان تذودان غنمهما حتى لا تختلطا بالرعاء حفاظاً على شرفهما ، وإظهاراً لكمال عفتهما ، فيتقدم الكليم مدفوعاً بخلة النجدة المتأصلة فى نفسه ، وكأنه أسد هيصور وعلى ما هو عليه من وعثاء السفر وغلبة الجوع ، فيسقى لهما غنمهما ويتولى إلى الظل الذى كان به ، كأسد يعود إلى عرينه ، فأخر موسى بنجدته المتقدم وقدم المتأخر ، وكذلك أهل النجدة يفعلون .

فهاتان هما الحادثتان وقد تجلت لنا فى كل منهما خلة النجدة لدى موسى عليه السلام ، أما الموقفان فأولهما كان عندما تقدمته الفتاة المرسلة إليه لتأتى به إلى والدها ليجزيه على معروفه الذى أهدى ، وجميله الذى أسدى ، وقد عبثت الريح بدرع الفتاة فانكشف منها بعض ساقها فأبت عفة موسى عليه السلام أن ينظر منها إلى ما كشف الريح عنها فقال لها : يا فتاة الطهر ، إمشى وراء الظهر ، وأرشدينى إلى الطريق بحصى تقذفين بها .

فكان هذا موقفاً رائعاً لموسى تجلت فيه عفته أكبر التجلى ، وثانيهما كان فى استئجاره نفسه من والد المرأتين يرعى له غنمه أتم أجلين وأوفاهما « عشر حجج كاملة » مقابل شبع بطنه وإحصان فرجه ، إن عملاً كهذا من شاب فى مقتبل العمر ، وقوة الفتوة ليعد نادرة النوادر ، فى حياة الشباب وما كان ذلك إلا لشرف أصل موسى ، وكرم محتده وزكاة روحه وعفة نفسه ، إن هذه المواقف المشرفة التى وقفها موسى وهو يهيئ لحمل الرسالة ويعد للإمامة والقيادة ، لما ينبغى أن يكون نصب أعين الدعاة فى كل بلاد اللّه ، إن النجدة والعفة متى خلت النفس منهما خف وزنها ، ورق حبل كمالها ، وأصبحت نفساً لا عبرة بها ، ولا وزن لها وأنى لها يومئذ أن تقود أو تسود .

قوته وأمانته :

وعن قوة موسى وأمانته نقول : إن القوة والأمانة فى الرجل من مؤهلاته الكبرى لتسنم المراتب العالية ، والارتقاء إلى المناصب الشريفة السامية ، وإن حمل رسالة الحق والخير والإصلاح إلى الناس لمنصب شريف ، ومرتبة عالية فلا يرشح لهما إلا من توفر لديه مؤهل القوة والأمانة ، وقد جمع اللّه تعالى لعبده ورسوله موسى عليه السلام بين القوة والأمانة : قوة البدن وقوة العزم وقوة الروح ، وأمانة النفس ، وأمانة القول ، وأمانة العمل ، فكان قوياً أميناً ، وكان أهلاً لحمل أعظم رسالة فى تاريخ بنى إسرائيل ، وإن أردنا أن نشير إلى بعض الأحداث التاريخية فى حياة موسى التى ظهرت فيها قوته وأمانته ، زيادة على

شهادة بنت شعيب له بذلك وهى ترشحه للعمل فى مال أبيها ، إذ قالت : ﴿ **إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ (١) .

فإنا نذكر حادثة قتله القبطى بضربة واحدة مالها ثانية فكانت هى القاضية ، قال تعالى فيها : ﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ (٢) .

كما نذكر أنه على ما أصابه من جهد ، وما مسه من جوع ونصب فى رحلته الشاقة وسفره الطويل (والسفر قطعة من العذاب) استطاع أن يرفع غطاء البئر ، وقد كان صخرة كبيرة لا يضعها ولا يرفعها بحال إلا عصبة من الرجال وهو المنظر الذى شهدته فتاته فعرفت به قوته ، وشهدت بها له عند أبيها ساعة ما رشحته للعمل فقالت : ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ (٣) هذا عن قوة موسى أما عن أمانته فحدث ولا حرج وحسبه أن يقرر وصفه بالأمين القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **أن أدوا** (٤) **إلى عباد الله أنى لكم رسول أمين** ﴾ (٥) .

والأمانة وصف لازم لكل أرباب الرسالات ، وحاملى شرف النبوات وموسى نبى الله ، ورسول الله ، ولهذا نكتفى من جانبنا فى إثبات أمانة موسى وتقريرها ، بإعادة استعراض الحادثة التى سبق أن استعرضناها مستدلين بها على خلة العفة النفسية لموسى ، وهى حادثة بنت العبد الصالح لما صحبته من منزله قريباً من الماء ، إلى منزل والدها حيث جمعت الطريق بينهما فى خلوة كاملة ، فقد روى أنه عندما بدا له بعض جسمها عارياً مكشوفاً لم تسمح له أمانته أن ينظر إليها فاضطر إلى أن يمشى أمامها وهى دليله ، كل ذلك من أجل أن لا يخون أمانته بنظرة يلقيها على جسم لا يحل له النظر إليه ، كأن موسى قرأ ما قرأناه فى كتاب الله ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ (٦) .

إن موسى لم يقرأ هذا الذى قرأناه ، ولكنه كان أميناً بالفطرة التى فطره عليها الله جل جلاله ، فسلام عليه ذا نجدة وعفة وسلام عليه قوياً أميناً .

شجاعته وقوة حجته :

وعن شجاعة موسى وقوة حجته نقول : إن الشجاعة فى اعتقاد الحق وقوله والعمل به

---

(١) القصص : ٢٦ . (٢) القصص : ١٥ . (٣) القصص : ٢٦ .

(٤) الآية من سورة الدخان ونصها : ﴿ **ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ، أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين** ﴾ . (الآية : ١٧ ، ١٨) .

(٥) الدخان : ١٨ . (٦) غافر : ١٩ .

تعتبر من أنبل الخلائق ، وأسمى الفضائل ، وأكرم الشمائل ، وفى الحديث الشريف « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » ، وإن كانت الشجاعة على نوعين : شجاعة قلوب ، وشجاعة عقول ، والأخيرة قليلة ، والأولى كثيرة .

إن الشجاعة فى القلوب كثيرة   وأرى شجعان العقول قليلاً

وكلا أنواعى الشجاعة محمود محبوب ، وإن كانت شجاعة العقول أكثر حمداً لاختصاصها بالنوع الإنسانى دون شجاعة القلوب حيث يشارك فيها الإنسان الحيوان ، ومن أشجع من ذى اللبدة ملك السباع الأسد !!

ونبى اللّه موسى عليه السلام أوتى من الشجاعة بنوعيها حظاً كبيراً وقسطاً وفيراً ، ولنستعرض بعض الجوانب من حياته لنشاهد المواقف الشجاعة التى وقفها عليه السلام ، وبها تتجلى لنا شجاعة موسى القلبية والعقلية معاً وعلنا نأتسى به فى شجاعته فنكتسب خلة شريفة: الدعاة أحوج ما يكونون إلى مثلها فى حياة الدعوة التى هى حياة العمل والجهاد .

تقدم موسى عليه السلام برسالته إلى فرعون وهى رسالة مزدوجة جانب منها يطالب فرعون بالإيمان باللّه تعالى ومعرفته وخشيته : إذ أمر اللّه تعالى موسى أن يقول لفرعون : ﴿ **هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ [1] ، وجنب يطالبه بالسماح لشعب بنى إسرائيل أن يذهبوا مع موسى إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام « فلسطين » إذ أمر اللّه تعالى موسى وهرون أن يقولا لفرعون : ﴿ **إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ [2] .

ولما عرف فرعون مضمون الرسالة وما تحمله من دعوة صريحة إلى الإيمان باللّه وحده ، والكفر بكل الطواغيت التى تعبد من دون اللّه ، ما تردد فرعون اللعين فى تهديد موسى بالسجن مرة وبالقتل أخرى ، إذ قال : ﴿ **لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ [3] ، وقال لرجال دولته : ﴿ **ذرونى أقتل موسى وليدع ربه** ﴾ [4] . فمثل هذا التهديد والوعيد من طاغية كفرعون من شأنه أن يرهب ويخيف ، ويجعل المطالب بالحق يتخلى عن مطالبته بعذر الضعف والعجز لكن موسى الشجاع لم يفت ذلك من

---

(١) النازعات : ١٨ ، ١٩ .   (٢) طه : ٤٧ .

(٣) الشعراء : ٢٩ .   (٤) غافر : ٢٦ .

عضده ، ولم يفل من قوة عزمه فقابل تهديد فرعون ووعيده بشجاعة لا نظير لها ، إذ لم يزد أن قال : ﴿ **إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [(1)] . فقرر التوحيد وأبطل الشرك وذم الكبر وأهلهما ، فهذا موقف بطولى نادر قد وقفه موسى يسمع فيه رعد التهديد ويرى برق الوعيد ، فلم يضعف لذلك ولم يهن فكان مظهراً من مظاهر شجاعة موسى النادرة الفذة .

وموقف آخر : يتجلى فى تقديمه عليه السلام السحرة عليه فى إلقاء حبالهم وعصيهم التى استحالت فى اللحظة الأولى إلى حيات وثعابين تملأ ساحة العرض الأمر الذى أوجس موسى منه خوفه فى نفسه .

فإن تقديم موسى لخصمه عليه فى إظهار قوته والضرب بها أمامه لمظهر عظيم من مظاهر الشجاعة القلبية والعقلية معاً .

وموقف ثالث : وإن ذكرنا له فيه جانبين عظيمين تمثلت فيهما نجدته عليه السلام وقوته ، فإن اندفاعته القوية نحو الجبار القبطى وهو يصاول الإسرائيلى الضعيف المستضعف ، وأخذه إياه بتلك القوة وبدون تردد ولا تهيب حتى أزهق روحه لمظهر جلى لشجاعة موسى القلبية التى هى زينة الرجال وحلية الأبطال .

هذا عن شجاعته أما عن قوة حجته فحسبنا فى تجلية ذلك وبيانه أن نسمع لهذا الحوار الكبير الذى دار بين موسى النبى الكليم وبين خصمه فرعون الجبار العنيد ، أرسل الله تعالى موسى وأخاه هرون عليهما السلام برسالة إلى فرعون وملائه ، فقالا : ﴿ **إنا رسول رب العالمين : أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ [(2)] ، فرد فرعون على هذا الطلب بقوله : ﴿ **ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ...** ﴾ [(3)] يريد اللعين بهذا الخطاب : القدح فى رسالة موسى واستبعاد أن يكون رسولاً حيث ذكر بفضله عليه فى تربيته فى قصره ، وبقتله القبطى وهى جناية قتل تقعد بصاحبها عن شرف الرسالة فرد موسى على الفور وفى شجاعة نادرة قائلاً : فعلتها إذاً ـ أى ذاك ـ وأنا من الضالين أى الجاهلين ﴿ **ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل** ﴾ [(4)] .

وواصل فرعون رده على قول موسى وهرون إنا رسولا رب العالمين قائلاً : وما رب

---

(1) غافر : ٢٧ .
(2) الشعراء : ١٦ ، ١٧ .
(3) الشعراء : ١٨ ، ١٩ .
(4) الشعراء : ٢١ ، ٢٢ .

العالـمين ؟ فأجاب موسى بقوله : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ (١) ، فالتفت فرعون إلى رجاله قائلاً : كالمتعجب المستخف المكذب لقوله الحق : ألا تستمعون ؟ وشعر موسى بمكر فرعون واستهتاره لموقفه منه ورسالته إليه فقال : ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ (٢) ، ولما خاف فرعون على رجاله أن يكون قول موسى الحق قد زلزلهم ، وحرك كامن الفطرة فى نفوسهم فيكفروا به ويؤمنوا بالله وحده قال فى أسلوب ماكر مضلل تنفيراً لقلوب ملائه من قول موسى حتى لا يعتبروه ويعتدوا به : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ (٣) .

وأراد اللعين بهذا الجواب أن يرمى برجاله فى الخصومه ليتحملوا معه عبء المعركة فقال : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ (٤) . فأثار بذلك غضبهم وأجج نار حميتهم ، بعد أن أظهر نفسه فى مظهر المترفع فى مستوى لا يصل إليه أحد فيرسل إليه أو يخاطبه بغير إجلاله وإكباره ، وعرف موسى هذا فرد عليهم بقوله الأول الذى أزعجهم وزلزل الأرض من تحت أقدامهم : ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ (٥) فأعلمهم أن الذى أرسله هو رب كل شىء وليس لأمتهم ورب آبائهم الأولين فقط ، ولوح لهم بأن هذه الحقيقة يدركها كل من يعقل ، إذ كل الكون حادث مفتقر إلى محدث له ، فرب العالمين ورب السموات والأرض وما بينهما أي خالق ذلك ومالكه والمدبر له هو الذى أرسل موسى وهرون إلى فرعون وملائه برسالة الحق .

وأدرك فرعون الحجة التى أدلى بها موسى ، وأنها لا تقاوم بحال فلاذ اللعين بالتهديد والوعيد حفاظاً على موقفه المنهار ، وإبقاء على سلطانه الذى أخذ يتداعى تحت ضربات الحق المرسوية فقال فى صفاقة وعدم حياء : ﴿ **لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ (٦) . ظاناً أن موسى سيخفيه التهديد والوعيد فيتخلى عن حجاجه قبل أن يفضحه ويهزمه ، وعرف موسى هذا فأبى إلا أن يضطره إلى الحوار ليجلله بالخزى والعار فقال له : ﴿ **أو لو جئتك بشىء مبين ؟** ﴾ (٧) فقال اللعين مضطراً إلى ترك الانسحاب من الميدان : ﴿ **فأت به إن كنت من الصادقين** ﴾ (٨) .

علمه وتواضعه :

وعن علم الكليم وتواضعه فى طلبه نقول : إن موسى عليه السلام أتاه الله حكماً

---

(١) الشعراء : ٢٤ .　　(٢ ـ ٤) الشعراء : ٢٦ ، ٢٧ .
(٥) الشعراء : ٢٨ .　　(٦ ـ ٨) الشعراء : ٢٩ ـ ٣١ .

وعلماً كما قال تعالى : ﴿ ولـما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (١) شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء المرسلين يعلمهم ربهم علوماً ، ويؤتيهم معارف ما يصبحون بها أهلاً لهداية الناس وإصلاحهم ، بيد أن لموسى عليه السلام ميزة خاصة به في رغبته في العلم والاستزادة منه ، ويدلك على ذلك قول الرسـول ﷺ في صحيحي الحاكم وابن حبان : « قال موسى : يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعـوك به قال : قل : لا إله إلا اللّه ، قال يارب : كل عبادك يقولون هذا » الحديث . . . ففي هذه الرواية الصحيحة تطلع كبير من موسى عليـه السـلام إلى المزيد من العلم والمعرفة ، ورغبة أكيدة في طلب العلم والتفوق فيه ، وقد بلغ موسى من العلم مبلغاً جعله لا يرى بين الناس من هو أعلم منه يدل لذلك رواية البخاري ، والتي فيها قول الرسول ﷺ : « بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال : أتعلم أحداً أعلم منك ؟ قال موسى : لا ، فأوحى اللّه عز وجل إلى موسى : بلى ، عبدنا خضر . فسأل السبيل إلى لقيه » .

ويدل على علم موسى عليه السلام وتبريزه فيه كراهيته للجهل أيضاً وتنديده بالجاهلين ، فإنه لـما قال لبني إسرائيل قومه : ﴿ إن اللّه يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ (٢) وردوا عليه قائلين : ﴿ أتتخذنا هزواً ؟ قال أعوذ باللّه أن أكون من الجاهلين ﴾ (٣) . إذ لا يقف مثل هذا الموقف إلا جاهل ، كما أنه لما طلب إليه قومه (٤) أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه ، رد عليهم فوراً قائلاً : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ (٥) . ففي الأولى استعاذ موسى من الجهل ، وفي الثانية ندد به ونسب إليه كل انحراف في العقيدة وهو كذلك فإن سائر المعاصي والذنوب التي يغشاها الناس ناجمة عن الجهل باللّه تعالى وقواعد دينه وأحكام شرعه . ويشهد لهذه الحقيقة قول اللّه تعالى : ﴿ إنما يخشى اللّه من عباده العلماء ﴾ (٦) فقد خص تعالى العلماء بخشية ولم يرها لأهل الجهل به وبشرائعه وأحكام دينه .

هذا عن علم موسى الواسع ، ومعارفه الكبيرة أما عن تواضعه في طلب العلم فحدث ولا حرج إذ لولا تواضعه عليه السلام عند الطلب لـما جاز قصب السبق في باب العلم ، إذ العلم لا يناله إلا المتواضعون في طلبه والحصول عليه ، ويشهد لهذا قول مجاهد رحمه اللّه تعالى : لا يتعلم العلم مستحى ، ولا متكبر . ويشهد لتواضع موسى عليه السلام في

---

(١) القصص : ١٤ . (٢ ، ٣) البقرة : ٦٧ .

(٤) كان ذلك لما مروا بأهل قرية يعكفون على أصنام لهم يعبدونها ، فقالوا لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ رد عليهم قائلاً : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ . (الآية ١٣٨ من سورة الأعراف) .

(٥) الأعراف : ١٣٨ . (٦) فاطر : ٢٨ .

طلب العلم حادثتان جليلتان ، الأولى: إقامته مع شعيب عليه السلام عشر سنين ، إن ظاهر القضية يبدو أن موسى ما أقام لدى شعيب يرعى غنمه إلا لعفة نفسه وإشباع بطنه ، ولكن القضية فى باطنها : أنها إقامة طلب علم وتربية روحية تخرج بعدها موسى أهلاً لحمل رسالة الحق والخير ، فإن العيش فى كنف عبد صالح يوجه ويرشد ويعلم ويحلم لأكبر مدرسة يتعلم فيها المتعلمون ويتخرج فيها المتخرجون . إن رضا موسى برعى غنم شعيب ليعيش بجواره ، ويتلقى العلم منه لضرب من ضروب التواضع فى طلب العلم ، هذه الأولى . والثانية : أنه لما قام خطيباً فى بنى إسرائيل وأعجب به أحد الشباب فسأله قائلاً : أتعلم أحداً أعلم منك يا موسى ؟ فقال : لا ، وأوحى اللّه تعالى إليه قوله : بلى ، عبدنا خضر ، طلب الرحلة إليه وسأل ربه السبيل إلى لقيه ، فجعل اللّه تعالى له آية تدله عليه ، وترشده إلى مكان لقيه ، وفعلاً رحل موسى فى طلب عبد اللّه ووليه خضر ووجده ، ومن خلال ما دار بينهما من حديث تتجلى لنا حقيقة تواضع موسى فى طلبه العلم ، إذ قال له موسى عليه السلام وهو نبى ورسول وقائد أمة وإمامها : ﴿ **هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً ؟** ﴾ (١) فمن سؤاله هذا وهو سؤال تلطف كبير ، تظهر حقيقة تواضع موسى فى طلب العلم ، وأجابه خضر قائلاً : ﴿ **إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ (٢) لأنى على علم مما علمنى الله وأنت على علم مما علمك اللّه ﴿ **وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا** ﴾ (٣) أجاب موسى فى تواضع تام : ﴿ **ستجدنى إن شاء اللّه صابراً ، ولا أعصى لك أمراً** ﴾ (٤) ففى قوله عليه السلام : ستجدنى إن شاء الله صابراً ، تلطف كبير واستعطاف عظيم لعبد اللّه خضر فى أن يسمح له بالسير معه والطلب عنه وفى قوله : ﴿ **ولا أعصى لك أمراً** ﴾ (٥) من التواضع فى طلب العلم ما لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنه حقيقته إلا ذو البصيرة فى هذا الشأن .

ونزيد حقيقة تواضع موسى فى طلب العلم وضوحاً فنقول : إن نبياً نجيا مكلماً قائداً مسؤولاً عن أمة بكاملها يذكر له أن عبداً من عباد اللّه أعلم منه ، فيتخلى على الفور عن كل مهامه وشرف منصبه ، ويطلب الرحلة إلى من هو أعلم منه ليتعلم عنه ، ويتحمل المشاق الصعاب فى سبيل لقيه فإذا لقيه تواضع له إلى حد أن قال له : (إنى لا أعصى لك أمراً) إذ لازم هذا القول أنه لو أمره بأعظم الأمور وأشقها على النفس لـما تردد فى القيام بها طاعة لأستاذه ، وتواضعاً منه فى طلب العلم ، وهكذا يكون طلب العلم ، وهكذا يكون طلابه .

(١ ـ ٥) الكهف : ٦٦ ـ ٦٩ .

إخلاصه وتوكله :

وعن إخلاص الكليم وتوكله نقول : إن الإخلاص وهو إرادة اللّه تعالى بكل النيات والأقوال والأعمال بحيث لا يلتفت العبد فى نيته أو قوله ، أو عمله إلى أحد من الناس ، هذا الإخلاص هو أساس الدين ، وقوامه قال تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا اللّه مخلصين له الدين** ﴾ (١) . ﴿ **فاعبد اللّه مخلصاً له الدين ، ألا للّه الدين الخالص** ﴾ (٢) . وأجدر الناس بهذا وأحقهم به هم أنبياء اللّه ورسله ، وذلك لكمال معرفتهم باللّه تعالى ، وقوة صلتهم به عز وجل ، وأنبياء اللّه تعالى ورسله قد يتفاوتون فى صفات الكمال الذى أتاهم ربهم ، فيكون لأحدهم صفة يشاركه فيها كل الأنبياء والرسل ، غير أنه يكون فيها أكمل من غيره ، فتغلب تلك الصفة عليه فيعرف بها ، وليس معنى ذلك أن إخوانه من الأنبياء والمرسلين ليسوا موصوفين بها ، وإنما برز هو فيها فقط فغلبت عليه فذكر بها ، ومن ذلك صفة الإخلاص فقد وصف اللّه تعالى بها نبيه موسى بقوله من سورة مريم : ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيا** ﴾ (٣) . فوصفه بالإخلاص وهو وصف لم يذكره لغيره من سائر المرسلين إلا ما كان من يوسف عليه السلام إذ قال فيه : ﴿ **إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ (٤) وذلك لتجلى هذه الصفة فى موسى وغلبتها عليه فى سائر إراداته وأقواله وأعماله ، ولنا أن نلحظ ذلك بوضوح فى مثل قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام :
﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾(٥)
فإن دعائه ربه تعالى على فرعون وآله بالطمس على أموالهم ، والشد على قلوبهم والمراد من الطمس على أموالهم إما أن تكون حجارة ، وإما أن تذهب فى الأرض ، وتغور فيها فلا يعثر عليها ، والمعنى الأول وارد عن السلف ، إذ قيل : عثر فى ديارهم على كيس فيه حمص وبيض قد حول حجارة ، وإما الشد على قلوبهم فإنه الطبع عليها والختم لأنها ما أصبحت موجهة للإيمان ، وهذا كقول نوح عليه السلام : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً** ﴾ (٦) .

قال ابن كثير رحمه اللّه تعالى : وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً للّه ولدينه على فرعون وملائه ، أقول : ومثل هذا لا يكون إلا من قوة الإخلاص الذى عرف به الكليم عليه السلام .

---

(١) البينة : ٥ .　　(٢) الزمر : ٢ ، ٣ .　　(٣) مريم : ٥١ .
(٣) قرىء فى السبع مخلصاً بفتح اللام أيضاً ، وهو من الاصطفاء لا من الإخلاص .
(٤) يوسف : ٢٤ .　　(٥) يونس : ٨٨ .　　(٦) نوح : ٢٦ ، ٢٧ .

وفى مثل قوله : ﴿ **أغير اللّه أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾ [1] قال هذا لقومه بعد أن طلبوا إليه أن يجعل لهم صنماً يعبدونه ، إذ مروا بقوم يعتكفون على أصنام لهم ، فاستهواهم ذلك المنظر ، وأثر فى نفوسهم المريضة فطالبوا بأن يكون لهم إله كما لأولئك المشركين آلهة ، ونسوا اللّه تعالى وقد أنجاهم من عدوهم ، فلما قالوا ذلك غضب موسى عليهم وصاح فى وجوههم قائلاً : ﴿ **إنكم قوم تجهلون** ﴾ [2] ، ﴿ **إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير اللّه أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾ [3] . فغضبه عليه السلام وشدة إنكاره على قومه ما أرادوه من الشرك مظهر كبير من مظاهر إخلاص موسى وقوته فى ذلك .

هذا وتوكل موسى على اللّه تعالى فى كل شأنه ظاهرة قوية فى حياة موسى عليه السلام ، وصفة بارزة فى حياته وغالبة عليها : أن خروجه من أرض مصر وحيداً وهو شاب عاش فى الترف وتربى فى النعيم ، فلولا توكله على ربه لما هاجر تلك الهجرة التى لم يتوفر لها سبب واحد من أسبابها سوى توكله على ربه عز وجل وتعاقده مع شعيب فى ديار الغربة يقيم عشر حجج يرعى فيها الغنم ويطلب العلم ، ويتربى فيها على الكمالات النفسية مظهر من مظاهر التوكل القوى عند موسى عليه السلام .

وخروجه بأسرته من أرض مدين عائداً إلى مصر حيث خرج منها خائفاً من آل فرعون وهم يطلبونه بالنفس التى قتلها مظهر عظيم من مظاهر توكل الكليم ، وإلا كيف يعود إلى بلاد أهلها يطالبونه بدم لهم عليه يريدون أن يقتلوه به لولا التوكل الذى غلب على النفس فحجب منها كل ما عداه .

ولا يقولن قائل : إن طلب موسى من ربه أن يزوده بما يكون له عوناً على أداء رسالته إلى فرعون وملائه حيث طلب من ربه أن يشرح له صدره وييسر له أمره ويحلل عقدة من لسانه ، وأن يجعل له وزيراً من أهله وهو هارون عليه السلام ، ولا يقولن قائل : إن هذا قادح فى كمال التوكل عند موسى ، لأن الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل ولا يكون قادحاً فيه بحال ، كما إن الخوف مما من شأنه يخاف منه لا يقدح فى شجاعة المرء وبطولة البطل ، وهذا أمر معلوم لدى العالمين ، لا يرتاب فيه ولا يخاصم عليه ، ومما يحكى لنا صفة التوكل القوية لدى موسى عليه السلام مطالبته قومه بالتوكل على اللّه تعالى فى غير موطن ، من ذلك قوله : ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ، فقالوا على اللّه**

---

(١) الأعراف : ١٤٠ . (٢ ، ٣) الأعراف : ١٣٨ ــ ١٤٠ .

توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾(1) **فإنه عليه** السلام لغلبة هذا الوصف عليه، ولكثرة ما انتفع به أصبح يراه خير معين لقومه على اقتحام المشاق، وتحمل الصعاب، كما لا يرى إيماناً وإسلاماً بدون توكل على الله تعالى وحده، وهو كذلك فإن من آمن بالله تعالى رباً كافياً وإلهاً حقاً أسلم له وجهه وقلبه لا يسعه أن لا يتوكل عليه بحال من الأحوال.

إذ التوكل: الاعتماد على ذى الكفاية من العلم والقدرة والحكمة وتفويض الأمر إليه، وسكون النفس إلى كفايته، وعدم تغلب القلب فيما هو فاعله، هذا هو التوكل مع قيد أن ما كان من الأمور المتوكل فيها مما وضع الله تعالى له الأسباب لتحصيله، أو للنجاة منه، فإن التوكل لا يتم إلا إذا أحضر العبد تلك الأسباب ووفرها إن كان ذلك فى استطاعته، وما لم يكن منها مستطاعاً له، فلا يكلف به ولا يسأل عنه أو يحاسب عليه.

وأخيراً: فإن صفات الكمال التى ذكرنا لموسى عليه السلام من البلاء والصبر، والنجدة والعفة والقوة والأمانة والشجاعة وقوة الحجة والعلم والتواضع فيه والإخلاص والتوكل ليس المراد أنا نثبتها له عليه السلام، لأن من الناس من شك فى ثبوتها له، أو حاول نفيها عنه فذكرناها نحن مقررين لها بعد إقامة الدليل على ثبوتها، وإنما القصد من ذكرنا أن يأتسى به فيها دعاة الإصلاح اليوم فتكمل شخصيتهم كمالاً تصبح به ذات تأثير على من يدعونهم إلى الله تعالى ليوحدوه ويطيعوه فيتهيؤوا بذلك لسعادة الدارين، بعد النجاة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

ومن هنا وجب على الداعى أن يستعرض هذه الصفات ويوطن النفس على محاولة الاتصاف بها، فيكون له خلق الشجاعة والنجدة والعفة والصبر والتوكل والتواضع فى طلب العلم، وذلك برياضة نفسه على ذلك وأخذها به شيئاً فشيئاً حتى تصبح هذه الفضائل صفات ثابتة لها فإن أغلب الفضائل النفسية مكتسبة يحصل عليها المرء بالرياضة والاجتهاد، ولكل مجتهد نصيب، هذا وسلام على محمد فى المرسلين، وسلام على موسى فى العالمين، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) يونس: ٨٤ ـ ٨٦.

عيسى ابن مريم عليه السلام

من نماذج الدعاة الصالحين فى معارض الكمال البشرى عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام وهو رابع أولى العزم من الرسل ، وخاتمة سلسلة النبوة فى بنى إسرائيل ، وطلبا لوجوه الائتساء وصالح القدوة فى عظماء الرجال من دعاة الحق الصالحين نستعرض حياة هذا النبى الكريم ، والرسول الطاهر الرحيم علنا نكتسب من ذلك الكمال الذى أوتيه عليه السلام بعض ما نكمل فى أخلاقنا وأرواحنا ، لنقوى على أداء واجب الدعوة التى حملناها على ضعفنا وقلة مؤهلاتنا العلمية والنفسية .

وقبل استعراضنا لمظاهر الكمال فى حياة هذا الرسول الكريم نترجم له بالجمل الآتية : فنقول : عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله وكلمة الله التى ألقاها إلى مريم ، واسم (عيسى) معرب عن يشع ومعناه السيد أو المبارك ، ووالدته مريم بنت عمران من صلحاء بنى إسرائيل ، ومعنى (مريم) بالعبرية الخادم أو خادمة الله ، ويحمل هذا الاسم معنى المرأة التى لا تقدر على مقابلة الرجال والاختلاط بهم كما روى أن النبى ﷺ سأل فاطمة رضى الله عنها عن أحب شيء إلى المرأة ، فقالت : أن لا ترى الرجال ، وأن لا يراها الرجال ، فرد عليها ﷺ قائلا ـ وقد ضمها إلى صدره : « ذرية بعضها من بعض » ، وهى إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾ [1] .

حملت به والدته بنفخة من روح القدس ، نفخها فى كمها فسرت إلى فرجها ، فكان عيسى عليه السلام بكلمة التكوين كما قال تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ [2] فلذا لقبه رسول الله ﷺ بكلمة الله فى قوله : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها [3] إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » كما كان يلقب بروح الله فينادى بذلك فيجيب ، وذلك لأن النفخة كانت من جبريل بأمر الله تعالى ويشهد له قوله تعالى : ﴿ **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا** ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿ **يأهل الكتاب لا تغلوا فى**

---

(١) آل عمران : ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) آل عمران : ٥٩ .
(٣) متفق عليه .
(٤) الأنبياء : ٩١ .

دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ (١) .

ولدته الصديقة أمه البتول بقرية بيت لحم فى فلسطين ، وحفت ولادته آيات عجيبة أظهرها تكلمه فى المهد حيث قال : ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾** (٢) ، وقد أعلمت بهذا والدته عليها السلام ساعة أن بشرها الملك بذلك : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والاخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ﴾** (٣) .

وعاش عيسى عليه السلام بين بنى إسرائيل مع والدته ، ولاقى هو ووالدته من صنوف الأذى ما صرح به القرآن الكريم فى غير آية منه : فقد بهتوا والدته ورموها بما هى منه براء ، واتهموه عليه السلام بالسحر ، وكذبوه فى رسالته إليهم ، وآخر الأمر عزموا على قتله وطوقوا منزله بشرطهم واقتحموا عليه المنزل غير أن اللّه تعالى خيب أملهم وأضل سعيهم ، فألقى الشبه على رجل منهم فظنوه هو فصلبوه ، وما قتلوا عيسى وما صلبوه بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما ، ورفع عليه السلام إلى السماء وعمره ثلاث وثلاثون سنة وسينزل فى آخر أيام هذه الحياة ، ويتمم بقية عمره على هذه الأرض فيعيش أربعين سنة يقضيها إماما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، كما جاء ذلك فى صحاح الأحاديث ، فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

هذا ومظاهر الكمال التى نريد استعراضها فى حياته عليه السلام هى الطهارة ، والزهد ، والحكمة وكمال اليقين .

طهارته عليه السلام :

وعن طهارة المسيح عيسى ابن مريم نقول : إن الطهارة الروحية ضرورية لتلقى الوحى الإلهى من الواسطة فى ذلك وهم الملائكة عليهم السلام ، ومن هنا كان كل الأنبياء أطهار الأرواح أزكياء النفوس معصومين من فعل كل ما يلوث الروح ويخبث النفس ، بيد أن عيسى ابن مريم عليه السلام قد بلغ فى هذا الشأن مستوى رفيعا جدا تميز به بين إخوانه

---

(١) النساء : ١٧١ . (٢) مريم : ٣٠ ـ ٣٣ . (٣) آل عمران : ٤٥ ، ٤٦ .

الأنبياء والمرسلين ، ويشهد لذلك ثلاثة أمور :

الأول : إن الشيطان لم يقربه أبدا ، وذلك لاستجابة الله تعالى لجدته جنة فى دعائها ، إذ قالت لما ولدت مريم ، : ﴿ **رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك ، وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ (١) فاستجاب الرب تبارك وتعالى لها ، وحفظ مريم وولدها عيسى عليه السلام من الشيطان ، وفى هذا المعنى يقول الرسول الكريم نبينا محمد ﷺ : « ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مسه إياه ، إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة ، راوى الخبر اقرأوا إن شئتم : ﴿ **وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ أخرجه الشيخان البخارى ومسلم . وإذا حفظ وهو صبى فحفظه وهو كبير يستعيذ بربه من الشيطان ويقدر على لعن الشيطان ومخالفته فيما يدعوه إليه أولى وآكد ، روى أنه عليه السلام قام يوما على الأرض بدون فراش وتوسد حجرا ونام فوجد لذة النوم ، فجاءه إبليس عليه لعائن الله وقال له: يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئا من عرض الدنيا ، فهذا الحجر من عرض الدنيا ، فقام فأخذ الحجر ورمى به إليه ، وقال : هذا لك مع الدنيا .

والثاني : أنه عليه السلام لما انتهت إليه البشرية تطلب إليه أن يشفع لها عند الله عز وجل ليفصل بها فى عرصات القيامة وقد طال بها الموقف ، واشتد بها الحال ، وغضب الرب عز وجل غضبا لم يغضب قبله ولا بعده مثله . فلم يذكر عيسى عليه السلام عند اعتذاره لها ذنبا ، كما ذكر ذلك آدم ، ونوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام وعلى نبينا الصلاة والسلام ، أثبت هذا رسول الله ﷺ فى حديث الشفاعة فى صحيح مسلم .

وبهذا اعلم أن عيسى عليه السلام كان من أطهر الناس روحا وأزكاهم نفسا ، وأكثرهم زهدا وأقواهم يقينا ، وسنذكر شواهد لذلك فيما يلى : .

والثالث : أن الله تعالى أيده بروح القدس يسدده ويعينه ويدفع عنه ، فكان جبريل عليه السلام لا يكاد يفارقه فترة حياته كلها حتى رفعه الله تعالى إليه ، فمصاحبة جبريل عليه السلام له فى أغلب أحواله من شأنها أن تزيد فى صفاء روحه عليه السلام وزكاة نفسه لما فى ذلك من البركة والعصمة ، إذ ما زالت مجالسة الصالحين والحياة معهم حصنا منيعا للعبد لا يقر به معه شيطان ولا يفشى فيه إثما أو قطيعة .

---

(١) آل عمران : ٣٦ .

ويشهد لهذه الحقيقة وهى أن مجالسة الصالحين من الملائكة ومن الناس من شأنها أن تزيد فى طهارة الروح وزكاة النفس ، ما ثبت عن النبى ﷺ « كان أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام ، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبى ﷺ القرآن ، فإذا لقيه عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة » .

ووجه الائتساء فى هذا الضرب من الكمال الروحى هو أن يعمل الداعى الناشىء على تزكية نفسه وتطهير روحه بفعل ما يزكى النفس ويطهرها من الإيمان والعمل الصالح ، وبإبعادها عن كل ما يدسيها ويلوثها من الشرك والمعاصى مستعينا فى ذلك بالله تعالى ثم بمجالسة الصالحين من عباد الله المؤمنين ، إذ طهارة روح الداعى ضرورية للتأثير على نفوس المدعوين إلى الله تعالى وحملهم على طاعته والإنابة إليه والتوكل عليه .

زهده عليه السلام :

وعن زهد عيسى عبد الله ورسوله نقول : إذا كان الزهد هو احتقار الدنيا وعدم الرغبة فى حطامها ، والتقليل من متاعها إلا بقدر البلاغ ، والعزوف عما يتكالب عليه أبناء الدينا من جمع المال والانغماس فى الملاذ والشهوات الجسمانية البهيمية ، مع الرغبة الملحة فيما عند الله تعالى ، والسعى الحثيث المتواصل إلى ذلك باليقين والعبادة والتوكل ، إذا كان هذا هو الزهد المطلوب للكمال البشرى والمتعين لأن يكون وصفا لازما لدعاة الحق والخير من كمل البشر وسادات الناس ، فإن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كان مضرب المثل فى هذا الباب بحيث لم يزهد زهده أحد ممن سبقه أو تأخر عنه باستثناء خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، وها هى ذى أثار مروية فى زهد المسيح عليه السلام فى الدنيا نوردها شواهد حق على زهده عليه السلام ، ونماذج كمال للاقتداء به عليه السلام فيها ، وموعظة وذكرى للذاكرين ومن هذه الآثار ما روى أنه قال للحواريين : يا معشر الحواريين ارضوا بدنى الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة الدنيا ، وصاع هذا المعنى أحد الحكماء فى بيتين من الشعر فقال :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

كل ما أوردناه من الآثار المتعلقة بحياة نبى الله تعالى عيسي عليه السلام هو من البداية لابن كثير .

كما روى أنه قال لحوارييه : وبحق أقول لكم من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير ، وقال يا معشر الحواريين : اجعلوا كنوزكم فى السماء ، فإن قلب الرجل حيث كنزه ، وروى أنه عليه السلام خرج على أصحابه وعليه جبة صوف ، وكساء وتبان حافيا باكيا شعثا مصفر اللون من الجوع ، يابس الشفتين من العطش فقال : السلام عليكم يا بنى إسرائيل أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ، ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتى ؟ قالوا أين بيتك يا روح الله ؟ قال بيتى المساجد ، وطيبى الماء ، وإدامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى الزمنى والمساكين ، أصبح وليس لى شىء ، وأمسى وليس لى شىء ، وأنا طيب النفس غير مكترث ، فمن أغنى منى وأربح ؟ .

وثمرة معرفة هذا الجانب من حياة عيسى عليه السلام هى أن يحرص الداعى الناشىء على اكتساب خلق الزهد والتحلى به بين الناس ، فإن الداعى متى زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة ، ورأى الناس ذلك منه مالوا إليه ، وأقبلوا عليه ، وبذلك يسهل عليه تعليمهم وهدايتهم وإصلاحهم .

حكمته عليه السلام :

وعن حكمة عيسى نبى الله ورسوله عليه السلام نقول : إذا كانت الحكمة هى السداد والإصابة فى الأمور ، أو هى وضع الأشياء فى مواضعها اللائقه بها ، كما هى الحلم والعلم والفقه فى دين الله تعالى ومعرفة أسرار شرعه ، فإن عيسى عليه السلام كان عالماً حليما ذا إصابة وسداد فيما يقول ويعمل ، ينطق بالحكمة ويعلمها ، روى أن امرأة من [1] عجائز بيت لحم بعثت إليه بطفلها يقول له : إن أمى تطلب منك إبرة ، فكأنه عليه السلام استهجن هذه الطلبة ، ولم يكن يملك الإبرة فقال للغلام : اطلب تجد ، فعاد الغلام إلى أمه وأخبرها بما قال له السيد المسيح ، فجاءته تعتب عليه ردها ولدها خائبا ، فقال لها عليه السلام ، إنى أعطيت ولدك حكمة وهى خير من إبرة ، فقلت له : اطلب تجد ، ولم يكن لدى إبرة فأعطيها إياه ، فسكت غضب المرأة ، وندمت على عتابها ! !!

وروى أنه كان يقول للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا ، كأنه يعنى بالحكمة علم الشرع والعمل به والاهتداء بهديه .

---

(١) هذه الرواية لم تكن من البداية .

وروى أنه كان يقول للحواريين : لا تحدثوا بالحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة ، أمر بين رشده فاتبعوه ، وأمر بين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل، وقال لأصحابه يوما : أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم وإن فيكم خصلتين من الجهل : الضحك من غير عجب ، والصبحة من غير سهر ، يريد بالصبحة النوم بعد صلاة الصبح .

ومن حكمه عليه السلام قوله : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة ، ورب شهوة أورثت صاحبها حزنا طويلا ، وكان يقول : طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله ، وكان يقول : لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء ، وقالت له امرأة يوما : طوبى لحجر حملك ولثدى أرضعك ! ! فقال طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه .

هذه بعض ما أثرى من حكمه عليه السلام ، والقصد من إيرادها الإشارة إلى كمال عيسى عليه السلام فى هذا الباب ، وندب الداعى إلى الله تعالى إلى أن يتعلم الحكمة ويعمل بها حتى يصبح من أهلها ، ويورث الحكمة شيئان : العمل بالكتاب والسنة ، وكثرة الصمت ، لأن العمل بالكتاب والسنة يعصم من الخطأ فى العمل والحكم ، وكثرة الصمت يعصم من الخطأ فى القول والتقدير ، وقديما قال لقمان عليه السلام : الصمت حكمة وقليل فاعله .

كمال يقينه عليه السلام :

وعن كمال يقين عيسى عليه السلام نقول : فقد روى أن الحواريين فقدوا يوما نبيهم عيسى عليه السلام فسألوا عنه ، فقيل لهم : إنه توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه هناك ، فلما انتهوا إلى البحر ، وجدوه عليه السلام على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى ، وعليه كساء قد ارتدى بنصفه ، وأتزر بنصفه الآخر ، فلما قرب منهم قال له بعضهم ولعله أفضلهم : ألا أجيء إليك يا نبى الله ؟ فقال بلى ، فوضع الرجل إحدى رجليه فى الماء ، ثم ذهب ليضع الأخرى ، فقال : أؤه ، غرقت يا نبى الله ، فقال عيسى عليه السلام : أرنى يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء .

وقيل له عليه السلام يوما : بأى شيء تمشى على الماء ؟ فقال : بالإيمان واليقين ، فقالوا : إنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت ، قال : فامشوا إذا فمشوا معه فى الموج فغرقوا فقال لهم : ما لكم فقالوا خفنا الموج ، قال : ألا خفتم رب الموج ! فأخرجهم ، ثم ضرب بيده

إلى الأرض فقبض بها ، ثم بسطها ، فإذا فى إحدى يديه ذهب ، وفى الأخرى مدرا وحصى ، فقال : أيهما أحلى فى قلوبكم ؟ قالوا : هذا الذهب قال : فإنهما عندى سواء .

هذه صورة واضحة من كمال يقين عيسى عليه السلام أبرزناها للداعى الناشىء ليتصورها دائما فى نفسه ، ويتمثلها فى حياته ، فتكون عونا له على تقوية صبره وكمال يقينه ، إذ حاجته إلى الصبر واليقين فى باب الدعوة أشد من حاجته إلى غيرهما من أسباب نجاح الدعوة ، وعوامل فوزه فيها ، قال تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ [1] ، ومن هنا قيل بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

---

(١) السجدة : ٢٤ .

إمام الدعاة محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

إذا كان بين عظماء الرجال نماذج من دعاة الحق والخير صالحون فإن محمدا رسول الله ﷺ هو إمامهم وقدوتهم فى كل كمال كانوا عليه ، ودعوا الناس إليه .

فمن هو محمد رسول الله ﷺ ؟

إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن نظير بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .

ولد محمد رسول الله ﷺ بدار أبي يوسف ولدته آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصى بن كلاب ، ولدته صبيحة يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل الموافق لأغسطس عام (٥٧٠) ميلادية ، مات والده عبد الله بن عبد المطلب وهو حمل فى بطن أمه ، فكفله جده عبد المطلب ، وماتت والدته وهو ابن ست سنين ، فحضنته أم أيمن جارية أبية ، ومات جده عبد المطلب فكفله عمه أبو طالب .

مظاهر الكمال المحمدى :

إن الكمال فى محمد رسول الله ﷺ لا يأتى عليه وصف ، ولا يمكن أن يوضع به كشف ، فصفاء نفسه التى أشرقت بنور الله ، فكانت كأصفى مرآة قد انعكست عليها مظاهر الكمال البشرى كله ، حتى كان محمد رسول الله ﷺ مضرب الأمثال فى كل كمال ، وبذلك قدم لإمامة الأنبياء ، وجعل قدوة للمؤمنين .

وها نحن نذكر بعض جوانب الكمال المحمدى ليورد عليه الطالب الداعى قلبه ، ويحيله بخاطره فيحصل على طاقة من الكمال النفسى ما يكون عونا له على حمل رسالته ، وأداء واجب دعوته التى تحملها بإيمانه وعلمه .

الاستعداد الروحى لتلقى الوحى :

وعن استعداد محمد رسول الله ﷺ الروحى لتلقى الوحى نقول : إن النبى الكريم

محمدا ﷺ كان قبل إنبائه وبعثته آية فى النظافة والطهر ، نظافة العرق وأصالته وطهارة الروح وسلامته ، لقد اتصلت أرومته بأصل جماله وكماله إبراهيم ، والذى كان محمد ﷺ أشبه الناس به كما أخبر بذلك عن نفسه وانحدر سلسبيل النقاء فى أصلاب الآباء حتى انتهى إلى قرار مكين فنبع منه محمد خير الناس أجمعين ، هكذا كانت نظافة العرق الكريم والنسب الشريف ، وأما طهارة الروح وسلامته فحسبنا أن نلقى نظرة على ربيع حياته ، فتتجلى لنا من معانى الطهر آياته ، وتفصح لنا عن سلامة روحه السنة عداته .

لقد كان محمد رسول الله قبل نبوته فى شبابه وفتوته يتمتع بأفضل الأخلاق ، وأطيب الشمائل فلم يؤثر عنه ما يخل بمكارم الأخلاق قط ، إنه لم يأت ولا مرة واحدة ما كان يأتيه بنو قومه أبدا ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمرا ولم يلعب قمارا ولا ميسرا ، ولم يستقسم بزلم ولم يظلم فى عرض أو مال أو دم أحدا ، لقد كان بشهادة أعدائه وخصوم دعوته مثاليا فى أخلاقه وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه ، هذا اللقب الذى لم يضفر به أحد فى ديارها وبين شبابها ورجالها أبدا ، لقد كان فداه أبى وأمى ونفسى وإنى لصادق ، كان أمينا فى سره وفى علنه ، وفى قوله وفى عمله ، أمينافى غيبه وفى مشهده أمينا فى كل شىء وعلى كل شىء .

وإذا كانت قريش قد أجمعت على منحه ذلك اللقب السامى الكريم وهو لقب الأمين ، فإن الله تعالى قد أقسم له فى مطلع نبوته على أنه على خلق عظيم وهى شهاده لا تعدلها شهادة والله شهادة إذ قال تعالى فى فاتحة سورة القلم : ﴿ **ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرا غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (1) .

إن الكمال الروحى الذى عاش عليه محمد رسول الله ﷺ وعرف به قبل نبوته لم يكن نتيجة تربية أم أو أب ، أو أثر تعليم أستاذ أو مرب قط ، وإنما كان أثر عناية الله تعالى به ، فالله الذى أوجده ليكون واسطة بينه وبين عباده فى تبليغ دينه وشرعه هو الذى حماه من كل ما يلوث نفسه ويعكر صفاء روحه ، وكان ذلك إعدادا له لحمل رسالة الله إلى عباد الله ، إذ حمل مثل تلك الرسالة يتطلب كمالا نفسيا ، يكون صاحبه فيه مثلا أعلى لغيره من سائر الناس ، وكذلك كان رسول الله ، وها هو ذا فداه أبى وأمى ونفسى يحدث عن صيانة الله تعالى له وحفظه ليبقى طاهرا زكيا فيتأهل لما هيئ له من الوحى والنبوة ، فيقول كما روى البيهقى عن على رضى الله عنه : يقول : « ما هممت بشىء مما كان أهل

---

(1) القلم : ١ ـ ٤ .

الجاهلية يهمون به إلا ليلتين ، كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن فى رعاء غنم أهلها وقلت لصاحبى : أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى ، قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة فسمعت عزفا بالغرابيل والمزامير ، فقلت ما هذا ؟ قالوا : تزوج فلان فلانة فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى ، والله ما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبى ، فقال : ماذا فعلت ؟ فقلت ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذى رأيت ، وذكر أنه حصل له مرة أخرى فتم له مثل الذى حصل فى الأولى ، ثم قال : فو الله ما هممت ولا عدت بعدهما لشىء من ذلك حتى أكرمنى [1] الله عز وجل بنبوته .

نزول الوحى :

إن تلك الطهارة الروحية الكاملة التى كان عليها محمد بن عبد الله قبل نبوته وبعثته هى التى هيأته بإذن ربه تعالى للاصطفاء للنبوة والرسالة فكان بعد الوحى إليه ونزول جبريل عليه نبى الله ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

إنه على رأس الأربعين من عمره المبارك نبى ﷺ ، إذ جاءه الحق وهو بغار حراء بعد أن كان قد حبب إليه الخلاء وكان ذلك فى شهر رمضان حيث نزل عليه جبريل عليه السلام وهو به فضمه إلى صدره وأرسله ثلاث مرات وهو يقول له : اقرأ ، فيرد قائلا : ما أنا بقارىء ، وفى الرابعة قال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [2] .

فذهب بها ﷺ إلى زوجه خديجة رضى الله عنها يرجف بها بوادره ، وهو خائف على نفسه ، فهدأت رضى الله عنها من روعه ، وسكنت من اضطراب نفسه وهى تقول له : والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

وانطلقت به رضى الله عنها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل ما شاءالله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى بصره ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ،

---

(١) ذكر هذه الحادثة ابن كثير فى تاريخه ، وقال فيها : هذا حديث غريب جدا وقد يكون عن على نفسه ، وقد يكون قوله فى آخره حتى أكرمنى الله بنبوته والله أعلم ، أ هـ .

(٢) العلق : ١ ــ ٥ .

فقال له ورقة : يا بن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس [١] الذى نزل الله على موسى ليتنى أكون فيها جذعا يا ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال نعم : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى » . وأثناء فترة الوحى تبدى له جبريل عليه السلام فى صورته الملائكة وقد سد الأفق ، وله ستمائة جناح ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان منه [٢] قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله إليه ما أوحى ، ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ **يأيها المدثر ، قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر** ﴾ [٣] .

الدعوة سرا :

وبعد فترة الوحى التى فترها وكانت سنتين ونصف سنة حمى الوحى وتتابع ، وآمنت خديجة وورقة بن بوفل أول من آمن برسالة رسول الله ، ثم آمن على بن أبى طالب وكان صبيا فى حجر رسول الله ﷺ ، وآمن بعده زيد بن حارثة الكلبى وكان مولى رسول الله ﷺ ، وصلى هؤلاء مع رسول الله ﷺ إلا ورقة فإنه مات قبل مشروعية الصلاة ، وكانت قبل الإسراء ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء لقوله تعالى : ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** ﴾ [٤] ، ثم أسلم أبو بكر رضى الله عنه ، وأسلم بدعوته نفر كريم كان منهم عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ولما استجابوا لدعوته رضى الله عنهم أجمعين أتى بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا وصلوا ، فكانت هذه فضيلة لأبى بكر تضاف إلى أخرى قال فيها رسول الله ﷺ : « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم عنه (تلبث) قال رؤيه (وانصاع وثاب بها ولما عكم) حين ذكرته له وما تردد فيه » ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح ، ثم الأرقم بن أبى الأرقم ، الذى اتخذ رسول الله ﷺ من داره مركزا للدعوة يعلم فيها من آمن أصحابه ويصلى بهم طيلة ما كانت الدعوة سرا بمكة وبين قريش ، وأسلم فى هذه الفترة من النساء غير خديجة أسماء بنت عمير امرأة جعفر بن أبى طالب ، وأمها هند بنت عوف بن

---

(١) صاحب سر الملك ، الحاسوس فى الخير والجاسوس فى الشر .

(٢) كناية عن القرب ، والقاب : ما بين القوس وطرفه وهو مقلوب الأصل قابا قوس .

(٣) المدثر : ١ ــ ٧ .   (٤) طه : ١٣٠ .

الحارث أخت ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج الرسول ﷺ ، وأخت لبابة أم الفضل امرأة العباس ، وهى والدة عبد الله بن جعفر جواد العرب فى الإسلام وتزوجها أبو بكر الصديق بعد استشهاد جعفر بموته فولدت له محمدا ، وتزوجها بعد وفاة أبى بكر على رضى الله عنه فولدت له يحيى ، فما أكثر بركة هذه المؤمنة ، وما أعظم يمنها رضى الله عنها وأرضاها .

واستمرت الدعوة سرا زهاء ثلاث سنوات فأنزل الله تبارك وتعالى قوله : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ (١) .

الدعوة جهرا :

امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه فجهر بدعوته التى كانت سرا ، ولما رأت قريش ذلك ، لا سيما بعد أن ذكر آلهتهم وعابها ناصبته العداء ، وأجمعت على خلافه وعداوته ، ووقف أبو طالب إلى جنب رسول الله ﷺ يذود عنه ويحميه ، حتى اضطرت قريش إلى إرسال وفدها يفاوض أبا طالب فى شأن رسول الله ، ويطلب منه أن يمنع رسول الله ﷺ من تسفيه أحلامهم ، وسب آلهتهم ، وعيب دينهم ، أو يخلى بينهم وبينه لينالوا منه ، وعرض أبو طالب وجهة نظر وفد قريش على رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ما تركته » واستعبر رسول الله فبكى ، ثم قام ، فناداه أبو طالب ، وقال : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشىء أبدا .

ولما علمت قريش بعدم خذلان رسول الله ﷺ مشت إلى أبى طالب تساومه فى الموضوع ، فقدمت له شابا هو أنهد فتى فى قريش وأجمله ، وقالت : خذ هذا بدل ابن أخيك فاتخذه ولدا وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك فنقتله فإنما هو رجل برجل ، فرد أبو طالب قائلا : والله لبئس ما تسوموننى ! أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ، هذا والله مالا يكون أبدا .

ولما بلغ الأمر هذا الحد ، أظهرت قريش عداءها السافر ، وأخذت تشن حربا ضروسا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ، وقد كثر عددهم وتزايد أمرهم فأغرت برسول الله ﷺ سفهاءها فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله ﷺ

---

(١) الحجر : ٩٤ .

مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، مبادىء لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وحدث أن نال أبو جهل من رسول الله ، وكانت حين أبو جهل يسب ويشتم رسول الله ﷺ مولاة لعبد الله بن جدعان تسمع فلما جاء حمزة وكان فى قنص ، أخبرته بما صنع أبو جهل إزاء رسول الله ﷺ فاحتمل حمزة الغضب ، وطلب أبا جهل حتى وجده ضربه ضربة عنيفة فشج رأسه وقال له : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟؟ ولما رأت قريش أن حمزة قد أسلم علمت أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ﷺ ، وكان أول من جهر بالقرآن وأسمعه قريشاً عبد الله بن مسعود حيث اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ يوماً وقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه فقال عبد الله : أنا ، فأبوا عليه ذلك غير أنه أبى إلا أن يكون هو ، فذهب فى ضحى النهار إلى المسجد فوقف عند المقام ، وقريش فى أنديتها حول المسجد وقرأ بأعلى صوته : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ، الرحمن علم القرآن** ﴾ (١) ولما سمعت قريش قراءته تأملوا ، وجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربونه فى وجهه ، ولما عاد عبد الله وأثر الضرب فى وجهه قال له أصحابه : هذا الذى خشيناه عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً ، فقالوا : لا قد أسمعتهم ما يكرهون ، ولما عز المسلمون بإسلام حمزة رضى الله عنه وعظم أمرهم وكثر عددهم كشرت قريش عن نابها وضاعفت من أذاها للمؤمنين الذين ليس لهم مناعة من قومهم ، ولما رأى رسول الله ﷺ ذلك عرض على المستضعفين الهجرة إلى الحبشة ، فقال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة (٢) .

وما زال أذى قريش منصباً على رسول الله ﷺ والمؤمنين من أصحابه ، بحيث لا يستطيع أحد من المؤمنين أن يصلى فى المسجد الحرام حتى أسلم عمر رضى الله عنه وقاتل قريشاً حتى صلى حول الكعبة وعندها عز المسلمون بعمر بن الخطاب وأصبحوا يصلون حول الكعبة جهاراً نهاراً كما قال عبد الله بن مسعود : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نستطيع أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه ، بيد أن

(١) الرحمن : ١ ، ٢ .

(٢) كان عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ما عدا أطفالهم الذين هاجروا معهم ومن ولد فى الهجرة .

قريشاً لما رأت انتصار المؤمنين بعمر رضى اللّه عنه جنت جنونها وركبت رأسها وطالبت من أبى طالب وبنى هاشم تسليم الرسول ﷺ للقتل ، ولما فشلت فى ذلك أمرت بمقاطعة بنى هاشم مقاطعة تامة فلا يباعون ولا يبتاع منهم ولا يكلمون ، ولا يقدم لهم أدنى مساعدة ولا تقضى لهم أية حاجة وحاصرتهم فى شعب أبى طالب ، وكتبت بذلك صحيفة وعلقتها بالكعبة ودام حصارها للرسول ﷺ وبنى هاشم ثلاث سنوات جاع فيها بنو هاشم حتى أكلوا ورق الشجر ، وقيض اللّه تعالى رجالا من قريش منهم هشام بن عمرو بن الحارث ، وزهير بن أمية بن المغيرة ، والمطعم بن عدى ، فأتوا على الناس وهم حول الكعبة وقالوا : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى ، لا يباعون ولا يباع منهم ، واللّه لا نقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، وانتهى الأمر بنقض الصحيفة وخروج بنى هاشم والحمد للّه ، وعلى أثرها توفى أبو طالب ، وتوفيت خديجة رضى اللّه عنها ، فاشتد الكرب برسول اللّه ﷺ وعظم ألمه وحزنه.

ومن سجل التاريخ أنهم عذبوا فى ذات اللّه تعالى من المؤمنين فى مكة سمية أم عمار ابن ياسر ، وولدها ، وزوجها ، فقد ماتت سمية تحت العذاب قتلها أبو جهل بحربة طعن بها فى فرجها ، فكانت أول شهيده فى الإسلام . كما عذب بلال إذ كان مولاه أمية بن خلف الطاغية الجمحى يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا ، واللّه لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد ، وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت الإسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء [1] مكة فيمر بهم رسول اللّه ﷺ فيقول : صبراً آل ياسر موعدكم الجنة .

الدعوة فى دار الهجرة :

إنه بعد موت أبى طالب أشتد أذى قريش برسول اللّه ﷺ فخرج إلى الطائف يطلب نصرة رجال من ثقيف فعمد إلى ثلاثة نفر من سادة ثقيف وهم عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وأخوهما حبيب بن عمرو فكلمهم فى شأن نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قريش بعد أن دعاهم إلى اللّه سبحانه وتعالى فأسمعوه ما آلمه ، مآلم كل مؤمن إذ قال له الأول : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان اللّه أرسلك ، وقال

---

(١) الرمضاء : الرمل الحار من شدة حرارة الشمس .

الثانى : أما وجد اللّه أحداً يرسله غيرك ، وقال الثالث : واللّه لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من اللّه كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على اللّه ما ينبغى لى أن أكلمك ، فقام رسول اللّه من عندهم وقد يئس من جبر ثقيف .

وواصل رسول اللّه ﷺ عرض نفسه على القبائل العربية فى أسواقها وعلى مياهها ، يدعوهم إلى اللّه تعالى ويطلب النصرة على قومه الذين آذوه وبالغوا فى أذاه .

ولما أراد اللّه تعالى أن يعز رسوله وينصر دينه ، خرج رسول اللّه ﷺ على سابق عادته إلى موسم الحج يدعو إلى ربه ، ويطلب نصرته على قومه فشاء اللّه تعالى أن يلقى نفراً من الخزرج عند العقبة فدعاهم إلى اللّه تعالى وقرأ عليهم ما شاء اللّه من القرآن فآمنوا وأسلموا ، وكانوا ستة نفر منهم : أسعد بن زرارة من بنى النجار ، فلما عادوا إلى المدينة نشروا الدعوة حتى لم يبق بيت إلا فيه ذكر لرسول اللّه ﷺ والإسلام ، ولما كان الموسم من العام المقبل ، وأتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوا رسول اللّه ﷺ بالعقبة وبايعوه على الإسلام بأن يعبدوا اللّه ولا يشركون به شيئاً ، ولما لم يكن فى نصوص البيعة ذكر الحرب قيل فيها بيعة النساء وذلك لعدم فرض القتال يومئذ ، ونصوص البيعة هى الواردة فى قوله تعالى من سورة الممتحنة : ﴿ **يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن باللّه شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين** ﴾ (1) الآية .

ولما أرادوا العودة إلى المدينة بعث معهم رسول اللّه ﷺ مصعب بن عمير رضى اللّه عنه يقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم فى دين اللّه ، فذهب معهم ونزل على أسعد بن زرارة رضى اللّه عنهما ، وكان يؤمهم فى الصلاة ، خرج يوماً أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير إلى حائط لبنى الأشهل ، فاجتمع عليهما ناس من المسلمين فسمع بذلك سعد بن معاذ ، فقال لأسيد بن حضير ، وكل منهما كان سيداً فى قومه ، فقال سعد لأسيد بن حضير : لا أبالك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفائنا فازجرهما وانههما أن يأتيا دارينا بعد ، ولولا أن أسعد أمنا من حيث علمت لكفيتك ذلك ، فذهب أسيد بعد أن أخذ حربته ، فلما رآه أسعد ، قال يا مصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فأصدق اللّه فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه ، فجاء أسيد ووقف عليهما وقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفائنا ، اعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ؟ قال : أنصفت ثم

(1) الممتحنة : ١٢ .

ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن : فقالا أسيد ما أحسن هذا الكلام وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ففعل أسيد ذلك ، ودعا أسيد سعد بن معاذ فحضر مجلس مصعب فأسلم ، وهكذا انتشر الإسلام بالمدينة بإسلام أسعد بن زرارة ووجود مصعب بن عمير ، وبدخول أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ فى الإسـلام ، فلم تكن إلا أيام قلائل وما فى المدينة بيت إلا وفيه إسلام ومسلمون إلا ما قل ونـدر .

وما أن دارت السنة دورتها وخرج حجاج المدينة من المسلمين والمشركين إلى موسم الحج ، وخرج معهم مصعب بن عمير رضى اللّه عنه ، واتصل مصعب برسول اللّه ﷺ مع رجال من أهل المدينة بمكة وواعدهم رسول اللّه ﷺ (العقبة) أيام التشريق ، وحج الجميع وقضى الحج ، ولما كانت ليلة الميعاد مع رسول اللّه ﷺ خرجوا فى نصف الليل يتسللون من رحالهم حتى نزلوا بالشعب عند العقبة ينتظرون رسول اللّه ﷺ ، وما هى إلا ساعة وإذا برسول اللّه ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب حضر وهو مشرك يومئذ ليطمئن على ابن أخيه ويستوثق له من مسلمى المدينة فيما عاهدوه عليه ، وتمت بيعة العقبة الثانية بين رسول اللّه ﷺ وبين نحو من ثلاثة وسبعين رجلاً من الخزرج والأوس وكانت البيعة بعد أن تكلم العباس أول متكلم فقال : يا معشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلاده ، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فقال الخزرج : قد سمعنا ما قلت : فتكلم يا رسول اللّه فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول اللّه ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى اللّه تعالى ورغب فى الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم » وإلى هنا قام البراء بن معرور رضى اللّه عنه فأخذ بيد رسول اللّه ﷺ ، وقال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (١) ، وقاطعه أبو الهيثم بن التيهان قائلاً يا رسول اللّه : إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ــ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول اللّه ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم (٢) والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ،

---

(١) أزرنا : كناية عن النساء ، إذ الإزار يكنى به عن المرأة .

(٢) الهدم كناية عن الحرمة فمعنى الحديث : ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم أهل الهدم الدار تهدم وقد كانت تحوى الحرمات وتحوطها .

أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، ثم خطب سعد بن عبادة الأنصارى فكرر ما قاله العباس بن عبد المطلب تقريباً ، فقال أهل المدينة : إنا نأخذه ـ رسول اللّه ـ على مصيبة المال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول اللّه إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة ، عندئذ قالوا : ابسط يدك يا رسول اللّه نبايعك فبسط ﷺ يده فبايعوه ، واختار منهم اثنى عشر نقيباً وهم : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد اللّه بن رواحة ، ورابع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد اللّه بن عمرو بن حارثة ، والمنذر بن عمرو بن خنيس ، وهؤلاء من الخزرج ، ومن الأوس : ابن خزام ، وعبادة بن الصامت بن قيس ، وعبادة بن الصامت ابن ديلم ، وأسيد بن حضير بن سماك ، وسعد بن خيثمة بن الحارث ، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير ، وعاد أهل البيعة إلى المدينة ولم يتخلف منهم إلا سعد بن عبادة حيث أسرته قريش ، وذلك أن قريشاً لما بلغها بيعة أهل المدينة للرسول ﷺ على حربها طلبت أهل البيعة فلم تدركهم حتى تحملوا راحلين فنجوا إلا سعدا أدركته فأسرته فهو فى أسرها حتى أطلقه اللّه تعالى من أسرها بواسطة جبير بن مطعم بن عدى بعد أن عذبته قريش العذاب الشديد .

وما أن وصل المبايعون المدينة انتشر خبر البيعة فى ربوع المدينة وتحولت فعلا المدينة إلى دار إسلام وقلعة من قلاعه ، وعندئذ أمر رسول اللّه ﷺ أصحابه أن يهاجروا إليها فهاجروا إرسالاً ، ولحق بهم مهاجروا الحبشة كذلك وانتظر رسول اللّه ﷺ أمر ربه بالهجرة حتى جاء الإذن فخرج مع أبى بكر الصديق مهاجراً إلى المدينة ، وكان فى هجرتهما آيات منها ما كان فى غار ثور ، ومنها فى شاة أم معبد ، ومنها مع سراقة بن جعشم .

أما غار ثور فقد أعمى اللّه تعالى المشركين عن رؤية الرسول ﷺ وصاحبه فيه ، وهم يقلبون الحجارة حجراً حجراً بحثاً عنه ﷺ ، ولم يروه ، إذ العناكب نسجت [1] على فم الغار والحمامة عششت وبيضت فى الحال مما جعل المشركين لا يشكون أن ليس بالغار أحد وهم يمرون به فى كل لحظة متتبعين الآثار ، حتى قال أبو بكر : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا ، فأجابه الرسول ﷺ ما ظنك ؟ [2] باثنين اللّه ثالثهما يا أبا بكر ، وفى القرآن الكريم ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره اللّه إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن اللّه معنا** ﴾ [3] .

---

(١) خبر نسج العنكبوت وتعشش الحمامة ذكره البزار ومسنده .

(٢) أخرجه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وأحمد .

(٣) التوبة : ٤٠ .

وأما شاة أم معبد فالآية فيها أنها كانت فى دارها بعد أن كانت لا تحلب لما أصابها من جهد السنة الشهباء ، إذ مر رسول اللّه ﷺ مع أصحابه بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة جلدة برزة تختبىء بفناء بيتها وتطعم وتسقى من يمر بها ، فسألها : هل عندها شىء يشترونه منها ؟ فقالت : واللّه لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى ، والشاه عازب ، فنظر رسول اللّه ﷺ إلى شاة فى كسر البيت ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت : هذه شاه خلفها الجهد عن الغنم ، فقال هل بها من لبن ؟ فقالت هى أجهد من ذلك ، قال : أفتأذنين لى بحلبها ؟ قالت : قم بأبى وأمى ، إن رأيت بها حليباً فاحلبها ، فدعا رسول اللّه ﷺ بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر إسم اللّه ، وقال : اللهم بارك لها فى شاتها ، فتفاجت ودرت واجترت ، فدعا بإناء لها يربص (1) الرهط فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ﷺ آخرهم فشربوا جميعاً عللا بعد نهل ، ثم حلب فيه آنية حتى ملاء الإناء فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها ، وجاء زوجها فوجد عندها اللبن فعجب وقال : من أين لك هذا ؟ والشاة عازب ولا حلوبة بالبيت ، فقالت : إنه مر بنا رجل (2) مبارك كان حديثه كيت وكيت ، فقال زوجها أبو معبد : واللّه إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه ، صفيه لى يا أم معبد فوصفته له ، فقال : هذا واللّه صاحب قريش ، ولو كنت وافقته لا لتمست أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

أما سراقة فالآية فيه أنه لما بلغه أن قريشاً جعلت مائة بعير لمن يرد عليها رسول اللّه ﷺ حياً أو ميتاً ركب فرسه وحمل سلاحه وخرج فى طلب رسول اللّه ﷺ ، وما أن سار وجدّ به السير حتى أخذ فرسه يعثر فى الأرض ، وكلما عثر الفرس يسقط سراقة على الأرض ، وهكذا عدة مرات فلما رأى أنه دنا من رسول اللّه ﷺ ورفاقه عثر الفرس وذهبت يداه فى الأرض وسقط سراقة عنه ، ورأى دخاناً كالأعصار فعرف حين رأى ذلك أنه الرسول ﷺ قد منع منه وأنه ظاهر لا محالة ، فنادى : أنا سراقة بن جعشم انظرونى أكلمكم ، فواللّه لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ولما عاد سراقة خائباً لامه أبو جهل . فأنشده الأبيات التالية :

أبا حكم واللّه لو كنت شاهداً … لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمداً … رسول ببرهان ممن ذا يقاومه ؟

---

(1) يشبع الجماعة .

(2) أصبح آل أبى معبد يؤرخون به فيقولون : بعد أن جاءنا الرجل المبارك أو بعد أن رأينا الرجل المبارك .

عليك بكف لقومه عنه فإننى | أرى أمره يوماً تبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم | بأن جميع الناس طرا يسالمه

ومن أولى آيات الهجرة أنه لما خرج رسول اللّه ﷺ وصاحبه من الغار ولم يعرف أين كان اتجاههما جاء رجل من الجن من أسفل مكة وأخذ يتغنى بالأبيات التالية من الشعر، والناس يتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة :

جزى اللّه رب الناس خير جزائه | رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر حيث تروحا [(١)] | فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم | ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها | فإنكم وإن تسألوا الشاة تشهد
فيا لقصى ما زوى اللّه عنكم | به من فعال لا يجازى وسؤدد
فما حملت من ناقة فوق رحلها | أبر وأوفى ذمة من محمد

ووصل الرسول ﷺ مع صاحبه أبى بكر الصديق المدينة، ودخلها من جنوبها حيث نزل بديار بنى عمرو بن عوف بضاحية قباء، وكان ذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فأقام بها خمسة أيام دعا فيها إلى اللّه تعالى وتلا القرآن وعلم المؤمنين دين اللّه تعالى وصلى بالناس، وبنى مسجد قباء فكان أول مسجد بنى فى الإسلام، وترك منازل بنى عمرو بن عوف قاصداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة فصلاها فى حى بنى سالم بن عوف بالمسجد الذى يعرف الآن مسجد الجمعة بواد يقال له : (رانوناء) فكانت أول جمعة تصلى فى دار الهجرة وعرضت له رجالات أحياء الأوس والخزرج كل يطلب النزول إليه ويقول : أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعه، والرسول ﷺ يأبى عليهم ذلك، وكلما اعترضوا ناقته لينيخوها بأحيائهم يقول لهم : دعوها فإنها مأمورة حتى وصل إلى حى بنى النجار من أخواله [(٢)] فبركت الناقة وألقت بجرانها [(٣)] فى المكان الذى بنى فيه المسجد النبوى الشريف على مقربة من دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى رضى اللّه عنه، والذى نزل عليه رسول اللّه ﷺ ضيفاً وبقى بمنزله حتى بنيت الحجرات الشريفة فسكنها

(١) وردت ترحلا من الرحيل .
(٢) لأن أم عبد المطلب والد عبد اللّه أبى الرسول ﷺ أمه سلمى بنت عمرو من بنى عدى بن النجار .
(٣) الجران ما يصيب الأرض من البعير وبطنه .

رسول الله ﷺ .

وكان أول عمل قام به الرسول ﷺ بالمدينة بناء مسجده الشريف والذى شارك فى حمل حجارته وهو يرتجز ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وعمار بن ياسر يرتجز ويقول :

لا يستوى من يعمر المساجد يدأب فيه قائماً قاعداً

ومن يرى عن الغبار حائداً

ففهم أحد الصحابة أنه يعرض به ، فهدده بالضرب فغضب لذلك رسول الله ﷺ وقال : مالهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار .

ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه بحمل اللبن فقال يا رسول الله : قتلونى يحملون على مالا يحملون ، فأخذ رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده وهو يقول : —

ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية .

ولم تدر السنة حتى استجمع للرسول ﷺ إسلام الأنصار فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهله ، إلا ما كان من ثلاث أو أربع بيوتات من الأوس فإنهم بقوا على شركهم ، وتم بناء المسجد والحجرات فى خلال تلك السنة ، وأول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة تلك التى رويت عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ونصها : أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وأتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمه طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وخطب مرة أخرى أيضاً فقال : « إن الحمد لله ،، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ،

قد أفلح من زينه اللّه فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه أحبوا ما أحب اللّه ، أحبوا اللّه من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام اللّه وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم فإنه من كل ما يخلق اللّه يختار ويصطفى ، وقد سماه اللّه خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام فاعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته ، واصدقوا اللّه صالح ما تقولون بأفوهكم ، وتحابوا بروح اللّه بينكم إن اللّه يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم » .

ومن أجل ما قام به رسول اللّه ﷺ من الأعمال فى مجال الدعوة بالمدينة بعد بنائه المسجد وجمع المؤمنين فيه للصلاة والتربية والتعليم هو كتابه الذى كتبه بين المهاجرين والأنصار ، وقد ضمنه موادعته يهود المدينة ، ومعاهدتهم وإقراره لهم على دينهم وأموالهم ، وما شرط لهم ، واشترط عليهم وهو كتاب يقع فى أكثر من ثلاث صفحات تضمن خطوطاً سياسية إصلاحية حربية وسلمية لا نظير لها فى معاهدات الناس وكتاباتهم فى هذا الشأن بحال من الأحوال ، وهو فى كتاب السيرة لابن هشام .

ومن أجل الأعمال كذلك مؤاخاته ﷺ بين المهاجرين والأنصار حيث قال فى مجمع حاشد من المهاجرين والأنصار : « تآخوا فى اللّه أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى » فكان رسول اللّه ﷺ وعلى بن أبى طالب أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين ، وهكذا حتى لم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا آخى أحد وأخاه ، واللّه أكبر ماذا نتج عن هذه المؤاخاة من الخير والبركة الأمر الذى لا نظير له ولم تعرف الدنيا له مثيلاً ، كل ذلك فى نطاق الدعوة إلى اللّه تعالى التى يجب أن يتخذ لها كل الأسباب الكفيلة ببلوغها وانتشارها وانتصارها وإسعاده للناس عليها فى الدنيا والآخرة .

وبعد هذه الخطوات الجبارة التى خطاها الرسول ﷺ فى مضمار الدعوة بدار الهجرة اتسع الطريق أمامه فداه أبى وأمى ، فضاعف الجهود ، إذ نجم النفاق بين سكان المدينة من عرب مشركين ويهود على حد سواء ، وأخذت التجمعات والتكتلات ضد الرسول والمؤمنين تظهر هنا وهناك ، وتبعتها الإتصالات بالعدو بمكة ، وعظم الأمر ، واشتد الخطب ، ووقف الرسول ﷺ والمؤمنون وقفة البناء الشامخ والجبال الراسية فلا تزعزع ولا تضعضع ، ولكن الجهاد بالسيف والمال والقال والحال حتى نصر اللّه أولياءه وخذل أعداءه ولكن ما

بين ذلك من الأحداث الجسام والأعمال العظام مالا يأتى عليه وصف !!! وليراجع له كتب السير والمغازى فإنه كان العجب العجاب فى حياة الدعوة بالمدينة وحياة سيد الدعاة بها صلى الله عليه وآله وصحبة وسلم تسليماً كثيراً .

الصورة المثالية فى شخصية الرسول ﷺ :

إن الصورة المثالية الكاملة فى شخصية الرسول الكريم ﷺ تتجلى فى خلقه وفى خلقه معاً ، وهى بالغة فى كل منهما منتهى الكمال ، والحمد لله واهبه والمتفضل به ، أما فى خلقه ﷺ فإن أصحاب السير وجميع كتب من كتب فى السيرة المحمدية مجمعون على أن محمداً رسول الله ﷺ كان أكمل الناس ذاتاً ، وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم قداً واعتدالاً ، ولنترك الرواة الصادقين يصفون لنا الذات المحمدية كما رأوها وعرفوها ، فقد روى مسلم عن البراء أنه قال : كان رسول الله ﷺ رجلا مربوعاً بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمة إلى شحمة أذنية ، عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ﷺ ، كما روى مسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ أزهر اللون كأن عرفه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفأ ، ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكه ولا عنبره أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ، وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : سألت هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله ﷺ وكان وصافاً ، وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئاً أتعلق به ، فقال : كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ، أطول من المربوع وأقصر من المشذب « البائن الطول » عظيم الهامة رجل الشعر أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سوابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرينين ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، أدعج ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، مفلح الأسنان ، دقيق المسربة . كان عنقه جيد دميه فى صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادنا متماسكا ، سواء البطن والصدر بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس (رؤوس العظام) أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، سائل الأطراف عبل الذراعين (غليظهما) خمصاً الإخمصين ينبوعهما الماء ، إذا زال زال تقلعاً ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هوناً ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب . وإذا التفت إلتفت جميعاً ، خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

وأما فى خلقه العظيم فإنه بأبى هو وأمى كان مثالاً من أمثلة الكمال البشرى ، فلا

يسامى فى أخلاقه ولا يدانى بحال فهو فريد دهر الدنيا ووحيد عصرها .

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفرى

وها نحن نستعرض شذرات [1] من ذهب كماله فى كل مجالات حياته الأخلاقية والنفسية والعقلية لنقف على عين الحقيقة ، ونعرف الكمال المحمدى الذى كان به سيد الدعاة الصالحين وإمامهم أجمعين .

فى عفوه وحلمه :

إن العفو كالحلم كلاهما من الأخلاق الإنسانية الفاضلة ، وإن الاستقصاء للشمائل المحمدية غير محتمل أصلاً ، ولقد أحسن من قال :

إنما مثلوا صفاتك النـــاس ... كمــا مثل النجوم الماء

ولذا فاننا نكتفى دائماً بنماذج لذلك الكمال المحمدى فى كل مظهر من مظاهره ، ومن شمائل الحلم والعفو عنده ﷺ نذكر الأمثلة الثلاثة الآتية :

١ ـ صح أنه كان ﷺ فى غزاة فأعطى رجاله فرصة للاستراحة فيها فانتشروا فى واد يستريحون تحت ظلال أشجاره وأتى هو شجرة فعلق ﷺ سيفه فى أحد أغصانها ونام ، فجاء أعرابى من المشركين فاخترط السيف وقال للرسول ﷺ من يمنعك اليوم منى يا محمد ؟ فرفع رسول اللّه ﷺ رأسه وقال الله : فارتاع الرجل وسقط السيف من يده فتناوله الرسول ﷺ وقال : « من يمنعك أنت الآن منى ؟ فقال الأعرابى : لا أحد فعفا عنه رسول اللّه ﷺ وانصرف » إن هذا لهو العفو بعد المقدرة الذى يستحق صاحبه الإجلال والإكبار ، وكان رسول اللّه ﷺ هو ذاك .

٢ ـ قسم ﷺ مالاً بين أصحابه فجاءه أعرابى فجذبه من طرف ردائه وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه ، فغضب رسول اللّه ﷺ ، وما زاد على أن قال : ويحك من يعدل إذ لم يعدل اللّه ورسوله ؟ ورحم اللّه أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

٣ ـ دخل أعرابى المسجد ، واضطرته الحاجة إلى التبول فانتحى ناحية من المسجد وأخذ يبول ، فانتهره أصحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين ، وصاحوا فيه ، فقال لهم رسول اللّه ﷺ : دعوه لا تزرموه (أى لا تقطعوا عليه بوله) فتركوه حتى قضى بوله ، ثم أمر

---

(١) الشذرة والجمع شذرات بالتحريك وشذور قطع الذهب تلتقط من معدنه .

رسول الله ﷺ بدلو من ماء فصبه عليه فحلم الرسول ﷺ هذا أنطلق الأعرابى فقال : اللهم ارحمنى وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد تحجرت واسعاً يا أخا العرب » .

رجاحة عقله :

من الكمالات المحمدية رجاحة عقله ﷺ ، ولنورد برهاناً على ذلك أربعة مواقف كانت له ﷺ اثنان منها فى عهد ما قبل الإسلام ، واثنان فى عهد الإسلام وهى أربعة مواقف من عشرات أو مئات المواقف كل موقف منها دال على ما أوتى ﷺ من رجاحة العقل وكمال الإدراك .

فالأول : هو حضوره ﷺ حلف الفضول وقوله فيه : « لقد حضرت حلف الفضول بدار عبد الله بن جدعان ، وما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار عبد الله بن جدعان ـ حمر النعم ولو دعيت به لأجبت [1] إن هذا الحلف عقد على أساس نصرة المظلوم والوقوف إلى جنبه حتى يؤخذ له الحق ممن ظلمه ، فحضور النبى ﷺ هذا الحلف مؤيداً له مغتبطا به ، حتى قال : ما أحب أن لى به حمر النعم ، دال على كمال عقله ﷺ ورجاحته .

والثانى : حكمه ﷺ بأن يوضع الحجر الأسود فى ثوب ، ثم تأخذ بأطرافه القبائل القرشية حتى إذا بلغ الحجر مكانه من جدار البيت تناوله هو ووضعه فى موضعه ، وكذلك فعل حتى قضى بذلك على فتنة متوقعه وخصومة قائمة من أشد الخصومات أوشكت أن تزهق فيه الأرواح ، فدل تصرفه الحكيم هذا على رجاحة عقله وكماله الذى أهله لأن يكون أكمل الناس عقلاً بلا منازع .

والثالث : أنه لما دخل مكة يوم الفتح منتصراً ووجد رجالات قريش قد تجمعوا حول الكعبة ينتظرون حكم الفاتح المنتصر عليهم ماذا يفعل بهم ، ناداهم قائلاً : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

إن هذا الموقف المثالى فى تاريخ العظماء ينم قطعاً على ما أوتى رسول الله ﷺ من رجحان العقل وكماله ، الأمر الذى أصبح به مثلاً عالياً فى هذا الشأن .

والرابع : أنه تنازله لقريش على كتابة لفظ الرحمن الرحيم ، وعلى لفظ رسول الله

---

(١) عبارة ابن هشام : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى فى الإسلام لأجبت .

فى كتابة وثيقة المعاهدة التى أبرمها مع قريش عام صلح الحديبية إذ أمر الكاتب أن يكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم فقال ممثل قريش الدبلماسى سهيل بن عمرو : أمسك ، لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم ، فتنازل عن ذلك وكتب باسمك اللهم ، ولما قال للكاتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّه قال ممثل قريش : أمسك لو شهدت أنك رسول اللّه لم أقاتلك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه ، فتنازل عن ذلك وكتب ، فى حين أن أصحابه وعلى رأسهم عمر وعلى رضى اللّه عنهم قد كرهوا ذلك وأبوا أن يفعلوه ، ورأوه أنه إعطاء للدنية فى دينهم .

غير أن النتائج الطيبة التى عقبت ذلك التنازل دلت على قصر نظر القوم ، وبعد نظر الرسول ﷺ ، وكمال عقله ورجاحته ، الأمر الذى كان به مضرب المثل فى كمال العقل وحسن السياسة وكمال التدبير .

رحمته :

إن الرحمة التى كان يحملها قلب محمد ﷺ كانت رحمة مثالية لم يحظ بها أحد من الناس ، ولم تكن وصفاً فى كمالها لغيره ﷺ وها نحن نعرض لبعض مظاهرها التى تجلت فيها فنقول : رفع إليه ولده إبراهيم وهو مريض يجود بنفسه فوضعه بين يديه وبكى ﷺ وقال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

وزار مرة قبر أمه فوقف عليه وبكى طويلاً وانصرف وهو يقول : « استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى » .

ولما فتح ﷺ حصن بنى أبى حقيق من خيبر أتى رسول اللّه ﷺ بصفية بنت حيى بن أخطب وبأمراة أخرى فمر بهما بلال على قتلى يهود ، فلما رأتهم الجارية التى مع صفية صاحت وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ، فلما رأى رسول اللّه ﷺ بتلك الجارية ما رأى ، قال : أنزعت منك الرحمة يا بلال تمر بالمرأتين على قتل رجالهما ؟

هذا ولم تكن رحمته ﷺ قاصرة على بنى الناس مؤمنهم وكافرهم فحسب ، بل دعت ذلك إلى الحيوانات ، فقد قال وهو يقرر الرحمة ويحض عليها ويورثها فى القلوب : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . ويقول : « عذبت امرأة فى هرة أو ثقتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت » وقال : « بينما كان كلب يطيب

بركية كاد يقتله العطش إذ رأته امرأة بغى من بغايا بنى إسرائيل ، فنزعت موقتها فسقته فغفر اللّه لها به » .

كرمه :

إن الكرم النفسى الذى يتحلى به رسول اللّه ﷺ لا يأتى عليه الوصف ، وكيف يوصف كرم من لم يسأل شيئاً طول حياته وهو فى حوزته فقال : لا أبداً ، خرج يوماً وعليه حلة من أجمل الحلل وأبهاها فرآه أحد أصحابه ، فقال يا رسول اللّه : أعطينها فدخل رسول اللّه ﷺ بيته فخلعها وآتاه بها فأعطاه أياها ، ولم يسأله لمَ ؟ وكان قصد الرجل السائل أن تمس جلده بعد أن مست بشرة رسول اللّه ﷺ لما يره فى ذلك من البركة .

وجاءه مرة رجل يسأل مالاً ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع الرجل إلى قومه وقال يا قوم : أسلموا فإن محمد يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، أو قال من لا يخشى الفاقة .

وبايع مرة جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنهما فى جمل له ، قد كل من السفر فباعه إياه بكذا مائة درهم ، ولـما جاء يتقاضاه الثمن أعطاه الثمن والجمل معاً ، اللّه أكبر فماذا عسانا أن نذكر هذا من كرم محمد ﷺ أنه بحق أكرم من على الأرض بلا نزاع .

عدله :

إن المثالية فى عدل محمد ﷺ ، والعدل خلق من أخلاق النفس الكاملة ، تتجلى فى مواقف عديدة كانت له ﷺ وإنا لنكتفى منها بذكر موقفين فقط .

الأول : أنه لما سرقت المخزومية وجاء أسامة بن زيد حب رسول اللّه وابن حبه جاء مدفوعاً برجالات قريش ليشفع لها عند رسول اللّه ﷺ ليسقط عنها حد السرقة وهو قطع يدها ، قال له الرسول ﷺ وهو غضبان : أتشفع فى حد من حدود اللّه يا أسامة ؟ واللّه لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها .

وثانيهما : أنه ﷺ عدل صفوف أصحابه المجاهدين فى وقعة بدر ، وكان بيده قدح من القداح يعدل به الصفوف للقتال ، فرأى سواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار متقدماً على الصف فطعن فى بطنه بالقدح الذى بيده وقال : استو يا سواد ، فقال يا رسول اللّه : أوجعتنى وقد بعثك اللّه بالحق والعدل فأقدنى من نفسك ، فكشف رسول اللّه ﷺ عن بطنه ، وقال : استقد . إن فى هذين الموقفين من مظاهر العدالة مالا يقادر قدره .

شجاعته :

إن شجاعة قلب النبى ﷺ لم تكن أقل من شجاعة عقله ، إنه قد بلغ فيها بحق المثالية التى لا توصف ، وناهيك فى إثبات هذا الخلق العظيم أن يقول أفذاذ الأبطال كعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم ممن عرفوا بالبطولات النادرة ، والشجاعات الفذة أن يقولوا : « كنا إذا حمى الوطيس واشتد البأس نلوذ برسول اللّه ﷺ نتقى به » .

وشاهد آخر : قد انهزم الجيش الإسلامى يوم حنين هزيمة منكرة وتفرق رجاله هاربين فى كل واد ، ويثبت رسول اللّه ﷺ كالجبل الأشم فى الميدان يقاتل وحده وينادى أصحابه فثابوا إليه وقاتلوا معه حتى انتصروا وهزموا أعداءهم شر هزيمة .

وشاهد آخر : على شجاعته ﷺ هو شهادة أنس بن مالك بقوله كما روى ذلك مسلم : « كان رسول اللّه ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فتلقاها رسول اللّه ﷺ راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس أبى طلحة عرى فى عنقه السيف وهو يقول : « لم تراعوا ، لم تراعوا » .

وحسبنا دليلا على شجاعة رسول اللّه ﷺ قوله تعالى : ﴿ **فقاتل فى سبيل اللّه لا تكلف نفسك وحرض المؤمنين** ﴾ (١) فلولا علم اللّه تعالى بما وهب رسوله من الشجاعة التى لا توجد عند غيره لما كلفه بأن يقاتل وحده .

إن شخصاً يكلف بالقتال وحده ، وقتال من ؟ إنه قتال كل أهل الكفر على الأرض ، وما على الأرض يومها إلا كافراً باستثناء تلك الحفنة المؤمنة من أصحابه رضى اللّه عنهم لشخص هو أشجع من طلعت عليه الشمس وغربت فى دنيا الناس ، ذلك هو محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وصحبه وسلم .

وأخيراً : إن هذا الكمال الخلقى الذى أصبح به محمد رسول اللّه ﷺ أكمل إنسان وأفضله وأعظمه على الإطلاق ، الأمر الذى أهله بحق لأن يكون مثالا أكمل للدعاة الصالحين ونموذجاً نادراً بين كل دعاة الحق والخير فى دنيا الدعوة والدعاة ، إنما هو مستمداً من مصدر كل كمال ، ونابع من فيض ربانى لا يعرف النضوب ولا يغيض ، ولكنه سلسبيل

(١) النساء : ٨٤ .

متدفق لا يقف ولا ينتهى ذلكم هو القرآن الكريم الذى استمد منه محمد رسول اللّه ﷺ كماله النفسى والخلقى فكان مثالاً للكمال البشرى فى هذه الحياة ، ولقد صدقت أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى اللّه عنها وقد سئلت عن خلق رسول اللّه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » .

وها هى ذى أوصافه ﷺ فى القرآن تلك الأوصاف التى استحق بها أن يكون خير الدعاة بل سيدهم وإمامهم ولا فخر ، فلنوردها ذكراً ولنورد الخاطر عليها ورداً .

وصفه ربه تعالى بكمال الخلق وعظمته فقال من سورة القلم : ﴿ **ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (١) .

ووصفه بكامل الرأفة وعظيم الرحمة بما لم يصف به غيره من صالحى عباده فقال تعالى من سورة التوبة : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ (٢) .

ووصفه بكمال العدالة ، وحمل شرف الرسالة ، وقوة الهداية فقال تعالى من سورة الأحزاب : ﴿ **إنا أرسلنك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ (٣) .

ووصفه بالمزكى للنفوس المهذب للأخلاق والمثقف للعقول المطهر للأرواح فقال تعالى من سورة الجمعة : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ (٤) .

ووصفه بأنه برهان على نفسه فى إثبات رسالته وتقرير نبوته وكمال هدايته لخلقه قال تعالى من سورة النساء : ﴿ **يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا باللّه واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما** ﴾ (٥) .

ووصفه بكمال الشجاعة وقوة الاعتصام باللّه والتوكل عليه فقال من سورة النساء والأعراف : ﴿ **فقاتل فى سبيل اللّه لا تكلف إلا نفسك** ﴾ (٦) .

---

(١) القلم : ١ ــ ٤ .   (٢) التوبة : ١٢٨ .   (٣) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦
(٤) الجمعة : ٢ .   (٥) النساء : ١٧٤ ، ١٧٥ .   (٦) النساء : ٨٤ .

وقال : ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ (١) .

ووصفه بكمال العبودية له وشرفه باختصاصه به دون سواه من سائر عباده الصالحين فقال تعالى من سورة الجن : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ (٢) وقال من سورة الإسراء : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ (٣) .

ووصفه بأنه الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر المحل للطيبات المحرم للخبائث ، وهى صفات عظيمة وكمالات عديدة مازه بها وفضله بمثلها تعظيماً له وتكريماً فقال تعالى من سورة الأعراف : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ (٤) .

هذه بعض صفات الكمال المحمدى فى القرآن الكريم وغيرها كثير اكتفينا بها إشارة إلى أن الكمال المحمدى فى النفس والخلق إنما هو مستقى من فيض القرآن الذى هو ينبوع الكمالات وبحر الفيوضات ، وها نحن نذكر طرفا آخر مما أدب الله تعالى رسوله فكمله وللمعالى أهله ورفعه فجعله أسوة للمؤمنين وقدوة للصالحين ، ولنعرف بذلك سر الكمال المحمدى الذى أصبح به أنموذج الدعاة الصالحين ، وأفضل الخلق أجمعين .

قال تعالى له وهو يؤدبه : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ (٥) .

وقال له : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ (٦) .

وقال له : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٧) .

وقال له : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل

(١) الأعراف : ١٩٥ ، ١٩٦ . (٢) الجن : ١٩ . (٣) الإسراء : ١ .
(٤) الأعراف : ١٥٧ . (٥) الأعراف : ١٩٩ ، ٢٠٠ . (٦) فصلت : ٣٤ .
(٧) آل عمران : ١٥٩ .

غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ، ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ (١) .

وقال له : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا ، إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدني ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ (٢) .

وقال له : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا ، واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما يعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ (٤) .

وقال له : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ (٥) .

وقال له : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين ﴾ (٦) .

---

(١) طه : ١٣٠ ـ ١٣٢ . (٢) الكهف : ٢٣ ، ٢٤ . (٣) الإنسان : ٢٣ ـ ٢٦ .
(٤) الأحزاب : ١ ـ ٣ . (٥) المائدة : ٤٩ . (٦) الجاثية : ١٨ ، ١٩ .

نماذج أخرى من الدعاة الصالحين

« أبو بكر الصديق »

إن عرضنا لهؤلاء النماذج من الدعاة الصالحين لم يكن المقصود منه استيفاء كل كمال كانوا عليه في حياتهم ، فإن ذلك يتطلب منا وقتاً وجهداً في حين أن الجانب المهم فيما نتوخاه من حياة هؤلاء النماذج الصالحين هو جانب الدعوة إلى الله تعالى ، فنعني بإبرازه ليكون قدوة لنا ومثالا صالحا لنحتذيه ، ننسج على منواله ، عسى الله تعالى أن يهبنا بعض ما وهبهم من الإخلاص له في الدعوة لله تعالى والصدق فيها والجد الذي لا يعرف الهزل والعمل الذي لا يعرف الكلل ولا الملل .

لقد كانت النماذج الأولى التي استعرضنا جوانب حياة الدعوة فيها هي أعاظم الرسل من أولي العزم عليهم الصلاة والسلام ، هم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ أجمعين .

أما المجموعة الثانية من نماذج الدعاة الصالحين فهي الخلفاء الراشدون الأربعة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي رضي الله عنهم أجمعين .

ولنبدأ استعراضنا بأبي بكر الصديق ، فمن هو أبو بكر الصديق ؟ إنه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي .

كني أبي بكر ولقب بالعتيق ، والصديق وهما لقبا شرف وكمال فالأول من العتاقة التي هي الحسن والجمال في الوجه ، والثاني من الصديقية التي هي أسمى ألقاب الصالحين في الحياة وكأن ذلك لصدقه وتصديقه فهو أول من أمن من الرجال بالرسول ﷺ وصدقه فيما جاء به وقد قال ﷺ ما معناه : « ما من أحد عرضت عليه الإسلام إلا وكانت له كبوة إلا أبا بكر رضي الله عنه » .

هذا هو أبو بكر بن أبي قحافة من حيث اسمه وكنيته ولقبه ونسبه .

أما أبو بكر من حيث كمالاته النفسية والخلقية ، والتى هى مدار الأسوة للدعاة الناشئين فنستعرض طرفا منها فنقول : إن فضل أبى بكر نتركه للرسول ﷺ وحده يذكره لنا ويقف بنا عليه ، فما هناك من هو أصدق من رسول اللّه ، ولا أعرف بأبى بكر الصديق منه فلنستمع إلى أعظم بيان فى هذا الشأن ، روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ « إن من أمن الناس على فى صحبته وماله ، أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام » .

إن هذا الخبر الصادق يعلن عن سمو أبى بكر وعلو شأنه بحيث لا ينبغى لأحد أن يطمع فى درجة أبى بكر بحال من الأحوال ، ولو اكتفينا بذكر هذا الخبر فى بيان فضل أبى بكر لكان كافياً ، غير أن حبنا للصديق يأبى علينا أن لا نذكر المزيد من فضائله .

أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قوله : قال رسول اللّه ﷺ : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ قال أبو بكر : أنا ، قال : فمن تبع منكم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا ، قال : فمن أطعم منكم اليوم مسكينا ؟ قال أبو بكر : أنا ، قال : فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ قال أبو بكر : أنا ، فقال رسول اللّه ﷺ : ما اجتمعن فى امرئ إلا دخل الجنة » .

وأخرج البيهقى فى كتابه شعب الإيمان عن عمر رضى اللّه عنه : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم .

عفته :

ومن كمالات الصديق النفسية والخلقية التى اشتهر بها بين قومه فى الجاهلية قبل الإسلام : أنه لم يشرب خمرا قط ولم يقل شعرا كذلك ذكر هاتين الخلتين لأبى بكر بن عساكر حيث روى ذلك عن عائشة رضى اللّه عنها بسند صحيح قالت : واللّه ما قال أبو بكر شعرا قط فى جاهليته ولا فى إسلامه ، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر فى الجاهلية .

وهذا دال على كمال الرجل العقلى ومدى مروءته تأبى عليه أن يسف فى قول أو عمل يتنزه عنهما عظماء الرجال ، وهذا الكمال هو الذى رشح أبا بكر الصديق للدعوة إلى الإسلام قد دعا أخيار قريش فى الجاهلية إلى الإسلام فأجابوه طواعية واختيارا وهم من كانوا كبار الصحابة وخيارهم فيما بعد كعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ،

وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام وغيرهم من رجالات الإسلام بمكة . ذكر ابن عساكر الرواية التالية وأنها مع غرابة سندها لا تتعارض مع حياة الصديق وتطلعاته إلى الكمال حتى فى عهد الجاهلية قبل الإسلام قال فيها ابن عساكر : قيل لأبى بكر الصديق فى مجمع من أصحاب رسول اللّه ﷺ : هل شربت الخمر فى الجاهلية ؟ فقال : أعوذ باللّه ، فقيل له : ولم ؟ قال : كنت أصون عرضى وأحفظ مروءتى فإن من شرب الخمر لم يحفظ عرضه ، وأضاع مروءته ، وكيف يحفظ مروءته أو يصون عرضه من يفسد عليه عقله فيصبح فى حالة سكر ، لا فرق بينه وبين المجانين ، إذ قد يقول الهجز ويأتى العهر وهو لا يرى ما قال ولا ما فعل ، والعياذ باللّه تعالى .

كمال عقله :

إن كمال العقل فى المرء مصدر شرفه وينبوع كملاته ، ومن أوتى كمال العقل تأهل للعبادة بين الناس والشرف فيهم والسلطان عليهم ، وإن حظ الصديق من كمال العقل كان وافرا كبيرا ، ولنورد تدليلا على ذلك بعض مظاهر ذلك لنشاهد من خلالها كمال عقل الصديق رضى اللّه عنه فنقول :

١ ـ إسلامه المبكر الذى لم يسبقه فيه أحد من رجال قريش أبدا بشهادة الكثيرين كعلى بن أبى طالب ، وزيد بن أرقم ، وابن عباس وغيرهم وفى ذلك قال حسان بن ثابت شاعر رسول اللّه ﷺ والدعوة الإسلامية رضى اللّه عنه :

إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البريئة أتقاها وأعدلها ... إلا النبى وأوفاها بما حملا
والثانى التالى المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

٢ ـ ثناء الرسول ﷺ عليه فى غير موطن من مواطن الشرف والكمال . أخرج البخارى عن أبى الدرداء رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « هل أنتم تاركون لى أصحابى ؟ أنى قلت : أيها الناس إنى رسول اللّه إليكم جميعا ، فقلتم : كذبت ! ! ! وقال أبو بكر : صدقت ! ! !

وأخرج االترمذى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما

لأحد عندنا يدا إلا وقد كافأناه إلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه اللّه بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر » .

ولننه الحديث عن كمال عقل أبى بكر الصديق بالإشارة إلى أحداث جسام تجلى فيها عقل أبى بكر ورجحانه بما لا تزيد عليه .

الأولى : ثباته يوم وفاة الرسول حيث ذهلت العقول ، وطاشت الأحلام وقال عمر : ما قال (١) فقام أبو بكر يخطب الناس ويهدىء من روعهم ، ويسكن من نفوسهم . ويقول : من كان يـعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حى لا يموت ، وقرأ : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللّه شيئا وسيجزى اللّه الشاكرين** ﴾ (٢) .

الثانية : لما قبض رسول اللّه ﷺ ونجم الشر وارتد من ارتد من العرب وقالوا : نصلى ولا نزكى ، أتى عمر رضى اللّه عنه أبا بكر وقال له : يا خليفة رسول اللّه تألف الناس وارفق بهم وإنهم بمنزلة الوحش فقال : له أبو بكر رجوت نصرتك ، وجئتنى بخذلانك ، جبارا فى الجاهلية خوارا فى الإسلام ؟ ؟ بماذا عسيت أن أتألفهم بشعر مفتعل أو بسحر مفترى هيهات هيهات ، مضى النبى ﷺ وانقطع الوحى ، واللّه لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى ، وإن منعونى عقالا .

والثالثة : هى استخلافة عمر بن الخطاب على المسلمين ذلك الاستخلاف الذى لم تر الدنيا خيرا منه قط إلا ما كان من استخلاف رسول اللّه ﷺ له رضى اللّه عنه ، ذلك الاستخلاف الذى بدأه باستشارة خيار أصحاب رسول اللّه ﷺ واحد واحدا ، فقد استشار عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد ، وأسيد بن حضير فى أناس من المهاجرين والأنصار وذلك لما ثقل فى مرضه الذى توفى فيه ، وقد قال له بعض : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلاف عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ وقال أبو بكر باللّه تخوفنى ؟ أقول : اللهم إنى استخلفت عليهم خير أهلك ، أبلغ عنى ما قلت من وراءك ثم

---

(١) قول عمر رضى اللّه عنه كما رواه أبو هريرة : أن رجالا من المنافقين يدعون أن رسول اللّه ﷺ قد توفى ، وأن رسول اللّه ﷺ ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ابن عمران ، وقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، وواللّه ليرجعن رسول اللّه كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول اللّه مات .

(٢) آل عمران : ١٤٤ .

دعا عثمان فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب ، إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا ، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيرا ، فإن عدل فذلك ظنى به ، وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرىء ما اكتسب والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ (١) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم أمر بالكتاب فختمه ، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً ، فبايع الناس ورضوا به .

فكان فى هذه الخلافة من عز الإسلام وامتداد سلطانه ، ونصرة المسلمين وصلاح حالهم ما لم يكن يخطر على بال أحد ، فدلت هذه وسابقتاها على ما أوتى أبو بكر من رجاحة العقل ، وكماله وكمال العقل ورجاحته من ضروريات الداعى الناجح ومن أخص صفاته الكمالية .

شجاعته :

إن الشجاعة القلبية لا تقل أهمية عن الشجاعة العقلية بالنسبة لدعاة الحق والخير من رجال الدعوات بين الناس ، وإذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه مضرب المثل فى رجحان العقل وكماله وقد وقفنا على مظاهر ذلك فى الكلمة السابقة فإن الصديق كان فى باب الشجاعة القلبية مضرب المثل أيضا ، ولنكتف فى التدليل على ذلك وإثباته ببعض الوقائع فقط إذ لا يخامرنا شك أبدا فى شجاعة أبى بكر الصديق ولنترك للبزار يذكر لنا فى مسنده الحديث الطريف التالى : قال : قال على رضى الله عنه : أخبرونى من أشجع الناس ؟ فقالوا : أنت ، فقال : أما أنى ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ، ولكن أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فمن ؟ قال أبو بكر الصديق : إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشا ، فقلنا : من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوى إليه أحد من المشركين ، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً سيفه على رأس رسول الله ﷺ لئلا يهوى إليه أحدا من المشركين ، فهو أشجعنا .

إن شهادة بطل كعلى طبقت شهرة شجاعته الآفاق لأكبر دليل على شجاعة أبى

(١) الشعراء : ٢٢٧ .

بكر الصديق ، وها هو ذا على مرة أخرى يذكر من شجاعة أبى بكر ما يبهر العقل ويقرر تفوق أبى بكر الصديق على أصحاب رسول اللّه ﷺ فى الشجاعتين العقلية والقلبية ، قال على رضى اللّه عنه : ولقد رأيت رسول اللّه ﷺ وقد أخذته قريش ، هذا يجبأه (يبغته) وهذا يتلتله (يحركه ويزلزله) وهم يقولون : أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا ؟ قال على : فواللّه ما دنا أحد منا إلا أبو بكر ، فكان يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول : ويلكم ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربى اللّه** ﴾ (١) .

وأخيرا فقد أخرج البخارى عن عروة بن الزبير قال سألت عبد اللّه بن عمرو بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول اللّه ﷺ فقال : رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى ﷺ وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه به خنقا شديداً فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه وقال : « ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربى اللّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ (٢) إن تقدم أبى بكر لدفع عقبة بن أبى معيط وتخليص رسول اللّه ﷺ من أذاه ودفع ذاك الشقى عليه لعائن اللّه على مرأى ومسمع من رجالات قريش المتواطئة على الجريمة الراضية بما صنع أخوهم لموقف بطولى ينم على شجاعة نادرة لمن قام به وهو أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه وأرضاه .

جوده وكرمه :

إن الجود والكرم من صفات الكمال فى الإنسان ، وما زالت البشرية منذ أن كانت تقدس هذين الوصفين فى الإنسان وتعتبرهما من مظاهر الكمال النفسى فى الإنسان .

بيد أن أصحاب الدعوات والذين يوقفون حياتهم على نصر دعواتهم ، لا مناص من أن يتكلفوا الجود والكرم ، ويوطنوا له النفس على ذلك حتى يصبح الجود والكرم من أخص صفاتهم ، إذ الجود والسخاء والكرم وهى ثلاث وإن اختلفت لفظا فإنها متحدة معنى ، وهى بذل المعروف ، وتقديم الإحسان ، والمبالغة فى ذلك إلى حد الإيثار على الأهل والولد والنفس ، وبذلك يملك الداعى النفوس ، ويجذبها إلى محيط دعوته ، كما قال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإحسان إنسانا

وإن أبا بكر الصديق وهو أحد نماذج الدعاة الصالحين من غير النبيين قد كان مع عفته

(١ ، ٢) غافر : ٢٨ .

وكمال عقله وعظم شجاعته جواداً كريما يبذل فى سبيل اللّه ، وينفق على نصرة دينه ورسوله ما لا يبذله غيره ، وذلك ثابت فى السنن .

وحسبنا من ذلك قول الرسول ﷺ المتقدم : « إن من أمن الناس على فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذا غير ربى خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام » وأصرح من هذا فى بذل أبى بكر فى سبيل نصرة رسول اللّه ودين اللّه تعالى رواية أحمد عن أبى هريرة إذ فيها قوله ﷺ : « ما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر رضي اللّه عنه » ، ولما سمع هذا الثناء العطر من فم رسول اللّه ﷺ ينحدر كأنه الغمام على قلب ظمآن ، بكى رضى اللّه عنه وقال : هل أنا ومالى إلا لك يا رسول اللّه ! ! !

وأقوى من هذا أيضا رواية الترمذى عن أبى هريرة وفيها قوله ﷺ : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه إلا أبا بكر فإن له يدا يكافئه اللّه بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر » ! !

وتقول الآثار وهى متواترة بين رجال السلف ونسائهم : أن أبا بكرالصديق أسلم وعنده أربعون ألف دينار من ذهب فأنفقها كلها فى سبيل اللّه نصرة لرسول اللّه ، وإنقاذا للمعذبين من المماليك المؤمنين كبلال وغيره ، وفيه جرى قول اللّه تعالى : ﴿ **وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى** ﴾ (1) .

ولا ننسى أن نسينا ما قال أبو قحافة لما هاجر أبو بكر ، وما صنعت معه حفيدته أسْماء بنت الصديق ، إذ لو ترك أبو بكر لأهله مالا لما وضعت أسماء الحجارة فى كوة المنزل ووضعت عليها منديلا وقالت للشيخ تطمئنه ، وتبدد من مخاوفه : ضع يدك ياجدى على هذا فإنه قد ترك لنا أبو بكر فلم نرزأ فى ماله إن رزئنا فى نفسه .

وما دمنا نورد هذه الشواهد لا لندلل بها على كرم أبى بكر فحسب بل لنحيى فى نفوسنا ونحن نتهيأ لحمل رسالة دعوة الإسلام هذا الخلق الكريم ، خلق الجود والسخاء والكرم لضرورة الدعوة والداعى إليه ، فإننا سنعرض مسابقة عمر وأبى بكر فى هذا المضمار كما رواها أبو داود والترمذى علنا نخرج منها وقد أشبعت أرواحنا بمعانى البذل فى سبيل اللّه ، وتهيأت نفوسنا لذلك ، وأصبحنا بحمد اللّه نضرب فى هذا السبيل بسهم غير قصير ولا قليل .

---

(1) الليل : ١٧ ــ ٢١ .

وهذا عرض المسابقة قال عمر رضى اللّه عنه : أمرنا رسول اللّه ﷺ أن نتصدق ، فوافق ذلك مالا عندى ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر - إن سبقته يوما - فجئت بنصف مالى ، فقال لى رسول اللّه ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله .

وأتى أبو بكر رضى اللّه عنه كل ما عنده - فقال رسول اللّه ﷺ : يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم اللّه ورسوله فقلت : لا أسبقه فى شىء أبدا .

انتهت المسابقة كما هو ظاهر بفوز الصديق وسبقه ، وفضل السبق يظهر فى كون المسبوق عمر بن الخطاب أزهد الناس فى الدنيا ، وأقوى الناس فى فعل الحق وقوله ، والسؤال هو ما نصيبنا نحن من هذا الخلق الضرورى للداعى ؟ إنه بإجراء الخاطر على مثل هذا الأمثال لأعاظم الرجال لانعدم روح الجود ، ولا نفقد نفسية الكرم ، وإن ما أنصح به الداعى الناشىء أن يمرن نفسه ويروضها شيئاً فشيئاً على اكتساب هذه الخلال والاتصاف بهذه المعانى الروحية الكريمة ، وأنه لا بد أخد منها بنصيب غير قليل لا سيما عبد هيأه اللّه تعالى لدعوة عباده إليه فسوف يمده بكل ما يؤهله لذلك ، وإنا والحمد للّه لواجدون من ذلك أثرا فى نفوسنا ، وإن كان يقل أحياناً ويكثر أخرى .

علم أبى بكر رضى اللّه عنه :

ومن جود أبى بكر إلى علمه وفقهه رضى اللّه عنه :

إن الجانب العلمى فى حياة الداعى يعتبر من أهم جوانب حياته إذ بدون العلم بدعوة اللّه تعالى والفقه فى أسرارها والبصيرة فى شرائعها وأحكامها ، لا يتأتى للمرء مهما كان صادقاً مخلصاً أن يدعو إلى اللّه تعالى ، ويفيد الناس بدعوته أن من لا يعرف اللّه تعالى ولا يعرف الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى ، ليس من حقه ولا من شأنه الدعوة إليه إذ فاقد الشيء لا يعطيه .

ولما كان أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه أحد نماذج الدعاة الصالحين كان لابد من الكشف عن جانب حياته العلمية والفقهية ليقتدى به فى ذلك ويؤتسى ، إذ الغرض من دراسة هذه الشخصيات التى لمعت اسماؤها فى دنيا الدعوة وازدهرت بدعوتها الحياة هو الاقتداء بهم وتقمص حياتهم ، ليكون المقتدى بهم خلفا لهم فى دعوتهم ، يبلغها كما بلغوها ، ويبينها للناس كما بينوها وبذلك تتصل حلقات الدعوة ويستمر هدى اللّه فى الناس .

إن أبا بكر الصديق على جانب كبير فى العلم والفقه ، إذ كان كبار علماء الصحابه يعترفون له بذلك ويعدونه أعلمهم وأفقهم فى دين اللّه تعالى ، ولنذكر شواهد ذلك براهين على علم أبى بكر وكماله فيه وعلى فقهه فى شرع اللّه وتفوقه فيه ولما عسانا أن نكتسب من علم أبى بكر وفقهه .

١ ـ روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه أن النبى ﷺ خطب يوما فقال : إن اللّه تعالى خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند اللّه تعالى ، فبكى أبو بكر ، وقال نفديك بآبائنا وأمهاتنا ، وقال أبو سعيد : فعجبنا لبكاء أبى بكر ، وقلنا : يخير اللّه عبدا من عباده بين الدنيا وبين ما عنده فيختار ما عنده فيبكى أبو بكر ، ولكن لم يلبث حتى عرفنا أن المخبر هو رسول اللّه ﷺ ، وأن ذلك كان نعيا لحياة رسول اللّه ﷺ لنا ، فعرفنا أن أبا بكر كان أعلمنا .

٢ ـ قوله رضى اللّه عنه في أهل الردة كما هو فى الصحيح : واللّه لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة واللّه لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول اللّه ﷺ لقاتلتهم عليه . هذا القول منه رضى اللّه عنه دل على طول باع أبى بكر فى العلم وعلى سعة آفاقه فى فهم نصوص الشريعة ومعرفة أسرارها ، وكيفية وجه الاستنباط منها إذ قال الزكاة أخت الصلاة ، فواللّه لأقاتلن من فرق بينهما واندهش الصحابة لموقف أبى بكر وعلى رأسهم عمر ولكن لم يلبثوا إلا قليلا حتى ظهر لهم الحق واستصوبوا رأى أبى بكر فى المسألة وقاتلوا أهل الردة حتى خضعوا للإسلام .

٣ ـ موقفه رضى اللّه عنه من صلح الحديبية ورضاه به وسكون نفسه إليه فى حين اضطرب عمر رضى اللّه عنه وقال ما لا ينبغى أن يقال إزاء قضاء رسول اللّه ﷺ وحكمه الأمر الذى جعل عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة لكلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا .

وبيان الحادثة كما فى البخارى وسيرة ابن هشام أنه لما التأم الأمر بين الرسول ﷺ وقريش ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر رضى اللّه عنه فأتى أبا بكر رضى اللّه عنه وقال : يا أبا بكر أليس برسول اللّه ؟ قال : أبو بكر بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى : قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر إلزم غرزه ، فإنى أشهد أنه رسول اللّه ، قال عمر : أنا أشهد أنه رسول اللّه ، ثم أتى

رسول اللّه فقال : يا رسول اللّه ألست برسول اللّه ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : فعلام تعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد اللّه ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

لقد قارن أهل العلم بين موقف أبى بكر من هذه القضية وبين موقف عمر رضى اللّه عنهما فخرجوا بنتيجة حاسمة ألا وهو فقه أبى بكر وسعة علمه ، وأنه أعلم أصحاب رسول اللّه ﷺ على الإطلاق .

وهناك مظاهر كثيرة تجلى فيها فقهه وعلمه رضى اللّه عنه .

حسبنا منها قول النبى ﷺ : « يؤم القوم أقروأهم لكتاب اللّه » ، وقوله فى رواية الترمذى : « لا ينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره » .

حلمه وتواضعه :

وبما أن الحلم والتواضع من مكارم الأخلاق والداعى الصادق فى دعوته لا غنى له عنهما بحال من الأحوال ، إذ ضد الحلم السفه والطيش ومقابل التواضع الكبر والعياذ باللّه ، فمن هنا نذكر بعض مظاهر هاتين الخلتين الكريمتين فى أبى بكر الصديق وهو أحد نماذج الدعاة الصالحين بعد الأنبياء المرسلين فنقول ذكر السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء الراشدين أن ابن عساكر رحمه اللّه تعالى أخرج فى كتابه أن أنيسة قالت : نزلت بفناء أبى بكر ثلاث سنين قبل أن يستخلف ، وستة بعدما استخلف ، فكان جوارى الحى يأتينه بغنمهن فيحلبهن لهن ، إن عملا كهذا أبو بكر الوزير والصاحب الأول والصديق الأوفى لرسول اللّه ﷺ ، ثم وهو خليفة المسلمين كافة يتنازل فى تواضع لا نظير له عند أمثاله فى دنيا الناس أبدا فيحلب لجوارى الحى أغنامهن ، إنما لمثل فى التواضع لا يسامى فيه أبو بكر ولا يدانى بحال من الأحوال .

وأخرج ابن عساكر أيضا عن أبى صالح القفارى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كان يتعهد عجوزا كبيرة من النساء عمياء فى بعض أطراف المدينة يسقى لها ويقوم ببعض أمرها وذلك من الليل ، فكان يأتيها أحيانا فيجد غيره قد سبقه إليها فسقى لها وقضى بعض حاجاتها فحاول عمر أن لا يسبقه إلى خدمة هذه العجوز فكان يسبقه فعزم عمر على أن يرصده ليعرف من هو السباق للخير فوجده أبا بكر الصديق ، والعجب فى ذلك أنه كان يفعل ذلك أيام خلافته رضى اللّه عنه فقال عمر لما تبين له أنه أبو بكر : أنت هو لعمرى !

فهذه كالتى سبقت من مظاهر التواضع الفذ النادر الذى لم يعرف به أحد غير أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه ، وأخرى فقد روى عنه رضى اللّه تعالى عنه أنه كان إذا مدح يقول : « اللهم أنت أعلم منى بنفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون ، وأغفر لى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون » .

هذا عن تواضع أبى بكر رضى اللّه عنه أما حلمه فالحديث عنه يطول ومن أحلم من أبى بكر ؟ أخرج أبو نعيم وغيره عن عبد الرحمن الأصبهانى قال : جاء الحسن بن على رضى اللّه عنهما إلى أبى بكر وهو على منبر النبى ﷺ فقال : أنزل عن مجلس أبى ، فقال صدقت : إنه مجلس أبيك وأجلسه فى حجره وبكى ، فقال على رضى اللّه عنه : واللّه ما هذا عن أمرى فقال أبو بكر : صدقت ، واللّه ما أتهمك .

إن هذه الحادثة إن تمت على وجهها كما رويت تكشف عن مدى حلم أبى بكر الصديق وتجعله بحق مضرب المثل فى الحلم وضبط النفس ورباطة الجأش ، وصدق القول وسلامة الصدر ولنستعرض جزئيات الحادثة مفصلة ليتبين لنا وجه الكمال النفسى فيها ، ونظهر حقيقة الحلم الذى كان خلق أبى بكر رضى اللّه عنه .

يجلس أبو بكر على منبر رسول اللّه ﷺ وهو خليفته فى أمته بإشارته ﷺ وإجماع الأمة عليه ، فيأتيه من يقول له : إنزل من على منبرنا فإنه مجلس أبينا وجدنا ، فلا يتردد أبو بكر فى اعترافه بالحق فيقول : نعم إنه مجلس أبيك ولا يكتفى بدل الغضب بالاعتراف الصريح ، بل يرفع الغلام المنحنى له العاقب عليه فى حجره ويبكى ، وما أبكته كلمة الحسن ، وإنما أبكاه فراق رسول اللّه ﷺ ، ويتفطن أبو الحسن لتصرف ولده الصغير الذى حمله فقد جده الذى كان يجلس على منبره فيأتيه فيجلسه ومعه عليه فيقول لأبى بكر : إنزل عن مجلس أبى وهى كلمة مثيرة للغاية ولو كانت من صبى صغير لا يعقل ، إذ قد يظن أن الغلام مدفوع لأن يقول هذا ، وهو ما جعل أبا الحسن رضى اللّه عنهما يقول لأبى بكر مقسما له باللّه تعالى : أن هذا ما صدر عن أمره ، وإنما هو من تعرف الحسن فقط ، وعرف أبو بكر نفسية ابن عم رسول اللّه وخاف إن ظن به غير رحابة الصدر وسلامة النية وطيب الطوية فبادر بتصديقه ونفى التهمة عليه بقوله : صدقت وواللّه ما أتهمك .

ولنكتف فى الاستشهاد على حلم أبى بكر وتواضعه بهذا أسلفنا ونحن نعلم أن كمال أبى بكر النفسى الذى نظمه فى سلك الدعاة الصالحين ، ولا يأتى عليه قول ، ولا تتسع له الصفحات مهما كبرت وطالت .

حسن سياسته :

إن الكمال النفسى الناجم عن الإيمان الكامل والعلم الواسع والتقوى العامة ، يؤهل صاحبه لحسن السياسة وسلامة الحكم وقوة القيادة والحكمة فيها وهذا الذى تم للصديق بحذافيره وبرز فيه مكان مثال الحاكم العادل ، والسياسى البارع والقائد المظفر الرشيد ويكفينا شاهدا على كمال أبى بكر فى رشده وحسن سياسته ، وعظمة قيادته ، من عشرات الشواهد والتى من أبرزها إعلان الحرب على المرتدين ، وقتالهم إلى أن أخضعهم للإسلام وعادوا إليه ، وتسيير جيش أسامة الذى عبأه رسول اللّه ﷺ ، وحال دون تحركه وخروجه إلى بلاد الشام مرض رسول اللّه ﷺ ثم وفاته فإن أبا بكر ـ والفتنة قائمة والمسلمون فى أحرج المواقف وأصعب الأحوال قد أنفذ جيش أسامة كما أراد اللّه ورسوله فكان فى ذلك من الخير والنصرة للإسلام والعزة مالا يقادر قدره .

أقول : يكفينا من شاهد خطبته التى خطبها بعد أن تمت بيعته خليفة لرسول اللّه ﷺ على المسلمين ، فقد رسم فى تلك الخطبة التاريخية الشهيرة سياسة فى الحرب والسلم وفى الحكم والقضاء كما فى القيادة والتدبير فقال : يا أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له إن شاء اللّه تعالى والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء اللّه تعالى ولا يدع قوم الجهاد فى سبيل اللّه إلا قوم ضربهم اللّه بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى يوم قط إلا عمهم اللّه تعالى بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت اللّه ورسوله فإذا عصيت اللّه ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللّه .

ففى هذه الخطبة الموجزة الفصيحة البليغة قرر أبو بكر بيعة المسلمين له فى تواضع كامل ، حيث قال : قد وليت عليكم ولت بخيركم ، وقابل فيها الإحسان بالإساءة ، وطالب بايعيه بإعانته فى حال إحسانى فى حكمهم وإدارة شؤونهم ، وبتقويمه وتسديده فى حال خطئه وإساءته كما أعلمهم أن القوى والضعيف أمام الحق متساويان ، وأنه لا بد من إنصاف القوى من الضعيف مهما كانت قوة القوى وضعف الضعيف ، وأعلن مبدأ الجهاد وقرره ودعا إلى القيام به ، وحذر من الخيانة والفساد والشر وختم خطابه بتقرير مبدأ البقاء للإصلاح بقوله : « أطيعونى ما أطعت اللّه ورسوله فيكم ، فإن عصيت اللّه ورسوله فلا طاعة عليكم » ، فاشتمل خطابه على دعائم سياستة وخطط حكمها فضرب بذلك

المثل واستلم من يومئذ القيادة وساس الأمة بما رسم من خطوط فكان أشبه بنبى فى أمة بعد نبيها محمد ﷺ .

وفاته رضى اللّه عنه :

ولم تكتمل الثلاث سنوات التى تولى فيها أبو بكر الصديق المسلمين حتى وافاه أجله فتوفى فى بيته نتيجة مرض لازمه قرابة نصف شهر ودفن بجوار نبيه وحبيبه ولحقت روحه بالرفيق الأعلى فسلام اللّه عليه ومغفرته ورضوانه .

أخرج الحاكم عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت : كان أول بدء مرض أبى بكر أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوما بارداً فحم خمسة عشر يوما لا يخرج فيها إلى صلاه ، وتوفى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وله ثلاث وستون سنة فرضى اللّه عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه .

عمر بن الخطاب

إن كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه الأول فى سلسلة الدعاة الصالحين فى هذه الأمة بعد نبيها ﷺ فإن عمر بن الخطاب يكون الحلقة الثانية من تلك السلسلة فهو أفضل هذه الأمة وأكرمها على ربه تعالى بعد أبى بكر الصديق ، ولا نزاع ، فمن هو عمر يا ترى ؟ وما هى مظاهر كماله التى يقتدى به فيها ، وهو أنموذج من الدعاة الصالحين ؟

وفى الجواب نقول : إن عمر بن الخطاب هو الفاروق ثانى الخلفاء الراشدين ، والده نفيل بن عبد العزى بن رياح بن فرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى العدوى القرشى ، يكنى أبا حفص ، ولقبه الفاروق لأن الله تعالى فرق بإسلامه بين الحق والباطل من السابقين الأولين ، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، وأسلم فى السنة السادسة من البعثة المحمدية ، تقدم إسلامه فلم يسلم قبله إلا أربعون رجلاً وإحدى عشرة امرأة ومن مميزاته أنه قرشى شغل سفارة قريش فى الجاهلية ، أعز الله تعالى بإسلامه الإسلام ، بشر بالجنة وشهد له بها رسول الله ﷺ فى حياته ، وصاهر رسول الله ﷺ حيث زوجه ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وكان ثانى الخلفاء الراشدين الأربعة ، وله أوليات سما به عن غيره وفاز بها دون سواه منها :

إنه أول من سمى بأمير المؤمنين ، وأول من وضع التاريخ الهجرى ، وأول من اتخذ بيت المال ، وأول من سن قيام شهر رمضان وأول من عس بالليل ، وأول من عاقب على الهجاء ، وأول من جلد فى الخمر ثمانين جلده ، وأول من اتخذ الدرة وكانت أهيب من سيف ، وأول من اتخذ الديوان ، وأول من فتح الفتوح ، ومصر الأمصار وبرد البريد ، وله أوليات غير هذه فحسبنا منها ما ذكرنا .

ومن مظاهر كمالات عمر التى يقتدى به فيها ما يلى :

١ ـ شجاعته :

إن عمر كان مضرب الأمثال فى الشجاعة القلبية والعقلية معا ، والأحداث التالية تجلى لنا حقيقة شجاعة عمر وتظهرها كما هى آية فى بابها لا يشك فيها ولا يرتاب .

أ ـ **إعلان إسلامه** : فقد روى أنه لما أراد الله إسلامه خرج إلى المسجد الحرام ليلا وقد ضرب أخته المخاض فدخل فى أستار الكعبة ـ لعله يدعو الله تعالى أن يخفف عن أخته ويسهل أمر ولادتها فجاء رسول الله ﷺ فدخل الحجر فصلى ما شاء الله أن يصلى ثم انصرف ، قال عمر : فسمعت ـ يعنى من قراءة رسول الله شيئا لم أسمع مثله ، فخرج ، قال : فاتبعته ، فقال من هذا ؟ فقلت : عمر ، فقال يا عمر : ما تدعنى لا ليلا ، ولا نهارا فحسبت أن يدعو على ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقال يا عمر : أسره يعنى أمر إعلان شهادته وإسلامه ، فقلت : لا ، والذى بعثك بالحق لأعلننه كما أعلنت الشرك . فلهذه الرواية وهى إحدى روايات وردت فى إسلام عمر رضى الله عنه تدل على شجاعة عمر القلبية والعقلية معا ، فقد أقسم أن يجاهد بعقيدته الإسلامية ولا يبالى بمن ينتقده فيها ولا بمن يؤذيه من أجلها .

ب ـ **إعلانه عن هجرته** : فقد روى أن المؤمنين لما كانوا يهاجرون من مكة يخرجون منها متسللين مختفين خشية أن يعلم بهم المشركون فيردوهم ويفتنوهم إلا عمر لما أراد الهجرة فإنه أعلن عن هجرته .

أخرج ابن عساكر عن على رضى الله عنه قال : ما علمت أحدا هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهما ، وأتى الكعبة وأشرف قريش بفنائها فطاف سبعاً ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة فقال : شاهت الوجوه من أراد أن تثكله أمه ويتم [1] ولده ، وترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى ، فما تبعه منهم أحد .

جـ ـ **شهوده مع رسول الله ﷺ المشاهد الحربية كلها** فلم يتخلف عن غزاة غزاها رسول الله ﷺ قط ، وكان ممن ثبت معه يوم أحد فدل هذا على شجاعة عمر التى هى مضرب الأمثال ، ومناط قدوة للرجال والأبطال .

٢ ـ زهده :

إن الزهد فى الدنيا والإعراض عن طلب زينتها والعزوف عن شهواتها دلالة على كمال إيمان المرء ورجاحة عقله ، إذ الدنيا حقيرة ، وزينتها خداع وشهواتها آلام تدفع بآلام

---

(١) يتم من باب ضرب وعلم .

أشد منها وفى الحديث : « لو كانت الدنيا تساوى جناح بعوضة لما سقى الكافر منها جرعة ماء » .

وفى القرآن الكريم : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ (١) .

ومن هنا كان أكمل الناس إيمانا وأرجحهم عقلا من عزف عن الدنيا ، وترفع عنها ، واستهان بشهواتها وتخلى عنها إلا ما كان بلاغا لا بد منه .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه كان مثلا ناطقا فى هذا الباب ، وباستعراضنا لمواقفه التالية تتأكد هذه الحقيقة عندنا ، ويثبت زهد عمر لدينا .

ذكر السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء الراشدين أن ابن سعد أخرج أن حفصة وعبد الله ابنى عمر وغيرهما كلموا عمر : فقالوا : لو أكلت طعاما طيبا كان أقوى لك على الحق ؟ قال : أكلكم على هذا الرأى ؟ قالوا : نعم ، قال : قد علمت نصحكم ، ولكنى تركت لعل الصواب تركنى صاحبى على جادة ، فإن تركت جادتهما لم أدركهما فى المنزل .

وذكر القرطبى فى تفسيره عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن عمر رضى الله عنه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا ، ولكنى ستبقى طيباتى للآخرة ، قال : ولما قدم عمر الشام صنع له طعام لم ير قط مثله ، قال : هذا لنا ؟ فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير ؟ !

فقال : خالد بن الوليد : لهم الجنة ، فاغرورقت عينا عمر بالدموع ، وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام ، وذهبوا هم فى حظهم بالجنة ، فلقد باينونا بونا بعيدا .

وذكر ابن سعد عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : رأيت بين كتفى عمر أربع رقاع فى قميصه . وذكر ابن سعد أيضا أن عثمان النهدى قال : رأيت على عمر إزارا مرقوعا بأدم ، وقال : وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة حججت مع عمر فما ضرب فسطاطا ولا خباء كان يلقى الكساء على الشجرة ويستظل تحته ، وقال : قال عبد الله بن عيسى : كان فى وجه عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء .

---

(١) الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥ .

والذى ينبغى أن يذكر هنا ونحن نستعرض زهد عمر من خلال ذكريات حياته الخالدة فى عالم الفضائل والكمالات أن زهد عمر قد تلقاه دروسا عملية من سيد الزاهدين كلهم محمد بن عبد الله ﷺ ، وهذا مسلم يروى لنا الرواية التالية فيقول : إن عمر رضى الله عنه دخل على النبى ﷺ وهو فى مشربته حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئا يرد البصر إلا أهبا جلودا معطونة قد سطع ريحها ، فقلت يا رسول الله : أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر فى الديباج والحرير ؟ قال : فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : استغفر لى ، فقال : « اللهم اغفر له » . فبمثل هذا الدرس النبوى تشبعت روح عمر بمعانى الكمال وأصبح عمر فى ذلك نعم المثال .

٣ ـ عدله :

إن عدل عمر قد طبقت لشهرته الآفاق ، وما هناك من المسلمين من يذكر لديه عمر ولم يذكر عدله فى أمة رسول الله ﷺ يوم استخلف عليها حتى كان لفظ العدل مقرونا فى ذهن كل مؤمن بابن الخطاب رضى الله عنه ، وكعدله لشدته فى الحق وعدم تساهله في شيء منه ، ولنذكر بعض مظاهر عدل عمر وشدته فى الحق ، ذكر ابن سعد عن الأحنف بن قيس قال : كنا جلوسا بباب عمر رضى الله عنه فمرت جارية فقالوا : هذه سرية أمير المؤمنين ، قال عمر : ما هى لأمير المؤمنين بسرية ،ولا تحل له ، إنها من مال الله تعالى ، فقلنا : ماذا يحل له من مال الله تعالى ؟ قال : ألا لا يحل لعمر من مال الله تعالى إلا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما أحج به واعتمر ، وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين ، وقال خزيمة بن ثابت رضى الله عنه : كان عمر إذا استعمل عاملا كتب له واشترط عليه أن لا يركب برذونا ، ولا يأكل فقيا ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون ذوى الحاجات ، فإن فعل فقد حلت عليه العقوبة .

وروى عن ابن جرير قال : أخبرنى من أصدقه أن عمر بينما هو يطوف عاسا متفقدا أحوال الناس ليلا سمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه … وأرقنى أن لا خليل ألاعبه

فوا الله لولا الله تخشى عواقبه … لزحزح من هذا السرير جوانبه

فقال عمر : مالك ؟ قالت : أغزيت زوجى منذ أشهر ، وقد اشتقت إليه ، قال : أردت سوءا ؟ قالت : معاذ الله ! فقال : فأملكى عليك نفسك فإنما هو البريد إليه .

فبعث إليه ثم دخل على حفصة فقال : إنى أسائلك عن أمر قد أهمنى فأفرجيه عنى ، كم تشتاق المرأة إلى زوجها ؟ فخفضت حفصة رأسها واستحت ، فقال لها عمر : إن الله لا يستحى من الحق ، فأشارت بيدها ثلاثة أشهر ، وإلا فأربعة أشهر ، فكتب عمر أن لا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر .

وروى أن أبا موسى الأشعرى وكان عاملا لعمر رضى الله عنهما ، وأنه أعطى يوما رجلا من رجاله بعض سهمه فرفض أن يقبله ، فجلده أبو موسى عشرين سوطا ، جز شعر رأسه عقوبة له ، فأخذ الرجل شعره وأتى عمر فشكا إليه ما لقى من عامله أبى موسى رضى الله عنه فكتب عمر إلى أبى موسى : سلام عليك ، أما بعد : فإن فلانا أخبرنى بكذا وكذا فإن كنت فعلت ذلك فى ملأ من الناس فعزمت عليك لقعدت له فى ملأ من الناس حتى يقتص منك ، ، وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس ، فقدم الرجل على أبى موسى وتعاظم الناس الأمر ، وقالوا له : اعف عنه ، فقال الرجل : لا والله ، لا أدع حقى لرجاء أحد من الناس ، فلما قعد أبو موسى للقصاص رفع الرجل رأسه إلى السماء ، ثم قال : اللهم إنى قد عفوت .

ومثل هذه الحادثة وهى من أكبر مظاهر العدل فى الحكم حادثة المصرى الذى سابق ابنا لعمرو بن العاص والى مصر على عهد عمر رضى الله عنه فقد شكا المصرى إلى عمر وقال له : إن الوالى أجرى الخيل وسابقنى ابنه فسبقته ، فغضب ابنه محمد بن عمرو ووثب على يضربنى بالسوط ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين ، فبعث عمر إلى عمرو وابنه محمد ، فقدما إليه من مصر ، فأجلسهما عمر فى مجلس القصاص ، ونادى عمر قائلا أين المصرى وأعطاه الدرة وقال له : اضرب ابن الأكرمين ، فضربه المصرى حتى أخذ حقه منه ، ثم قال عمر بن الخطاب : اجعلها على صلعة عمرو ، فو الله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه . فقال المصرى : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى ، فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ، ثم التفت إلى عمرو قائلا فى غضب : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ؟

ومن مظاهر العدل الشورى ، وقد عرف عمررضى الله عنه بما لا مجال للشك فيه

أنه كان يستشير أصحابه ويعرض عليهم كل ما يهمه من أمر المسلمين إذا التبس عليه ، ويسترشد بآرائهم ، ويأخذ بما يراه أقرب إلى الحق والصواب في كل ما يشبه عليه من الأمور ويختلط .

والرواية التالية تمثل نموذجا لما يراه عمر فى الشورى ويؤمن به ، روى أنه قال لأصحابه يوما : دلونى على رجل أستعمله على أمر قد أهمنى قالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريد ؟ قال : أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذاكان أميرهم كان كأنه رجل منهم ، قالوا : ما نعرف هذه الصفة إلا فى الربيع بن زياد الحارثى قال : صدقتهم فولاه ، ،

وروى أن أهل الكوفة قدموا يوما يشكون أميرهم سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم فقال : من يعذرنى من أهل الكوفة إن وليتهم التقى ضعفوه [1] وإن وليتهم القوى فجروه [2] فقال المغيرة بن شعبة : يا أمير المؤمنين : إن التقى الضعيف له تقواه ولك ضعفه ، وإن القوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره ، قال : صدقت أنت القوى الفاجر فاخرج إليهم .

٤ ـ علمه :

إن علم عمر بن الخطاب كان مسلما به بين علماء الصحابة رضوان الله عليهم ولو اكتفينا بقول على رضى الله عنه فيه : إذ ذكر الصالحون فحيهلا بعمر ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر ، أخرجه الطبرانى فى الأوسط لكفانا دليلا على علم عمر ، ولو طلبنا شهادة على علم عمر لكفتنا شهادة عبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، إذ قال الأول : لو أن علم عمر وضع فى كفة ميزان ، ووضع علم أحياء الأرض فى كفة لرجح علم عمر بعلمهم ، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم أخرجه الطبرانى فى الكبير . وقال الثانى : أى حذيفة رضى الله عنه : كان علم الناس مدسوسا فى حجر عمر .

وليس إدل على علم عمر رضى الله عنه من موافقاته للقرآن الكريم تلك الموافقات

---

(١) ضعفوه : جعلوه ضعيفا بالاحتيال عليه والخروج عن طاعته أو نسبوه إلى الضعف فيكون كاستضعفوه أى نسبوه إلى الضعف وهو العجز .

(٢) فجوره : نسبوه إلى الفجور وهى ارتكاب المعاصى وأصله الميل عن القصد والعدول عن الحق .

التى يرى فيها عمر الرأى فينزل القرآن بموافقته فيمارآه وتقريره ومن ذلك أسرى بدر إذ رأى قتلهم ، ورأى غيره فداءهم فنزل قول الله تعالى : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ (١) .

ومنه رأيه فى احتجاب نساء الرسول حيث قال للرسول ﷺ : لو أمرت أمهات المؤمنين أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب : ﴿ **فإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ (٢) .

ومنه رأيه فى الصلاة ، خلف المقام وإشارته بذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ (٣) .

ومنه قوله لما تمالأ بعض نساء الرسول ﷺ لغيرتهن فاعتزلهن رسول الله ﷺ : يا رسول الله : ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن ، فإن الله معك والملائكة ، وجبريل وميكائيل ، وأنا ، وأبو بكر ، والمؤمنون معك ، فأنزل الله تعالى قوله :﴿ **عسى ربه إن طلقكن** .... ﴾ (٤) ، الآيتين .

والذى عرف إيمان عمر وتقواه لم يشك فى علمه أبدا ، لأن العلم نور يقذفه الله فى قلوب عباده المؤمنين المتقين ، فليس هو بكثرة الرواية ولا بكثرة الدرس والتحصيل كما يقولون ، وتلك الفراسة القوية التى أوتيها عمر وشهد بها رسول الله ﷺ فى قوله : « لو كان فى أمتى محدثون لكان منهم عمر وشهد بها ابنه عبد الله حيث قال : ما قال أبى فى شىء أظنه كذا ، ، إلا كان كما ظن ما هى إلا من نور علمه وصفاء روحه ، وقوة يقينه .

فعن هذه الثلاث مكتمله تتولد الفراسة ويعظم الفرقان فيصبح صاحبها يقول فلا يخطىء ، ويظن فلا يكذب ، وما أحوج الداعى إلى الله تعالى إلى مثل علم عمر وإيمانه وقوة يقينه ليحظى بالفرقان ويظفر بالفراسة فينجح فى دعوته ، ويصل إلى أقصى ما يريده لها من الذيوع والانتشار .

٥ ـ تواضعه :

إن تواضع عمر رضى الله عنه ليس مقصورا على خدمة الأرامل ، وضعفه المسلمين ، ولا على أكله الخشن ولباسه الخشن ، فإن وراء ذلك ما هو أعظم إنه معرفة الحق والخضوع

---

(١) الأنفال : ٦٨ .　　(٢) الأحزاب : ٥٣ .　　(٣) البقرة : ١٢٥ .　　(٤) التحريم : ٥ .

له وقبوله ممن يقوله ويدعوه إليه ولنكتف في ذلك بالرواية التالية : خطب عمر الناس يوما فنهى في خطابه عن التغالى فى المهور فقامت امرأة فقالت : يا عمر أنصدقك أم نصدق قول الله تعالى ؟ وفى لفظ : أيعطينا الله وتمنعنا يا عمر يقول الله تعالى : ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا** ﴾ (١) فقال عمر : صدق الله وكذب عمر ، وأصابت المرأة وأخطأ عمر ، وفى رواية كل الناس أفقه منك يا عمر .

٦ ـ سياسته وقضاؤه :

إن سياسة عمر الرشيدة السديدة التى كان من آثارها الفتوحات العظيمة ، إذ تم على عهد حكمه فتح العراق وفارس والشام وفلسطين ومصر ، وازدهرت على عهده البلاد الإسلامية ازدهاراً لم تزدهر قبله ولا بعده مثله أبداً ، فعز الإسلام والمسلمون ، ونعمت أمة الإسلام بالأمن والرخاء فى كل ديارها ، ومن هنا لم تصبح بنا حاجة إلى ذكر نماذج من أوجه سياسته لأمة الإسلام التى حكمها بإذن الله عمر رضى الله عنه .

أما قضاؤه فحسبنا أن نستعرض له كتابه إلى أبى موسى الأشعرى حيث جمع فيه أصول القضاء وقواعده ، وأتى فيه بما لم يعرفه القضاء فى أى عصر من عصور الأمة الإسلامية خلا عهد رسول الله ﷺ ، وخليفته أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهذا نص الكتاب فلنقرأ متمليه متأملين فيه ، فإنه لوحة مشرقة فى القضاء ، ودستور خالد للقضاه فى دنيا المسلمين ، قال رضى الله عنه : أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة فعليك بالعقل والفهم وكثرة الذكر ، فافهم إذا أدلى إليك الرجل بالحجة ، فاقض إذا فهمت ، وأمض إذا قضيت فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على المدعى واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، وحرم حلالاً ومن ادعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمداً ينتهى إليه ، فإن جاء ببينة أعطيته حقه وإلا استحللت عليه القضية ، فإن ذلك أبلغ فى العذر وأجلى للعمى ، ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق

---

(١) النساء : ٢٠ .

خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم فيما يختلج فى صدرك مما ليس فى كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ثم اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى اللّه تعالى وأشبهها بالحق ، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو نسب أو قرابة ، فإن اللّه تولى منكم السرائر وأدرى بالبينات والإيمان ، وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس عند الخصومة ، والتنكر عند الخصومات ، فإن القضاء عند مواطن الحق يوجب اللّه تعالى به الأمر ، ويحسن به الذكر فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه اللّه تعالى ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما ليس فى قلبه شانه ، لأن اللّه تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً .

فما ظنك بثواب من اللّه فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام .

٧ ــ وفاته رضى اللّه عنه :

إن وفاة عمر قد يستغربها المرء إلى حد الإنكار لولا أن أمرها أصبح بين المسلمين من الضروريات التى لا يختلف فيها الإنسان ، مع الإنسان وذلك التواتر العظيم الذى تم لها ، ووجه الغرابة فيها أن عمر الخليفة العادل والإمام الراشد والأمير الصالح الذى أحبه كل المسلمين ، ولم يبغضه حتى الكافرون يموت قتيلاً فى عاصمة الإسلام ، بل فى محراب الصلاة ، والمسلمون يصلون وراءه وهم مئات أو ألوف .

ولكن الذى تبلغه دعوة عمر لنفسه بأن يموت شهيداً بالمدينة المنورة ويعلم استجابة اللّه دعاء أوليائه يبطل استغرابه وينتهى إنكاره فقد صح عنه رضى اللّه عنه أنه كان يسأل اللّه تعالى فيقول : اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ووفاة فى بلد نبيك .

واستجاب اللّه لعمر دعوته وحقق له أمنيته ، ففى يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، طعن عمر رضى اللّه عنه وهو يصلى فى المحراب ، طعنه أبو لؤلؤة المجوسى غلام للمغيرة بن شعبة وبقى يعالج تلك الطعنة حتى توفاه اللّه ، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين هجرية فى مثواه الأخير فى حجرة عائشة مع رسول اللّه ﷺ ، والصاحب الصديق أبى بكر رضى اللّه عنه وكان لوفاة عمر من الآثار السيئة على الإسلام والمسلمين ما يعجز المرء عن ذكره والقلم عن حصره ، إذ كانت حياة عمر بابا مغلقاً دون الفتن وبموت عمر انكسر الباب ، وما جت الفتن ، فلم تزل

بالمسلمين إلى يومنا هذا كما جاء ذلك فى صحيح البخارى إذ جاء فيه قول عمر : أيكم يحفظ قول النبى ﷺ فى الفتنة ؟ قال حذيفة : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره ، تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال : ليس عن هذا أسألك ، ولكن التى تموج كموج البحر ، قال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال : بل يكسر ، قال عمر : إذا لا يغلق أبداً ، قلت : أجل ، وسئل حذيفة هل كان عمر يعلم أنه الباب ؟ قال : نعم كما أن دون غد ليلة .

عثمان بن عفان

في سلسلة الدعاة الذهبية يأتى النموذج الثالث وهو عثمان بن عفان الخليفة الراشد رضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه .

نسبه :

فمن هو عثمان بن عفان ؟ إنه عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى ، الأموى المكنى بأبى عمرو ، والملقب بذى النورين ، صاحب رسول الله ﷺ ، مجهز جيش العسرة المبشر بالجنة على بلوى إصابته .

فضائله :

إن لذى النورين عثمان بن عفان من الفضائل والكمالات ما لم يكن لغيره من كثير من الدعاة الصالحين ونماذجهم ، بيد أن الفضائل والكمالات التى هى مجرد عطاء إلهى لا دخل للمرء فى كسبها والحصول عليها لا نحب أن ـ نستعرضها إلا لماما لأن الائتساء بها لا يتأتى للمرء وإنما الائتساء يكون فى الفضائل والكمالات النفسية التى جرت سنة الله تعالى باكتسابها والحصول عليها بواسطة الرياضة والجد والعمل ومن فضائل عثمان التى لا مطمع للمرء فى الحصول عليها ، أنه ختن رسول الله ﷺ تزوج اثنتين من بناته هما : رقية ، وأم كلثوم ، فقد زوجه النبى ﷺ فى الجاهلية ابنته رقية وأسلم وهاجر فهاجرت معه ، وتوفيت أيام وقعة بدر ، فزوجه رسول الله ﷺ بعدها أم كلثوم رضى الله عنها ، فتم له أن تزوج بنتين من بنات النبى ﷺ ، الأمر الذى قالت فيه العلماء : إنه لم يتفق لأى إنسان فى هذه الحياة أن تزوج بنتى رسول قط إلا عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ومن فضائله الذاتية التى لا مجال للقدوة فيها أنه كان أجمل رجل فى هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ، فقد أخرج ابن عساكر عن عبد الله بن حزم المازنى رأيت عثمان بن عفان فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أحسن وجهاً منه !!

ومن فضائله غير المكتسبة استحياء الملائكة منه ورسول الله ﷺ فقد أخرج الشيخان

أن النبى ﷺ جمع ثيابه وغطى ساقيه لما دخل عليه عثمان وقال : « ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة » !!

أسبقيته :

لقد أسلم عثمان وحسن أسلامه فى أول من أسلم حيث لم يسلم قبله من رجال قريش إلا أبو بكر الصديق ، فكان رابع أربعة من المسلمين إذ أسلم قبله زيد ، وعلى ، وأبو بكر الصديق ، أسلم بدعوة الصديق فكان من السابقين الأولين .

وهاجر أول من هاجر إلى الحبشة من المسلمين فكان أول المهاجرين رضى اللّه عنه وأرضاه ، وفى هجرته يقول رسول الله ﷺ : صحبهما اللّه ، إن عثمان أول من هاجر إلى اللّه بأهله بعد لوط .

فمبادرته إلى الإسلام وإلى الهجرة تدل على كمال عقله ورجاحته ، وكذلك كان رضى اللّه عنه من أرجح أصحاب رسول اللّه ﷺ عقلاً ، ومن أزكاهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، وأسماهم خلقاً .

صلابته فى دينه ، وصدقه فى إيمانه :

لقد كان عثمان رضى اللّه عنه ذا صلابة فى دينه ، صادقاً فى إيمانه الأمر الذى كان فيه مثالا يحتذى وإماماً به يقتدى _ ولنذكر مثالين لذلك بهما تنكشف لنا هذه الحقيقة :

الأولى : فقد أخرج ابن سعد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى قال : لما أسلم عثمان بن عفان أخذ عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطاً ، وقال له : ترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟ واللّه لا أدعك أبداً حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه وحل وثاقه فصبره رضى اللّه عنه على الوثاق وما يتبعه من حرمان وهو من هو فى قومه شرفاً وعزاً ورفاهة عيش وحسن حال دال على قوة إيمانه وصلابته فيه .

والثانية : أنه لما داهم المدينة الغوغاويون من مصر مطالبين الخليفة بعزل والى مصر والقصاص منه حيث قتل رجلاً منهم ظلماً ، وهاجت الفتنة فى المدينة ، ودخل عثمان بيته فكان لا يقدر على الخروج منه دخل عليه المغيرة بن شعبة فقال له : إنك إمام العامة ، وقد نزل بك ما ترى وإنى أعرض عليك خصالاً ثلاثاً : إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عدداً

وقوة ، وأنت على الحق وهم على الباطل ، وإما أن نخرق لك باباً سوى الباب الذى هم عليه فتقعد على راحلتك فتلحق بمكة ، فإنهم لن يستحلوك وأنت بها ، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام ومعهم معاوية ، فقال رضى اللّه عنه : إما أن أخرج فأقاتل فلن أكون أول من خلف رسول اللّه ﷺ فى أمته بسفك الدماء ، وإما أن أخرج إلى مكة فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول « يلحد رجل من قريش بمكة عليه نصف عذاب العالم » فلن أكون أنا ، وإما أن ألحق بالشام فلن أفارق دار هجرتى ومجاورة رسول اللّه ﷺ ، فرفض عثمان كل هذه المقترحات براً محتسباً ، لأن رسول اللّه ﷺ قال له يوماً : « يا عثمان إنه لعل اللّه يقمصك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى وكذلك كان ، أراده المنافقون أن يخلع نفسه من إمارة المسلمين ، وهى القميص ، فلم ير ذلك وصبر للبلاء حتى لقى اللّه تعالى شهيداً مخضباً بدمه فى منزله بجوار رسول اللّه ﷺ ، فرضى اللّه عن عثمان وأرضاه .

سخاؤه وكرمه :

إن السخاء والكرم من صفات الكمال فى الداعى ، وقد لا يعثر على داعية إسلامى كان عارياً من صفة السخاء والكرم ، إذ ضدهما الشح والبخل وهما من عوائق الدعوة ، إذ الناس بفطرتهم لا يؤثر فيهم إلا من يكرمهم ويسخو عليهم ، أما من يهينهم ويبخل عليهم فلا يستجيبون له نداء ، ولا يقبلون منه دعوة .

وعثمان بن عفان ذو النورين وهو أحد الدعاة الصالحين كان كريماً سخياً لم يلمز بشح ، ولم يطعن فيه ببخل فوصله لأرحامه وصلته لأقاربه مما نقمه عليه كثير ، وكان سبب تلك الفتنة التى أودت بحياته رضى اللّه عنه ، وإن طلبنا شاهداً على سخاء عثمان وكرمه فإنا لا نجد خيراً من تجهيزه لجيش العسرة ، وتسبيله بئر رومه ، فقد أخرج الترمذى عن عبد الرحمن بن خباب : قال : شهدت النبى ﷺ وهو يحث على جيش العسرة ، فقال عثمان ابن عفان : يا رسول اللّه : على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل اللّه ! ثم حظى على الجيش ، فقال عثمان يا رسول اللّه : على مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل اللّه ! ثم حظى على الجيش ، فقال عثمان يا رسول اللّه : على ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله فنزل سول اللّه ﷺ وهو يقول : « ما على عثمان ما عمل بعد هذه شىء » !!!

وأخرج الترمذى عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف

دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره ، فجعل رسول اللّه ﷺ يقلبها ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » مرتين .

وكتجهيزه جيش العسرة حفره بئر رومه ، فقد أخرج البخارى عن أبى عبد الرحمن السلمى أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم فقال : أنشدكم باللّه ولا أنشد إلا أصحاب رسول اللّه ﷺ ، ألستم تعلمون أن رسول اللّه ﷺ قال : « من جهز جيش العسرة فله الجنة » ألستم تعلمون أن رسول اللّه ﷺ قال : « من حفر بئر رومه فله الجنة » فحفرتها ، فصدقوه بما قال .

سياسته :

كان قد غلب على عثمان طابع التقوى والرفق واللين فكان فى هذا الجانب من أقوى أصحاب رسول الله ﷺ وناهيك بالشهادات التالية : قالت عائشة لما بلغها مقتل عثمان ، قتلوه وأنه والله لأوصلهم للرحم وأتقاهم للرب ، وهو أحد المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وقال فيه عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضى الله عنه : رحم الله أبا عمرو وكان والله أكرم الجعدة وأفضل البررة ، هجادا بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهاضا عند كل مكرمة ، حييا أبيا وفيا صاحب جيش العسرة وختن رسول الله ، وقال فيه غير واحد : إنه كان طيب النفس حليما متواضعا رفيقا بالناس ، قال فيه المسعودى : كان عثمان فى نهاية الجود والكرم والسخاء والبذل فى القريب والبعيد .

فغلب جانب الورع والتقوى والحلم والكرم جانب السياسة والحزم والدهاء فلذا كان ضعيفا فى سياسة ، قال فيه بعضهم كان عثمان بن عفان شيخا كبيرا ضعيف الإرادة فلم يستطع الاضطلاع بأعباء الحكم رغم نزاهته وفضائله رضى الله عنه الكثيرة ، وقد أثار بسياسة الضعف التى سار عليها مع انحيازه إلى ذوى القربى ومحاباتهم كراهة بعض الناس من أهل المدينة ومن غيرهم من أهل الأمصار مما جر عليه تلك الفتنة التى انتهت بقتله ، وما انتهت فى الحقيقة إلى اليوم إذا كانت بداية ولم تكن لها نهاية ، والله غالب على أمره ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ومع ضعف سياسة عثمان رضى الله عنه فقد كانت خلافته خيرا وبركة على المسلمين ، فقد شهد المسلمون على عهده من الأموال والخيرات وكثرة الفتوحات ما لم يشهدوه فى خلافة من قبله ولا من بعده ، ويكفى من ذلك فتح إفريقيا والذى كان خطوة أولى إلى فتح بلاد الأندلس .

علمه رضى الله عنـه :

أما علم عثمان فكان علماً غزيراً ، كتب للرسول ﷺ ، واتخذه سفيرا بينه وبين قريش فى صلح الحديبية ، واستخلفه على المدينة فى غزوته ذات الرقاع ، وقد روى له ستة وأربعون حديثا ومائة ، ويكفيه علما حفظه كتاب الله وهى منقبة اختص بها إذ لم يجمع القرآن من الخلفاء الراشدين سواه ، وكذا من الخلفاء غيرهم مما جاء بعدهم إلا المأمون ابن هارون الرشيد فإنه كان جامعا للقرآن حافظا له ، ومن حفظ القرآن من أولئك البررة السابقين كمن أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه.

كـرامـاتـه :

إن لكل ولى كرامة عند الله ، وكيف لا يكرم الله وهو ذو الكرم والفضل أولياءه وما يكرم به الله أولياءه من الكرمات أنواع ، منها الدعوة المستجابة ومنها أن يثار الله تعالى ممن أذى وليه وعاداه ، ومن كرامات عثمان على ربه تعالى ما أخرجه أبو النعيم فى الدلائل عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن جهجاه الغفارى قام إلى عثمان وهو على المنبر يخطب فأخذ العصا من يده فكسرها على ركبته ، فما حال الحول على جهجاه حتى أرسل الله فى رجله الأكلة فمات منها، ومنها ما أخرجه ابن عساكر عن يزيد بن حبيب قال : بلغنى أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان عامتهم جنوا ، والعياذ بالله تعالى .

وفـاته رضى اللـه عـنه :

قضى عثمان رضى الله عنه اثنتى عشر سنة فى خلافة المسلمين منها ست سنوات لم ينقم المسلمون فيها عليه شيئا أبدا ، بل كان فيها أحب إلى قريش من عمر بن الخطاب، قال الزهرى : لأن عمر كان شديدا عليهم فأما عثمان فلان لهم ووصلهم .

وبعد الست سنوات الأولى توانى عثمان رضى الله عنه واستعمل أقرباءه على الأمصار ، وعزل كثيرا من أصحاب رسول الله ﷺ من غير أقرباءه ، قال الزهرى : وكتب لمروان بخمس أفريقية ، وأعطى أقرباءه وأهل بيته المال، وتأول فى ذلك الصلة التى أمر الله بها ، وقال : إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما ، وإنى أخذته فقسمته فى أقربائى ، فأنكر الناس عليه ذلك ، وفى السنة الأخيرة من خلافته وهى سنة خمس وثلاثين كثرت شكاوى أهل الأمصار ، ولا سيما أهل مصرمن ولاتهم ، وكانوا يطلبون من عثمان أن يعزلهم فلا يعزلهم ، وجاء أهل مصر يشكون وليهم الأموى ابن أبى سرح ، فكتب إليه

عثمان كتابا هدده فيه طالبا منه أن يكف عن الرعية ظلمه ، فلم ينته ابن أبى سرح عما نهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان حتى قتله ، وعندئذ تجمع كثير من الغوغاوين وأوباش الناس وجاءوا إلى المدينة وطالبوا الخليفة بخلع ابن أبى سرح فاستجاب لهم وخلعه ، وولى محمد بن أبى بكر الصديق بدله وكتب إليه كتاب العهد وأمره أن يتوجه إلى مصر ، فسار محمد بن أبى بكر الصديق إلى مصر فى ركب من الناس وفى أثناء الطريق شاهدوا غلاما أسود على بعير يخبطه خبطا كأنه طالب أو مطلوب فرا بهم أمره فأوقفوه وسألوه من أنت ؟ فمرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين ، ومرة يقول : أنا غلام مروان ، فقال له محمد بن أبى بكر : إلى من أرسلت ؟ قال : إلى عامل مصر ، قال : بماذا ، قال : برسالة ، قال : معك كتاب ؟ قال : لا ـ ففتشوه فوجدوا الكتاب فى أداوة قد يبست فنقوها وأخرجوا الكتاب فاجتمعوا عليه وقرأوه ، وإذا فيه : إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل فى قتلهم ، وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيى ، واحبس من يجىء إلى يتظلم منك ليأتيك أمرى فى ذلك .

وبهذا رجع محمد بن أبى بكر ومن معه ، وكانوا قد ساروا ثلاثة أيام رجعوا إلى المدينة واجتمع عليهم الناس وقرأوا الكتاب على عثمان فأنكر أن يكون قد كتب به أو أمر بكتابته ، ثم اجتمع على ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعمار ، ونفر من الصحابة وكلهم يدرى ، ثم دخلوا على عثمان ومعهم الكتاب والغلام والبعير فقال له على : هذا غلامك ؟ قال : نعم ، والبعير بعيرك ؟ قال : نعم ، قال : فأنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ، ولا علم لى به ، قال على له : فالخاتم خاتمك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف يخرج غلامك ببعيرك ، وبكتاب عليه خاتمك لا تعلم به ؟فحلف بالله ما كتب هذا الكتب ولا أمر به ولا وجه الغلام إلى مصر قط ، وعرفوا أن الخط خط مروان ، وأنه هو الذى قام بهذه المؤامرة ، فطلبوا من عثمان أن يسلم إليهم مروان ، فخاف أن يقتلوه وعز عليه ذلك فأبى أن يسلمه إليهم ، ولا زم بيته معتصما فيه ومروان معه ، فحاصر الناقمون من الأمصار بيت عثمان وترك على ابنيه الحسن والحسين يحرسان الباب ، ويردان كل من يريد اقتحام المنزل على عثمان ، غير أن البغاة تسوروا الدار من منزل أحد الجيران ، ودخلوا عليه يتقدمهم محمد بن أبى بكر وأخذ بلحيته ، فقال له عثمان : والله لو أراك أبوك لساءه مكانك منى ، فتراخت يده ، وتركه وانصرف ، ودخل رجلان عليه فوجاءه حتى قتلاه ، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا ، وأخرج ابن عساكر أن الذى قتل عثمان رجل من أهل مصر أزرق أشقر يقال له : حمار ومن أحسن ما

رثى به عثمان من المراثى رضى الله عنه وأرضاه قول كعب بن مالك :

فكف يديه ثم أغلق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم ... عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل
فكيف رأيت الله صب عليهم ... العدواة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده ... عن الناس إدبار الرياح الجوافل

وكانت وفاة عثمان رضى الله عنه على ما قيل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة ، ودفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء بالبقيع ، على عمر نيف على الثمانين سنة ، فرضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه .

على بن أبى طالب رضى الله عنه

هـذا هـو الأنمـوذج الرابع والحلقة الأخيـرة من السلسلـة الثـانيـة لنماذج مـن دعـاة الصـالحين ألا وهـو أبو الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مأواه .

نسبه:

إن نسب على بن أبى طالب هو النسب الشريف لرسول الله ﷺ ، إذ هما أبناء العم فمحمد رسول الله هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، وعلى هو بن أبى طالب بن عبدالمطلب ، ومن هنا وبهذا وحيل على النسب الشريف إلى عدنان المنحدر من إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام .

وكنيته رضى الله عنه أبو الحسن ، أو أبو السبطين : الحسن والحسين ابنى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، بيد أن له كنية أخرى هى من أحب الكنى إليه ألا وهى : أبو تراب ، ولهذه الكنية سبب هو أنه خرج يوما مغاضبا لفاطمة رضى الله عنهما فأتى المسجد ونام فيه ، فجاء رسول الله ﷺ يطلبه فقالت له : لقد خرج مغاضبا فطلبه رسول الله ﷺ فوجده فى المسجد نائما والتراب قد علا بعض جسمـه ، فجعـل ﷺ ينفض التراب عنـه ويقول : قم أبا تراب ، فكانت تلك كنيته المفضلة لديه .

علمه:

إن من أهم جوانب حياة الداعية الإسلامى الجانب العلمى إذ العلم ضرورى للداعية المسلم وفى مثل هذا الجانب تكون الأسوة ، وعلى بن أبى طالب كان على جانب كبير من العلم والفقه فى دين الله تعالى وحسبه شهادة الرسول ﷺ له بقوله : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » أخرجه الترمذى والحاكم وهو حسن الإسناد، وليس كما قيل موضوعا ولا صحيحا ، لذا قال السيوطى فى تاريخه : ومن شعب العلم التى برز فيها على رضى الله عنه القضاء ، فقد كان أقضى أصحاب رسول الله ﷺ ، فقد شهد له بذلك عبد الله بن مسعود حيث قال : أفرض أهل المدينة وأقضاهم على بن أبى طالب . أخرجه ابن عساكر.

كما أخرج الحاكم قول ابن مسعود رضى الله عنه : كنا نتحدث ان أقضى أهل المدينة على .

وأخرج ابن سعد فى طبقاته عن ابن عباس قوله : كنا إذا حدثنا ثقة عن على بفتيا لانعدوها ، وكما أخرج عن عمر رضى الله عنه أنه كان يتعوذ من معضلة ليس فيها أبو الحسن ومن الأقوال المأثورة مشكلة ولا أبا حسن لها ، بل هو قول عمر رضى الله عنه .

ولا عجب أن يطول باع ابن أبى طالب فى العلم حتى لا يدانى أو يجارى وهو الصاحب الذى عرف رسول الله ﷺ وصاحبه من يوم نبى إلى أن قبض عليه الصلاة والسلام .

أخرجه الحاكم وصححه عنه رضى الله عنه قوله : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت يا رسول الله : بعثتنى وأنا شاب أقضى بينهم ولا أدرى ما القضاء ؟ فضرب صدرى بيده ، ثم قال : اللهم أهد قلبه ، وثبت لسانه ، فو الذى خلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين .

وهذه الرواية تكشف عن سر علم على وفقهه فى دين الله تعالى . وكعلمه الواسع بالقضاء علمه بالتفسير والأدب والحكمة .

فعن الأول نستشهد بما أخرج ابن سعد رضى الله عنه إذ قال : والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت ، وعلى من نزلت ، إن ربى وهب لى قلبا عقولا ، ولسانا صادقا ناطقا ، كما أخرج أيضا عن أبى الطفيل قال : قال على : سلونى عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد علمت بليل نزلت أم بنهار ، وفى سهل أم فى جبل .

ويشهد لهذين القولين : قوله رضى الله عنه فى الصحيح : ما خصنا رسول الله ﷺ نحن آل البيت بشىء إلا ما فى هذه الصحيفة أوفهما يؤتاه الرجل فى كتاب الله .

وعن الثانى والثالث نستشهد بالروايات التالية ــ أخرج أبو نعيم فى حليته عنه وقال : قال على رضى الله عنه : الحزم سوء الظن ، والقريب من قربته المودة وأن بعد نسبه والبعيد من باعدته العداوة ، وأن قرب نسبه ولا شىء أقرب من اليد إلى الجسد وأن اليد إذا فسدت قطعت ، وإذا قطعت حسمت .

وأخرج سعيد بن منصور فى سننه عنه رضى الله عنه أنه قال : خمس خذوهن عنى : ألا يخافن أحد منكم إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه ولا يستحى من لا يعلم أن يتعلم ، وإن

الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان ، وإذا ذهب الرأس ذهب الجسد . وقال : الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، ألا لا خير فى عبادة لا علم فيها ولا علم لا فهم معه ، ولا قراءة لا تدبر فيها .

سرعة بداهته وقوة حجته :

مما تميز به على بن أبى طالب بين أصحاب رسول الله ﷺ سرعة البداهة ، فقد كان يسأل عن المعضلات فيجيب بما هو شفاء فيها على البداهة بدون ترو ولا تفكر ، وكان ذا حجة قوية إذ قال أو خطب ، أو خاصم ونذكر لسرعة بداهته الحادثة التالية : ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب فى الجزء الثالث عند الكلام عن على رضى الله عنه قال : روى عن زر بن حبيش أن رجلين جلسا يتغديان مع أحدهما خمسة أرغفة ومع الآخر ثلاثة أرغفة ، فلما وضعا الغذاء بين أيديهما مر بهما رجل فسلم ، فقالا : اجلس للغذاء فجلس وأكل معهما واستوفوا فى أكلهم الأرغفة الثمانية ، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم وقال : خذا هذاعوضا عما أكلت لكما ونلته من طعامكما فتنازع الرجلان فى قسمة الدراهم الثمانية بينهما ، وقال صاحب الخمسة الأرغفة : لى خمسة دراهم ، وقال لصاحب الثلاثة : لك ثلاثة دراهم ، فأبى صاحب الثلاثة الأرغفة إلا أن تكون الدراهم بينهما نصفين ، فارتفعا إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وقصا عليه قصتهما ، فقال لصاحب الثلاثة الأرغفة :قد عرض عليك صاحبك ما عرض ، وخبزه أكثر من خبزك فارض بالثلاثة ، فقال : لا والله ، لا رضيت منه إلا بغير الحق ، فقال على رضى الله عنه ، ليس لك فى مر الحق إلا درهم واحد ، وله سبعة ، فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين ، وهو يعرض على ثلاثة فلم أرض ، وأشرب على بأخذها فلم أرض ، وتقول لى الآن : إنه لا يجب فى مر الحق إلا درهم واحد ، فقال له على : عرض عليك صاحبك الثلاثة صلحا فقلت : لم أرض إلا بمر الحق ، ولا يجب لك بمر الحق إلا واحد ، فقال الرجل : فعرفنى بالوجه فى مر الحق حتى أقبله ، فقال على رضى الله عنه : أليس للثمانية الأرغفة أربعة وعشرون ثلثا ، أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ، ولا يعلم الأكثر منكم أكلا ولا الأقل ، فتجعلون فى أكلكم على السواء ؟ قال : بلى ، قال : فأكلت أنت ثمانية أثلاث ، وإنما لك تسعة أثلاث ، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثا ، أكل منها ثمانية ، ويبقى له سبعة ، وأكل لك واحدا من تسعة ، فلك واحد ـ أى درهم ـ بواحدك ، وله سبعة

بسبعته فقال الرجل : رضيت الآن ! ! !

فهذه الحادثة تدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به على ويمتاز به من سرعة البداهة وذلك لفرط ذكائه وصفاء نفسه ، ونظير هذه الحادثة قضاؤه فى التى ولدت لستة أشهر بأن الولد للزوج بعد أن حكم عليها عثمان رضى الله عنه بالرجم لكونها أتت بولد زنى ، نظر على فى قول الله تعالى : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾ [1] فقال : الحولان للرضاع والستة أشهر للحمل ، فمن ولدت لستة أشهر فما فوق فالولد للزوج ، ومن ولدت لأقل فالولد لغير الزوج .

أما عن قوة حجته فكتاب الشريف الرضى المعروف بنهج البلاغة قد حوى الكثير من خطب على ورسائله ، وحجاجه ومنافراته وهى تفيض بالبلاغة والحكمة وفصل الخطاب ، فليرجع إلى ذلك الكتاب من شاء ليقف على كمال على فى بيانه وبلاغته وقوة حجته ، وهى حاجة الداعى الناجح فى دعوته ، ولنذكر هنا وصفا له رضى الله عنه وصفه به ضرار الصدائى بأمر من معاوية ، إذ روى ابن عبد البر فى الاستيعاب أن معاوية رضى الله عنه قال يوما لضرار الصدائى : يا ضرار صف لى عليا ، فقال : أعفنى يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفنه ، قال : أما إذ لا بد من وصفه ، فكان والله بعيد المدى ـ شديد القوى يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، ويستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته وكان غزير الغيرة طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما حسن ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له ، يعظم أهل الدين ويقرب المساكين ، ولا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأسَ الضعيف من عدله ، وأشهد أنه لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى سدوله ، وغارت نجومه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ويقول يا دنيا غرى غيرى ، إلى تعرضت أم إلى تشوقت ! هيهات هيهات!! قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك قليل ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق !!!

فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح ولدها وهو فى حجرها . . . أو قال : واحدها فى حجرها .

---

(١) الأحقاف : ١٥ .

فمن هذا الوصف الصادق تتجلى كمالات على رضى الله عنه النفسية التى هى موضع الاقتداء ، ومحط الائتساء ، إنها علم وحلم وإيمان وتقوى وكياسة ، وحسن سياسة ، وشجاعة قلب ، ورجاحة عقل ، زهد فى الدنيا شديد ورغبة فى الآخرة وحب فيها أكيد .

وفى مثل هذه الخلال الجميلة ، والخصال الحميدة ، يكون الاقتداء ويطلب الائتساء .

شجاعته وبطولته :

إن شجاعة على وبطولته سار بين الناس مسار الأمثال فما ذكرت الشجاعة ولا البطولة إلا وذكر على بن أبى طالب معهما ، إن أول فدائى فى الإسلام كان على بن أبى طالب وذلك أنه لما عزم الرسول ﷺ على الهجرة بعد قرار قريش القاضى بقتله ﷺ على أيدى جماعة من شباب القبائل القرشية ليتوزع دمه بين القبائل فلا يقدر بنو هاشم على طلبه ، تركه على فراشه وخرج ﷺ وظل المشركون بباب المنزل ينتظرون خروج رسول الله ﷺ ، وإذا بالذى يخرج على بن أبى طالب فسقط فى أيديهم ، ونجا رسول الله ﷺ من بينهم ، وضرب بذلك على أعلى مثل فى الفدائية والتضحية .

والشواهد على شجاعة على وبطولته كثيرة فلنكتف منها بذكر ما يلى :

١ ـ اضطلاعه رضى الله عنه يوم بدر بحمل لواء رسول الله ﷺ ، ومبارزته الوليد بن عقبة وقتله إياه على الفور فلم يمهله ، وعلى يومئذ ابن عشرين سنة .

٢ ـ تقليد رسول الله ﷺ له الراية يوم خيبر ، وما أظهر رضى الله عنه من بطولات خارقة فى غزوة خيبر ، وحسبه أن كان فتح خيبر على يديه رضى الله عنه.

٣ ـ ثباته مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، ويوم حنين وبلاؤه البلاء الحسن فى هاتين الوقعتين العظيمتين.

٤ ـ شهوده كل غزوات رسول الله ﷺ بحيث لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ قط ، اللهم إلا ما كان من غزوة تبوك ، حيث خلفه رسول الله ﷺ بالمدينة على أهله ، ولما قال على رضى الله عنه : تخلفنى يا رسول الله مع النساء والصبيان ؟ قال له رسول الله ﷺ : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى.

٥ ـ عدم تخلفه عن الجهاد مع الراشدين قبله أبى بكر وعمر وعثمان ، ومواقفه الشهيرة في كل الحروب التى خاضها أصحاب رسول الله إلى أن توفى رضى الله عنه وأرضاه .

وموجز القول : أن عليا رضى الله عنه كان مثالا عاليا فى الشجاعة والبطولة ، وأنه أسوة صالحة فى هذا الباب لمن أراد الائتساء به رضى الله عنه فى شجاعته وبطولاته .

عدله وسياسته :

إن خلافة على رضى الله عنه كانت أربع سنوات وتسعة أشهر فقط ، ومع ما صاحبها من فتن داخل الجماعة الإسلامية وأشهرها وقعة الجمل ، وصفين ، وقتال الخوارج بالنهروان ، فإنها كانت خلافة راشدة أتم الله بها العصر الذهبى فى تاريخ أمة الإسلام ، وقد روى فى ذلك قول الرسول ﷺ الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكا عضوضا .

لقد ساس على الأمة الإسلامية بالعدل والرحمة ، وأخذها بالعلم ، والحكمة ، ومن مظاهر عدله فى الأمة أنه كان لا يحبس مالا فى بيت المال بل يوزعه كله حتى أنه كان يكنس بيت المال بيده ويصلى فيه ، رجاءأن يشهد له أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين .

ذكر الطبرى فى تاريخه ج ٦ ص ٩٠ عن أبى رافع خازن بيت المال فى عهد على قال : دخل على يوما وقد زينت ابنته ، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال كان قد عرفها ، فقال : من أين لها هذه ؟ لله على أن أقطع يدها ، فلما رأيت جده فى ذلك قلت : أنايا أمير المؤمنين زينت بها ابنتة أخى ، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطها ؟ فسكت .

ومن ذلك أنه فقد يوما درعة فوجدها بيد يهودى فقاضاه إلى قاضيه شريح ، وتقدم فجلس إلى جنب القاضى وقال : لولا أن خصمى يهودى لا ستويت معه فى المجلس ، ولكنى سمعت النبى ﷺ يقول : « أصغروهم من حيث أصغرهم الله » ، فقال القاضى : قل يا أمير المؤمنين : فقال : نعم ، هذه الدرع التى فى يد هذا اليهودى درعى لم أبع ولم أهب ، فقال شريح : إيش تقول يا يهودى ، قال : درعى وفى يدى ، فقال شريح : ألك بينة يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعى ، فقال شريح : شهادة الابن لا تجوز للأب ، فقال على : رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » ! ! فقال اليهودى : أمير المؤمنين قدمنى إلى قاضيه وقاضيه قضى عليه ، أشهد أن هذا هو الحق ، وأشهد أن لا إله

إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأن الدرع درعك ، وحسب علي شهادة على عدله ورحمته وحكمته ، أن يقول فيه رسول الله ﷺ : « على مع القرآن ، والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض » ، رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير عن أم سلمة رضى الله عنها .

ومن هنا كانت سياسة على قرآنية تعتمدعلى الصدق والوفاء والعدل والرحمة والحكمة بعيدة عن الخداع والمكر والدهاء وهى عناصر تقوم عليها سياسة أبناء الدنيا فى كل زمان ومكان ، وأما ابن أبى طالب رضى الله عنه فما أبعده عن هذه الأجواء والمناخات الوبيئة الخانقة التى لا تصلح لحياة الربانيين مثل على رضى الله عنه .

ونختم هذا الفصل فى الحديث عن عدل على وسياسته بكلمة قالها فيه أحد الغربيين : قال : كان على يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ، برغم ما كان يمتاز به من الفضائل الكثيرة ، فقد كان نشيطا ذكيا بعيد النظر بطلا فى الحرب ، مشيرا ، حكيما ، وفيا شريف الخصومة نبغ فى الشعر والبلاغة واشتهرت خطبه وأشعاره فى الشرق الإسلامى .

وكانت تنقصه الحنكة السياسية وعدم التردد فى اختيار الرسائل أيا كانت لتثبيت مركزه ، ومن ثم تغلب عليه منافسوه الذين عرفوا أول الأمر أن الحرب خدعة ، والذين كانوا لايتورعون عن ارتكاب أى جرم يبلغ بهم الغاية ويكفل لهم النصر .

إثبات هذه المقالة لهذا الغربى لا تفارقها مع ما قرناه من بعد حكم على ، وسياسته عن المكر والدهاء والخداع والتضليل التى هى سدى ولحمة الساسة والسياسة اليوم وقبل اليوم من غير الربانيين كالخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

وفاته رضى الله عنه :

إن وفاة على رضى الله عنه كانت بالكوفة ليلة الأحد التاسع عشر من رمضان سنة أربعين هجرية ، وذلك أنه لما انتهت معركة الجمل وعاد على رضى الله عنه إلى الكوفة ، خرج معاوية بن أبى سفيان ومن معه من أهل الشام خرجوا عنه رضى الله عنه ، فبلغ ذلك عليا فسار إليهم فالتقوا بصفين فى شهر صفر سنة سبع وثلاثين ، واقتتلوا ودام القتال أياما ، فرفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى ما فيها ، وكان ذلك مكيدة منهم دبرها عمرو بن العاص ، فكره الناس الحرب ، وتداعوا إلى الصلح ، وحكموا الحكمين ، فحكم على أبا

موسى الأشعرى ، وحكم معاوية عمرو بن العاص ، وكتبوا بينهم كتابا على أن يوافوا رأس الحول بأذرح [١] فينظروا فى أمر الأمة ، فافترق الناس ، ورجع على إلى الكوفة ومعاوية إلى الشام فخرج على على رجال من أصحابه وقالوا : لا حكم إلا الله ، وعسكروا بحروراء [٢] فسموا بذلك الخوارج ، فبعث إليهم على رضى الله عنه ابن عباس فخاصمهم وحاجهم فرجع منهم أناس كثير إلى طاعة على رضى الله عنه ، وثبت على الباطل منهم أناس كثير وساروا إلى النهروان وعرضوا للسبيل فسار إليهم على فقتلهم بالنهروان وذلك سنة ثمان وثلاثين ، واجتمع الناس بأذرح فى شعبان من هذه السنة ، وحضرها سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما من الصحابة ، فقدم عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى مكيدة منه فتكلم وخلع عليا ، لأن أصل التحكيم كان على أساس أن يخلع كل من معاوية وعلى ، وتختار الأمة بعد ذلك برضاها من شاءت غير أن عمرو استعمل دهاءه فقدم أباموسى ليتكلم ويخلع صاحبه ففعل ، ولما تكلم عمرو لم يخلع صاحبه ـ معاوية ـ بل أقره ، وبايع له ، فتفرق الناس على هذا ، وصار على على خلاف من أصحابه ، حتى كان يعض على أصبعه ويقول : أعصى ويطاع ، وهنا انتدب ثلاثة من الخوارج أنفسهم لقتل على ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص بحجة أنهم هم الذين فرقوا كلمة المسلمين وشتتوا أمرهم ، وكان الخوارج الثلاثة عبد الرحمن ملجم المرادى ، والبرك بن عبد الله التميمى ، وعمرو بن بكير التميمى وقد اجتمعوا بمكة وتعاهدوا على أن يقتل عليا بن ملجم ، ويقتل معاوية البرك ، ويقتل عمرا عمرو بن بكير ، على أن يتم ذلك فى ليلة واحدة وهى ليلة السابع عشر من رمضان ، فأما قاتل معاويةفإنه لم يتمكن منه ، وأما قاتل عمرو فإنه لم يقتل عمرا ، وإنما قتل خارجة ، لأنه تربص بعمرو عند باب المسجد فلم يخرج عمرو تلك الليلة لأنه كان مريضا ، فانتدب قاضيه خارجه بن حذافة ليصلى بالناس فضربه ظنا منه أنه عمرو بن العاص فقتله ، ولما تبين له أنه لم يقتل عمرا قال : أردت عمرا وأراد الله خارجة ، فكانت مثلا سائدا بين الناس ، وأما قاتل على فقد تمكن منه عند خروجه من منزله وهو ذاهب إلى المسجد لصلاة الصبح ، وبموت على رضى الله عنه انتهت الخلافة الراشدة ، وانتقلت إلى الملك العضوض كما ورد بذلك الخبر .

واستشهد على وفى عمره ثلاث وستون سنة فرضى الله عنه وأرضاه ومن كراماته أنه قال لابنه الحسن : رأيت رسول الله ﷺ الليلة وقلت له يا رسول الله : ماذا لقيت من الأمة

---

(١) قرية من قرى الشام .

(٢) حاروراء : موقع بالكوفة .

من الأود واللدد [1] ؟ فقال لى : ادع الله عليهم ، فقلت : اللهم ابدلنى بهم خيرا منهم وبدلهم بى شرا لهم منى ، وما أن فرغ من قص رؤياه على الحسن حتى ناداه مناديه للصلاة ، فخرج من الباب ينادى أيها الناس : الصلاة الصلاة فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف فأصاب جبهته إلى قرنه ، وكان ذلك صبيحة الجمعة ، فأقام الجمعة والسبت وقبض ليلة الأحد ، فرضوان الله عليه فى المؤمنين ، وسلامه عليه فى المسلمين .

(١) الأود : الكد والتعب . اللدد : الخصومة الشديدة .

السلسلة الثالثة

من نماذج الدعاة الصالحين

الحلقة الأولى من هذه السلسلة

الإمام أحمد بن حنبل

لما كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى علما من أعلام الدعوة الإسلامية جعلناه الحلقة الأولى فى السلسلة الثالثة من سلاسل ثلاث لنماذج من الدعاة الصالحين .

نسبه :

فمن هو الإمام أحمد ؟

إنه أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال العربى العدنانى ، إمام الفقه والحديث ، يكنى بأبى عبد الله الشيبانى قدم به أبوه من مروز ، حملا فى بطن أمه فهو مروزى ، وولد ببغداد ونشأ بها فهو بغدادى .

الكمال الأحمدى :

إننا إذ نستعرض حياة الرجل العظيم إنما نهدف دائما إلى مكان الائتساء فيها ، فلذا لا نعمد غالبا إلى ذكر الكمالات الوهبية فى الرجل العظيم ، لأنها محض هبة الله لمن يشاء من عباده ، وإنما نعرض للكمالات النفسية الكسبية إذ هى محط الائتساء ومجال الاقتداء ، وهكذا فعلنا فى استعراضنا لحياة من قدمنا من نماذج الدعاة الصالحين ، وكذلك نفعل مع من سنذكر فى هذه السلسلة الأخيرة ، فلا نستعرض من حياة الداعية المثالى إلا ما كان فيه مجال للقدوة والائتساء ، وذلك كالعلم والجد فى طلبه ، والحلم والتفوق فيه ، وكالورع والزهد ، والصبر والثبات والكرم والسخاء والصدق والوفاء .

ومن الكمال الأحمدى الذى سنعرضه طلبا للأسوة فيه : العلم ، وقوة الحجة فيه

والورع والزهد والصبر على المكاره ، والثبات على المبدأ والربانية التى هى أم الكمالات النفسية.

علمه وقوة حجته فيه :

وعن علم الإمام أحمد نقول : إن أبا عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانى قد طلب العلم طلباً عاديا فلم يطلب الحديث ، ولم يجلس بين يدى رجاله إلا بعد أن بلغ السادسة عشرة من عمره ، كما ذكر ذلك غير واحد من المؤرخين له ، غير أنه فارق دياره ورحل فى طلب الحديث والفقه فيه فجاب البلاد طولا وعرضا ، ورحل إلى اليمن ماشيا على قدميه ، لقلة ذات يديه ، وأقام بها زهاء العامين يطلب الحديث من رجالها كعبد الرزاق صاحب المسند ونالته فى ذلك مشقة كبيرة ظهرت على جسمه وصحته العامة ولما وصل مكة وقيل له : أجهدت نفسك يا أبا عبد الله قال رحمه الله : ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرزاق كتبنا عنه حديث الزهرى عن سالم بن عبد الله عن أبيه وحديث الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ، كما روى الحديث عن يحيى بن معين وإسحاق بن راهوية ، والشافعى رحمهم الله تعالى ، وقد دعاه إلى زيارة مصر فلم يقدر لعجزه المادى ، ولما التقى به فى رحلته الثانية إلى بغداد قال له : يا أبا عبد الله إذا صح الحديث عندك فأعلمنى به أذهب إليه حجازيا كان أو شاميا ، أو عراقيا ، أو يمنيا ، قال ابن كثير رحمه الله تعالى إن فى قول الشافعى هذا لأحمد لإجلالا كثيرا وشهادة فى العلم عظيمة .

وحسب الإمام شهادة مسنده الذى خرجه من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف ، وجمع فيه من الحديث ما كاد يحوى الكتب الستة إلا قليلا ، وقال ولده عبد الله :كان أبى يحفظ ألف ألف حديث أى مليون حديث .

وها هى ذى شهادات العلماء بالعلم والسعة فيه ، والفضل والكمال لديه ، قال الإمام الشافعى : خرجت من العراق فما تركت رجلا أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل .

وقال البخارى : لما ضرب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسى يقول : لو كان أحمد فى بنى إسرائيل لكان أحدوثة .

وقال أبو عمر النحاس وقد ذكر أحمد يوما فى الدين : ما كان أبصره وعن الدنيا ما كان أصبر ! وفى الزهد ما كان أخيره ! وبالصالحين ما كان ألحقه وبالماضين ما كان أشبهه !

عرضت عليه الدنيا فأباها ، والبدع فنفاها !

وقال على بن المدينى : إذا ابتليت بشىء فأفتانى أحمد لم أبال إذا لقيت ربى كيف كان ، وقال يحيى بن معين : كان فى أحمد بن جنبل خصال ما رأيتها فى عالم قط كان محدثا وكان حافظا ، وكان زاهدا وكان عاقلا .

وقال أبو زرعة الرازى : ما أعرف فى أصحابنا أسود الرأس أفقه منه ، يعنى أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى أجمعين .

أما عن قوة حجته فى علمه :

فحسبنا للكشف عنها وإثباتها أن نورد بعض ما كان يرد به على أسئلة المبتدعة المبطلين من المعتزلة المارقين فى مجلس الامتحان أيام المحنة .

قال المعتصم : ناظره يا عبد الرحمن كلمه ، فقال عبد الرحمن : ما تقول فى القرآن ؟ فأبى أن يجيب ويسأل عبد الرحمن قائلا : ما تقول فى علم الله ؟ فلم يجب عبد الرحمن المعتزلى ، فيقول أحمد : إن القرآن من علم الله فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن علم الله مخلوق ، ومن قال بذلك فقد كفر ، ، .

فقال المعتزلى : إن الله كان فى الأزل ولم يكن معه القرآن .

فيقول أحمد : لقد قلت إن القرآن من علم الله ، فإذا قال قائل كان الله ولا قرآن معه فكأنه قال : كان الله ولا علم له .

المعتزلى : هو ضال مبتدع يا أمير المؤمنين .

الإمام : يا أمير المؤمنين يأتونى بآية من كتاب الله أو بسنة من سنن رسول الله ﷺ حتى أجيبهم إليها .

المعتزلى : فأنت لا تقول إلا ما فى كتاب الله وسنة رسوله ؟

الإمام أحمد : وهل يقوم الإسلام إلا بهما .

المعتزلى : إن الله يقول : ﴿ **خالق كل شىء** ﴾ [1] والقرآن شىء فهو إذا مخلوق !

الإمام : إن هذه الآية عامة أريد بها الخصوص لا العموم كقوله تعالى : عن الريح التى

(١) الأنعام ١٠٢ . ومواضع أخرى .

أهلك بها قوم هود : ﴿ **تدمر كل شيء بأمر ربها** ﴾ (١) فهل دمرت كل شيء حقا ، أو أنها لم تدمر إلا ما أراد الله ، ،

المعتزلي : ويقول : إن الله تعالى يقول : ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون** ﴾ (٢) فهل يكون محدثا إلا المخلوق ؟

الإمام : إن الذكر هو في القرآن جاء في قوله تعالى : ﴿ **ص ، والقرآن ذي الذكر** ﴾ (٣) فهو هنا معرف بالألف واللام ، وفي الآية الأولى بدون الألف واللام فهذه غير تلك .

المعتزلي : إن عمران بن معين يروي عن رسول الله ﷺ قوله : « إن الله خلق الذكر » ، وفي ذلك تقرير من النبي ﷺ بأن القرآن مخلوق .

الإمام : أخطأت ، فالرواية التي رويناها عن عمران وغيره من ثقات أهل الحديث هي « أن الله كتب الذكر » .

المعتزلي : أليس رسول الله ﷺ يقول : « تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تتقرب إلى الله بشيء هو أحب إليه من كلامه » !

أحمد : بلى ، فلا روى ذلك عن رسول الله ﷺ .

المعتزلي : إن فيه دليلا على أن القرآن مخلوق !

أحمد : لست أجد فيه هذا الدليل !

المعتزلي : إذا قرأت القرآن لتتقرب به إلى الله تعالى ، أليست كلمات مؤلفة من حروف وأصوات ، وهل يتألف من حروف وأصوات إلا الكلام المخلوق فهل نجد لك مفرا بعد إذ أمرنا الرسول ﷺ أن نتقرب إلى الله بتلك الألفاظ إلا أن تسلم بأن القرآن مخلوق !

الإمام : القرآن كلام الله قديم غير مخلوق ، وأما أفعالنا فيه إذا كتبناه أو تلفظنا به فهي مخلوقة ، ورسول الله ﷺ يقول : « زينوا القرآن بأصواتكم » ، فالقرآن إذا غير أصواتنا المخلوقة التي نزينه بها ، الكلام كلام الباريء ، والصوت صوت القاريء .

المعتزلي : إن تشك بأن القرآن كلام الله غير مخلوق معناه أنك تنسب إلى الله تعالى جوارح يتكلم بها كالمخلوقين وتشبيه الخالق بالمخلوقات كفر !

---

(١) الأحقاف : ٢٥ . (٢) الأنبياء : ٢ . (٣) ص : ١ .

الإمام : هو أحد صمد ، لم يلد ، ولم يولد ، لا عدل له ولا شبيه ، وهو كما وصف نفسه ، حدثنى عبد الرازق عن معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه أن النبى ﷺ قال : « إن اللّه كلم موسى بمائة ألف كلمة وعشرين ألف كلمة وثلثمائة كلمة ، وثلاثة عشر كلمة ، فكان الكلام من اللّه والاستماع من موسى ، فقال موسى : أى رب أنت الذى تكلمنى أم غيرك ؟ قال اللّه تعالى : « يا موسى أن أكلمك لا رسول بينى وبينك » فهذا ما يخبر به رسول اللّه ﷺ عن ربه ، وأنا ما أقول إلا ما يقول رسول اللّه ﷺ .

المعتزلى : كذبت على رسول اللّه ﷺ .

أحمد : إن يك هذا كذباً منى على رسول اللّه ﷺ . فقد قال اللّه تعالى : ﴿ **وكلم اللّه موسى تكليماً** ﴾ (١) .

وقال : ﴿ **ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ (٢) . فهو قول منه ، وليس خلقاً ، من خلال هذا الحوار الذى دار بين الإمام وبين المعتزلة الخصوم ، تتجلى لنا حقيقة أن أحمد بن حنبل كان قوى الحجة وذلك ما رمناه من عرض هذا الجزء من المناظرة التى دامت أياماً بين الإمام وخصومه وانتصر فيها حقه على باطلهم .

زهده وورعه :

إن الزهد لتقليل الدنيا ـ وهى قليلة ، واحتقارها وهى حقيرة ولو كانت تساوى عند اللّه جناح بعوضة لما سقى الكافر منها جرعة ماء ، والرغبة عنها إلى الآخرة إيماناً بها وبخيراتها ودوامها والآخرة خير وأبقى ، كما أن الورع هو الكف عن شهواتها وترك محرماتها والتقلل من مباحاتها ، والبعد عن متشابهاتها طلباً للسلامة منها حتى يترك مالاً بأس به مخافة ما به بأس .

وبناء على هذا فإن الزهد والورع كل منهما صفة كمال فى الإنسان المسلم ، وهما سلم إلى درجات الفضل والكمال والتفاوت بينهما عظيم جداً ، ومن هنا لم يكن أهل الورع والزهد فى درجة واحدة بل بينهما من التفاضل ما اللّه به عليم وهذا الإمام أحمد بين أهل الزهد والورع ، يعتبر مثالاً عالياً ، وقدوة صالحة فلم يسبقه فى هذا المجال أحد ، ولم يلحقه آخر ، والروايات التالية وهى صحيحة السند إلى الإمام أحمد أخرجها البيهقى ورواها عنه ابن كثير فى بدايته تثبت الحقيقة وتؤكدها .

(١) النساء : ١٦٤ .　　(٢) السجدة : ١٣ .

ولنكتف فى باب الورع بروايتين منها فقط :

الأولى : قال يوماً الإمام الشافعي لهارون الرشيد : يا أمير المؤمنين إن اليمن يحتاج إلى قاض ، فقال له الرشيد : أختر رجلاً نوله إياه فقال الشافعي لأحمد وكان يتردد عليه لطلب العلم : ألا تقبل قضاء اليمن يا أحمد ؟ فقال أحمد : إنما أختلف إليك لطلب العلم المزهد فى الدنيا ، فتأمرنى أن أتى القضاء ، ولولا العلم لما كلمتك بعد اليوم !!

فاستحى منه الشافعي وسكت .

إن رغبة أحمد عن الولاية وهى مما يتسابق الناس إليه ويتنافسون فى الحصول عليه ، بل مما يتقاتلون على طلبه والظفر به لم تكن إلا ورعاً منه ، إذ طلب الولاية مباح ، ولكن تركها أحمد وهى لا بأس بها خشية الوقوع فيما به بأس .

والثانية : أنه جاع ثلاثة أيام لقلة ذات يده فاستعرض دقيقاً من أحد إخوانه ولما وصل إلى أهله عرفوا حاجته إليه فأسرعوا فى خبزه وإنضاجه ووجدوا تنوراً لولده صالح مسجوراً فأنضجوا قرص الخبز فيه ، فلما قدم إلى أحمد وكأنه لا حظ سرعة تقديم الخبز له فسألهم فأخبروه أنهم طبخوه فى تنور صالح ولده وكان صالح يتقاضى راتباً من الدولة فامتنع من أكله وواصل جوعه من ورعه ، فأى ورع أعظم من هذا الورع أمن أجل أن ولده يأخذ الجوائز المالية من السلطان يمتنع من أكل خبز يطبخ فى تنوره المسجور ، وهو ولده والولد وماله لوالده ؟ فضرب أحمد بهذا رقماً قياسياً فى الورع لا يمكن أن يناله أحد سواه .

أما عن زهده رحمه اللّه تعالى فحدثِ ولا حرج قال أبو داود رحمه اللّه تعالى : كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة ، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا ، وما رأيت أحمد ذكر الدنيا قط .

ولم يكن هذا منه رحمه اللّه تعالى إلا احتقاراً للدنيا وعدم التفات إليها وذلك لقلتها وسرعة زوالها وهذا هو الزهد فى الدنيا .

وحكى ولده عبد اللّه رحمهما اللّه تعالى معاً فقال : كنا فى زمن الواثق الخليفة العباسى فى ضيق شديد فكتب أحد الصالحين إلى أبى ـ لا شك أنه سمع بحاجة أحمد وما هو فيه من ضيق كتب إليه : أن عندى أربعة آلاف درهم ورثتها من أبى ، وليست صدقة ولا زكاة ، فإن رأيت أن تقبلها أبعثها إليك : فامتنع أحمد من قبولها ، فكرر عليه

الرجل قبولها فأبى أن يقبلها ورضى بحاجته وما به من خصاصة ، وعرض عليه أحد التجار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعة جعلها باسمه فأبى أن يقبلها ، ورد عليه قائلاً : نحن فى كفاية وأنت جزاك اللّه عن قصدك خيراً ، كما عرض عليه شيخه عبد الرزاق باليمن يوماً ملء كفه دنانير وهو فى أمس الحاجة إليها لنفاد ماله وانقطاعه عن بلده فلم يقبلها .

وأعظم من هذه وسابقتها أنه سرقت ثيابه باليمن فجلس فى بيته ورد عليه الباب ، ووفده أصحابه فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم فعرضوا عليه ذهباً فلم يقبله ولم يأخذ منهم إلا ديناراً واحداً ، ليكتب لهم به ، فكتب لهم مقابله فكان أخذه منهم بأجره عمل ، ولم يكن بإحسان .

صبره على المكاره وثباته على المبدأ :

إن كان الصبر هو حبس النفس على الطاعة بحيث لا تتركها فى سراء ولا ضراء وحبسها عن المعصية فلا تغريها فى يسر ولا فى عسر وحبسها على البلاء فلا تضجر ولا تجزع فإن الإمام أحمد كان بذلك إمام الصابرين ، وقدوتهم بحق فقد صبر فى مواطن الصبر كلها فلم يضعف ولم يهن بحال من الأحوال حتى غدا صبره فى محنته مضرب الأمثال وأغنى بمحنته تلك التى امتحن فيها ببدعة القول بخلق القرآن حيث أن الخليفة المأمون العباسى كان قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاغوه عن طريق الحق ـ كما قال ابن كثير ، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفى الصفات عن اللّه عز وجل ، واتفق أن خرج إلى غزو الروم فكتب إلى نائبه ببغداد وهو إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى هذه البدعة ، فلما وصل الكتاب إليه قام فاستدعى أئمة الحديث ودعاهم إلى هذا الباطل فامتنعوا فهددهم بالضرب وقطع الرواتب والأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين واستمر على الامتناع أحمد بن حنبل وآخر يقال له : محمد بن نوح ، فحملهما على بعير وسيرا إلى الخليفة ، حيث أمر بهما ، وكان ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب يقال له : جابر بن عامر فسلم على الإمام أحمد ، وقال له : يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة ، وإن كنت تحب اللّه فأصبر على ما أنت عليه فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ، وإنك إن لم تقتل تمت ، وإن عشت عشت حميداً ، قال أحمد : وكان كلامه مما قوى عزمى .

ولما اقتربا من جيش الخليفة ونزلا بمرحلة دونه جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول : يعز علىَّ أن أقول لك يا أبا عبد اللّه : المأمون قد سل سيفه ، وهو يقسم بقرابته من رسول اللّه ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بسيفه ، فجثى أحمد على ركبته ، ورفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته ، فما كان آخر الليل خرجاً الصريخ ينعى موت المأمون ، ولم تكد تنفرج حتى ولى الخلافة المعتصم والتف حوله غلاة المعتزلة وشحنوه بالباطل وكان أشد على أهل السنة من المأمون ، فردا إلى بغداد فى سفينة مع بعض الأسارى ومات ابن نوح فى الطريق وأودع أحمد السجن مدة ثمانية وعشرين شهراً ، قضاها والقيد فى رجليه لم ينزع عنهما ، فكان يصلى إماماً بأهل السجن ، والقيد فى رجليه رحمه اللّه تعالى ، ولما تمت هذه المدة أحضر أحمد أمام الخليفة وليسأل ويضرب ويطلب إليه القول بالبدعة ، فيرفض ويعذب ، حتى مل سائلوه ومعذبوه .

وضح من هول العذاب من حوله من السامين والمنفرجين ، والإمام صابر ثابت يقرع الحجة بالحجة ، ويدفع ضجة الباطل بلجة الحق ، فيضمحل الباطل ويعلو الحق ، حتى كتب اللّه له النصر وفاز بلقب بطل المحنة وإمام الثبات والصبر .

وهكذا صبر أحمد وثبت على مبدأ الحق فلم يبدل ولم يغير فكان مثال الكمال فى الصبر والثبات على المبدأ فرحمه اللّه رحمة واسعة وخلد ذكراه ، وجعل الجنة مثواه .

ربانيته ووفاته :

وأخيراً : ربانيته ووفاته :

إن ربانية أحمد وهى قوة صلته بربه تعالى ونسبته إليه ، ولصوقه بجنابه عز وجل حتى ما كان يعرف إلا به تعالى فمبلغ القول فيها إنها كانت ربانية قائمة على التوحيد الخالص ، والعلم اليقين الكامل ، والزهد لا فيما عند اللّه ، والفقر إلا إلى اللّه ، ولتجلى هذه الربانية القوية نورد طرفاً من موجز كلامه وآخر من مظاهر كماله فنقول :

لما حمل أحمد من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم أتوه بسويق ليفطر من الضعف الذى أصابه فامتنع دائم صومه ، وحين حضرت الصلاة صلى معهم فقيل له : صليت فى دمك ، فقال : صلى عمر وجرحه ينصب دماً ، ولما أقيم ليضرب

بالسياط انقطعت تكة سراويله فخشى أن تنكشف عورته فحرك شفتيه بالدعاء ، فعادت سراويله كما كانت ، وما حرك به شفتيه هو قوله : يا غياث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم أنى قائم لك بحق فلا تهتك لى عورة ، وقيل له يوماً : ادع اللّه تعالى لنا ، فقال : اللهم إنك تعلم أنك على أكثر مما نحب فاجعلنا على ما تحب دائماً وسكت ، فقيل له : زدنا ، فقال : اللهم إنا نسألك بالقدرة التى قلت للسموات والأرض أتينا طوعا أو كرها فقالتا أتينا طائعين ، اللهم وفقنا لمرضاتك ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ونعوذ بك من الذل إلا لك ، اللهم لا تكثر لنا فنطغى ، ولا تعل علينا فنسىء ، وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغاً لنا فى دنيانا ، وغنى من فضلك .

وقال صالح ولده : كان أبى لا يدع أحداً يسقى له الماء ليتوضأ فرمى بالدلو فخرج ملآن فقال : الحمد للّه ، فقلت له : يا أبت ما الفائدة بذلك ؟ فقال : يا بنى أما سمعت قول اللّه تعالى : ﴿ **قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ؟** ﴾ (١) .

وعن مظاهر كماله نقول :

لما انكشفت الغمة وزالت المحنة وولى أمر المسلمين المتوكل على اللّه وكان سلفياً يحب أهل السنة والجماعة بعث بصلة للإمام أحمد فلم يقبلها فأصر الخليفة إلا أن يقبلها وأصر أحمد على عدم قبولها جعلها الخليفة فى ولده وأهله فقال أحمد : لولده وأهله يلومهم إنما بقى لنا أيام قلائل ، وكأننا وقد نزل بنا الموت فإما إلى الجنة وإما إلى النار ، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء !!! فاحتجوا عليه بقول الرسول ﷺ لعمر : ما جاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه ، وابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان ، فقال : وما هذا وذاك سواء ، ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال .

ولما علم المتوكل ببراءة أحمد مما نسب إليه حيث وشى به الواشون فحوصر بيته ليلاً وفتشه تفتيشاً دقيقاً عما يثبت ولاءه للعلويين وتواطؤه معهم بعث إليه الخليفة مع أحد صجابه بعشرة آلاف درهم ، وقال : هو يقرئك السلام ويقول لك : استنفقه هذه ، فامتنع من قبولها ، فقال الحاجب : يا أبا عبد اللّه : إنى أخشى من ردك إياها أن تقع وحشة بينك وبين الخليفة والمصلحة لك قبولها ، فوضعها عنده ثم ذهب ، فلما كان من آخر الليل

---

(١) الملك : ٣٠ .

استدعى أحمد أهله وبنى عمه وعياله ، وقال : لم أنم هذه الليلة من هذا المال ، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة ، ولما أصبحوا فرقوها كلها حتى الكيس الذى كانت به تصدق به ولم يعط منها أهله وأولاده وعياله شيئاً وهم فى غاية الجهد والفاقة والفقر ، وهكذا تجلت ربانية أحمد وصدقه فيها فكان بذلك إماما وقدوة فيها وفى غيرها من سائر الكمالات النفسية .

وعن وفاته نقول : مرض أحمد متى صح ذلك الجسم الذى أضناه الصيام وأقعده القيام ، مرض مرضه الذى توفى فيه أوائل شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، قال ابنه صالح : دخلت على والدى يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف فقلت له : يا أبت ما كان غذاؤك قال : ماء الباقلاء ، وأقبل الناس الأفاضل على عيادته وتوافد الأكارم على بيته ، فكتب رحمه اللّه تعالى وصيته ، وكان يئن فى مرضه ، ولما بلغه عن طاوس كراهة الإثنين تركه حتى كانت ليلة وفاته أن ، وهى ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول ، ومن غريب ما حدث له فى تلك الليلة أنه سمع وهو يقول : لا ، بعد ، لا ، بعد فقال له ابنه صالح : ما هذه اللفظة التى تلهج بها ؟ فقال : إن الشيطان واقف بزاوية البيت وهو عاض على أصبعه ويقول : فتنى يا أحمد ، فأقول لا ، بعد ، لا ، بعد ، ولما دنا الأجل قال لأهله : وضئونى وخللوا أصابعى فوضئوه ولما فرغوا من وضوئه فاضت روحه وهو يذكر اللّه تعالى ، فإلى رحمة اللّه يا أسوة الصالحين وقدوة الزهاد والورعين ، والسلام عليك فى الآخرين والأولين .

الحلقة الثانية
من السلسلة الثالثة من نماذج
الدعاة الصالحين
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

حقاً إذا ذكر الدعاة الصالحون فى أمة الإسلام أن يذكر على رأسهم أحمد بن تيمية الحرانى شيخ الإسلام ، وإمام الهدى ، محيى السنة وقامع البدعة ، وناشر راية الإصلاح فى العالم الإسلامى .

وحقاً إن فى حياة هذا الداعى الكبير لأسوة حسنة ، لمن يرغب فى الاتساء بالصالحين وتمثل جوانب الكمال فى حياتهم ، ولما كانت حياة شيخ الإسلام كلها مجالاً للقدوة ، والاتساء فإنا نكتفى بذكر أبرز الجوانب فيها تعلمه وزهده ، وحلمه ، وشجاعته وصبره وكمال عبوديته ، وحسن دعوته وقبل عرض هذه الجوانب الكمالية فى الحياة الأحمدية .

نعرف به رحمه الله تعالى فنقول من أحمد بن تيمية ؟

ونجيب بأنه : الإمام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن الإمام مجد الدين أبى البركات عبد السلام بن أبى محمد بن عبد اللّه بن أبى القاسم بن محمد بن الخضر بن على بن عبد اللّه بن تيمية [1] الحرانى ولد يوم الإثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ ، وهاجر به والده إلى دمشق عندما أغار التتار على بلاد الإسلام سنة ٦٦٧ هـ وتوفى بقلعة دمشق ليلة الإثنين لعشرين خلت من القعدة الحرام سنة ٧٢٨ هـ .

علمه رحمه اللّه :

نبدأ فى الحديث عن شيخ الإسلام رحمه اللّه تعالى من منطلق كماله ألا وهو العلم وطلبه وحصوله عليه وتفوقه فيه : فنقول لقد طلب أحمد بن تيمية العلم صغيراً ولازم الدرس والتحصيل كبيراً حتى فاز بأنواع العلوم والمعارف ما أصبح به إماماً للعلماء ،

---

(١) تيمية هذه هى أم الجد الأعلى لشيخ الإسلام نسب إليها ولدها لكونها كانت عالمة واعظة ، فنسب إليها ولدها وعرف بها .

وشيخاً للإسلام والمسلمين فى سائر أنحاء العالم الإسلامى .

وها هى ذى شهادات فحول علماء عصره ومصره له بذلك فلنستمع إليها :

قال ابن النجار ـ كما ذكر ذلك بهجة البيطار ـ : قدم بابن تيمية والده إلى دمشق ، فأخذ الفقه والأصول على والده ، وسمع من خلق كثيرين منهم الشيخ شمس الدين ، والشيخ زين الدين بن المنجا ، والمجد بن عساكر ، وقرأ العربية على ابن عبد القوى ، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه وعنى بالحديث ، وسمع الكتب الستة ، والمسند مرات وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه ، وأحكم أصول الفقه ، والفرائض والحساب والجبر والمقابلة ، وغير ذلك من العلوم ، ونظر فى الكلام والفلسفة ، وبرز فى ذلك على أهله ، ورد على رؤسائهم وأكبارهم ، وتأهل للفتوى والتدريس ، ولم يبلغ العشرين سنة ، وتضلع فى علم الحديث وحفظه ، حتى قال من قال : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث ، وأمده اللّه تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الإدراك والفهم ، وبطء النسيان ، حتى قال غير واحد : إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه ، وألف فى أغلب العلوم التآليف العديدة ، حتى قال الحافظ الذهبى : وما أبعد أن تصانيفه تبلغ خمسمائة مجلد .

وقال الحافظ المزى : ما رأيت مثله (أى ابن تيمية) ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب اللّه وسنة رسوله ، ولا أتبع لهما منه ، وقال ابن دقيق العيد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه ، يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، وقلت له : ما كنت أظن أن اللّه بقى يخلق مثلك !!!

وقال الشيخ إبراهيم الرقى : إن تقى الدين يؤخذ عنه ويقلد فإن طال عمره ملأ الأرض علماً وهو على الحق ، ولا بد أن يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة .

وقال : قاضى القضاة ابن الحريرى : إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو ؟ .

وقال الحافظ الزملكانى : قد أعطى ابن تيمية اليد الطولى فى حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين ، وقد ألان اللّه تعالى له العلوم كما ألان لداود الحديد ، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائى والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وقال :

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلست عن الحصر

هــو حجــة للــّه قـاهــره هــو بيننــا أعجـوبـة الـدهــر

هــو آية فى الخلق ظاهــرة أنـوارها أربـت عـن الفـجـر

هذه بعض شهادات العلماء لابن تيمية وغيرها كثير ، وهى شهادات حق وصدق ليس فيها مجازفة ولا مواربه أبداً ، فإن الرجل أجمل مما وصف به ، وأعظم قدراً مما قيل فيه .

زهـده رحمـه اللـّه :

إن الزهد وهو الرغبة عن المال والجاه وسائر أعراض الدنيا لتفاهتها وحقارتها وقلة قطرها ، صفة كمال فى الرجال وشيخ الإسلام ابن تيمية كان أكمل أهل عصره فى هذا الوصف وصف الزهد ، لأنه كان أعرف الناس بفضل الزهد ، وشرف أهله ولولا زهده لما نال من العلم والتقسى والبصيرة فى دين اللّه والهدى ، وحسبنا تدليلاً على زهده أن نذكر الروايتين التاليتين :

الأولى : قال ابن فضل اللّه العمرى : كان يجيىء ابن تيمية من المال فى كل سنة ما لا يكاد يحصى ، فينفقه جميعه آلافا ومئات ، ولا يلمس منه درهماً بيده ، ولا ينفق آخر فى حاجته ، وكان إذا لم يجد ما ينفقه على من يسأله يعمد إلى شىء من لباسه فيدفعه إليه ، قال : وهذا مشهور عند الناس من حاله .

والثانية : قال أحدهم : كنت يوماً جالساً بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية فجاءه إنسان فسلم عليه فرآه الشيخ محتاجاً إلى ما يقيم به ، فنزع الشيخ عمامته ومن غير أن يسأله الرجل وقسمها نصفين فاعتم بنصفها ، وأعطى الرجل المحتاج نصفها الآخر فاعتم به .

حلمه رحمه اللّه تعالى :

إن الحلم خلق فاضل ، وكمال نفسى قل من يظفر به ، والعلماء كثيرون ولكن أهل الحلم فيهم قليل .

إذ الحلم : ضبط النفس عند الغضب ، أو هو عدم الغضب ، والغضب فطرى ، ولكن الحلم كسبى ومن لا يغضب لا يحلم ، وأكثر مظاهر الحلم عند اشداد سورة الغضب وحب الإنتقام ممن اعتدى وظلم ، فمن أوذى وقدر على أذية من أذاه ولم يفعل فقد حلم وعفا وغفر وفى القرآن الكريم : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسـن فإذا الذى بينك وبينه عـداوة**

كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (1) .

ومن هنا كان عظماء الرجال وخاصة دعاة الحق والخير من أعلم الناس وأكثرهم صفحاً وعفواً ولقد ضرب شيخ الإسلام ابن تيمية المثل فى باب الحلم ، فإنه على كثرة من آذاه وعاداه لم يثبت أنه انتقم يوماً من أحد منهم حتى ولو مكن منهم ، وهذا غاية الحلم ونهايته أنه لما نقل ابن تيمية إلى الديار المصرية وسجن بالجب بقلعة الجبل سنة ونصفاً ، ولما أفرج عنه واجتمع بالسلطان فى حفل كبير ضم القضاة والأمراء وأعيان البلاد ، وأكرم الشيخ إكراماً عظيماً ، وشاوره السلطان فى قتل بعض أعدائه وخصومه فامتنع الشيخ من ذلك ، ولم يقبل أن يقتل أحد بسببه ، وجعل كل من آذاه فى حل من أمره ، وهكذا تتجلى فى أحمد صفة الحلم التى هى عنصر من أقوى عناصر الكمال فى الدعاة الصالحين ، وبذا كان ابن تيمية نموذجاً صالحاً فى حياة الدعوة ودنيا الدعاة .

شجاعته وصبره :

إن شجاعة أحمد بن تيمية بنوعيها العقلية والقلبية كانت نادرة فى الرجال وقد أصبح بها والحق يقال : أسوة صالحة للمؤمنين ، وليس أدل على شجاعته القلبية والعقلية معاً من تلك الوقفة الجبارة التى وقفها فى وجه جيوش التتار ، وما أقام به من حشد القوات وجمع الطاقات لقتالهم ، وهو العالم الزاهد الربانى ، فقد جعل الله تبارك وتعالى طرد تلك القوة الفاتكة العاتية التى دمرت وخربت وعاثت فى ديار الإسلام فساد على يديه وبسبب ما قام به كانت له مواقف مع بعض ملوك التتار نادرة فى الشجاعة والتضحية والفداء .

فقد روى أن ملك الكرج أراد أن يفتك بأهالى دمشق فيسبى نساءهم وذراريهم ، ويغنم أموالهم ، فبذل مالاً كثيراً للسلطان غازان المغولى والذى كان قد أسلم أول من أسلم من ملوك المغول ، بذل له أموالاً طائلة لينحلى بيته وبين لسكان دمشق ، وبلغ الخبر شيخ الإسلام أحمد بن تيمية فقام من فوره ، وانتدب رجالاً من وجوه البلاد وكبرائهم ، من ذوى النهى والعقول الراجحة ، ولما وصلوا إلى السلطان المغولى أخذ الشيخ يحدثه بقول الله ورسوله ﷺ فى العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان ويقرب منه فى أثناء حديثه حتى كاد يلصق ركبته بركبتى السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه ، مصغ لما يقول شاخص ببصره إليه لا يعرض عنه ، وذلك مما أوقع الله تعالى فى نفسه من المحبة

---

(1) فصلت : ٣٤ ، ٣٥ .

والهيبة للشيخ حتى سأل قائلاً من هذا الشيخ ؟ فإنى لم أر مثله ، ولم أر من هو أوقع منه حديثاً فى نفسى ولا رأيتنى أعظم انقياداً لأحد منه ! وقال الشيخ للترجمان قل للسلطان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين وعملا الذى عملت : عاهد فوفنا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت ، فبذل الشيخ نفسه فى طلب حقن دماء المسملين فبلغه الله ذلك فكان سبباً ، وكان رحمه الله تعالى يقول : لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض فى قلبه ومن مظاهر شجاعته أيضاً أن أحداً من المسلمين شكا إليه ما فعل به أحد السلاطين ، وكان هذا السلطان ذا جبروت ظلم واعتدى وأخذ أموال الناس ، فذهب إليه الشيخ ولما دخل عليه قال له السلطان فى تهكم وازدراء : إنى كنت أريد أن آتى إليك ، لأنك عالم زاهد ، فأجابه الشيخ قائلاً : موسى كان خيراً منى ، وفرعون كان شراً منك وكان موسى يجىء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ، ويعرض عليه الإيمان .

ومن مظاهر شجاعته أيضاً أن وشى به أحد خصومه المبطلين إلى الملك الناصر لدين الله فأحضره السلطان ووجه إليه تهمة الخيانة فقال له : بلغنى أنك قد أطاعك الناس وأن فى نفسك أخذ الملك ، فلم يكترث أحمد بالتهمة الباطلة وقال فى هدوء ورباطه جأش ، وثبات قلب وبصوت عال : أنا أفعل ذلك ؟ والله إن ملكك لا يساوى عندى فلساً واحداً ، فتبسم السلطان من ذلك وقال : والله إنك لصادق ، وأن الذى وشى بك لكاذب وهذا من جراء ما ألقى الله تعالى فى قلبه من الهيبة العظيمة والمحبة الدينية ولولا ذلك لكان يفتك به .

هذا عن شجاعة ابن تيمية رحمه الله تعالى ، أما عن صبره فحدث ولا حرج وحسبنا أن نعرف أن حياته كلها قضاها فى جهاد متواصل بالسيف واللسان والقلم فما كل ولا مل ، ولا ترك دعوة الإصلاح فى كل حياة المسلمين حتى توفاه الله تعالى فى قلعة دمشق .

وماذا نقول عن صبر ابن تيمية وهو القائل : ماذا يبغى الأعداء منى : أو ما يصنع أعدائى بى أنا جنتى وبستانى فى صدرى أين رحت فهى معى لا تفارقنى ، أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحه وكان يقول : المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه .

كمال عبوديته :

إن تحقيق العبودية بالعبادة والتوكل ، وصدق اللجاء ، والإنابة إلى الله تعالى بكل

حال من صفات شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الغالبة عليه ، فلننظر إليه عندما يؤمر به إلى السجن كيف تكون حاله : ذكر صاحب الكواكب الدرية : إن الشيخ لما أمر به إلى السجن بقلعة دمشق أظهر السرور بذلك ، وقال : إنى كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير عظيم ، وروى أنه لما سجن بمصر بسجن القضاه بحارة الديلم صار الحبس بالعلم والتعلم والعبادة والدين خيراً من كثير من الزوايا والأربطة والمدارس ، وصار عدد كبير من المساجين إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده ، وكثر المترددون إلى الشيخ حتى صار السجن يمتلىء بهم .

وكان رحمه اللّه تعالى يقول فى سجوده وهو محبوس : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادك وكان يقول : المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه ولما دخل القلعة وأصبح داخل سورها قال : فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمه وظاهره من قبله العذاب ، فكان يرى فى السجن جنة الدنيا لما يحققه له من القرب من ربه بالتفرغ لعبادته والانقطاع إلى اللّه تعالى فيصبح فى جنة أنس ونعيم نفس ، حكى عنه عارفوه أنه مع كثرة ما يهدد ، ويضايق ويحبس كان أطيب الناس نفساً وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وما هذا إلا لقوة إيمانه ، وكمال عبوديته وصدق توكله .

حسن دعوته :

إنه من غير المشكوك فيه أن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية كما كان رجل جهاد ، بالنفس والمال فى سبيل اللّه ، كان رجل دعوة وإصلاح ، وقد كملت رجولته فى ذلك فلم يدانيه أحد من معاصيره ، ولا ممن جاءوا بعده بحال من الأحوال ، وهذا من فضل اللّه عليه ، واللّه يؤتى فضله من يشاء وهو الحكيم العليم .

تصدى ابن تيمية لمحاربة الفساد المستشرى فى أمة الإسلام والمتمثل فى الحكام والعلماء والعباد من المتصوفة والمبتدعة والخرافيين ، فقاومه بالحجة والبرهان انبرى لما قاومته الحكام وبالوعيد والتهديد ، والسجن والحرمان ، وتصدى له العلماء ، بالإنكار بالأحكام والتشنيع والوشايات لدى الحكام وتصدى له المتصوفة والمبتدعة بالكيد والمكر والدس والخداع والكذب والتضليل .

ووقف الشيخ وحده فى الميدان ليس له من ولى ولا نصير إلا ربه تعالى وكفى باللّه ولياً ونصيرا ، وكان ما أجمع عليه أعداؤه فيه ثلاث مسائل أدعوا أنه خالف فيها الإجماع

وهى طلاق الثلاث والوسيلة ، وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ، هذه أبرز ما اجتمع عليه أعداء الشيخ فحاربوه عليها حرباً ضروسا بلا رحمة ولا شفقة ، فما تركوا وسيلة للنيل من الشيخ إلا استعملوها ، فكذبوا عليه ، وزوروا وافتروا ، وقالوا ما لم يقله عدو فى عدوه والشيخ صابر محتسب بقرع الحجة بالحجة ، ويبين زيف الدعاوى ، وافتراء المفترين ، كل ذلك بأسلوب نزيه ، وكلام طيب ، وقول حسن فلا يغلظ فى قول ، ولا يجفو فى عبارة ، ولا يحاول انتقاص أحد ، أو النيل من كرامته إن كان من ذوى الكرامات ، الأمر الذى يعد فيه ابن تيمية فريداً وحيداً أشبه رجل بنبى فى دنيا الرجال ، وكان إذا التبس عليه أمر أو خفيت عليه حال أو لم يتبين وجه الحق فى مسألة فزع إلى ربه يستعمله ويستهديه فكان يقول فى جوف الليل وقد انقطع إلى ربه : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيم فيه مختلفون ، اهدنى لما أختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم ، فيعلمه ربه ويهديه إلى وجه الحق الذى التبس عليه ، وما مات ابن تيمية حتى أوضح منهج الإسلام ، وأقام سبيل الدعوة ، وفتح اللّه به عيوناً عميا وأسمع بدعوته آذاناً صما ، وهدى به قلوباً زائغة عن الحق حائرة فى طلب الهدى ، وكل من أتى بعده من رجال الإصلاح والدعوة فى هذه الأمة إنما هو من مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية فرحمه اللّه رحمة واسعة .

وفاته رحمه اللّه تعالى :

بعد أن أظهر اللّه تبارك وتعالى الحق على يدى عبده ووليه ، أحمد بن تيمية ، فى مسائل كثيرة من أهمها العقيدة الإسلامية بجوانبها الثلاثة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات . وبعد أن استنارت ديار الإسلام بعلوم شيخ الإسلام ، وتبددت دياجير الظلام التى عاشتها بلاد الإسلام زمناً غير قصير وفى ليلة الإثنين لعشرين خلت من شهر ذى القعدة عام ٧٢٨ هـ ـ قبض اللّه تعالى إليه روح عبده الصالح ، ليكرمها على ما قدمت من تضحيات جسام طلباً لمرضاة ربها ، ورغبة فيما لديه من الكرامة ، وفى ظهر يوم الإثنين خرجت جنازة شيخ الإسلام من المسجد الأموى بدمشق بعد أن صلى عليها عقب صلاة الظهر يشيعها إلى مثواها الأخير ، خلق جزر النساء منهن فقط تمكن خمسة عشر ألف امرأة مشيعة لجنازة الإمام وقالوا : إنه لم يتخلف عن جنازة الإمام ابن تيمية من سكان دمشق من حكام وأمراء ورجال علم ، وصلاح وعامة الناس إلا ثلاثة نفر كانوا أعداء ألداء

للشيخ ، تخلفوا خوفاً على أنفسهم من أن يرجمهم المسلمون بالحجارة لغضبهم عليهم وحزنهم على شيخهم وهم يودعونه الوداع الأخير .

فرحم اللّٰه أحمد بن تيمية ورزقنا الأسوة به فى طلبه العلم وفى صبره وشجاعته وجهاده وحسن دعوته .

الحلقة الأخيرة

من سلسلة نماذج من الدعاة الصالحين

إن الحلقة الأخيرة فى سلسلة نماذج من الدعاة الصالحين هى شيخ الإسلام :

محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه تعالى .

تعريف :

فمن هو يا ترى محمد بن عبد الوهاب ؟

إنه أبو عبد اللّه محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمى ، المولود بقرية العيينة سنة ١١١٥ هجرية من البلاد النجدية الواقعة شمال مدينة الرياض العاصمة للملكة العربية السعودية .

جوانب الكمال فى الشيخ رحمه اللّه :

إننا فى هذه السلسلة من أول حلقة فيها إلى هذه الأخيرة منها لا نعرض كثيراً لكمال فى الداعية إذا كان وهبياً غير كسبى بعلة أن الوهبى لا تتأتى الأسوة فيه وإنما الأسوة تكون نى الكمال الكسبى ، ولذا لا نبرز من حياة الداعى إلا جوانب خاصة فى حياته لكونها محط الاتيساء ، ومجال الاقتداء وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الحلقة الأخيرة فى سلسلة الدعاة الصالحين ممن أثرنا الكتابة عنهم للاقتداء بهم والاهتداء بهديهم ـ حياته كلها عظات وعبر وما من جانب منها إلا وهو صالح لأن يكون قدوة صالحة للمقتدين ، وأسوة حسنة للمؤتسين ونظراً للحاجة الماسة للاختصار فإنا نكتفى بأبراز الجوانب التالية من حياته المليئة بالبر والهدى وهى طلبه العلم ورحلته فى سبيله ، كماله العلمى ، دعوته الإصلاحية ، صبره ومالاقى من أذى فى سبيل الدعوة ، نجاحه فى دعوته ، سر نجاحه فيها .

طلب الشيخ العلم ورحلته فى ذلك :

ما من شك أن النبوغ فى كل شىء لا بد له من عوامل تساعد عليه ومن عوامل نبوغ

الشيخ التى أثرت فى حياته العلمية وكانت السبب البارز فى نبوغ الشيخ فى العلم وتفوقه فيه على أقرانه ، أن والده الشيخ عبد الوهاب بن سليمان كان عالماً فقيهاً ملماً بالكتاب والسنة ففتح الشيخ عينيه على نور العلم فى بيت والده فأخذ منه ما كان طاقة له اقتدار بها على استيعاب شتى الفنون والعلوم وبخاصة العلوم الشرعية وفى أثناء طلبه العلم ببيت والده قد ولع بمطالعة كتب الشيخين المصلحين الكبيرين شيخى الإسلام أحمد بن تيمية ، وابن القيم الجوزية ، فانفتح له بمطالعة كتبهما آفاق واسعة بعيدة فى العلم والتطبيق ، ونظر إلى ما حوله وإذا العلوم الشرعية فى واد والناس فى واد آخر ، العلوم الشرعية تدعو إلى أن يعبد اللّه تعالى وحده وأن لا يعبد إلا بما شرع ، والناس أكثرهم لا يعبدون اللّه وحده ، ولا يعبدونه بما شرع ولكن بما ابتدعوا وحسنوا ، فالشرك بأنواعه الأكبر والأصغر ، والخفى والجلى ، شائع ذائع معمول به ، وأكثر العبادات أعطيت حكم العادات ، فلا تأثير لها فى تزكية النفس وإصلاحها وذلك لخلوها من متابعة الرسول ﷺ ، ومن روح الإخلاص للّه تعالى .

وهنا أخذ الشيخ تفكير عميق ، وتواردت عليه أسئلة عديدة :

هل ما عليه المسلمون اليوم فى هذه الديار هو فرض للّه تعالى ؟ وهل المسلمون فى غير هذه البلاد أحسن حالاً من هؤلاء ؟ ما هى مقومات إصلاحهم ، وعلى ما يصلحون ، وتقفز إلى ذهنه إجابات متعددة ، قد يكون منها : إن مقومات إصلاحهم أن يعلموا فإن أكثرهم لا يعلمون ، وأن ما يصلحون عليه لن يكون غير ما صلح عليه المسلمون الأولون : إنه الرجوع إلى كتاب اللّه وسنة رسوله تعلماً وعلماً وعملاً وتطبيقاً وتحرك الداعية الموهوب فى محيط بلده ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، فتقابل دعوته بالإستنكار الشديد بل وبالتجهيل له أحياناً والتسفيه ، ورأى أن الرسوخ فى العلم ضرورة لمن أراد أن يقوم بالدعوة الإسلامية واقتنع برأيه وهنا عزم على الرحلة إلى ديار الإسلام لتحقيق غرضين ساميين أولهما : التزود من العلم والإكثار من المعرفة ، والثانى : الاطلاع على أحوال المسلمين ومعرفة ماهم عليه من الهدى والضلال .

وحان موعد الحج إلى بيت اللّه فخرج الشيخ حاجاً وتمكن بذلك من الإتصال المباشر بالعالم الإسلامى فعرف ما عليه المسلمون علماء وجهالا ، وأن حالهم لا تختلف عن حال أهل بلاده النجدية ، وقضى حجه ، وجلس إلى العديد من علماء المسجد الحرام ، وأخذ عنهم ثم شد الرحل زائراً المسجد النبوى الشريف ، وتم له التشرف بالوقوف على قبر

الرسول ﷺ فزاره وزار صاحبيه ، وجلس إلى العلماء وكانوا كثيرين بالمسجد النبوى حتى لكأن المسجد النبوى جامعة قائمة بذاتها ، فأخذ الحديث عن رجاله ، وأخذ التفسير عن علمائه ، وتضلع فى كثير من العلوم كالفقه الحنبلى ، والتوحيد السلفى ، ثم رحل إلى البصرة فطلب العلم بها من كبار علمائها ثم رحل إلى الشام ، كما روى راجلاً بلا زاد ولا راحلة حتى كاد يهلك فى بعض أسفاره ، إلا أن اللّه أنجاه ، وكذلك ينجى اللّه تعالى أولياءه .

ولما امتلأ وطابه وطال فى العلم باعه ، ورسخت فى المعرفة قدمه عاد إلى بلاده النجدية ، وقد عرف أحوال المسلمين ، وعرف ما هم عليه من شرك وضلال وجهالات جهلاء ، وغوايات دهماء وأيقن أنه لا دواء ولا شفاء إلا بالعلم والعمل ، العلم بشرع اللّه تعالى والعمل به ، فوطن نفسه لذلك واستعان باللّه تعالى وبدأ دعوته .

كماله العلمى :

إن آية كمال علم المرء ورسوخه فيه هو ما يتحلى به من صفات الكمال النفسى وما يقوم به من دعوة وعمل ، ومن هنا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب على درجة من الكمال العلمى لا تدانى ولنستمع إلى الشهادة التالية قال بعض من ترجم له : كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه تعالى علماً من الأعلام ناصراً للسنة مانعاً للبدعة ، خبيراً مطلعاً ، إماما فى التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصوله ، وعلوم الآلة كالنحو ، والصرف والبيان ، عارفاً بأصول عقائد الإسلام وفروعها ، كشافاً للمشكلات حلالا للمعضلات ، فصيح اللسان فى الحجة ، مقتدراً على إبراز الأدلة وواضح البراهين بأبلغ عبارة وأبينها تلوح ، على محياه علامات الصلاح ، وحسن السيرة وصفاء السريرة ، يحب العباد ويغدق عليهم من كرمه ويصلحهم ببره وإحسانه ، ويخلص للّه فى النصح والإرشاد ، كثير الاشتغال بالذكر والعبادة قلما يفتر لسانه عن ذكر اللّه .

ومن مؤلفاته العديدة ما يلى :

١ ــ استنباط من القرآن (يقع فى جزئين)

٢ ــ مختصر صحيح البخارى .

٣ ــ أصول الإيمان .

٤ ــ كتاب الكبائر

٥ ـ آداب المشى إلى الصلاة .

٦ ـ مختصر الإنصاف والشرح الكبير فى الفقه .

٧ ـ كشف الشبهات .

٨ ـ مختصر السيرة .

٩ ـ الثلاثة الأصول .

١٠ ـ نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين .

١١ ـ مختصر زاد المعاد .

١٢ ـ مسائل الجاهلية .

وبهذه تبين أن الشيخ الداعية الكبير ما أطلق عليه لقب شيخ الإسلام إلا لكمال علمه ، وما حققه به من هداية الخلق لا يحصون عدا ، ولا يعدون كثرة ولا يخطىء المرء ، إن قال : إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وإن كان تلميذاً للإمامين الجليلين : ابن تيمية ، وابن القيم فى علومه ، وأفكاره ، ومقومات دعوته ، وأسباب جهاده ، فإنه قد كان له الفضل الكبير فى مد دعوة الإصلاح التى قام بها الإمامان المذكوران آنفا بعد أن انكمشت ، وكادت تذوى وتموت ، فبعث اللّه الشيخ فجدد حياتها وأمدها بروح قوية ودفعها بحركة اطرد بها سيرها ، وحتى بلغت ما بلغ الليل والنهار فى هذه الأيام ، وهذا عائد إلى ما وهب الشيخ من صدق نية وصفاء طويه ، وإخلاص للّه تعالى فى السر والعلانية .

دعوته الإصلاحية :

بدأ الشيخ دعوته الإصلاحية التى أطلق عليها المغرضون من ذوى النيات السيئة (المذهب الوهابى) بدأها رحمه اللّه تعالى بقرية الحريملا حيث انتقل إليها والده الشيخ عبد الوهاب من العيينة وكانت حالة البلاد النجدية العقائدية من أسوأ البلاد حالاً ، إذ كان بها بعض القبور المنسوبة إلى بعض الصحابة رضى اللّه عنهم كانت تحج ، ويطلب منها حجاجها وزائروها قضاء الحاجات ، ويستغيثون بها عند الشدائد ، وإلمام الملمات ، ومن بين تلك القبور قبر زيد بن الخطاب ولم يقف أمر أهل الجهل والباطل على عبادة القبور فحسب بل استغاثوا بالأشجار والأحجار . فقد كان أهل المنفوحة يتوسلون بفحل نخل ، ومن ذلك قول العانس من النساء : يا فحل الفحول أريد زوجاً قبل الحول .

وما أن أعلم أهل بلاده بضلالهم ، وأنكره عليهم حتى قام الناس رجالاً ونساء ينكرون على الشيخ ويناصبونه العداء لطول ما ألقوا من الباطل وما اعتادوا من الضلال ومع هذا فقد اهتدى أناس على يد الشيخ وأصبحوا أنصاراً وأعواناً .

ولما أذن اللّه بنصر دينه ، بيت بعض العبيد الأنكاد المناجيس للشيخ فتسوروا عليه جدار المنزل وأرادوا الفتك به ، غير أن اللّه أيقظ رجالاً من أهل الحى فصاحوا فيهم فهربوا ، وهنا قرر الشيخ العودة إلى بلاده وكان بها حاكم صالح يقال له عثمان بن حمد بن معمر ، فتلقى الشيخ بغاية الحفاوة والتكرم وعرض الشيخ عليه الدعوة فقبلها بعد أن عرف أنها حق وأن غايتها إصلاح العباد والبلاد وبانضمام هذا الأمير إلى الدعوة عزت فأمكن الشيخ أن يعلنها داوية ، وأن يغير الباطل بيده بعد أن عجز عن تغييره بلسانه فهدم قبة زيد بن الخطاب وقطع ما كان يعظم من الأشجار فعظم شأن الشيخ وذاع صيته فى البلاد .

وهنا شعر حاكم الأحساء بخطر الدعوة إذا استفحل أمرها فكتب إلى واليه عثمان بن معمر يقول له : إن المطوع الذى عندك قد فعل وفعل فإذا وصلك كتابى هذا فاقتله ، وإلا قطعنا عنك خراجك ، فخاف عثمان على مركزه فأمر بإخراج الشيخ من بلده ، فخرج الشيخ يمشى على رجليه ووراءه فارس موكل به .

ومن كرامات الشيخ رحمه اللّه أن الفارس الموكل به قد هم بقتله فى الطريق بإيعاز من ابن معمر ، غير أنه لما هم ارتعدت يده وخارت قواه ولم يفعل ، فكفى اللّه الشيخ شره والحمد للّه ، وهذه ثمرة من ثمار ذكر اللّه تعالى والتوكل عليه ، إذ كان الشيخ فى طريقه لا يفتر عن ذكر اللّه ومن الحين إلى الحين يردد قول الله تعالى : ﴿ **ومن يتق اللّه يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ (1) ، ﴿ **ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه** ﴾ (2) .

وصل الشيخ قرية الدرعية ونزل ضيفاً على الشيخ عبد الرحمن بن سويلم وخاف الأخير على نفسه من الأمير محمد بن سعود أمير المنطقة ، فسكن الشيخ من روعه ، وطمأنه على نفسه فسكن وهدأ ، وعلم بوجود الشيخ عند ابن سويلم أعيان البلاد وضواحيها ، فزاروا الشيخ خفية فوعظهم ورغبهم فى الخير ، بين لهم أهداف دعوته وأنها دعوة حق وخير ، وكان للأمير محمد بن سعود أخوان وزوجة صالحة ، فعزموا ثلاثتهم على أن يذكروا للأمير عن وجود الشيخ ويرغبونه فى زيارته والاتصال به ، ونصرته وتأييده ففعلوا فزار الأمير الشيخ فدعاه إلى التوحيد ، وبينه له ، ورغبة وبشره بنصر اللّه تعالى إن

(1 ، 2) الطلاق : 2 ، 3 .

هو نصر دينه ، واقتنع الأمير بالمبدأ وأعلن تأييده للشيخ ونصرته على إبلاغ دعوته ، غير أنه اشترط على الشيخ شرطين الأول : أن لا يرجع الشيخ عنه إن نصرهم اللّه ومكن لهم ، والثانى : أن لا يمنعه من أخذ الخراج المضروب على أهل الدرعية وقت الثمار فأجابه الشيخ إلى ذلك فقال : أما الأول فالدم بالدم والهدم بالهدم ، وأما الثانى فلعل اللّه يفتح عليك الفتوحات وتنال من الغنائم ما يغنيك اللّه به عن الخراج .

وهنا دخلت الدعوة طوراً جديداً إذ علم الناس بانضمام الأمير محمد بن سعود إلى صف الدعوة ، فعرفوا أن الشيخ عز جانبه ، فأخذ الناس يفدون من أنحاء البلاد النجدية عليه لا سيما من سبق أن اقتنع بالدعوة وآمن بها ، وكثر عدد الأنصار فخافها أصحاب المنافع المادية فناصبوها العداء ، وبدأت الحرب بين فريق الهدى وفريق الضلال ، ودارت المعارك دامية ، ونصر اللّه جنده ، فأخذت القرى النجدية تسقط الواحدة تلو الواحدة ولم تمض سنوات حتى سقطت العاصمة الرياض ودخلها الإمامان إمام القلم ، وإمام السيف ، وتكونت أول دولة قرآنية فى البلاد النجدية وذلك سنة ١١٨٧ هـ وبعدها بسنة توفى الإمام محمد بن سعود ، وبويع لولده عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وهنا أسند الشيخ مهام الأمور إلى الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود وتفرغ لنشر العلم ، والدعوة فأقبل على إلقاء الدروس ومراسلة العلماء والحكام فى أنحاء العالم الإسلامى ، يشرح لهم الدعوة ويبين لهم حقائق التوحيد ، ويظهر لهم ماهم عليه من الباطل والضلال ، ووصل صوت الشيخ إلى أقاصى البلاد الإسلامية وأجابه من أراد اللّه هدايته ، وأعرض من لم يكن أهلاً للخير والفلاح ، هذه دعوة الشيخ الإصلاحية التى أثمرت وجود دولة إسلامية بكاملها اتسع نطاقها حتى غزت على يد الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود العراق ووصلت إلى كربلاء وأوقعت بأهلها خسائر جساماً وهدمت قبة الحسين بها .

صبر الشيخ وما لاقى من أذى :

إن ما لاقاه الشيخ من الشدائد وما قاساه من أذى الناس فى سبيل الدعوة إلى الحق أمر لا يوصف وحسبه أن عاش مجاهداً طيلة عمر مديد بلغ إحدى وتسعين سنة [1] وحسبنا من ذكر صبر الشيخ ذكر مواطنه وقد مر بنا بعضها من ذلك سفره فى طلب العلم إلى الشام على رجليه حيث لم يجد راحلة ولا دابة يركبها ، وما لاقى من مشاق السفر مما أشرف معه على الهلاك خروجه من العيينة بأمر بن معمر وهو حاسر الرأس حافى القدمين

(١) إذ ولد الشيخ سنة ١١١٥ هـ وتوفى سنة ١٢٠٦ هـ .

خائفاً يترقب ، وقد هم الفارس الموكل به فى الطريق بقتله ، فاستل سيفه وأراد أن يضرب الشيخ ، غير أن اللّه تعالى أنزل به رعباً فشل معه فى ضرب الشيخ ، الحروب التى دارت فى بلاد نجد وشنها عليه وعلى الأمير محمد بن سعود أعداء الإصلاح والتوحيد تلك الحروب التى دامت سنوات كلها خاضها الشيخ جنباً إلى جنب مع الأمير محمد بن سعود والموحدين ، وقد يغنينا عن مزيد ذكر الأحداث الجسام التى يتجلى فيها صبر الشيخ تحمله الأذى فى سبيل دعوة الحق ، أن أخاه سليمان وهو شقيقه قد تصدى له يوماً فى إبان الدعوة وظهورها ، تصدى له أخوه فطعنه بسكين طعنات قاتله وفر والتحق بصفوف أعداء الدعوة الإسلامية ، غير أن اللّه تعالى رحمه ببركة دعاء الشيخ فتاب وعاد إلى صفوف دعوة الحق وناصرها حتى مات .

نجاح الشيخ فى دعوته وسر ذلك النجاح :

إن نجاح دعوة الشيخ أمر ظاهر لا يشك فيه ، وقضية مسلمة لا يجادل فيها فما من دعوة إصلاحية ظهرت بعد دعوة الشيخ وفى كل ديار المسلمين شرقاً وغرباً إلا وهى ترديد لصدى دعوة الشيخ رحمه اللّه تعالى ، وبالرغم من العنف الذى واجه دعوة الشيخ والشدة التى حوربت بها من قبل السياسيين والعلماء والانتفاعيين من ذوى النيات الفاسدة ، والأغراض الخبيثة فإنه لم يبق صقع من إصقاع العالم الإسلامى إلا وفيه مؤمنون قلوا أو كثروا يترحمون على الشيخ ويدعون بدعوته ، ويسيرون على منهجه فى الدعوة إلى اللّه تعالى وخير ما يقال فى هذا الحديث عن نجاح دعوة الشيخ : إن دعوة الشيخ شابهت دعوة المصطفى ﷺ فى كل مراحلها والتى انتهت بنصرها ، ولنورد وجوه الشبه فنقول : إن النجدية صورة خاصة كانت عند ظهر الشيخ فى غاية الفساد والضعف من حيث العقائد والأخلاق والسلوك العام والخاص ، وكذلك كانت حال مكة والبلاد حولها عند بعثة الرسول ﷺ ، عندما بدأ الشيخ دعوته فى نجد بدأها سراً وكان المؤمنون بها قلة لا تذكر ، ولاقت من الضغط الشديد والعداء العنيد « مما اضطر الشيخ إلي الهجرة من الحريملا إلى العيينة ، ثم إلى المدينة ، وكذلك أتباعه كالذى حصل لرسول اللّه ﷺ ، حتى أسفروا بدار الهجرة والإيمان بالمدينة المنورة .

عندما آمن بدعوة الشيخ الأمير محمد بن سعود وانتصر لها أصبحت الدرعية مركز الدعوة ومنطلقها كالذى تم للرسول ﷺ وأصحابه بالمدينة النبوية ، إذ بعد الهجرة إليها والاستقرار بها أصبحت مركز الدعوة ومنطلقها ، بدأ جهاد الشيخ المسلح من الدرعية كما بدأ جهاد رسول اللّه ﷺ المسلح من المدينة ، انتصرت الدعوة الإسلامية على يد

رسول الله ﷺ وأصحابه بعد أن خاض الرسول ﷺ وأصحابه المعارك البطولية ضد جيوش البغى والطغيان ، انتهت بتطهير مكة وكل شبه الجزيرة من الشر ومظاهره والفساد وآثاره ، وأعلن فيها عن التوحيد والحق والعدل وسادها طهر وصفاء وعدل وأمن ورخاء ، وانتصرت دعوة الشيخ فى نجد أيضاً بعد معارك طويلة خاضها الشيخ وآتباعه على الحق وانتهت بتطهير البلاد النجدية من الشرك والخرافة والباطل والشر والفساد وسادها العلم والعدل وحل بها الأمن والرخاء بتكوين دولة آل سعود بها الأمر الذى لا مجال لإنكاره .

ففى هذه المراحل كلها كان الشبه بين الدعوتين كبيرا مع الفارق الذى هو النبوة وعدمها ، وآخر وجوه الشبه أن الرسول ﷺ راسل الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام لسعادتهم وكمالهم ، فراسل كسرى وقيصر وغيرهما ، فكذلك الشيخ راسل أمراء وعلماء العالم الإسلامى يدعوهم إلى الإسلام ، ومن بين ما أذكر رسالة وجهها إلى علماء جامع الزيتونة بتونس ، ورسالة وجهها إلى الملك سليمان ملك المغرب ، وقد رحب الأخير بالرسالة وشرحها لرجاله وقدمها للأئمة فى خطبة الجمعة ضمنها أهداف الدعوة الإسلامية ، جزى الله تعالى كلا من المرسل والمرسل إليه خير الجزاء .

وأخيرا : إن سر نجاح دعوة الشيخ يكمن فى أمور يجب أن لا تغيب عن ذهن الداعى الإسلامى الذى يريد أن يبلغ الكمال فى دعوته وتلك الأمور هى :

١ ـ العلم والمعرفة والرسوخ فى ذلك ، الأمر الذى يمكن الداعى من إظهار الحجج ، ومقاومة الباطل ، وإظهار زيف التضليل مهما طلى وحسن ونمق .

٢ ـ قوة الصلة بالله تعالى ، وذلك بالإكثار من القربات ، وفعل الطاعات .

٣ ـ الترفع عن الدنيا والزهد فى حطامها الفانى ، وعدم الالتفات إلى ملاذها .

٤ ـ الإخلاص فى الدعوة إلى الله تعالى ، وعدم نسوبها بأمة شرك ما .

٥ ـ الصبر والتحمل وعدم الكلل أو الملل بحال من الأحوال .

٦ ـ توطين النفس على الجهاد وخوض معاركه عندما يحين وقته ويتعين القيام به .

هذه الأمور كلها قام بها الشيخ واتصف بها فى مثالية نادرة ، فكانت سر نجاحه فى دعوته وبلوغها أهدفها فى الهداية والإصلاح ، ولا يسعنا هنا إلا أن نترحم على الشيخ ، ونسلم عليه ، فرحمة الله عليك يا ابن عبد الوهاب ، وسلام عليك فى المجاهدين ، وسلام عليك فى الدعاة الصالحين .



من رسائل الدعوة

الدولة الإسلامية

تأليف

أبو بكر الجزائري

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين
النبى الأمى محمد وآله وصحبه أجمعين

التعريف

وبعد :

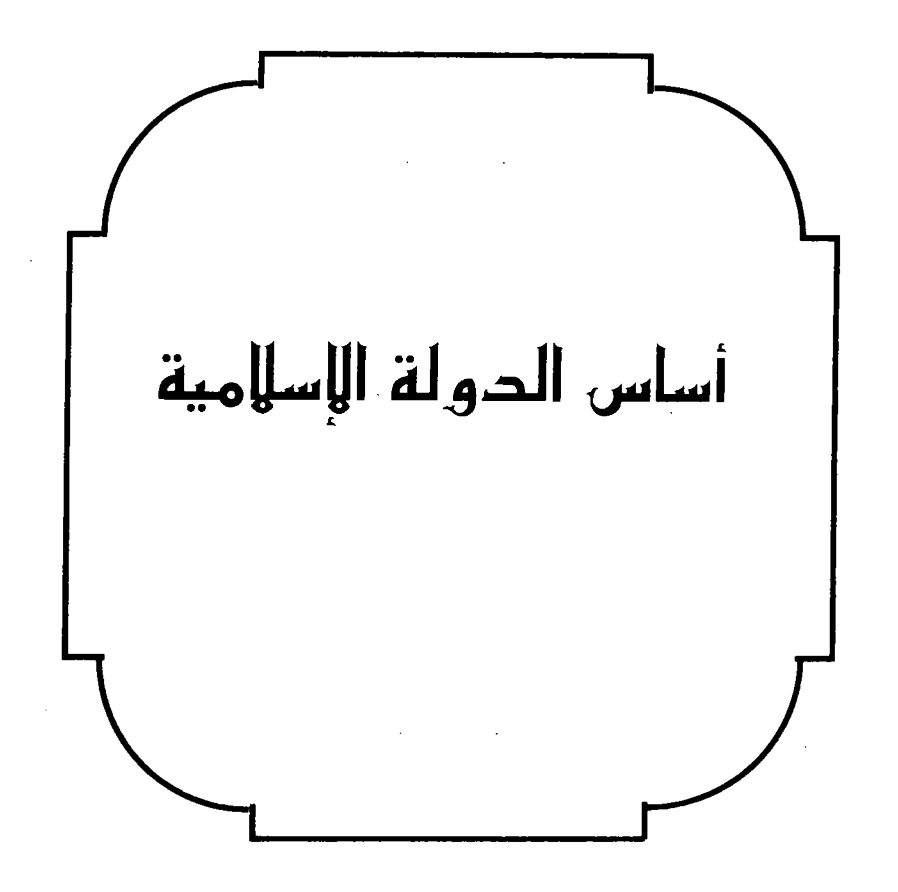
الدولة الإسلامية

رسالة من رسائل الدعوة

ترسم الصورة الصادقة لما تكون عليه الدولة الإسلامية فى عصر الحضارة ، والتقدم العلمى الذى غير كثيرا من معالم الحياة ، وبدل جوانب كبيرة من مظاهر التفكير البشرى .

وتعطى العالم الإنسانى نموذجا للحياة السعيدة الفاضلة التى جاء الإسلام بتحقيقها للناس أجمعين ، متى آمنوا به دينا وعملوا به منهجا ، وحكموا به قانونا ، وتقيدوا به نظاما .

وتهيب بكل محبى السعادة البشرية ، والعاملين على تحقيقها لبنى الإنسان أن يجعلوا الدولة الإسلامية التى هى الآن (فكرة) تحملها هذه الرسيلة الصغيرة حقيقة واقعة يعيش عليها الناس وتسعد بها البشرية جمعاء ، وذلك من طريق الإيمان والجهاد .


أساس الدولة الإسلامية

الإيمان .

الأمة .

مادة الحكم .

الحاكم .

الحكومة .

هذه خمسة أسس عليها يقوم بناء الدولة الإسلامية ، تلك الدولة التى تكفل ـ بإذن الله تعالى ـ سعادة الفرد والمجتمع ، والتى هى الأمل الذى تتطلع إليه البشرية فى كل أنحاء العالم الإنسانى والأمنية الغالية لكل العقلاء فى الأرض والحاجة الملحة لكل البشر فى هذا الوجود .

والأمل معقود فى الشبيبة الإسلامية الناهضة أن تقوم بمهام إيجاد هذه الدولة المأمولة المرتقبة ، والتى إن وجدت حققت بإذن ربها ـ للعالمين الإسلامى والإنسانى كل خير وسعادة .

الأساس الأول

للدولة الإسلامية

الإيمان

تعريف:

* الإيمان روح يسرى فى الأجسام الميتة فتحيا بإذن الله .

* والإيمان طاقة هائلة إذا تفجرت دكت كل ما حولها من صخور الجمود ، وحصون الأوهام والمخاوف ، وقضت على جيوش الشر والباطل .

* والإيمان نور من الله تعالى متى يشع فى قلب امرىء أضاء لصاحبه كل الآفاق فى الكون والحياة .

* والإيمان خصيصة بشرية تتغير بها المفاهيم ، وتتبدل بها الغرائز ، وتجعل من الإنسان الضعيف قوة يتمكن بها من القهر والاستعلاء على كل ما حوله من مخلوقات هذا الوجود الأرضى .

* والإيمان رحمة إلهية يدخل الله فيها من يشاء من عباده ، فمن أدخله فيها فقد تأهل لكل سعادة بشرية ، وتهيأ للوصول إلى أرقى ما يمكن أن يصله الإنسان من الكمال البشرى فى هذه الحياة .

عناصر الإيمان

ومبنى الإيمان هذه العناصر الستة :

* الإيمان بالله تعالى .
* الإيمان بلقاء الله سبحانه وتعالى .
* الإيمان بكتاب الله عز وجل .
* الإيمان برسول الله محمد ﷺ .
* الإيمان بالمثل العليا فى الحياة .
* الإيمان بأقضية الله تعالى ومجارى أقداره .

هذه هى العناصر التى يقوم عليها الإيمان الذى هو أحد أسس الدولة الإسلامية الخمسة التى تنبنى عليها . فتحقق للبشرية السعادة التى تحلم بها ، وتطلبها ، وتتطلع إليها منذ زمن طويل . ولم تجد إلا فى ظل هذه الدولة التى يجب أن تكون ، لأنها ضرورات الحياة البشرية فى هذا الوجود .

أ ـ الإيمان بالله تعالى :

ما كان لدولة تقوم على أساس الإلحاد ونكران الحق ، والكفر بالله عز وجل وكتابه ورسوله ، ولقاء الله تعالى ، ما كان لها أن تحقق خيرا أبدا ، ولا ينبغى أن يطلب منها ذلك ، أو ترجى فيه ، لأن عنصر كل خير وهو الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وما يستتبعه من الإيمان بملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، هو أساس قيام الدولة الإسلامية ، ومعناه ـ الإيمان أن كل فرد من أفراد الأمة والحكومة يؤمن بوجود الله تبارك وتعالى ، وأنه فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، العزيز الحكيم . رب كل شىء ومليكه لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

كان ولم يكن شىء قبله ، وكتب فى الذكر ما كان ، وما هو كائن إلى يوم القيامة .

خلق الملائكة وهم من أعظم وأجل مخلوقاته ، وأطهرهم وأصفاهم . خلقهم من نور ، وطبعم على الخير ، فهم عباده المكرمون ، لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وخلق الجان من مارج من نار ، وطبع منهم إبليس وذريته عى الشر فهم غواة شريرون خبثاء يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وما يرى فى الناس من مظاهر الشر والفساد هو من عمل إبليس وذريته ، بدعوتهم إليه ، وتحريضهم عليه وجعل باقى الجن قابلين للهداية والغواية فمنهم الصالحون ومنهم دون ذلك .

وخلق الإنسان من طين فسواه ونفخ فيه من روحه . وجعل نسله من سلالة من ماء مهين . فصور فى الأرحام فأحسن التصوير ، وجعل السمع والبصر والفؤاد ، ليذكر ويشكر . وجعل كلا من الجن والإنس قابلا للشكر والكفر ، وللكمال والنقص ، فأنزل إليهم الكتب ، وبعث فيهم الرسل توضيحاً للمحجة ، وإقامة للحجة ، فمن أخذ بهداية الله من إنس وجان نجا من الخسران . وفاز بالجنان . ومن لم يأخذ بها هلك ، وباء بالخسران وحرم نعيم الجنان .

وجعل أهل طاعته بذكره وشكره هم أهل محبته ورحمته ، وجعل أهل معصيته بنسيانه وكفره هم أهل بغضته وعذابه .

وخلق الحيوان لحكم كثيرة هو يعلمها ، وأسرار عجيبة اطلع من شاء عليها . وأنزل لعباده من الأنعام ثمانية أزواج فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع كثيرة ومشارب لذيذة . وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة ، ويخلق ما يشاء وهو العليم القدير .

ولازم هذا المعتقد أمور هى :

١ ـ أن لا يدين فى الأمة أحد إلا لله ، إذ لا إله إلا الله ، ولارب سواه وعليه فلا آمر ولا ناهى ، ولا شارع ، ولا مطاع على الحقيقة إلا الله .

٢ ـ الاعتراف التام بنظام القدر ، وأن كل شىء كان به ، وجرى بحسبه ، فلايجوز لأحد فى الأمة أن يسخط قضاء الله ، أو يبدى عدم رضا بأى حكم من أحكام الله تعالى .

٣ ـ الإيمان الكامل بعالم الملائكة ، وبما وصفهم الله تعالى به ، وبما أخبر به عنهم من طاعتهم وطهارتهم وقربهم .

٤ ـ التصديق بوجود الجن وأعمالهم وأحوالهم ، وأن منهم شياطين لا خير فيهم هم سبب إغواء الإنسان وإفساده وأن منهم خلقا آخر ذا قابلية للطاعة والمعصية ، قد كلف بطاعة الله وطاعة رسوله . فمن أطاع فقد تحرى رشدا ومن عصى فقد كان لجهنم حطبا .

٥ ـ وجوب تكريم الإنسان ، واحترام آدميته ، والمحافظة على سلامة فطرته وعنصر الخير فيه .

٦ ـ تحقق كمال الإنسان بهداية الله تعالى التى هى شرائعه ، وأحكامه وكون سعادته بها ، ونقصه وخسرانه بعدم أخذه بها ، ومجانبته لها .

٧ ـ تقرير رحمة الحيوان ، وتعيين رعايته ،ولزوم حمايته ليبقى صالحا للانتفاع به ، والاستفادة منه .

ب ـ الإيمان بلقاءالله سبحانه وتعالى :

كل فرد فى الدولة الإسلامية ملتزم بمبدأ الإيمان بالحياة بعد الموت والبعث بعد الفناء ، والحشر للحساب والجزاء . وهذا معنى الإيمان بلقاءالله سبحانه وتعالى ، وبيوم القيامة واليوم الآخر ، وما يستتبع ذلك من أحوال أهل الموقف وأهواله ، ومن نعيم أهل النعيم فى الجنة دار الأبرار ، ومن شقاء أهل الشقاء فى النار دار الفجار .

ويعتبر هذا المعتقد فى أهمية المعتقد الأول بالنسبة لكل فرد من أفراد الأمة والدولة ، إذ عليه مدار توجيه الإنسان وإصلاحه فهو بمثابة الطاقة المحركة نحو الخير والاستقامة ، والتى بدونها لا يتم إصلاح الفرد ولا توجيهه بحال من الأحوال .

ومن هنا كان الإيمان بالبعث والجزاء ضرورة من ضرورات الحياة ـ الفاضلة ، فلا استغناء عنه ولا بديل أبدا ، وذلك لتعذر تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق لدى المواطنين بدونه . وعظمة الدولة وعز جانبها وقوة سلطانها ، إنما هى مستمدة من صحة أفرادها وسلامتهم.

والفرد إذا لم يكن مؤمنا بعلم الله تعالى بأفعاله ، وقدرته عى مجازاته بها ، خيرها وشرها ، حسنها وسيئها ، وبأن ذلك كائن لا محالة يوم يلقى ربه عز وجل فى الحياة الثانية بعد نهاية هذه الحياة الأولى فإنه (الفرد) يتعذر إلى حد الاستحالة تهذيبه وإصلاحه .

ومتى بقى الفرد غير مهذب ولا صالح فإن وجوده خطر على الهيئة الاجتماعية ، وضرر أى ضرر ، ومن الحزم إصلاحه أو إقصاؤه . وإصلاحه بدون عقيدة البعث والجزاء منتف قطعا . ولم يبق إلا الإقصاء ممكنا فليقص عن الدولة الإسلامية كل فرد لايؤمن بالله تعالى ، ولقائه ، حفاظا على سلامة الدولة والهيئة الاجتماعية ، وأمنها .

ولازم هذا المعتقد أمور هى :

١ ـ إيثار الدار الآخرة على الدنيا ، والتطلع إلى ما أعد الله تعالى إلى أوليائه فيها ، وهذا من شأنه أن يبعث على الإكثار من الصالحات ، والتنافس فى الخيرات ، والمسابقة إليهما وهذا عنوان المجتمع الصالح السعيد .

٢ ـ قلةالرغبة فى الحياة الدنيا ، وهذا منبع أكثر الفضائل كالشجاعة والكرم والإيثار ، والحلم ، والتواضع ، والصدق والوفاء .

٣ ـ الإحسان فى الأعمال بإتقانها وتجويدها ، وطلب معالى الأمور ، وإحسانها ، وترك نقائصهاوسفسائها.

٤ ـ الائتلاف ، وحب الجماعة ، والتعاون على البر والتقوى .

جـ ـ الإيمان بكتاب الله عز وجل :

إن القرآن الكريم الذى هو كتاب الله صدقا وحقا أنزله الله وحيا على رسوله محمد ﷺ . هذا الكتاب الذى هو من أعظم الأدلة ، وأقوى البراهين على وجود الله تعالى وعلمه وقدرته ، وكماله المطلق . يؤمن به كل مواطن فى الدولة الإسلامية ، وأنه حقا كتاب الله ووحيه أنزله على رسوله محمد ﷺ وأوحاه إليه فنسخ به الكتب السابقة وضمنه شرائعه وهدايته فهو مصدر التشريع الأول ، ومنبع الهداية الكاملة ، فلا يقدم عليه شرع ولا يعدل به سواه .

فما أحل من شيء فهو الحلال ، وما حرم فهوالحرام . أخباره كلها صدق يجب قبولها واعتمادها ، ولو أنكرها الناس أجمعون . وأحكامه كلها عدل يجب تنفيذها ، والرضا بها ، والتسليم لها ، ولو خالفها الناس أجمعون . يدعى المواطنون حفظه ودراسته وتعلمه وتعليمه ، ويشجعون على ذلك بإكرام أهله الذين هم أهل الله وخاصته ، واحترامهم ،

وتبجيلهم ، وتقديمهم على غيرهم فى المناصب والرتب وخاصة من كان منهم فقيها عالما بسنة الرسول ﷺ .

ولازم هذا المعتقد أمور هى :

١ ـ تقرير شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، إذ كتاب الله دال على وجوده وعلمه وقدرته وكماله . ونزوله على محمد ﷺ دال على نبوته ورسالته .

٢ ـ التصديق بكل ما أنزل الله على رسله من كتب ، وما أوحى إليهم من شرائع ، إذالإيمان بكتاب الله مستلزم الإيمان بكل كتاب أنزله الله تعالى .

٣ ـ كون القرآن ناسخا لما سبقه من الكتب كما هو الحق والواقع مستلزم لعدم الالتفات إلى تلك الكتب ، ولعدم الأخذ منها والاعتماد عليها فى شىء من الشرع ، إذ ما بقى فيها من وحى الله تعالى قد بطل مفعوله بنسخه بأخر الكتب وهو القرآن الكريم ، وما لم يكن وحيا مما وضعه علماء أهل الكتاب من الترهات والأباطيل ، فإنكاره وعدم الاعتراف به واجب فضلاً عن قبوله والأخذ به فى عقيدة ، أو شرع .

٤ ـ كفرمن حكم بغير القرآن ، أو حرف شرائعه أو بدلها ، أو رفض بعض أحكامه ولم يقبلها .

٥ ـ تقرير مبدأ أن القرآن الكريم هو مصدرالتشريع الإسلامى الأول ، وتليه سنة الرسول ﷺ الصحيحة ثم الإجماع المعتبر ، والقياس الصحيح .

د ـ الإيمان برسول الله محمد ﷺ :

يؤمن كل فرد من أفراد الدولة الإسلامية بنبوة محمد العربى ورسالته ﷺ ، وأنه خاتم النبيين فلا نبى يأتى بعده ، ولا رسول ، وأن رسالته عامة لكافة الناس وفى كل أنحاء العالم . وأن البشر كلهم أبيضهم وأسودهم مطالبون تكليفا إلهيا بالإيمان به ، وباتباعه فى كل ما جاء به من الدين والهدى والشرع .

وأن الدين الذى جاء به وهو الإسلام قطعا هو منهج الحياة الإنسانية الكامل الذى يكفل لها أفرادا وجماعات ، أمما وشعوبا سعادة الحياتين الدنيا والآخرة ، إن هى أمنت به وسارت عليه فى ظروفهاوسائر حياتها .

ولازم هذا المعتقد أمور هي :

١ ـ الإيمان بسائر الأنبياء والمرسلين الذين سبقوا فى التاريخ وتقدموا كنوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم صلى الله عليهم وسلم أجمعين ، إذ الإيمان برسول واحد من رسل الله تعالى مستلزم عقلا وشرعا للإيمان بكل الأنبياء والمرسلين ، لأنه لا معنى للإيمان ببعض والكفر ببعض إلا اتباع الهوى ، والتعصب الأعمى والعياذ بالله تعالى من ذلك .

٢ ـ عدم الاعتراف بأية دعوة أو نبوة بعد محمد ﷺ ، ومهما كانت ، ومن أى مصدر أتت ، وأية جهة (جاءت) ، لإخبار الله تعالى بختم النبوات بالنبوة المحمدية .

٣ ـ وجوب ترك العمل بأية ملة أو نحلة من هذه الديانات الباطلة التى أصر عليها المنتسبون إليها ، وبقوا متشبسين بها كاليهودية ، والنصرانية وغيرهما ، وذلك لنسخ كل الديانات السابقة والشرائع المتقدمة بدين الإسلام ، والمنسوخ يبطل العمل به عقلا وشرعا .

٤ ـ لزوم اتباع الرسول ﷺ ، وطاعته فى أمره ونهيه ، وتصديقه فى كل ما أخبر به ، وجاء به من الشرع والغيب .

٥ ـ فرضية توقيره ﷺ وتعظيمه ومحبته محبة فوق النفس والأهل والمال .

هـ ـ الإيمان بالمثل العليا فى الحياة :

يؤمن المواطن فى الدولة الإسلامية بالحسنى ، ويصدق بالخير . ويعترف بسامى الأخلاق ، ومعالى الأمور كالصدق فى الحديث ، والوفاء بالعهد ، وإنجاز الوعد ، وحفظ الأمانة ، وخلق الحياء ، وحب الخير ، والرأفة بالخلق ورحمتهم ونصرة المظلوم ، ومساعدة المحتاج ، وإغاثة اللهفان ، وتأمين الخائف والإنصاف من النفس ، وأداء حق الجار ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وتوقير الكبار ، ورحمة الصغار ، وإجلال لكل الفضل ، واحترام أهل السبق فى الخير . ويترجم هذا الاعتراف وذلك الإيمان بقوله وعمله فلا يرى بين الناس إلا متحليا بتلك الصفات قائمة بتلك الكمالات .

كما ينكر الموطن فى الدولة الإسلامية أضداد ذلك من الكذب ، وخلف الوعد ، وإضاعة الأمانة ، والبذاء ، والفحش فى القول والعمل ، والقسوة ، والجفاء ، وقطع الرحم ، وأذية الجيران ، وإنكار المعروف ، وإهمال الحقوق ، وحب الذات والأنانية ، وإهانة الكبار ، واحتقار الصغار ، وما إلى ذلك من ذميم الصفات ، وقبيح الأقوال ، وسيئ الأفعال .

ولازم هذا الإيمان والاعتراف هو :

كمال الخلق ، وسمو الروح ، وشرف النفس ، وقوة الشخصية . وهذه هي الصفات الأساسية لتكوين الشخصية المثالية ، وإبراز الصورة الحقة للإنسان الصالح الذى يستحق خلافة الله فى الأرض ووراثتها وبالتالى إنقاذ البشرية من الشقاء والخسران ، وقيادتها إلى شاطىء السعادة والسلام .

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ (1) .

و ـ الإيمان بأقضية الله تعالى ومجارى أقداره :

يؤمن المواطن فى الدولة الإسلامية بمبدأ القضاء والقدر ويعترف بنظام السنن والأسباب فى الكون كله . فهو موقن بأن كل ما كان ، أو سيكون من أحداث في العالم كله علوه وسفليه إنما كان بعلم الله تعالى وتقديره له ، ولم يخرج شىء من كليات الحوادث ولا جزئياتها عن ذلك العلم والتقدير ، وبيان ذلك أن الرب تبارك وتعالى قبل أن يخلق العالم كتب فى كتاب (هو كتاب المقادير) كل ما أراد خلقه من سائر الكائنات فى العوالم كلها ، وقدر لكل حادثة أو مخلوق ذاته ، وحدد صفاته ، وزمانه ومكانه ، بحيث لا يقع شىء من أحداث العالم إلا وفق ما كتب الله تعالى فى ذلك الكتاب من حيث ذات الشىء ، وصفته وزمانه ومكانه ، وأسبابه التى يتم خلقه وإيجاده بها ، وهذا أمر ظاهر في صفحة الكون يقره كل ذى عقل ، ويراه كل ذى بصيرة .

إن أحداث الكون كلها جارية وفق نظام القدر العجيب فلاحياة ، ولا موت ، ولا صحة ، ولا مرض ، ولا غنى ، ولا فقر ، ولا عز ، ولا ذل ، ولا كمال ، ولا نقص ، ولا سعادة ، ولا شقاء يقع أو يتم خارج نظام القدر الذى ربط الله تعالى به الأكوان كلها ، وجعلها لا تخرج عنه بحال من الأحوال .

ونتيجة هذا المعتقد الإيجابية ، والتى لا تحقق إلا به هى :

أن صاحب هذا المعتقد لا يحزن على شىء فاته ولم يدركه من متاع هذه الحياة الدنيا أبدا لعلمه واعتقاده أن ما فاته ، لم يكن قد قدر له أزلا ، ولذا لا يمكنه أن يدركه

---

(1) الأنبياء : ١٠٥ .

بحال من الأحوال ، فتسلم نفسه من الحزن الممزق ، والهم القاتل ، والكرب المضنى مما يصيب لا محالة الذين لا يؤمنون بهذا المبدأ السامى الكريم ، كما لا يفرح بما أوتيه من متاع الحياة الدنيا الفرح الذى يفقده توازنه فيسرف ويظلم ، ويحتال ويتكبر فيصبح شرا ووبالا على بنى جنسه من الناس ، وذلك لأن صاحب هذا المعتقد يعلم أن ما أوتيه إنما بعطاء الله تعالى وتقديره له ، ولم يكن بقدرته الخاصة ولا تدبيره الفردى فالله تعالى هو الذى قدره له وهداه لطلب أسبابه وأقدره على تحضيرها ، وصرف الموانع عنه حتى كانت النتيجة التى كانت ، فلا يعقل إذا أن يكفر بنعمة الله عليه ، فيصرفها ضده ، وفى غير ما يرضيه ، من الطغيان على الناس والبغى والتكبر عليهم ، كما هى حال الكافرين بمبدأ القضاء والقدر من سائر الناس ، وكل الأجناس .

وكما يؤمن المواطن فى الدولة الإسلامية بالقضاء والقدر ويعترف بنظام السنن والأسباب ، وتفسير ذلك : أن كل حدث يتم فى الكون إنما يتم بسبب خاص له قد قدره الله له ، وربط وجوده به ، فلا تكون سعادة ولا شقاء ، ولا تقع حياة ولا موت ، ولا صحة ولا سقم ، ولا غنى ولا فقر ، ولا عافية ولا بلاء إلا بأسبابها الخاصة التى قدرت معها ، وأنيط أمر وجودها بها . ومن هنا يرى المؤمن نفسه ملزما بمعرفة أسباب كل ما أراد الوصول إليه ، والحصول عليه من خير الدنيا والآخرة وكرامتها ، وبمعرفة أسباب كل شر يخافه وشقاء يخشاه فى الدنيا والآخرة ، فيتعلم تلك الأسباب ، ويحذقها ، ثم يعد أسباب الخير والسعادة ليحصل عليهما ويتجنب أسباب الشر والشقاء لينجو منهما ، كل هذا يفعله إيمانا منه أن الرب تبارك وتعالى لما قدر الأشياء قدر معها أسبابها فهى لا توجد إلا بها .

ولازم هذا المعتقد أمور هى :

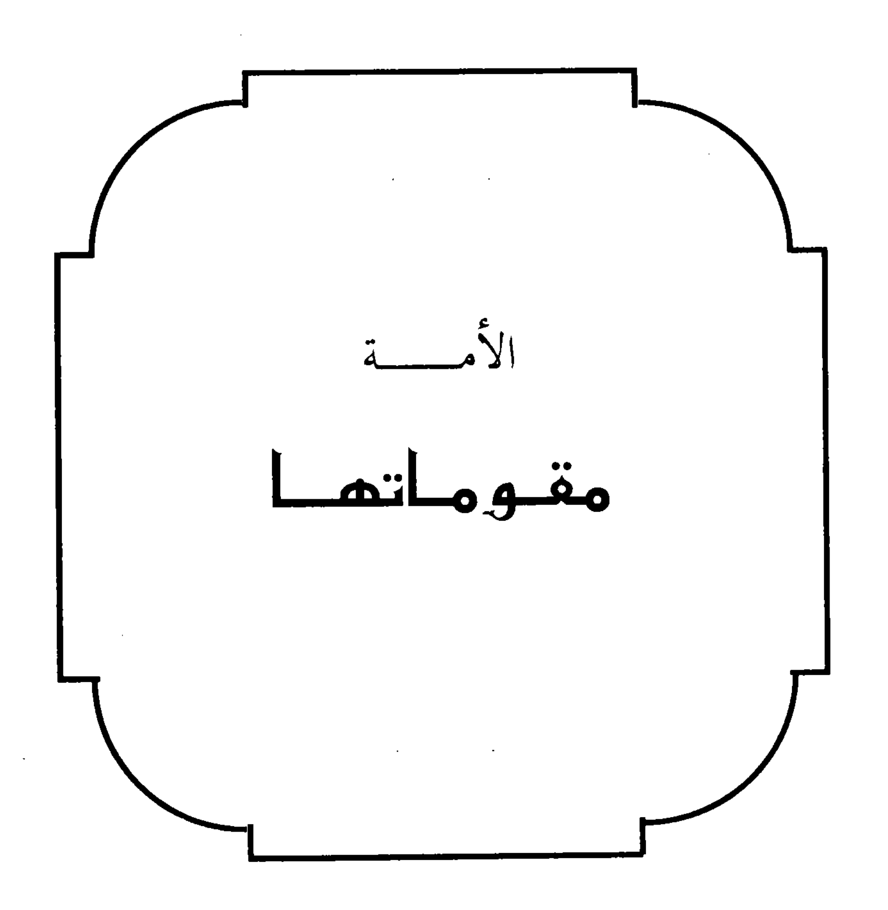
١ ـ عدم أسى المؤمن وحزنه على ما قد يفوته من متاع هذه الحياة الدنيا .

٢ ـ عدم الفرح بما فى يد المؤمن من حطام الدنيا ، فلا يسرف ويظلم أو يطغى ويتكبر . فيكون شرا على الهيئة الاجتماعية .

٣ ـ وجود باعث للشكر فى نفس المؤمن يحمله على شكر النعم بصرفها فيما ينفع ولا يضر ، وفيما يرضى المنعم سبحانه وتعالى ولا يسخطه .

٤ ـ وجود باعث للصبر فى نفس المؤمن يساعده على تحمل كل مكروه يصيبه فى الحياة .

٥ ـ وجوب معرفة الأسباب والسنن الإلهية فى الكون لتعد أسباب كل نافع وتحصر للحصول عليه ، ولتجنب أسباب كل ضار للخلاصة منه والنجاة .



الأمــــة

مقـومـاتهـــا

العلـم .

الإيمـان .

الخلـق .

الحـرية .

الكـرامـة .

الأساس الثانى

للدولة الإسلامية

الأمة

تعريف :

لفظ الأمة يطلق على كل مجموعة من المخلوقات قد وحد بينها الجنس أو النوع ، أو الخاصة .

وعليه فلفظ الأمة جنس عام يحوى العديد . من الأفراد أو الأجناس المتميزين بالنوعية .

والموارد من الأمة التى هى الأساس الثانى للدولة الإسلامية هو مجموعة من الأمم والشعوب المختلفة ربطت بينها عقيدة واحدة ، ونظام واحد ، وهدف مشترك ، وغاية موحدة لها ومقوماتها خاصة بها ، عليها يبنى وجودها .

مقومات الأمة فى الدولة الإسلامية :

للأمة التى هى أحد أسس الدولة الإسلامية مقومات يبنى عليها وجودها وهى :

العلم ـ والإيمان ـ والخلق ـ والحرية ـ والكرامة .

فهذه خمسة عناصر فعالة قوية منها يتكون وجود الأمة . وكل أمة لايقوم وجودها على هذه العناصر فهى أمة غير موجودة حقيقة ، وإن وجدت فهى لا تستحق الوجود فضلا عن الاحترام والتقدير ، والقيادة ، والسيادة .

الفرد أصل الأمة :

الأمة لا تتكون إلا من أفراد ، ومن شرط الأفراد الذين تتكون منهم الأمة أن يكونوا أحياء بروح الإيمان غير أموات بداء الكفر ، علماء بخالق الكون ، وسننه فيه ، غير جهال بذلك ، ولا متجاهلين ، ولذا كان المفروض فى كل فرد من أفراد الأمة أن يكون عالما ، مؤمنا ، ذا أخلاق فاضلة حر الفكر والإرادة ، ذا كرامة موفورة .

شرح تلك العناصر :

١ ـ **العلم** : والمراد منه : معرفة الرب تبارك وتعالى بواسطة آيات كتابه القرآنية ، وآيات خلقه الكونية . ومن طريق آلائه على عباده ونعمه عليهم .

ومعرفة الطريق الموصل إليه تعالى بواسطة الكتاب والسنة . وهو أيضا ـ العلم ـ معرفة الرسول ﷺ بواسطة كتابه الذى جاء به ونزل عليه ، ومعجزاته التى تحدت العقول فبهرتها ، وتعالت على النفوس فقهرتها . فآمن به وبرسالته رجال كانوا أبر الناس قلوبا ، وأرجحهم عقولا ، وأصفاهم أرواحا ، وأزكاهم نفوسا ، وأرحم الناس إذا ظهروا ، وأعدلهم إذا حكموا . فكان ذلك من آيات صدق نبيهم وصحة ﷺ نبوته وعظمة رسالته .

وهو ـ العلم ـ : معرفة القرآن كتاب الله تعالى بواسطة معرفة لغته التى نزل بها ، وسيرة الرسول ﷺ التى مثله فيها ، وطبقه عليها بصورة لا أتم منها ولا أكمل أبدا .

٢ ـ **الإيمان** : وقد تقدمت عناصره التى هى الإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسوله محمد ﷺ ، وأخبر به عنه من شأن الشرع والغيب ، والقضاء والقدر ، والآخرة والنعيم والشقاء فيها .

فإن المراد منه هنا : أن يكون الفرد في قوة إيمانه بحيث يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن لا يكون له خيرة فى حكم حكم الله به ورسوله ، ولا فى قضاء قضى له الله ورسوله ، ومهما كان شاقا على النفس ثقيلا على الطبع ، وأن يكون هواه تابعا لما

جاءبه رسول الله ﷺ لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه .

ويحصل هذا للفرد بالصدق فى الإيمان واليقين فيه ومن مظاهر الصدق فى الإيمان ، والرهبة من الله والرغبة فيما عنده والإيمان بوعد الله تعالى لأوليائه وبوعيده لأعدائه ، إذ لا إيمان لمن لا يرجو الله ، ولا يخافه . ولا يقين لمن لا يترك معصية الله خوفا من الله ولا يقبل على طاعة الله راجيا حسن مثوبة الله .

ومن هنا كان الفرد فى الدولة الإسلامية يعيش على الصدق واليقين فى نفسه فحبه وبغضه ، وعطاؤه ، ومنعه ، وحياته ومماته كلها لله تعالى ومن أجله فهو يعبد ويتوكل ، ويعمل ويحسن . كل ذلك فى رهبة من الله ورغبة فيما لديه .

٣ ـ **الخلق االفاضل** : وهو يتجلى فى الإنصاف من النفس ، والإحسان فى القول والعمل ، والعدل فى القول والحكم ، وفى حسن المعاملة ، والوفاء ، وصدق الحديث ، والشجاعة والكرم ، والإيثار ، والحلم ، والحياء ، والصبر ، والتحمل ، وفى توقير الكبير ، ورحمة الصغير ، وفى العفة والنزاهة والشرف .

هذه مظاهر الخلق الفاضل والذى هو لازم لأفراد الأمة المسلمة لا ينفك عنهم ، ولا يعيشون بدونه وهو من معطيات إسلامهم ، وءاثار إيمانهم ، وينابيع معرفتهم .

٤ ـ **الحرية** : وهى لازمة للفرد المسلم ، وتشمل عقيدته ، وتفكيره ، وعمله . فالمسلم الحق لا يذله الطمع فى أحد غير الله ، ولا يسترقه الخوف من شىء إلا من الله تعالى ، ولا تأسره الشهوات ، ولا تستعبده الملذات ، فهو حر تام الحرية فى عقيدته ، كما هو حر فى تفكيره ، فلم يخضع لأى ضغط خارج عن عقيدته فيحمله على أن يفكر بتفكير غيره ، أو يرى برأى سواه ، وذلك لسمو عقيدته وقوة سلطانها على روحه ووجدانه . إنها لشمولها ـ لمجالات الحياة ، وآفاقها الواسعة لم تسمح له أن يفكر فى غير ما تمليه عليه ، وتدعوه إلى تحصيله من كل كمال بشرى وكرامة إنسانية .

٥ ـ **الكرامة** : وهى الخصيصة الآدمية التى وهب الله تعالى الإنسان ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ (١) فلم يكن الفرد المسلم ليتخلى عنها ، أو يقبل المساس بها ، أو المساومة فيها ، إذ هى عنصر كماله ، وتاج سلطانه ، فلا معنى لحياته بدونها ، وهو يرى توفيرها لجسمه ودينه وعقله ، وعرضه ، وماله ، فلا يقبل أن يؤذى فى جسمه بضربه أو قتله ،

---

(١) الإسراء : ٧٠ .

ولا فى دينه بانتقاضة أو عدم احترامه ، ولا فى عقله بتضليل أو فساد ، ولا فى عرضه بأن ينال منه أدنى منال ، ولا فى ماله بسرقته أو اغتصابه ، أو الاعتداء عليه بحال من الأحوال .

وخلاصة القول فى هذا : أن الفرد المؤمن العالم ذا الخلق الفاضل ، والحر الإرادة ، الموفور الكرامة ، هو الخليقة الحية فى تكوين جسم الأمة القوية .

فمن الأفراد المؤمنين العارفين الأخلاقيين الأحرار الكرماء تتكون الأمة المسلمة التى هى أحد أسس الدولة الإسلامية ، والسؤال الملح الآن هو : من أين يؤتى بمثل هؤلاء الأفراد وكيف يتم تكوينهم هذا التكوين الصحيح السليم ، وما هى عوامل ذلك وأسبابه ؟ ؟ ؟

ولعل الجواب الصحيح هو أن نقول : إن الفرد يأتى من طريق الإعداد والتربية والتكوين .

فعندما يوجد الرجل الكامل الملهم أمكن إعداد الأفراد وتربيتهم وتكوينهم التكوين الصحيح السليم . والذين يصبحون به الخلايا الحية فى جسم الأمة .

أما عن عوامل ذلك الإعداد ، وتلك التربية وأسبابها فإنا نقول : إنها تنحصر فى الإيمان الصحيح ، والقانون التربوى السليم ، والسلطة الحاكمة الرشيدة ، فالإيمان الصحيح يهيىء النفوس لتقبل الفضائل والقانون التربوى يغرس الفضائل وينميها ، والسلطة الحاكمة الرشيدة تحميها وتحافظ عليها حتى لا تتلاشى وتضيع .

وقد تقدم بيان الإيمان الصحيح ، وسيأتى بيان القانون التربوى السليم والسلطة الحاكمة الرشيدة ضمن الحديث عن مادة الحكم والحاكم إن شاء الله تعالى .

الحكم الإسلامى

خصائصه :

الربانية .

العدالة

الشمول

السلامة .

الصلاحية .

الأساس الثالث للدولة الإسلامية

مادة الحكم

تعريف :

إن الموارد من مادة الحكم التى هى أحد أسس الدولة الإسلامية ، التى تقوم عليها هو أن يكون القانون الذى يسود الأمة ، وتحكم به ، وينظم سائر علاقاتها بالحياة كلها ، والكون جميعه أن يكون مادة وشرحاً وتفسيراً من وحى اللّه تعالى رب العالمين ، لا يخرج منه شئ عن ذلك ، ولو قل . وهذا لأمور عينت ذلك وحتمته وهى :

ربانيته ـ عدالته ـ شمولته ـ سلامته ـ صلاحيته

١ ـ ربانيته :

لقوله تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين** ﴾[1] .

وتعنى كلمة الربانية النسبة إلى الرب تبارك وتعالى . وذلك من ثلاثة أوجه :

(١) الشعراء : ١٩٢ .

الأول : أنه تنزيله ، وتشريعه أوحاه إلى رسوله ، وأمره بتبليغه وتنفيذه .

الثانى : أنه يشد كل شىء فى الحياة الخاصة والعامة للأمة والفرد ، ويربطه بالرب عز وجل ، إذ جميع مواده تهدف إلى غاية واحدة وهى : أن يعبد اللّه فى الأرض وحده دون شريك ، عبادة قد توقف عليها كل كمال البشر وسعادتهم فى الحياتين .

الثالث : أنه مادة تربية للأفراد والجماعات فى أرواحهم وعقولهم وأخلاقهم وأفكارهم ، فهو المنهج التربوى الوحيد الذى لا غنى عنه ، ولا بديل له فى تكوين الفرد المؤمن الصالح ذى الأخلاق الفاضلة والحرية والكرامة ، والذى سبق أن بينا أنه هو الخلية الحية فى جسم الأمة المطلوبة للدولة الإسلامية المثالية التى هى حاجة العالم البشرى اليوم .

٢ ـ عدالته :

لقوله تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** ﴾[١] .

إن عدالة القانون الإلهى يجب أن تكون مسلمة مقطوعاً بها وذلك لسببين هما :

الأول : علم الشارع وهو الرب تبارك وتعالى بالمشروع لهم من خلقه وهم عباده ، إذ أنه تعالى قد أحاط بكل شىء علما فلا يخفى عليه شىء من أحوال عباده ، وأمورهم ، وحاجياتهم ، ومتطلبات حياتهم ، وذلك من أول نشأتهم إلى منتهى أمرهم .

الثانى : غناه سبحانه وتعالى عن كل ما سواه من سائر مخلوقاته ، وكماله المطلق . وبناء على هذا فإن علمه تعالى بخلقه وغناه عنهم يحيل معنى الحيف والجور فيما يشرع لعباده ويضع لهم من قوانين يحفظ بها عليهم كل ما يحمونه من أبدانهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وعقولهم ، وأديانهم ، لأن عدم العدالة فى الشرع ينشأ عن أحد شيئين : جهل الشارع بظروف وأحوال وحاجات ومتطلبات حياة من يشرع لهم ، وكلا الأمرين منتف عن اللّه عز وجل ، وبذلك ثبت العدل فيما يشرع لعباده ، وانتفى منه الحيف والجور البتة .

٣ ـ شموله :

لقوله تعالى : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾[٢] .

الحكم الربانى لا يكون إلا عادلا ، ولا يكون إلا شاملاً لكل ما تتطلبه حياة الإنسان ،

---

(١) الأنعام : ١١٥ .   (٢) الأنعام : ٣٨ .

حاوياً لكل عناصر الخير التى يكون بها الحكم صالحاً ، إذ موضوع الحكم هو الإنسان من حيث كونه إنساناً فى علاقته بالخالق والكون والحياة وفى عقيدته ، وعقله ، وروحه ، وجسمه ، وعواطفه ، وأفكاره ، وآماله ، وأشواقه ، وسعادته ، وشقائه ، فى أولى حياتيه ، وفى أخراهما ، وفى البرزخ بينهما فلا بد إذاً ، وأن يلبى الحكم الربانى كل هذه الرغبات ، ويستجيب لكل هذه المتطلبات ، وكذلك كان فالحكم الإسلامى يتناول الإنسان من ساعة علوقه نطفة فى جدار رحم أمه إلى أن يوضع فى قبره عند نهاية حياته الأولى . فما من حالة من حالاته إلا ولها حكم فى الشرع يخصها ، ومادة فى القانون تتعلق بها .

وهذا الشمول مع الإحاطة بجميع شؤون الحياة والإنسان مع الربانية الكاملة هو الذى جعل الحكم الإسلامى أحد أسس الدولة الإسلامية التى لا تقوم إلا بها ، ولا تبنى إلا عليها .

٤ ـ سلامته :

لقوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن من الله حكما** ﴾ (١) .

الحكم الربانى سليم من الخطأ فلا يقع فيه خطأ أبداً وسليم من الإغفال ، فلا يغفل جانباً من جوانب الحياة بحال من الأحوال . وهو يتناول الإنسان بوصفه إنساناً ، والكون حوله فلا يغفل شيئاً يتعلق بحياة الإنسان أو ينساه أبداً . وهو سليم من التغيير والتبديل ، والتحريف والتزييف ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون** ﴾ (٢) . فلا يأتى لأحد أن يعمد إليه فيحرفه ، أو يزيد فيه أو ينقص منه . ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ (٣) . وهذا ما جعل النفوس تسكن إلى قضائه ، وترضى بقوانينه ، وتسلم بأحكامه ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ (٤) .

٥ ـ صلاحيته :

لقوله تعالى : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ (٥) .

الحكم الربانى يمتاز بصلاحيته الكاملة ، إذ هو موضوع لبنى الإنسان كلهم أبيضهم وأصفرهم ، أولهم وآخرهم حاكمهم ومحكوميهم ، فحيثما وجد الإنسان ، وفى أى

---

(١) المائدة : ٥٠ .　(٢) الحجر : ٩ .　(٣) فصلت : ٤٢ .
(٤) النساء : ٦٥ .　(٥) طه : ١٢٣ .

مكان أو زمان وجد كان القانون الربانى سبيل هدايته ومادة تربيتة ، ومنهج إصلاحه وطريق سعادته .

إنه القانون الإلهى الذى لا يؤثر فيه الزمان مهما بعد ، ولا المكان مهما نأى ، ولا إختلاف أجناس الناس مهما عظم . إنه وضع ليساير الإنسان فى مواكب حياته كلها ، ويطوره ويرقى به إلى أسمى قمة الكمال المرجو له فى هذه الحياة . وهو فى نفسه قار ثابت لا يتطور ، ولا يتبدل أو يتغير بحال من الأحوال . ومن رام تطويره ، بإخضاعه لسنن الهوى ، وتسييره فى دروب الشهوات فقد رام إخراجه عن طبعه ليفسده ويفقده هدايته وصلاحيته .

وأخيراً فربانية الحكم الإسلامى وعدالته وشموله وسلاميته وصلاحيته هى التى حتمت أن يكون أحد أسس الدولة الإسلامية التى يجب أن يقوم عليها ، كما أنها لا توحد قوية صالحة محققة للإسعاد البشرى إلا بها .

ووجب على المصلحين فى العالم أن يعملوا متضامنين على تحقيق حلم البشرية فى إيجاد الدولة الإسلامية التى تحقق سعادة الإنسان ، وتجنبهم من الخسران .

صفاته :

كيف ينصب ؟

كيف يحكم وبماذا ؟

ماذا يسمى ؟

مهامه .

الأساس الرابع

للدولة الإسلامية

الحاكم

الحاكم فى الدولة الإسلامية هو أحد أسسها التى لا تنبنى إلا عليها ، ولا تقوم إلا بها . ولم يكن بأقل شأناً من بقية أسس الدولة بل هو أهمها وأخطرها إذ صلاح الدولة بصلاحه وفسادها من فساده .

وكلمة الحاكم فى الدولة الإسلامية تعنى الرجل المسلم ذا الكفاية من العقل ، والتقوى ، والقدرة ، والشجاعة .

المؤهل بهذه الصفات لبيعة المسلمين ، وتقديمه عليهم فى أمور دينهم ودنياهم ، ليحكمهم بشرع اللّه حكماً قائماً على مبدأ الشورى ، والعزم الصادق ، والتوكل المطلق ﴿ **وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على اللّه** ﴾ [1] .

والغاية من نصب الإمام وبيعته إقامة الدين ، وحفظ العباد والبلاد وذلك بواسطة الحكم العادل والحكومة القوية الرشيدة .

كيفية تنصيب الحاكم :

إن الطريقة المثلى التى ينصب بها الحاكم فى الدولة الإسلامية ، هى اختيار أهل الحل

(١) آل عمران : ١٥٩ .

والعقد فى الأمة ، والإبرام والنقض فيها من العلماء ، وأمراء الجيوش ، وأرباب التجارة والصناعة لرجل مسلم ذى كفاية ، وكفاءة يبايعونه وتبايعه الأمة معهم على كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ لإقامه الدين ، وإنقاذ الأحكام الشرعية ، وإقامة الجهاد لإعلاء كلمة اللّه تعالى .

كيف يحكم الأمة ، وبماذا ؟

ويحكم من ينصب إماماً للأمة فى الدولة الإسلامية يحكم بواسطة أمرين :

أحدهما : جهاز حكومة قوية يقيمها الحاكم بعد مبايعته مباشرة باختيار الأفراد الصالحين وتزكيتهم من ذوى الكفايات والكفاءات من الإيمان ، والعلم والتقوى ، والقدرة فيعين منهم نائبه ، ووزراءه ، ومجلس شوراه ، والولاة ، والقضاة ، ويقسم البلاد إلى مقاطعات أو ولايات ، أو عمالات ، وينصب عى كل إقليم والياً ينوب عنه فى تصريف شؤون الأمة ، ورعاية مصالحها ، وحماية ما يحميه كل أفرادها من دين وعقل وعرض وبدن ومال .

والثانى : الدستور الإسلامى المستمد نصاً وروحاً من الوحيين الكتاب والسنة ، وما استنبطه منهما علماء سلف الأمة الإسلامية الصالح من رجال الفقه الذين اجتهدوا فى استخراج الأحكام الشرعية من الكليات العامة فى الكتاب والسنة مما هو كالشرح والتفسير للعمومات فى الوحيين والخصوصات فيهما .

ماذا يسمى الحاكم ؟

الاسم الذى يطبق على الحاكم فى الدولة الإسلامية انطباقاً شرعياً وصحيحاً هو الإمام ، لأنه يؤم المسلمين فى الجهاد والصلاة ، ويتقدمهم فى عظائم الأمور ومهامها غير أنه ليس شرطاً أن يسمى بهذا الإسم دون غيره من الألقاب والأسماء كالسلطان ، والخليفة ، والملك ، والرئيس ، إذ العبرة فى كونه مبايعاً بيعة شرعية ، لإقامة الدين ، وإنقاذ الأحكام الشرعية ، وإقامة الجهاد فى سبيل اللّه ، لإعلاء كلمة اللّه وفى كونه أهلاً لذلك بما وهبه اللّه تعالى من صفات الكمال البشرى من الإيمان ، والعلم ، والتقوى ، والقدرة ، والشجاعة ، كما أنه ليس شرطاً لازماً توفر هذه الصفات بصورة مثالية لا نظير لها . وإنما يكفى فى ذلك أن يكون فيها أمثل من غيره من المؤمنين والمسلمين ومتى أمكن ذلك وتهيأ أيضاً ، والأفقه

يبايع إماماً للمسلمين من ليس حاوياً تلك الصفات ، إذا لم يوجد بين المسلمين من هو أمثل منه فيها وأكمل .

مهام الحاكم :

والمهام التى يتطلع بها الحاكم فى الدولة الإسلامية هى إقامة الدين وإنقاذ الأحكام الشرعية ، وإدارة الحكومة وتصرف شؤون الأمة ، وحماية أفرادها وبلادها ، ورعاية ذلك . وإمامة المسلمين فى صلاتهم ، وإقامة الجهاد بينهم ، لإعلاء كلمة اللّه تعالى بحماية دينه ، وكتابه ، وعباده المؤمنين . وحتى يعبد اللّه وحده ، ولا تكون فتنة ، ويكون الدين كله للّه .

الحكومة فى الدولة الإسلامية

عناصر وجودها :

الحاكم .

القانون

الأمة

الأساس الخامس
للدولة الإسلامية
الحكومة

تعريف :

الحكومة هى آخر الأسس التى تقوم عليها الدولة الإسلامية ، ومدلول لفظ الحكومة يعنى : كل أجهزة الدولة التى يقيمها الحاكم الذى هو إمام المسلمين ، والتى بواسطتها يدير شؤون العباد والبلاد إدارة صالحة ، تحقق سعادة الفرد والجماعة فى إطار صفاء الروح ، وعزة الإيمان ، وأخوة الإسلام ، والكرامة الآدمية ، وذلك من جميع الوزارات ، والقيادات والولايات ، والبلديات ، ومن سائر مصالح الدولة المختلفة التى تعود إليها لتقوية كيانها ، وبسط نفوذها ، وتعزيز سلطانها ، وهيمنتها مما يجّعلها قادرة على تحقيق أهدافها المنوطة بها من حماية البلاد والعبادة ، ونشر رسالتها : رسالة الهدى والنور فى العالمين .

عناصر وجود الحكومة :

والحكومة فى الدولة الإسلامية تستمد وجودها ، وطاقة قدرتها من ثلاثة أشياء رئيسية فى كيانها وهى : الحاكم والقانون ـ والأمة . أما الحاكم فإنه يمنحها الصلاحية اللازمة للتخطيط والعمل والتنفيذ داخل إطار الدستور الإسلامى الذى هو مادة الحكم فى الدولة الإسلامية ، والمعبر عنه بالقانون ، إذ لا مشاحة فى الألفاظ ما دامت الحقيقة واحدة وهى أن الحكم للّه ، لا سواه ، وما الحاكم إلا منفذا لأحكام اللّه تعالى فى عباده ، وما العلماء إلا مبينين لأحكام اللّه تعالى مظهرين لها فى الصورة التى هم يوقنون أنها مرضية من اللّه تعالى

لموافقتها مرادة من خطابه لعباده المؤمنين .

وأما القانون فإنه يمدها ـ الحكومة ـ بخط السير واضحاً محدداً خالياً من اللبس والالتواء والغموض ، إذ به وحده يمكنه أن تسير إلى أهدافها فى راحة وطمأنينة ، وتصل إلى غاياتها من الطهارة والصفاء ، والأمن والرخاء ، وتحقيق السعادة العاجلة والآجلة لجميع المنضمين تحت رايتها ، والسائرين فى ركاب هدايتها وقيادتها من جميع الناس .

وأما الأمة فإنها تهبها ـ بإذن اللّه تعالى ـ القدرة والإنجاز بما تمدها به من خيرة رجالتها الأكفاء الصالحين وبما تهيئها له من فرص صالحة للعمل والتنفيذ ، إذ الأمة هى الحقل العام للعمل الحكومى ، والمعرض الصالح للإنتاج والتقديم ، وفيهما يظهر مدى صلاح الحكومة ، وقدرتها ، ومدى عجزها وفسادها .

فالأمة بمثابة المرآة التى يظهر فيها وجه الحكومة على حقيقته إن كان حسناً مشرقاً فهو حسن مشرق ، وإن كان دميماً مظلماً فهو كذلك .

وليس هو أجهزة الدعاية من صحافة ، وإعلام ، وإذاعة وتلفزيون . كما هى عليه أكثر حكومات الناس اليوم حيث الكذب والتزوير ، وتشويه الحقائق وقلب الأمور .

وخلاصة القول فى هذا الأساس الأخير للدولة الإسلامية : أن الحكومة هى الحاكم ، والقانون والأمة ، إذ لا حكومة قوية رشيدة بلا حاكم قوى رشيد .

ولا حكومة صالحة بلا قانون صالح ، ولا حكومة عظيمة بلا أمة عظيمة .

العرض والتطبيق

تلك هى الدولة الإسلامية بأسسها القوية ، وبنائها الشامخ وهى تمثل الحق والهدى والخير فى دنيا البشر وبين العالمين .

وهذا عرض سريع يقف بالقارىء على كل مظاهر الحياة فى تلك الدولة حكومة وأمة ، وينقله بسرعة من ميدان النظريات إلى ساحة العمل الواقعى والتطبيق الصادق فإلى ذلك العرض والتطبيق فى الصفحات التالية :

يقف فيها القارىء الكريم على كل مرافق الحياة فى الدولة الإسلامية المثالية المنشودة ، ويرى بنفسه لون الحياة الفاضلة الكريمة التى تحياها الأمة الإسلامية ، والأنظمة الدقيقة التى تربط كل حياتها بالخالق ، والكون والحياة .

ولنبتدىء مع أخى القارى جولتنا بزيارة أقدس مكان فى دولة الإسلام ، ألا وهو المسجد .

فإلى المسجد إذا ، لنقف على مظاهر الحياة فيه ، ونرى ما إذا كانت تلك النظريات التى تقدمت ، لها حقيقة وواقع أم هى مجرد نظريات خيالية لا حقيقية لها ، ولا وجود فإلى …

المسجد

ارفع رأسك ـ أخى ـ وانظر ماذا كتب على باب المسجد . فرفع أخى رأسه وقرأ العبارة التالية :

هذا بيت اللّه . والباب خاص بدخول النساء .

وطلبنا بابا آخر للمسجد فوقفنا على باب واسع جميل قد كتب أعلاه ـ هذا بيت اللّه . والباب خاص بدخول الرجال . فدخلنا فإذا مسجد رفيع البناء ، فسيح الأرجاء يتسع لأهل حى كامل من أحياء مدينة من المدن ، وقد قسم بسياج من نحاس أصفر حيث خصص القسم المؤخر منه للنساء ، والمقدم للرجال . وكتب فى لوحات جميلة بخط عربى جميل : العبارات التالية :

هذا مصلى النساء من المسجد لحديث الرسول ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ـ وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » . ودخلنا المسجد والشمس تدنو من حجابها ، وما بالمسجد إلا نفر قليل من الرجال والنساء ، وما راعنا إلا تدفق الرجال والنساء ، والأطفال على المسجد حتى ظننا أنه لم يبق بالبلد أحد . وما أن أذن للمغرب وأقيمت الصلاة ، وصلت تلك الجماهير صلاة المغرب والسنة بعدها حتى جلس على كرسى عال رجل مهيب ذو لحية كثة ، وصوت جهورى شجى ، واستنصت الناس فأنصتوا ، وأخذ يقرر حقـائق الإيمـان ، ومظاهره ، وآثاره فى النفس ، والسلوك فأثار المشاعر ، وهز النفوس ، واستمر على حديثه ساعتين كاملتين . وتلك الجماهير منصتة خاشعة مقبلة بوجوهها وقلوبها محدقة بأبصارها حتى نودى لصلاة العشاء وصلت وانصرفت فى سكينة وهدوء ، وقد تزودت بطاقات جديدة من الإيمان والمعرفة وعادت إلى منازلها للسكون والاستراحة وهى أكثر ما تكون إيماناً وجا ورجاء .

ورأينا الاتصال بإمام المسجد لنتعرف على بعض ما ينبغى أن نعرفه بخصوص المسجد وأهله ، فابتدرنا الإمام وهو داخل إلى مقصورته فسلمنا عليه . واستاذنا فى الدخول معه فأذن ودخلنا ، فقلنا : لقد أعجبنا بما رأينا من سعة هذا المسجد ، وكثرة جمهور المصلين به ، وحسن آدابهم فى استماعهم للدرس ، وفى دخولهم للمسجد وخروجهم منه ، فهل لك أن تعطينا فكرة صالحة حول نظام المساجد فى بلادكم ، ورغبة الناس فى الحضور إليها وآدابهم الممتازة فيها ؟؟؟

فقال : نعم ولا مانع عندى من ذلك ، واسمعا أحدثكما : إن النظام الإسلامى الذى تعيش عليه الدولة والأمة يقرر أن الإنسان مكون من روح وجسم ، كما هو واقعه المشاهد المحسوس ، وأن لكل من روحه وجسمه ضروراته الخاصة به ، وأن الإنسان مأمور بتوفير متطلبات جسمه من هواء وغذاء وماء ودواء ، ليبقى نامياً صالحاً يؤدى وظائفه في الحياة ، كما هو مأمور بتوفير متطلبات روحه من عقيدة صالحة وعمل صالح مزك لها ، لتبقى مشرقة طاهرة .

وإنطلاقاً من هذا المبدأ المعترف به رسمياً فإن نظام تخطيط المدن ، وإنشاء القرى والمستعمرات ، يحتم بأن يوجد فى كل قرية من القرى وحى من الأحياء السكنية مسجداً يتسع لكل أفراد القرية ، أو الحى ويزود بخيرة العلماء الربانيين لتعليم الجماهير المؤمنة وتربيتهم التربية التى تنمى إيمانهم ، وتهذب شعورهم وتصلح أخلاقهم .

كما هو الشأن بالنسبة إلى المشافى ، فإنه ينشأ فى كل قرية ، أو حى مستشفى لعلاج أجسام الأفراد ، والمحافظة على مستواهم الصحى . فالمستشفى يقابل المسجد وكل منهما يقدم خدمة خاصة ومماثلة ، هذا للجسد وذلك للروح وإذا كان من ضروريات المستشفى أن يزود بأحسن الأدوية وأنجحها ، وبخيرة الأطباء الأكفاء ، فالمسجد كذلك يجب أن يزود بأنفس الكتب وأنفعها ، وبخيرة العلماء الصلحاء ، وبهذا يتحقق للمواطن فى الدولة الإسلامية الحفاظ على جسمه وروحه صالحين يؤديان وظائفهما فى الحياة . فتكمل بذلك إنسانية الفرد ، ويسعد فى دنياه ، ويتهيأ للسعادة الحقة فى أخراه .

وهنا سكت الإمام هنيهة ، ثم استأنف حديثه وقال : هذا بالنسبة إلى المساجد ونظامها فى بلادنا ، والرسالة التى تؤديها إلى جماهيرنا . وأما بالنسبة إلى رغبة الناس فى الحضور إلى المساجد ، وحسن آدابهم فيها ، فإن لذلك حديثاً خاصاً سأحدثكما به ــ إن شاء اللّه ــ وهو أن هذه الأمة قد ارتفعت درجة الوعى بين أفرادها إلى مستوى عال جداً ، وكان

ذلك نتيجة التعليم والتربية اللتين يتلقاهما الجماهير فى المساجد . وأكبر برهان على ذلك أن تخرجا من المسجد وتتجولا فى شوارع المدينة وترقبا عن كثب سلوك المواطنين فإنكما بدون شك ستجدان نظام الحياة وأسلوبها وطابعها يختلف تماماً مع ما عليه غير هذه الأمة من سائر الناس ، ممن لا تظلهم راية الدولة الإسلامية ، ولا يحكمهم شرع اللّه تعالى ومرد ذلك إلى شيئين اثنين :

أولهما : إيـمان هذه الأمة الكامل .

وثانيهما : قوة السلطة الحاكمة وإيجابيتها .

فإيمان الأمة باللّه ولقائه ، ووعده ووعيده ، جعلها تنظر إلى الحياة الدنيا وأنها ميدان عمل جاد وصالح لا غير فلا مكان فيها للهو ولا للعب ، وطبع فى ذلك حياتها كلها بطابع الجد والحزم ، وأخفى منها مظاهر الباطل واللهو والعبث فأورثها ذلك ما ستشاهدانه من كمال فى كل مجالات حياتها .

وأما قوة السلطة فأنها مكنتها من الاستقامة على المنهج ، والتطبيق للقانون ، فاكتملت لها قوة العلم والإرادة ومن مظاهر ذلك أنه لا يسمع فى كل البلاد طولاً وعرضاً إلا صوت واحد هو صوت إذاعة الدولة فقط ، كأن لم يكن فى العالم إذاعة غيرها كما أنها ــ إذاعة الدولة ــ تذيع طول النهار وشطر من الليل ، وتسمع فى كل أرجاء البلاد ، لوجود سماعات فى كل شوارع المدينة وساحاتها تنقل إلى كافة جماهير الأمة صوت الدولة وبرامجها الإذاعية المقتصرة على نشرات الأخبار وتلاوة القرآن الكريم ، وعلى أكبر قدر من التعليم والإرشاد والتوجيه فى كل ميادين الحياة الجادة الكريمة .

ومما يلفت النظر أنه لا يوجد فى الإذاعة عندنا صوت غناء ولا موسيقى البتة ، كما أنه إذا بقى من آخر النهار نصف ساعة توقفت الإذاعة ، وتوقف العمل فى المصانع والمتاجر والأسواق والحقول ، وأهرع أهل الأحياء والقرى بنسائهم وأطفالهم إلى المساجد لأداء صلاة المغرب ، ولتلقى العلم والمعرفة على النحو الذى شاهدتما آنفا حتى إذا صليت العشاء عادوا إلى منازلهم مزودين بطاقات جديدة من الإيمان والعلم والمعرفة فيتناولون طعام العشاء ثم ينامون فور فراغهم من ذلك تطبيقاً لمادة : كراهية النوم قبل صلاة العشاء ، والحديث بعدها إلا لضرورة تستدعى ذلك ، وهذا الذى سهل عليهم أن يستيقظوا قبل غيرهم بأكثر من ثلاث ساعات فيصلون الصبح فى بعض الساعة وينطلقون إلى ميادين العمل ، ذو الحقل

فى حقله وذو المصنع فى مصنعه ، وذو المتجر فى متجره وصاحب المكتب فى مكتبه فيعملون وينتجون ، والناس نائمون لم يستيقظوا بعد . فعظم لذلك الإنتاج عندهم ، وكثر الخير فيهم وعمت البركة بلادهم ، وتمتعوا والحمد للّه ـ بما لم يتمتع به غيرهم من زينة اللّه التى أخرج اللّه لعباده والطيبات من الرزق ، وصدق فيهم قول ربهم : ﴿ **قل من حرم زينة اللّه التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾(١) .

ومن المسجد إلى ...

السوق

ولما كنا من الغد رأينا أن نزور أحد أسواق المدينة لنتعرف إلى أحوال هذه الأمة خارج المساجد ، حيث تظهر الأشياء على حقيقتها خالية من التكلف والتصنع ووصلنا إلى السوق فإذا باب واسع كبير قد كتب عليه فى أعلاه العبارة التالية :

(الأسواق موائد اللّه فتلمسوا الرزق من الأسواق)

وبخط واضح كتبت الجملة الآتية : من لم يعرف أحكام التجارة فلا يدخل علينا أسواقنا .

ودخلنا السوق ، وملنا إلى أحد الباعة فى زاوية قريبة من الباب وسألناه بعد السلام عليه قائلين هل تؤخذ ـ أيها الشيخ منكم ضريبة البيع فى هذه السوق ؟ فتغير وجه الرجل وقال : ماذا تعنيان بضريبة البيع أيها الرجلان ؟ قلنا : ضريبة البيع . فقال تعنيان بها المكس ؟ قلنا نعم . قال نعوذ باللّه أن يكون فى أسواقنا مكس . إن المكس حرام . فكيف تقره دولة الإسلام ؟ وتبيحه لنفسها ؟؟ معاذ اللّه أن يكون هذا فى بلد إسلامى ، وأمة إسلامية وهما يسودهما حكم إسلامى .

وتركنا الرجل بعد أن اعتذرنا إليه لنقف على شيخ كبير يبيع كزبراً وتوابل وحوامض ونسلم عليه فيرد السلام ونقول له : هل ما تحصل عليه من ربح قليل ببيع هذه التوابل والحوامض يسد حاجتك وحاجة أسرتك أيها الشيخ ؟

فيجيبنا قائلاً : نعم والحمد للّه ، وأنا سعيد جداً ، إنى لخير من رجل يعمل براتب كبير

(١) الأعراف : ٣١ .

يتقاضاه من مؤسسة تتعامل بالربا ، وخير بكثير من رجل يحصل على ربح طائل من بيع المحرمات كالخمر والتبغ والصور والتماثيل واسطوانات الأغانى ، كما إنى أسعد من رجل يمد يده للناس متسولاً أعطوه أو منعوه .

وتركنا الرجل وقد ذكرنا بأوضاع بلادنا الفاسدة ، وما عليه إخواننا من أكل الربا وبيع المحرمات ، وهى نتيجة حتمية لغيبة الحكم الإسلامى عن بلادنا . وواصلنا تجوالنا فى السوق ونحن مندهشون لما رأينا من هدوء السوق ، وسكونه فلا صياح ولا صخب ولا جلبة ، ولا ضجيج على خلاف المعروف من أسواق الناس .

وتركنا السوق ونحن نردد العبارة التى قرأناها على بابها : (من لم يعرف أحكام التجارة فلا يدخل أسواقنا) بعدما سجل أحدنا الملاحظة التالية :

ـ لا ضريبة مكس على الباعة ، لأن المكس حرام .

ـ بائع كزبر وتوابل أسعد حالاً من ذى الأرباح الطائلة ، والرواتب الضخمة لأنه يعيش من الحلال ، وأولئك يعيشون من الحرام .

وغير بعيد عن السوق يلفت نظرنا وجود لوحة نحاسية جميلة قد كتب عليها بخط عربى العبارة التالية هنا : المصرف الأهلى ، للقرض والإيداع والتحويل .

ورغبنا فى التعرف إلى مثل هذا المصرف لنقف على أنظمة العمل فيه وكيفية التعامل معه من قبل المواطنين المسلمين ، ودخلنا المصرف فوجدناه يضم بين جدرانه عدداً محدوداً من الموظفين وهم كاتبان ، وحاسب ، وصارف ، وخازن ، وحارس لا غير .

فيجيىء الرجل يطلب قرضاً فيقدم وثيقة بيده فتتسلم منه فيسجلها الكاتب ، ويكتب له طلباً بالقرض المطلوب ، ويحوله إلى الخازن (أمين الصندوق) فيصرفه له على الفور المبلغ المطلوب وينصرف ويجيىء آخر وبيده نقود يريد إيداعها فى المصرف فيسلمها إلى الحاسب فيدعها ، أيضاً ويكتب له سنداً بها ، يدفعه إليه ، ثم يحولها إلى الخازن فيضعها فى الخزانة ، ويجيىء ثالث بيده نقود يريد تحويلها إلى بلد ما ، فيقدمها إلى الحاسب فيحسبها ، ويلفها لفافة ويكتب عليها اسم المحول والمحول إليه ، وعنوان كل منهما ثم يحولها إلى الكاتب على يمينه ، فيكتب له سنداً بنفس المبلغ المحول ، ويعطيه إياه ليرسل به إلى المحول له بواسطة البريد ، ويحول الكاتب المبلغ إلى الخازن فيودعه فى الخزانة ، وينصرف الرجل ، وقد حول ما أراد تحويله بكل هذه السهولة واليسر .

وهكذا يجرى العمل فى هذا المصرف ، وفى سائر المصارف فى الدولة الإسلامية كما قيل لنا ، وهو أمر عجب بالنظر إلى تلك التعقيدات التى نعرفها فى البنوك والمصارف فى غير هذه البلاد الإسلامية .

وهممنا بالخروج من المصرف ولكنا وجدنا أنفسنا مأخوذين بما رأيناه مدهوشين بما شهدناه من دقة النظام وسرعة العمل ، وحسن المعاملة الأمر الذى دعانا إلى أن نتصل بأحد الكاتبين ونقول : هل فى الإمكان أن نسأل إخوتكم بعض الأسئلة التى تتعلق بنظام المصارف فى بلادكم ؟

فقال : نعم ، ولكن بعد نهاية العمل . وواعدنا ساعة من نهار نأتيه فيها . وفى الوقت المحدد أتيناه فوجدناه فى انتظارنا ، فدخلنا المكتب عليه ، وسلمنا فرد السلام ، وقال : تفضلوا مرحباً بأخوى الإسلام وأشار أن اجلسا فجلسنا على كرسيين حوله ، ثم قال : تفضلا أيها الأخوان بأسئلتكما فسأله زميلى قائلاً : على أى أساس تقام هذه المصارف عندكم ؟ فأجاب قائلاً : الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد : فبحكم أننا مسلمون مأمورون بالصدق والوفاء ، وفعل الخير والرغبة فيه ، والتعاون عليه فإن أهل كل حى من أحياء المدن ، وأهل كل قرية من القرى يكونون مصرفاً كهذا المصرف فى حيهم أو قريتهم ، فيودع فيه كل فرد ما يتوفر له من نقد بحيث لا يبقى فى جيبه أكثر من مصروفه الشهرى ، وكل ما زاد يضعه فى المصرف وذلك من أجل غرضين :

أولهما : أن حفظ ماله فى المصرف وهو لا يرغب فى تنميته به ، ولكن فى صيانته وحفظه ، حيث يوضع فى المصرف ضمن الودائع التى تحفظ لأصحابها . غير أنه يتفضل بالإذن للمصرف ليستعمله فى مشاريعه الإنمائية ، ويحتسب أجره على الله تعالى .

وثانيهما : أن يضعه فى المصرف بقصد إنمائه والربح به فيجعله فى المصرف مثل سهم من الأسهم فى مؤسساته المختلفة من تجارية وصناعية وزراعية ، وإنشائية عمرانية . ويكون الربح والخسران بحسب الأسهم ، قلة وكثرة كما هو معلوم فى باب المضاربة والشركات فى الفقه الإسلامى .

ومن هنا كان المصرف يقرض المحتاج من المواطنين إلى آجال بعيدة وقريبة وبلا فائدة ، وكل ما فى الأمر يستوثق فى دينه برهن ما يضعه المستقرض تحت يد المصرف ، وقد لا يطالب المصرف بوضع رهن أبداً لما يعيش عليه المواطنون من الوفاء والصدق ، إذ هما من مبادىء الكمال الذى تقوم عليه حياة المسلم فى هذه الدار .

كما يقوم المصرف بكافة التحويلات المالية من بلد إلى بلد آخر ، داخل هذه الدولة الإسلامية وبلا فائدة بالمرة ، ولا تقولا أيها الأخوان كيف يقرض المصرف ويحول بلا فائدة ، وله عمال موظفون يتقاضون أجوراً شهرية ؟ لأنكما علمتما أن المصرف يساهم فى مشاريع كبيرة تدر عليه أرباحاً عظيمة منها يسدد أجور عماله وسائر مصروفاته اللازمة له ، ولتعلما أيضاً أيها الأخوان أنه ليس شرطاً أن يساهم المصرف فى كل ما ذكر من المشاريع والمؤسسات المختلفة ، إذ قد يكتفى بمشروع واحد وذلك بحسب رأس المال الموجود لديه لأن المهم أن يتيح للمواطن المسلم فرصة تنمية ماله إن كان يرغب فى تنميته أو فرصة حفظه إلى ساعة الحاجة إليه مع المثوبة من اللّه تعالى على إذنه للمصرف باستخدامه فى مشاريعه الضرورية له ، لأداء واجبه بين المسلمين فى البلاد .

وهنا نظرْ محدثنا إلى ساعة فى جيبه ، وقال : هذا وقت المسجد فلنذهب إلى المسجد ، وذهب وتبعناه فإذا مسجد الحى على ما شاهدنا أمس فى سعة وكثرة المؤمنين به ، وحسن آدابهم فيه .

ونمنا ليلتنا ، وبعد صلاة الفجر ، وانتشار الناس فى أعمالهم رأيت مع زميلى أن نذهب إلى أحد المقاهى ،

فإلى ...

المقهى

وليس بعيداً من منزلنا يوجد مقهى فأتيناه ، فإذا به مقهى واسع جميل قد كتب على لوحة فوق بابه العبارات التالية :

على كل من جلس هذا المجلس أن يقوم بما يلى :

١ ـ رد السلام على من سلم عليه .

٢ ـ أن يأمر بالمعروف إذا ترك أمامه .

٣ ـ أن ينهى عن منكر ارتكب بين يديه .

٤ ـ أن يرشد من استرشده .

ودخلنا المقهى فإذا بنايته تضم رواقين واسعين قد وضع فى كل منهما مناضد جميلة ،

صفت حولها كراسي مريحة . أما الرواق الأول : فهو عبارة عن مكتبة للقراءة الإخبارية ، والنشرات الإعلانية .

وأما الثاني : فهو معد للشرب والاستراحة المؤقتة كمرفق من المرافق الضرورية لحياة المدن . ولفت نظرنا واستدعى انتباهنا أمران :

أحدهما : الهدوء التام الناتج عن قلة الحركة ، وانعدام الضخب والضجيج على خلاف المعروف فى المقاهى .

وثانيهما : الطريقة التى يطلب بها المرء حاجته من صاحب المقهى وهى أنه يوجد بكل منضدة زر يضغط عليه المريد لشىء من صاحب المقهى فيؤشر له إلى المنضدة الطالب صاحبها فيأتيه فوراً ويسأله عن طلبه ، ويقدمه له ، من غير حاجة إلى تلك النداءات والصيحات المقلقة التى عرفها الناس فى مقاهى غير هذا البلد الإسلامى العظيم .

وتركنا المقهى متعجبين من دقة التنظيم ، وجمال المنظر ، وتوفير الراحة ، وعرفنا أن مرد ذلك إلى الإسلام الذى هو دين هذه البلاد وقانونها ، ومنهاج حياتها فلا عجب أن ترتفع به هذه الأمة وتبلغ الكمال البشرى ، وهى تعيش عليه عقيدة وعبادة ، وتحكمه شريعة وقانوناً ، وتطبقه نظاماً .

ورأينا زيارة مرفق آخر من مرافق هذه البلاد للتعرف على حياة هذه الأمة والوقوف على كل شىء فيها ، ووقع اختيارنا على زيارة أحد الملاعب الرياضية فإلى ...

الملعب إذاً

وسألنا على أقرب ملعب منا فأرشدنا إلى ملعب « الجهاد » فقصدناه وعلى بابه الواسع الكبير قرأنا العبارة التالية :

« الجهاد فريضة والرياضة إعداد له »

واستأذنا فى الدخول فأذن لنا وطلبنا الاتصال بمدير الملعب فتم لنا كذلك . وهذا زميلى يسأل ليتعرف على ما يجرى فى هذا الملعب من أنواع الأنشطة الرياضية المختلفة فيقول : هل لكم يا أخى أن تعطونا صورة واضحة عن أنواع الرياضات المختلفة التى تزاول فى بلادكم ؟

وكان مدير عام الرياضات المختلفة من جسمانية وعقلية حاضراً بمجلس المدير فأحالنا

المدير على سعادته فرحب بذلك ، وقال : إليكما هذا المخطط الرياضى فإن به الجواب عن كل ما أردتما معرفته فى هذا الخصوص . وأدخل يده إلى درج جنبه فأخرج كتاباً ، وناوله صاحبى فتسلمناه شاكرين ، وانتحينا ناحية من غرفة المدير الواسعة لنقرأ الكتاب ، وتصفحناه فإذا به وقد كتب على غلافه العبارة التى قرأناها على باب الملعب مضافاً إليها عبارة « العقل السليم فى الجسم السليم » وعلى الصفحة الأولى جدول كامل بأنواع الرياضات المختلفة هذه صورته :

الرياضة البدنية :

١ ـ كرة القدم .

٢ ـ السباحة .

٣ ـ الرماية .

٤ ـ العدو .

٥ ـ السباق .

٦ ـ قيادة السيارات والدبابات والطائرات .

وفى الصفحات التالية من المخطط تفاصيل تلك الرياضات البدنية :

أولاً كرة القدم : ويزاولها الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢٥ سنة .

وأعد لها الملاعب الآتية : ملعب الجهاد ، وملعب النصر ، وملعب كذا وكذا ووقتها المحدد لها من بعد صلاة العصر إلى ما قبل صلاة المغرب بنصف ساعة . واللباس المخصص لمزاولها هى صدرية خفيفة صيفاً ، وثقيلة شتاء ، ووسطاً فى الاعتدال . وسروال يصل إلى نصف الساق ، ولا يصف ولا يشف ، ولا يجوز البتة أن يكشف اللاعب شيئاً مما بين سرته وركبته .

ثانياً : السباحة وقد أعد لها مسبح النجاة ، ومسبح كذا .. وكذا ..

ووقت هذه الرياضة المحدد لها هو من بعد صلاة الصبح . وشرطها أن يزاولها الأحداث الذين تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والخامسة عشرة ، ويكون ذلك تحت إشراف الخبراء المختصين ، ويعطى المتخرج شهادة بحسن السباحة .

ومدة التعليم فيها سنة كاملة . ، ولا يزاولها إلا منتسب رسمياً فى الدورة ، ويشترط أن يكون لباس السابح سروالاً قصيراً يستر ما بين سرته وركبتيه ، وأن لا يكون رقيقاً يصف

البشرة ، أو يشف منها .

ثالثاً : **الجسمانية** ويزاولها الأطفال والشبان والرجال الذين لا تتجاوز أعمارهم الخمسين سنة . ووقتها من بعد صلاة الصبح مباشرة إلى قبيل طلوع الشمس .

وميادينها : ميدان القوة ، وميدان الحياة ، وميدان كذا .. وكذا ..

ويلاحظ أنه يحسن أن تكون هذه الميادين قريبة من المساجد وتؤدى هذه التمارين الرياضية بواسطة خبراء مختصين لذلك ولا يشترط لها لباس خاص باستثناء طلاب المدارس إذ الغرض منها المحافظة على جسم المسلم نشيطاً حيوياً بعيداً عن الترهل المقعد عن النشاط والحركة الخفيفة ، وعن السمن الباعث على الخمول والكسل مما قد يعوق عن أداء فريضة الجهاد فى سبيل اللّه .

تنبيهان :

١ ـ ألعاب الرماية ، والعدو ، وسباق الخيل ، وقيادة الدراجات والسيارات ، أوالدبابات والطائرات تجرى فى ملاعب الجيش . وتحت خبراء من رجاله ، وتصرف جوائز المتسابقين من ميزانية الجهاد مباشرة .

٢ ـ ليعلم كل مسلم مواطن أن الغرض من مزاولة هذه الرياضات هو إعداد الجسم صالحاً لأداء فريضة الجهاد ، قادراً على تحمل أعبائها . وما الجهاد إلا عبادة من سائر العبادات . وعليه فلا يصح أبداً أن يتسبب أى نشاط رياضى فى أية معصية للّه تعالى ولرسوله ﷺ بحال من الأحوال . لا بقول ولا بفعل . وعلى طالب الرياضة أن يباشرها بنية التقرب إلى اللّه تعالى بحفظ جسمه صالحاً للجهاد .

ومن هنا لم يكن من داع لأن تزاول المسلمة هذه الأنواع من الرياضات لسقوط فريضة الجهاد عنها . اللهم إلا ما كان من ألعاب خفيفة مريحة فى أفنية مدارس البنات الصغيرات اللائى لم تتجاوز أعمارهن التاسعة من السنين .

وبقراءة هذين التنبيهين كنا قد فرغنا من تصفح المخطط الذى ناولنا سيادة المدير العام . واكتفينا بذلك عن السؤال حيث عرفنا ما أردنا معرفته ورددنا النسخة المعطاة لنا ، وودعنا شاكرين .

خرجنا من الملعب ونحن نفكر فى زيارة مرفق آخر من مرافق هذه الأمة المسلمة العظيمة واقترحت على صاحبى أن أزور أحد المصانع فقال لى : كيف السبيل إلى ذلك ؟

فقلت سؤال أحد هؤلاء التجار القائمين على متاجرهم وفعلاً وقفنا على بائع أقمشة وسلمنا فرد السلام وقلنا : هل لكم أيها الأخ أن تدلونا على أحد المصانع أو المعامل القريبة من مكاننا هذا ؟ فقال نعم . وأن أقرب معمل منكم الآن هو معمل الأحذية النسائى ، فقلنا : وهل يسمح بزيارته ؟ فقال نعم . وما المانع ، وأنتما غريبان لكما حق الزيارة لكل مكان فى البلاد . وما عليكما إلا أن تركبا سيارة أجرة من هنا ، وهى تصل بكما إلى المعمل فى بضع دقائق إن شاء الله تعالى ، فشكرناه ، وانصرفنا لنركب السيارة فركبناها إلى ...

المعمل

وأثناء سيرنا قلنا للسائق : هل فى الإمكان زيارة معمل الأحذية النسائى والتعرف على مجارى الأعمال فيه ؟

فأجاب أن نعم ، وذلك بواسطة مدير العمل الذى يديره بواسطة زوجه فإذا اتصلتما به ، وطلبتما منه ذلك فسيلبى طلبكما ويطلعكما على كل ما ترغبان فى معرفته .

وبعد دقائق ، وصلت بنا السيارة إلى باب المعمل ، فنزلنا شاكرين للسائق ظرفه وملاطفته لنا ، وقرأنا على باب المعمل العبارة التالية :

هذا معمل الأحذية النسائى

رحم اللّه عبداً عمل عملاً فأتقنه .

وكان على باب المعمل حارس فطلبنا منه أن يستأذن لنا مدير المعمل للدخول عليه ففعل ، ودخلنا فسلمنا فرد السلام واستجلسنا فجلسا وأمر لنا بكوبى لبن فشربنا . وسأله صاحبى قائلاً : إن لنا رغبة فى التعرف على هذا المعمل فهل لسعادتكم أن تعرفونا ببعض الإنتاج فيه ؟ فقال : نعم . وأردف قائلاً : إن هذا المعمل هو أحد معامل الدولة التى تنشئها فى كل مدن البلاد وبقصد سد حاجة الأمة من كل ما تحتاج إليه من جهة ، وبقصد تشغيل الأرامل واللاتى لا عائل لهن من زوج أو ولد . فهذا المعمل خاص بإنتاج الأحذية ، وهناك معامل أخرى فى مختلف الصناعات الخفيفة قد أعدت خصيصاً لتشغيل النساء الراغبات فى العمل لحاجتهن إلى ذلك .

وأخذ يصف لنا المعمل فقال : إن هذا المعمل : ينقسم إلى قسمين يفصل بينهما جدار خشبى . أحد القسمين للرجال والآخر للنساء ، ولكل قسم أبوابه الخاصة به للدخول والخروج . ويدار القسم النسائى بواسطة خبيرة ماهرة تكون فى الغالب زوجاً للمدير العام للمعمل .

وفى القسم الثانى من المعمل يجرى العمل فى كل ما لا يتطلب مهارة فائقة ولا جهداً كبيراً . وما يتم من العمل فى القسم النسائى يحول إلى قسم الرجال بواسطة نوافذ وفتحات خاصة بالجدار الفاصل بين قسمى المعمل لإتمام العمل وإخراجه نهائياً . فالقسمان يكمل بعضها بعضاً .

وهنا قاطعت المدير قائلاً : كم عدد العاملات فى هذا المعمل ؟ فأجابنى قائلاً : قرابة الثلثمائة عاملة لا غير . وهى نسبة كما ترى هابطة ، وذلك لعدم رغبة المرأة المسلمة فى العمل خارج منزلها ، ولولا الضرورة لما وجد هذا العدد من النساء العاملات فى مثل هذا المعمل .. وأضاف قائلاً : وأغلب هؤلاء العاملات من متخرجات المعاهد المهنية فقال زميلى : سبحان الله ، وهل هناك معاهد مهنية للبنات عندكم ؟ قال : نعم . وعلل لإجابته قائلاً : إن البنت عندنا تدرس منهجاً تربوياً تعليمياً خاصة لمدة أربع سنوات ، تبتدىء بالسادسة من عمر البنت ، وتنتهى بالعاشرة منه تدرس خلالها الضرورى من أمور الدين وما يكفيها من التربية وما يهذبها من الأخلاق ، ثم تغادر المدرسة وهى لا تحمل شهادة مدرسية قط .. ولكنها تحمل فقها فى الضرورى من دينها وصلاحها فى نفسها ، وتهذيبها فى شعورها وسلوكها .

ومن كانت من أسرة فقيرة أو كانت دميمة لا يرغب فى الزواج منها عادة ، وأرادت أن تتعلم مهنة قد تحتاج إليها فى مقبل حياتها ، فإنها تلتحق بأحد المعاهد المهنية للبنات لتدرس به ثلاث سنوات المهنة التى تختارها . طبعاً مع برنامج علمى تربوى يزيد فى علمها ، وتهذيب نفسها .

فإذا أتمت ثلاث سنوات كان لها الحق فى الالتحاق عاملة بأحد هذه المعامل التى أعدت خصيصاً لتشغيل مثلها من البنات الراغبات فى العمل . وقاطعت كلامه قائلاً : إنه بناء على ما ذكرتم ياسعادة المدير أن البنت عندكم لا تدرس دراسة تؤهلها لأن تكون كاتبة أو حاسبة فى مصالح الحكومة ودوائرها ، أو فى مكاتب المؤسسات والشركات الوطنية قال نعم ، ومعاذ الله أن يكون مثل هذا ، إنه يا أخى وبلا شك مسخ للمرأة المسلمة وتعذيب لها ، بل هو الوأد لحياتها . ثم أردف قائلا : ولم تعرض المرأة المسلمة مثل هذا ؟ أمن أجل لقمة العيش أم لأجل أن تفسد عليها دينها ، لتفسد على الرجال دينهم ؟ وأى قيمة للحياة إذا فسد الدين فيها ، وعاش الناس بلا دين مقطوعى الصلة بالله هابطين إلى قذر هذه الحياة ، لا هم لهم إلا الكسب المادى ، والجرى وراء الشهوات ؟ إن عملا

كالذى ذكرت يا أخا الإسلام قد يوجد فى مجتمعات لا تدين بالإسلام أما فى أمة تدين بالإسلام ، وتعيش على مبادئه كهذه الأمة فهيهات هيهات أن يسلك هذا المسلك المنافى للكمال الذى تعيش له أمة الإسلام وتدعو إليه .

وشيء آخر يا أخى وهو أن العمل لكسب العيش عندنا إنما هو وسيلة لعبادة اللّه تعالى وطاعته ، فإذا كان قد يؤدى إلى معصية اللّه تعالى ، وترك طاعته فإنه لا خير فيه . ووجب تركه ، وتحتم تجنبه . ، وإلا كنا كمن يضيع الغاية بالحرص على الوسيلة ، وهو منتهى الحمق والخطل فى الرأى .

وواصل حديثه قائلاً : إن للنساء عندنا مكانة ، ولهن بيننا حرمة عظيمة . فكيف نعرض شرف المرأة المسلمة للضياع ، أم كيف نقدم طهرها وقداستها للابتذال والامتهان ؟

إن النساء شقائق الرجال وأمهات الأشبال . وإن عملهن فى المنازل أعظم فائدة من خارجها . وما تقدمه المرأة للرجل فى البيت من خدمة لا يمكن أن يعوض بشيء أبداً .

ومن هنا كلنا نمقت كل عمل يرمى إلى المساس بشرف المرأة ، أو يعرضها للمهانة والاحتقار . كما نمقت كل حركة تهدف إلى إخراج المرأة عن طبيعتها لتصبح سلعة رخيصة يسومها ، ويطمع فيها فقراء الإيمان والدين والأخلاق من همل الرجال وضيع الشبان .

وعند هذا الحد من الكلام قال سعادته : أرانى قد أطلت الحديث معكما أيها الإخوان على حساب العمل ، فأرجو أن تعذرانى إن عدت إلى عملى ، واستودعنا اللّه تعالى وانصرف إلى عمله . وقبلنا وداعةّ اللّه تعالى وانصرفنا نحن إلى وجهتنا مغادرين المعمل عائدين إلى المنزل ، وقد تملكنا شعور غريب من جراء الدرس الذى لقنا إياه مدير المعمل بحديثه عن المرأة وتعلمها وعملها فى هذا البلد الإسلامى العظيم ، وأصبحنا نشعر بأن ما عليه بلادنا ليس بشيء وأن الإسلام ليس هو الذى عليه قومنا ، إذ ما من يوم يمضى علينا فى هذه البلاد إلا ويتكشف لنا جديد من حياة هذه الأمة المسلمة بحق ، فنرى معه بوضوح مدى بعد إخواننا وبلادنا عن الإسلام وهم يدعونه ، ويزعمون أنهم مسلمون .

وبينما نحن فى طريقنا إلى المنزل ، وإذا بآذان الظهر يرتفع عالياً بصوت شجى ينطلق منحدراً من سماعات معلقة بأعمدة الكهرباء كأنما ينحدر من علياء السماء ، وما أن فرغ المؤذن من آذانه حتى وقفت الحركة نهائياً . فوقفت الحافلات وسيارات الشحن والسيارات

الصغيرة كل واحدة بمكانها الذى أدركها الآذان وهى سائرة عليه ، وذلك عند آخر كلمة قالها المؤذن وهى كلمة : لا إله إلا اللّه .

وانطلق الناس إلى مساجد الأحياء زرافات ووحدانا ، فاستحال المنظر إلى مظاهرة عظمى لم نشهد مثلها طول حياتنا . وبعد دقائق معدودات أقيمت الصلاة ، وتمت وخرج الناس من المساجد متدفقين كالسيول العارمة . وعادت الحياة حياة العمل كأحر ما تكون الحياة وأقواها حركة ونشاطاً وحيوية . فأخذ هذا المنظر من نفوسنا مأخذا عظيماً وقلنا : هذه هى أمة الإسلام التى كنا نسمع عنها ونقرأ ولا نراها فقد رأينا اليوم وعشنا معها فى بلادها ، والحمد للّه .

وقضينا يومنا وليلتنا بين المنزل والمسجد . ولـما أصبحنا . وأصبح الملك للّه عزمنا على زيارة مرفق آخر من مرافق حياة هذه الأمة المسلمة ووقع الاختيار هذه المرة على زيارة الثكنة العسكرية فإلى :

الثكنة العسكرية

وبعد ساعة من الزمن كنا بباب ثكنة عسكرية كبيرة للجيش الإسلامى قد كتب على لوحة جميلة فوق بابها بخط كوفى جميل العبارات التالية :

ثكنة الجيش الكبرى

رباط يوم فى سبيل اللّه خير من الدنيا وما فيها .

من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق . وكل عبارة من هذه العبارات قد كتب فى سطر خاص بها . واستأذنا فى الدخول فأذن لنا ودعانا ، وقابلنا فى غرفة الأركان أحد قادة الجيش الإسلامى ، وحيانا ورحب بنا ، وأجلسنا على كرسى مقابل له ، ودار بيننا الحديث التالى :

القائد : هل للأخوين من حاجة فنسارع إلى قضائها ؟

نحن : نعم . وشكراً للّه لك يا سعادة القائد .

القائد : ما حاجتكم واللّه أسأل أن يوفقنى لـقضائها ؟

نحن : حاجتنا أيها القائد المحترم : معرفة بعرض أنظمة الجند وقوانين التجنيد ، وأهداف الجيش ، وطريق تدريبه وتسليحه ، وما إلى ذلك من كل ما يتعلق بالجيش الوطنى لديكم .

القائد : حاجتكم مقضية إن شاء اللّه تعالى غير أن هناك أسرار للجيش لا يطلع عليها سوى هيئة أركانه ، وقيادته العليا . بيد أنه في الإمكان معرفتكما لأكثر ما ترغبون في معرفته بواسطة كتاب :

(النظام العام للجيش الإسلامي)

واستحضره بواسطة أحد الضباط ، وناولنا إياه قائلاً : تفضلا فاقرآ ، فإذا فرغتما منه رداه إلينا .

وعلى كرسى حجرى فى حديقة الثكنة الداخلية جلست مع صاحبى نقرأ الكتاب الحاوى لكل أنظمة جيش هذه الدولة الإسلامية وبعد ساعة فرغنا من قراءته ، ورددناه ، وودعنا القائد وصحبه من الضباط شاكرين وانصرفنا ، وقد ارتسم كل ما فى ذلك الكتاب فى نفوسنا من شدة تأثرنا ، وإعجابنا لما حواه من الأنظمة الدقيقة ، والقوانين الصالحة الحكيمة حتى أنه أمكننا إملاؤه كاملا ساعة عودتنا إلى المنزل ، ولم نسقط منه عبارة واحدة . فقد كان غلاف الكتاب ذا ثلاثة ألوان : أبيض وأخضر وأحمر ، كأنما روى فيه قول من قال : بيض صنائعنا ، خضر مرابعنا ، حمر مواقعنا .

قد كتب على غلافه بحروف سوداء بخط عربى جميل الجملة الآتية :

النظام العام للجيش الإسلامى

وجاء فى الصفحة الأولى ديباجة قصيرة فى نحو خمسة أسطر ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد أداءً لفريضة الجهاد ، وتنفيذا لأمر الله تعالى فى قوله : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ [1] . وحماية لبلاد المسلمين ، وعقائدهم ، وأرواحهم ، وأموالهم ، وأعراضهم أنشىء الجيش الإسلامى ، وسلح بأحدث الأسلحة ، ودرب ويدرب على أحسن أساليب القتال ، وأجداها وأكبرها أثرا فى الحرب ، وفعاليته والله ولى الأمر وإليه المصير . ونعم المولى هو ونعم النصير :

وجاء فى الصفحة الثانية العنوان التالى :

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

محتوى هذا الكتاب

يحتوى هذا الكتاب على ثلاثة فصول وخاتمة

وفى الصفحات التالية تفاصيل ذلك

الفصل الأول : فى هيئة الدفاع

وفيه ثلاثة بنود :

البند الأول : فى وجوب الدفاع

إن الدفاع عن أرواح المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، وعقائدهم واجب محتم بالكتاب والسنة قال تعالى : ﴿ **قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا** ﴾ (١) . وقال عز من قائل : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز** ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ (٣) ، وقال رسول الله ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد » .

البند الثانى : فى هيئة الدفاع العليا

هيئة الدفاع العليا تتكون من وزير الدفاع الذى هو أحد أعضاء مجلس الدولة الأعلى ، ومن قائد القوات المسلحة العام وهو عضو كذلك فى مجلس الدولة ومن أركان حرب ، ومن نائب لكل واحد من المذكورين .

البند الثالث : فى ارتباط هيئة الدفاع بمجلس الدولة

يحكم وزير الدفاع ، والقائد العام للجيش الإسلامى عضوان فى مجلس الدولة الأعلى ، فإن هيئة الدفاع مرتبطة بمجلس الدولة الأعلى بطبيعة الحال .

وبناء على هذا فإنه ليس لهيئة الدفاع أن تتخذ أى قرار يتعلق بشأن الدفاع فى السلم والحرب على حد سواء إلا بعد عرضه على مجلس الدولة الأعلى ومناقشته ، وإقراره ومن هنا فليس لوزير الدفاع ، ولا لقائد القوات العام أو أركان حرب ، أو غيرهم من قادة

---

(١) آل عمران : ١٦٧ .   (٢) الحج : ٤٠ .   (٣) البقرة : ١٩٠ .

الجيش وضباطه أن يصدر أمرا إلى الجيش ، أو إلى بعض ألويته أو كتائبه بالتحرك لقتال ما إلا بعد إبراز قرار مجلس الدولة الأعلى الممضى من إمام المسلمين وحاكمهم ، ومن لم يكن له ذلك فليس لأفراد القوات المسلحة طاعته ، وامتثال أمره بحال من الأحوال .

الفصل الثانى
فى التجنيد

وفيه ثلاثة بنود :

البند الأول : فى وجوب التجنيد

يجب على كل شاب مسلم بلغ الثامنة عشرة من عمره أن ينخرط فى سلك الجندية لقضاء عامين فى التدريب على فنون الحرب ، ووسائل القتال حتى يحذقها ويصبح قادرا على استخدامها بمهارة ، وذلك لأمر الله تعالى بالجهاد فى قوله :

﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ (١) ، وقوله : عز وجل : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون** ﴾ (٢) .

وقول الرسول ﷺ : « من مات ولم يغز ، أو يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من نفاق » .

ولما كان الجهاد لا يتم إلا بمعرفة وسائله وإعدادها فإنه يتعين على كل شاب مسلم أن ينخرط فى سلك الجيش لمعرفة وسائل الجهاد ، وعلى الدولة أن تعدها له ، وتدربه عليها .

البند الثانى : فى هيئة التجنيد ومهمتها

تتكون هيئة التجنيد من نائب عن قائد القوات المسلحة وآخر عن أركان حرب وعضوين آخرين أحدهما : طبيب من وزارة الصحة ، والثانى : قاض من وزارة العدل ، وتسمى هذه الهيئة بهيئة التجنيد العليا .

ومهمتها : استعراض المواليد لكل سنة ، وإصدار الأوامر باستدعاء البالغين السن القانونية للتجنيد إلى مراكز التدريب حيث يختبرونه صحيا ، ويلحقونه بالتدريب العام .

---

(١) الحج : ٧٨ . (٢) التوبة : ١١١ .

البند الثالث : فى مراكز التدريب

ينشأ فى كل ولاية من ولايات الدولة مركز مجهز بكامل الآلات والأدوات الخاصة بالتدريب العسكرى لتدريب شباب الولاية ليصبح قادرا على أداء فريضة الجهاد متى دعى إليها أو تعينت عليه .

الفصل الثالث

فى استخدام القوى الدفاعية

وفيه مادتان :

المادة الأولى : فى الإذن باستخدامها

لا يسمح أن تستخدم القوات المسلحة بحال من الأحوال إلا بإذن صريح يوقع عليه إمام المسلمين ، وأعضاء مجلس الدولة الأعلى ، وذلك لأن الجهاد لا بد فيه من أمر إمام المسلمين والقوات المسلحة لا تستخدم إلا فى الجهاد الشرعي الذى أذن الله تعالى فيه بقوله : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير** ﴾ (١) .

وبقوله : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾ (٢) .

المادة الثانية : فى الحالات التى تستخدم فيها القوات المسلحة

تستخدم القوات المسلحة بإذن إمام المسلمين ومجلس الدولة الأعلى كما نص على ذلك البند الأول من هذا الفصل ، ولا تستخدم إلا فى الحالات التالية :

١ ـ إذا اعتدى على أرض الدولة الإسلامية أو بحارها ، أو أجوائها .

٢ ـ إذا اعتدى على رعايا الدولة الإسلامية وغيرهم من أهل الذمة والحماية وسواء كان الاعتداء على الأرواح والأموال ، أو على الأعراض والأديان .

٣ ـ فى إخضاع العصابات المسلحة من أهل الحرابة وقطاع الطرق ممن يخيفون السبيل ، ويروعون الآمنين بالسطو على الأموال ، وإزهاق الأرواح ، داخل أرض الدولة الإسلامية.

---

(١) الحج : ٣٩ .   (٢) الحجرات : ٩ .

٤ ـ في قتال البغاة وهم الجماعة يخرجون عن إمام المسلمين ودولته ويشقون عصا الطاعة رغبة في الحكم وحبا في التسلط . فيقاتلون بموجب مادة قتال أهل البغي في باب القضاء من الدستور الإسلامي .

٥ ـ في قتال من صد عن الإسلام . أو اعترض طريق نشر هدايته بين العالمين .

ويعتبر في هذه الحالات الخمس قتالا شرعيا ، ويعتبر أهله مجاهدين في سبيل الله تعالى ، ومن مات منهم مات شهيدا ومن عاش عاش عزيزا كريما ، وذلك لقول الله تعالى في الأولى والثانية : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ (١) وقوله : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ (٢) ، وقوله في الحالة الثالثة : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض** ﴾ (٣) .

وقوله في الحالة الرابعة : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ (٤) . وقوله في الحالة الخامسة : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ (٥) وقوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ (٦) .

الخاتمة

وتشمل على أحد عشر تنبيها

١ ـ حتما تقام صلاة الجماعة بين سائر أفراد القوات المسلحة وذلك في الحرب والسلم على حد سواء .

٢ ـ تقام أربع محاضرات أسبوعية بين كافة القوات المسلحة في ثكناتها ومراكز تدريبها ـ يلقيها علماء مختصون في التربية الروحية ، وفنون الحرب ، واستخدام الأسلحة

---

(١) البقرة : ١٩٤ . (٢) البقرة : ١٩٠ . (٣) المائدة : ٣٣ .

(٤) الحجرات : ٩ . (٥) الأنفال : ٣٩ . (٦) التوبة : ٢٩ .

وألوان الدفاع ، وفى كل ما يجد فى فنون الحرب وأسلحتها تحصينا للقوات المسلحة من تسرب الضعف الروحى والمادى إليها ، وإبقاء على قدراتها وكفاءتها صالحة للجهاد .

٣ ـ يبنى فى كل مركز للجيش وثكنة مسجد جامع يتسع لكافة أفراد المركز أو الثكنة ويزود بمكتبة عامة يختار لها أنفع الكتب للمجاهد المسلم .

٤ ـ رسميا يكون للجندى المسلم زى خاص به ، وشعار يميزه عن غيره من جنود الكفر والضلال .

٥ ـ لزاما يكون فى كل ثكنة هيئة قضائية تقضى بين أفراد القوات المسلحة فيما يشجر بينهم ، وتصدر أحكامها وفق شريعة الله وتنفذ فور صدورها .

٦ ـ يبتدىء كل تدريب عسكرى ، أو رياضى لأفراد الجيش بعد صلاة الصبح مباشرة . ولتصل الصبح فى أول وقتها دائما ولا تتأخر .

٧ ـ يصح استخدام بعض القوات المسلحة أيام السلم فى مصانع الدولة وسائر منشآتها المختلفة استغلالا للطاقات المتوفرة لدى القوات المسلحة على شرط عدم إنهاك قوى الجندى فى العمل فلا يخرج العمل عن كونه رياضة بدنية لا غير .

٨ ـ يمنح الجندى المتزوج إجازات نصف شهرية بعد كل أربعة أشهر التى هى مدة الإيلاء المقررة فى القرآن العظيم .

٩ ـ الجندى ذو الأولاد والزوجة يعطى معاشا لزوجه وأولاده بالمعروف .

١٠ ـ لا يقبل أهل الذمة فى الجيش كيفما كانت ثقافتهم وقدراتهم الحربية ، لقول الرسول ﷺ : « إنا لا نستنصر بمشرك » . ولا يجوز أن يطلعوا على أسرار الجيش . كما لا تسند إليهم وظائف تتعلق بالدفاع أبدا .

١١ ـ ممنوع قطعا وجود آلات لهو أو غنى بين الجنود ، وأوقات الفراغ تعمر بالتعليم والعبادات والقرب الشرعية لأن الجندى فى عبادة ما دام فى سلك الجندية وعليه فلا معنى للهو واللعب فى صفوفه وبين أفراده . وبعد قراءتنا لما حواه « النظام العام للجيش الإسلامى » وما اشتمل عليه من فصول وبنود تفيض بالحيوية والقوة أيقنا أن هذه الأمة جديرة بالاحترام .

ونظر إلينا القائد وعرف تأثرنا فقال : إن الكتاب قد لا يعطى الصورة الحقيقية للواقع الذى ترجمه ، فهل لكما أن تتجولا معى فى بعض منشآت الجيش ؟ فقلنا نعم . ولا أحب إلينا من ذلك . فقال : على بركة الله وركب سيارة وركبنا معه . وبعد ساعة كنا بباب مصنع كبير لإنتاج الأسلحة الثقيلة ، ودخلنا المصنع وتجولنا فى ورشه المختلفة ، ووقفنا على أنواع كثيرة من الأسلحة التى تصنع فى تلك الورش التى يحويها ذلك المصنع الهائل الكبير .

وعدنا إلى الثكنة التى انطلقنا منها ، وقد حان وقت صلاة الظهر فأذن المؤذن وتقاطر الجنود من كل نواحى الثكنة وتلاحقوا فامتلأ بهم المسجد واكتفى ، وأقيمت الصلاة فصلينا ، وعند انصرافنا مال بنا القائد إلى مكتبة المسجد الملاصقة لجداره الغربى ، وإذا بها مكتبة فاخرة ذاخرة بأنواع الكتب العلمية القيمة النافعة ، وإذا بنظارها والقائمين عليها يناولون كل طالب مطلبه ، ويتقبلون من كل راد ما رده ، وذلك فى نشاط كبير وأدب رفيع . وبزيارتنا للمصنع والمسجد والمكتبة أيقنا أن ما حواه الكتاب الذى طالعناه عن نظام الجيش الإسلامى كان حقاً وصدقاً ، وكان نظاماً مطبقاً واقعاً وفعلاً .

وإلى هنا . والآن نودع سعادة القائد وننصرف ...

وبعد صلاة الغداة من اليوم التالى ونحن نتناول طعام الفطور قلت لصاحبى ما هى وجهتنا اليوم ؟ فسكت صاحبى ولم ينبس ببنت شفة ولعله قد سئم من كثرة الزيارات التى قمنا بها لتلك المرافق المختلفة فى هذه الدولة الإسلامية فقلت له : مالك لا تجيب ؟ فقال ما أرانا فى حاجة إلى زيادة التعرف على ما فى هذه البلاد فإن ما رأيناه كاف فى الاستدلال على صحة ما جاء فى دستورها من قواعد الكمال البشرى ودقة النظام الإسلامى وعظمة الدولة الإسلامية . فقلت هذا صحيح ، ولكنه غير مانع من زيادة الوقوف والتعرف على مرافق هذه الدولة المثالية . فقال لى صاحبى ، وهو يبتسم : فليكن ما تريد .

وعزمنا هذه المرة على زيارة وزارة المال والاقتصاد ، فإلى

وزارة المال والاقتصاد

وسرعت مع صاحبى حتى وصلنا إلى مبنى الوزارة ودخلناه ، واستأذنا فى الدخول على الوزير فأذن لنا ، ودخلنا عليه فسلمنا ورد السلام . وطلب منا الجلوس على كرسى إلى جانبه فجلسنا ثم قال : هل للأخوين من حاجة ؟ فقلنا نعم ، وهى أن لنا رغبة فى التعرف على النظام المالى فى الدولة الإسلامية التى سعادتكم على رأس وزارة ماليتها واقتصادها . فقال بعد أن ابتسم : إن الحديث فى هذا الباب يطول أيها الفتيان ، غير أنى أحيلكما على قراءة النظام المالى للدولة الإسلامية وهو مطبوع فى كتاب صغير وضعته الدولة لذلك . ومن خلال قراءته تقفون على كل ما أردتما الوقوف عليه فى هذا الشأن ، وأؤكد لكما سلفاً أن النظام المكتوب مطبق حرفياً ، فكما هو مكتوب على الورق هو مطبق ومعمول به على صعيد الواقع . وأدخل يده إلى درج أمامه فأخرج نسختين وناول كلا منا واحدة وقال : اقرآ وبعد فراغكما ردا النسختين إلى فلان وأشار إلى أحد الموظفين بمكتبه . وأستأذننا فى الانصراف قائلاً : لقد دعيت من قبل مجلس الدولة الأعلى ، وأنا فى طريقى إلى هناك فهل تسمحان أيها الأخوان ؟ فقلنا : نعم وفقك اللّه ، وانصرف وتركنا بغرفته . وانتحينا ناحية منها لنقرأ الكتاب الحاوى للأنظمة المالية والذى عنوانه (النظام المالى للدولة الإسلامية) وتصفحنا الكتاب ، وإذا ديباجته حرفياً ما يلى :

بسم اللّه الرحمن الرحيم

وصلى اللّه على النبى الأمى محمد وآله وصحبه وسلم

يعتبر الإسلام المال شيئاً محترماً ، فهو يأمر بتنميته وإصلاحه ، وينهى عن إفساده وإتلافه ، ويحرم اغتصابه ومصادرته قال تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل اللّه لكم قياماً** ﴾ (١) وقال عز وجل : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ **ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزءا بما كسبا نكالاً من اللّه واللّه عزيز حكيم** ﴾ (٤) .

وقال رسول اللّه ﷺ : « من اغتصب شبر أرض طوقه سبع أرضين يوم القيامة » .

---

(١) النساء : ٥ . (٢) الفرقان : ٦٧ .

(٣) المطففين ١ ـ ٣ . (٤) المائدة : ٣٨ .

ولذا فقد وضع هذا النظام المالى للدولة ليكون حداً لا يجوز تعديه ، ومرجعاً فى هذا الشأن يرجع إليه ، إذ قد بينت فيه طرق دخل مال الدولة وخرجه ، وكيفية إنمائه واستثماره وهيمنة الدولة عليه لمراقبته ، والحيلولة دون إنفاقه فيما يضر من معاصى اللّه تعالى ومعاصى رسوله ﷺ .

أو فيما هو خارج عن مصلحة البلاد والدولة والأمة تلك آخر كلمة فى الديباجة .

وأما محتوى الكتاب بعدها فإنه قد وضع فى الصفحة المقابلة وجاء فيه : أن هذا النظام المالى للدولة قد أثبت فى ثلاث فصول وخاتمة . وفى الصفحات الآتية تفصيل ذلك .

الفصل الأول

فى حرمة المال ، وكيفية دخله وهيمنة الدولة عليه :

وفيه بندان :

البند الأول : فى طرق دخل مال الدولة

ميزانية الدولة التى هى بيت مال المسلمين تتكون من الأموال المجموعة من الطرق التالية :

١ ـ من المعادن والثروات الطبيعية فى أرض الدولة .

٢ ـ من الزكوات المفروضة فى أموال المواطنين المسلمين .

٣ ـ من مصانع الحكومة ، ومنشآتها العمرانية ومؤسساتها التجارية والصناعية والفلاحية والزراعية .

٤ ـ من رسوم البضائع التجارية المستوردة من خارج البلاد من تجارة أهل الذمة ، والمعاهدين .

٥ ـ من تبرعات الأغنياء ، ومن طوابع البريد . وما إلى ذلك .

٦ ـ من الفيء والغنائم التى يحصل عليها الجيش الإسلامى فى حروبه الإسلامية المقدسة .

البند الثانى : فى هيمنة الدولة على المال .

المال هوعصب الدولة وقوام حياتها ، فهى لا تكون بدونه ، ولا تقوى على أداء

واجباتها بغير وجوده ، ولهذا يحق لها ، بل يجب عليها أن تهيمن عليه فتراقبه فى دخله وخرجه ، وتفريقه وجمعه ، ولكن فى نطاق الحق والعدل ومراعاة الحلال فيه والحرام .

فجمعه لا يكون من غير المصادر المشروعة التى أذن اللّه تعالى فى الاكتساب منها . فلا يجمع مال الدولة التى أذن اللّه تعالى فى الاكتساب منها . فلا يجمع مال الدولة ولا مال الأفراد من بيع المحرمات ، ولا من الفوائد الربوية ، ولا بالاغتصاب والسرقة ، ولا بالمصادرة والتأميم غير المشروع .

كما أن صرفه يجب أن لا يكون خارجاً عن دائرة مصلحة الأمة الخاصة والعامة بحال من الأحوال ، فلا ينفق المال وسواء كان مال الدولة أو مال الفرد فيما لا يحل الإنفاق فيه من معاصى اللّه عز وجل ، إذ المال أداة نفع مشتركة بين أفراد المسلمين ، قال تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** ﴾ (١) ، وقال : ﴿ **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ (٢) . فلا يحل إذاً إنفاق مال الدولة أو الأفراد فى إسراف وبذخ ، ولا فى تبذير ، ولا فيما لا يحقق مصلحة ظاهرة للفرد أو الدولة .

الفصل الثانى
فى إنماء مال الدولة

وفيه بندان :

البند الأول : فى الإنماء داخل البلاد

تنمية أموال الدولة أمر ضرورى من أجل أن يفى بجميع حاجات الدولة ، ومتطلباتها الكثيرة ، ومن هنا كان لابد من ضرب الحكومة بسهم كبير فى جميع الميادين التجارية والصناعية والفلاحية ، فتنشىء لها مؤسسات مختلفة صناعية وفلاحية وتجارية وذلك لتحقيق غرضين أساسيين وهما :

أولا : تنمية أموال الدولة ، لتصبح تغل باستمرار ، وبذلك يحفظ كيان الدولة نامياً متطوراً قوياً .

ثانياً : لإيجاد وظيفة عمل لكل مواطن يتقاضى ، بموجبها المخصص لإعاشة أفراد عائلته من ميزانية الدولة التى هى بيت مال المسلمين .

---

(١) النساء : ٥ . (٢) النساء : ٢٩ .

هذا ولكى تتمكن الحكومة من تحقيق أكبر هدف لها فى إيجاد عمل لكل مواطن فى الدولة يتقاضى بموجبه إعاشته وأفراد أسرته .

عليها أن تختص بجميع المرافق العامة فى البلاد ، وذلك كالمعادن والثروات الطبيعية ، والكهرباء والماء والمواصلات .

(تنبيه)

لا ينبغى أن يفهم من هذا أن للحكومة أن تحتكر جميع الصناعات والتجارات من إصدار وتوريد ، أفراد الأمة ، لا ، لا ، بل لأفراد الأمة وبكل حرية أن ينشئوا ما شاءوا من المؤسسات الصناعية والتجارية والفلاحية ، وعلى الحكومة أن تشجعهم على ذلك وما لها عليهم إلا شيآن : أولهما : أخذ الزكوات المفروضة ، وثانيهما : النظر فى شؤون العمال المستخدمين لديهم بحيث لا يوظف أحد فى الشركات والمؤسسات الأهلية براتب وأجر أقل مما يتقاضاه الموظف فى شركات الحكومة ، ومؤسساتها ، إذ من أغراض الحكومة فى إنشاء المؤسسات الصناعية والتجارية إيجاد عمل للمواطن يتقاضى بموجبه المخصص له فى بيت مال المسلمين (خزانة الدولة) .

وعليه فإذا وجدت الحكومة مؤسسات أهلية أمينة صالحة توظف، لها أعداداً من الموظفين بقدر من المال يسد حاجاتهم فى الحياة فإن ما عليها إلا مساعدة تلك المؤسسات ، وتشجيعها بما يكفل لها النمو واطراد النجاح .

البند الثانى : فى تنمية مال الدولة خارج البلاد .

لا مانع البتة من أن تنمى الدولة الفائض من أموالها خارج حدود أرض الدولة إذ ذلك يكسبها فائدتين كبيرتين :

أولهما : دخل مستمر على خزانتها من خارج بلادها ، وفى ذلك ما يدعم مركزها المالى ويقويه بين الدول والحكومات .

وثانيهما : السمعة الطيبة بين الدول والنفوذ السياسى فى البلاد التى تستثمر فيها أموالها الفائضة على مشاريعها فى داخل بلادها .

الفصل الثانى
فى صرف مال الدولة

وفيه أربعة بنود :

البند الأول : فى تحريم تبذير المال ، وإنفاقه فى المعاصى والمحرمات .

لقد حرم الشرع الإسلامى تبذير المال وإنفاقه فى المعاصى والمحرمات فلذا لا يحل لأى فرد من أفراد المسلمين سواء كان حاكماً أو محكوماً ، مسؤولاً أو غير مسؤول أن يبذر مال اللّه ، أو يتخوض فيه بغير حق ، سواء كان مال الدولة العام أو مال الفرد الخاص . وعلى المخالف العقاب . قال تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ (١) ، وقال : ﴿ **ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾ (٢) وقال عز وجل : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ (٣) .

البند الثانى : فى تحديد التبذير والإسراف .

يعتبر الإنفاق للمال تبذيراً وإسرافاً إذا كان :

١ ـ زايداً على قدر الحاجة من طعام أو شراب أو لباس أو سكن أو مركب .

٢ ـ فى معصية اللّه تعالى ومعصية رسوله ﷺ بفعل ما نهياً عنه وحرماه من أكل أو شرب أو لباس أو نظر أو سماع ، أو اقتناء أو ادخار .

٣ ـ فيما لا يعنى من المباحات بحيث لا يحقق منفعة ظاهرة للفرد أو الجماعة أو يدفع عنهما مفسدة أو مضرة .

البند الثالث : فى مراقبة الدولة للمال :

بناء على قول اللّه تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل اللّه لكم قياما** ﴾ (٥) . وقول الرسول ﷺ : « إن اللّه حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .

---

(١) البقرة : ١٨٨ . (٢) الإسراء : ٢٦ ، ٢٧ . (٣) الأعراف : ٣١ .
(٤) البقرة : ١٨٨ . (٥) النساء : ٢٩ .

البند الرابع : فى صرف مال الدولة وإنفاقه .

الدولة الإسلامية تتبع فى توزيع مالهما أوفى الطرق ، وأعدل النظم التى يكمن أن يعرفها الناس فى هذا الوجود . فهى تجرى إحصاء عاماً دقيقاً لكل أفراد الأمة التى تحت ولايتها ، وفى ظل لوائها ، وعلى أساس ذلك الإحصاء ومعرفة أفراد المواطنين تضع ميزانيتها السنوية العامة فتجعل لكل فرد من أفراد الأمة شهرياً يكفل له الضرورى من القوت .

غير أنها لا تدفع له ذلك القدر المخصص إلا مقابل عمل يقوم به للدولة ، فهى تلزم نفسها بإحداث وظيفة لكل فرد يقدر على العمل فى البلاد ليتسلم بموجبها المخصص له فى خزانة الدولة (بيت المال) غير أن الدولة تراعى فى هذا جانبين مهمين أولهما : أفراد الأسرة ، فذو زوجة وثلاثة أولاد مثلاً يعطى مرتباً شهرياً على عمله الذى يقوم به لا يعطاه الذى لا أسرة له ، أو له أسرة أفرادها أقل من أسرة الأول وثانيهما : ذو المنصب المهم أو العمل الشاق ينبغى أن يزداد على مخصصه بما يشجعه على الاستمرار فى عمله والصدق فيه على أن لا تكون الزيادة فوق الضعفين .

وبناء على ما ذكر فإن مال الدولة ينفق فى طريقين :

أحدهما : موظفى الدولة من إمام المسلمين إلى آخر موظف فى جهاز الدولة ، ومعنى هذا أنه ينفق على كافة أفراد الأمة إذ ما من مواطن إلا وله عمل يشغله فى الدولة يأخذ به المخصص له فى الميزانية كما تقدم .

وثانيهما : مصادر التنمية التى هى مصانع الدولة ومتاجرها ، ومزارعها ومرافقها العامة والتى يعمل فيها أفراد الأمة كذلك وبه أصبح مال الدولة كله عائداً إلى الأمة .

الخاتمة

وفيها تنبيهات :

الأول : كون الدولة تقوم بسد حاجة كل مواطن فى هذه البلاد غير مانع من أن يقدم المسلم لنفسه شيئاً يجده عند ربه يوم يلقاه ، إذ اللّه تعالى يقول : ﴿ **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً** ﴾ (١) ، والرسول ﷺ يقول : « واتقوا النار ولو بشق تمرة » . ولذا تعين أن ينشأ فى كل مسجد من مساجد البلاد صندوقان

(١) المزمل : ٢٠ .

أحدهما للبر ، والثاني للجهاد ، فيوضع الأول على يمين الداخل للمسجد ، والثانى على يساره ، وقد كتب على صندوق البر العبارة التالية :

أيها المسلم : هذا الصندوق بر يصرف ما تجمع فيه من صدقات المتصدقين على الأرامل واليتامى والمساكين من العجزة وأهل العاهات ، وذلك تحت إشراف هيئة المسجد فقدم لنفسك خيراً تجده عند اللّه هو خيراً وأعظم أجراً .

وقد كتب على صندوق الجهاد ما يلى :

أيها المسلم : اذكر أن الجهاد فريضة اللّه عليك ، وأن الجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس . واعلم أن الجيش الإسلامى فى حاجة دائمة إلى المزيد من السلاح والتطوير .

وإلى العديد من الرجال ، وتدريبهم وإعدادهم صالحين لخوض معارك الجهاد المنتظر ، والدائر الآن ، فإن واجبك بسخاء ، وضع فى هذا الصندوق ما لم تكن فى حاجة إليه .

واعلم أن درهم الجهاد يضاعف إلى سبعمائة ضعف .

الثانى : لا مانع من أن يكون أهل المهنة الواحدة كسائقى السيارات والفلاحين أو الجزارين ، أو النجارين أو عمال المصانع أو غيرهم ممن تجمعهم مهنة واحدة أن يكونوا صندوقاً يطلقون عليه اسم (التأمينات الاجتماعية) . وينبع فى تكوين القواعد والشروط التالية :

١ ـ النية الصالحة وهى أن ينوى بذلك التعاون على البر المأمور به فى قول اللّه تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾ [1] . والرحمة المذكورة فى قول اللّه تعالى : ﴿ **وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة** ﴾ [2] .

٢ ـ أن يدفع المخصص باختياره ، وطيب نفسه .

٣ ـ تساوى المشتركين فى القدر الذى يدفعونه مساهمة منهم فى الصندوق إلا من تبرع بأكثر فإنه لا حجر عليه .

٤ ـ أن يتساوى المشتركون فيما يعطاه أحدهم عند نزول الحادثة وإصابة المصيبة .

٥ ـ إذا انسحب العضو من المنظمة مللا أو عجزاً ليس له أن يطالب بما دفعه فى الصندوق لأنه دفعه بنية البر والصدقة ، فليس له أن يعود فيه لقوله ﷺ : « العائد فى هبته

---

(١) المائدة : ٢ . (٢) البلد : ١٧ .

كالعائد فى قيئه » .

٦ ـ أن لا يستخدم المال المجتمع فى الصندوق فى الأعمال الربوية من أجل تنميته ، أو لغرض آخر ، ولا بأس أن ينمى بطرق خالية من الربا جائزة التعامل كالتجارة والصناعة وغيرهما .

٧ ـ الهيئة القائمة على الصندوق كالكاتب والمحاسب والمحافظ يأخذون أجرة أمثالهم من الصندوق مقابل أعمالهم .

الثالث : لا بأس بأن توقف الأوقاف الخيرية على مثل هذا الصندوق الخيرى التعاونى لأنه صندوق بر وإحسان . تنفق أمواله على أصحاب النوائب والنكبات ، كما لا بأس بتشجيع الحكومة له بمال من خزانة الدولة .

الرابع : مادام المال بلغة يتبلغ بها المسلم ووسيلة يتوسل بها لسعادته فى حياته الأولى والآخرة فإنه للمسلم فى هذه البلاد أن يوقف ويحسب ما شاء من دور وضياع وآبار وعيون على المساجد أو العلماء ، والفقراء أو الجهاد ، ويسجل ذلك فى كتابة العدل ، ويقدم صك ما أوقفه إلى وزارة الأوقاف لتقوم برعايته وتنميته وصرفه للجهة الموقوف عليها حسب شروط الواقف .

ولما فرغنا من قراءة ما جاء فى النظام المالى للدولة الإسلامية رأيت صاحبى وكأنما بدا عليه إعجاب كبير بما رأى من النظام السليم . فسألته قائلا كيف رأيت النظام المالى فى دولة الإسلام ؟

فقال رأيت عجبا لم أر مثله قط ، إنه العدل والدقة والتنظيم فقلت له : أين هذا من الأنظمة الاشتراكية التى طالما غنى لها وصفق المغرورون بالباطل والمخدوعون بالوعود الكاذبة ؟

فقال صاحبى وقد تنهد : إن الفرق بين هذا وذلك كما بين الأرض والسماء ، والسعادة والشقاء . فقلت : إذا هيا بنا نواصل زياراتنا إلى كل مرفق من مرافق هذه الدولة الإسلامية ، لنخرج بصورة واضحة عنها ، وحتى يمكننا أن نبشر بها ، وندعوا المسلمين إلى الأخذ بقانونها ، ليسعدوا بسعادتها ويفوزوا بالكمال الذى فازت به فى هذه الحياة الدنيا .

وقال لى صاحبى : إلى أين تريد أن تذهب الآن ؟ فقلت : إلى محافظة هذه المدينة فإنه

من المهم جدا أن نعرف نظام المحافظة المعمول به فى هذه البلاد الإسلامية فقال : وليكن ذلك .

فقلت : على بركة الله وسرنا بخطى سريعة إلى

المحافظة

ووصلنا إلى دارها وكانت قريبة من منزلنا ، فدخلناها ، واستأذنا على سعادة المحافظ فأذن لنا فدخلنا وسلمنا فرد السلام ، وكان رجلا مهيبا قد تخطى الأربعين من عمره له لحية كثة سوداء تضرب إلى صدره ، وقد اعتم بعمامة لم تر العين أحسن منها ، ولا أجمل منها اليوم ، وبيده نسخة من دستور الدولة الإسلامية كأنه يطالعها أو يبحث عن شئ فيها . وما أن تبادلنا التحية حتى رحب بنا واستجلسنا فجلسنا على مقربة منه . وسألنا قائلا : هل للأخوين حاجة تقضى ؟

فقلنا : نعم . ومثلكم يفعل بإذن الله . فقال : ما حاجتكما ؟ فقلنا : رغبة فى الاطلاع على نظام البلديات عندكم ، وطرق إدارة المدن والقرى فى ظل الدولة الإسلامية التى ترفرف عالية فى سمائها راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . فقال : ستحقق رغبتكما إن شاء الله تعالى . ونادى أن يا إبراهيم بن أحمد فأجابه مسرعا : لبيك : فقال : ناولنى نسختين من نظام إدارة المدن والقرى فى أقاليم الدولة ، فدخل إبراهيم مكتبا مقابلا، فأخرج نسختين ، فقال له المحافظ : ناول كلا من الأخوين نسخة ففعل .

وانتحينا ناحية من مكتب المحافظ نقرأ الكتاب الذى قدم إلينا وإذا قد كتب على غلافه بحروف جميلة العبارة التالية .

نظام إدارة المدن والقرى فى أقاليم الدولة

وفتحنا الكتاب فإذا ديباجته ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين

وبعد:

هذا نظام إدارة المدن والقرى فى داخل أقاليم الدولة الإسلامية قد أعد من قبل علماء الشريعة الإسلامية ووافق عليه إمام المسلمين ومجلس مشورته موافقة اجتماعية حيث كل بنوده كانت مستمدة من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وقد أصبح العمل به حتما محتما ، وعلى المجالس المدنية ومحافظى المدن ، ومشايخ القرى أن يعملوا بموجبه ، ومن رأى أن بندا من بنوده يتنافى مع آية من كتاب الله تعالى ، أو سنة من سنن الرسول ﷺ الصحيحة ، أو قضاء من أقضية أصحابه رضى الله عنهم فليدفع ذلك إلى مجلس الدولة الأعلى ليحال إلى هيئة التشريع للتحقق مما رأى ، ومتى رؤى أنه الحق وجب أن يرجع إليه وأن يثبت هذا النظام ، ويجرى العمل به فور إقراره ، إذ الحق أحق أن يتبع ، ولا هدى إلا هدى الله وما الحكم إلا حكمه . وهو ولى الأمر والتدبير .

صدر هذا النظام ، وتم التصديق عليه من قبل إمام المسلمين ومجلس الدولة الأعلى . بتاريخ كذا ..

وجاء فى الصفحة المقابلة لصفحة الديباجة ما يلى : يحوى هذا النظام تسعة أبواب :

الباب الأول : فى تكوين المجلس المدنى .

الباب الثانى : فى بيان مهمة المجلس المدنى .

الباب الثالث : فى تكوين مجلس الحسبة .

الباب الرابع : فى تكوين مجلس القضاء .

الباب الخامس : فى تكوين المجلس المالى .

الباب السادس : فى تكوين مجلس التعليم .

الباب السابع : فى تكوين هيئة الإصلاح وبيان مهامها .

الباب الثامن : فى تكوين المجلس الصحى ولبيان مهامه .

الباب التاسع : فى « الجمعيات التعاونية » .

وجاء فى الصفحات التالية من الكتاب تفصيل تلك الأبواب بابا بابا

الباب الأول : فى تكوين المجلس المدنى

يدير المدينة ، أو مجموعة القرى المتجاورة مجلس يطلق عليه اسم المجلس المدنى ويتكون أعضاؤه من ذوى الخبرة فى كل شأن من شؤون الدولة بحيث يكون كل عضو فيه نائبا عن مدير من مديرى المصالح الحكومية .

فرئيس المجلس يكون نائبا عن والى الإقليم ، ورئيس الحسبة (الشرطة) يكون نائبا عن

مدير الأمن العام فى الإقليم ، ورئيس المحكمة والقضاة يكون نائبا عن مدير العدل فى الإقليم . وهكذا حتى يكون المجلس المدنى صورة مصغرة من المجلس الإقليمى الذى هو صورة من مجلس الدولة الأعلى .

الباب الثانى : فى مهمة المجلس المدنى

مهة المجلس المدنى تنحصر فى أمرين أولهما : البحث فى كل ما يرفع شأن المدينة ويحقق لها الخير والصلاح والتعاون على ذلك بعرض كل عضوللمسائل التى تدل على مصلحته واستشارة أعضاء المجلس فيها والأخذ برأيهم فى ذلك . وثانيهما : أن كل عضو فى المجلس يرأس مصلحة خاصة من مصالح الدولة فى المدينة وبناء على هذا فستتفرع عن المجلس المدنى المجالس الآتية :

١ ـ الحسبة « الشرطة »

٢ ـ القضاء

٣ ـ المالية

٤ ـ التعليم

٥ ـ الإصلاح الاجتماعى

الباب الثالث : فى تكوين مجلس الحسبة وبيان مهامها

تتكون هيئة الحسبة من رئيس يدعى رئيس هيئة الحسبة « الشرطة » فيه أن يكون عالما بالشريعة ذا تقوى وكفاية . ومن أعضاء عاملين يساعدونه على تسيير أعمال الهيئة . ويوضع تحت تصرف هذه الهيئة عدد من الرجال الأكفاء يقلون ويكثرون بحسب سعة المدينة وضيقها يقومون بمهمة الحسبة والتى هى :

١ ـ المحافظة على الأمن والنظام داخل البلد .

٢ ـ تنظيم السير فى البلد والإشراف عليه .

٣ ـ تنفيذ الأحكام الشرعية التي تصدرها المحكمة على المواطنين .

٤ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى البلد وبين المواطنين .

فيأمرون بكل معروف يرونه قد ترك بين الناس وينهون عن كل منكر يرونه قد ارتكب

بين المواطنين . وذلك لقول الله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (١) .

الباب الرابع : فى المجلس القضائى

يتكون فى المدينة الواحدة أو فى مجموعة القرى المتجاورة محكمة قضائية تضم رئيسا وعددا من القضاة يساعدونه على إصدار الأحكام الشرعية فى القضايا التى يرفعها المواطنون إلى المحكمة للنظر فيها والحكم .

وذلك لقول الله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ (٣) .

الباب الخامس : فى المجلس المالى

يتكون من كل مدينة أو مجموعة من القرى المجاورة مجلس مالى « هيئة » يضم رئيسا للصندوق وكاتب وحاسب وجباة تودع فيه أموال الدولة للجمع والصرف يطلق عليه إسم فرع بيت المال ويكون مرتبطا بوزارة المالية وببيت مال الدولة .

الباب السادس : فى مجلس التعليم

يوجد فى كل مدينة من مدن الدولة إدارة للتعليم تضم مديرا وكتابا وحسبة مهمتها القيام بشؤون التعليم وتنفيذ ما يرد إليها من الإدارة العامة للتعليم فى الإقليم من أوامر تتعلق بمهمة التربية والتعليم .

الباب السابع : فى مجلس هيئة الإصلاح الاجتماعى وبيان مهامه

يتكون مجلس هيئة الإصلاح الاجتماعى من أحد كبار العلماء بالشريعة الإسلامية رئيسا ومن خبير معمارى وطبيب ورجل اقتصادى وآخر اجتماعى .

ومهام هذه الهيئة هى : كافة ما يتعلق بشؤون المدينة من الناحيتين الدينية والدنيوية وذلك ما يلى .

١ ـ الإشراف على البناء والتخطيط فى المدن والقرى .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .   (٢) الحديد : ٢٥ .   (٣) النساء : ٥٨ .

٢ ـ النظافة العامة فى المدينة والقرية سواء بسواء .

٣ ـ تأمين الماء والنور فى المدينة والقرية وصيانتهما .

٤ ـ تأمين النقل وإصلاحها داخل المدينة وبين القرى .

٥ ـ إعداد وسائل الإطفاء والإنقاذ والقيام بذلك عند حدوثه .

٦ ـ الإشراف على الحفلات العامة ومراقبتها وكذا الاجتماعات العامة كالمقاهى والأندية والملاعب الرياضية والمسابح البحرية وما إلى ذلك .

٧ ـ مراقبة الأسواق والبضائع والسلع التجارية .

٨ ـ مراقبة أزياء المواطنين والمواطنات وملابسهم نساء ورجالا فلا تسمح للرجل ولا المرأة بالخروج عن آداب الزى الإسلامى المعروف .

٩ـ تنظيم الزى وتوحيده للطوائف الآتية :

العلماء ـ الجند ـ الحسبة ـ النساء ـ المرتاضون ـ الكشافة ففى الجند يوجد الزى مع وجود علامة فارقة بين الجندى المسلم والجندى الكافر ، كالطربوش بدلا عن القبعة مثلا وفى رجال الحسبة يوجد زيهم وتوضع لهم علامة مميزة ، وفى النساء تلزم المواطنة بأن تلبس درعا سابغا واسعا فضفاضا يستر قدميها ، وتتقنع بقناع يستر رأسها وعنقها بحيث لم يبد منها إلا دائرة الوجه والكفان قط ، هذه فيما إذا ترخصت فى ذلك ، وإلا فإنها تتلفع بمرط « ملاءة » تستر جميع جسدها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها وهذا هو اللائق بها .

وفى العلماء يوجد زيهم ويلزمون العمامة لتكون فارقا بينهم وبين عامة الناس .

وفى المرتاضين يوجد الزى ويكون السروال ساترا لنصف الساق وكذا الكشاف مع إيجاد شعار خاص بالكشافة الإسلامية .

كل ذلك حذرا من قول الرسول ﷺ :« من تشبه بقوم فهو منهم »

الباب الثامن : فى المجلس الصحى

يتكون فى كل مدينة أو مجموعة القرى المتجاورة إدارة صحية يكون رئيسها نائبا عن مدير الصحة العام الذى هو نائب عن وزير الصحة فى مجلس الدولة ، وتكون مهمتها الإشراف على الأطباء والممرضين والمرضى والعلاج وكل شأن يتعلق بالعلاج والتمريض

فى المشافى والمصحات والمستوصفات .

وتبذل هذه الهيئة من العناية الطبية والصحية ما يجعل مشافى للخلافة أحسن خدمة للمرضى وأكثر عناية بهم من جميع مشافى العالم وذلك لما أمر به المسلمون من الإحسان والإخلاص ، ولما يتصفون به من الرفق والرأفة والرحمة ومما يجب أن تمتاز به مشافى الدولة أيضا كون تمريض الرجال خاصا بالرجال وتمريض النساء بالنساء .

الباب التاسع : فى الجمعيات التعاونية

بناء على أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى ، ونهيه عن التعاون على الإثم والعدوان فى قوله :

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ (١)

وتحقيقا لهذا المطلب السامى تتكون فى كل حى من أحياء الدولة الإسلامية ، وعامة قراها جمعيات تعاونية حيث يقوم رجال الحى والقرية ، يعاونهم المجلس المدنى ببناء مسجد جامع فى حيهم أو قريتهم يتسع لكافة أفراد الحى أو القرية ذكورا وإناثا ، ويختارون إماما لهم من أهل العلم والصلاح يسندون إليه أمر الصلاة بهم وجمعهم فى مسجدهم مرتين فى الأسبوع ذكورا وإناثا لدراسة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تثقيفا لهم ، وتربية لأرواحهم وتقويما لأخلاقهم .

ومن المسجد تنبثق اللجان الإصلاحية التالية :

١ ـ لجنة صندوق الحى والقرية ومهمتها : جمع الاشتراكات الشهرية من أفراد الحى أو القرية ، وحفظها فى صندوق الجمعية .

٢ ـ لجنة رعاية الحى أو القرية ومهمتها : تفقد أحوال المساكين فى الحى والقرية لمعرفة مريضهم ، ومحتاجهم ، وغائبهم ، وظالمهم ، ومظلومهم . وتقديم ذلك فى بيان لإمام الحى أو القرية ، لتقديم المساعدة الفورية التى يفرضها الإسلام بحكم الجوار والأخوة الإسلامية .

٣ ـ لجنة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتكون أفرادها من رجل الحسبة في الحى والذى تعينه إدارة الحسبة العامة فى المدينة ، ومن عضوين أخرين من أهل الحى

(١) المائدة : ٢ .

ومهمتها مراقبة سلوك أفراد الحى أو القرية ، ومعرفة كل من ترك معروفا وهو قادر على فعله ، أو ارتكب منكرا وهو غير مضطر إليه ، واستدعاؤه إلى لجنة التأديب فى المسجد لأخذه بطرق تأديبها الخاصة بها .

٤ ـ لجنة التأديب ، وتتكون من إمام المسجد وعضوا من رجال الحسبة ، وأمين صندوق الحى ومهمتها تأديب وإصلاح كل من يخل بواجبه فى المجموعة الساكنة فى الحى أو القرية بتركه المعروف ، أو ارتكابه المنكر من قول أو فعل ، أو اعتقاد . وتستخدم هذه اللجنة فى إصلاح الأفراد وسائل التأديب التالية :

١ ـ الوعظ والنصح ، إذ كان الرسول ﷺ يؤدب أصحابه بالقول أحيانا ، فإن لم يجد ذلك انتقل إلى المادة التالية :

٢ ـ المقاطعة بهجره التام من كل أفراد الحى حتى من أقرب قريب له ، إلى أن يتوب بفعل ما ترك من المعروف أو ترك ما ارتكب من المنكر ، فإن لم تنفع هذه الوسيلة انتقل إلى المادة التالية .

٣ ـ دفع الأمر إلى دائرة الحسبة فى المدينة ، ومطالبتها باسم كافة أفراد الحى أو القرية بإصلاح الشخص ، أو نفيه من الحى أو القرية ، لأنه عضو فاسد يخشى معه سراية فساده إلى أفراد الحى الصالحين .

وهكذا الحال فيما إذا ارتكب حدا من حدود الله تعالي فإنه يرفع الأمر فوراً إلى دائرة الحسبة (المحافظة) لمحاكمته ، وإقامة الحد عليه بإذن والى إمام المسلمين فى المدينة أو الإقليم .

وبعد قرائتنا لهذا النظام ازددنا إعجابا بهذه الدولة ، وقلنا : إن وراء هذا التوفيق المنقطع النظير سرا من الأسرار ، وليس بعيدا أن يكون هذا السر هوصدق إيمان هذه الأمة ، وصحة يقينها ، وإلا فما أكثر الحكومات التى تنتسب إلى الإيمان وتدعيه ، وأين هذه من تلك ؟

وما كان منا إلا أن خرجنا من مكتب المحافظ مودعين من به ، وغير مخفين إعجابنا مما رأينا ، ولا استحساننا لما شاهدنا من نظام مدهش عجيب .

وعدنا إلى المنزل ، والرغبة تلح فى نفوسنا على مواصلة الزيارات لكل المرافق والمؤسسات فى هذه الدولة الإسلامية التى نزاد كل يوم إعجابا بها ، وتقديرا لها .

وقلت لصاحبى : بما أننا زرنا المحافظة لم لا نزور الولاية ، وقد كان المفروض أن نزورها قبل زيارة المحافظة . فقال لى : الرأى ما تراه ، فقلت : إذا غدا إن شاء الله نزور الولاية بإذن الله تعالى فقال صاحبى : وليكن ذلك .

وما أن أصبحنا وطلعت شمس النهار علينا حتى قلت لصاحبى : هيا بنا ننفذ ما عزمنا أمس عليه من زيارة الولاية . فقال صاحبى : على بركة الله ومشينا إلى

الولايــة

وفى طريقنا عرجنا على أحد باعة اللبن فسلمنا عليه فرد السلام واستبعناه كوبى لبن فباعنا ، فشربنا وكان صاحبى قد تناول الكوب بشماله وشرب ونسيت أنا أن أذكر اسم الله تعالى عند شربى ، وأعطينا البائع الثمن ، فقبضه فى غضب ، وقال : لا بركة فى دراهمكما أيها الرجلان فقلت : لم يا شيخ ؟ فقال : أما أنت فإنك شربت ولم تذكر اسم الله عند شربك ، وأما صاحبك فإنه تناول الكوب بشماله وأردف قائلا : فمن أى البلاد أنتما؟

قلنا : من بلاد إسلامية هى كذا .. فقال : لا كلا ، فكيف تكونان من بلد إسلامى وتجهلان أبسط السنن ؟ فقلنا : إننا لا نجهلها أيها الشيخ ، إننا نعلم أن النبى ﷺ أمرنا بالأكل باليمين ، كما أمرنا بالتسمية عند الأكل والشرب . فقال لغلام معه : سم الله يا غلام ، وكل بيمينك ، ولا تأكل بشمالك فإن الشيطان يأكل بشماله .

وهنا قال الشيخ : وهذه أعظم ، أتعلمان أمر الرسول ﷺ وتتركانه استخفافا به وعدم مبالاة ، إن هذه لأخت الردة والعياذ بالله ، فما دهاكما أيها الرجلان ؟ ؟ فقلنا : لا تثرب علينا أيها الشيخ ، ولا تعتب ، إنه قد مضى على بلادنا زمن طويل ، وأحكام الله فيها معطلة ، وشرائعة مضيعة حتى درست بيننا سنن الهدى ، وعفت آثار الآداب الإسلامية فى بلادنا .

ولو قدر لك أيها الشيخ الصالح أن زرت بلادنا ورأيت كيف هجرت المساجد وعمرت المقاهى ، وترك سماع القرآن لسماع الألحان ، ورغب عن طلب علم الكتاب والسنة إلى طلب علم الجغرافيا والحساب ، وكيف ترجل النساء ، وتخنث الرجال ، واستبدل بحكم الله ورسوله حكم أعداء الله ورسوله وكيف أصبح زعماء البلاد ومفكروها والمسيرون للأمور فيها أصبح همهم الوحيد أن تصبح الأمة المسلمة بينهم أمة

كافرة ، ويعدون هذا خدمة للأمة وصدقا فى الوطنية ، ويحسبون كل مرحلة يقطعونها فى هذا المضمار ـ مضمار التكفير ـ انتصارا وكسبا جديدا . ونسوا أو تناسوا أن كل ما فى الأمر أنهم يمسخون فى الأمة المؤمنة لتصبح أمة كافرة ، إن هذا ما قد عجز عنه الكافر الذى استعمر بلادنا زمنا طويلا ولم يقدر عليه ، قد قام به إخواننا وعقدوا العزم على تحقيقه . وقد قطعوا فيه مع الأسف شوطا بعيدا . إنك أيها الشيخ لو دخلت بلادنا لم تستطع أن تفرق بين أمتنا وإخواننا ، وبين أمة الكفر وإخوان الضلال ، لا فى المظهر ، ولا فى المخبر .

وهنا لاحظنا أن الشيخ قد اغرورقت بالدموع عيناه وبكى فبكينا معه وقال : معذرة يا بنى . ورفع يديه إلى السماء ودعا طويلا ، وقال : اللهم فرج على إخواننا كربهم ، ولا تبتلنا بما ابتليتهم إنك ربنا وربهم .

وهنا شكرنا للشيخ ـ بائع اللبن ـ عواطفه ورحمة قلبه ، وانصرفنا مواصلين سيرنا إلى دار الولاية ، فوصلنا إليها ، وإذا هى بناية ضخمة على بابها حارس من الأشاوش تقدمنا إليه وسألناه عن وجود الوالى بها فأجبنا بنعم فطلبنا منه أم يخبر الوالى برغبتنا فى زيارته ففعل وخرج وهو يقول : ادخلا تفضلا فقد أذن لكما ، فدخلنا ، وإذ بالوالى بباب غرفته قائما ينتظرنا .

فسلمنا عليه فرد السلام بأحسن ، واستجلسنا بجواره فجلسنا وسألنا عن حاجتنا فأخبرناه بها وهى رغبتنا فى معرفة نظام الولايات فى هذه الدولة الإسلامية العظيمة فقال : لا أحسب أن حديثى يفى لكما بغرضكما ولذا فإنى أقدم لكما نظام الولايات عندنا مكتوبا فى كتيب صغير فتقرآنه فتعرفان كل ما أردتما معرفته فى هذا الخصوص فقلنا : الرأى ما ترى يا سعادة الوالى . وتفضل بإعطائنا الكتاب ، فقال : حبا وكرامة ، ونادى : سعيد . سعيد بن عمرو ، فأجاب المنادى قائلا لبيك وحضر فقال له : ابغنى نسختين من نظام الولايات فدخل الرجل مكتبا مجاورا وخرج والنسختان بيده ، فأمره الوالى بإعطاء كل منا نسخة ففعل ، فتسلمنا النسختين وشكرنا الوالى على جميله .

وانتحينا كعادتنا فى مثل هذه الحال ، ناحية من غرفة الوالى لنقرأ الكتاب حتى نرده بعد فراغنا من قراءته .

وتصفحنا الكتاب ، وإذا هو عبارة عن خمس صفحات وضعت فى غلاف سميك جميل ومحتواه بعد الديباجة ، والتى هى حمدا لله تعالى ، والثناء عليه والصلاة والسلام

على نبيه محمد وآله وصحبه :

يشتمل هذا النظام على بابين : الأول :فى الولاة وصفاتهم وطريقة توليتهم . وبه أربعة فصول . والثانى : فى كيفية حكم وإدارة أقاليم الدولة وفيه فصلان .

وهذا تفصيل ذلك :

الفصل الأول من الباب الأول

شـروط الولايـة

كل ولاية فى الدولة سواء كانت قضاء ، أو وزارة ، أو ولاية ، أو إمارة ، أو نظارة ، أو إدارة لا يجوز أن تسند لأى من الناس إلا إذا توفرت فيه الشروط التالية :

١ ـ الإيمان والتقوى لقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (١) . فغير المسلم من المواطنين كالذمى ، وغير التقى كالفاسق بكبيرة من المسلمين لا يسند إليه منصب من المناصب المذكورة ، إلا فى حال الضرورة القصوى ، وعلى شرط أن تعمل الدولة على إنهاء هذه الضرورة فى أقرب وقت بإعداد كفىء لهذا المنصب .

٢ ـ أن يكون ذا أهلية بالعلم والمعرفة فى شأن ما يسند إليه من منصب ، وذلك لقول الرسول ﷺ : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

٣ ـ أن لا يكون المرشح للمنصب قد طلبه ، أو سعى للحصول عليه بأى سعى كان لقول الرسول ﷺ : « إنا لا نولى هذا العمل أحدا سأله ، أو حرص عليه » .

الفصل الثانى

فى كيفية تعيين الولاة وغيرهم

تسند المناصب الهامة فى الدولة كالقضاء ، والوزارة ، والولاية ، والإمارة والقيادة والنظارة بأحد أمرين : أولهما : اختيار الدولة للشخص الذى تريد إسناد المنصب إليه ، وذلك بعد البحث والاستقصاء فى التعرف إلى أمانته وكفايته ، إذ بهذه الطريقة كان النبى ﷺ والراشدون من بعده يعينون الأمراء والولاة والعمال .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

ثانيهما : ترشيح أهل الإقليم ، أو المنطقة ، أو المدينة ، أو القرية لشخص منهم يكون قد توفرت فيه شروط المنصب الذى يراد إسناده له من أمانة وكفاية وهى العلم والقدرة .

الفصل الثالث

فى مساوات الولاة لغيرهم من المواطنين

يجب أن لا يتميز ذو المنصب فى الدولة على غيره من المواطنين فى باب الحقوق والواجبات بحال من الأحوال . ولو كان إمام المسلمين نفسه ، وذلك لأن المسلمين سواسية تتكافؤ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد واحدة على سواهم كما جاء فى الحديث الصحيح . فليس لذى المنصب مهما شرف منصبه أن يتفضل على مواطن مسلم ، أو ينتهك حرمته ، أو يسبه أو يضربه ، أو يأخذ ماله بغير حق واجب .

وإذا ما ثبت أن ذا منصب اعتدى على مواطن بأى وجه من الاعتداء ، فإن للمواطن المعتدى عليه الحق فى أن يقيم على المعتدى دعوى فى المحكمة ويحاكمه ، وعلى القاضى أن ينصفه منه ، ويعطيه حقه كاملا ، ولو كان المعتدى إمام المسلمين أو أحد وزرائه ، ورجال حكمه . إذ ليس هناك من هو أفضل ولا أكرم من رسول الله ﷺ وقد قال : « من أخذت له ماله فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن ضربت له ظهرا فهذا ظهرى فليقتد منه » . وعلى بن أبى طالب وكان إماما للمسلمين قاضاه يهودى إلى قاضيه شريح فأجلسه القاضى أمامه إلى جنب خصمه اليهودى ، وهو إمام المسلمين وحكم عليه . وفاطمة بنت محمد سيدة نساء الدنيا قال فيها رسول الله ﷺ : « والله لو سرقت لقطعت يدها » .

الفصل الرابع

فى حق المواطنين فى النصح والتوجيه

من حق كل مواطن فى الدولة شاهد حيفا ، أو إهمالا ، أو سوء تصرف من صاحب منصب من مناصب الدولة . إمام المسلمين أو من دونه من الولاة والأمراء والعمال أن يذكره وينصحه ، ويعظه ، ويوجهه بالكلام الطيب ، والقول المعروف فى أدب واحترام وذلك لقول الرسول ﷺ : « وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، وعلى كل من نصح أن يتقبل النصح ويشكر عليه » .

فقد قيل يوما لعمر بن الخطاب وهو إمام للمسلمين : اتق الله فينا يا عمر ، فأجابه عمر قائلا : لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم . . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو إمام للمسلمين : إن وجدتم فى القرآن أن تضعوا رجلى فى القيد فضعوها فى القيد . وقال أبو بكر الصديق وهو إمام للمسلمين : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم : إن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . غير أنه لا يجوز توجيه النصح ، والإرشاد بعبارات تدل صراحة على الإهانة والتحقير ، وعدم الاحترام لولاة المسلمين إذ الواجب على كل مواطن احترام ولاة الأمور وتوقيرهم ، لقول الرسول ﷺ : « إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المسقط » .

الباب الثانى

الفصل الأول منه

فى تعيين نائب لإمام المسلمين

يعين إمام المسلمين نائبا له يتولى حكم وإدارة الإقليم التابع للدولة ، يسمى والى الإقليم ، على أن تتوفر فيه غالب الشروط المطلوبة لإمام المسلمين نفسه من الإيمان ، والعلم والتقوى ، والأمانة والشجاعة .

الفصل الثانى

فى مجلس إدارة الإقليم

على نائب إمام المسلمين إذا حل فى الإقليم الذى ولى فيه أن يكون له بالتزكية مجلسا إقليميا يختار له أعضاؤه من رجالات الإقليم وغيرهم أن دعت الحاجة إلى ذلك ، يختارهم من أهل التقوى والكفاية بحيث يكون المجلس صورة مصغره من مجلس الدولة الأعلى ، فيضم أصحاب الخبرات والقدرات من أهل العلم والحرب والاقتصاد والصناعة .

ويتخذ الوالى من هذا المجلس سندا له وعدة يدير بها الإقليم الذى تحت ولايته فيستشير أعضاءه ، ويأخذ بصائب رأى أكثريتهم . كما يسند إلى كل عضو منهم إدارة مصلحة من مصالح الدولة فى الإقليم ، فمن الفقهاء يتخذ مديرا للقضاة ومن العلماء يتخذ

مديرا للتعليم ، ومن الحربيين يتخذ مديرا للأمن وهكذا . . فيجعل كل ذى اختصاص مديرا عاما فى مصلحة اختصاصه ويربط جميع تصرفاتهم به فلا يبت أحدهم فى أمر يتعلق بمصلحة إلا بعد عرضه على المجلس ، ومناقشته والموافقة عليه . وبعدها يرفع إلى مجلس الدولة الأعلى للتصديق عليه وإقراره .

ويلاحظ هنا أنه إذا رأى أى وزير من وزراء الدولة رأيا فيما يتعلق بمهام وزارته فإنه يعرضه على مجلس الدولة الأعلى للنظر فيه وإقراره أو رفضه ، وإذا حاز الموافقة امضاه إمام المسلمين ، وبعث به الوزير إلى كافة مديرى شؤون وزارته فى سائر أقاليم الدولة ومناطقها لتنفيذه والعمل به .

وبعد فراغنا من قراءة الكتيب الحاوى لنظام الولايات . قلت لصاحبى : كيف وجدت نظام الدولة الإسلامية فى تعيين الولاة ، وكيفية إدارتهم لولايات الدولة فى أقاليمها المختلفة ؟؟

فقال لى فى اندهاش وإكبار : وجدته خير ما يمكن أن يكون نظاماً على وجه الأرض ولا يبعد أن يكون سر هذا النجاح هو توفيق الله تعالى لعباده الصالحين ، الذين أخبر أنهم يرثون الأرض فى قوله : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾(1) .

وأردف صاحبى قائلاً : إنه لما استقامت هذه الأمة على منهج الله الذى هو الإسلام منحها الله تعالى توفيقه فهى لا تخطو خطوة إلا سددها فيها ، ولا تقوم بعمل إلا أنجحها فيه . فقلت له : إذا عرفنا سبب إخفاق حكوماتنا وفشلها وخيبتها وخسرانها ؟ قال : نعم ، إنه الحرمان من التوفيق الإلهى ، وإلا فكم نراهم يبذلون من جهود مضنية . ويقدمون من التضحيات الجسام لرفعة أممنا وشعوبنا وإسعادهم ولم تكن النتائج دائماً إلا أصفاراً على الشمال .. وقاطعت صاحبى قائلاً : فهل تعرف لهذا الحرمان من التوفيق سبباً ؟ فقال : نعم وبدون شك إنه الإعراض عن ذكر الله تعالى وهداه ، وهما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . ولا أرى من سبب سوى هذا . فقلت له : أنت متأكد مما تقول ؟ قال نعم . إنى متأكد مما أقول إنه لم يحرم المسلمين فى غير هذا البلد . من توفيق الله ربهم إلا إعراضهم عن ذكره وتركهم لهداه . ومصداقه قوله تعالى : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾(2) .

---

(1) الأنبياء : ١٠٥ .   (2) طه : ١٢٣ ، ١٢٤ .

فقلت له : إذا أرأيت لو يرجع المسلمون إلى الإسلام الصحيح فيحكمون شرائعه فى كل شؤون حياتهم ، فهل يرجع الله إليهم بهدايته وتوفيقه ، ونصره وتأييده ؟ قال : نعم وبدون شك ، وما المانع ؟ والله تعالى يقول : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ (٢) ، ويقول : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً** ﴾ (٣) .

وهنا سألت صاحبى قائلاً : هل اقتنع أخى أن دولة تقوم على تلك الأسس التى سبق أن وقفت عليها وعرفت . لا تكون إلا خير دولة عرفها التاريخ البشرى على وجه الأرض ؟ قال : نعم ، وكيف لا ؟ وقد رأيتها بعينى ، ولمستها بيدى ومشيتها برجلى . وها أنا أقضى فيها هذه الأيام برفقتك ، ولا أحب إلا من أن تطول إقامتى فيها حتى أمتع نفسى بكل ما فيها من كمال وجمال ، وسعادة وحسن حال . فقلت له : إذاً أنت مستعد الآن لمواصلة التجوال معى فى هذه الدولة التى أعظمت وأكبرت . قال نعم . وامش بنا إلى حيث شئت فقلت : إنى أرغب فى زيارة وزارة الخارجية لهذه الدولة لنعرف نظامها الخارجى ، وكيف علاقاتها بالدول الأخرى ، وعلى أى أساس هى تقيم علاقاتها مع غيرها من دول العالم .

فقال صاحبى : الأمر سهل . فلنذهب إلى مقر الوزارة وسوف يمدوننا بنظام مكتوب كما حصل لنا فى سائر الدوائر التى زرناه ، وسوف تعرف ما رغبت يا صاحبى فى معرفته ، وبكل يسر وسهولة . فهيا بنا إلى مقر الوزارة .

وغادرنا مبنى الولاية فى طريقنا إلى مبنى ..

وزارة الخارجية

واستوقفنا سيارة أجرة فوقفت فركبناها . ولما سارت قليلاً قال سائقها : أيها الأخوان لعل أتعاب الغربة أنستكما آداب الركوب . واندهشنا لقوله ، وقلنا : ما هى آداب الركوب ؟ فقال : أن يقول المرء عند وضعه رجله على السيارة بسم الله ، والحمد لله ، حتى إذا استوى جالساً قال : « سبحان الله الذى سخر لنا هذا وما كنا مقرنين ، وإنا إلى ربنا

(١) النحل : ١٢٨ .   (٢) الروم : ٤٧ .
(٣) النور : ٥٥ .

لـمنقلبون » . إذ بهذا أرشد اللّه تعالى عباده المؤمنين فى قوله من سورة الزخرف من كتابه الكريم : ﴿ **وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لـمنقلبون** ﴾ (١) .

فقلنا معتذرين : إننا لم نترب على هذه الآداب فى بلادنا أيها الأخ ولم نعرفها فقال : سبحان اللّه ، ماذا تعرفون فى حياتكم ؟ وكأنما شعر بتحرجنا فأعرض عن الموضوع ، وسألنا قائلاً : إلى أين تريدان الذهاب ؟ فقلنا : إلى مقر وزارة الخارجية . فقال : على بركة اللّه تعالى ، ودفع السيارة فما هى إلا دقائق ونحن بباب المبنى ، فاستنزلنا فنزلنا ، ودفعنا إليه الأجرة فأباها ، وسلم علينا ، وانصرف . فقلت لصاحبى : يا للعجب فى هذا البلد ، وهذه الأمة .

سائق سيارة أجرة يعيش على هذا الكمال البشرى . ينكر علينا جهلنا بآداب الركوب ، ويطايبنا حتى يذهب الألم فى نفوسنا .. ويركبنا مجاناً ، مراعاة لغربتنا ويحيينا وينصرف فى لطف وظرف .

أين هذا السائق من سائقى السيارات فى بلادنا ؟ أولئك الذين إذا تعطلت سيارة أحدهم لخلل فى جهازها لم يترك كلمة سوء إلا قالها ، ولا كلمة كفر إلا نطق بها ، وإذا قيل له فى ذلك . يقول فى وقاحة : إنا إذا لم نكفر عليها لا تمشى .. أنظر .. أنظر إلى الفرق يا صاحبى . إنه فرق أمة تعيش على الحكم الإسلامى والنظام الإسلامى . والحياة الإسلامية ، وأخرى تعيش على حكم الطاغوت ، وحياة الفسوق والفجور . آه . ثم آه ... إلى متى وأمتنا فى هذا الظلام الحالك ؟؟ .

وهنا قال لى صاحبى والبكاء يخنقه : هون على نفسك يا أخى إن للّه قضاء فى خلقه سوف ينفذه . وإن مع العسر يسرا ، ولعل أيام المحنة قد أذنت بالذهاب . وأيام النعمة قد وقفت على الأبواب ...

فقلت : لعل .. وعسى . واستأذنا فى الدخول على وزارة الخارجية فأذن لنا ودخلنا فسلمنا ورد علينا بأحسن . وسألنا عن حاجتنا فبيناها ، والتمسنا قضائها وكانت حصولنا على مكتوب يحوى الأنظمة الخارجية للدولة الإسلامية وقدم لنا ذلك ، وكان عبارة عن

---

(١) الزخرف : ١٢ ـ ١٤ .

لائحة صغيرة ذات ثلاث نبود :

البند الأول : فى بيان الغرض الذى من أجله تفتح الدولة الإسلامية سفارات لها فى دول أجنبية .

لا تفتح الدولة الإسلامية سفارة لها فى دولة أخرى إلا لغرض سليم يحقق منفعة للدولة ، وذلك كأن يكون هناك رعايا مسلمون . أو يكون هناك علاقات تجارية ، أو ثقافية تستلزم وجود ممثل للدولة الإسلامية فى تلك البلاد .

وأهم من هذا وذاك أن تفتح السفارة من أجل التوصل بها إلى نشر الدعوة الإسلامية . والقيام بواجب إبلاغ دعوة الإسلام إلى سكان تلك البلاد . فهذا أسمى غرض وأنبله تفتح من أجله السفارات الإسلامية فى دول أجنبية ، وتتحمل خزانة الدولة من أجله باهظ التكاليف والنفقات .

البند الثانى : فى بعض أنظمة خاصة بالسفارات .

ينبغى أن يراعى فى شأن السفارات التعاليم التالية ، وأن تطبق فى ذلك تطبيقاً كاملاً ، وبكل دقة . وتلك التعاليم هى :

١ ـ عدم فتح أية سفارة ، أو ممثلية للدولة الإسلامية ، وفى أية دولة إلا لتحقيق الأغراض المذكورة فى البند الأول من هذا النظام ، وذلك من أجل الحفاظ على أموال الدولة وحتى لا تنفق فى غير طائل ، وذلك حرام .

٢ ـ وجوب الاكتفاء بأقل ما يمكن من أعضاء فى السفارة ، وذلك كالسفير وكاتبه ، وهو نائبه ، وخادم ، ورجل الدعوة ، وعضوان معه . وحارس لا غير . وذلك من أجل تقليل النفقات .

٣ ـ وجوب تقيد أعضاء السفارة ، أو الممثلية بالزى الإسلامى الكامل ، ليكون مظهرهم موافقاً لمخبرهم ، ودالاً على إسلامهم ، ومميزاتهم عن غيرهم ، وعليه فلا يسمح لأى عضو فى السفارة أن يتزيى بغير الزى الإسلامى ، كيفما كانت الاعتبارات ، وذلك لما فى الزى الخاص من لفت النظر ، واسترعاء الانتباه إلى الإسلام .

٤ ـ تعيين مراقب خاص للسفارات يتنقل بينها ، ويراقب أعضائها ، ويلاحظ سلوك كل فرد منهم ، وأيما فرد يخل بهذه النظم الخاصة ، أو ينحرف أى انحراف فى خلقه أو دينه يجب تأديبه وإبعاده . كل ذلك للإبقاء على الوجه المشرق للدعوة الإسلامية

متمثلاً فى أفرادها القائمين بها والساهرين عليها .

البند الثالث : فى كون السفارة مركزاً للدعوة الإسلامية يجب أن يضم مبنى السفارة فى كل بلد أجنبى توجد فيه للدولة الإسلامية سفارة يجب أن يضم حجرة واسعة كبيرة لتتخذ مسجداً يؤذن على سطحها ، وتقام الصلوات الخمس فيها .

فعندما يدخل وقت الصلاة يؤذن المؤذن بأعلى صوته ، ويصلى أعضاء السفارة ومن وجد من المسلمين معهم يؤمهم فيها رجل الدعوة فى السفارة والمخصص لها وليتخذ من هذا المسجد الصغير دار النشر للدعوة الإسلامية وتبليغها فى تلك البلاد . ففى هذا المسجد الصغير يجلس أعضاء الدعوة يعرفون بالإسلام كل من يريد معرفته ، ويعلمون مبادئه ، وشرائعه كل من يريد أن يتعلمها . ومن هذا المسجد توزع الكتب والرسائل والنشرات الإسلامية . وفى هذا المسجد أيضاً يتم التلاقى ، وتحصل الإجتماعات مع كل فرد يريد الإسلام أو التعرف عليه .

وأخيراً : فبهذا يمكن أن يسقط واجب الدعوة إلى الإسلام المتعلق بكل فرد مسلم قادر ، وبخاصة الدولة الإسلامية ورجالها .

فقرأنا هذه اللائحة المتضمنة لبعض الأنظمة الخارجية للدولة الإسلامية فزاد ما قرآناه فى إعجابنا بهذه وإكبارنا لها . كما أذكى نار الحزن والألم فى نفوسنا ، إذ ذكرنا بما عليه خارجيات دولنا التى تزعم الإسلام ، والإسلام لا يقر لها بذلك ، إذ لم تكن تمثله فى قليل ، ولا كثير . فلم يكن هناك فرق بين نظام خارجية أية دولة من دولنا وبين نظام دولة أخرى من دول الكفر أبداً ، وإن كان هناك فرق ففى الإسراف والإتلاف ، والهون والدون .

سلمنا تلك اللائحة لأحد موظفى مكتب الوزير وودعنا شاكرين وانصرفنا عائدين إلى منزلنا فوصلناه ، وقد أرهقنا تعب نفسى شديد فقضينا بقية يومنا نتردد بين المنزل والمسجد حتى آوانا المبيت فبتنا ، ولما تنفس الصباح ، وصلينا بالمسجد الغداة طرق آذاننا صوت إعلان بوفاة ، وكان المتوفى أحد القضاه ، ويشيع جثمانه من المستشفى إلى مثواه بمقبرة المعلاة . وقلنا هذه فرصة أخرى قد أتاحها اللّه لنا لنزور أهم ما يزار فى هذه الحياة ، وقصدنا

المستشفى

ووصلنا قبيل جماهير المشيعين واتصلنا بأحد الموظفين ، وسألناه قائلين : هل بين أطباء

هذا المستشفى طبيبات وهل بين ممرضيه ممرضات ؟ فقال : نعم ولكن الأطباء والممرضين بمعالجة الرجال مختصون ، والطبيبات والممرضات بمعالجة النساء مختصات وقلما تدعوا الحاجة إلى أن يعالج الطبيب امرأة في هذا المستشفى ، ولا تدعو الحاجة أبداً إلى أن تعالج المرأة الرجل . أما التمريض فلايمرض الرجل المرأة ، ولا المرأة الرجل البتة . وأردف قائلاً : هذا في أيام السلم ، أما في أيام الحرب فقد تدعوا الحاجة إلى أن يمرض ويعالج النساء الرجال ، ولا حرج .

وتعرف هذه بحالة الضرورة ، وتقدر بقدرها ، ولا تأيد عليها . وهنا قلنا له : هل لك أن تطوف بنا في أروقة المستشفى ؟

فقال : نعم . وطاف بنا كل أروقة المستشفى ، ووجدنا ما أخبرنا به حقاً فلم نر في الجناح الخاص بالرجال من نساء ، ولا طبيبات ، ولا ممرضات ، ولا بالجناح الخاص بالنساء من رجال ممرضين ولا أطباء وما زلنا نطوف بأقسام المستشفى حتى وصل مشيعوا الجنازة وسلمت إليهم فابتدروها ، وعلى الأعناق حملوها ، وسار موكبها في صموت رهيب إلى

المقبرة

وأتوا بها على ساحة كبيرة قريبة من المقبرة ، ولكنها لا تتصل بها ، فوضعت ، وتقدم أحد أوليائها للصلاة عليها ، فصلى وصلى الناس وراءه صلاة الجنازة المعروفة وحملت مرة أخرى في صمت إلى أن وضعت على شفير القبر ، ووقف الرجال حولها وتولى أحدهم وضعها في قبرها . وأهالوا التراب عليها فوارها ، وما أن فرغوا حتى قال قائل منهم : سلوا لأخيكم الثبات فإنه الآن يسأل ، فدعوا للميت وسألوا له التثبيت ، والمغفرة والرحمة ، وانصرفوا ، وأثناء انصرافهم كانوا يقدمون لذوى الهالك تعازيهم فيقول الرجل . لأخيه : أعظم اللّه أجر وأحسن عزاك ، وغفر لميتك ، فيرد الآخر عليه قائلاً : لا أراك اللّه مكروهاً في عزيز لديك . وعاد كل مشيع إلى أهله ، أو محل عمله ، وتعجبنا مما رأينا ، وقلنا : سبحان اللّه !! جنازة قاض تشيع وتدفن بهذه البساطة !!

إن وراء هذا سراً ولا شك . فلنسأل عنه ، ولكن من نسأل ؟ واتفقنا أن نسأل إمام المسجد فإنه أجدر بإجابتنا وأحرى بها !! وحانت صلاة الظهر ودخلنا المسجد مع أفواج الداخلين وصلينا مع المصلين ، وقضيت الصلاة ، ودخل الإمام مقصورته كعادته ، واتبعناه ودخلنا معه ، وقلنا بعد تحيتنا له ، وسلامنا عليه : يا شيخنا المحترم ، لقد قدر لنا اليوم أن

نحضر تشييع جنازة في هذا البلد ، فشيعناها مع المشيعين لها من مستشفى كانت به . إلى قبرها الذى وريت فيه ، وقد فقدنا معها الكثير مما كنا نعرفه للجنائز فى بلادنا . إننا لم نر باقات الزهور التى كنا نراها تتبع الجنازة ، وتوضع على القبور . كما أننا لم نر علم الدولة . وقد كنا نراه يوضع على سرير الميت إن كان من رجالها : أو المسؤولين فيها كما لم نسمع أصوات الموسيقى التى كنا نسمعها عند تشييع جنازة كبير من كبراء الدولة ، أو عظيم من عظمائها .

وافتقدنا أيضاً ما هو دون ذلك من الهيللة ، وقراءة البردة والهمزية عند التشييع ، وقراءة القرآن أثناء الدفن وبعده بأصوات مختلطه عالية مرتفعة . الأمر الذى أدهشنا وأحدث تساؤلات كثيرة فى نفوسنا ، وخاصة ما رأينا من تسوية القبور بالأرض وعدم رفعها بزخرفتها والبناء عليها .

فهل لشيخنا الكريم أن يكشف لنا عن سر ذلك ، ويريح نفوسنا مما أهمنا وسوف لا نقصر فى شكره ، وحسن الثناء عليه ؟؟

فقال الشيخ : نعم واجعلا شكرى والثناء على شكراً للّه وثناءً عليه ، فإنه أحق بذلك منى ، وأولى به . وإليكما بيان ما طلبتما أيها الرجال .

١ ـ إن اتباع الجنائز بالموسيقى ، ولفها فى علم الدولة ، ووضع باقات الزهور عليها ، وعلى القبور ، كل هذا من عمل الكافرين وليس من سنن المسلمين ولذا فقدتموه فى جنازة رجل من هذا البلد المسلم .

٢ ـ رفع االأصوات بالتهليل ، وقراءة البردة والهمزية ، والصلاة والسلام على خير البرية أثناء حمل الجنازة ، وتشييعها إلى المقبرة كل هذا وإن فعلتموه باسم الدين متوسلين به فى زعمكم إلى ربكم ليرحم ميتكم . فإنه بدعة ليست من سنن الإسلام فى شىء .

٣ ـ عدم قراءة القرآن على القبور ، وتسويتها بالأرض ، وعدم تفاضلها بزخرفتها والبناء عليه كل هذا من سنن الإسلام غير أنكم لـما ألفتم خلافه فى بلادكم اندهشتم ، وتعجبتم ، وإلا فإن كل من درس شيئاً من سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه عرف أن قراءة القرآن على القبور لم تكن معروفة عند أصحاب الرسول ﷺ ، كما أن نصوص السنة متوافرة فى تحريم البناء على القبور وتجصيصها وضرب القباب على قبور الصالحين منها .

وإنما ضعف إيمان قومكم فأصبحوا عاجزين عن طاعة اللّه وطاعة رسوله ﷺ حتى فى ترك محرم فضلاً عن القيام بواجب يتطلب جهداً ومالاً . وأن مرد ذلك كله إلى ضعف الإيمان وعدم الصدق فيه .

وهنا قاطعت الشيخ قائلاً : هل ترى أن قومنا غير مؤمنين أيها الشيخ ؟ فأجاب قائلاً : معاذ اللّه أن أقول : إنكم غير مؤمنين . فقلنا له : إذا كنا مؤمنين مثلكم فلم نهض إيـمانكم بكم هذا النهوض ، فارتفعتم إلى هذا المستوى من الكمال فى الدين والدنيا معاً ، ولم ينهض بنا إيـماننا فقعدنا عن كل كمال ، وتورطنا فى كل ضعف وفساد ؟

ورد الشيخ علينا قائلاً : إننا متفقون فى أصل الإيمان ولكننا مختلفون فى كماله . والإيمان كالطاقة الدافعة المحركة فإذا قوى فى النفس دفع إلى العمل الصالح وحرك إلى ترك المحارم واجتناب المفاسد . وإذا ضعف قصر عن ذلك . وقد قلت لكما آنفا : إن مرد العجز عن القيام بالواجبات ، وترك المحرمات هو ضعف الإيمان وعدم الصدق فيه . فضعف إيـمان أمتكم وقوى إيـمان أمتنا ، فكان الفرق الذى رأيتما ولمستما . وإليكما بيان ذلك وتوضيحه :

إن أمتنا لـما آمنت باللّه ربا يرحم ويعذب ، وإلها يطاع ويعبد ، صدقت فى إيمانها ، فأخذت نفسها بطاعته ، والتسليم له . فلم تشك فى عمله وحكمته ، ولا فى عدله ورحمته كما لم تشك فى قوتـه وقدرتـه ، فسلمت الأمر كلـه له ، ولم يصبح لها معه هوى ولا رأى ، فصدقت أخباره ونفذت أحكامه ، وأطاعته فى أوامره ونواهيه وأحبته تعالى ، وأحبت فيه ، وأحبت كل ما يحب ، وكرهت كل ما يكره ، وأصبح اللّه تعالى غايتها التى لاغاية لها بعدها فى هذه الحياة ، فكان كل تفكيرها فيما يرضيه ، وكل همها محصور فيما يقربها منه ، ويزلفها إليه ، ووفرت كل طاقتها لتحقيق طاعته والإيمان به ، والصدق فيه .

وعلى خلاف هذا أمتكم أيها الرجلان فإنها وإن آمنت باللّه رباً وإلهاً فإنها لم تعظمه ، ولم تطعـه كما يجب أن يعظم ويطـاع . بل فرغ قلب أمتكم من كل حب اللّه ، وتعظيم له ، فلم تسلم وجههـا للّه ، ولم تتوكل عليه . وكان نتيجة لفقد ذلك أن ارتابت فى أخباره ، وشكت فى عدالته ، فلم تحكم شرعه ، ولم تذعن لأمره ولا لنهيه ، فتركت كثيراً من الفرائض والواجبات ، وارتكبت كثيراً من المحرمات . والمنهيات . فقست بذلك قلوبها وأضحت تكره لقاء ربها ، وتخاف من فراق الحياة وأمست ولا هم لها إلا ما يحقق شهوات بطونها وفروجها ، فانقطعت عن السير فى طريق الكمال ، وأسرعت فى سبيل

الضلال فضلت وتاهت .

ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

ثم التفت الشيخ إلينا ، وقال وهو فى غاية الانفعال : إنكم يا إخواننا لم تصدقوا فى إيـمانكم . وها أنذا اضرب لكم مثلاً ، وهو أنكم محكمون بحكومات على رأسها ما تسمونهم بالملوك والرؤساء ، وقد آمنتم بهم حاكمين ذوى سلطة عليا يرحمون بها المطيعين ، ويعذبون بها العصاة المجرمين .

فهل تجيزوا لأنفسكم أن تسبوهم فى مجالسكم وتشتموهم فى شوارعكم وأسواقكم ؟؟؟

فهل تهملون مراسيمهم ولا تنفذونها ساعة إعلانها ووقت توقيعها وإصدارها ؟

وهل تردون عليهم أحاديثهم ، وتكذبونهم فى أخبارهم ؟

وهل تعطلون أحكامهم متى قضوا بها ، وأمروا بتنفيذها ؟

وهل تسخرون من قوانينهم التى يشرعونها لكم ، ويسنونها فيكم ؟

وهل تستبدلون شرائعهم بشرائع غيرهم غير ملتفتين إليها ، ولا مبالين بها ؟

فقلنا : لا ، لا أيها الشيخ ، ولو فعلنا هذا لـما انتظمت لنا دولة ولـما كان لنا حكم ، ولا انقلبت حياتنا إلى فوضى وهرج لاحد لهما .

فقال الشيخ : سبحان اللّه هكذا تعتقدون ؟ فقلنا : نعم . ولا نشك فى هذا أبداً . فقال الشيخ : فكيف إذاً ينفعكم إيـمانكم باللّه وأنتم لا تجلون اللّه إجلاكم لحكامكم ، ولا تطيعونه طاعتكم لهم ، ولا تحترمون بشرعه تعالى احترامكم لـما شرعه حكامكم ، إنكم قد جعلتم اللّه تعالى أهون عليكم من حكامكم ، وأقل شأناً منهم . ولولا رحمة اللّه بكم لمسكم بموقفكم هذا منه تعالى ومن شرائعه وأحكامه عذاب عظيم .

ولـما بلغ الشيخ بحديثه إلى هذا الحد شعرنا بمدى زلة أمتنا وعرفنا سبب شقائها . وانهارت لحديث الشيخ أعصابنا ، وخارت قوانا .

وعرف ذلك فينا . فقال مسرياً علينا ، ومخففاً من وقع كلامه فينا : إن قضاء اللّه العدل ، وحكمه نافذاً ، فلا تأسوا ولا تحزنوا . فعسى اللّه أن يتوب عليكم ويرحمكم فإن رحمته وسعت كل شىء . وقاطعنا حديثه قائلين : ادع اللّه لأمتنا يا شيخ يتوب عليها

ويرحمها . فقال : سأفعل إن شاء الله وعاد إلى حديثه عن عدم صدق أمتنا فى إيمانها فقال :

ألستم تؤمنون بالملائكة ، وأن الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان ؟ فقلنا : بلى . فقال : فهل فى أمتكم من إذا أراد أن يبصق تحاشى أن يبصق عن يمينه ، لأن الكرام الكاتبين عن يمينه ؟

هل فى أمتكم من إذا أراد أن يرتكب فاحشة ذكر وجود الملائكة عن يمينه فتركها حياء منهم ؟

هل فيها من إذا تكلم تحاشى أن يتكلم بغير ما يعنيه خشية أن يكتب عليه الملائكة ما لا ينفعه يوم يلاقى ربه ، وساعة يقف بين يديه ؟

هل فيكم يا قوم من يترك أكل الثوم ، أو البصل نيئاً ، أو يترك التدخين خشية أن يؤذى بالرائحة الكريهة الملائكة الكاتبين ؟؟؟؟

فقلنا : لا . وفى كل ذلك . فقال : وأى معنى لإيمانكم بالملائكة إذا مع انعدام كل هذه المستلزمات له ؟ إنه مجرد دعوى لا حقيقة لها ، ولا وجود .

وألستم تؤمنون بالكتب السالفة والرسل السابقين ؟ قلنا : بلى : فقال : إن مجرد التصديق بالكتب السالفة والرسل السابقين يكفى المؤمن اليوم . أما بالنسبة إلى آخر الكتب وهو القرآن ، وخاتم الرسل وهو محمد ﷺ فإنه لا يكفى فى ذلك مجرد التصديق أبداً .

بل لابد للإيمان بالقرآن من قراءته ، ومعرفته أحكامه وشرائعه والأخذ بذلك وتطبيقه فى كل مجالات الحياة ، كما لا بد للإيمان بالرسول محمد ﷺ من حبه وتعظيمه وتصديقه فى كل أخباره ، وطاعته فى كل أوامره وزواجره . وأنه لا يقدم على قوله قول أحد ولا رأيه ، وإلا كان الإيمان بالكتب والرسل مجرد دعوى كذلك لا حقيقة لها . ولا وجود . وحينئذ أى نفع يحصل من مثل هذا الإيمان وأى خير يحققه للإنسان ؟؟

ولهذا لم يتحقق لأمتكم من الخير والكمال ما تحقق لأمتنا ، لأن أمتكم لم تحقق إيـمانها بالصدق فيه . وأمتنا آمنت وصدقت فكان ما شاهدتما ، لا ما سمعتما .

فالإيمان .... الإيمان ، يا بنى والصدق الصدق فيه ... ! .

هذا هو الطريق

اللهم أهدنا إليه وأحسن سَيرنا عَليه

إلى الحاكمين أولا ...

إلى جماعات المسلمين ثانيا ...

كتبهـا

أبو بكر الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة :

* باسمك اللهم تفتتح الكتب والرسائل .

* وبإذنك اللهم تجدى وتنفع الوسائل .

* وإليك اللهم وحدك منتهى الرغائب .

* فصل اللهم وسلم على نبينا محمد إمام المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

* واهد اللهم من أوضحت لهم هذا الطريق إليه .

* وأحسن اللهم سلوكهم له وسيرهم عليه .

* وهيىء اللهم لى ولهم من أمرنا رشدا .

* ولا تقطع اللهم عنا من عظيم فضلك مددا .

استعراض للواقع الذى يعيشه المسلمون اليوم

بين يدى الطريق استعرض مع السالكين الواقع الذى يعيشه المسلمون اليوم ، ليعلموا مدى الحاجة الماسة إلى سلوك هذا الطريق ، وأنه لا خيار لهم فى ذلك متى أرادوا النجاة لأنفسهم ، وللأجيال الآتية بعدهم .

إن المسلمين اليوم ـ دويلات كبيرة أو صغيرة ، وأقليات كثيرة أو قليلة ـ يعيشون واقعاً مراً لا يغتبطون فيه ، ولا يحسدون عليه .

وهذه لمحات خاطفة نلقيها على هذا الواقع المر ونكتفى بها عن الاستعراض الشامل ، والعرض التفصيلى الذى لا يزيد القلب إلا كمدا وحزناً ، والنفس إلا ألما وحسرة .

١ ـ فى بلاد العرب :

إن العرب وهم الذين قد اختير آباؤهم السالفون لحمل رسالة الإسلام ، وإبلاغها إلى الناس كافة ، لينجوا بها ، ويستعدوا عليها ، وفعلاً فقد حملوها وبلغوها ، ونجت بها ، وسعدت عليها أمم كثيرة ، ولا ينكر هذا إلا جاهل ، أو مكابر مجاحد .

إن هؤلاء العرب الأحفاد قد مزقتهم الأهواء ، وعبثت بهم أيدى الأعداء فتمكن منهم الحانقون على الإسلام ، الناقمون منه من كل قوى الشر فى الأرض فسلخوهم من الإسلام ، وأبعدوهم عن ساحته ، وقد كان درعهم الواقى ، وحصنهم المنيع ، ومصدر قوتهم الروحية والمادية معاً ، فتنكروا ـ مع الأسف ـ له ، وأصبحوا حرباً عليه من حدثهم عنه ازدروه واحتقروه ، ومن دعاهم إليه أخافوه ، وعذبوه أحياناً ، ونكلوا به .

تقاسمت هؤلاء العرب الأحفاد ـ الأهواء ، ومزقتهم الشهوات ، فتفرقوا أيادى سبا ، فأصبحوا لذلك سخرة لأعداء الإسلام وأعدائهم ، يسخرونهم كما شاؤا ، ولما شاؤا حتى قال قائل [1] منهم مؤخراً : (يجب أن نحافظ على توازن النفوذين الأمريكى والروسى فى المنطقة) أى فى بلاد العرب ، يا للعجب !!!

---

(١) صدر هذا القول فى شبه تصريح لمؤتمر قمة جبهة الرفض الذى انعقد مؤخراً بالعاصمة الجزائرية ، وحضرته مجموعة دول العرب الدائرة فى فلك المعسكر الشيوعى .

إن معنى هذا القول من هذا المسؤول هو بلا شك مساعدة العرب عدوهم على التمكين ، له فى بلادهم ، ومعنى آخر لهذا القول هو مساعدة العدو على احتلال الدار ، وبقاء العار ، وسبحان اللّه ! ماذا أصاب العرب ، وماذا حل بديارهم من ذل ، وهون ، ودون ؟!!

إن العرب الذين كانوا بالأمس القريب مثال العزة والكرامة ، والمروءة ، والشهامة أصبحوا اليوم أمثلة للمذلة ، والمهانة ، وأصبحت ديارهم التى كانت بالأمس حصوناً منيعة ، وقلاعاً رفيعة لا تنالها أيدى الأعداء ، ولا يدخلها من لا نأذن له ولا نشاء ، وأصبحت ساحات لتجارب النظريات ، وحقولاً لزرع فنون الخبث والعبث ، ومباءات لألوان الهون والدون ، والفسق ، والعجون ، آه ، ثم آه ! ! !

إن القلب ليذوب كمداً ، وإن النفس لتذهب حسرات عندما نرى هذا ونرى فلسطين أرض قدسنا ، ومعقل عزنا وبها كرائمنا ، وفلذات أكبادنا تدنس برجس الصهاينة اليهود ، وتجلل بعار احتلالهم لها ، وبخزى انتصارهم على العروبة فيها .

وآه ، ثم آه ! ! ! إن القلوب لتذوب كمداً ، وإن النفوس لتذهب حسرات عندما نرى طائفة تمزق منا فتقتطع جزءاً غالياً من جنوب جزيرة إيماننا ، ومدار عزنا وكمالنا ، وتحوله دار كفر وعدوان ، بعد أن كان دار إيمان وإسلام ، ثم تجعله / ياللمصيبة / حصناً لأعدائنا ، وقلعة فى أيدى خصومنا ، لإذلالنا وتهديد بلادنا ، لتدميرها والقضاء عليها ، آه ، ثم آه ! ! ماذا دهى العروبة والإسلام ، وماذا حل بساحتهما ، ونزل بديارهما ؟ ؟ ؟

إن القلب ليتقطع ، والنفس لتتمزق عندما نشاهد رجال مغرب العروبة والإسلام تهدر دماؤهم ، وتزهق أرواحهم ، وتبدد أموالهم ، وكل طاقاتهم إرضاء لأطماع الشيوعية البغيضة التى تريد أن تقتطع من صحراء العروبة والإسلام قطعة كقطعة عدن ، من جنوب اليمن فتتخذها مركزاً لإدارة الفتن ، وقلعة لتهديد أمننا وإيماننا ، ثم القضاء على سلامتنا وإسلامنا ، آه ، ثم آه !!! ماذا أصابنا ، وماذا نزل بديارنا حتى أصبحنا خناجر فى أيدى أعداء ديننا ، وخصوم عقيدتنا يقتلوننا بها ، وهم جالسون على أرائكهم آمنون فى ديارهم .

آه ، ثم آه ! ! إن القلب ليذوب كمداً ، وإن النفس لتذهب حسرات عندما نشاهد ونرى إخواننا من فلسطيننا ولبناننا يقتلون ويذبحون فى مجزرة رهيبة دامت قرابة نصف عقد من السنين يستصرخون فلا يصرخون ، ويستغيثون فلا يغاثون حيث عجزت جيوش قرابة عشرين دولة عربية إسلامية عن إنقاذهم ، وإطفاء نار الفتنة فى ديارهم ،

ووالله لو كان العرب كما يريد الإسلام أن يكونوا لـما دامت محنة لبنان ثلاثة أيام ، وذلك بتحويل قوة الردع إلى قوة فتح ، ولا احتلت لبنان فى ثلاثة أيام ، ولا ألقى القبض على كل عناصر الشر بها ، وضرب على أيديهم ولو بالقضاء عليهم ، وإن غضب اليهود أو تحركوا جعل من لبنان مجزرة ومقبرة لهم ، فيها يجزرون ، ويقبرون ، ولا يبعثون إلى يوم ينشرون ،،،

ولكن العرب قومنا وإخواننا هداهم الله قد أخطأوا الطريق ، طريق الإيمان الذى به يأمنون ويعزون ، وضلوا السبيل سبيل الإسلام الذى به يسلمون وينتصرون ، وهم مع هذا يا للأسف يحسبون أنهم مهتدون ، فمن يهديهم إذاً بعد الله ؟؟؟

إنه قد أصبح من غير السهل إفهامهم ، فضلاً عن اقناعهم بأن ما هم عليه ليس من الهدى فى شىء ، وأن كل ما يمضى زمان على اقتناعهم بواقعهم ورضاهم به يخسر فيه الإسلام والمسلمون بل العالم أجمع كل فرصة للخلاص من هوة الشر والفساد التى تردى فيها أكثر المسلمين والناس أجمعون ، وأنه لا منفذ لهم ولا للعالم كله إلا الإسلام ، ولا نجاة لهم ولا لغيرهم من بنى الناس من خسران الدنيا والآخرة إلا بالإسلام لله رب العالمين .

٢ ـ فى بلاد العجم :

إن بلاد المسلمين العجم وهى أوسع بلاداً من بلاد العرب ، وشعوبها أكثر شعوباً من شعوب العرب ، قد أصيبت هى الثانية بما أصيبت به بلاد العرب وشعوب العرب فبالأمس البعيد قد خسر الإسلام دار الخلافة وشعبها على أيدى عصابة مارقة من أبنائها ، وبالأمس القريب قد فقدت دولة الإسلام الكبرى باكستان نصفها حيث شطرها العدو المزدوج (١) إلى شطرين . ومنذ أشهر قليلة قد سقطت أكبر قلعة للإسلام فى بلاد العجم وهى أفغانستان بلاد الأبطال والشجعان حيث هدمت أركانها على أيدى عصابة مارقة من أبنائها من عملاء الشيوعية صنيعة ولعبة اليهودية العالـمية .

ولم يكن كل هذا الذى أصاب ديار العرب والمسلمين إلا نتيجة طبيعية لإعراض العرب والمسلمين عن الإسلام وبعدهم عنه ورضاهم بالحياة خالية منه ، بعيدة عن شرائعه وقوانينه التى هى مصادر القوة والخير ، وينابيع الرحمة والعدل فى الأرض .

(١) المراد به : الهنود الهنادك عبدة البقر ، والاتحاد السوفياتى « الروس » الدب الأحمر ، ذاك الذى رمى بأسطوله فى البحر حيث منع قوات باكستان من التحرك ، وترك الهنود الكافرين يجزرون باكستان ويسلخونها حتى قسموها بعد مقتلة عظيمة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الإسلام المعاصر .

والتعليل المنطقى لهذا الذى أصاب المسلمين فى ديارهم وعقولهم وعقائدهم هو أن خصوم الإسلام ما فتئوا منذ أن كان الإسلام وهم يكيدون له ، ويحاربونه فى الظاهر والباطن حتى تمكنوا منه وضربوه حتى كادوا يقضون عليه وباختصار القول : إن كل ما أصاب الإسلام والمسلمين إنما هو من كيد أعداء الإسلام والمسلمين ومكرهم ، وحربهم الباردة والساخنة والمستمرة على الإسلام والمسلمين إلى كتابة هذه الكلمات وستستمر إلى ما شاء اللّه تعالى .

ومن عجب أن المسلمين كلهم أو جلهم يعلمون هذه الحقيقة ، ويصرحون بها ، فيقولون : إن أعداء الإسلام هم الذين فرقوا المسلمين ، وأضعفوهم وأبعدوهم عن الإسلام مصدر وحدتهم وقوتهم ، ثم هم لا يحاولون حتى مجرد محاولة أن يخرجوا من هده الوضعية السيئة ، التى وضعهم فيها خصومهم ، وأعداء معتقدهم ووجودهم حتى لكأنهم مسحورون أو شبه مسحورين .

وبالجملة : فإن المسلمين من غير العرب كالمسلمين من العرب فى كل أوضاعهم ، وسائر أحوالهم ، لا يختلف بعضهم عن بعض فى كل ما أصابهم ، وحل بديارهم من إلحاد وشر ، وفسق وظلم وفساد ، فالداء واحد ، ولهذا لا يكون الدواء إلا واحداً ، والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو ما هو الدواء ؟

والجواب : إن الدواء هو الإسلام ، والطريق إليه هو ما سنوضحه بعد العبارة التالية :

إننا بعد هذا العرض الموجز لحال المسلمين عرباً وعجماً ، وانطلاقاً من واقع حياتهم الراهنة نستعين اللّه تعالى على بيان طريق النجاة لـمن أرادها ، والسعادة لـمن رغب فيها من سائر المسلمين حاكمين ومحكومين .

وإلى الحاكمين أولاً :

إن الطريق إلى نجاة الحاكمين فى بلاد المسلمين وسعادتهم يتمثل فى النقاط الأربع التالية :

* الاعتراف التام بأن الاستمرار على هذا الخطأ والباطل سيؤدى حتماً إلى صواب لا حق ، فيقرهم اللّه تعالى عليه . وإنما هو خطأ وباطل لا يجوز قبولهما ، ولا الإقرار عليهما ، وذلك لحكمهم المسلمين فى الجملة بدون رضاهم ، وبغير شرع ربهم الذى يكفل لهم نجاتهم وسعادتهم .

* الاعتراف التام بأن الاستمرار على هذا الخطأ والباطل سيؤدى حتماً إلى شقائهم وشقاء من يحمونهم من المسلمين فى دنياهم وأخراهم ، لأن الاستمرار على الخطأ والباطل لا ينجم عنه إلا تفاقم الشر والفساد ، وازدياد الضعف والنقصان فى حال المسلمين دينا ودنيا إلى أن يتعرض المسلمون كلهم إلى الزوال والفناء .

* الإيمان بوجوب تدارك الموقف وتصحيح الوضع للنجاة ، ولعودة حياة العزة والقوة ، والعدل والرحمة والخير للمسلمين كل المسلمين ، ومعنى هذا إنه التوبة المأمور بها فى قول الله تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ (1) وهى توبة تشمل كل مظاهر الحياة بين المسلمين فيستبدل الخبث بالطهر ، والفساد بالصلاح ، والظلم بالعدل ، والشر بالخير ، وكل السيئات بالحسنات .

* اجتماع الملوك والرؤساء العرب والمسلمين أو من قبل منهم مبدأ التوبة هذا وتاب ، اجتماعهم فى المدينة النبوية أو العاصمة لدولة الإسلام الأولى ، لاتخاذ القرارات الأربع التالية :

١ ـ الإعلان عن اتفاق المؤتمرين على ضرورة عودة الحياة الإسلامية فى بلاد المسلمين عقيدة ، وعبادة ، وأدباً ، خلقاً ، وحكماً ، ونظاماً ، وشرعاً ، لإنقاذ المسلمين مما حل بهم ، ونزل بديارهم من ضعف ، وذل وهون ودون .

٢ ـ تكوين لجنة موسعة من علماء الشريعة فى البلاد الإسلامية ، وأن يعهد إليها بوضع دستور إسلامى لأمة الإسلام تؤخذ كل بنوده ومواده نصاً ، وروحاً من الكتاب العزيز ، والسنة الصحيحة ، والفقه الإسلامى المستنبط من الوحيين فى عصر الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام الصالحين .

٣ ـ الإعلان عن استئناف الحياة الإسلامية فور صدور هذه القرارات ، وذلك بوجوب إقامة الصلاة بين كل أفراد الأمة الإسلامية إقامة إجبارية ، وبوجوب منع الخمر شراباً ، وتجارة ، وإنتاجاً لها ، وصناعة بين كل أفراد المسلمين ، وبوجوب إلزام الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة الزى الإسلامى والحجاب الإسلامى ومنع الاختلاط بين النساء والرجال منعاً كلياً وفى كل المجالات ، وبوجوب تطهير الإعلام فى ديار المسلمين صحافة ، وإذاعة وتلفازاً ، ومسرحاً تطهيره من نشر وإذاعة وإظهار كل ما يمس العقيدة الإسلامية ، والخلق الإسلامى ، أو يتنافى مع مبادىء الإسلام ، وتعاليمه

(1) النور : ٣١ .

القائمة على أساس الطهر والكمال النفسى ، والخلقى فى الحياة .

وبوجوب إيقاف سائر المعاملات الربوية ، وتصفيتها ، واستبدال هذه البنوك الربوية بمصارف وبنوك إسلامية يسهم فيها كل مسلم ومسلمة تقوم على أساس منع الربا ، وحظر التعامل به ، وبوجوب تعقب الملاحدة فى بلاد المسلمين واضطرارهم إلى العودة إلى حياة الإيمان ، والعمل ، والجهاد فى الحياة ، ومن رفض منهم ذلك يحكم فيه السيف فهو الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ،

٤ ـ الإعلان عن موعد بدء تنفيذ مواد الدستور (١) ، والأخذ بها ، وتطبيقها يوم الفراغ من وضعه ، وتقديمه لأعضاء مؤتمر القمة الإسلامى الذى انعقد أول مرة فيبدأ بتعيين إمام المسلمين ، ومجلس حكومته المكون من ممثلين صالحين لكل الأقاليم الإسلامية التى رضى حكامها بالوحدة الإسلامية فى ظل الحياة الإسلامية والدستور الإسلامى ، ثم بالتطبيق الحر فى كل مواد الدستور وبنوده شريعة وسياسة ، بكل صدق وجد وإخلاص .

هذا وكلمة أخيرة نقولها للحاكمين فى ديار المسلمين بعد أن بينا الطريق لهم فى صدق وإخلاص وولاء : طريق نجاتهم ونجاة شعوبهم وسعادتهم جميعاً وفى الحياتين أيضاً ، نقول لهم : والله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، إنه لا نجاة لهم مما هم فيه من حيرة ، وقلق ، وضعف ، وعجز ، ولا مما يتوقع لهم من كوارث ، ومحن ، وبلاء ، وعذاب دنيوى ، وأخروى ، وشقاء ، ولا نجاة لهم من كل ذلك إلا بسلوك هذا الطريق .

كما نقول لهم ونقسم : إن سلوك هذا الطريق الذى بينا لكم ـ أداء لواجب نصحكم ـ لأيسر وأسهل وآمن من سلوك الطريق المعاكس الذى تسيرون فيه وتفرضون على المسلمين ـ وهم كارهون ـ سلوكه والسير فيه بقوة الحديد والنار !!!

كما ننصح لهم بأن عليهم ـ إذا كانوا مجبرين بقوة عالية خفية على السير فى هذا الطريق المعاكس للإسلام من أجل إذلال المسلمين وإفنائهم ، أو مسحهم فى عقولهم ، وقلوبهم ، وفى كل مميزات حياتهم لتبقى حياتهم لتبقى بلادهم مناطق نفوذ ، أو تمهيداً لاحتلالها من قبل اليهود تحقيقاً لحلمهم فى إقامة مملكة إسرائيل على أرض الناس أجمعين .

ننصح لهم بأن يتحرروا فى شجاعة وإيمان من سيطرة هذه القوة الخفية ، ويرفضوا

---

(١) إن الدستور الإسلامى كفيل بحل كل مشاكل الحياة ، وبالإجابة عن كل التساؤلات لأنه من معين الوحى الإلهى الذى لا ينضب ، ومن علم الله الذى لا يحاط به ، وكلماته تعالى التى لا تنفد .

طاعتها ، والسير فى طريقها ، وليطيعوا اللّه تعالى ، وليسلكوا سبيله ، وليمشوا فى طريقه ، ولن تضرهم تلك القوة الخفية ولن تستطيع أن تنال منهم منالا أبداً ، لأنهم برفضهم طريقها وقبول طريق اللّه تعالى قد أصبحوا أولياء للّه ومن كان اللّه وليه فإنه لو اجتمع عليه من بأقطارها لم يضروه شيئاً .

وإن هم عجزوا عن التحرر من هذه القوة الخفية بترك طريقها واتباع طريق الإسلام دين الله الذى لا يشقى سالكه ولا يضل فى الحياة أبدا ، لقوله تعالى : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ (١) فإن عليهم أن يهربوا من سآمة الحكم ، وينجوا بأنفسهم ، ويتركوا الأمر لأمة الإسلام تتحمل مسؤوليتها بنفسها إن أحسنت فلها ، وإن أساءت فعليها ، فإنه والله لأن يرضى العاقل بأن يصبح كناسا من كناسى البلديات فى ديار المسلمين بعد أن كان ملكا أو رئيسا ، خير له من أن يبقى على رأس شعب من شعوب الإسلام يحكمه بغير شريعة الله ، ويسوسه بسياسة تتنافى فى جملتها مع حياة الإسلام وتطلع المسلمين ، ، ،

هذه كلمة نصح قدمتها أيها الحاكمون المحترمون بعد بيان طريق النجاة لكم ، فإن أخذتم بها نجوتم وسعدتم وذلك ما أريده لكم ولكل المسلمين ، وإن كانت الأخرى فحسبى أن نصحت والأمر لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وإلى الجماعات الإسلامية ثانيا :

وإلى الجماعات الإسلامية العاملة فى الحقل الإسلامى فى كل أنحاء العالم بيان طريق نجاحها فى عملها الإصلاحى ووصولها إلى أهدافها وغاياتها من إقامة المجتمع الإسلامى والحكم الإسلامى ؟ ليعبد الله وحده لا شريك له ، ولتظهر أمة الإسلام ، وتسود وتحكم ، وتقول .

إليك أيتها الجماعات الطريق واضح المعالم ، ظاهر الأعلام فاسلكيه فى صدق ، وامشى فيه بجد وحزم ، واعلمى أنه لا سبيل إلى تحقيق ما تصبين إليه وتهدفين إلى تحقيقه إلا بالسير عليه والمشى فيه ، وأنه ــ أى الطريق ــ ليتمثل فى الأبعاد الثلاثة الآتية :

الأول : الاعتراف بالواقع الذى يعيشه المسلمون كل المسلمين ، وهو واقع جد مؤلم ومؤسف ومحزن أيضا ، فليعترف به ولا يتجاهل بحال من الأحوال وها هى ذى صورة

(١) طه : ١٢٣ .

واضحة لهذا الواقع الجد مؤلم فلينظر فيها ولتتأمل ملامحها حتى يكون الاعتراف مبنيا على أساس العلم فيساعد ذلك على قبول هذا الطريق الذى تدعى الجماعات الإسلامية إلى سلوكه والسير فيه إلى أن تتحقق أهدافها وتصل إلى غايتها فى إيجاد المجتمع الإسلامى وإقامة الحكم الإسلامى فيه .

ملامح الصورة :

إن صورة الواقع المؤلم الذى يجب على الجماعات الإسلامية الاعتراف به ملامح بارزة ، ومخيفة منها يتكون وجهه المكفهر الكالح ، فلننظر إليها وهى :

١ ـ الفرقة :

إن مما لا شك فيه أن واقع المسلمين اليوم قائم على أساس الفرقة والاختلاف فدولتهم دويلات تعد بالعشرات ، وجماعاتهم جماعات تعد أيضا بالعشرات ، قانونهم الذى يحكمهم قوانين شتى ، وفكرهم الذى تنبع منه سياستهم وتخطيطهم لكل حياتهم أفكار متعددة ، ومتناقضة متضاربة أيضا .

٢ ـ العداء :

إن العداء الموجود اليوم بين المسلمين عداء مستحكم شديد وهو قائم بين الحكومات فيما بينها ، وبين الجماعات كذلك ، وحتى بين الأفراد فلذا لم يوجد أى تعاون صادق بين المسلمين وفى أي مجال من مجالات الحياة ، مع أن التعاون بين المسلمين مبدأ أساسى فى كمال حياتهم ، وطهرها ، وسعادتها ، لقول الله تعالى لهم : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ (١) ومنذ أن حلت العداوة بين المسلمين محل المحبة ترك بينهم واجب القيام بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، إذ لا يتم هذا الواجب على وجهه الكامل المثمر إلا بين جماعات متوائمة متحابة ، وما دام لا وئام ، ولا حب بين المسلمين حكومات ، وجماعات وأفرادا فلا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر ، وإذا ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى بلد عمه الفساد وهلك أهله لا محاله (٢) .

---

(١) المائدة : ٢ .

(٢) مصداق هذا قوله ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ،ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم » رواه أحمد والترمذى وحسنه .

٣ ـ قسوة القلوب :

إن ظاهرة قسوة القلوب بين أفراد المجتمع الإسلامى لظاهرة غريبة وخطيرة فى نفس الوقت .

غريبة ، لأن طبيعة العقيدة الإسلامية القائمة على أساس الإيمان بالبعث والجزاء ﴿ **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا** ﴾ (١) ، وعلى مبدأ الرحمة والإخاء ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ (٢) ، « الراحمون يرحمهم الرحمن » (٣) « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (٤) .

يتنافى معها قسوة القلوب التى تنجم عادة عن الكفر والظلم .

وخطيرة لأن مجتمعا تنعدم فيه الرحمة حتما ينقطع منه الخير ، ويعمه الشر ، ويكثر فيه الفساد ، وبالتالى ينتظم أهله التعاسة والشقاء .

وإن بحثنا عن سبب وجود هذه الظاهرة أو الكارثة فى الحقيقة وجدناه فيما أصاب العقيدة الإسلامية فى نفوس المسلمين من تخلخل ، وضعف نتيجة الكيد المستمر للإسلام والمسلمين ، والذى ابتدأ بقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وانتهى بإسقاط الخلافة الإسلامية ، ثم بنشر مذهبى الإلحاد والإباحية فى ديار المسلمين ، الإلحاد الذى يتزعمه المعسكر الشيوعى الاشتراكى ، صنيعة اليهود ، والإباحية التى تقوم بنشرها الرأسمالية الغربية بزعامة أمريكا اليهودية ، فعن المذهب الأول انتقلت شعارات الكذب ، والخداع والتضليل ، كالتقدمية الثورية ، والاشتراكية العربية والإسلامية ، فأنست المسلمين قيادة الإسلام ، وحكم الإسلام ، وعدالة الإسلام ، ورحمته ، وعن المذهب الثانى انتقلت حرية الرأى والفكر ، والحرية الشخصية ، وفصل الدين عن الدولة ، وعزل الشريعة الإسلامية عن الحياة كل الحياة ، والتعليم المخرب للعقول ، والقاضى على الخلق والكرامة ، وبالتالى السفور والفجور وأندية العرى والقمار ، وإظهار الأغانى ، أو إيجاد المسابح والمسارح فى سلسلة جهنمية يطوق بها عنق الإسلام ، لخنقه والقضاء عليه ، والذى تولى القسط الأكبرمن هذه الجريمة هم وزراء الإعلام ، والتربية والتعليم ، والشباب والرياضة فى بلاد المسلمين ، جرهم لذلك غفلتهم عما تقدمه لهم الماسونية من سم قاتل ، فى قوالب مختلفة من الخيرات ، والاستشارات وهم لا يشعرون .

---

(١) المزمل : ٢٠ .   (٢) الحجرات : ١٠ .   (٣) حديث صحيح .   (٤) حديث صحيح أيضا .

وتتجلى ظاهرة قسوة القلوب بين المسلمين فى مجالين : **الأول** : بين الأغنياء والفقراء ، **والثانى** : بين ذوى الحاجات من المسلمين وبين من على أيديهم قضاؤها ولو كان من أصغر الموظفين القائمين على بعض مصالح المسلمين ، فبين الأغنياء لا يوجد على الحقيقة أى مظهر للرحمة ، والبر ، والإحسان ، يشار إليه بالبنان ، فلا يوجد إلا غنى يسكن قصور الملوك ، وفقير يسكن أكواخ الحطب ، وبيوت القصدير ، وغنى يركب أحدث أنواع السيارات ، وفقير يمشى على رجلين حافيتين ، وغنى تصنف له أنواع الطعام ، وتصفف بين يديه فى كلتا وجبتيه ، وفقير محروم من كل الكماليات يعانى آلاما من فقده الضروريات .

وبين الموظفين وأصحاب الحاجات لا يوجد أيضا أى مظهر من مظاهر الرحمة والشفقة ، أو التقديم والتكريم ، كأن الموظف القائم على المصلحة موعز إليه بإتعاب المواطن ذى الحاجة ، وإهانته ، وتعذيبه حتى أصبح من المعلوم لكل الناس أن صاحب الحاجة إن لم يكن له واسطة لا تقضى حاجته إلا بعد عناء ، ومشقة ، وفوت وقت طويل ، هذا إن قضيت له ، وإلا فما أكثر من تموت حاجاتهم فى نفوسهم ، وتقبر مصالحهم فى مقابر آمالهم وآلامهم .

٤ ـ الكذب والخيانة :

إن ظاهرة انعدام الصدق والأمانة بين المسلمين اليوم لظاهرة خطيرة للغاية حيث شملت أغلب وجوه الحياة بين المسلمين ، فلم يسلم منها وجه واحد ، فقد ظهر الغش وفشت الخيانة فى كل مرافق الحياة ، فظهر ذلك بين الرؤساء والمرءوسين وبين العمال والموظفين ، وبين الصناع والتجار والفلاحين ، وحتى بين العلماء والمتعلمين ، حتى لكأن المسلمين لم يؤمروا فى شريعة ربهم بأمانة ، ولم ينهوا عن خيانة ، ولم يدعوا إلى صدق ، ولم يحذروا من كذب قط ، مع أن نصوص الشرع تقول : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ (١) ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ (٢) ويقول الرسول ﷺ : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك (٣) » ويقول : « من غش فليس منا » (٤) ويقول : « عليكم بالصدق وإياكم والكذب . . . » (٥) ومع كل هذه النصوص وغيرها شاع الغش ، وانعدمت الأمانة حتى إن المرء لو أراد أوقية عسل خال من الغش أو سمن لم يجدها فى أسواق المسلمين والعياذ بالله تعالى .

(١) النساء : ٥٨ . (٢) الأنفال : ٢٧ . (٣ ، ٤ ، ٥) حديث صحيح .

٥ - زيغ القلوب :

إن زيغ القلوب أصبح ظاهرة معروفة بين كثير من المسلمين لا سيما طبقة الأثرياء ، والمثقفين ، والحاكمين ، ويظهر ذلك فى استخفافهم بشريعة الله ، ونقدهم لها ، وإعراضهم عنها ، وعيشهم بعيدا عن التخلق بأخلاقها ، والتأدب بآدابها ، وعن مزاولة فرائضها وسننها ، كما يظهر بوضوح أكثر فى تكييف حياتهم الخاصة تكييفا ألحقهم باليهود والنصارى ، وذلك بتشبههم بهم ، فى كل شأن من شؤون حياتهم ، والرسول ﷺ يقول : « ومن تشبه بقوم فهو منهم » (١) .

٦ - كبائر الإثم والفواحش :

إن كبائر الإثم والفواحش والتى ما ظهرت فى أمة إلا دمرتها وقضت على طهرها وصفائها ، وبالتالى على وجودها بالمرة ، قد ارتكبت بين أمة الإسلام بصورة مهيلة ، مفزعة مخيفة ، **فالربا** : وهو من أكبرها قد أصبح مباحا تتعاطاه الحكومات والمؤسسات وحتى الأفراد تجارا وموظفين على حد سواء ، **والزنى** : وهو من أعظم الفواحش قد انتشر ، وظهر بين المسلمين بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ هذه الأمة ، نتيجة لتهيئة وسائلة ، وإتاحة الفرص لطالبه وذلك بإشاعة الأغانى فى بيوت المسلمين ، وعرض صور النساء والمومسات ، وصور الزناة من الرجال على شاشة السينمات والتلفزات ، والسماح للنساء بالسفور والتبرج الجاهلى فى الأسواق والشوارع ودور العمل وما إليها من المدارس والجامعات .

الأمر الذى دفع برجال الأمة ونسائها إلى التكالب على فاحشة الزنى حتى أصبحت السلامة من هذه الفاحشة نادرة جدا بين شباب هذه الأمة وشاباتها .

وككبيرة الربا ، فاحشة الزنى ، **الظلم** ، **والجور** ، **والقمار** ، **والتلصص** ، **والسرقة** ، **وقتل النفس** ، **والرشوة** فى الأحكام والمعاملات ، كل هذه مرتكبة معمول بها على مرأى ومسمع من كل المسلمين و لا قلب يحزن ولا نفس تخاف ، ألا فلتعرف هذه الجماعات الإسلامية ، وليبنوا بناء دعوتهم الإصلاحية لإيجاد المجتمع الإسلامى ، وإقامة الحكم الإسلامى فيه على أساسه والذى هو اعتراف بواقع مر وجد أليم .

---

(١) رواه أحمد .

الثانى :إن البعد الثانى من الأبعاد الثلاثة التى يتكون منها طريق الوصول إلى إيجاد المجتمع الإسلامى وإقامة الحكم الإسلامى فيها هو العمل الإصلاحى على أساس الاعتراف بواقع الأمة الإسلامية اليوم وعدم تجاهله وهو واقع مر ، وجد مؤلم كما أسلفنا .

وهو أى العمل على أساس الاعتراف بالواقع يتطلب الإخلاص فى العمل ، والصبر عليه ، والحلم والأناة فيه ، والحكمة ، والعلم ، والتنظيم فى كل ذلك .

فإن الضجر ، وسرعة الغضب ، والعجلة ، لا يتأتى لصاحبها عمل ناجح مثمر أبدا ، كما أن الخلط والفوضى ، والجهل لا ينتج عنها ، غير ضلال السعى ، وخيبة الأمل ، كما هو معروف بين العاملين بصدق وجد فى هذه الحياة ، ومن هذه النقاط الست يتكون الطريق المطلوب بيانه للجماعات الإسلامية العاملة فى الحقل الإسلامى الصحيح .

الإخلاص :

وهو التجرد من كل الحظوظ النفسية ، والأغراض الدنيوية بحيث لا يكون للجماعة العاملة غرض سوى الإصلاح كما قال نبى الله شعيب عليه السلام فيما قصه القرآن عنه :

﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ (١) ، إذ اتخاذ العمل الإصلاحى وسيلة إلى تحصيل حظ نفسى من سمعة ، أو جاه ، أو منصب ، أو مال ، أو أى كسب مادى شرك فيه ، والشرك محبط للعمل مبطل له ، فى قوله تعالى : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ (٢) ، كما أن الناس إذا رأوا للعامل المصلح رغبة فيما فى أيديهم من مال أو سلطان رغبوا عن دعوته وأعرضوا عنها ، وكلما اتضح لهم ميله إلى دنياهم وحبه لما خولهم الله تعالى من مال ، أو دولة ، ازداد نفورهم منه ، وحذرهم له ، ثم لم يلبثوا أن يقاوموه ويحاربوه دفاعا عن مكانتهم ، وما بأيديهم ، فلهذا وجب على الجماعات الإسلامية أن ينطلق عملها من مبدأ الإخلاص الكامل ، وهو كما مر : التجرد التام لله تعالى فى عملها ، فلا تعمل لأى غرض سوى غرض واحد وهو أن يعبد الله تعالى وحده بما شرع لعباده أن يعبدوه به ، مما أنزل به كتابه ، وأرسل به رسوله ، ليكمل العابدون ويسعدوا فى الحياتين .

---

(١) هود : ٨٨ . (٢) الزمر : ٦٥ .

الصبر :

والمراد به : حبس النفس على ما تكرهه وتنفر منه ، وله مواطن كثيرة منها :

١ ـ حبسها على طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله ﷺ ، وأولى الأمر في الجماعة الإسلامية ، وذلك بامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، في حدود الطاقة البشرية .

٢ ـ حبسها ـ النفس ـ بعيدة عن معصية الله ومعصية رسوله ﷺ وأولى الأمر فلا يسمح لها بأن تترك أمرا وهى قادرة على فعله ، أو ترتكب أى نهى لم تكره على ارتكابه .

٣ ـ حبسها على الرضا والتسليم بما يقضى الله تعالى به على عبده المؤمن ، وما يصيبه به امتحانا له ، أو لذنب ارتكبه لقوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾ (١) وقوله : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ (٢) وقوله : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم** ﴾ (٣) .

وعليه فإنه لا ضجر ، ولا سخط ، ولا خروج عن الطاعة بحال من الأحوال ، إذ هذه تتنافى مع الصبر المطلوب للسالكين في هذه الطريق ، طريق النجاة والسعادة .

٤ ـ الصبر على العمل الإصلاحى بعدم تركه أو التخلى عن بعض واجباته ، وتكاليفه فشلا وضعفا .

٥ ـ الصبر على بطء سير الدعوة ، وعلى تعثرها في طريق نجاحها ، وعلى نقد بعض الناس لها ، أو معاداتهم لها ، ونفرتهم منها ، إذ هى طبيعة الناس إزاء دعوات الخير والإصلاح في كل زمان ومكان : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم** ﴾ (٤) .

٦ ـ الصبر على طاعة أولى الأمر من المسلمين لقوله ﷺ : « عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى ، كأن رأسه زبيبة » (٥) فلا خروج على الأمير ، ولا محاولة ذلك بحال إلا بشرطين :

---

(١) محمد : ٣١ . (٢) الشورى : ٣٠ . (٣) آل عمران : ١٦٥ .
(٤) فاطر : ٢٥ . (٥) رواه مسلم بغير هذا اللفظ .

الأول : أن يظهر منه الكفر البواح أى الظاهر الواضح لقوله ﷺ :« إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » .

الثانى : أن يكون للمسلمين شوكة(١) ، وقوة تمكنهم من خلع الكافر ونصب المؤمن بدون إراقة دماء المسلمين ، وإزهاق أرواحهم .

الحلم والأناة فيه :

أى فى العمل الإصلاحى الذى يقوم به الفرد فى الجماعة الإسلامية ، إذالحلم والأناة خصلتان يحبهما الله تعالى ورسوله ﷺ ، وضد الحلم والأناة سرعة الغضب ، والعجلة بالمؤاخذة،وهما مضران بصاحبهما ، مفوتان عليه كثيرامن فرص الهداية والإصلاح ، وعليه فليكن الفرد فى الجماعة حليما لا يغضب على من يجهل عليه ، أويسىء إليه ، ولا يبادره بالمعاقبة والمؤاخذة ، ذا أناة لا يستعجل النتيجة إذا عمل، ولا يسارع فى إصدار حكم بقول أو عمل ، وليكن بعيدا عن التسرع ، ومظاهر النزاع والطيش ، إذ لا يصلح بهداية الناس وإصلاحهم إلا من كان أكمل منهم هداية ، وأقدرهم على إصلاح .

الحكمة فى التنظيم والعلم :

إن الحكمة فى العمل ا لإصلاحى ضرورية ، وحقيقتها : هى إعطاء كل شىء ما يناسبه ، ووضع كل شئ فى المكان اللائق به ، وبها يكون السداد فى الأمور ، والإصابة للأغراض ، والوصول إلى الغايات بقليل من الكلفة ، واليسير من المشقة ، ولا تتم لعبد إلا إذا كان قد أشبعت روحه بعلم الكتاب والسنة ، إذ الحكمة فيها ، وهما مصدرها ، ولاتطلب إلا منهما .

وأما التنظيم فى العمل الإصلاحى فإن المراد منه : ترتيب الأعمال ،وتقديم بعضها على بعض بحسب وجودها ، وافتقار بعضها إلى بعض حتى لا تختلط بعضها ببعض ، فتتعقد وتتعطل ، إن النظام فى العمل الإصلاحى هو بمثابة المفتاح لفتح خزائن الأموال، فلو جاء أحد إلى خزانة مال حديدية يريد فتحها بدون مفتاحها الخاص بها لما أمكنه ذلك ، ولا

(١) هذا يتهيأ للجماعات الإسلامية إذا كان المسلمون الصالحون فى الإقليم يشكلون نسبة كبيرة من الأمة كنصفها أو ثلثيها ، أما إذاكانوا أقلية ، والفاسدون أكثرية ، فلا يتأتى لهم ذلك ، وعليهم أن يصبروا حتى تتهيأ الأمة لمثل ذلك بكثرة الصلاح فيها ، والمصلحين والصالحين .

ما نال منها شيئا أبدا، ومهما قلبها وضربها . ولكن بمفتاحها الخاص يفتحها ، يطلع على ما فيها ويخرج منها ما يشاء .

فالقلوب البشرية أوعية لا يفتحها المصلح إلا بمفاتيحها الخاصة بها وهى الصبر ، والحلم والأناة ، والحكمة ، والنظام والعلم .

وأما العلم وهو شامل لمعرفة طرق الهداية ، ولمعرفة الوسائل والغايات ، فالذى يجهل طرق الهداية لا يصل بمن يريد هدايته إليها ، والذى لا يعرف الوسائل ولا كيفية استعمالها لا يمكنه أن يسلك بأحد طرق الهداية ، ويصل به إليها فيهديه ، والذى لا يعلم النتائج والغايات لايتأتى له أن يحدث عنها ، أويصدقها حتى يرغب فيها ، ويحمل الناس على حبها ، والرغبة فى العمل من أجلها ، ولذا كان العلم من ضروريات العمل الإصلاحى الناجح ، ولا حق لغير العالم فى أن ينصب نفسه هاديا للناس مصلحا لجهله بما يدعوهم به من الحكم والوسائل والنظام ، ولما يدعوهم إليه من كمال المقاصد ، وشريف الغايات ، ونبل الأهداف المتمثلة فى النجاة والسعادة والكمال فى الحياتين .

الثالث (١) اتباع خطة العمل التالية :

إنى أعلم أنه ليس لى من حق فى وضع خطة عمل لجماعات المسلمين ، وحسبى ما بينته فى الأرقام السالفة ، إن وضع خطة كاملة للعمل الإصلاحى لجماعات المسلمين ينبغى أن يجتمع عليه عدد من رجال العلم والإصلاح فى أمة الإسلام ، فتوضع الخطة المتكاملة بناء على خبرات سابقة ، وتجارب عديدة فى بلاء طويل لأحوال المسلمين ، لتكون الخطة ناجحة لدى العاملين بها ، والقائمين على تنفيذها ، ولكن نظرا لعدم وجود أولئك العلماء المصلحين مجتمعين على هذا الأمر ، عاملين على تحقيقه فقد أسست لنفسى عملا كهذا ، على خطورته ، ووعورة مسالكه ، وبينت طريقا إصلاحيا للحاكمين ، ولجماعات المسلمين ، وكلى أمل وثقة أن سلوكه لا ينتهى بالسالكين إلا إلى نجاتهم وكمالهم، وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

والخطة الموضوعة لسالكى هذا الطريق من الجماعات الإسلامية تتمثل فى الخطوات الست التالية :

---

(١) هذا هو البعد الثالث من الأبعاد الثلاثة التى يتكون منها الطريق وقد تقدم الأول والثانى فليرجع إليهما .

الخطوة الأولى :

إن الخطوة الأولى هي تكوين جماعة للمسلمين [1] فى كل قرية ، وفى كل حى من أحياء المدن الكبرى ، أو الصغرى ،فى كل إقليم من أقاليم البلاد الإسلامية تسمى الواحدة من هذه الجماعات بجماعة المسلمين ، ويكون لكل جماعة إدارتها من أمير ، ومجلس شورى ، وأعضاء عاملين ، ويكون لتلك الجماعات فى الإقليم مجلس واحد يشرف عليها ، وينظم سير عملها ،يسمى بالمجلس لجماعات المسلمين فى ذلك الإقليم الإسلامى ، ويكون مقره فى عاصمة الإقليم أو إحدى مدنه الكبرى .

الخطوة الثانية :

هى بيان عمل جماعة المسلمين ومباشرته :

إن لجماعة المسلمين الثابتة الوجود شرعا بحديث مسلم « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ،. فقلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام إلخ . . . » عمل معروف فى كتب الفقة الإسلامى الذى هو شريعة المسلمين ومجمل القول فى هذا العمل : إنه كل ما كانت تقوم به حكومة إمام المسلمين عندوجودها وقدرتها من إطعام الجائع ، وكسوة العارى ، ومداواة المريض ، وإرشاد الضال ، وتعليل الجاهل ، وحماية عقائد المسلمين ، وأرواحهم وأعراضهم ، وأموالهم ، وديارهم ، ومن ذلك واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله .

الخطوة الثالثة :

هى العمل الفورى على توحيد كل الجمعيات الإسلامية فى البلد الإسلامى ودمجها فى جماعة واحدة ،هى جماعة المسلمين ،التى تنشأ فى كل قرية من القرى الإسلامية ، وكل حى من أحياء مدنهم ، وهذا التوحيد ضرورى للعمل الإصلاحى ولا مبرر لغيرة أبدا ، إذ هدف المسلمين واحد ، وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له ، ولا يتحقق هذا الهدف كاملا إلا فى المجتمع الإسلامى ، وظل الحكم الإسلامى ، وهذا متوقف بدوره على وحدة المسلمين ، وتعاونهم على البر والتقوى ،ووجود جمعيات متعددة تذهب بريح الأمة

---

(١) الجماعات الإسلامية الموجودة قبل هذا التكوين يجب أن تندرج فى هذا التكوين الجديد ، ولا ينبغى أن تخرج عنه بحال توحيدا للأمة ، والعمل الإصلاحى بينها .

، وتضعفها ويبدد جهدها وطاقتها ، فلم تصبح قادرة على العطاء والحياة .

الخطوة الرابعة :

في تفصيل العمل وتنظيمه :

إن هذه الخطوة لمن أهم خطوات هذا الطريق إذ عليها تدور سائر أعمال جماعة المسلمين ، فهي الكل في الكل ، والبداية والغاية وبيانها كالتالي :

(أ) تكوين هيئة الجماعة في القرية أو الحي من المدينة ، وهي عبارة عن لجنة رئيسية تحتها لجان فرعية تقوم كل لجنة بعمل خاص ، فاللجنة الرئيسية تتكون من أمير الجماعة ومستشارين له لا يقل عددهم عن ثلاثة أنفار من صالحي أهل القرية أو الحي ، ومهمة هذه الهيئة الإرشاد ، والتوجيه ، وإدارة عمل الجماعة .

(**ب**) تكوين لجان العمل وهي :

١ ـ لجنة الكتابة .

٢ ـ لجنة المالية .

٣ ـ لجنة الحكم والفتيا .

٤ ـ التعليم والتربية .

٥ ـ لجنة البر والإحسان .

٦ ـ لجنة الأنشطة الرياضية .

٧ ـ لجنة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

فلجنة الكتابة مهمتها : رسائل الدعوة ونشراتها التي تقوم الجماعة بنشرها أداء لمهمة الوعظ والإرشاد والدعوة إلى البر والمعروف وتسجيل وكتابة أسماء وعناوين كل أفراد الجماعة في الحي أو القرية وكتابة الدخل المالي لصندوق الجماعة ، ومخرجه ، ودفع حسابات بيانية بذلك كل شهر .

ولجنة المالية مهمتها : جمع الاشتراكات والتبرعات ، والزكوات من أفراد جماعة المسلمين في الحي أو القرية ، وحفظها في صندوق الجماعة ، والدفع منها عند الحاجة إن

كان بإذن من أمير الجماعة موقعا بتوقيعه ، مبينا فيه سبل الإنفاق ، والقدر المطلوب إنفاقه بلفظ صريح .

ولجنة الحكم مهمتها : فض النزاع ، وإنهاء الخلاف الذى قد يقع بين أفراد جماعة المسلمين فى القرية أوالحى ، وفى حال استعصاء الخلاف ، أو احتدام النزاع ، وعجز اللجنة عن إنهائه فإنه يرفع إلى أميرالجماعة ومجلس شوراه فإن أمكن إنهاؤه فذاك ، وإلا رفع إلى محاكم البلد ، والقضاء فيها .

ولجنة التعليم والإرشاد مهمتها : تعليم أفراد الجماعة أمور دينهم ، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاح أمرهم ، ويتم ذلك للبعض بواسطة حلق العلم التى تعقد فى المسجد كل يوم ، وللبعض الآخر بواسطة الدرس العام الذى يلقيه أمير الجماعة كل أسبوع فى مسجد الجماعة .

ولجنة الأمر بالمعروف مهمتها : ملاحظة سلوك المسلم فى الحى أو القرية فإن رأته ترك معروفا أمرته بفعله فى رفق ، وإن رأته ارتكب منكرا نهته عن فعله فى رفق كذلك ، وتستعمل اللجنة فى ذلك أسلوب الوعظ والإرشاد فإن نفع ، وإلا رفعت الأمر إلى أمير الجماعة ومجلسه لإصلاح هذا الفرد بما تراه من وسائل مشروعة .

ولجنة البر مهمتها : تفقد أفراد جماعة المسلمين ورعاية أحوالهم فتطعم جائعهم ، وتكسوا عاريهم ، وتداوى مريضهم ، وترفع الظلم عن مظلومهم ، وتيسر عن معتسرهم ، وترحم ضعيفهم ، وتعاونهم على البر والتقوى .

ولجنة الرياضات مهمتها : رعاية شباب القرية أو الحى صحيا ، وعقليا ، وذلك بمزاولة ألوان الرياضة المختلفة والتى ثبتت جدواها ، وتحقق نفعها لمن يأتيها من سائر أنواع الرياضات التى تحفظ الجسم ناميا ، صالحا يقدر على أداء فريضة الجهاد ، والعقل صالحا راجحا ، يقدر على التفكير ، والإبداع ، والاختراع .

الخطوة الخامسة :

وهى المحافظة على العمل الإصلاحى ، وإنجاحه .

إنه بعد إنشاء هذه الجماعات الإسلامية على النحو الذى سبق بيانه يجب أن تعظم عناية القائمين عليه بالمحافظة على سيره فى طريقه حتى لا يختل ، أو يضعف ، أو يتعطل لا قدر الله تعالى ، فرعايته من أوجب الواجبات وآكدها ، فيتعين على القائمين به والمسيرين

له التفانى فى حفظه ، وبقائه نامى العمل ، مطرد النجاح ، وذلك ببذل كل ما فى الوسع ، وإنفاق كل رخيص وغال ، إذ فشل هذا العمل الإصلاحى للأمة الإسلامية معناه الموت بأتم معناه ، وليس هو مجرد تعطل حركة إصلاحية ، أو خيبة أمل فى مشروع خيرى فقط .

إن أعداء الإسلام لا يسرهم بحال عمل إصلاحى كهذا يعود بالمسلمين إلى سابق عزهم ، وخالد مجدهم ، بعد أن يرد إليهم اعتبارهم ، فى كونهم أمة ، قائدة ، سادت العالم ، وقادته إلى الخير والكمال زمنا غير قصير ، ولذا فإنهم سوف يشككون فى صلاح هذا العمل الحركى الإصلاحى ، وفى قيمته الكبيرة ، وفى جدواه ، فينبغى أن لا يلتفت إليهم حتى ولو حاربوه ، فليتذرع بالصبر ، والحلم والشجاعة ولا يمكنون من إحباطه ، إذ لا يسرهم إلا ذاك ، وأنهم سوف يتذرعون إليه بكل الوسائل حتى بإخسها فليعرف هذا وليتفطن له ، وليحذر منه [1] حتى لا يمكن أعداء الإسلام من إيقاف هذا العمل أو عدم إنجاحه ، وليصبر على ذلك إلى أن ينجح هذا العمل الإصلاحى الذى هو المنزع الأخير لأمة الإسلام فى هذه الأيام ، وإلى أن يظهره الله تعالى وينجحه ، ويومها ييأس المبطلون المناوئون ويهلكون ، أو يتوب الله على من يشاء منهم فينجو بهذه الحركة الإسلامية الإصلاحية ويسعد بها كغيره من سائر العاملين بها الراضين بها .

الخطوة السادسة :

إيجاد قيادة عليا لجماعات المسلمين [2] إن من الضرورى لهذا العمل الإسلامى المنظم أن تكون له قيادة عليا ، تشرف عليه ، وتنظمه وترعاه ، وتوجهه ، وتكون المرجع الأخير لكل جماعات المسلمين فى بلادهم ، يتحاكمون إليها ، وينهون أمرهم إلى قضائها وحكمها .

فمجرد ما يوجد هذا العمل فى إقليمين أو أكثر من بلاد المسلمين ، يتعين أن يكون من أمراء جماعات المسلمين فى تلك الأقاليم مجلس أعلى لرعاية العمل الإسلامى وتوجيهه ، ليتم التعاون بين سائر المسلمين العاملين فى هذا الميدان الإصلاحى ، إذ التعاون ضرورة بين المسلمين ، ولا يتحقق التعاون المثمر إلا بمثل هذه القيادة العليا التى قد تربط بين كل جماعات المسلمين وفصل ما بينهم حتى يشعروا أنهم أمة واحدة ، كما أراد الله تعالى

---

(١) الضمير فى قولنا لـه ومنه ، واسم الإشارة قبلهما يعود إلى تشكيك الأعداء وتوسلهم بكل الوسائل لإحباطه وإفساده .

(٢) إن هذه القيادة العليا قائمة مقام الخليفة عند فقده ، كما أن جماعة المسلمين قائمة مقام إمام المسلمين عند فقده أو عجزه .

لهم أن يكونوا : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ (١) .

خاتمة :

وأخيرا فهذا هو الطريق قد بينته لأخوة الإسلام ، وهوطريق واضح مستقيم ، السير عليه مأمون العثرات ، وسلوكه محمود النهايات .

وإنه لآمن وأسلم ، وأرجى أن يحقق سالكوه ما يصبون إليه من إقامة المجتمع الإسلامى ، والحكم الإسلامى ، ليعبد الله وحده ، ولينجوا المسلمون ويسعدوا .

إنه لآمن وأسلم وأرجى من طرق شتى سلكها كثيرمن المؤمنين لهذه الغاية ، وما وصلوا إليها ، وما فازوا بها .

ومن هذه الطرق :

١ ـ طريق انتقاد الحاكمين ، وإنقاصهم ، والتلذذ بتكفيرهم وتفسيقهم مع التقاعس عن العمل الإصلاحى المثمر ، والانغماس أحيانا فى حمأة الرذائل والشهوات .

٢ ـ طريق التنظيم السرى ، والإعداد الثورى للإطاحة بالحكم وأهله والذى ظهر عقمه وعدم جدواه ولم يجن منه أصحابه سوى التعذيب ، والتقتيل والتشريد .

٣ ـ طريق الجمعيات الدينية القليلة العطاء التى يكتفى فيها أصحابها بأقل البذل ، وأدنى الجهد ، فيمضى الزمن الطويل عليها وهى مجرد رسوم لا ظل لها ولا ثمر .

٤ ـ طريق الازدواجية التى يعمل أصحابها فى الظاهر تحت رسم جمعية دينية ، وفى الباطن يتبنون شعارات الأنظمة السرية وهو طريق يكثر فيه الاستغلال ، والاستذلال لما فيه من طبيعة النفاق السياسى ، وغالبا ما يؤول أمر القائمين عليه إلى الشقاق فيما بينهم والخصام ، كما أنه لم يعرف أن طريقا من هذه الطرق قد حقق للمسلمين خيرا ، أو وقاهم ضيرا .

ومرة أخرى أقول : إن طريق جماعات المسلمين هو الطريق السوى المرضى المأمون العثرات ، المحمول للعواقب والنهايات وإن السيرعليه ، والسلوك فيه ليس بأصعب من

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

السير على تلك الطرق ، التى بعضها ضيق غير قاصد وبعضها مظلم ملتق ، وقد جربت كلها فلم يجد منها طريق ، ولم ينفع منها آخر فلم يبق إذا إلا طريق واحد وهوسبيل جماعة المسلمين الذى هوسبيل المؤمنين الذى قال تعالى فيه :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (١) .

وقال فيه الرسول ﷺ : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ، فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » ألا فليستعن بالله وليتق فيه الأخوة المؤمنون ، وليحيوا هذه السنة ، وليقيموا هذا الواجب الذى تركه المسلمون من زمن طويل حتى حل بهم ما حل من العجز والضعف ، وأصابهم ما أصابهم من المحن والفتن ، وليعلموا أنه لانجاة لهم ، ولا مخرج مما هم فيه إلا سلوك هذا الطريق ، والسير عليه مهما كان شاقا أوطويلا ، مع أنه لا مشقة فيه ولا طول ، ما دام تحقق الهدف شريفا والوصول إلى الغاية مضمونا بإذن الله تعالى من قبلهم : **﴿ وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾** (٢) .

---

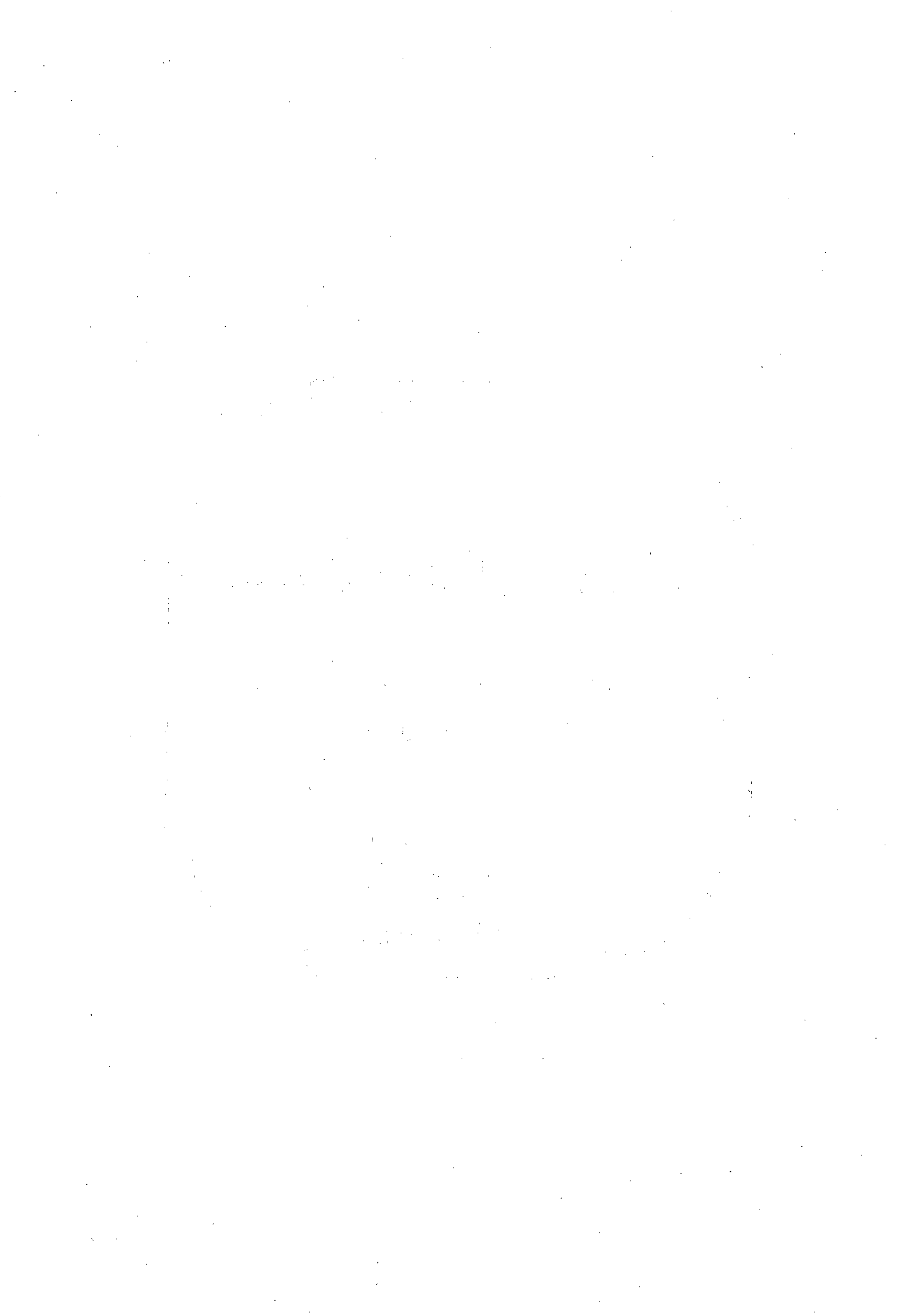
(١) النساء : ١١٥ .

(٢) النور : ٥٥ .

كيف يتطهر المؤمن ويصلى

رسالة قيمة فى بيان كيفية الطهارة والصلاة
على ضوء الكتاب والسنة

كتبها
أبو بكر جابر الجزائرى



مقدمــــــة

الحمد لله رب العالمين ، القائل : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ (١) وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على من نزل عليه : ﴿ **وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين** ﴾ (٢) ورضى الله تعالى عن آل رسول الله وأصحابه الراكعين القانتين ، ورحم الله من أمته الغر المحجلين .

أما بعد : فهذه رسالة صغيرة فى بيان الطهارة والصلاة نضيفها إلى رسائل الدعوة أداء لواجبها وقيامها بمسؤوليتها راجين لنا من الله تعالى القبول ، ولإخواننا المسلمين النفع المأمول ، هذا وإن كان هناك ما يجدر التنبيه إليه فى مقدمة .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ . (٢) الشعراء : ١١٧ ــ ١١٩ .

رسالة كيف يتطهر المؤمن ويصلى

هو أن العمل بما فى هذه الرسالة هو عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، إذ جميع مسائلها مسندة إلى أدلتها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة وبناء على هذا فإنه لكل مسلم كيفما كان مذهب قومه وما عليه أهل بلاده أن يتطهر على الكيفية المبينة فى هذه الرسالة ويصلى ولا يخاف بحمد الله فسادا فى طهارته ، ولا نقصانا فى صلاته وحسب المسلم صحة طهارته وقبول صلاته ، حقق اللهم لنا ولهم ذلك إنك سميع الدعاء قريب مجيب .

الطهـــارة

اعلم ـ أخي المسلم ـ أن الله تعالى قد أمرنا بالطهارة في قوله : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ (١) وفي قوله : ﴿ **وإن كنتم جنبا فاطهروا** ﴾ (٢) وفي قوله : ﴿ **ولكن يريد ليطهركم** ﴾ (٣) بعدما أمر المؤمنين بالوضوء ، والغسل ، والتيمم ، وأخبر تعالى أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين في قولـه : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهـرين** ﴾ ، وأن الرسول ﷺ قال : « الطهور شطر الإيمان » (٤) ، وقال ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور » (٥) وقال : « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » (٦) .

نوعا الطهـــارة

اعلم أخي المسلم أن الطهارة نوعان :

طهارة باطنية : وهي تطهر القلب من الشرك وهو تعلق القلب بغير الرب تبارك وتعالى خوفا أو طمعاً ، ومن الغل لأفراد المؤمنين ، أو الحقد عليهم ، والحسد لهم ، والتكبر عليهم ، أو احتقارهم والاستخفاف بهم ، وتكون هذه الطهارة للقلب بتوحيد الله تعالى وهو تعلق القلب به تعالى دون سواه ، فلا يخاف العبد إلا الله تعالى ولا يطمع في غيره سبحانه وتعالى ، وبموالاة المؤمنين ، وحب الخير لهم والعفو عن مسيئهم ، والتواضع لهم واحترامهم وإكرامهم .

وطهارة ظاهرة : وهي تطهير جسم المصلي وثيابه والمكان الذي يصلي فيه ، وذلك من سائر النجاسات كبول الآدمي ، وبول ما لا يؤكل لحمه من الحيوانات ، والعذرة والروث والدم والقيح ، والمذي والمني ويكون ذلك بغسلها بالماء (٧) الطاهر وهو الباقي على أصل خلقته بحيث لم يخالطه شيء يغير طعمه أو لونه أو ريحه حتى تذهب عينها ، ولا يضر بقاء أثر الدم ، كما أن المني يكفي فيه سلته (٨) بعود إن كان رطبا ، وفركه باليد

(١) المدثر : ٤ . (٢ ، ٣) المائدة : ٦ . (٤) رواه مسلم .
(٥) رواه أحمد والترمذي وغيرهما وهو حسن الاعتماد . (٦) متفق عليه .
(٧) لإجماع علماء الإسلام على ذلك . (٨) السلت : النحث والإزالة والمسح إلخ .....

إن كان يابساً ، لقول عائشة رضى الله عنها : « كنت أفرك المنى من ثوب رسول الله ﷺ إذا كان يابسا ، وأغسله إن كان رطبا » رواه الدارقطني وهو مرسل وله شواهد فى الصحيح تقويه ، وإن غسل بالماء فحسن لقول عائشة فى الصحيحين : أنه ﷺ : « كان يغسل المنى ثم يخرج إلى الصلاة فى ذلك الثوب وأنا أنظر أثر الغسل فيه » وهذه تسمى بطهارة الخبث .

والوضوء ، والغسل ، والتيمم ، وتسمى بطهارة الحدث وهذا بيانها :

الوضـــوء

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن الله ذكر فرائض الوضوء فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ (١) .

فذكر غسل الوجه ، واليدين إلى المرفقين ، ومسح الرأس ومنه (٢) الأذنان ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ولازم ذلك من الدلك (٣) ، والترتيب بين الأعضاء المذكورة ، والموالاة فى غسلها ، والنية فى بدئه للحديث الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات » هذه هى فرائض الوضوء فاعرفها ، وأن الرسول ﷺ سن السواك (٤) ، والتسمية (٥) ، وغسل (٦) الكفين ، والمضمضة (٧) ، وكون الوضوء ثلاثا ثلاثا (٨) ، فهذه هى سنن الوضوء فاعرفها أيضا ، واعلم أنه لا يتم الوضوء إلا بفرائضه وسننه .

وهذه كيفية الوضوء مرتبة فتعلمها :

تسوك بعود ونحوه (٩) ، ثم قل بسم الله : (ناويا الوضوء) ، وأفرغ الماء على كفيك

---

(١) المائدة : ٦ .

(٢) روى أبو داود وأحمد أنه ﷺ مسح برأسه وأذنيه مسحة واحدة .

(٣) روى أحمد وغيره أنه ﷺ توضأ فجعل يدلك ذراعيه .

(٤) لحديث الموطأ : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » .

(٥) لحديث أبى هريرة فى مجمع الزوائد وهو حسن : « إذا توضأت فقل : بسم الله والحمد لله » ... إلخ .

(٦) لحديث الصحيحين : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثا » .

(٧) لحديث الصحيح أنه ﷺ تمضمض واستنشق واستنثر بثلاث غرفات .

(٨) لحديث أحمد وغيره : إذا توضأتم فابتدؤوا بأيمانكم .

(٩) لحديث الصحيحين .

فاغسلهما ثلاثا ، ثم اغسل فمك ثلاثا ، واستنشق الماء بأنفك واستنثره ثلاثا ، ثم اغسل وجهك من منبت الشعر المعتاد فى أعلى الجبهة إلى منتهى اللحية طولا ، ومن وتد الأذن إلى وتد الأذن الأخرى عرضا ، ثلاث مرات ، ثم اغسل يدك اليمنى مع المرفق ثلاثا مخللا أصابعها [1] ثم اغسل اليسرى كذلك ،ثم امسح برأسك بادئا من مقدمه منتهيا إليه : فتمر بيديك إلى القفا ، ثم تردهما إلى حيث بدأت ، وتمسح أذنيك ظاهرا وباطنا مسحة واحدة ، ثم اغسل رجلك اليمنى مع الكعب حتى تعممها بالماء ثم اغسل اليسرى كذلك .

تنبيهات

أ ــ لا تسرف فى الماء :

فإن النبى ﷺ كان يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع ، وهو أربعة أمداد كما روى ذلك فى الصحيحين ، وأطل غرتك وتحجيلك وذلك بأن تغسل جزءا من مقدم رأسك زائدا عن الفرض الذى هو منبت الشعر المعتاد فى أعلى الجبهة ، وأن تغسل ما فوق المرفقين فى يديك وما فوق الكعبين فى رجليك ، لحديث الصحيح : « إن أمتى يأتون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء » فقال أبو هريرة من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل .

ب ــ يفسد الوضوء أمور فاعرفها وهى :

١ ــ الخارج من السبيلين من بول ومذى وغائط وضراط وفساء ، لقوله تعالى : ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾ [2] وقوله ﷺ فى الصحيحين : « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » ، والحدث كل ما خرج من السبيلين فهو يشمل كل ما تقدم ذكره .

٢ ــ النوم إذا كان المرء مضطجعا [3] أوعلى جنب أما من كان قاعدا ممكنا مقعدته من الأرض فنومه لا ينقض وضوءه لرواية مسلم « أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا ينتظرون العشاء الآخرة حتى تخفق رؤوسهم ثم يصلون ولا يتوضؤون » ، وذلك لأنهم جلوس غير مضطجعين .

---

(١) لحديث ابن عبايس رضى الله عنه عند أحمد والترمذى : إذا توضأت فخلل أصابع يديك .

(٢) المائدة : ٦ .

(٣) لحديث أحمد وأبى داود : « العينان وكاء السه فمن نام فليتوضأ » والسه : حلقة الدبر .

٣ ـ زوال العقل وهو تغطية الشعور وذهاب الإدراك وسواء أكان بجنون أم بإغماء مرض ، أم بسكر ونحوه ، إذ قد يحدث المرء في حال زوال عقله وهو لا يشعر .

٤ ـ مس الذكر بباطن الكف أوالأصابع إن لم يكن حائل من ثوب ونحوه ، وذلك لحديث بسرة بنت صفوان فى الموطأ : « من مس ذكره فلايصلى حتى يتوضأ » ، وحديث أحمد : « من أفضى بيده إلى ذكره ليس دونه ستر فقد وجب عليه الوضـوء » .

جـ ـ المسح على الخفين : ـ

يجوز للمسلم إذا توضأ ولبس خفيه أو جوربيه السميكين أن يمسح عليهما يوما وليلة إذا كان مقيما ، وثلاثة أيام بلياليها إذا كان مسافرا ، لحديث صفوان عند الترمذى والنسائى وهو صحيح الإسناد : أمرنا أن نمسح على الخفين إذا نحن أدخلناهما على طهر ثلاثا إذا سافرنا ويوما وليلة إذا أقمنا ، ولا نخلعهما إلا من جنابة .

الغسل

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن العبد يجب عليه الغسل إذا أجنب بخروج منى فى نوم أو يقظة من رجل أو امرأة (١) ، أو بجماع ولو بدون إنزال أى خروج منى ، لقول الرسول ﷺ فى الصحيح : « إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل » وهذا لقوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم جنبا فاطهروا** ﴾ (٢) .

وكيفية الغسل هى ـ كما روتها عائشة رضى الله تعالى عنها ـ إذ قالت كان النبى (٣) ﷺ إذا أراد أن يغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه قبل أن يدخلهما فى الإناء ، ثم غسل فرجه ، ويتوضأ للصلاة ، ثم يشرب شعره الماء (أى يخلل أصول شعر رأسه بالماء) ثم يحثو على رأسه ثلاث حثيات ، ثم يفيض الماء على سائر جسده (بادئا بالشق الأيمن قبل الأيسر ، والأعلى قبل الأسفل) .

تنبيهات

١ ـ إذا اغتسل المرء على النحو الذى ذكرت عائشة رضى الله عنها فليس عليه أن يعيد

---

(١) لحديث البخارى : فهل على المرأة الغسل إذا احتلمت ؟ قال : نعم إذا رأت الماء .

(٢) المائدة : ٦ . (٣) رواه البخارى وغيره .

الوضوء إلا أن ينقض وضوءه بناقض فساء أو مس ذكر مثلا .

٢ ـ الجنب لايجوز له أن يقرأ القرآن ، أو يدخل المسجد وكذا الحائض والنفساء لحديث على رضى الله عنه عند الترمذى [١] أن النبى ﷺ كان يقرئنا القرآن على كل حال ما لم يكن جنبا ، ولرواية أبى داود : « فإنى لا أحل المسجد لحائض ولا لجنبٍ » [٢] .

٣ ـ على المسلم أن يغتسل يوم الجمعة قبل الصلاة ؟ لقول الرسول ﷺ : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » [٣] .

التيمم

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن العبد إذا وجب عليه الوضوء أو الغسل ولم يجد الماء لوضوئه أو غسله ، أو وجده ولم يقدر على استعماله لمرض ونحوه فإنه يتيمم ويصلى ، لقوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم الغائط من أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا** ﴾ الآية [٤] .

وقول الرسول ﷺ فى رواية أحمد والترمذى الصحيحة : « إن الصعيد طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين » .

وكيفية التيمم هى :

أن تقول بسم الله ، وتضرب الأرض الطاهرة بيديك فتمسح بهما وجهك وكفيك لحديث البخارى أن النبى ﷺ قال لعمار بن ياسر رضى الله عنهما : « إنما كان يكفيك أن تفعل هكذا وضرب بكفيه الأرض ثم مسح بهما وجهه وكفيه إلى الرسغين » أى بدون الذراعين .

تنبيهات

١ ـ ينقض التيمم كل ما ينقض الوضوء ، وكذا وجود الماء قبل الدخول فى الصلاة لمن فقد الماء فتيمم وأراد الدخول فى الصلاة .

٢ ـ إذا تيمم العبد جاز له أن يصلى ما شاء من فرائض ونوافل ما لم يبطل تيممه بناقض من

---

(١) لقد صحح هذا الحديث الترمذى وغيره وضعفه بعض .

(٢) صحح هذا الحديث غير واحد من أئمة الحديث .

(٣) رواه الشيخان . (٤) النساء : ٤٣ .

نواقضه ، وإن تيمم عند دخول كل صلاة من الصلوات الخمس فحسن .

الصلاة

اعلم ــ أخى المسلم ــ إن الصلاة التى تطهرت لها هى ذات كيفية خاصة لا تصح إلا عليها ، وهيئة لا تقبل إلا بها ،وذلك بأن تكون موافقة للكيفية والهيئة التى صلى عليها رسول الله ﷺ ، إذ قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » (١) .

وعلامة صحة صلاة العبد وقبولها أن نجده منتهيا عن الفحشاء بعيدا عن المنكر ، لأن الصلاة متى صحت وقبلت نهت صاحبها عن ذلك لقول الله تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ (٢) .

وهاك ــ أخى المسلم ــ بيان الكيفية المطلوبة للصلاة فتعلمها وصل على مثلها تزك نفسك ، وتكن أهلا لمرضاة ربك :

إذا أتيت مسجدك مطهرا لابسا ثيابك الطاهرة الساترة وقد دخل وقت الصلاة فأقم الصلاة قائلا الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد (٣) أن لا إله إلا الله أشهد ، أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ثم قف مستقبل(٤) القبلة معتدلا جاعلا سترة (٥) بين يديك كجدار أو عمود أو نحو ذلك ، وارفع (٦)يديك حذو منكبيك مستحضرا فى نفسك (٧) الصلاة التى تريد أداءها ، قائلا : الله (٨) أكبر ، وضع يديك(٩) فوق صدرك الكف اليمنى فوق اليسرى ، وقل سبحانك(١٠) اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا

---

(١)رواه البخارى .   (٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) رواه مسلم أن النبى ﷺ أمر بلالا أن يشفع الآذان ويوتر الإقامة .

(٤) لرواية الشيخين أن النبى ﷺ قال : للمسئ صلاته : « إذا قمت للصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر » ... إلخ .

(٥) روى البخارى « إذا صلى أحدكم إلى سترة فليدن منها » .

(٦) لرواية البخارى أنه ﷺ كان يرفع يديه مع التكبير .

(٧) لحديث الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات » .

(٨) لحديث أحمد والحاكم الصحيح : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » .

(٩) لحديث مسلم أنه ﷺ كان يضع يده اليمنى على يده اليسرى فى الصلاة .

(١٠) لحديث أبى داود والحاكم .

إله غيرك ، ثم استعذ [1] وبسمل سرا فى نفسك ، ثم اقرأ الفاتحة[2] وسورة [3] أو آيات جهرا إن كنت فى الصبح أو المغرب أو العشاء ، فإذا فرغت فاسكت[4] هنيهة (وقتا قصيرا) ترد فيها نفسك ، ثم ارفع يديك حذو منكبيك ، واركع مكبرا ، فمكن يديك من ركبتيك ، ومد ظهرك فى اعتدال غير منكس[5] رأسك ولا رافعه وقل سبحان ربى العظيم [6] وبحمده سبع مرات أو خمسا أو ثلاثا ، ولا تنقص من الثلاث ، وإن قلت بعد ذلك سبحانك اللهم [7] ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى مرة واحدة فحسن ، ثم ارفع رأسك قائلا سمع الله لمن حمده ، رافعا يديك حذو منكبيك حتى إذا اعتدلت قائما قلت : ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ثم اسجد مكبرا فضع جبهتك وأنفك على الأرض ، وكذا كفيك وأطراف قدميك [8] مجافيا أى مباعدا يديك عن جنبيك ، غير مفترش ذراعيك ، ثم سبح قائلا : سبحان ربى الأعلى وبحمده سبعا أو خمسا أو ثلاثا ولا تنقص من الثلاث ، ثم اسأل الله [9] ما شئت من خير الدنيا والآخرة ، ثم ارفع رأسك مكبرا فاجلس مفترشا رجلك اليسرى [10] قاعدا عليها حتى تطمئن جالسا وتقول : رب اغفر لى وارحمنى [11] واهدنى وعافنى وارزقنى ، ثم اسجد مثل سجودك الأول ، ثم انهض معتمدا على يديك إلى الركعة الثانية قائلا : الله أكبر حتى تستوى قائما ، ثم بسمل سرا واقرأ جهراً الفاتحة وسورة أقصر[12] من التى قرأت فى الركعة الأولى ، ثم اركع واسجد كما فعلت فى الركعة الأولى ، ثم اجلس للتشهد ، وقل : التحيات لله والصلوات [13] الطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ثم انهض مكبرا رافعا يديك [14] حذو منكبيك حتى تستوى قائما ، ثم بسمل واقرأ الفاتحة سرا ، ثم اركع واسجد كما فعلت سابقا ، ثم انهض مكبرا للركعة

---

(١) لحديث أبى داود .
(٢) لحديث البخارى : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .
(٣) لحديث البخارى .
(٤) لحديث صحيح .
(٥) لحديث أبى داود والحاكم الصحيح .
(٦) لحديث أبى داود .
(٧) لحديث أحمد وأبى داود .(٨) لحديث البخارى .
(٩) لحديث البخارى
(١٠) لحديث البخارى .
(١١) لحديث الصحيحين .
(١٢) لحديث الصحيح .(١٣) لحديث البخارى .
(١٤) لحديث الترمذى الصحيح .

الرابعة إن كنت تصلى رباعية على صدور قدميك [١] معتمدا بيديك على الأرض حتى تستوى قائما ، ثم بسمل واقرأ واركع واسجد كما فعلت فى الركعة السابقة ثم اجلس متوركا تفضى [٢] بوركك اليسرى إلى الأرض وتخرج قدميك من ناحية واحدة جاعلا اليسرى تحت فخذك وساقك ، ناصبا اليمنى ، ثم تلقم كفك اليسرى ركبتك اليسرى ، وتتشهد مادا سبابتك تحركها تشير [٣] بها ، فتقرأ التشهد كما سبق ، ثم تصلى على [٤] النبى ﷺ قائلا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . و تستعيذ بالله من أربع [٥] قائلا : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر المسيح الدجال ، ثم تدعو بما شئت من خير الدنيا والآخرة ، ثم تسلم عن يمينك قائلا : السلام عليكم [٦] ورحمة الله وتسلم عن يسارك كذلك ، وإن اكتفيت بتسليمة واحدة [٧] أجزأتك ، والتسليمتان أعظم أجرا ، ثم تقول بعد السلام : أستغفر الله [٨] ثلاثا ، وتقول : اللهم أنت السلام ومنك [٩] السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام ، وتقول : اللهم أعنى على ذكرك [١٠] وشكرك وحسن عبادتك وتقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى [١١] لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، وتقول : سبحان [١٢] الله ثلاثا وثلاثين ، والحمد لله ثلاثا وثلاثين ، والله أكبر ثلاثا وثلاثين ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، مرة واحدة ، وتقرأ آية الكرسى [١٣] والصمد والمعوذتين ، وصل على النبى ﷺ ، وادع الله تعالى بما شئت من خير الدنيا والآخرة فإن الدعاء فى السجود وعقب الصلاة مرجو الإجابة .

---

(١) لحديث الصحيحين .
(٢) لحديث مسلم .
(٣) لحديث الصحيحين .
(٤) لحديث البخارى .
(٥) لحديث البخارى .
(٦) لحديث أبى داود والنسائى الصحيح .
(٧) لحديث الصحيح .
(٨) لحديث مسلم .
(٩) لحديث النسائى والترمذى وأبى داود .
(١٠) لحديث أحمد والحاكم والبيهقى الصحيح .
(١١) لحديث البخارى .
(١٢) لحديث الصحيحين .
(١٣) لحديث النسائى والطبرانى « من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت » .

واعلم ـ أخى المسلم ـ أن هذه الأذكار الواردة بعد الصلوات الخمس ليست واجبة وإنما هى مستحبة ، فعلها رسول الله ﷺ ورغب فيها ، فاجتهد أن تأتى بها دبر كل صلاة مكتوبة فإنها من الباقيات الصالحات . وراع آدابها فأت بها سرا فى نفسك وأنت حاضر القلب ، خاشع الجوارح راغبا راهبا ، فإن ذلك أرجى لقبولها والإثابة عليها كأن يسهو عن التشهد الأوسط فلم يأت به ، فإنه إذا أتم صلاته وقبل أن يسلم يسجد سجدتين ثم يسلم .

تنبيهات

الأول : فى السهو فى الصلاة :

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن المصلى إذا سها فى صلاته وجب عليه أن يسجد سجدتين إرغاما للشيطان ، وذلك :

وكان يسهو فيسلم من ركعتين أو أقل أو أكثر ، ثم يتذكر فإنه يقوم فيكبر ويتم صلاته ، ثم إذا أتمها وسلم سجد سجدتين وتشهد وسلم .

وكان يسهو فلا يدرى أصلى ثلاثا فى الظهر مثلا ، أو أربعا فإنه يصلى الركعة التى شك فيها ، ثم يتشهد وقبل أن يسلم يسجد للسهو سجدتين ، ثم يسلم .

وكان يسهو فيقرأ فى الجهرية سرا فإنه يسجد قبل سلامه سجدتين ثم يسلم .

وكان يسهو فيقرأ فى السرية جهرا ، فإنه يسجد بعد السلام سجدتين ثم يتشهد ويسلم ، وهذا كله لقول الرسول ﷺ : « من شك فى صلاته فليسجد سجدتين بعدما يسلم » (١) ، ولسجوده صلى الله ﷺ غير مرة للسهو كما هو فى الصحيح .

الثانى : فى حكم المسبوق :

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن المسلم إذا أتى المسجد ووجد الصلاة قائمة لا يحل له أن يدخل فى صلاة نافلة سواء كانت سنة الفجر أو غيرها لقوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » (٢) وإنما عليه أن يدخل فورا مع الإمام على أى حال وجده قائما أو

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن خزيمة وصححه .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

راكعا أو ساجدا أو جالسا ، ويلغى تلك الركعة ولا يحسبها إلا إذا وجد الإمام قائما أو راكعا فركع معه بأن كبر تكبيرة الإحرام قائما معتدلا ، ثم كبر للركوع وركع مع الإمام لم يرفع رأسه فإنه يعد تلك الركعة ، لحديث الترمذى (١) : « إذا أتى أحدكم الصلاة والإمام على حال فليصنع كما يصنع الإمام » ، وحديث أبى داود : « إذا جئتم إلى الصلاة ونحن سجود فاسجدوا ولا تعدوها شيئا ومن أدرك الركعة فقد أدرك الصلاة » .

ثم إذا قام لقضاء ما فاته يجعل ما أدركه مع الإمام أول صلاته ، ويتم ما فاته لحديث البخارى : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » .

فمثلا من أدرك مع االإمام ركعة من الظهر فإنه يأتى بعد سلام الإمام بركعة يقرأ فيها الفاتحة والسورة ، ثم يجلس يتشهد ، ثم يقوم فيأتى بركعتين يقرأ فيما بالفاتحة فقط .

ومن أدرك اثنتين أتى بالركعتين (٢) بالفاتحة فقط ، وكذا من أدرك ثلاثا فإنه يأتى بالرابعة بالفاتحة فقط ، بناء على قوله ﷺ : « وما فاتكم فأتموا » .

الثالث : فى موقف الإمام والمأمومين وتسوية الصفوف :

اعلم ــ أخى المسلم ــ أن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة لقوله ﷺ فى حديث مسلم ،« سووا صفوفكم ، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة » .

وأن وقوف الإمام أولا ، ثم الرجال خلفه ، ثم الصبيان ، ثم النساء كذلك من إقامة الصلاة فلا يجوز أن يتقدم الإمام أحد من المأمومين ، ولا أن يتقدم الصبيان عن الرجال ، ولا النساء عن الصبيان أو الرجال لحديث البخارى أن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « صليت أنا واليتيم فى بيتنا خلف النبى ﷺ وأمى خلفنا » .

وإن كان مع الإمام رجل واحد وقف الرجل على يمين الإمام لحديث أنس أيضا أن النبى ﷺ صلى به وبأمه أو خالته قال : فأقامنى عن يمينه ، وأقام المرأة خلفنا .

الرابع : فى مبطلات الصلاة :

اعلم ــ أخى المسلم ــ أن الصلاة يبطلها أمور فكن على علم بها وهى : ــ

---

(١) حديث الترمذى ضعيف وقد تقوى بشواهد كبيرة وعليه العمل عند جماهير الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى اليوم .

(٢) قال الفقهاء رحمهم الله تعالى : من أدرك أقل من ركعة يقوم لأداء ما فاته مكبرا وكذا من أدرك ركعتين ، أما من أدرك غير ذلك فإنه يقوم بلا تكبير ، ولم أقف على سنة فى هذه المسألة غير أنها معقولة لمن تأملها .

١ ـ الأكل أو الشرب فمن أكل أو شرب وهو فى صلاته بطلت عليه لقوله ﷺ : « إن فى الصلاة لشغلا » متفق عليه .

٢ ـ الكلام ، فمن تكلم فى صلاته لغير إصلاحها بطلت عليه لقوله ﷺ فى حديث مسلم : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس » .

٣ ـ القهقهة فمن ضحك فى صلاته فقهقه بطلت عليه لقوله ﷺ فى حديث الطبرانى وسنده لا بأس به : « لا يقطع الصلاة الكشر ولكن يقطعها القهقهة » والكشر التبسم وفتح الفم بدون الصوت .

٤ ـ العمل الكثير فمن عمل عملا كثيرا وهو فى صلاته بطلت عليه ، أما العمل اليسير فإنه لا يبطلها إذ ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ صلى مرة بالناس فجاءت أمامه بنت ابنته زينب وهى صغيرة فتعلقت به فكان يحملها وهو قائم ، فإذا سجد وضعها ، ولم يبطل ذلك صلاته .

٥ ـ ترك ركن من أركان الصلاة فمن ترك ركنا من أركان صلاته بطلت عليه ، لقوله ﷺ للذى ترك الطمأنينة والاعتدال فى صلاته : « ارجع فصل فإنك لم تصل » فى الصحيح .

٦ ـ ذكر صلاة فائتة فمن دخل فى صلاة وتذكر أنه لم يصل التى قبلها بطلت عليه صلاته ، فليصل التى قبلها أولا ثم يصلى التى بعدها ، إذ ترتيب الصلوات الخمس فيما بينها واجب بالكتاب والسنة .

٧ ـ ذكر الحدث أو طروءة فمن دخل فى الصلاة وذكر أنه على غير وضوء أو انتقض وضوءه بطلت صلاته فليخرج منها وليتوضأ وليعد صلاته لقوله ﷺ فى الصحيح : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » .

٨ ـ كشف العورة فمن صلى مكشوف العورة بطلت صلاته ، لقوله تعالى : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ [1] وعورة الرجل ما بين سرته وركبتيه ، وعورة المرأة فيما عدا وجهها وكفيها ، لقوله ﷺ : « لا يقبل الله صلاة حائض بغير خمار » والخمار ثوب تخمر أى تغطى به رأسها وعنقها وجيوب درعها السابغ الذى يستر بطون قدميها .

٩ ـ استدبار القبلة فمن استدبر القبلة وهو فى الصلاة بطلت صلاته لقوله تعالى : ﴿ **فول**

---

(١) الأعراف : ٣١ .

وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (١) .

(فائدتان)

وأختم لكم ـ أخي المسلم ـ هذه الدراسة عن الطهارة والصلاة بذكر فائدتين عظيمتين ، إحداهما : تتعلق بالوضوء ، والأخرى : تتعلق بالصلاة فالتي تتعلق بالوضوء هي : أن من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء كما هو في صحيح مسلم ، وأن من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء من أمور الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه ، كما في صحيح البخاري .

وأما التي تتعلق بالصلاة فهي : أن من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة زائدة على الفرائض والوتر بنى الله تعالى له بيتا في الجنة كما هو في صحيح مسلم .

وهذه الركعات قد ورد تعينها في عدة أحاديث صحيحة وهي ركعتان قبل الفجر ، وركعتان قبل الظهر ، وركعتان بعدها ، وركعتان قبل العصر ، وركعتان بعد المغرب ، وركعتان بعد العشاء .

فاجتهد ـ أخي المسلم ـ في تحصيل هذا الفضل واحرص عليه من قبل أن يأتي يوم يكون خير ما يتمناه المرء أن يعود إلى الحياة الدنيا ليصلي ركعتين فيها ويموت .

وختاما : سلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) البقرة : ١٤٤ .



التربية في الإسلام

كتبها

أبو بكر الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، وسيد الناس أجمعين .

محمد المرسل رحمة للعالمين ، وآله وصحابته والتابعين .

أما بعد : أيها الإخوة والأبناء فإنى أحييكم جميعاً بتحية الإسلام ، فالسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته .

وأستعين اللّه تعالى فى محاضرتى إياكم بهذه الكلمة حول التربية فى الإسلام آملاً أن تجدوا فى كلمتى هذه موعظة وذكرى ، أو تحدث لكم علماً وفكراً .

ولنبدأ حديثى إليكم بشرح كلمة التربية وتعريفها ، فنقول : إن لفظ التربية مصدر ربى الشىء من الكائنات الحية كالإنسان والحيوان ، أو النامية كالشجر والنبات تربية ؛ إذا قام على تنشئته وتربيته ، أو إنمائه وإصلاحه حتى بلغ به غاية كماله .

وعليه فكل قائم على تربية إنسان أو حيوان أو شجر أو نبات لينمو ويصلح ويبلغ الكمال المتهيىء للوصول إليه ، بفطرته ، وحسب سنة اللّه تعالى فيه فهو مرب له ، والشىء المقام على إنمائه وإصلاحه مربى .

ومن هنا كانت التربية مطلقاً فنا خاصاً وعلماً مستقلاً له أصوله وقواعده ، فتربية الأشجار والنباتات على اختلافها وتباين منافعها وخواصها هى علم مستقل يعرف بعلم النبات ، والمشتغلون بذلك هم الفلاحون والمزارعون .

وكل فلاح ينتج بقدر خبرته ، وما يبذله من جهد وطاقة ، وما يصرفه لفلاحته من عناية ، وليس ذلك بخارج عن نظام السنن الكونية التى وضعها الخالق تعالى للإنبات والجنى والحصاد .

كما أن تربية الحيوان تختلف باختلاف أنواعه ، ولكل نوع منه طرق فى تربيته خاصة به ، ومربون مختصون ، والذى يعنينا فى هذا الموضوع ـ أيها الإخوة والأبناء ـ هو تربية الإنسان بصورة عامة ، والمسلم بصورة خاصة .

فالإنسان وهو كائن حى له فى الكمال وطلبه مجال واسع كبير ، قد هيىء بفطرته للوصول إليه ، والحصول عليه ، بيد أن ذلك متوقف على قوانين تربوية خاصة لايتم إلا عليها ، وتربية الكمال البشرى فى الإنسان تتناول منه أربعة جوانب هيئ : جسمه ، وعقله . وخلقه ، وروحه .

فتربية جسم الإنسان ليبلغ الكمال فى نمائه وبقائه تعتمد على إصلاح غذائه من طعام وشراب ، وعلى نقاء الهواء الذى يتنفس فيه وعلى المحافظة على جسمه بتجنيبه التغيرات الهوائية الشديدة من برد قارس ، وحر شديد ، ولذا كانت العناية بلباسه وسكنه ضرورية لنماء جسمه وبقائه صالحاً يؤدى وظائفه ، كما يعتمد فى تربية الجسم الإنسانى على أنواع من الرياضات البدنية المختلفة ذات الوسائل والطرق الخاصة ، والتى تؤدى بها ، وهى سهلة ميسرة تدرك بأدنى جهد ، وبأقل تكلفة والحمد للّه .

وأما تربية عقله ليكمل إدراك الإنسان ويصبح ذا قدرة كافية على الفهم والتذكر ، والتصور والتقدير للأمور ، وإصدار الأحكام الصحيحة على ما يعقله ويراه من المعقولات والمحسوسات فتتوقف على الدرس والتعليم ، والتجربة ، والملاحظة ، والنظر فى الكونيات والتأمل فيها ، إذ بذلك يكمل عقل الإنسان ، وتقوى مداركه وتسمو السمو اللائق به .

وأكثر ما ينفع فى هذه التربية العقل العلوم النافعة الصحيحة ، وأكبر ما يضر بها ، المعقولات الباطلة ، والخرافات الضالة والتصورات الفاسدة والعياذ باللّه تعالى .

وأما تربية خلقه فإن الأخلاق البشرية مفتقرة فى تربيتها وتنميتها وإصلاحها حتى تصبح أخلاقاً فاضلة كريمة إلى قوانين ضابطة وإلى مربين قادرين ، والأصل فى القوانين الأخلاقية أن لا تكون من وضع البشر الذين تزدحم عندهم الأغراض المادية ، وتتضارب فى نفوسهم الشهوات البهيمية ، وتتحكم فى أغلبهم الأهواء فتذلهم ، ولا يبقى لهم معها أدنى قسط من الإرادة والحرية والاختيار ، وإنما تكون تلك القوانين دائماً من وضع الشرائع السماوية الثابتة بالوحى الإلهى والنازلة به وتقرير الرسل لها ، وتمثيلها على مسرح الحياة الإنسانية .

هذه أيها الإخوة والأبناء ـ إشارة خفيفة خفية إلى تربية الإنسان فى جسمه وعقله وخلقه ، أما تربية روحه فإنها من أشد أنواع التربية صعوبة ، وأكثرها تعقيداً ، وأعظمها افتقاراً إلى قوانين خاصة بها ، وإلى مربين مختصين فيها ، لأن حاجات الروح ومتطلباتها

ليست ظاهرة كحاجات الجسد ولا ميسورة كحاجات العقل . إن الروح من أمر الله ﴿ و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ [1] ، وما كان من أمر الله ، فما مدى تأثير الإنسان فيه ، أو تأثيره عليه .

إن للأرواح فى تربيتها قوانين ضابطة ، وسننا ثابتة ، كما هى فى الأجسام وسائر الحيوانات ، ومع خفاء الروح ، وعدم ظهوره فإن المقارنة بينه وبين الجسم ممكنة ، وإجراؤها كالتالى : فالجسم يطرأ عليه المرض بسبب المؤثرات الخارجية فيعتل ، ويداوى بالمناسب من الأدوية فيبرأ ويشفى بإذن الله تعالى ، والروح يطرأ عليه المرض كذلك بسبب المؤثرات الخارجية فيداوى بالمناسب من الأدوية الروحية التى هى العبادات الشرعية فيبرأ ويشفى بإذن الله تعالى .

الجسم إذا مرض تظهر عليه أعراض المرض من صفرة الوجه وشحوبته ، وضعف الجسم وهزاله ، فيعجز عن التفكير والقول ، والحركة والعمل .

والروح إذا مرض تظهر عليه كذلك أعراض مرضه ، كالسرقة والخيانة ، والكذب والنفاق ، وتعاطى المخدرات ، وارتكاب كبائر الإثم والفواحش .

والجسم يتلوث بالأوساخ والأدران فيغسل بالماء والصابون وأدوات التنظيف فيطهر وينظف ، والروح كذلك يتلوث بأوضار الذنوب والمعاصى كبيرها وصغيرها ، فيتطهر بالتوبة التى هى الإقلاع عن الذنب ، والاستغفار والندم ، وفعل الصالحات فيعود إليه صفاؤه وطهره ، ويظهر عليه ذلك كالجسم سواء بسواء .

وانطلاقاً من هذا المبدأ كان المصلحون ومازالوا يطالبون المسئولين فى أمة الإسلام بأن يعنوا بأرواح المواطنين كما يعنون بأجسامهم فإذا كانوا ينشئون المشافى ويزودونها بالمختصين من الأطباء ، وبأحسن الأدوية وأنجعها فإن عليهم أن ينشئوا كذلك المساجد ويزودوها بالعلماء الربانيين ، وبالكتب الشرعية القيمة النافعة ، وذلك فى كل قرية وحى من المدينة حفاظاً على أرواح المواطنين حتى لا تفتك بها الأمراض فتودى بحياتهم وتهلك !!!

إنهم لعنايتهم بأجساد مواطنيهم يعلنون من الوقت إلى الوقت عن أسبوع النظافة

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

فيعبئون له الجهود الكبيرة ، والطاقات العديدة فيزيلون من المدن والقرى كل أثر للوسخ ، وكل مظهر غير لائق بجمال المدينة أو القرية كما يقولون ، كل ذلك للحفاظ على راحة المواطنين وسلامة أجسامهم .

ولم يشاءوا يوماً أن يقيموا أسبوعاً للنظافة الروحية ، ويعلنوا عنه ، ويحددوا موعده ، ويسخروا له الإذاعة والتلفاز ، والصحافة والخطباء ، والوعاظ ، والعلماء فيجمعوا النساء والرجال فى المساجد ، والأحواش ، والأحياء فى حملة قوية يكافحون فيها الأمراض الروحية من السفور والفجور ، والكذب والخيانة ، والشرك ومظاهره ، والمعاصى للّه والرسول ﷺ وآثارها ، مهيبين بكل المواطنين أن أن يستقيموا على منهاج الإسلام فى عقائدهم وعبادتهم ومعاملاتهم وآدابهم وأخلاقهم فيقيموا الصلاة ، ويجتنبوا كل ما حرم اللّه .

إن أسبوعاً يقام فى السنة من هذا النوع يحفظ للمواطنين أرواحهم سنوات عدة من التلوث والأمراض الفتاكة التى تردى وتهلك الفرد والجماعة فى الدنيا والآخرة .

إن من الخطأ ــ أيها الإخوة والأبناء ــ أن تكرس الجهود للعناية بالأجسام وتهمل الأرواح فلا يلتفت إليها ، ولا تعطى أدنى قسط مما تحتاج إليه من العلاج والدواء ، إن الإنسان كما هو جسم هو أيضاً روح ، وأن الجانب الروحى فيه هو الأصل ، وهو الذى يخلد سعيداً أو شقياً ، أما الجسم فإن مآله الفناء والتلاشى والاضمحلال ، شأنه شأن هذه المادة التى مصيرها الفناء والزوال .

فهلا يعى هذا ويفهمه المسؤولون عن المسلمين من أمراء وعلماء فى ديار الإسلام !!

وبعد : فهذه كلمة عامة قدمتها بين يدى حديثى عن التربية فى الإسلام لأقول : إن التربية فى الإسلام لها مكانة خاصة بين شرائعه وأحكامه حتى أنها لتنزل فى الذروة من ذلك فلا يعلوها شىء ، وإن قال أمرؤ : إن ذروة سنام الإسلام الجهاد ، فأين مكان التربية إذا ؟ قلنا : إن الجهاد فى الإسلام نوع من التربية الروحية والبدنية معاً ، بل هو أحد طرقها النافعة ذات الأثر الكبير على الأرواح تهذيباً وتزكية وإصلاحاً .

وما هذا الهبوط الذى أصاب غالب المسلمين اليوم فى العقائد والأخلاق والسلوك الخاص والعام الفردى والجماعى إلا نتيجة طبيعية لترك المسلمين هذا النوع من التربية ، ألا وهو التربية بالجهاد فى سبيل اللّه تعالى .

إنى لا أشك أبداً فى أن هذا التكالب على الدنيا ، وهذا الإقبال على سفاسف الأمور ، وهذا الانغماس فى الرذائل والشهوات بهذه الصورة المفزعة بين المسلمين اليوم وقبل اليوم ، ومنذ أن وضع علم الجهاد فى سبيل اللّه تعالى لم تكن إلا نتيجة حتمية لترك فريضة الجهاد التى هى أحد فرائض الإسلام وواجباته الضرورية ، من أجل أن يكون الدين كله للّه .

هذا ـ أيها الإخوة والأبناء ـ وإن التربية فى الإسلام للتتناول من الفرد المسلم بدنه ، وعقله ، وخلقه ، وروحه ـ وهى أربعة جوانب تكون وحدتين الأولى الجسم والعقل ، والثانية الخلق والروح ، وبين جزئى كل وحدة ارتباط وثيق ، فالعقل لا يكمل بدون كمال الجسم ، ولا ينمو إلا بنمائه فكلما تقدمت سن الطفل تقدم نماء العقل كذلك حتى ينضج العقل مع بلوغ الجسم كماله ، وإذا عاد الجسم بسبب الكبر إلى الضعف عاد العقل كذلك إلى الضعف حتى الخرف (١) ، وهو الرجوع إلى أرذل العمر ، الذى استعاذ منه الرسول ﷺ فقال : (اللهم إنى أعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر) ، والمقصود من هذا أن بين العقل والجسم ارتباطاً واضحاً ، كما أن بين الخلق والروح وهى الوحدة الثانية ارتباطاً وثيقاً ، بيد أنه يخفى على كثير من الناس ، ووجهه : أن الخلق عرض من أعراض الروح فإذا كان الروح سليماً كان الخلق سليماً ، وإذا كان الروح مريضاً كانت الأخلاق كذلك ، فالخلق مرآة تنعكس عليها صورة الروح البشرى ، وتجلى فيها ، وبهذا كان الارتباط بين الروح والخلق كاملاً ووثيقاً أيضاً .

ومن هنا كانت التربية فى الإسلام تتناول الجوانب الأربعة فى المسلم كوحدة واحدة متكاملة لا يسمح بتجزئتها وتفكيكها ، إذ من مجموعها يتكون الفرد المسلم المتأهل للخلافة فى ملكوت الأرض ، والخلد بعد الموت فى ملكوت السماء .

والسؤال الآن ـ أيها الإخوة والأبناء ـ هو هل فى استطاعتنا التدليل على صحة ما قلناه وجزمنا به من أن التربية فى الإسلام تتناول من الفرد جسمه ، وعقله ، وخلقه ، وروحه ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نستمع إلى نصوص الكتاب والسنة وهى تثبت ذلك وتقرره ، ففى تربية الجسم تقول : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين** ﴾ (٢) وظاهر أن إرضاع الولد تربية لجسمه بما يغذى به من اللبن ، وبعد فطام الطفل واحتياجه إلى الطعام يتعين على الوالدين الإنفاق على ولدهما بما يحفظ جسمه حياً نامياً من طعام

---

(١) الخرف : فساد العقل من الكبر .

(٢) البقرة : ٢٣٣ .

وشراب ، وكساء إلى سن بلوغه ، وفى الحديث « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول » ، وفى القرآن الكريم : ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً** ﴾ (١) ، وهى نصوص قطعية فى وجوب تربية الوالدين لولدهما جسمانياً ، وبما أن الجسم والعقل بينهما ارتباط وثيق كما قدمنا ، إذ نماء العقل تابع لنماء الجسم ، فإن كل عناية بالجسم هى عناية بالعقل ، وأن تربية أحدهما هى تربية للآخر ، ومن هنا نجد أن الإسلام كما حرم كل ما يضر بالجسم من السموم وغيرها حرم كل ما يضر بالعقل كالخمر والمخدرات ، والشرك والسحر والخرافات ، وكل ما يفسد العقل أو يضله ، وما ذاك إلا للعناية بتربية العقل والمحافظة عليه بوصفه جانباً مهماً فى بناء الفرد المسلم الذى هو لبنة فى بناء المجتمع الإسلامى .

أما تربية الخلق فى الإسلام فإن حظها أوفر ، والعناية بها فى شريعة الإسلام أكبر .

وحسبنا شواهد على ذلك ثناء اللّه تعالى على رسوله بحسن خلقه فى قوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (٢) ، وأمره إياه بمحاسن الأخلاق بقوله : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (٣) ، وبقوله : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ (٤) ، وكما أن قوله تعالى فى بيان أهل الجنة : ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس واللّه يحب المحسنين** ﴾ (٥) . إشادة بالأخلاق الفاضلة وتكريم لها بل ودعوة إلى تربيتها ، هذا فى الكتاب ، أما فى السنة فحسبنا من ذلك قوله ﷺ : « البر حسن الخلق » و أن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة بل صرح الرسول ﷺ فى هذا الباب بما هو أعظم مما ذكرناه إذا قال : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق أو مكارمها » ، فجعل الغاية من بعثته عليه الصلاة والسلام إتمام مكارم الأخلاق ، هذا وبما أن بين الروح والخلق ارتباطاً قوياً كما أسلفنا فإن العناية بتربية الخلق هى نفسها العناية بتربية الروح ، وأن أى كمال فى الروح أو نقص فيه ينعكس على الخلق قطعاً ، يضاف إلى ذلك أن سائر الوظائف التعبدية المشروعة فى الإسلام ومن سائر العبادات والقربات كالصلاة ، والصدقة ، والصوم ، والحج ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان والجهاد ، ما شرعت إلا لتربية الروح البشرى وتزكيته وتطهيره ، إعداداً له للكمال الدنيوى والأخروى ، وتلك الغاية من التربية فى الإسلام .

---

(١) الإسراء : ٢٤ . (٢) القلم : ٤ . (٣) الأعراف : ١٩٩ .
(٤) فصلت : ٣٤ . (٥) آل عمران : ١٣٤ .

من هنا كانت التربية فى الإسلام واجباً ضرورياً يحرم إسقاطه ، ويعاقب على تركه فى الدنيا والآخرة ، إذ يسر الدين تربية الإنسان .

ليبلغ الكمال البشرى المهيأ له فى جسمه وعقله وخلقه وروحه ، ويلحظ هذا بوضوح فى كون عناصر الدين التى يتكون منها هى العقيدة والعبادة ، والخلق و المعاملة ، فالقيام بهذه المبادىء الأربعة يتيح للإنسان أكبر فرصة لتربية جسمه وعقله وخلقه وروحه ، وما زكى من زكى من المسلمين ، ولا كمل من كمل منهم إلا بالأخذ بهذه المبادىء الإسلامية وتطبيقها على الوجه المطلوب ، ولا أحسب أن أحداً من المسلمين الواعين ينكر هذا أو يجهله ، وليس أدل على ما قررناه من قوله تعالى : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ (١) ، فما التزكية المذكورة فى الخطاب إلا التربية الروحية والخلقية ، كما أن تعليم الكتاب والحكمة ما هو إلا تربية عقلية ، إذ الروح يزكو بالعبادات وبمكارم الأخلاق ، والخلق يفضل ويشرف بانعكاس أنوار القلب عليه ، تلك الأنوار القلبية الحاصلة من أداء العبادات واستعمال مكارم الأخلاق ، كما أن تعلم الكتاب والسنة أى الحكمة سبيل قويم ، وطريق تربوى عظيم فى إصلاح العقول والأجسام وتنميتها وتكميلها ، إذ من المعترف به لدى كل العالمين أن العقول تروض على أنواع المعارف وفنون العلوم النافعة حتى تبلغ الكمال فى ذلك ، كما أن رياضة الأجسام وتربيتها لتنمو وتصلح وتكمل لاتتم إلا على طريق العلم والمعرفة .

إن مبادىء علم الصحة وأولياتها بل ونهاياتها جاءت كلها فى بعض آية واحدة من كتاب الإسلام القرآن الكريم .

وفى خبر واحد من سنة نبى الإسلام محمد ﷺ فالآية هى قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ (٢) ، والخبر هو قوله ﷺ فمن جامع الترمذى : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

والمقصود من هذا ـ أيها الإخوة والأبناء ـ إن التربية فى الإسلام واجبة ، وأن كمال الإنسان وإسعاده متوقفان على التربية ، وأن الإسلام قد وضع للتربية من الأسس والقواعد مالا يحتاج المرء المسلم معه إلى غيره أبداً ، وعلى سبيل المثال نذكر قول الرسول ﷺ :

---

(١) الجمعة : ٢ . (٢) الأعراف : ٣١ .

« مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » ، وقول عمر رضى الله عنه : لاعب ابنك سبعاً ، وأدبه سبعاً ، وصاحبه سبعاً ، وقوله : من حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والقراءة والسباحة والرماية ، وأن لا يرزقه إلا حلالاً طيباً . كما نذكر قول الله تعالى من سورة لقمان : ﴿ **يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ (١) ، ونذكر بآيات الحكمة من سورة الإسراء من قوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ (٢) إلى قوله : ﴿ **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾ (٣) . لنذلل على صحة ما قلناه من أن الإسلام قد وضع منهجاً متكاملاً للتربية الكاملة التى تشمل الأجسام والعقول والأخلاق والأرواح ، بما لم يوجد له نظير فى الأديان السابقة ولا فى الأنظمة البشرية الحاضرة .

وإذا كان الإسلام قد أوجب التربية على المسلمين ووضع لها مناهجها فإنه لم يغفل جانب المربين ، فقد عنى أكبر عناية برجال التربية فحث على احترامهم وحض على تقديرهم ، وأوجب طاعتهم ، وفرض محبتهم ، وشاهد ذلك ما فرض الله تعالى على المسلم من الإيمان بالنبى ﷺ ، ومحبته وطاعته ، إذ هو أول المربين فى هذه الأمة وأكملهم على الإطلاق ، ولا يكمل أحد ولا يسعد أبداً إلا على الإيمان به ومحبته وطاعته .

والآن ــ أيها الإخوة والأبناء ــ وقد عرفنا أن الإسلام أوجب التربية ووضع لها منهجها الكامل ، كما عرفنا من قبل أن سعادة المسلم وكماله متوقفان على تربيته ، فما نصيب المسلمين اليوم من هذه التربية ؟ إنه لا شىء يذكر ، وإن بحثنا عن سر هذا الحرمان الذى أصبحت أمة الإسلام معه كما قال القائل :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهورها محمول

وجدناه يتمثل بحق فى انعدام رجال التربية الأكفاء الصالحين بين المسلمين .

إن الحلقة المفقودة فى حياة المسلمين اليوم هى انعدام المربين القادرين فيها ، مع أن وجودهم ضرورى لكمال الأمة وسعادتها ، ولا أخالكم تعللون التدهور الأخلاقى ، والعقلى والروحى ، الذى حل بأمة الإسلام ، وأصبح ظاهرة واضحة فى حياتها ، إلا بعلة فقدها المربين منذ زمن طويل ، ومما يزيد فى المحنة ويضاعف الألم أن الأمة الإسلامية

---

(١) لقمان : ١٧ ــ ١٩ .   (٢) الإسراء : ٢٣ .   (٣) الإسراء : ٣٩ .

لطول ما فقدت التربية الصحيحة قد فقدت أيضاً الاستعداد النفسى لقبول التربية كذلك ، إنه لا فائدة من وجود الدواء والأطباء إذا كان المريض يرفض التداوى ويأباه .

ومن هنا كان الخطر جسيماً ، وكان إنقاذ المسلمين مما هم فيه من فساد فى كل جوانب الحياة الإسلامية صعباً شديد الصعوبة ، غير أن اليأس يجب أن لا يسمح له بأن يصل إلى القلوب ، وعلى المفكرين أن يبحثوا عن طريق يسلكونه لوجود المربين ، ولتهيئة الأمة لقبول التربية .

وأن الخطوات الأولى فى ذلك هى إيجاد شعور بين المسلمين بالحاجة إلى التربية الإسلامية ، فإذا وجد هذا الشعور قوياً وعاماً بين كل أفراد المسلمين أمكن أمة الإسلام أن تبحث عن المربين الصالحين ، وأن تضع نفسها بين أيديهم ليربوها حتى تبلغ الكمال المنشود لها ، والمتطلعة هى إليه .

وذلك من صفاء الروح ، ووافر الكرامة ، وعظيم القوة ، وقيادة البشر وهدايتهم .

ولعل خير من يقوم بإيجاد هذا الشعور فى الأمة وتعميمه بين سائر أفرادها وفى كل بلادها هم طلبة العلم من علماء منتهين ، ومتعلمين مبتدئين ، وأولى من يسبق إلى هذا الميدان ويرمى بجواد عزمه فيه هم علماء الجامعة الإسلامية بهذه المدينة النبوية وطلابها ، وهم يمثلون الأمة الإسلامية جمعاء والعالم الإسلامى أجمع .

وأخيراً ـ أيها الإخوة والأبناء ـ وبعد تقرير هذه الحقيقة المرة وهى عدم وجود مربين لأمة الإسلام فى هذه الأيام ، وعدم وجود الاستعداد الكافى فى الأمة لقبول التربية الإسلامية وهى حقيقة جد مؤلمة ، فإنى كعادتى لا أبخل على أمة الإسلام بآرائى وإن كانت ضعيفة ، ولا أضن عليها بجهودى وإن كانت ضئيلة خفيفة ، فأتقدم واضعاً بين يديها طريقتين لتربيتها جماعية ، وفردية فلتختر أيهما ترى أجدى لها وأنفع .

فالجماعة هى : أن يتعاون أهل كل حى من أحياء المدن ، وأهل كل قرية من القرى ، على إنشاء مسجد جامع كبير يتسع لكل أفراد الحى أو القرية ثم يطلبون له عالماً بالكتاب والسنة ، ومقتدياً بسلف الأمة ، ويسندون إليه أمر تعليمهم وتربيتهم عقولاً وأخلاقاً وأرواحاً ، ويعاهدونه على السمع له والطاعة ، كى يمكنوه من صلاحهم وتربيتهم ، وعليهم أن يفوا له بذلك وفاء تاماً غير منقوص . فيجتمعون له فى مسجدهم الجامع كل يوم بين العشائين لا يتخلف منهم أحد إلا لعذر سفر أو مرض أو خوف . فيعلمهم الكتاب

والسنة ويزكيهم بالآداب والأخلاق الإسلامية ، وهكذا يستمر فى تعليمهم وتربيتهم يتدرج بهم حتى يتعلموا ويكملوا فى عقولهم وأخلاقهم ويسموا بأرواحهم ، وحتى يعمهم الطهر والصفاء ، وتظهر قوتهم وترتفع كرامتهم وتعود إليهم سيادتهم وقيادتهم .

وهذه الطريقة هى عين الطريقة النبوية التى سلكها رسول الله ﷺ بأصحابه مدة حياته ، وفى أيام الاضطهاد بمكة اتخذ فداه أبى وأمى ونفسى دار الأرقم بن أبى الأرقم مجلساً له ولأصحابه يعلمهم ما يوحى إليه من الكتاب ويربيهم على الفضائل والكمالات النفسية وهذا معنى التزكية في قوله تعالى : ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم** ﴾ (١) ، ولما انتقل إلى المدينة مهاجراً نزل بجنوبها فى ديار بنى عمرو بن عوف من قباء فكان أول عمل قام به للإصلاح بناء قباء ، فجمع المؤمنين من أهل ذلك الحى فيه وأخذ يعلمهم ويربيهم ، ولما دخل المدينة ونزل بها كان أول عمل قام به أيضاً بناء مسجده الذى شارك فى بنائه بالتخطيط له ، والعمل اليدوى فيه ، لقد كان ينقل الحجارة بيديه الكريمتين الشريفتين ويقول : (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة) ، ولما تم بناؤه فى بضعة أيام جمع فيه المؤمنين من الأنصار والمهاجرين يصلى بهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وما هى إلا شهور ولا أقول أعوام وإذا رجال ونساء يتخرجون فى المسجد من خير رجال ونساء العالم إيماناً وتقوى وعلماً وحكمة ، سياسة وكياسة . فى القضاء هم أعدل أهله ، وفى الحرب هم أبطالها ، وفى السياسة أولئك دهاقنتها ، وفى الآداب والأخلاق والكمالات النفسية أنهم مضرب أمثالها .

وعنه فداه أبى وأمى ونفسى أخذ هذه الطريقة التربوية الرشيدة الحكيمة أصحابه رضوان الله عليهم فكانوا نماذج كمال فى التربية البشرية فربوا الأمم والشعوب التى فتحوا بلادها ونزلوا ديارها فى الشرق والغرب ، فتخرج فى المساجد الجامعة رجال ونساء لا يحصون كثرة ـ كانوا أمثلة حية للكمال البشرى بين الناس ، فازدهرت بهم الحياة ، وشرفت بهم البشرية ورأت الدنيا فى أيامهم من الطهر والصفاء والكرامة والعزة القعساء ، ما لم تره فى عمرها الطويل على تداول دولها ، واختلاف أجيالها ، ولما مات أولئك المربون أقفرت الحياة وأصابها الظلام ، وحل بها الخراب والدمار ، فبكائي على أولئك الماضين ، ونحيبى على أولئك السالفين !!!

هذا ـ أيها الإخوة والأبناء ـ وإنى لعلى يقين كامل أنه ما من مجموعة من المسلمين

(١) البقرة : ١٢٩ .

فى أى دار من ديار المسلمين تؤمن بالله صادق الإيمان ، وتتوكل عليه حق التكلان ، وتسلك هذا السبيل الذى وضحت فى تعليمها وتربيتها ، فتبنى المسجد الجامع ، وتطلب له المربى العليم الحكيم المهتدى بهدى سلف الأمة الصالحين ، وتعهد إليه بتربية نفسها وتعليمها ، وتعاهده على ذلك وتسمع له وتطيع ، إلا حصل لها من الخير والكمال فى كل مجالات حياتها ما حصل نظيره للسالفين الأولين من صدر هذه الأمة الصالح .

ورحم الله إمام دار الهجرة مالك بن أنس إذ قال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

كانت تلك الطريقة التربوية الجماعية أيها الإخوة والأبناء ، أما الطريقة التربوية الفردية ، فإنها وإن كانت نافعة بإذن الله محققة للكمال الروحى للفرد المسلم غير أنى أرى أنه لا يصار إليها إلا عند تعذر وجود الطريقة الجماعية التى أسلفنا ذكرها وذلك لعموم نفع تلك ، وخصوص نفع هذه ، وتقديم النفع على الخاص مذهب العقلاء فى هذه الحياة .

والطريقة هى : أن الفرد المسلم المريد تزكية نفسه وتكميلها لتكون أهلاً للكرامة والسعادة فى الدنيا والآخرة ، إما أن يكون ذا علم بالكتاب والسنة وسيرة الرسول ﷺ ، وسلف هذه الأمة الصالح ، وإما أن يكون أمياً لا علم له بذلك ، فإن كان الأول وهو العالم بالكتاب والسنة وسيرة صالحى هذه الأمة فإن عليه أن يخطو فى تربية نفسه الخطوتين التاليتين :

الأولى : أن يلزم نفسه وإن كانت كارهة بالقيام بالفرائض الدينية والنهوض بالواجبات الشرعية ، كما يلزمها فوراً بترك كل منهى لله ورسوله ، وسواء فى ذلك ما يتعلق بالقلب ، أو الجوارح ، وليأخذها فى الفعل والترك بالقوة والحزم ، حتى يحصل لها ملكة التقوى فى بضعة أيام . ثم يأخذ فى رياضتها على فعل نوافل العبادات المختلفة من صلاة وصيام وصدقة وغيرها ، وعلى التحلى بمكارم الأخلاق والتجمل برفيع الآداب ، يوالى ذلك لها ويواصله معها ، وهى تترقى فى درج الطهر والكمال إلى أن تبلغ الكمال المنشود لها فتتأهل لولاية الله تعالى وكرامته ، وهى الغاية المطلوبة من التربية الإسلامية .

والخطوة الثانية : هى أن على هذا الفرد المسلم المريد لتربية نفسه أن يبحث على عبد صالح عالم بالكتاب والسنة وسيرة سلف هذه الأمة ، بصير بعيوب النفس ، خبير بأحوالها ، وإن قل عنه درجة فى العلم والحال ويطلب منه بحكم الأخوة الإسلامية نصرته على نفسه ، وإعانته على تربيتها ، وتصفيتها ، ويتعهد له بالطاعة الكاملة والمتابعة التامة فى كل

ما يأمره به ، ويرشده إليه ، والصبر على ذلك كما فعل موسى بنى إسرائيل عليه السلام مع عبد الله الخضر عليه السلام إذا قال موسى عليه السلام للخضر : ﴿ **هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا** ﴾ ؟(١) . فقال له الخضر : ﴿ **إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ (٢) ، رد موسى قائلاً : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً** ﴾ (٣) . فلننظر كيف طلب موسى العلم والتربية مع كماله فى ذلك .

وكيف تلطف فى عرض نفسه على المربى : ﴿ **هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً** ﴾ ؟(٤) .

وكيف التزم بالطاعة فى كل أمر يأمره به مربيه ، وإن كان شاقاً على النفس غير محبوب لها ، ولا مرغوب .

وكيف تعهد له بالصبر على تقبل ما تقتضيه التربية من خفض المربى ورفع مربيه عليه ، ومن الحرمان الكثير من متطلبات النفس ومبتغياتها ، أثناء التربية والتعليم .

ولا بأس أن يكتب هذا المريد بمراده عهداً يقول فيه : بعد الديباجة يا أخى إنى أردت أن أستعين بالله ربى ، ثم بك على تربية نفسى وتهذيب خلقى ، وتكميل عقلى . فها أنذا بين يديك ، حالى مكشوفة لديك ، أسألك بالله ربى وربك ما رأيت فى نقصاً إلا أمرتني بإكماله ، ومنعتنى من إهماله ، ولا أبصرت بى عيباً إلا بصرتنى به ، وساعدتنى على إصلاحه ، لقد عاهدتك على طاعتك وعدم معصيتك (فخذ بيدى أخذ الله بيدك ، واحتسب أجرك على الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا الملزم به نفسه فلان . .) ؟

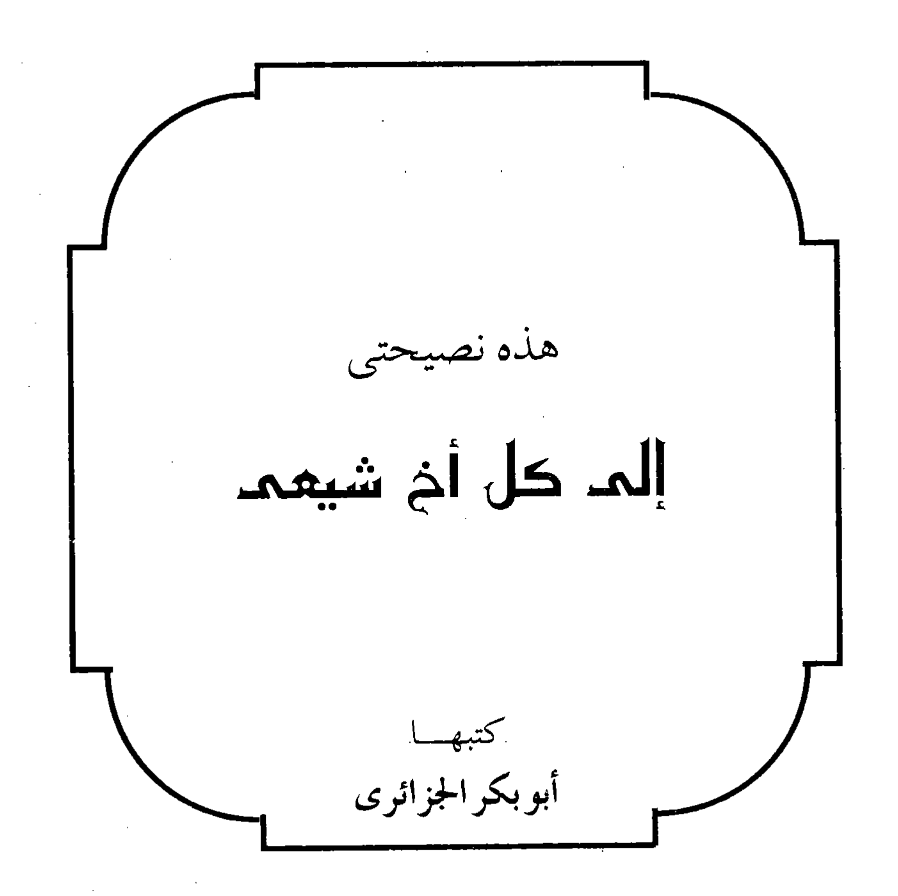
وأخيراً أيها الإخوة والأبناء ــ لقد حاضرتكم ، وقلت كلمتى بينكم . فهل من أثر ــ وإن قل تركته فيكم ، إن كان فذاك غاية مرادى ، وإن لم يكن فحسبى أنى محصت النصح ، وأخلصت القول بيد أن كلمتى على قلة بيانها ، وكثرة إيجازها واختصارها لا أحسبها قصرت دون الوصول إلى قلوب الأبناء ولا أظنها نبت على أذهان أكثر الأحباء ، فلذا فإن أثرها بإذن الله مأمول الحصول وأجرها بمن الله تعالى مرجو الوصول .

وأشكركم إخوانى وأبنائى على استماعكم وحسن إصغائكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بالجامعة الإسلامية .

(١ ــ ٤) الكهف : ٦٦ ــ ٦٩ .


هذه نصيحتي

إلى كل أخ شيعي

كتبها

أبو بكر الجزائري

الإهداء

إلى كل أخ شيعى

حر الضمير ، والفكر ، محب للحق والخير يرغب فى العلم والمعرفة .

أهدى هذه الكلمة القصيرة ، ولا آمل منه أكثر من أن يقرأها معتقدا أنى قدمت له فيها نصيحة كما اعتقدت أنا ذلك .

والســـلام

الجزائرى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وآله وصحبه .

وبعد : فإني كنت ــ والحق يقال ــ لا أعرف عن إخواننا شيعة آل البيت إلا أنهم جماعة من المسلمين يغالون فى حب آل البيت ، وينتصرون لهم : وأنهم يخالفون أهل السنة فى بعض الفروع الشرعية بتأولات قريبة أو بعيدة ولذلك كنت امتعض كثيرا بل أتألم لتفسيق بعض الإخوان لهم ، ورميهم أحيانا بما يخرجهم من دائرة الإسلام ، غير أن الأمر لم يدم طويلا حتى أشار على أحد الإخوان بالنظر فى كتاب هذه الجماعة لاستخلاص الحكم الصحيح عليها ، ووقع الاختيار على كتاب (الكافى) وهو عمدة القوم فى إثبات مذهبهم وطالعته وخرجت منه بحقائق علمية جعلتنى أعذر من كان يخطئنى فى عطفى على القوم ، وينكر على ميلى إلى مد آرائهم رجاء زوال بعض الجفوة التى لا شك فى وجودها بين أهل السنة وهذه الفئة التى تنتسب إلى الإسلام بحق أو بباطل ، وها أنذا أورد تلك الحقائق المستخلصة من أهم كتاب تعتمد عليه الشيعة فى إثبات مذهبها ، وأنى لأهيب بكل أخ شيعى أن يتأمل هذه الحقائق بإخلاص وإنصاف ، وأن يصدر حكمه بعد ذلك على مذهبه ، وعلى نسبته إليه ، فإن كان الحكم قاضياً بصحة هذا المذهب ، وسلامة النسبة إليه أقام الأخ على مذهبه واستمر عليه ، وإن كان الحكم قاضيا ببطلان هذا المذهب وفساده ، وقبح النسبة إليه وجب على الأخ نصحا لنفسه وطلبا لمنجاتها أن يتركه ويتبرأ منه وليسعه ما وسع ملايين المسلمين كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

كما أنى أعيذ بالله تعالى كل أخ يتبين له الحق ثم يصر على الباطل جمودا وتقليدا أو عصبية شعوبية أو حفاظاً على منفعة دنيوية فيعيش غاشا لنفسه سالكا معها مسلك النفاق والخداع ، فتنة لأولاده وإخوانه ولأجيال تأتى من بعده يصرفهم عن الحق بباطله ويبعدهم عن السنة ببدعته ، وعن الإسلام الصحيح بمذهبه القبيح .

وهاك أيها الأخ الشيعى هذه الحقائق العلمية التى هى أصل مذهبك ، وقواعد نحلتك

كما وضعتها لك ولأجيال خلت من قبلك يد الإجرام الماكرة ، ونفوس الشر الفاجرة لتبعدك وقومك عن الإسلام باسم الإسلام وعن الحق باسم الحق ، :

ها كها يا أخ سبعا من الحقائق تضمنها كتاب (الكافى) الذى هو عمدة مذهبك ، ومصدر شيعتك ، فأجل فيها النظر ، واعمل فيها الفكر واسأل الله تعالى أن يريك فيها الحق كما هو الحق ، وأن يعينك على انتحاله ويقدرك على احتماله .

إنه لا إله إلا هو ، ولا قادر سواه .

الحقيقة الأولى

استغناء آل البيت وشيعتهم عن القرآن الكريم بما عند آل البيت من الكتب الإلهية الأولى التى هى التوراة والزبور والإنجيل

إن الذى يثبت هذه الحقيقة ويؤكدها ، ويلزمك أيها الأخ الشيعى بها هو ما جاء فى كتاب (السكانى) من قول المؤلف « باب » (١) أن الأئمة عليهم السلام عندهم جميع الكتب التى نزلت من الله عز وجل وأنهم يعرفونها كلها على اختلاف ألسنتها ، مستدلا على ذلك حديثين يرفعهما إلى أبى عبد الله وأنه كان يقرأ الإنجيل والتوراة والزبور بالسريانية.

وقصد المؤلف من وراء هذا معروف وهو : أن آل البيت وشيعتهم تبع لهم يمكنهم الاستغناء عن القرآن الكريم بما يعلمون من كتب الأولين .

وهذه خطوة عظيمة فى فصل الشيعة عن الإسلام والمسلمين ، إذ ما من شك فى أن من اعتقد الاستغناء عن القرآن الكريم بأى وجه من الوجوه فقد خرج من الإسلام ، وانسلخ من جماعة المسلمين ، أليس من الرغبة عن القرآن الذى يربط الأمة الإسلامية بعقائده ، وأحكامه ، وآدابه فيجعلها أمة واحدة أليس من الرغبة عنه دراسة الكتب المحرفة المنسوخة والعناية بها ، والعمل بما فيها ؟

وهل إلا رغبة عن القرآن لا تعد مروقا من الإسلام وكفرا ؟ وكيف تجوز قراءة تلك الكتب المنسوخة المحرفة والرسول ﷺ يرى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى يده ورقة من التوراة فينتهره قائلاً : « ألم ءاتيكم بها بيضاء نقية » ؟ !

إذا كان الرسول ﷺ ، لم يرض لعمر مجرد النظر فى تلك الورقة من التوراة فهل

---

(١) جـ ١ كتاب الحجة ص ٢٠٧ الكافى .

يعقل أن أحدا من آل البيت الطاهرين يجمع كل الكتب القديمة ويقبل عليها يدرسها بألسنتها المختلفة ، ولماذا الحاجة إليها أم لأمر ما يريده منها ؟

اللهم إنه لاذا ، ولا ذاك وإنما هو افتراء المبطلين على آل البيت بيت رسول رب العالمين من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين .

وأخيرا فإن الذى ينبغى أن يعرفه الأخ الشيعى هو أن اعتقاد الاستغناء عن القرآن الكريم الكتاب الذى حفظه الله فى صدور المسلمين وهو الآن بين أيديهم لم تنقص منه كلمة ، ولم تزد فيه أخرى ولا يمكن ذلك أبدا لأن الله تعالى تعهد بحفظة فى قوله : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (1) وهو كما نزل به جبريل الأمين على قلب سيد المرسلين ، وكما قرأه رسول الله ﷺ ، وقرأه عنه آلاف وقرأه من بعدهم من ملايين المسلمين متواتراً إلى يومنا هذا .

إن اعتقاد امرىء الاستغناء عنه أو عن بعضه بأى حال من الأحوال هو ردة عن الإسلام ومروق منه لا يبقيان لصاحبها نسبة إلى الإسلام ، ولا إلى المسلمين .

الحقيقة الثانية

اعتقاد أن القرآن الكريم لم يجمعه ولم يحفظه أحد من أصحاب النبى ﷺ ، إلا على والأئمة من آل البيت

هذا الاعتقاد أثبته صاحب كتاب (الكافى) جازما مستدلا عليه بقوله عن جابر قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : ما أدعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله إلا كذاب ، وما جمعه وحفظه كما نزل إلا على بن أبى طالب والأئمة من بعده .

والآن فاعلم أيها الأخ الشيعى هدانى الله وإياك لدينه الحق وصراطه المستقيم ، إن اعتقادا كهذا وهو عدم وجود من جمع القرآن وحفظه من المسلمين إلا الأئمة من آل البيت اعتقاد فاسد وباطل القصد منه عند واضعه هو تكفيرالمسلمين من غير آل البيت

---

(1) جـ 1 كتاب الحجة ص 28 الكافى .

(1) الحجر : 09 .

وشيعتهم ، وكفى بذلك فسادا وباطلا وشرا والعياذ بالله تعالى وإليك بيان ذلك :

١ ـ تكذيب كل من ادعى حفظ كتاب الله وجمعه فى صدره أو فى مصحفه كعثمان ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن مسعود وغيرهم من مئات أصحاب رسول الله ﷺ وتكذيبهم يقتضى فجورهم وإسقاط عدالتهم ، وهذا ما لا يقوله أهل البيت الطاهرون ، وإنما يقوله أعداء الإسلام وخصوم المسلمين للفتنة والتفريق .

٢ ـ ضلال عامة المسلمين ما عدا شيعة آل البيت ، وذلك أن من عمل ببعض القرآن دون البعض لا شك فى كفره وضلاله ، لأنه لم يعبد الله تعالى بكل ما شرع ، إذ من المحتمل أن يكون بعض القرآن الذى لم يحصل عليه المسلمون مشتملا على العقائد والعبادات والآداب والأحكام .

٣ ـ هذا الاعتقاد لازمه تكذيب الله تعالى فى قوله : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (١) وتكذيب الله تعالى كفر ، وأى كفر ؟

٤ ـ هل يجوز لأهل البيت أن يستأثروا بكتاب الله تعالى وحدهم دون المسلمين إلامن شاء وا من شيعتهم ، أليس هذا احتكارا لرحمة الله ، واغتصابا لها ينزه عنه آل البيت ، اللهم إنا لنعلم أن آل بيت رسولك براء من هذا الكذب ، فالعن اللهم من كذب عليهم وافترى .

٥ ـ لازم هذا الاعتقاد أن طائفة الشيعة هم وحدهم أهل الحق والقائمون عليه ، لأنهم هم الذين بأيديهم كتاب الله كاملا غير منقوص فهم يعبدون الله بكل ما شرع ، وأما من عداهم من المسلمين فهم ضالون لحرمانهم من كثير من كتاب الله تعالى ، وهدايته فيه ، يا أيها الأخ الشيعى إن مثل هذا الهراء ينزه عنه الرجل العاقل فضلا عمن ينسب إلى الإسلام والمسلمين ، وأنه ما مات رسول الله ﷺ ، حتى أكمل الله تعالى نزول كتابه ، وأتم بيانه ، وحفظه المسلمون فى صدورهم وسطورهم وانتشر فيهم وعمهم وحفظه الخاص والعام ، ولم يكن آل البيت فى شأن القرآن وجمعه وحفظه إلا كسائر المسلمين سواء بسواء ، فكيف يقال : إنه لم يجمع القرآن ولم يحفظه أحد إلا آل البيت ، ومن ادعى ذلك فهو كذاب ! !

أرأيت لو قيل لهذاالقائل : أرنا هذا القرآن الذى خص به آل البيت شيعتهم أرنا منه

---

(١) الحجر : ٠٩ .

سورة أو سور ، يتحداه فى ذلك ، فماذا يكون موقفه ؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .

الحقيقة الثالثة

استئثار آل البيت وشيعتهم دون المسلمين بآيات الأنبياء كالحجر والعصا

يشهد لهذه الحقيقة ويثبتها ما أورده صاحب الكافى بقوله : عن أبى بصير عن أبى جعفر عليه السلام قال : خرج أمير المؤمنين عليه السلام فى ليلة مظلمة وهو يقول : همهمة ، همهمة ، وليلة مظلمة خرج عليكم الإمام عليه قميص آدم ، وفى يده خاتم سليمان ، وعصا موسى .

وأورد أيضا قوله عن أبى حمزة عن أبى عبد الله [1] عليه السلام قال : سمعته يقول : ألواح موسى عندنا ، وعصا موسى عندنا ، ونحن ورثة النبيين .

وبعد : أيها الأخ الشيعى إن هذا المعتقد فى هذه الحقيقة بالذات يلزمك أمورا فى غاية الفساد والقبح ، لا يمكنك وأنت العاقل إلا أن تتبرأ منها ولا تعترف بها وهى :

١ ـ تكذيب على رضى الله عنه فى قوله : وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ آل البيت بشىء ؟ قال : لا إلا ما كان فى قراب سيفى هذا فأخرج صحيفة مكتوبا فيها أمور أربعة ، ذكرها أهل الحديث .

٢ ـ الكذب عليه رضى الله عنه ، بنسبة هذاالقول إليه .

٣ ـ الازدراء من نفس صاحب هذا المعتقد ، والدلالة القاطعة على تفاهة فهمه ، ونقصان عقله وعدم احترامه لنفسه ، إذ لو قيل له : أين الخاتم أو أين العصا ، أو أين الألواح مثلا لما حار جوابا ، ولما استطاع أين يأتى بشىء من ذلك وبه يتبين كذب القصة من أولها إلى آخرها ، وأوضح من ذلك : فإنه قد يقال : لو كان ما قيل حقا لم لا يستخدم آل البيت هذه الآيات كالعصا والخاتم فى تدمير أعدائهم والقضاء عليهم ، وهم تعرضوا لكثير من الأذى والشر من قبلهم .

---

(١) جـ ١ كتاب الحجة ص ٢٢٧ من الكافى .

٤ ـ إن الهدف من هذا الكذب المرذول هو إثبات هداية الشيعة وضلال من عداهم من المسلمين ، والقصد من وراء ذلك الإبقاء على المذهب الشيعي ذا كيان مستقل عن جسم الأمة الإسلامية ، ليتحقق لرؤساء الطائفة ، ولمن وراءهم من ذوى النيات الفاسدة والأطماع الخبيثة ما يريدونه من العيش على حساب هدم الإسلام وتمزيق شمل المسلمين ، وإذا كان هذا المعتقد يحقق مثل هذا الفساد والشر فبئس من معتقد هو ، وبئس من يعتقده أو يرضى به .

الحقيقة الرابعة

اعتقاد اختصاص آل البيت وشيعتهم بعلوم ومعارف نبوية والهيه دون سائر المسلمين .

ومستند هذه الحقيقة ما أورده [1] صاحب (الكافى) بقوله عن أبى بصير قال : دخلت على أبى عبد الله عليه السلام فقلت : جعلت فداك إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله ﷺ ، علم عليا عليه السلام ألف باب من العلم يفتح منه ألف باب قال : فقال : يا أبامحمد : علم رسول الله ﷺ ، عليا عليه السلام ألف باب يفتح له من كل باب ألف قال : قلت : هذا بذاك ، قال : ثم قال يا أبا محمد : وإن عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة، قال : قلت : جعلت فداك وما الجامعة ؟ قال : صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع النبى ﷺ ، وأملاه من فلق فيه وخط على بيمينه كل حلال وحرام ، وكل شىء يحتاج إليـه الناس حتى الأرش والخدش ، قال : قلت : هذا والله العلم ، قال : إنه لعلم وليس بذاك ، ثم نكث ساعة ثم قال : عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر ؟ قال : وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين ، وعلم العلماء الذين مضوا من بنى إسرائيل قال : قلت : إن هذا العلم قال : إنه العلم وليس بذاك ثم سكت ساعة ثم قال : وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام ومايدريهم ما مصحف فاطمة قال : قلت : وما مصحف فاطمة ؟ قال : مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاثة مرات ، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد قال : قلت : هذا والله العلم ، قال : إنه العلم وليس بذاك ثم سكت ساعة ثم قال : وإن عندنا علم ما كان

---

(١) جـ ١ كتاب الحجة ص ١٣٨ من الكافى .

وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة .

« انتهى بالحرف الواحد »

وبعد : إن النتيجة الحقيقية لهذا الاعتقاد الباطل لا يمكن أن تكون إلا كما يلي :

١ - الاستغناء عن كتاب الله تعالى وهو كفر صراح .

٢ - اختصاص آل البيت بعلوم ومعارف دون سائر المسلمين ، وهو خيانة صريحة تنسب إلى النبي ﷺ ، ونسبة الخيانة إليه ﷺ ، كفر لا شك فيه ولا جدال .

٣ - تكذيب علي رضي الله عنه في قوله الثابت الصحيح : لم يخصنا رسول الله آل البيت بشيء ، وكذب على علي كالكذب على غيره حرام لا يحل أبدا .

٤ - الكذب على رسول الله ﷺ ، وهو من أعظم الذنوب وأقبحها عند الله إذ قال عليه الصلاة والسلام : « إن كذبا علي ليس ككذب على أحدكم ،من كذب علي متعمدا فليلج النار » .

٥ - الكذب على فاطمة رضي الله عنها بأن لها مصحفا خاصا يعدل القرآن ثلاث مرات ، وليس فيه من القرآن حرف واحد .

٦ - صاحب هذا الاعتقاد لا يمكن أن يكون من المسلمين ، أو يعد من جماعتهم ، وهو يعيش على علوم ومعارف وهداية ليس للمسلمين منها شيء .

٧ - وأخيرا فهل مثل هذا الهراء ، الباطل والكذب السخيف تصح نسبته إلى الإسلام دين الله الذي لايقبل دينا غيره . ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ [١] .

وعليه فقل أيها الأخ الشيعي معي لننجوا معا من هذه الورطة الكبيرة :

اللهم إنا نبرأ إليك مما صنع هؤلاءالكاذبون عليك وعلى رسولك وآل بيته الطاهرين من أجل إضلال عبادك ، وإفساد دينك ، وتمزيق شمل أمة نبيك ورسولك محمد ﷺ .

---

(١) آل عمران : ٨٥ .

الحقيقة الخامسة

اعتقاد أن موسى الكاظم قد فدى الشيعة بنفسه

أورد صاحب الكافى هذه الحقيقة [1] بقوله : إن أبا الحسن موسى الكاظم (وهو الإمام السابع من أئمة الشيعة الاثنى عشرية) .

قال : الله عز وجل غضب على الشيعة فخيرنى نفسى ، أو هم . فوقيتهم بنفسى .

بعد ما فرضوا عليك الإيمان بها وتصديقها ؟ مدلولها حسب ألفاظها قطعا :

والآن أيها الأخ الشيعى فما هو مدلول هذه الحكاية التى ألزموك باعتقادها إن موسى الكاظم رحمه الله تعالى قد رضى بقتل نفسه فداء لأتباعه ، من أجل أن يغفر الله لهم ، ويدخلهم الجنة بغير حساب .

تأمل أيها الأخ الشيعى وفقنى الله وإياك لما يحبه ويرضاه من صالح المعتقد والقول والعمل ، تأمل هذه الفرية ولا أقول غير الفرية وذلك ، لمجانبتها الحق وبعدها كل البعد عن الواقع والصدق ، تأملها فإنك تجدها تلزم معتقدها بأمور عظيمة كل واحد منها لا ترضى أن ينسب إليك ، أو تنتسب أنت إليه ما دمت ترضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ورسولا ، وتلك الأمور هى :

١ ـ الكذب على الله عز وجل فى أنه أوحى إلى موسى الكاظم بأنه غضب على الشيعة ، وأنه خيره نفسه أو شيعته ، وأنه فداهم بنفسه ، فهذا والله لكذب عليه عز وجل ، وهو يقول : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾ [2] .

٢ ـ الكذب على موسى الكاظم رحمه الله وبهته بهذه الفرية التى هو منها والله لبراء .

٣ ـ اعتقاد نبوة موسى الكاظم رحمه الله ، وما هو والله بنبى ولا رسول ، فقول المفترى : إن الله أخبر موسى الكاظم بأنه غضبان على الشيعة ؟ وأنه يخيره بين نفسه وشيعته ، فاختار شيعته ورضى لنفسه بالقتل فداء لهم يدل دلالة واضحة بمنطوقه ومفهومه على نبوة موسى الكاظم .

---

(١) جـ ١ كتاب الحجة ص ٢٦٠ الكافى .

(٢) الأنعام : ٢١ . ومواضع أخرى .

مع العلم بأن المسلمين مجمعون على كفر من اعتقد نبوة أحد بعد النبى محمد ﷺ ، وذلك لتكذيبه بصريح قوله تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ (١) .

٤ ـ اتحاد الشيعة والنصارى فى عقيدة الصلب والفداء ، فكما أن النصارى يعتقدون أن عيسى فدى البشرية بنفسه ، إذ رضى بالصلب تكفيرا عن خطيئة البشرية وفداء لها من غضب الرب وعذابه ، فكذلك الشيعة يعتقدون بحكم هذه الحقيقة أن موسى الكاظم خيره ربه بين إهلاك شيعته ، أو قتل نفسه فرضى بالقتل وفدى الشيعة من غضب الرب وعذابه ، فالشيعة إذا والنصارى عقيدتهما واحدة ، والنصارى كفار بصريح كتاب الله عز وجل فهل يرضى الشيعى بالكفر بعد الإيمان .

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وأخيرا انقذ نفسك أيها الأخ الشيعى وتبرأمن هذه الخزعبيلات والأباطيل ، ودونك صراط الله وسبيل المؤمنين .

الحقيقة السادسة

اعتقاد أن أئمة الشيعة بمنزلة رسول الله ﷺ ، فى العصمة والوحى ، والطاعة وغيرها إلا فى أمر النساء فلا يحل لهم ما يحل له ﷺ .

هذا المعتقد الذى يجعل أئمة الشيعة بمنزلة رسول الله ﷺ أثبته صاحب (الكافى) بروايتين .

أولهما أنه قال : قال كان المفضل عند أبى عبد الله فقال له : جعلت (٢) فداك أيفرض اللّه طاعة عبد على العباد ويحجب عنه خبر السماء ؟ فقال له أبو عبد الله (الإمام) : لا ، الله أكرم وأرحم وأرأف من أن يفرض طاعة عبد على العباد ثم يحجب عنه خبر السماء صباحا ومساء .

فهذه الرواية تثبت بمنطوقها أن أئمة الشيعة قد فرض الله طاعتهم على الناس مطلقا ،

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

(٢) جـ ١ كتاب الحجة ٢٢٩ الكافى .

كما فرض طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنهم (أئمة الشيعة) يوحى إليهم ، ويتلقون خبر السماء صباحا مساء ، وهم بذلك أنبياء مرسلون أو كالأنبياء المرسلين سواء بسواء .

واعتقاد نبى يوحى إليه بعد النبى محمد ﷺ ، ردة فى الإسلام وكفر بإجماع المسلمين ، فسبحان الله كيف يرضى الشيعى المغرور بعقيدة تفترى له افتراء ، ويلزم اعتقادها ليعيش بعيدا عن الإسلام كافرا من حيث أنه ما اعتقد هذا الباطل إلا من أجل الإيمان والإسلام ليفوز بهما ويكون من أهلهما .

اللهم اقطع يد الإجرام الأولى التى قطعت هؤلاء الناس عنك ، وأضلتهم عن سبيلك .

وثانيتهما قال : عن محمد بن سالم قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : الأئمة [1] بمنزلة رسول الله ﷺ ، إلا أنهم ليسوا بأنبياء ، ولا يحل لهم من النساء ما يحل للنبى فأما ماخلا ذلك فهم بمنزلة رسول الله ﷺ .

هذه الرواية فإنها وإن كان فى ظاهرها بعض التناقض فإنها كسابقتها تقرر عصمة الأئمة ووجوب طاعتهم ، وأنهم يوحى إليهم ، لأن عبارة الأئمة بمنزلة الرسول إلا فى موضوع النساء صريحة فى أنهم يوحى إليهم وأنهم معصومون وأن طاعتهم واجبة ، وأن لهم جميع الكمالات والخصائص التى هى للنبى ﷺ .

والقصد الصحيح من وراء هذا الاختلاف والكذب الملفق ـ أيها الأخ الشيعى ـ هو دائماً فصل أمة الشيعة عن الإسلام والمسلمين للقضاء على الإسلام والمسلمين ، بحجة أن أمة الشيعة فى غنى عما عند المسلمين من وحى الكتاب الكريم ، وهداية السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم وذلك بما لديها من مصحف فاطمة الذى يفوق القرآن الكريم ، والجفر والجامعة ، وعلوم النبيين السابقين ووحى الأئمة المعصومين الذين هم بمنزلة الرسل إلا فى مسألة نكاح من أربع نسوة ، وما إلى ذلك مما سلخ أمة الشيعة المعتقدة لهذا الاعتقاد من الإسلام وسلها من المسلمين انسلال الشعرة من العجين .

ألا قاتل الله روح الشر التى اقتطعت قطعة عزيزة من جسم أمة الإسلام ، باسم الإسلام ، وأبعدت خلقا كثيرا عن طريق آل البيت باسم نصرة آل البيت .

---

(١) جـ ١ كتاب الحجة ص ٢٧٠ الكافى .

الحقيقة السابعة

اعتقاد ردة وكفر أصحاب رسول الله ﷺ ، بعد وفاته ما عدا آل البيت ونفرا قليلا كسلمان ، وعمار ، وبلال

هذا المعتقد يكاد يجمع عليه رؤساء الشيعة من فقهائهم وعلمائهم وبذلك تنطق تآليفهم وتصرح كتبهم ، وما ترك الإعلان به أحد منهم غالبا إلا من باب التقية الواجبة عندهم .

وتدليلا على هذه الحقيقة وتوكيدا لها نورد النصوص الآتية :

جاء في كتاب روضة الكافي للكليني صاحب كتاب الكافي صفحة ٢٠٢ قوله : عن حنان جاء عن أبيه عن أبي جعفر قال : ارتد الناس بعد النبي ﷺ ، إلا ثلاثة هم المقداد ، وسلمان ، وأبو ذر ، كما جاء في تفسير الصافي والذي هو من أشهر وأجل تفاسير الشيعة وأكثرها اعتبارا روايات كثيرة تؤكد هذا المعتقد وهو أن أصحاب رسول الله قد ارتدوا بعد وفاته إلا آل البيت ونفرا قليلا كسلمان ، وعمار ، وبلال رضي الله تعالى عنهم .

أما بخاصة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ففي كتب القوم نصوص لا تحصى كثرة في تكفير الشيعة لهم ، ومن ذلك ما جاء في كتاب الكليني صفحة ٢٠ حيث قال : سألت أبا جعفر عن الشيخين فقال : فأوفا الدنيا ولم يتوبا ، ولم يتذكروا ما صنعا بأمير المؤمنين فعليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ! !

وأورد أيضا في صفحة ١٠٧ قوله : تسألني عن أبي بكر وعمر ؟ فلعمري لقد نافقا وردا على الله كلامه وهزئا برسوله وهما الكافران عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وبعد : أيها الأخ الشيعي فهل المعقول الحكم بالكفر والردة على أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم حواريوه وأنصار دينه ، وحملة شريعته ـ رضي الله عنهم ـ في كتابه وبشرهم بجنته على لسان نبيه ﷺ ، حمى الله بهم الدين ، وأعز بهم المسلمين ، وخلد لهم ذكرى في العالمين ، وإلى يوم الدين ، فقل لي بربك أيها الأخ الشيعي : ألم يكن لهذا التفكير واللعن والبراء لأصحاب رسول الله ﷺ ، ومنهم هدف وغاية ؟ بلى أيها الأخ إن

هناك هدفا وأى هدف ، وغاية وأى غاية ، إن الهدف هو القضاء على الإسلام خصم اليهودية والمجوسية وعدو كل شرك ووثنية .

وإن الغاية هى إعادة دولة المجوس الكسروية بعد أن هدم الإسلام أركانها وقوض عروشها ومحا أثر وجودها وإلى الأبد إن شاء الله تعالى ، وهاك إشارة مغنية عن عبارة : ألم يقتل ثانى خليفة للمسلمين بيد غلام مجوسى ؟

ألم يحمل راية الفتنة ضد الخليفة عثمان فيذهب ضحيتها ، وتكون أول بذرة للشر والفتنة فى ديار المسلمين ، واليهودى عبد الله بن سبأ ؟ وفى هذه الرحم المشؤومة تخلق شيطان الشيعة وولد من ساعته يحمل راية بدعة (الولاية) (والإمامة) كسيفين مصلتين على رأس الإسلام والمسلمين .

وبالدعوة إلى الولاية كفر أصحاب رسول الله ﷺ ولعنوا ، وكفرو ولعن كل من يرضى عنهم أو يترضى عليهم من المسلمين .

وببدعة الإمامة حيكت المؤامرات ضد خلافة المسلمين وأثيرت الحروب الطاحنة بين المسلمين وسفكت دماء وهدم بناء وعاش الإسلام مفكك الأوصال ، مزعزع الأركان أعداؤه منه كأعدائه من غيره ، وخصومه من المنتسبين إليه ، كخصومه من الكافرين .

على هذا الأساس أيها الأخ الشيعى وضعت عقائد الشيعة وسن مذهبها فكان دينا مستقلا عن دين المسلمين ، له أصوله ومبادئه ، وكتابه وسنته ، وعلومه ومعارفه وقد تقدم فى هذه الرسالة مصداق ذلك وشاهده .

فارجع إليه وتأمله إن كنت فيه من الممترين ، ولولا القصد السيئ والغرض الخبيث لما كان للولاية من معنى يفرق المسلمين ، ويبذر بذرة الشر والفتنة والعداء فيهم .

إذ المسلمون أهل السنة والجماعة والذين هم وحدهم يطلق عليهم بحق كلمة المسلمين لا يوجد بينهم فرد واحد يكره آل بيت رسول الله فلماذا تمتاز طائفة الشيعة بوصف الولاية وتجعلها هدفا وغاية ، وتعادى من أجلها المسلمين بل وتكفرهم وتلعنهم كما سبق أن عرفت وقدمناه .

والإمامة أيضا أليس من السخرية والعبث أن يترك الإسلام للمسلمين أمر اختيار من يحكمهم بشريعة الإله ربهم ، وهدى نبيهم فيختارون من شاءوا ممن يرونه صالحا لإمامتهم وقيادتهم بحسب كفاءته ومؤهلاته فتقول جماعة الشيعة لا ، لا ، يجب أن يكون موصى

به ، منصوصا عليه ــ ومعصوما ويوحى إليه ، ومتى يجد المسلمون هذا الإمام ؟ أمن أجل هذا تنحاز الشيعة جانبا تلعن المسلمين وتعاديهم ؟ .

إذا أيها الأخ الشيعى إن عقيدة الولاية والإمامة لم تكن إلا وسيلة للتضليل والتغرير الغرض منها هدم الإسلام وتمزيق شمل المسلمين .

فهلا تربأ بنفسك فتعتقها من أسر هذه العقيدة الباطلة ، وتخلصها من هذا المذهب المظلم الهدام ! !

أيها الأخ اعلم إنك مسؤول عن نجاة نفسك ونجاة أسرتك فابدأ بإنقاذهما من عذاب الله ، واعلم أن ذلك لا يكون إلا بالإيمان الصحيح والعمل الصالح ، وأن الإيمان الصحيح كالعمل الصالح لا تجدهما إلا فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وإنك ــ وأنت محصور فى سجن المذهب الشيعى المظلم لا يمكنك أن تظفر بمعرفة الإيمان الصحيح ، ولا العمل الصالح إلا إذا فررت إلى ساحة أهل السنة والجماعة حيث كتاب الله خاليا من شوائب التأويل الباطل الذى تعمده المغرضون من دعاة الشيعة للإضلال والإفساد .

وتجد السنة النبوية الصحيحة خالية من الكذب والتشييع وبذلك يمكنك أن تفوز بالإيمان الصحيح والعقيدة الإسلامية السليمة ، وبالعمل الصالح الذى شرعه الله تعالى لعباده يزكى به أنفسهم ، ويعدهم به للفوز والفلاح .

فهاجر أيها الأخ الشيعى إلى رحاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فإنك تجد مراغما كثيرا وسعة .

واعلم أخيرا أنى لم أتقدم إليك بهذه النصيحة طمعا فيما عندك أو عند غيرك من بنى الناس أو خوفا منك أو من غيرك من البشر كلا والله ، وإنما هو الإخاء الإسلامى ، وواجب النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، هذا الذى حملنى أيها الأخ على أن أقدم إليك هذه النصيحة راجيا من الله تعالى أن يشرح صدرك لها ، وأن يهديك بها إلى ما فيه سعادتك فى دنياك وآخرتك .

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

المحاضرة الثالثة :

هؤلاء هم اليهود

فاعتبروا يا أولى الأبصار

تأليف

أبو بكر الجزائرى

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد :

فهذا موضوع دراسةٍ وافيةٍ لأمةٍ ملأت أحاديثُها أسماعَ الدنيا ، وغنّى بذكر أسلافها الوجود ، وفاخر بأمجاد أجدادها الكون زمناً غير قصير . طلعت على الدنيا طلوعَ الدرارى المضيئة فى آفاقها ، وأشرقت بها الحياة إشراقةَ الشمسِ فى سمائها . تلك هى الأمة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ **ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين** ﴾ (1) ذلك يوم كانت لله فأضفىَ عليها من إفضالهِ ما تسامت به على العالمين ، وذلك يوم كانت بالله فمَنَحَها من قُواه ما سادت به جميع العالمين . ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين** ﴾ (2) . هذا ... ويوم أصبحت هذه الأمة لغير الله هبطت من علياء سماء كراماتها ، ونزلت من سامق مَجْدٍ أثَّلَه آباؤها وأجدادها فهبطت إلى أرض الحياة الهابطة أفاعى سامّة ، وحيات ناهشة ، ثعانين تمتص الدماء وأراقط تشرَبُ الدمَّاء ، نزلت إلى دُنْيا الناس ، شياطينَ وسواس . فضجَّ الكون لهول آثامها ، وأقشعرّ أديمُ الحياة لِعظم جرائمها فلعنتها الأرض الطاهرة ، وسخطتها السماء الصافية . جزاهم الله ببغيهم ، وما ظلمهم ولكنّ كانوا هم الظالمين .

ويوم لم تكن بالله وَهنَ عَظْمُ قُواها ، وتقطّعت حبال العزم من يُمناها ويُسراها فسقطت بائِسةَ يائِسَةً تحوط بها المسكنةُ من كل جوانبها ، وتغشاها المذلّة من فوقها ومن تحتِ أرجلها ، ولا يزال ذلك حالهّا ما لم تمتد إليها يدُ الإسلام فتنقذها ، وذلك بالإيمان به ، والدخول بصِدْق فيه : ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ (3) . فحبل الله تعالى هو الإسلام ، وحبل الناس ما يُعقد لهم من ذمة ، وما يُعطونه من أمان . أمست تلك الأمة التى كانت تُناطح عزتُها الجوزاء ، وتُغطى مفاخرُ آبائها وأجدادها أديمَ الأرض والسماء .

---

(1) الجاثية : 16 .　(2) المائدة : 20 .　(3) آل عمران : 112 .

أمست أمةً مهينةً حقيرة ، وأضْحَتْ بعد صلاحها وهدايتها حرابى فى تَلَونُّها ، وسوام أبرص فى نفث سمومها ، وفيراناً فى إشعال نيران الفتن وإيقادها ، وجرذاناً خسيسةً خبيثة فى تخريب قواعد الحياة الفاضلة وتدميرها . وفى القرآن الكريم خبرُ العليم الحكيم : ﴿ **كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللّه ، ويسعون فى الأرض فساداً ، واللّه لا يحب المفسدين** ﴾ (١) . وصدق اللّه ، فإن تاريخ الحروب البشرية من لدن سقوط هذه الأمة لو استنطقناه لأجابنا بأن أصابع اليهود كانت وراء كل حرب منها تحُوكُ خيوطها وتجمع حَطَبَها ، وتُضرم نارها ، ولم نخطىء أبداً إذا ما قلنا : بأن حَرْبَ الأحزاب ضدَّ الرّسول ﷺ والمؤمنين وهى أكبر حرب تألّب فيها الكفر يومَها على الإيمان ، والشركُ على التوحيد ، ولولا أن اللّه سلم لحلت كارثةٌ بالمؤمنين ، وعاد ظلامُ ليلِ الحياةِ بعد طلوع فجرها . تلك الحرب كانت مِن صُنع اليهود وتخطيطهم ، كما أن فتنة عثمان رضى اللّه عنه كانت من تدبيرهم ، وأن فتناً كثيرةً عاشتها أمة الإسلام كانت من عمل أيديهم . كما أن الحروب العالمية الثلاث كانت بإجماع آراء الساسة العالمِيين بإيقاد اليهود لنِيرانها وإعدادهم لإثارتها . هذا عن الحروب البشرية وما جَرت من ويلات وخراب على العالم أجمع . أمّا عن الإفساد والتخريب فكلمة اللّه الصادقة : ﴿ **ويسعون فى الأرض فساداً** ﴾ (٢) . بدلالة المضارع فيها المقتضية للتجدد والحدوث ـ كافيةٌ فى الشهادة بأن اليهود لم يبرحوا يُخططون لتدمير العالم وتخريبه بقلب أوضاعه منذُ ليلِ وجودِهم منبوذين مذمومين مدحورين لفسقهم عن أوَامرِ ربهم ، وتمرُّدِهم عن شرائعه . ويكفى فى التدليل على ذلك أن نذكر أن الديانة المسيحيّة لم يُفسدْها فحولّها إلى ديانةٍ شركيّة ، وخرافةٍ عقليةٍ سوى اليهود . وأن الإنجيلَ كتاب المسيحيّة المقدس اليهودُ هم الذين عبثوا به تحريفاً وتبديلاً حتى أصبح الإنجيل الواحد عدة أناجيل . وقد لا نخطىء ولا نفتات أيضاً إذا قلنا : إن أصابع اليهود كانت وراء كثير من الطرق الصوفية الغالية ، ووراء كثير من المذاهب الإسلامية المنحرفة عن الخط الإسلامى الصحيح ، كالباطنية والحلولية ، وما تفرع عنهما من بهائية وقاديانية ونصيرية درزية ، وإسماعيلية علوية ، وشيعية جعفرية ، أو إماميّة جافية . وهناك ما هو أعظم وأخطر وأسوأ كالمذهب الشيوعى المادى والمذهب الوجودى الإبَاحِىٍّ ، والمذهب الماسونى المدمر ، والاشتراكى المخرِّب ، كل هذه المذاهب الهدامة الحارقة المخربة المدمرة هى من وضع اليهود ، وبناتِ فكرهم ، وتخطيط أيديهم لتدمير العالم وتخريبه عقائدياً ، وأخلاقياً ، كل ذلك ليخلوا الجو للطائفة اليهودية أن تبرز قوةً روحية صالحة

(١ ، ٢) المائدة : ٦٤ .

ـ فى نظرهم ـ لسيادة العالم وتسخيره لخدمة يهود هم شعب الله المختار كما يأفِكُون . وبرتكولات صهيون شاهدة بذلك فلنطّلع عليها . هذا وإن أعددنا هذه الكلمات العابرة عن اليهود تاريخاً وسلوكاً إن أعْدَدنَاهَا درساً فإن لنا أن نستخلص منها النتائج التالية : ـ

١ ـ شرف الآباء والأجداد غير مُغْنٍ فتيلاً عن الأبناء والأحفاد إذا هم لم يسلكوا سبيل المجد والشرف الذى سلكه آباؤهم وسار عليه أجدادهم ، وهذا ما قرره رسولنا الأعظم محمد ﷺ بقوله : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبُه » (١) .

٢ ـ أن المجد والشرف كالعزة والكرامة لن تكون من نصيب أحدٍ إلا مَن كان اللّه فوقف كلٍّ حياته على اللّه تحقيقاً لمبدأ : ﴿ **قل إن صَلاتى ونسكى ومحياى ومماتى للّه رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت** ﴾ (٢) .

٣ ـ أن ما شاهده العالم من حروب وما ذاقه من ويلاتها فى هذه الحقبة من الزمن أى مِن لدن فسدَ شعبُ بنى إسرائيل ووطن نفسه على إفساد العالم وتخريبه لصالحه كما يُفكر ويعتقد ، يتحمل اليهود مسئوليتها ؛ إذ هم المدبرون لها ، الموقدون نار فتنتها .

٤ ـ أن المذاهب الهدامة المخربة على اختلاف أسمائها ، هى من وضع اليهود وتصميمهم ، وإن رَوَّجها الأغرار الأغمار المخدوعون من غير اليهود تحت شعارات غير يهودية ونسبوها إلى أشخاص غير يهود .

هذه أربع نتائج أستخلصناها : من هذه العبارات السابقة ، أما العبرة وهى ما أردنا أن نتحراه فى كل كلمة من هذا الحديث القصير فهى : أن على المسلمين أن يتحركوا فى اتجاه جديد وهو اتجاه الإيمان الصادق الباعث على العمل الصالح ، والعلم الصحيح المثمر لخشية اللّه تعالى فى القلوب ؛ إذ بهما وحدهما يكون اكتساب المجد والحصولُ على العزة والكرامة . وأن يطرِحوا جانباً الاغترار بشرف النسبة إلى الإسلام دون العملِ بمنهاجه والسير فى خطه المستقيم ؛ فإن اليهود لم يُغن عنهم ما كان لآبائهم إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب من رفعة وكمال ، ولا لداود وسليمان من مفاخرَ وأمجاد ، ولم تَحُل كرامة آبائهم وشرف أجدادهم دون ما تورطوا فيه من شر وفساد ، وذل وصغار يوم انحرفوا عن خط السير الذى كان يسير عليه آباؤهم الأفضلون . كما أن على المسلمين أن يتبرأوا بل يكفروا بِكُل مبدأ غير مبدأ الإسلام . وأن يحذروا كلَّ (أموضة) تظهر فى العالم تخالف

---

(١) هذا بعض حديث رواه مسلم .

(٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

شرع الله وسواء كانت فى الملبس أو المأكل والمشرب ، والمسكن أو المركب ، أو فى التخطيط والتشريع فإنها من صنع اليهود لتخريب الذمم والضمائر وإفساد الأخلاق والعقول : إنها بمثابة الطرود البريدية الملغمة.

نشأة اليهود

والآن ـ أيها القارىء الكريم نلقى نظرةً خاطفة على نشأة اليهود بذكر أصولهم الطاهرة آتين على تلك الفروع الفاسدة الخبيثة ، وما أثمرته من خراب ودمار فى العالم ، قصدَ العظة والاعتبار ، والله من وراء القصد . فنقول : لما هاجر إبراهيم عليه السلام من أرض العراق إلى أرض الشام هاجر معه ابن أخيه هاران وهو لوط عليه السلام ، وكان قد أرسله الله تعالى إلى المؤتفكات وهى خمس مدن من أعظمها سدوم وهى التى أقام بها نبى الله تعالى لوط ، وأتاه ضيف إبراهيم عليهم السلام بها . فدعا لوط أهل تلك البلاد إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، ثم إلى ترك ما شاع بينهم وفشا فيهم من ارتكاب فاحشة اللواط إتيان الذكران من العالمين وهى أبشع فاحشة ارتكبت على وجه الأرض حتى اليوم . فكذب القوم لوطاً ، وأصروا على كفرهم وفسادهم ، وأذن الله تعالى بعذابهم وتطهير الأرض من رِجسهم فأرسل ملائكة قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل لإهلاكهم ، وكان يومها إبراهيم عليه السلام بأرض فلسطين على فراسخ معدودة من تلك البلاد ، فنزل الملائكة عليه ضيوفاً وكان من شأنهم ما قص الله تعالى فى كتابه . ومحل الشاهد من ذلك أن الملائكة بشرت امرأةَ إبراهيم سارَّة ، وهى قائمة مع زوجها على خدمة أولئك الضيوف بَشَّرَتْها بمولود على عقمها ، وشيخوخة زوجها ، وأن المولود سيكبر ويتزوج ويولد له ولدٌ هو يعقوب (إسرائيل) عليه السلام . وهذا ما جاء فى سورة هود من القرآن الكريم ؛ إذ قال تعالى : ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة . قالوا : لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب** ﴾ (١) . وكَبِر إسحق المبشر به وتزوج على عهد والديه فيما روى وولد له ولدٌ هو يعقوب النافلة ؛ لقوله تعالى من سورة الأنبياء : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين** ﴾ (٢) . وبولادة يعقوب وهو الملقب بإسرائيل ولدت هذه الأمة أمةُ بنى إسرائيل ذات الأصول السامقة فى سماء الشرف والكمال ، والفروع الهابطة فى

---

(١) هود : ٦٩ ـ ٧١ .
(٢) الأنبياء : ٧٢ .

مهاوى الخسة والنقصان . ولا يخفى ـ على الحضور ـ سببُ تلك الرفعة ، ولا علّةُ هذا الهبوط والانحدار . إن رفعة الأصول كانت بطاعة اللّه وإن حطة الفروع كانت بمعصية اللّه فاعتبروا يا أولى الأبصار !

سبب هجرة إبراهيم

وقد يتساءل المرءُ عن سبب هجرة إبراهيم من أرض العراق إلى أرض الشام ، وعن الداعى إليها ، والدافع عليها ، وما كان هناك إلى ذكر ذلك ومعرفته لولا ما فيه من العبرة التى نتوخاها دائماً فى حديثنا هذا عن اليهود . إن السبب المباشر لهجرةِ إبراهيم من بابل العراق إلى الأرض المباركة الشام هو أذَى قومِه وعلى رأسهم والده آزر ، واضطهادُهم له من أجل دعوته إلى ربه سبحانه وتعالى ، وذلك بأن يُعبَدَ اللّهُ وحده ولا يشرك به سواه . إنهم قد اضطروه إلى الهجرة ، وألجأوه إليها بعد أن حكموا عليه بالإعدام وباشروا تنفيذَه فيه ، فألقوه فى أتون جحيم يُذيب الحديد غير أن اللّه سلم ونجى وليّه وأحبط كيدَ أعدائه : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ (١) ، وموجز القول : أن إبراهيم كاد لآلهة المشركين وحطمها فعلاً ، وحوكم عَلَناً ، وحُكم عليه ، ونفّد الحكم ، فألقى فى النار ، غير أنه نجاه اللّه وبعدها مباشرةَ قرر الهجرة فهاجر إلى أرض الشام . كما جاء ذلك فى غير موضع من القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ **فآمن لَهُ لُوطُ وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم** ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ **فلمّا اعتزلهم وما يعبدون من دون اللّه وهبنا له إسحق ويعقوب** ﴾ (٣) . وبهجرة إبراهيم إلى الشام تمّ الذّى سبق أن ذكرناه .

والعبرة من حادثة الهجرة هذه : أن الداعى المخلص إذا لم تَنبُت دعوتُه فى أرضٍ مّا طلب لها أرضاً أخرى ، وإذا لم تُجْدِهِ فى تحقيق دعوته وسائل غيّرها بوسائل أخرى ، وهذه سنة الدّعاة الصادقين غير أنه لا ينبغى أن يكون التغيير على حساب الصبر والثبات : إنهم عليهم السلام ما كانوا يلجأون إلى التحول والتغيير إلا بعد الثبات الطويل والصبر المرير ، وحتى يستخدموا كل ممكن ، ويجرّبوا كل جائز معقول ؛ فإذا أعيتهم الحيل ، وفشلت فى أيديهم الوسائل طلبوا الانتقال والاستبدال . وذلك هو مبدأ الهجرة الواجب اتخاذُه والعملُ به ويومها لن يعدم الداعى رِفدَ اللّه وتأييدّه . قال اللّه تعالى فى إبراهيم : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون اللّه وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ،**

(١) الأنبياء : ٦٨ ـ ٧٠ . (٢) العنكبوت : ٢٦ . (٣) مريم : ٤٩ .

ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ (١) . وقال تعالى فى هجرة المسلمين : ﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة** ﴾ (٢) .

يعقوب بأرض كنعان

وإذا ما عُدنا ـ أيها القارىء الكريم إلى الحديث عن نشأةِ بنى إسرائيل فإنا نلاحظ أن يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام لم يَجْرِ له ذكر فى القرآن الكريم أيام طُفولتِه وصباه ، وكذا الحال بالنسبة إلى والده إسحق عليهما السلام ، اللهم إلا ما كان من خبر البشارة بهما ففى سورة هود عليه السلام : ﴿ **فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب** ﴾ (٣) ، وفى سورة الصافات : ﴿ **وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾ (٤) . أمّا إسماعيل عليه السلام فقد جاء الحديثُ بذكر طفولته فى الكتاب والسنة معاً ففى القرآن : ﴿ **ربّ هبْ لِى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يابنىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت أفعل ما تُؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ (٥) الآيات ... فالطالب المبشر إبراهيم ، والغلام المبشر به إسماعيل وهذا أصح قولين فى المسألة . كما جاء فى الصحيح قصةُ سَفَر إبراهيم بجاريته هاجر المصريّة وإسكانِها مكة مع ولدها إسماعيل عليهم السلام ، وأن إبراهيم كان يزورهما وأن إسماعيل تزوج من جرهم ، وزاره مرة إبراهيم بعد موت والدته هاجر ، فلم يجدِه بالمنزل وإنما وجد زوجه الجرهمية فعهد إليها : أن تقرىء زوجها السلام وتقول له : غير عتبة بابك ، ومعنى ذلك أنه أمره بطلاقها وذلك لِـمَا رأى من عدم خيريتها وصلاحها لولدِه . فطلقها إسماعيل طاعة لوالده ، وعملاً بإرشاده كما جاء فى القرآن أن إسماعيل شارك إبراهيم عليهما السلام فى بناء البيت ؛ فقد ورد ذلك فى قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ (٦) الآيات ...

أما يعقوب عليه السلام فلم يذكر فى القرآن الكريم بعد البشارة به إلا وهو نبى ورسول حيث ورد ذكره فى سورة يوسف عليه السلام ، باسمه الصريح فى قوله تعالى :

---

(١) مريم : ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) النساء : ١٠٠ .
(٣) هود : ٧١ .
(٤) الصافات : ١١٢ ، ١١٣ .
(٥) الصافات : ١٠٠ ـ ١٠٢ .
(٦) البقرة : ١٢٧ .

﴿ **واتبعتُ ملّة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب** ﴾ (١) ، وفى قوله : ﴿ **إلا حاجةً فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه** ﴾ (٢) ، وبعنوان الأبوة فى قوله تعالى : ﴿ **إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** ﴾ (٣) . وذُكر له فيها ولولده يوسف وإخوته الأحد عشر حوادث جسام مؤلمة ظاهرها محرق وباطنها مشرق انتهت تلك الحوادث التى دامت مدة تقارب الأربعين سنة انتهت بانتقال تلك الأسرة الإسرائيلية بكاملها من أرض كنعان (فلسطين) إلى أرض مصر . وبرزت فى تلك الحوادث أمور ذات بال نذكر منها ــ للعبرة ــ ما يلى : ــ

أ ــ إقبال يعقوب عليه السلام على ولده يوسف وخاصة بعد الرؤيا التى رآها ، وتعلُّقُه به لما تجلى فيه من مخايل النبوة ، دون باقى إخوته ، حمل أولئك الإخوة على الكيد له والمكر به ، الأمرُ الذى عرضه للهلاك ، وانتهى به إلى البيع رقيقاً يخدم فى بيت العزيز بمصر ووجه العبرة من هذه أن على الأب الحازم ذى الأولاد العديدين أن يتحاشى العطف الكبير ، والميل الكثير إلى أحد أبنائه دون باقيهم ؛ لئلا يوقعهم فى بغض أخيهم ، والحقد عليه ، وكذا صاحب الزوجين أو الزوجات عليه أن يتحاشى إظهار الحب لبعض دون البعض ، وإلا تسبب لنفسه ولمن أحب من أزواجه فى متاعب وآلام هو فى عافية وأمنٍ منها .

ب ــ أن يوسف عليه السلام تَعَرَّضَ لمحن قاسية جداً ، **أولاها** : إلقاؤه فى الجب . **وثانيتُها** : بيعُه عبداً بثمن بخس وهو الحر الكريم بن الكريم ، بن الكريم **وثالثُها** : تعلُّق قلب امرأة العزيز به ومراودتها إياه عن نفسه . **ورابعتُها** : دُخُولُه السجن ، ومكثه فيه نحواً من سبع سنوات والعبرة فى هذه من وجوه : ــ

١ ــ أن اللّه تعالى لم يتخلَّ عن يوسف وَلِيّه وهو فى غَيَابَةِ الجب بل كان معه بلطفه ورحمته وآنسه حتى خرج منها سليماً معافى .

٢ ــ أن يوسف لما رفض عرْضَ امرأة العزيز الرخيص وأبى الخيانة ، وقال فى صدق : ﴿ **معاذ اللّه إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ (٤) ، جزاه اللّه تعالى على صدقه ووفائه بخير جزاءٍ وأحسنه ، فإنه لمّا همَّ بضرب تلك المرأة المتعالية عليه بسلطانها المدلّة عليه بجمالها أراه ربه من الكرامات ما صرفه عنها كما قال تعالى : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ (٥) فَصَرَفَ عنه السوء ،

---

(١) يوسف : ٣٨ . (٢) يوسف : ٦٨ . (٣) يوسف : ٤ .
(٤) يوسف : ٢٣ . (٥) يوسف : ٢٤ .

وهذا من حفظ اللّه تعالى لأوليائه ، وعصمته لأنبيائه .

٣ ـ أن يوسف آثر السجنَ وغياهبَه على العيش ورغدِه خارجه صيانة لنفسه عن السوء ، وبعداً بها عن مواطنه ؛ إذ قال رب السجن أحبّ إلىّ مما يدعوننى إليه .

٤ ـ أن يوسف لما ظهر لأهل السجن مشارقُ معارفه ، وطلعت عليهم شمس أسرار نبوّته نسب ذلك لربه وعلّله بصادق علّته فقال : ﴿ **ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملّة قوم لا يؤمنون باللّه وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ما كنا لنا أن نشرك باللّه من شىء** ﴾ (١) .

٥ ـ أنه عليه السلام لم تُنسه آلام السجن وأتعابُه ولا غربته وأحزانُه رسالةَ ربّه فقد دعا زميليه فى السجن إلى عبادة اللّه تعالى وتوحيده ، وأقام لهم البرهان على بطلان الشرك باللّه والكفر به وهو يقول : ﴿ **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خيرٌ أم اللّهُ الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللّه بها من سلطان ، إن الحكم إلا للّه أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (٢) .

٦ ـ أنه عليه السلام لمّا غفل تلك الغفلة عند باب السجن وهو يودع زميله الذى حكمت المحكمة ببراءته وإعادته إلى خدمته بالقصر ، فقال : ﴿ **اذكرنى عند ربك** ﴾ (٣) ، فأنسى الشيطانُ زميلَه أن يذكره عند ربه ـ على أحد تفسيرين ـ فأطال اللّه مدة سجنه فكانت بضع سنين .

وهذا وإن كان من باب قولهم : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فإن العبرة فيه أن اللّه تعالى أمر بالتوكل عليه ، وأحب المتوكلين من عباده ، وأخبر أن من توكل عليه كفاه . كما شرع الأخذ بالأسباب ، وأمر باستعمالها غير أن الأسباب تختلف فمنها ما يجوز استعماله ، ومنها مالا يجوز ، وقد يشبه على غير البصير العارف ذلك فيترك التوكل ظناً منه أنه إنما أخذ بسبب جائز ، وهو فى الواقع غير جائز فيُحَرم لذلك معونة اللّه وكفايته للمتوكلين عليه .

ومثال ذلك إعطاء الرشوة للحاكم ، والركون إلى الظالم ، ومداجاته ، وتملق ذوى

---

(١) يوسف : ٣٧ ، ٣٨ . (٢) يوسف : ٣٩ ، ٤٠ . (٣) يوسف : ٤٢ .

السلطان أو الطول والغنى ، ومجاراتهم فى ميادين الأهواء والشهوات ، **فهذه قد يعدها** غير البصير من باب : الأخذ بالأسباب الموصلة إلى تحقيق أغراض الشخص ، والمؤمّنة لبعض منافعه ومصالحه وهى فى الحقيقة منافية للتوكل على اللّه تعالى والاعتماد عليه ؛ لأنها أسباب محرّمة قد نص الشارع على تحريمها ومنعها . هذا ، وقد يرفع مقام المرء فى باب المعرفة باللّه والتوكل عليه ، فيحسن به ترك بعض الأسباب التى عُرفت بالتجربة أنها غير ضرورية : كما ترك عمران بن حصين التداوى ، أو الكى ، وكما رفض الصديق الطبيب وقال : الطبيب أمرضنى . وجاء فى صحيح الخبر أن سبعين ألف من هذه الأمة منهم عكاشةُ رضى اللّه عنه يدخلون الجنة بغير حساب ، وجاء فى تعليل ذلك أنهم كانوا لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون . فليذكر هذا أولئك الذين يدَّعون الإيمان باللّه والتوكل عليه وهم يتّجرون بالمحرمات ، ويتعاملون بالربويات ، وليذكره أولئك الذين يتركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حفاظاً على مناصبهم ، وقد يغشون المحرمات ويتركهون الواجبات بدعوى المجاملة ، والرغبة فى ترك الفوضى والتشويش .

وأخيراً فبعد تلك الحوادث المحرقة كانت العاقبة المشرقة ، فقد رأى الملك رؤياه ، الأمر الذى استدعى إخراج يوسف من السجن ، وإعلانَ براءته ، وإسناد وزارة المال والاقتصاد إليه ، وفى هذا الأخير يقول اللّه تعالى : ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ (١) . وأدار يوسف بعلمه وأمانته شؤون الوزارة وتمَّ له بذلك المنصب الحساس أن دبّر أمرَ استقدام كافة أسرته إلى مصر ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال : ﴿ **يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً وقد أحسن بى ؛ إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ؛ إن ربى لطيف لما يشاء ؛ إنه هو العليم الحكيم** ﴾ (٢) .

إسرائيل وبنوه بمصر

والآن ـ أيها القارىء الكريم وباستقدام يوسف عليه السلام لأبويه وإخوته وأهليهم أجمعين إلى مصر فقد أصبحت مصر الوطن الثانى لبنى إسرائيل بالهجرة إليه ، وفى قوله تعالى حكاية عن يوسف : ﴿ **وائتونى بأهليكم أجمعين** ﴾ (٣) وهو يخاطب إخوته الوافدين عليه للميرة دليلُ على أنه لم يبق من أسرة يعقوب بن إسحاق عليهما السلام بأرض كنعان أحد .

(١) يوسف : ٥٦ .   (٢) يوسف : ١٠٠ .   (٣) يوسف : ٩٣ .

وأن الجميع نزلوا مصر وأصبحت لهم داراً بدلاً من أرض كنعان التى نزلها إبراهيم عليه السلام مهاجراً إليها من أرض العراق . وبمرور الزمن تكونت من تلك الأسرة المهاجرة إلى مصر أمةٌ كبيرة يزيد عدُّ أفرادِها على نصف مليون نسمة ، وما زالت بمصر إلى أن خرج بها موسى وهارون عليهما السلام بعد جهاد كبير لفرعون وملائه من الأقباط والملاحظ هنا أن يوسف عليه السلام نبّىء وأرسل بمصر دون سائر إخوته ؛ إذ هو الذى صرح القرآن برسالته فى قوله : ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث اللّه من بعده رسولاً** ﴾ (١) ، أما إخوته فالظاهر من حالهم أنهم لم يكونوا أنبياء ولا رسلاً ، وسلوكهم ينبىء بذلك ، فما اقترفوه من ذنب إزاء والدهم وولده يوسف يتنافى مع منصب النبوة ومقام الرسالة . وإن قيل : أليسوا هم الأسباط المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ **قولوا آمنا باللّه ، وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط** ﴾ ؟ (٢) . قيل : المراد من الأسباط الأنبياء الذين هم من أولاد يعقوب إخوة يوسف ؛ إذ الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى قريش ، فقبائل قريش انحدرت من عدنان ، والأسباط انحدروا من ولد يعقوب الاثنى عشر . والجدير بالتنبيه إليه هنا أن القرآن الكريم لم يذكر عن بنى إسرائيل بعد استيطانهم مصر شيئاً إلى عهد موسى وهرون عليهما السلام اللّهم إلا ما كان من نبوة يوسف ودعوته إلى التوحيد بين المصريين ، وشكّهم فى رسالته كما هو صريح قوله تعالى من سورة غافر : ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث اللّه من بعده رسولاً** ﴾ (٣) ، وإلا ما كان من ذكر استضعاف الفراعنة لبنى إسرائيل فى قوله تعالى : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض** ﴾ (٤) . والمراد بهم قطعاً بنو إسرائيل . وبناءً على هذا فإن بنى إسرائيل لم يسعدوا بمصر طويلاً ، وأن حالهم تغيرت بعد موت يوسف الرسول عليه السلام ، واعتبرهم الأقباط أجانب عن بلادهم ـ إن لم يعتبروهم مستعمرين لهم ـ فعاملوهم معاملة أساءوا إليهم فيها ، ولا يبعد أن يكون سببَ ذلك ما لاحظوه فى بنى إسرائيل من شرف الأصل وسمو الفرع . وتَطلُّعُ من كان هذا حالَه إلى الملك والسيادة لا يخفى ، فخافوهم لذلك وحسدوهم فعاملوهم بأقسى أنواع المعاملة وأشدها ؛ لا سيما وأنه لم يكن لبنى إسرائيل مِن يدٍ يدفعون بها عن أنفسهم لغربتهم وقلة عددهم ، وعدم وجود من يتعاطف معهم خارج البلاد المصرية ؛ إذ

---

(١) غافر : ٣٤ .
(٢) البقرة : ١٣٦ .
(٣) غافر : ٣٤ .
(٤) القصص : ٥ .

هم أغْرَابٌ فى كل المنطقة لأن المعروف أن إبراهيم عليه السلام وهو الأصل الكريم الذى انحدروا منه كان عراقياً هاجر إلى أرض الشام فتكونت له بها أسرة فى فلسطين ثم نزحت هذه الأسرة إلى مصر كما تقدم بيانه ، وبقى بأرض الشام سكانها الأصليون وهم الكنعانيون . ومن هنا كان ادعاء اليهود اليوم بأن فلسطين أرضهم وبلادهم إدعاء باطل لا أصل له . كما هو ظاهر فى هذه الحقيقة التاريخية الثابتة .

عهد الإنقاذ

وبينما بنو إسرائيل يرزحون تحت الاستعباد الفرعونى ويخضعون لأعظم تعسّف عرفه الإنسان حيث يُذبح أبناؤهم ويستحيا للخدمة نساؤهم وهم من هم ؟ أبناء أولئك الآباء البررة الصالحين إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وإذا بامرأة عمران الإسرائيلية تحمل بجنين سيكون إنقاذُ بنى إسرائيل بإذن اللّه تعالى على يديه . وتتولى عناية اللّه تعالى حماية المولود ورعايتِه ، فيسلم من الذبح المقرر لأمثاله وينجو منه بأعجوبة تدبير اللّه سبحانه وتعالى ؛ إذ أوحى إلى أمه : ﴿ **أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم** ﴾ (١) . ففعلت ونجا المولود من الذبح المحتم على مواليد بنى إسرائيل فى تلك الحقبة من الزمن . ومن تعاجيب اللّه تعالى أن موسى المنقذ لشعب إسرائيل لن يتربى إلا فى قصر فرعون وفى حضن امرأته وهناك وفى البلاط الملكى يشبُّ موسى ويترعرع تَرْعَاه عينُ اللّه ، وتحرسه عنايته ، وكيف وقد قال تعالى له : ﴿ **وألقيت عليك محبةً منى ولتصنع على عينى** ﴾ (٢) . وبينما موسى فى ريعان شبابه وعنفوانه يتجول فى شوارع العاصمة إذا برجلين يقتتلان أحدهما من شيعته والثانى من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ومات لفوره . فكان هذا سبب خروج موسى الأول من مصر ﴿ **فخرج منها خائفاً يترقب ، قال ربّ نجنى من القوم الظالمين** ﴾ (٣) . وقادته الأقدار ، وساقته العناية الإلهية إلى أرض مدين ليقضى سنوات معدودات فى أرض مدين . وما إن أتم عَقد اتفاقية مع شعيب عليه السلام وهى عقد إيجارِ رَعْيٍ غنم ثمانى أوعشر حجج ، مقابل إشباع بطن وإحصان فرج . حتى تاقت نفسه إلى العودة إلى الوطن لزيارة الإخوان والأم ، وسار موسى بأهله يريد بلاده ، تِلك التى نشأ فيها وتربّى فى أحضانها ، وإذا بالقدر يخبىء له أعظم مفاجأة فى تاريخ حياته المليئة بالأحداث تلك هى التى تمت حسب تدبير اللّه تعالى بالشاطىء الأيمن من الوادى المقدس فى البقعة المباركة من الشجرة ؛ إذ ناداه ربه : ﴿ **يا موسى إننى**

---

(١) القصص : ٧ . (٢) طه : ٣٩ . (٣) القصص : ٢١ .

أنا اللّه لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾ (١) . وتَمّتَ نبّأه ربُه وأرسله ، وسلّحه وزوده ، وبعث به إلى فرعون وملائِه ، مطالباً بأسمى مطلب وأشرفه ، وهو الاعتراف باللّه تعالى رباً وإلهاً ، لا رب غيره ولا إله سواه ، وتحرير بنى إسرائيل ، والخروج بهم إلى الأرض المقدسة التى كتب اللّه لهم إذ هم أبناءُ أوليَائه وأهل طاعته فى ذلك الزمن !

ولولا مخافة السآمة على القارىء الكريم لا ستعرضنا الآيات القرآنية التى اشتملت على حياة موسى الكليم من لدن حمل أمه به إلى هذه اللحظة من حياته وهو يتهيأٌ لأكبر مجابهة كانت بين إنسان وإنسان ، وهى مجابهة موسى لفرعون . غير أن الخوف على القارىء من السآمة لا يمنعنا من الإشارة إلى نقطتين حساستين يجب الوقوف عندهما ، ألا **وهما** : **أولاً** : أن هذا التاريخ التفصيلى الدقيقَ الصادقَ الذى نستوحيه من القرآن الكريم يُحدث به أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب يُحيلُ العقل البشرى أن يكون غير وحى إلهى تلقاه محمد رسول اللّه ، من اللّه . وعليه فنبوّة محمد ﷺ ورسالته إنكارهما يعد ضرباً من الجنون ، وتنكُّراً للعقل البشرى وإهداراً لكرامته بالمرة . **وثانياً** : أنه عندما تم أمر اللّه تعالى لموسى بالإرسال إلى فرعون ، وتقدم بطلبه إلى ربه سبحانه وتعالى يطلب فيه التأييد والنصر علّلَ ذلك بقوله : ﴿ **كىْ نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً** ﴾ (٢) فجعل الغاية من الانتصار على الباطل وإقامة دولة الحق على أنقاضه التسبيحَ الكثيرَ والذكرَ الكثير . وهذا التعليل الحكيم من موسى للنصر هو ما جاء تعليلاً من اللّه تعالى لنصر المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ حيث قال تعالى من سورة الحج : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ (٣) . فدل هذا وذاك على أنه يجب أن تكون الغاية دائماً من الجهاد والانتصار على الكفر والظلم هى أن يُسبحَ اللّهُ تعالى بعبادته وحده ، ويذكرَ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لا أن تكون الغايةُ من الجهاد والنصر الاستعلاء والتسلطَ على المواطنين ، وسوقَهم بعصا القوانين الوضعية ، وأخذهم بالمبادىء العلمانية حيث ينسى الله فلا يذكر ، ويعصى فلا يطاع ولا يشكر ،كما هى حال الناس اليوم فى ديار كانت بالأمس القريب معاقلَ للإسلام وحُصُوناً ، فأضحت اليوم حقولَ تجاربَ للنظريات المادية ، ومدارسَ لمحوِ العقائد الإسلامية ، وطمس للقيم الأخلاقية .. ووا أسفاه ؛ ويا حزناه! ويا ألَماه ! فما أشقى المسلمَ اليوم وما أتعسَه ! إذ هو أسير فى أيدٍ لا تَرْحمُ ، وفى معتقل لا يرى فيه النورَ طول الحياة ! آه ، ثم آه !!

(١) طه : ١٤ . (٢) طه : ٣٣ ، ٣٤ . (٣) الحج : ٤١ .

والآن ـ أيها القارىء الكريم ـ بِدَاية المعركة مع موسى وفرعون ، وصل موسى مصرَ أرضَ المعركة مُزوَّداً بعُدَّة كافية بإذن الله فى قهر العدو والانتصار عليه ، وهى العصا ـ واليد ـ ووزارة هارون . وباشر موسى عليه السلام مهمته فقال لفرعون : ﴿ **هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ ؟ [(١)] . فردَّ فرعون قائلاً : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ [(٢)] . وقال موسى يا فرعون إنى رسول ربِّ العالـمين فأرسل معى بنى إسرائيل ، فكذب فرعون موضوع الرسالة وامتنع من إرسال بنى إسرائيل ، فأراه موسى من الآيات الكبرى والمعجزات العظمى ما جعل فرعون يتورط فى اتهام موسى بالسحر ويقول : ﴿ **إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ [(٣)] . ولا ندرى فِيمَا هِيَ مُثْلَى ؟ أفى العلوِّ والفساد . أم هى على حدْ قولِهم اليوم : الثورية التقدمية والاشتراكية العربية الإسلامية .

ولم يتردد فرعون فى الدفاع عن باطله كما هى طريقةُ المبطلين وسنتُهم فى كل زمان ومكان ، فطالب موسى بالمواجهة الفاصلة معه ، وأن يحدد موعداً لذلك فاختار موسى يومَ عيد لهم يجتمع فيه سائر طبقات شعبهم . فقال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فجمع فرعون شاة طاقاته ، وأحضر جميع سَحَرَتِه من رجاله وتمت أعظم مباراة بين المُعجزة الإلهية والمكائد السحرية ، وانهزم الباطل وانتصر الحق ، وآمن السحرة وكثيرمن الخلق . ورأى فرعون زعزعة مركزه ، واهتزاز الأرض من تحت رجله فأراد تلافى الموقف قبل استفحال الشر ، وانفلاتِ زِمامِ الأمر . فهدد السحرة وتوعدهم ، وبالخيانة الوطنية اتهمهم وقال : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ؛ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ؛ ثم لأصلبنكم أجمعين** ﴾ [(٤)] . وانفذ الطاغيةُ وعيدَه فى السحرة فصلبهم وقتلهم ولم يعدم أيضاً من وزراء الشر ، وبِطانة السوء من يقول مُسلياً إياه ومُغرياً له بمواصلة القتل والتهديد : ﴿ **أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك** ﴾ [(٥)] . فقال الطاغية : ﴿ **سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ [(٦)] .

ظاهرة خطيرة

يَحسُن لفتُ النظر إليها .. وهى أنه لما هدد فرعونُ موسى وبنى إسرائيل بالبطش

---

(١) النازعات : ١٨ ، ١٩ .   (٢) النازعات : ٢٤ .   (٣) طه : ٦٣ .
(٤) الأعراف : ١٢٣ ، ١٢٤ .   (٥ ، ٦) الأعراف : ١٢٧ .

والفتك كما تقدم . قال موسى لبنى إسرائيل وقد ارتفعت رؤوسهم التى طالمَا انحنت أمام الطغيان والظلم ـ قال يا قوم : ﴿ **استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ (١) .

أجاب قوم موسى ـ مع الأسف ـ على دعوة الصبر والصمود التى وجهها موسى إليهم ، أجابوا بجواب دل على مرض نفوسهم ، وضعف إرادتهم ، وانهزام أرواحهم ، ولا يبعد أن يكون هذا أثراً من آثار طول الذل والعبودية والاضطهاد الذى عاشوه ، فقالوا : ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا** ﴾ (٢) .

فكانت هذه منهم بداية خطيرة لها ما بعدها . غير أن موسى عليه السلام صبر على هذه الظاهرة الخطيرة وقال نافحاً من روح الإيمان فى تلك الأشباح الخاوية والأرواح المتفانية : ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ (٣) .

وواصل موسى دعوته فى عزم وتصميم يطالب فرعون بأن يرسل معه بنى إسرائيل إنهاءً لتعذيبهم واضطهادهم وخروجاً بهم إلى أرض القدس . وفرعون يراوغ مرةً ، ويعاند ويكابر مرةً أخرى ، وموسى يُريه من الآيات ما يضطره إلى التسليم مَبْدَئياً بمطلبه فيعدُهُ ثم لا يلبث أن يحلفَ وينكث ، ويُمانع فى إرسال بنى إسرائيل حتى إذا اضطرته الآيات المخيفة إلى الاعتراف بالحق صاح قائلاً : ﴿ **يا موسى ادع لنا ربك لئن كشف عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل** ﴾ (٤) .

بداية استقلال

وأخيراً ـ أيها القارىء ـ ولما طال تلكُّؤ فرعون وملائه فى التسليم بمطالب موسى ، أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هرون أن يتخذا لبنى إسرائيل داراً مستقلة عن الأقباط ، بعيدة عنهم فى مكان مّا من البلاد المصرية يقيمون فيها الصلاة ويجمعون فيها شتاتَهم استعداداً للخروج من ديار مصر إلى ديار الشام . كما قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين** ﴾ (٥) .

(١ ـ ٣) الأعراف : ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٤) الأعراف : ١٣٤ .
(٥) يونس : ٨٧ .

وامتثل الرسولان أمر ربهما ، وتَمَّ ذلك على أحسن الوجوه . وبه أصبح بنو إسرائيل شبه مستقلين عن السلطة الحاكمة التى تأرجحت تحت ضربات المعجزات القاهرة ؛ فلم تصبح قادرة على اضطهاد بنى إسرائيل والرجوع بهم إلى الخدمةِ والاستذلال والاستغلال . ولما أكتمل أمر بنى إسرائيل في تلك المنطقة فاجتمع أفرادهم ، وقويت نفوسهم بإقام الصلاة ، وصحت عزائمهم بما بُشِّروا به من قرب ساعة الخلاص أوحى اللّه تعالى إلى موسى : ﴿ **أن أسر بعبادى إنكم متبعون** ﴾ (1) .

ساعة الخلاص والنجاة

وفى صبيحة مشرقة من يوم أغر (وهو عاشر المحرم الحرام) ـ إغراق فرعون فى يوم عاشور وليس هو يوم الخروج ـ خرج بنو إسرائيل من ديار مصر بقيادة موسى وهارون عليهما السلام متجهين نحو البحر فى طريقهم إلى الأرض المقدسة التى وُعدوا بها .

وعَلم فرعون ـ من قبلُ ـ بما عزم عليه بنو إسرائيل من الخروج من بلاده والتخلص من سلطانه ، فأعلن التعبئة العامة فى كامل مملكته كما قال تعالى : ﴿ **فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين : إن هؤلآء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون** ﴾ (2) .

وخرجت جحافل فرعون تغطى السهلِ والوعر وكلها عزم وتصميم على استرجاع بنى إسرائيل إلى نير الاستعباد ، وعهد التّعَسّف والاضطهاد . وما إن شاهد بنو إسرائيل جيوش فرعون تتقدم نحوّهم حتى صاحوا قائلين : ﴿ **يا موسى إنا لمدركون** ﴾ (3) ! فأجابهم موسى مطمئناً لخواطرهم مذهباً الخوف من نفوسهم : ﴿ **كلاّ ! إن معى ربّى سيهدين** ﴾ (4) . وأوحى اللّه تعالى إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ، ودخل بنو إسرائيل يمشون على يبسٍ من الأرض حتى اجتازوا البحر إلى شاطىء السلامة ، ورأى فرعون مسلك بنى إسرائيل من البحر فرمى بجنوده ونفسهِ فى عَرض البحر مُتْبِعاً بنى إسرائيل ، ولما توسط البحر هو وجنوده أطبق اللّه عليهم البحر . فغرقوا وهلكوا ولم ينجُ منهم أحد اللهم إلاّ ما كان من فرعون فإن اللّه تعالى قد أنجى جُثّتَه لتكون آية لمن يراها فيعتبرِ بها وحصل أن فرعون أثناء غرقه آمن وأسلم فقال : ﴿ **لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ (5) فقيل له : ﴿ **الان ، وقد عصيتَ قبل وكنت من المفسدين** ﴾ (6) . وكان حاله كحال القائل :

(1 ، 2) الشعراء : 52 ـ 56 . (3 ، 4) الشعراء : 61 ، 62 . (5 ، 6) يونس : 90 ، 91 .

أَتَتْ وحياض الموت بينى وبينها

وجادت بوصل حين لا ينفع الوصلُ

ورُدَّ عليه إيمانه ولم يُقْبل منه إسلامه ؛ لأن الإيمان الاضطرارى ، والإسلام غير الاختيارى لا ينتفع بهما صاحبهما قال تعالى : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات** [1] **ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً** ﴾ [2] ، وقال الرسول ﷺ : « إن اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .

العبرة

والآن نتساءل : ما هى العبرة فى هذا العرض السريع لهذه الفترة من تاريخ بنى إسرائيل ؟ ونجيب فنقول العبرة تتلخص فى ثلاث نقاط : ــ

الأولى : أن طاقة الإنسان كقدرته محدودة . فالإنسان مهما أوتى من قدرة فهو عاجزٌ أمام قدرة اللّه تعالى ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً أبداً ، ففرعون رغم ما أوتى من قوة نادرة فى أمثاله من البشر ، فقد وقف أمام قدرة اللّه تعالى عاجزاً تتحداه فلم يقدر على فعل شىء حتى إنقاذُ نفسهِ عَجز عنه فأدركه الغرق فغرق ومات .

والثانية : أن القيادة الحكيمة ضرورية للخروج من المآزق الحرجة ، والفتن المظلمة ، فقد كان لقيادة موسى الحكيمة وهو يتلقى التأييد والعون من اللّه تعالى كان لها أثر كبير فى تحرير بنى إسرائيل ، وإنجائهم من ورطتهم والخروج بهم من محنتهم .

والثالثة : الاستعانة بالصلاة ــ قد أثبتت فعاليتها فى تطهير النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتقوية الإيمان ورفع المعنويات ؛ لأنها تصل العبدَ بمصدر القوة وهو اللّه تعالى القوى المتين فيقوى بذلك ؛ ولهذا فرضت على بنى إسرائيل بمجرد حصول أدنى قَدْرٍ من الاستقلال الشخصى كما قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين** ﴾ [3] .

وهنا فليسمح لى القارىء الكريم أن أسجلَ الحقيقة التالية وهى أن الدولة السعودية

---

(١) المراد من الآيات هنا العلامات الكبرى لقيام الساعة وذلك كطلوع الشمس من المغرب ، وخروج الدابة ونزول عيسى عليه السلام .

(٢) الأنعام : ١٥٨ . (٣) يونس : ٨٧ .

اعتمدت فيما اعتمدت عليه فى دعمها وتقويتها ونشر راية الحق والعدل فى ربوعها إقامَ الصلاة ، فقد كان أئمة المساجد يتعهدون كلَّ صلاة فجر أفراد الحىَّ ليعرفوا من شهد الصلاة ومن تخلَّفَ عنها . وقد حدثنى أحد أبناء الملك عبد العزيز رحمه اللّه : أن والدهم غفر اللّه له كان يتولى بنفسه إيقاظ جميعَ أفراد الأسرة فى آخر كل ليلة ؛ ليصلوا الصبح فى جماعة ويشهد لهذه الحقيقة أننا لو نظرنا إلى هذه الدول الإسلامية التى نشأت فى هذه الحقبة الزمانية لوجدناها نشأت ضعيفة مهلهة تعمها الفوضى ويسودها القلق والاضطراب ، ويكثر فيها الشر والفساد ، وما عِلّة ذلك إلا أنها يوم أنشئت لم تُنشأ على أساس إقامة الصلاة المطهرة للنفوس المزكية للأرواح الناهية عن الفحشاء الصارفة عن المنكر . ومصداق هذا قوله تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر اللّه أكبر** ﴾(١) .

العهد الجديد أو عهد الحرية لبنى إسرائيل

بهلاك فرعون وجنده ـ ونجاة موسى وقومه ابتدأ بنو إسرائيل عهداً جديداً من حياتهم الاجتماعية والدينيّة والسياسية بَيْدَ أن آثار الماضى ورواسبه لم تبرح تعكّر صفْوَ عهد بنى إسرائيل الجديد وهو عهد الحرية والكرامة . فإنهم وهم سائرون على ساحل سينا البحرى وأعلام الهدى ترفرف على رؤوسهم وبينهم رسولان عظيمان موسى وهارون . مروا بأهل قرية يعكفون على أصنام لهم ، وما إن رأوهم حتى قالوا : ﴿ **يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة** ﴾(٢) . فما كان من موسى إلا أن وبّخهم ووعظهم وذكرهم بقوله : ﴿ **إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير اللّه أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾(٣) .

وهنا لنا أن نقول : إنه ليس من غريب الصدف أن يقع مثل هذا فى أمة محمد ﷺ . وقد وقع بالفعل وفى معية رسول اللّه ﷺ ، فقد خرج رسول اللّه ﷺ بالمسلمين عام الفتح من مكة يريد هوازن وثقيفاً حيث بلغه تجمعهم لقتاله ، وأثناء مسيره قال له من قال من المسلمين الحديثى عهد بكفر : يارسول اللّه اجعل لنا ذات أنواط كما للمشركين ذات أنواط وهى شجرة ينيطون بها أسلحتهم ويعلقونها عليها تبركاً بها واستمداداً للنصر ببركتها ، فرد عليهم رسول اللّه ﷺ غاضباً متعجباً : سبحان اللّه إنها السنن مَازِدْتُمْ أن قلتم كما قال بنو إسرائيل لموسى : أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .. ونحن هنا نقول : سبحان

(١) العنكبوت : ٤٥ .　　(٢ ، ٣) الأعراف : ١٣٨ ـ ١٤٠ .

اللّه متعجبين من أولئك العلماء المسلمين الذين يَدعون عصمة هذه الأمة من الشرك ، وهو يتخلل ديارها ويَنشأ عليه صغارُها ويَهرَم عليه كبارها . ولم يسلَم منه إلا مرحوم برحمة اللّه الخاصة جعلنى اللّه وإياك أيها القارىء الكريم مِنْهُمْ ، اللهم آمين .

الزلة الكبرى

والآن ـ تأخذ الحوادث تَكْشِف لنا عن تغيّر ذلك العنصر الكريم وفساده فساداً يدهش العقول ويحيرها . وقد يتساءل المرء عن سبب ذلك ولولا ما ظهر على يد أخوة يوسف غفر اللّه لهم من كذب على أبيهم وحسدٍ ومكر بأخيهم لجزمنا بأن أسباب هذا الفساد فى هذا العنصر الطيب الأصل كان نتيجة مَانالَ بنى إسرائيل من ذل وفقر ، وتعذيب واضطهاد فى العهد الذى قضوه فى مصر بين الأقباط تحت الحكم الفرعونى القاسى الشديد . فساءت لذلك أخلاقهم ، وفسدت طباعهم ، وتغيّرت نفسياتهم إلا من شاء اللّه سلامته منهم .. وهذا يصح أن يكون تعليلاً مقبولاً ؛ إذ قد رأينا بأم أعيننا كيف أثر الاستعمار الغربى فى طباع المسلمين وأخلاقهم ، وكيف بدل من نفسياتهم وأفسد عليهم الكثير من دينهم فى حين أن المجتمع الغربى لم يكن فى شر وجاهلية المجتمع القبطى على عهد الفراعنة ، كما أن فترة الاستعمار الغربى للمسلمين لم تَطلْ مُدتُها كما طالت على بنى إسرائيل ، هذا .. ونعود إلى متابعة الأحداث فى تاريخ بنى إسرائيل ونقف عند كل حادثة نستْجلى العبرة منها ونستوحى الموعظة إذ هذا الذى نتوخاه من محاضرتنا هذه فنقول : إن بنى إسرائيل بعد أن استقلوا عن السلطة المصرية ونزلوا ساحل البحر من سينا أصبحوا فى حاجة إلى قانون ودستور يساسون به ويحكمون بواسطته ومن هنا سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل سأله ذلك وواعده ثلاثين يوماً يصومها ثم يأتى موضع المناجاة من الطور فيعطيه الكتاب الذى يحكم به بنى إسرائيل ، وترك موسى بنى إسرائيل بعد أن استخلف عليهم أخاه هارون النبىّ عليه السلام ، ووصاه عليهم بالإصلاح بينهم ، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين فيهم . وذهب موسى إلى ربه صائماً الليل والنهار مواصلاً للصوم غير أنه مضّى الثلاثين يوماً أنكر تغيّر خُلُوفِ فمه فاستاك ، فزالت تلك الرائحة التى هى أطيب عند الله من ريح المسك (١) فأمرته الملائكة أن يصوم عشرةَ أيام أخرى ليكلّم ربه تعالى بذلك الخلوف الذى أنكره فغيره بالاستياك ، فكمل له أربعون يوماً كما قال تعالى :

---

(١) يستشهد لهذا حديث الصحيح : « لخلوف فم الصائم أطيب عند اللّه من ريح المسك » .

﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة** ﴾ [1] ، وقال موسى لأخيه هارون أخلفنى فى قومى ، وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . وما زال موسى فى مهمته التى ذهب لأجلها وهى مهمة الإتيان بكتاب يحكم به بنى إسرائيل ، وإذا بالسامرى أحدِ أفراد بنى إسرائيل يجمعِ حُلىَّ نساء بنى إسرائيل ويصوغ منه عجلاً ذهبياً له خوار ، ويدعى فيهم أنه إلههم وإله موسى ، ويدعوهم إلى عبادته ، ويستجيب له كثيرون فيعكفون على عبادته ، ولمّا قال لهم هارون : ﴿ **يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتَّبعونى وَأَطيعُوا أمرى : قالوا لن نبرح عليه عاكفين ، حتى يرجع إلينا موسى** ﴾ [2] . فكانت هذه زلة كبرى أحدثت انقساما وشراً خطيراً فى شعب بنى إسرائيل ، ودلت على وجود تعفّن فى بعض أفراد ذلك الشعب ، وفساد أخلاقى وعقلى كبير ، ورجع موسى وهو يعلم مسبقاً ما حدث فى قومه ؛ إذ قد أخبره ربه عز وجل بذلك : ﴿ **فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلّهم السامرىُّ** ﴾ [3] . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، وألقى الألواح غضباً لربِه فتكسَرت ، وعاتب أخاه ، ثم تلافى الموقف بحكمة فأمر بإحراق العجل وبرده ثم بِنسْفِه فى اليم . وعاقب السامرى رأسَ الضلالة وصانعَ الفتنة بما يستحق ، ثم جمع الألواح التى كتب اللّه له وتكسرت بسبب إلقائها للغضب الذى تملكه كما قال تعالى : ﴿ **وكتبنا له فى الألواح من كل شىء** ﴾ [4] . وقال : ﴿ **وفى نسختها هدى ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبون** ﴾ [5] .

العبرة

والعبرة من هذه الحلقة القصيرة فى تاريخ بنى إسرائيل ـ هى **أولاً** : أنه بعد استقلال الأمة أو الشعب لا بد لها من دستور إلهى تحكم به تلك الأمة المستقلة . قد عرف هذه الحقيقة بنو إسرائيل وطالبوا موسى بها ولم تعرفه الشعوب الإسلامية اليوم ، فكانت تستقل شعباً بعد آخر عن الاستعمار الغربى ، ولم تطالب بالدستور الإسلامى ، ولم تبحث عنه بل تجاهلته ولم ترضى به ورضيت بدستور الدولة الكافرة التى كانت تحكمها به ، وهو دستور من وضع البشر الفاسد . أليست هذه زلةً أكبرَ من زلة بنى إسرائيل التى وقفنا عندها آنفاً ؟ إنها واللّه لزلة عظمى كان لها أسوأ الأثر فى حياة المسلمين اليوم ، فما هذه الردة العارمة ، والفساد العام ، والشر المنتشر فى ديار الإسلام إلا نتيجة لتلك الزلة الكبرى التى لا تكفّر إلا بالرجوع إلى تحكيم الدستور الإسلامى الذى هو كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ .

---

(١) الأعراف : ١٤٢ . (٢) طه : ٩٠ ، ٩١ . (٣) طه : ٨٥ .
(٤) الأعراف : ١٤٥ . (٥) الأعراف : ١٥٤ .

وثانياً : أن بنى إسرائيل ما زالت آثار المعجزات العظمى قائمة بينهم ، ومنها انفلاق البحر لهم ، ونجاتهم وهلاك عدوهم ، وقد حدثت فيهم فتنة الشرك وعبدوا غير اللّٰه تعالى جهلاً وغفلة ، فهل بعد هذا يستغرب أن يعبُدَ فئام من المسلمين اليوم القبور والأحجار والأشجار باسم التبرك ، والاستشفاع والتوسل . مع بعد الزمن عن عصر النبوّة ، وأيام المعجزات المحمدية ؟ وكيف يسوغ لمن ينتسب إلى العلم وطلبه أن يدافع عن هذا الشرك الذى وقع فيه خلق كَثير من هذه الأمة . وبحجة عصمة الأمة من الوقوع فى الشرك ، وما ندرى كيف رأَوْا هذه العصمة ، ونصفُ الأمة أمامهم غارق فى الردة والشرك الأصغر والأكبر والجلىّ والخفى . فما أعجبَ حالَ هؤلاء العلماء ، وما أغرب موقفهم !!

زلـة أعـظم

ونعود إلى سَرْد الأحداث فى بنى إسرائيل لاجتناء العبر ، وسنقف عما قريب على زلة لبنى إسرائيل أعظم من الزلة الكبرى السابقة : إنه بعد الذى حصل فى بنى إسرائيل من عبادة العجل ، اختار موسى من مشائخ قومه سبعين رجلاً وذهب بهم إلى ميقات ربهم ليعتذروا على زلة قومهم وليطلبوا التوبة لهم مما وقعوا فيه من عبادة العجل ، وما إن وصل موسى بهم إلى الطور ونزل الغمام على الجبل ودخلوا فيه ، وأخذ موسى يناجى ربه وهم يسمعون كلامه ، حتى قالوا : يا موسى أرنا الله جهرة ، فعاقبهم الله تبارك وتعالى على طلبهم الفاجر هذا ، فأخذتهم الرجفة فماتوا لفورهم ، وسأل موسى ربه حياتهم فأحياهم الله له وهو يقول : ﴿ **ربِّ لو شئتَ لأهلكتهم من قبل وإياى ، أَتُهلِكُنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ (١) ؟

ورجع بهم موسى ومعه شروط التوبة المطلوبة لبنى إسرائيل ، ولما وصلوا خطب موسى فى الناس ، وأخبرهم بكيفية توبتهم فقال : ﴿ **يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم** ﴾ (٢) ، فامتَثَلُوا أمر الله تعالى وجلس الذين عبدوا العجل ، وقام الذين لم يعبدوه على رؤوسهم يحملون الخناجر ، وألقى الله تعالى عليهم ظلمة شديدة فجعل بعضهم يقتل بعضاً إلى أن انجلت الظلمة عنهم ، وقد قتل منهم قرابة السبعين ألف قتيل فكان ذلك توبة لهم من قُتِلَ ومن بقى .

---

(١) الأعراف : ١٥٥ .　　(٢) البقرة : ٥٤ ، ٥٥ .

العبـرة،

ولنقف أيها القارىء الكريم لحظة نسجّل عبرتنا فنقول : إنها زلة كبرى زلها هؤلاء القوم الخيار ، إنهم بعد أن سمعوا كلام الله وهو يأمر وينهى قالوا : ﴿ **يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ (١) . وإذا كان هذا يصدر من عِلْية القوم وخيارهم فكيف بسوقتهم وأوباشهم ! إنها ظاهرة أكدت أن في القوم من ينطوى على فساد خلقى كبير ، وخُبْثٍ نفسى عجيب وسوف تنكشف لنا كل حلقة من حلقات هذه السلسلة التاريخية لبنى إسرائيل عن عجيب وغريب فى طباع بعض اليهود ونفسياتهم مما يؤكد أن ما نُسب إلى حكمائهم من برتكولات تحمل مخططاً إرهابيا لتدمير العالم الإنسانى والقضاء على كل خير فيه ، لا يعد تزويرا عليهم ولا كذبا ينسب إليهم ، وهذا جزء العبرة ، وجزؤها الآخر هو أن ما اشترط لقبول توبتهم كان شرطاً قاسياً فى ظاهر الأمر غير أنه فى باطنه رحيم وعادل ، لأن تلك القلوب القاسية المتمردة الشاردة لا يصلحها إلا ما كان شديداً من الأمر قاسياً ، فما أصاب المسلمين على أيدى هلاكو التترى من ويلات القتل والتخريب والتدمير كان عقوبة قاسية فى أمة مرحومة ، غير أن الأمة المرحومة إذا أعرضت عن ذكر الله ، وتمردت عن شرعه فقست قلوبها وفسقت عن أمر ربها استوجبت التأديب القاسى والعقاب المربّى الأشد .

ومن هنا يجب أن نعلم أن سنة الله لا تُحابى ، فالناس فى نسبتهم إلى الله تعالى واحدة وهى نسبة عبيد إلى ربهم ، فمن أحسن منهم فله الحسنى ، ومن أساء فله السوآى ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

زلة ثالثة

وهذه زلة ثالثة للقوم يحسن أن نمهد لذكرها ببيان الحقيقة التالية وهى أن الجماعة إذا فسدت وتأصل فيها الفساد يصبح من العسير إصلاحها ، ولا بد للمصلحين فيها أن يصبروا على محاولة علاجها زمناً طويلاً ينتهى بانتهاء تلك العناصر الفاسدة بالكلية ، وبوجود عناصر جديدة صالحة تختلف تمام الاختلاف عن تلك العناصر المتهالكة القديمة ، وستتجلى لنا هذه الحقيقة فى الحلقة التالية أما هذه الزلة الثالثة التى نريد الوقوف عليها للعظة والاعتبار فهى : أن بنى إسرائيل لما أنزل الله تعالى على موسى التوراة ، وهى كتاب

---

(١) البقرة : ٥٤ ، ٥٥ .

فيه الهدى والنور ، أنزله الله ليحكم به النبيون فى بنى إسرائيل ما تعاقبوا إلى ما شاء الله تعالى . وأمر موسى بنى إسرائيل بقراءته وفهمه وتطبيق شرائعه وتنفيذ أحكامه ، اعتذروا له عن عدم قبول ذلك والقيام به ، وذكروا عجزهم عن ذلك وعدم قدرتهم عليه ، فكان هذا منهم تمرداً خطيراً ، وزلة لا تقل عما تقدمها من زلات عظيمة ، وطالب موسى عليه السلام القوم بالامتثال والطاعة فتأبّوا عليه وتمنعوا ، وما أقسى قلوب القوم ! وما أغلظ طباعهم ! ! وكان من المناسب لإخضاعهم لأمر الله تعالى ولو مؤقتا أن يرفع الله تعالى فوق رؤوسهم جبلاً بكامله وهو جبل الطور تهديدا لهم وتخويفاً ، ولما رأوه فوقهم كأنه ظلة أذعنوا لأمر الله تعالى وتعهدوا وأعطوا عهداً وميثاقاً بأخذِ الكتاب وقراءته والعمل بما فيه ؛كما قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما أتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾ (١) . غير أنه ومع الأسف لم يمض عنهم غير قليل زمن حتى نقضوا عهدهم ونكثوا ، فتعرضوا بذلك للعنة الله وغضبه كما قال تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم** ﴾ (٢) .

العبرة من هذه الحادثة المعينة : أن هذه الأمة الإسرائيلية وهى تتدرّج للسقوط فى هاوية سحيقة تكادُ تذهب بوجودها فضلا عن ريحها وقوتها ؛ لكفرانها بنعم ربها ، وتمرُّدِها على شرائعه وأحكام دينه ، لا يستغرب منها أن ترفض القانون السماوى وأن تعتذر عن قبوله لاَ مِنْ أجْلِ عدم صلاحيته كما يقول كفار المسلمين اليوم ، بل بعجزها وعدم قدرتها عن تحمُّل أعبائه ، ولعل الموعظة كالعبرة قد تجلت الآن واضحة وهى أن الأمة الإسلامية اليوم برفض أكثرها للحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ورغبتها عن ذلك ، بل وبتصريح بعضها بأن الشرع الإسلامى أصبح غير صالح لحكم البشر وقيادتهم قد أصبحت تتدرّج إلى هاوية أعمق من تلك التى سقط فيها بنو إسرائيل ، لمّا رفضوا كتاب الله ، بعدم حفظه وتنفيذ ما فيه ، ولن تكون هذه الهاوية تيهاً فى مشكلة فلسطين فقط بل قد تكون ذهابَ الحرية والاستقلال ، وعودةَ الاستعمار سواء كان الغربى الذى سوف لا يرحمها حتى ببعض الرحمة التى عرفتها له من قبل أو الشرقى الذى سوف يمسخها مسخاً لا تبقى معه تلك الأمة التى عرفها التاريخ ماجدة طاهرة صالحة .

إلى الأرض المقدسة

وبعد كل الذى جرى ــ أيها القارىء الكريم ــ من أحداث جسام عزم موسى على

(١) البقرة : ٦٣ . (٢) المائدة : ١٣ .

السير ببنى إسرائيل نحو الأرض المقدسة ، فجمع بنى إسرائيل وخطب فيهم ، فوعظهم وذكرهم وحثهم على الجهاد والصبر وحذرهم من الإحجام والانهزام . كما حكى ذلك القرآن عنه فى قوله : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ (١) ، غير أن القوم جبُنوا عن القتال ، اعتذروا بقوة عدوهم ، وقالوا : ﴿ **إن فيها قوماً جبّارين وإن لن ندخلها حتى يخرجوا فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ (٢) . والعجب من القوم أنهم اشترطوا لدخولهم الأرض المقدسة خروُج العمالقة منها . فيا تُرى من يُخرجهم منها ؟ فهل كانت يومئذ أممٌ متحدةٌ كما هى اليوم تطالب بإخراج العمالقة وتصدر قراراً بإخراجهم فيخرجون ليدخل على إثرهم بنو إسرائيل ؟ أم هى العقلية المتحجِّرة ، والفهمُ السقيم ، والانهزامية المفضوحة . وإن صَحَّ لنا أن نعلل هذا العجز والضعف المحيط ببنى إسرائيل بأنه كان نتيجة الاضطهاد الفرعونى لهم عِدةً قرون ، فإن هناك علةً أخرى وهى أن النقباء الاثنى عشر الذين بعث بهم موسى عليه السلام إلى أرض القدس ليكتشفوا مدى قوةِ العدوّ ويقيِّموها بالقيمة الصحيحة لها ، ليكون موسى القائد على علم بذلك قبل خوض المعركة فإن هؤلاء النقباء لما دخلوا البلاد وعادوا ، عادوا وكلُّهم مخاوفُ ، فهوّلوا من شأن العمالقة وعظموا من أمرهم ما أصبحوا به الطابور الخامس ، فبثّت تلك الأخبار الخيالية عن العمالقة وقُوّتِهم الرعبَ والخوفَ والهلع فى نفوس بنى إسرائيل الأمر الذى جعلهم يقفون من أمر القتال هذا الموقف المتداعى المنهار ومن باب الإنصاف أن نذكر أن اثنين من النقباء وهما : يوشع بن نون ، وكالباً لم يخونا فيفشيا سِرَّ مارأيا من أمر العمالقة وهذا من إنْعام الله تعالى عليهما ولذا بقيا صامدين يطالبان بالقتال ، كما قال تعالى : ﴿ **قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ (٣) فقد شجعا بنى إسرائيل على القتال وهم على مشارف المدينة باقتحام أبوابها ومفاجأةِ العدوِ وضربِه ضربةً تفقده صوابه ، ولو فعلوا لكانت لهم النصرةُ والغلبة على عدوهم ، ولكن ما نشره النقباء الآخرون من أخبار خيالية للغاية وكذلك يفعل الخوف بأصحابه ــ جعل بنى إسرائيل يجبنون وينهزمون قبل القتال حتى قالوا : لموسى عليه السلام : ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون** ﴾ (٤) .

(١ ، ٢) المائدة : ٢٠ ــ ٢٢ . (٣ ، ٤) المائدة : ٢٣ ــ ٢٦ .

وهنا رأى موسى أنه لا جدوى من دفع هؤلاء الجبناء الرعاديد إلى المعركة وهم لها كارهون ، ومن حَوْمَتِها فارُّون ، فتبرأ منهم واعتذر إلى ربه قائلا : ﴿ **ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ (١) . فأجابه ربُّه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ **فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ (٢) .

العبرة

والعبرة من هذه الحادثة تَكْمُن في شيئين اثنين : ــ

أولهما : فقد الاعتبار والاعتداد بالشخصية الناشىء عن حياة الذل والمهانة زمنا طويلا مِن شأنِه أن يَترك صاحبه دائماً يشعر بالضعف والعجز أمامَ عدوِّه ، فلا يقدر على حربه وخوض المعارك ضِدَّه .

وثانيهما : الإعلان عن قوة العدو ونشر أخبارِها مُبالغاً فيها ومهُوَّلَةً ، من شأنه أن يصيب نفوسَ الجيوش بفقدِ المعنوياتِ والانهزامِ ، قبل الالتحام . وقد استعملت هذا السلاح ألمانيا الهتلرية في الحرب العالمية الثانية ، ونجحت فيه أيَّما نجاح في إبّان زحفها والتهامها لقارة أوربا تقريبا . كما استعمله اليهود اليوم وحقق لهم ما حقق ، ولولا ما حدث في رمضان ٩٣ لكان العالم إلى اليوم مازال يعتقد أن جيش اليهود لا يغلب ولا يقهر .

حادث التيه

ونعود الآن ــ أيها القارىء الكريم إلى بني إسرائيل وقد أغضبوا عليهم ربّهم ونبيّهم بجبنهم وخوفهم . إنهم بعد أن تعرضوا لغضب الله تعالى وعقابه بتركهم الجهاد ، وخوفهم من العباد ، تاهوا في صحراء سينا فكانوا يرحلون يوميّا ويقيمون فلا يتجاوزون مسافة تسعة فراسخ . قضوا على هذه الحال أربعين سنة كاملة لا تنقص ولا تزيد . جرت لهم خلالها أمور بعضها مشرق وبعضها محرق فمن المشرق ما أكرمهم اللهُ به من تظليلِ الغمام لهم ، ونُزولِ المنّ والسلوى عليهم وتَفَجُّر الماء العذب من حجر كان معهم ، وإحياءِ القتيل لهم وإخباره بقاتله دَفعاً لاصطدام قبائلهم وحقناً لدمائهم .

(١ ، ٢) المائدة : ٢٣ ــ ٢٦ .

ومن المحرق أنهم سَئِمُوا المن والسلوى ، وطالبوا بتغيير طعامهم ولم يصبروا عليه فعوتبوا على ذلك ، ﴿ **أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم** ﴾ (١) .

ومنها أنهم آذوا موسى عليه السلام ، فقالوا إنه آدر ، ولذا هو لا يغتسل معنا ، وبرأه الله من هذه السبّة ، فاغتسل يوماً ووضع ثوبه على حجر فهرب الحجر به فخرج موسى يعدو وراءه ويقول : ثوبى حجر . . ثوبى حجر . حتى مر الحجر بجمع من بنى إسرائيل ورأوا بأعينهم سلامته من الأدرة ، والتى هى انتفاخ إحْدى الخصيتين . وفى القرآن الكريم : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً** ﴾ (٢) ، ومنها وفاة الرسولين العظيمين موسى وهارون عليهما السلام .

هذا وبعد مضى مدة التيه بأحداثها ، وانقراض ذلك الجيل العاجز الضعيف ونُشوء جيل صحراوى جديد يتمتع بسلامة الروح ، وقوة الإرادة ، قاد يوشع بن نون وهو خليفة موسى فى قومه قاد بنى إسرائيل لقتال العمالقة ، وحاصر بلادهم ، وقاتلهم قتالا مريراً ، وفى أُمْسيةِ جُمْعةٍ من آخر أيام القتال اقتربت جيوش بنى إسرائيل من أبواب المدينة لاقتحامها ، وإذا الشمس كادت تغرب ، وإذا غربت وقف الزحف لحرمة القتال فى السبت وحكم ليلة السبت حكمُ نهارها ، وخاف يوشع القائد الربّانى ضياع الفرصة وفواتها ، فسأل ربه أن يحبس عليه الشمس ساعة ، فحبسها الله تعالى عليه حتى أتَمّ مأموريّته من اقتحام الأبواب ودخول المدينة واحتلالها .

وبسقوط العاصمة فى إيدى بنى إسرائيل . أخذت تلك البلاد تنهار المقاومة فيها وواصل يوشع احتلاله لها بلداً بعد آخر ، حتى استتبّ له الأمر فى كلها ، وبذلك تكونت أول مملكة لبنى إسرائيل تضم الأرض المباركة كلها شرقها وغربها كما قال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها** ﴾ (٣) . واستمرت مملكة بنى إسرائيل قوية صالحة زمناً طويلاً حتى أخذوا فى السرف والترف ، ففسقوا عن أمر الله وخرجوا عن طاعته ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسلط الله عليهم البابليين فغزوهم ، واجتاحوا بلادهم فسلبوا ونهبوا وقتلوا وخربوا بيت المقدس وأحرقوا التوراة ومزقوها ، وأخذوا التابوت إلى بلادهم وحَرَموا منه بنى إسرائيل ، والتابوت عبارة عن صندوق فيه بقايا مما ترك آل موسى وهارون ، وكان بنو إسرائيل إذا

---

(١) البقرة : ٦١ . (٢) الأحزاب : ٦٩ . (٣) الأعراف : ١٣٧ .

قاتلوا عدواً لهم حملوه معهم متبركين به ، فترتفع معنوياتهم ويصمدون للقتال .

وعاش بنو إسرائيل بعد هذه الهزيمة وهذا التشريد أقسى ظروف وأشدها ، فقد تكون أسوأ وأشد من الظروف التى يعيشها الفلسطينيون اليوم ، ومنذ أن طردهم اليهود المعاصرون أبناء أولئك اليهود الغابرين الذى نستجلى العبرة من تاريخهم فى حديثنا هذا .

واستمر الاحتلال البابلى لبلادهم طيلة سبعمائة سنة تقريباً ، وبنو إسرائيل يعيشون فى أتعس حال وأسوءها ، وكان ذلك جزاءاً وفاقاً لفسقهم وفجورهم . وما الله بظلام للعبيد .

العبرة

والعبرة فى هذه تتجلى من قوله تعالى : ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيراً ، فإذا جاء وعْدَ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً** ﴾ (١) .

فكانت هذه الأولى ، ففساد بنى إسرائيل بالعمل بالمعاصى ، وعُلُوُّهم بالتمرد عن الشرع وإهدارهم للعدل ، وحكمهم بالظلم هو الذى جَرّ عليهم نكبة وجلب لهم محنة دام تسعمائة سنةٍ تقريباً ؛ إذ قيض الله تعالى لهم شر عباد له وهم البابليون بقيادة بختنصر ، فأنزلوا بهم ذلاً وعاراً دام مئات السنين جزاء فسادهم وعلوهم ، وتلك سنة الله تعالى فى كل أمة يعطيها الله دولة وسلطاناً فتسرف وتفسق وتظلم . ولْيعتبرْ أولوا الأبصار .

العهد الثانى

لبنى إسرائيل

وبعد مضىّ زمن طويل من التشريد على بنى إسرائيل ، وبلادهم محتلة من قبل البابليين وهم يعيشون محرومين منها حرمان العرب اليوم من أرض فلسطين ، نبتت فى بنى إسرائيل نابتة صالحة من شبيبة عاشت على التشريد والحرمان ، فذكرت مجد آبائها السالف ، وعزمت على البحث عن طريق للخلاص من المحنة التى تعيشها أمتها زمناً طويلاً ، وكان فيهم عبد صالح هو النبىّ شَمْوِيلْ عليه السلام ، فذهبوا إلى نبيهم والتفُّوا حوله ، وقالوا : عَيِّنْ لنا قيادة نقاتل تحت رايتها فى سبيل الله ، وتسترد مجدنا وبلادنا ، ولما

(١) الإسراء : ٤ ، ٥ .

يعلمه النبيّ شمويل من الضعف والتفكك صارحهم بأنه يخاف عليهم إن تعين القتال لم يستطيعوه ولم يصبروا عليه فأجابوه بقولهم : ﴿ **وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا** ﴾ (١) . فعيّن له شمويل ملكاً قائداً هو طالوت ، وكان أهلاً لقيادتهم بما آتاه الله من الكفاية العلمية والبدنية . غير أن القوم لأمراضهم النفسيّة ، والتعفن الخلقى الذى يتوارثه البعض عن البعض نتيجة الفسق والانحطاط المستمر فى فئام منهم ، اعترضوا على نبيّهم فى تعيين طالوت ملكا لهم ، ولم يَخْضَعُوا لقيادته إلاّ بعد أن أظهر الله كرامة على يديه ، وهى رجوع التابوت إليهم تحمله الملائكة من أرض العراق إلى ديارهم . وبذلك قبلوا ولايته وانضوَوْا تحت رايته ، وقادهم إلى ساحات الشرف وميادين القتال ، وأثناء سيرهِ بهم ، اختبرهم ليعرف من يصلح للجهاد منهم ممن لا يصلح ، فقال : ﴿ **إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غُرفهَ بيده** ﴾ (٢) . فلم يشرب منه من تلك الألوف إلا ثلثمائة وبضعة عشر عِدة أصحاب بدر ، ولما جاوز النهر هو ومن معه من المؤمنين ، قال بعضهم لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، وجالوت هو قائد قوات العدو فرد عليهم أهل اليقين منهم قائلين : ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ (٣) . ولما برَزوا للعدو ﴿ **قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ (٤) وطالب جالوت بالمبارزة على عادة الحروب القديمة . فخرج له شابٌ مهيأً للكمال مخصوص بعناية إلهية هو داود بن إيشا فبارزه فهزمه وقتله . فرشّحه هذا النصر المبكّر لقيادة بنى إسرائيل فيما بعد ، والتحم الجيشان ، وهزم المؤمنون الكافرين بإذن الله كما هى سنة الله تعالى فى كل معركة يلتقى فيه الإيمان بالكفر .

وبهذا النصر استرد بنو إسرائيل بلادهم وسلطانهم ، وأصبحت لهم دولة عزتها تناطح الجوزاء حيث كانت على عهد سليمان مملكة يمتد سلطانها على الشرق والغرب ، وهذا هو عهد بنى إسرائيل الثانى وهو عهد قوة وازدهار لا نظير لهما . واستمرت الحال كذلك صالحةً حتى أترفوا مرة أخرى وأسرفوا فتبرّجت نساؤهم ، وفسق كبارهم ولهى ولعب وعربد شبانهم ، وجار فى الحكم قضاتهم قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، تنازعوا الملك وسفكوا الدماء ، وجاء وعد الآخرة كما قال تعالى :

---

(١) البقرة : ٢٤٦ . (٢ ـ ٤) البقرة : ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الاخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علواْ تتبيراً ﴾ (١) . فسلط الله عليهم الروم فغزاهم القائد الرومى إسْنَانُوس بأمر قيصر الروم ، وثلَّ عرشهم ، ومزق ملكهم ، وكان آخر ملوك اليهود الملكُ اغْرِبَاس الطاغية الظلوم الغشوم ، وبسقوط هذه المملكة اليهودية على يد الروم تشرد اليهود وهاموا على وجوههم فى العالم يلقون التعاسة والذل والمهانة حيثما حلوا وارتحلوا جزاء فسقهم وظلمهم ، وكتب الله عليهم ذلاً لايبرح ومسكنةً لا تزول وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

والعبرة هنا كما هى هناك : الانحراف عن الشرع ـ الظلم ـ الفساد ـ الخلاعة ـ المجون . هذه دائماً هى عوامل السقوط والهبوط ، وأسباب الدمار والخراب . فلو تتبعنا أنواع المظالم والفواحش والجرائم التى ارتكبها اليهود فى عهد ما بين موت سليمان إلى نهاية ملكهم لملأت آلاف الأسفار وهى جرائم سوداء يكفى فيها شهادة القرآن إذ يقول : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ (٢) .

تشرد اليهود فى العالم

أو العهد الأخير لليهود

إنه أيها القارىء الكريم بسقوط آخر مملكة لليهود على أيدى الروم تشرد اليهود فى العالم وذهبوا كل مذهب تطاردهم لعنات السماء فى كل مكان ، غير أنهم لم ييْأسوا من عودة ملكهم ، ومن الانتقام من العالم بأسره إن هم ظفروا به وملكوه وتحكموا فيه ؛ فلهذا لم يبرحوا يخططون ، ويضعون الخطط الجهنمية المدمرة للبشرية ، فكانوا وراء كل فتنة فى العالم ، وخلف كل حرب يوقدون نارها بين الناس ، ولما اشتدت عليهم وطأة الروم النصارى أعدائهم أخذوا يبحثون عن أماكن للهجرة بعيدةٍ عن أيدى أعدائهم يأمنون فيها ، وحتى يواصلوا عملهم لإعادة مملكة إسرائيل فى الأرض المقدسة فيما بين النيل والفرات ، ونظراً لخلوّ جزيرة العرب من سلطان الروم الذى كان يقسو عليهم ، أخذوا ينزحون إليها

---

(١) الإسراء : ٦ ، ٧ .

(٢) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ .

فنزلوا تيما وخيبر وفدك ويثرب [(١)] لا سيما وأن التوراة قد بشرت بنبوة جديدة سيكون لها شأن كبير فكان يحدوهم الأمل أن يكون النبىُّ المنتظر المبشر به المنقذ لهم مما هم فيه . وقد حكى القرآن هذا الأمل لليهود فى قوله : ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾ [(٢)] . وتطلع اليهود حسب بشارات التوراة إلى النبى المنقذ الذى سيخرج من جبال فاران ، وتكون يثرب دار هجرته ، وعاصمة حكمه ، وأخذ الزمن يقترب ، وأضحت أيام النبوة الجديدة معدودة ، وظهرت فى الكون إرهاصات ، ولاحت فى الأفق تباشير .

وطلع الفجر ، وظهرت النبوة المرتقبة ، وبعث محمد ﷺ فى مكة المكرمة وطارت بخبر نبوته الركبان ، وبلغ اليهود النبأ كما بلغ غيرهم ، وأخذوا يرتقبون الأحداث ، ويتحسسون مجارى الأمور ، وكانت قريش تبعث إليهم بالتساؤلات والاستفسارات ؛ لَعلْم قريش بأن اليهود أهل كتاب وهم أعرف بشأن النبوة والنبى ، فكان اليهود يصدقون قريشاً أحياناً ، وعلى سبيل المثال : أن قريشاً بعثت مرة تسألهم عن نبوة محمد ﷺ ومدى صدقه فيها ، فقالت اليهود : سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عنها كلها ـ أو لم يجب عن شىء منها فإنه ليس نبىّ ، وإن أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحد فهو نبىّ فروا رأيكم فيه . سلوه عن فتية فُقِدوا فى الزمن الأول فإنه كان لهم حديث عجيب ، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره ؟ ، وعن الروح . فكان فى جوابهم هذا طابع الصدق فيما سئلوا عنه . وتوالت الأحداث وتجلى لليهود أن محمدا ﷺ هو النبى المنتظر ، وأنه من ولد إسماعيل ، لا إسرائيل ، وتأكدت معرفتهم بما لم يُبْقِ للشك مجالا ، وفى القرآن : ﴿ **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ [(٣)] . ورأوا أن فى اتباعه والإيمان به قضاءً على آمالهم فى عودة ملك بنى إسرائيل وسيادتهم ، وأن فى قبول الإسلام واعتناقه إنهاءً كاملا وذوباناً تاماً لشعبهم .

فعزموا مِنْ سَاعَتَئِذٍ على عدائه ومناوأته . ومن ثم ما أصبحوا يصدقون قريشا إذا سألتهم عن شأن النبى واستفسرت عن حاله والحادثة التالية تؤكد هذا ، فقد وقع أن سافر كعب بن الأشرف مع وفد إلى مكة وذلك عقيب وقعة بدر ليقدموا التعازى لقريش ، ويعقدوا حلفا معها ضد محمد ﷺ ، ويخبروها عن عزمهم على نقض المعاهدة التى بينهم وبين الرسول ﷺ .

---

(١) يثرب اسم مدينة الرسول ﷺ قبل الإسلام . (٢) البقرة : ٨٩ .
(٣) البقرة : ١٤٦ ، الأنعام : ٢٠ .

ولما ارتابت قريش فى صدق اليهود ، وخافت مكرهم وهم قوم بُهْت ، امتحنتهم ، فقال لهم أبو سفيان بن حرب زعيم قريش يومها ، وهم ضيوف فى منزله : إن كنتم صادقين فيما قلتم فاسجدوا لهذين الصنمين . فسجدوا ، ثم قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون ولا نعلم ، فأينا أهدى سبيلا نحن أم محمد ؟ فقال كعب : أعرض علىّ دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن نسقى الحاج ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت الله ونطوف به ، ومحمد ﷺ فارق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وفارق الحرم ، وديننا القديم ، ودينه الحديث ، فقال كعب : بل أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** ﴾ (١) ! .

اليهود بالمدينة النبوية

والآن أيها القارىء الكريم نعود إلى المدينة النبوية لنرى موقف اليهود من الرسول ﷺ وقد نزلها مهاجراً هو وعدد من المؤمنين به . فنقول : نزل الرسول ﷺ المدينة وكانت يومئذ تدعى يثرب ، نزلها مهاجراً بعد أن هاجر إليها كثير من المؤمنين بإذنه ، فدخل الإسلام المدينة بقائده وجنده ، واليهود يكوّنون منها زاويتين منفرجتين جنوباً وشرقاً .وهم قبائل ثلاث : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، ولكل قبيلة أحلافها ومواليها من الأوس والخزرج . كما أن هناك يهوداً شمال المدينة يسكنون خيبر ، وتيما ، وفدك وما إليها من قرى ، وكانت لهم بالفعل شوكة قوية فى هذه البلاد لا يُستهان بها ، فكان من الحكمة أن يعقد الرسول ﷺ مع يهود المدينة المجاورين له فيها معاهدات سِلْم وحسن جوار ، فعقد ﷺ مع كل قبيلة عقد أمان ، وهذه فقرات من نصوص تلك المعاهدات : وأنّه مَن تبعنا من يهود فإنَّ له النّصرُ غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ـ وأنَّ اليهودَ يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن ليهودِ بنى فلان ما ليهود بنى فلان إلاّ من ظَلَم وأثِم فإنه لا يوتغ (٢) إلا نفسهَ وأهل بيته ، وإن الله على أبَرِّ هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ـ وأن النصر للمظلوم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلاّ من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بَرَّ

(١) النساء : ٥١ .
(٢) لا يهلك .

واتّقى ، ومحمدٌ رسول الله ﷺ إلى آخر ما جاء فى كتاب الموادعة .

بيد أن اليهود فى هذه الفترة بالذات قد انعدم فيهم ما كان من بقايا الخير إلا قليلا ، وذلك لطول العهد بينهم وبين أنبيـائهم الذين كانوا يذكرونهم بالله تعالى ، ويخوفونهم نقمه : كما قال تعالى : ﴿ **فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ (١) . فبمجرد أن شاهدوا الرسول بالمدينة والمؤمنون من أنصار ومهاجرين يلتفون حوله امتلأت قلوبهم غيظاً وصدورهم حـنقا ، وكادوا يغصون بريقهم . وزاد فى آلامهم النفسية انتصاره ﷺ على المشركين يوم بدر . فما كان منهم إلا أن كاشفوا المؤمنين بالعداء ، وصرحوا به . وشعر الرسول ﷺ بعدم ارتياحهم لانتصاره فى بدر فجمعهم فى مكان ما من المدينة ودعاهم إلى الإسلام ، وحذرهم من مغبة كفرهم وفسقهم ، ومن نقض معاهداتهم معه . فقال قائلهم فى صراحة : لا يغرنك من نفسك ان قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، فأنـزل الله تعالى فيهم قولـه : ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مِثليهم رأىَ العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾ (٢) .

وهذا من الغيب الذى أخبر به القرآن قبل وقوعه فكان كما أخبر . فقد نقض اليهود عهودهم قبيلةً بعد أخرى ، فغلبوا كما أخبر الله تعالى ، وهذه صورة لذلك النقض والغَلَب الذى تم بحول الله وقوته :ـ

١ ـ نقض بنى قينقاع وغلبهم ، وسبب هذا النقض أن امرأة من العرب قد قدمت بجلب لها تبيعه فى سوق بنى قينقاع فباعته ، وجلست إلى صائغ تريد شيئاً فجعل يهود يريدونها على كشف وجهها فأبت ذلك فعَمد أحدهم إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتُها فجعلوا يضحكون بها ـ وهذه ظاهرة تدل على انحطاط اليهود الخلقى ، وفسادهم النفسى فى ذلك الزّمن ، وما كان من تلك المرأة العربية إلا أن صاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، وشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين يهود بنى قينقاع فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه . وألَحَّ عليه ابـن أبىّ (٣) فوهبهم له ، ولـم يقتل منهم أحداً ،

---

(١) الحديد : ١٦ .   (٢) آل عمران : ١٢ ، ١٣ .

(٣) هو رئيس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان بنو قينقاع أحلافا له .

وأجلاهم ﷺ عن المدينة فلحقوا بالشام .

٢ ـ نقض بنى النضير عهدهم . وذلك أن النبى ﷺ خرج إليهم يستعين بهم على أداء دية رجلين معاهدين من المشركين قتلهما أحد المسلمين جهلاً بعهدهما ، فلما وصل رسول الله ﷺ إلى بنى النضير ، وأخبرهم خبره ، قالوا : نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت ، ثم خلا بعضهم ببعض ، وقالوا : إنكم لن تجدوه على حالٍ كهذه ، والرسول ﷺ جالس مع أصحابه إلى جدار من بيوتهم ، فقالوا لبعضهم : من يعلوا هذا البيت فيلقى هذه الصخرة عليه فيقتله ويُريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جِحاش اليهودى : هو لذلك . وأُوحِىّ إلى رسول الله ﷺ بما دبره اليهود له ، فقام لفوره كأنه يريد حاجته ، ثم انطلق مسرعاً إلى المدينة ولحق به أصحابه وبهذا الغَدر فى النقض أعلن رسول الله ﷺ الحرب عليهم ، وتهيأ لقتالهم ، وخرج إليهم فحاصرهم حتى نزلوا من حصونهم ، ولم يقتل منهم أحداً ، وأجلاهم من المدينة فتركوا أموالهم ، وذهبوا بنسائهم وأطفالهم إلى خيبر ورحّبت بهم فنزلوها .

٣ ـ نقض بنى قريظة ، وكيفيته : أن وفداً تشكل من يهود بنى النضير نُزلاء خيبر برئاسة اللعين حُيَيْ بن أخطب ، وسلاَّم بن أبى الحُقيق ، وأخيه كنانة وكلُّهم نضريّون وخرجوا يُؤَلِّبون العرب ويحزبون الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ ، وزار الوفد مكة وحرض قريشاً وحثها على الحرب ، ثم ذهب الوفد بعد نجاحه فى مكة إلى بنى أسد وغطفان فحرضوهم على الحرب وأطلعوهم على عزم قريش على هذه الحرب واستعدادها لخوضها . ثم أتى الوفد المدينة متسللا واتصل بقريظة وأطلعها على ما تَمَّ ، وما زال معها يفتل غاربها حتى وافقت على نقض معاهدتها مع رسول الله ﷺ والدخول فى حرب الأحزاب ، على أن يكون دورها فيها أن تطعن الرسول ﷺ من خلف عندما يحتدم القتال ويشتدُّ بين الفريقين .

وبهذا نقضت قريظة عهدها ، وأعلنت حربها ، ولما فشل المشركون فى حملتهم وعادوا من حيث أتوْا خائبين ؛ إذ كفى الله المؤمنين القتال فلم يقع قتال . فرجع رسول الله ﷺ من الخندق ظهر يوم الأربعاء، وأمر بقتال بنى قريظة فأمر أصحابه على الفور أن يخرجوا إليهم ، وقال : « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » ، فخرجوا إليهم وحاصروهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ وقد حكم فيهم بقتل مقاتليهم . فقُتلُوا جميعاً ، واسترقّ نساؤهم وأطفالهم وذلك جزاء الْغَدرِ والخيانة ، وبناءً على إعلان يهود

خيبر الحربَ بإيوائهم النَّضَرِيين والمشاركة المعنوية فى حرب الأحزاب غزاهم رسول الله ﷺ وهزمهم ودخل بلادهم وهو يقول : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » ، وبهذا انكسرت شوكة اليهود بالجزيرة نهائياً ، وخرجوا منها حيث لا يعودون إلى الأبد . إن شاء الله تعالى .

العبـرة

والعبرة من هذا ـ أيها القارىء الكريم أن اليهود لا عهد لهم ولا ذمة ، وأنه لذلك لعنهم الله تعالى لعنة أبدية ، وجعل قلوبهم قاسية لا ترق وطباعهم غليظة لا تلين فقال تعالى عنهم : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً** ﴾ (١) . وقال : ﴿ **أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ (٢) . فأصبح مع هذا من غير المعقول أن يُطْمأنّ إلى معاهدة تُعقدُ مع اليهود ، أو مهادنة أو موادعة بحال من الأحوال ؛ إذ من المؤكد أنهم سينقضونها لأول فرصة تسنح لهم فمن الحكمة والحزم محاربتهم وقتالهم إلى كسر شوكتهم وذهاب ريحهم ، والله المستعان بعد ذلك على مؤامراتهم وغشهم وخداعهم .

للاعتبار

وأخيراً وللاعتبار . . نختم حديثنا هذا عن اليهود بمقارنات لا مفارقاتَ فيها . ومن خلال ذلك تتجلى للسامعين حقائق كبرى على المسلِم الواعى الشاعر بمسئوليته نحو إسلامه ، والمطالب بتقديم شيء لنصرة دينه ، أن يتفهمها جيِّداً ، ويَحفظها ويعيشَ يفكِّرُ فيها ، ويتحرك ويعمل على ضوئها .

وها هى ذى المقارنات مستوحاة من القرآن الكريم ، شأنُها شأنُ كل هذا الذى تقدم من الحديث بعبره وعظاته فإنه مُسْتقى من القرآن ومُسْتَوْحى منه ، ولذا فهو من الصدق والصحة بمكان .

١ ـ **أخـلاق اليهود** : إن الانحطاط الخلقى فى الأمة لا شك أنه يزيد فى طول

---

(١) المائدة : ١٣ .		(٢) البقرة : ١٠٠ .

محنتها ، وصعوبة ما تلاقيه من ضعف وانهزام واليهود ساءت أخلاقهم ، وانحطت إلى درجة لا نظير لها بين كثير من أمم العالم وشعوبه . فالحسد وهو أسوأ الأخلاق وأرذلها كان الطابعَ الغالب على اليهود ، والحسود لا يسود ـ فقد حسدوا المسلمين على هداية الله تعالى لهم ، وحملهم ذلك على معاداتهم ومحاربتهم ، ثم على الكيد لهم والمكر بهم وإلى يومنا هذا قال تعالى : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق** ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ (٢) ؟ والاستفهام هنا للتقرير ، إذ أم هذه بمعنى بلْ ، والهمزة الاستفهامية . وإذا كان الحسد من الأمراض الاجتماعية العائقة عن النهوض والكمال ، فهل المسلمون معافون منه ، ومظاهره بارزة فى كثير من جوانب حياتنا أفراداً وجماعات ؟ ألا فلْنعتبر !

وكالحسد الجبن وحب الحياة وَهُما خلقان ذميمان من أسوأ الأخلاق وأقبحها ، فإنهما ما زال من أخلاق اليهود المتأصِّلة فيهم ، ويكفى فى الدلالة على هذا قوله تعالى : ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا** ﴾ (٣) . وقوله : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرىً محصنة أو من وراء جدر** ﴾ (٤) . وقوله : ﴿ **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ (٥) ـ وما ذاك إلا لجبنهم قطعاً . وقال تعالى فى بيان حبهم للحياة وحرصهم عليها : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة** ﴾ (٦) . وإذا كان الجبن وحب الحياة من عوامل الهزائم ، وأسباب الضعف والقعود عن طلب المجد والكمال ، وقد قعدا باليهود عن ذلك قروناً طويلة ، فهل المسلمون اليوم بعيدون من ساحة هذين الخلقين المرذولين ؟ ولو لم يكونا من أخلاق كثيرين من المسلمين اليوم فكيف استطعنا أن نصبر على مدينة قدسنا تدوسها نعال يهود ؟ وعلى شعب كامل يتحكم فيه إخوان القردة والخنازير ؟ . وفى كل عام يحتل اليهود جانباً من بلادنا فنعجز عن قتالهم وإخراجهم ، ونطالب أمم العالم أن يخرجوهم عنا ، أليس هذا هو موقف اليهود الأولين قالوا : ﴿ **وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ (٧) .

٢ ـ نفسيات اليهود : النفسيات المريضة التى كان عليها اليهود نفسيّة الاغترار ، وقد

(١) البرة : ١٠٩ . (٢) النساء : ٥٤ . (٣) آل عمران : ١١٢ .
(٤) الحشر : ١٤ . (٥) آل عمران : ١١١ .
(٦) البقرة : ٩٦ . (٧) المائدة : ٢٢ .

كانت هذه النفسية من أسباب ضلال اليهود وقعودهم عن طلب العز والمجد دهرا طويلا ؛ ولإثبات هذه الحقيقة نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون** ﴾ (١) . وقوله جلَّ ذكرُه : وقالوا : ﴿ **لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات** ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ (٣) ـ وإن شاركهم فى هذا النصارى . وقوله : ﴿ **وقالوا قلوبنا غلف** ﴾ (٤) يعنون أنها مَلأَى (٥) بالعلوم والمعارف فهم فى غير حاجة إلى مزيد مما جاء به محمد ﷺ . كلٌ خبر من هذه الأخبار الإلهية دال بصدق على هذه النفسية المنحطة فى اليهود وهى الاغترار ، فجرأتهم على اقتراف الجرائم واجتراح السيئات ، وقعدت بهم عن العمل والإنتاج والجهاد زمناً طويلاً عاشوه مشردين فى بلاد العالم يغشاهم الذل والصغار آناء الليل وكلَّ النّهار . وإذا كانت هذه النفسيةنفسية الاغترار من أسباب ضلال اليهود وقعودهم عن طلب المجد والشرف زمناً غير قصير . فهل المسلمون اليوم معافون من هذه النفسية المضله المقعدة عن طلب العز والكمال ؟ وإن أنصفنا الواقع قلنا : لا ، والله . وكيف ، وأغلب المسلمين اليوم يعيش على الاغترار بأن الإسلام وإن هجر كتابه ، وعُطّلت أحكامه ، ونبذت شرائعه ، وحورب من أبنائه ، أنه بخير ولا خوف عليه أبدا ، وأنه خالد باق . وأن المسلم مهما أجرم وأفسد ، وفسق وفجر فإنه محظٌ رحمة الله وكرامته ، ولا يمكن أن يدخل النار أو يخلد فيها بحال من الأحوال إلى غير ذلك من الادعاءات التى تتنافى مع القرآن فى قوله : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجز به ، ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً** ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ **بلى من كسبَ سيئةً وأحاطت به خطيئـته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ (٧) ، ومُثل نفسية الاغترار عند اليهود نفسية الفسق وقساوةِ القلب .

إن مما عرف به اليهود من النفسيات الخبيثة فسقهم وقساوةُ قلوبهم وهى من أسباب محنتهم وشقائهم . فقد نَعَى القرآن ذلك عليهم وسجّله فى غير آية مِن آيِه . ومن ذلك قوله صدقت أخباره : ﴿ **ولو آمن أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ (٨) ، وقوله : ﴿ **فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون** ﴾ (٩) . ومن مظاهر فسقهم أكْلُهم الربا وقد نُهوا عنه . وأكلُهم أموالَ الناس

(١ ، ٢) آل عمران : ٢٤ . (٣) المائدة : ١٣ . (٤) البقرة : ٨٨ .

(٥) هذا أحد وجهى تفسير للآيةوالوجه الثانى : أنها غلف بمعنى مغشاة باغطية فلا تعى ما يقال لهم .

(٦) النساء : ١٢٣ . (٧) البقرة : ٨١ .

(٨) آل عمران : ١١٠ . (٩) الحديد : ١٦ .

بالباطل ، وهذا يَحصلُ لهم عادة من طريق الرشوة ، والغش فى المعاملات ، والتدليس فى المبيعات ، وبيع المحرمات وأكلِ ثمنها . ومن مظاهر قسوة قلوبهم : جُرْأتُهم على الكذب على الله تعالى بتحريفِ كلامه ، وتأويل أحكامه ، ونسبةِ كثير من النقائض إليه ، تعالى الله عن ذلك وتنزّه عمّا يَصِفون ، ومن مظاهر قسوة قلوبهم كذبُهم على الأنبياء ، وقتلُهم إياهم بغير حق وصدهم عن سبيل الله ، إلى غير ذلك من الجرائم والعظائم التى لا تصدر إلاّ عن ذوى القلوب القاسيةِ الآثمة ، وها هى ذى آيات القرآن شاهدة عن كلّ هذا قال الله تعالى عنهم : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ (١) ـ وقال : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً** ﴾ (٤) . إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بفسق اليهود وقسوة قلوبهم ، الأمر الذى كان سبباً فى غضب الله عليهم ولَعْنِه إياهم . وخِزْيِه لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

والآن ـ أيها القارىء الكريم ـ ونحن نتمثل قول الحبر ابن عباس رضى الله عنهما : نِعم أبناء العم لكم اليهود . فما كان حُلواً فهو لكم ، وما كان مراً فهو لهم . نتساءل فنقول : هل فسق اليهود عن أمر ربهم ، وخروجهم عن طاعته ، وقساوةُ قلوبِهم عند ذِكْرِهِ ، وعدم الخوف من تهديده ووعيده الأمر الذى جرأهم على سبه تعالى وشتمه ، وسب أنبيائه وقتل من نالته أيديهم منهم ، هل هذه الجرائم إذا صدرت عن اليهود تغضب الله تعالى ويلعن بها ويوعد عليها ، ويعذب ويشق بها . وإذا صدرت عن المسلمين فإنها لا تغضب الله تعالى ، ولا يلعن بها ولايوعد عليها ولا يعذب بها ؟ وإذا كان الجواب قرآنيا : ﴿ **من يعمل سوءاً يُجز به** ﴾ (٥) . ﴿ **ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراًّ يره** ﴾ (٦) ـ ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ (٧) ، ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم** ﴾ (٨) . (**ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**﴾ (٩) .

فهل يغنى المسلمين عن الواقع الذى يعيشون ، والمستقبل المظلم الذى ينتظرهم ، وهم متقمِّصون فى الجملة ثوب اليهود ، ويترسمون خطاهم ، ويتتبعون سننهم فى كل فسقهم وفجورهم ، وحتى فى جرءتهم على الله بالكذب والافتراء عليه ، فَلَقد عُطِّلت أحكام

(١) آل عمران : ١٨١ . (٢) المائدة : ٦٤ . (٣) آل عمران : ٢١ .
(٤) النساء : ١٥٦ . (٥) النساء : ١٢٣ . (٦) الزلزلة : ٨ .
(٧) المدثر : ٣٨ . (٨) الزخرف : ٥٥ . (٣) يوسف : ١١٠ .

الشرع بينهم ، واستبيح المحرم فيهم ، تبرّجت النساء ، وأكل الربا ، وشاع الزنا ، نقضت العهود ، وزوِّر الشهود ، ضيّعت الصلاة ، واتبعت الشهوات ، ظلم حكامهم ، وارتُشي قُضاتُهم ، وذَلَّ وزَلَّ علماؤُهم ، وَالَوْا الكافرين ، وعادوا المؤمنين ، وانسلخوا من الإيمان والحياء ، وباعوا فى شتّى المواقف الدين بالدنيا . فهل ترون أن نسبتهم إلى الإسلام أغنت عنهم شيئاً فلم يهونوا ولم يذلوا ولم يخطوا ، وإذا لم تغن عنهم هذه النسبة اليوم فهل تغن عنهم غداً ، وإذا لم تغن عنهم فى هذه الحياة فهل تغن عنهم فى الحياة الآخرة ؟

والسلام عليكم أخى القارىء ما آمنت واعتبرت ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

إلى الفتاة السعودية

والمسئولين عنهـا

حررهـا

أبو بكـر جابـر الجـزائـرى

الواعظ بالمسجد النبوى الشريف

والمدرس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم

وبعـد :

فهذه رسالة « إلى الفتاة السعودية والمسئولين عنها » أملاها الشعور بواجب البيان في قول الله تعالى : ﴿ **لتبيننه للناس ولا تكتمونه** ﴾ (١) . وفي قوله جل جلاله : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾ (٢) .

وحمل على نشرها ودفع إليه خطر حملة التشكيك المركزة على حجاب المرأة المسلمة في ديار الله في هذه الأيام .

نقدمها بإخلاص آملين أن تجد فيها الفتاة السعودية دعماً قوياً لموقفها الصمودي في وجه التحديات التي تريد منها أن تنزل من علياء كرامتها ، وأن تتخلى عن طهارتها ، وقداسة حجابها لتصبح نذلة مرذولة كأولئك الساقطات اللائي عبثت بهنّ يدُ الأهواء والشهوات فتركتهن غارقات في وحل حياة لا مفهوم لها ولا معنى .

ومن المؤسف جداً أن طريق الخلاص من هذه الورطة قد تعذر على أكثرهن ، فلم يبق لهن أي مجال للنجاة ، وتحتم أن تسير حياتهن هكذا إلى نهايتها ، وهي نهاية مؤلمة ، وخاتمة سوء والعياذ بالله .

---

(١) البقرة : ١٥٩ .

(٢) آل عمران : ١٨٧ .

يا فتاة السعودية

إفهمي ما أقول لك

يا فتاة السعودية : إن يداً ماكرة خبيثة خادعة قد امتدت إليك فى هذه الأيام لتنزلك من علياء كرامتك ، وتهبط بك من سماء مجدك ، وتخرجك من دائرة سَعْدَك ، فاقطعيها بسرعة وشدة فإنها يد مجرمة ظالمة .

يا فتاة السعودية : إن نفساً خبيثة شريرة قد تصَدّتْ لفتنتك وإخراجك من جنتك ، لتنزع عنك لباسك ، فالعنيها ، واستعيذى بالله منها ، فإنها تريد شقاءك وتعاستك فى دنياك وأخراك .

يا فتاة السعودية : إن فتنة كبرى قد دبرت لك من أجل مسخك والعبث بعرضك وجسمك فلوذى بربك ، واحتمى بحماه ، فإنه لا ينجيك منها إلا الله .

يا فتاة السعودية : إن عيناً حاسدة قاتلة قد أسرعت إليك نظرتها ، وبدت عليك آثارها ، فقد أصبح من أخواتك من تستثقل ملاءتها ، وتتبرم من خمارها ، فاستعيذى بالله من هذه العين الحاسدة ، واسترقى منها فإن الرقية طيبة نافعة .

يا فتاة السعودية : إن حقداً عظيماً تحمله قلوب مظلمة قاسية لا خير فيها البتة تحمله لبلادك الطاهرة ، ودولتك الظاهرة ، لدينك الحنيف ، ومجد أبائك المنيف ، وإنى لأخشى أن تكونى أنت الضحية الأولى ، لهذا الحقد العظيم ، فاربئى يا فتاة بنفسك ، واطلبى نجاتها بطهارتها وزكاتها ، وإياك أن تمكنى العدو من نفسك بخروجك من معقلك ، وترك حجابك ، واعلمى أن فى ملازمة الدار خير حافظ ، وأكبر ستار ، وأن فى التزام الحجاب سبباً للمناعة من أقوى الأسباب ، فالدار . . . الدار . . . والحجاب . . . والحجاب . . .

واسمعى أقل لك

هل تدرين ما اليد الخادعة الماكرة التى حذرتك منها آنفاً ؟

إنها العناوين المشوقة ، والمقالات الساحرة ، والكلمات الأدبية التى امتلأت بها أعمدة الصحف والمجلات ، والتى تطالب جميعها بحريتك ، وتقدمك ، وتطورك ومشاركتك فى الحياة . يكتبها عملاء الماسونية ، ويحررها أُجَرَاء الإباحية لإضلالك ، والتغرير بك حتى تتركى حجابك ، وتخرجى من طهرك وعفافك وتصبحى مسخاً ورجساً نجساً لا خير فيك لنفسك ولا لذويك .

فإذا عرفت يا فتاة هذا فالعنى تلك المقالات ، واشجبى كاتبيها ، واسخرى منها واهزئى بمحرريها ، ولا تفتحى فى مثلها عينيك ناظرة ، ولا فمك قارئة ، ولا قلبك واعية ، فإنها يد الإجرام امتدت إلى سعادتك لتغتالها ، وإلى شرفك لتهينه ، وإلى كرامتك لتدوسها بنعلها الخبيث الثقيل .

وهل تدرين ما النفس الخبيثة الشريرة التى ذكرت لك أنها تصدت لفتنتك ؟ إنها ما تسمعين من كلمات النقد للحجاب ، والطعن فى مشروعيته ، والتهوين من شأنه ، والتخفيف من تبعة تركه وإنكاره ، ومن كونه ـ الحجاب ـ مظهراً من مظاهر التخلف والتأخر ، وأن الإيمان فى القلوب لا فى ستر الوجه والجيوب ، وأن الزينة المطلوب إخفاؤها من المرأة المسلمة هى فى غير وجهها وكفيها . . . إلى غير ذلك من الكلمات الباطلة المضلِّلة التى يتبرع بها مجاناً أرباب الهوى ، ويتطوع بها فى حرص أصحاب الشهوات ، كل ذلك من أجل تشكيك فى إيمانك وحيائك ، وزلزلتك فى عفتك وشرفك ، والقضاء على صلاحك وطهارتك ؛ لتخرجى لهم فى النهاية عارية سافرة يشبعون غرائزهم من النظر إلى جسمك ، ويقضون وَطَرَ نفوسهم فى مغازلتك ، والحديث معك لا ستر من حجاب ، ولا مناعة من حياء . . .

وهل تدرين ما الفتنة الكبرى التى تدبر لك من أجل مسخك والعبث بك ؟ إنها ـ يا بنت الإسلام ـ تعريتك من ثيابك ، وتجريدك من إيمانك ، وسلخك من حيائك ، وإلقاؤك فى الشوارع والطرقات وقحة عارية من كل خير ، بذيئة اللسان ، كريهة المنظر ، سخرة

للشياطين ، وأحبولة لإبليس وذريته أجمعين ، بك يصيدون ضعاف الإيمان ، ومهزوزى العقيدة ، ليكونوا منهم مجتمعاً فاسداً مهلهلاً ضعيفاً ، لا هدف له ولا شرف ، غايته من حياته قضاء شهواته ، وأمله المنشود أن يحسن المجون والضرب على العود .

فبك إذاً لا بسواك أيتها الفتاة يتوصل الشيطان وعملاؤه وأتباعه إلى غاياتهم المنشودة من استبدال هذا الشعب المؤمن الطاهر بشعب كافر فاجر ، على أن تكونى أنت الآلة لهذا التغيير والتبديل ، فاربئى إذاً بنفسك أن تكونى للشيطان مخلب قط ، ولعملائه شرك صيد ، فتفطنى لهذه الفتنة التى تدبر لك ، فأطيلى ثيابك ، ووفرى حجابك ، واكتفى من العلم بما يعرفك بالله ويدنيك من حبه تعالى ، ويقربك من مرضاه ، والزمى المنزل ، ولا تفارقى الدار . وإياك أن ترضى بعمل خارجها ، فإنها حصنك الحصين ، ودرعك المتين ، متى فارقتها تخطفتك يد الشياطين وسلبتك الحياء والدين ، وتركتك أعجوبة الدنيا ، وسخرة العالمين .

وهل تدرين يا فتاة السعودية عين من تلك التى حسدتك فى حيائك وطهرك ، وحصانتك وحجابك ، فرمتك بنظرتها الصائبة فتركتك حيرى مفتونة ؛ تريدين الحجاب لأنه حكم ربك ، وقضاء دينك ، وسنة الصالحات من قبلك ، وتريدين السفور ، لأنه سنة العصر الحاضر ، وحاجة من حوائج سكان الحواضر ؛ قامت مدينة الغرب عليه ، ورنت عين الشرق إليه ، فهو سلم السعادة ، وسنة النجاة فى هذه الحياة . . . كما يقول المبطلون عبدة الهوى وصرعى الشهوات ، ممن لم يبرحوا يزينون لك السفور ويحسنونه فى نظرك ، ويُكرِهُون إليك الحجاب ، ويُبَغّضُونه إلى نفسك ، وكل ذلك باسم العلم والتقدم والحرية ، والمشاركة فى الحياة الاجتماعية .

ومن آثار هذه العين التى أصابتك أن أصبح عدد من أخواتك يستثقلن العباءة ، ويتبرمن منها . فمنهن من ترفعها إلى ركبتها ، ومنهن من ترفعها إلى نصف جسمها ، ومنهن من هى تخوض الآن تجربة قاسية مريرة وذلك بنزعها الخمار عن وجهها ، والمعنقة عن رأسها ، ومشيها فى الشارع متلفتة مرتاعة كأنها جانية تخاف إلقاء القبض عليها ، أو خبلى معتوهة بها مس من جنون ، فخرجت لما بها حاسرة الرأس ، كاشفة عن وجهها ، لا تدرى (وهى القمر) فى أى فلك تدور ؟ وحَقّقَتْ بذلك أمل الراغبين فى العبث بها ، وأتمت مقصود الحاسدين لها على حجابها وحيائها ، حيث خطت الخطوة الأولى وهى أصعب الخطوات ، وهم ينتظرون بفارغ الصبر متى تتم الخطوة الثانية ؟

وهى إلقاء العباءة نهائياً ، والتخلص من الحجاب ، ومستلزمات الحجاب من الإيمان ، والحياء ، والطهر ، والصفاء . ويومها تقر أعينهم ، حيث ظلت وباتت تدور فى فلكهم ، وهى ماجنة فاجرة ، خليعة رقيعة ، يلعبون بها لعب الأولاد بكرتهم ، ويعبثون بها عبث الكلاب بجيفتهم .

فالله الله يا محمية الإيمان ، ومحفوظة الإسلام ، ومحروسة الإحسان . الله الله فى حجابك ، وحيائك ، وإيمانك ، وطهارة روحك ، وزكاة نفسك ، وفى مستقبلك ومقامك بين يدى ربك ، فلا تغترى بعارض كلماتهم ، ولا بظاهر أقوالهم ، فإنهم ماكرون خادعون ، ومنافقون كاذبون ، أغيظيهم بعدم السماع لهم ، وأهينيهم بعدم الالتفات إليهم ، واقتليهم حسرة بتوفير حيائك ، وملازمة بيتك وحجابك ، وحسبك من العلم ما تعرفين به الله والطريق الموصل إليه ، ومن الدنيا بيتاً تعمرين ، وأولاداً تربين ، وزوجاً تطيعين وترضين ، وسلام عليك فى الصالحين .

وهل تدرين حقد من ذاك الذى نبهتك إليه ؟

إنه حقد جماعات كثيرة دَأَبَتْ منذ القديم على تحطيم المجتمع الإسلامى ، وتقويض أركانه ، والقضاء على روح الإيمان ، ومظاهر العزة والقوة فيه ـ ومع الأسف ـ فقد أفلحت فى مسعاها الخبيث فى كثير من بلاد المسلمين ، وبلغت ما أرادته منها ، وما أملته لها من تدميرٍ ، وتخريبٍ ، وقضاء على حياة الإيمان ، والحياء والطهارة ، والصفاء . ولم يستعص عليها إلا ديارك المقدسة هذه وأنت فيها . وذلك لما أكسبها القرآن من مناعة ، وما أحاطتها به شريعة الإسلام وهى تطبق فيها من حصانه . بيد أن هذا الاستعصاء لم يُفقد تلك الجماعات المخربة الأمل فى الوصول إلى ما عقدوا العزم عليه من إلحاق ما يمكن من تخريب وتدمير بهذا البلد المقدس ، ليسقط كغيره ، وهو آخر معقلٍ بقى للإسلام يحتمى فيه ، وآخر مَأرَزٍ بقى للإيمان يأوى إليه ، ولذا فهم يضاعفون الجهود ، ويشدودون الضربات ، ويتذرعون بكل الوسائل ، ولو كانت الغاية فى الخسة والنذالة ـ للوصول إلى ما أرادوه من تدمير هذا الحصن الأخير من حصون الإسلام ، وقد شجعهم على مواصلة كيدهم ، وأطمعهم فى الوصول إلى غايتهم ما لاح من بريق النجاح المتمثل فيما يلى : ـ

١ ـ سماعك بدون تحفظ لمختلف الأغانى الماجنة التى تفيض بروح الخلاعة ، والتهتك ، والاستهتار.

٢ ـ رغبة الكثير من أخواتك عن الزواج ، وبناء البيت ، وتكوين الأسرة ، بحجة أن ذلك

عائق عن مواصلة الدرس والتحصيل .

٣ ـ تطلع الكثير من زميلاتك المتعلمات إلى ما تطلع إليه أخواتها فى غير هذه المملكة من الوظيفة ، وإن لم تكن شريفة تضطرها إلى أن تقف كل صباح أمام مرآتها تتجمل لرفقاء العمل ، وزملاء الوظيفة من أولئك الذين لا همّ لهم إلا إرواء غلتهم ، وإشباع نهمتهم فى الاستمتاع بالمرأة ، ولو بالنظر إليها ، والحديث معها .

هذه ثلاث خطوات قد خطوتها ، وما كان لك يا فتاة أن تخطيها ؛ فقد شجعت بذلك الحاقدين على مواصلة حقدهم ، والكائدين لك ولبلادك على إنفاذ كيدهم ، فهل تتراجعين عنها فور قراءتك هذه الرسالة ؟ وبذلك تخيبين أملهم وتقضين على أطماعهم ، وتحولين بينهم وبين ما يشتهون . فهلا تفعلين يا بنت الإسلام ، ويا فتاة الإيمان . . . ؟

وسلام عليك ما فعلت فى الصالحات السالفات . . .

بإيمانك أخاطبك

والآن يا فتاة اسمحى لى أخاطبك بإيمانك لعلك تتذكرين :

ألست تؤمنين بالله ورسوله ؟

ألم تكونى ترجين الله والدار الآخرة ؟

ألم تعتقدى تحريم ما حرم الله ورسوله ؟

وإن قلت : بلى ـ ولا أظنك إلا تقولين ذلك ـ فاعلمى أن إيمانك بالله ورسوله يوجب عليك طاعتهما ، وأن رجاءك الله والدار الآخرة يحتم عليك العمل لهما ، وأن تحريمك ما حرم الله ورسوله اعتقاداً يوجب عليك تحريم ما حرماه قولاً وعملاً ، وإذا عرفت هذا ، فاعلمى أيضا أن الله ورسوله قد حرما تحريماً قطعياً التبرج والسفور ، كما حرم الفسق والفجور ، وأن الله ورسوله قد أمرا المؤمنات بغض أبصارهن ، وحفظ فروجهن .

ونهى المؤمنات عن إبداء شىء من زينتهن ، كما أمرهن بضرب خمرهن على جيوبهن فقال عز من قائل : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن** ﴾ [١] .

(١) النور : ٣١ .

وأمر رسوله ﷺ أن يقول آمراً باسمه تعالى أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن فى قوله عز وجل من سورة الأحزاب : ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** . . ﴾ (١) . كما أمره أن يقول باسمه تعالى لنسائه ﷺ : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً ، وقرن فى بُيُوتكن ولا تَبَرّجْنَ تَبَرّجَ الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله** ﴾ . . . الآية (٢) .

فتأملى يا فتاة البلاد هذه الكلمة الربانية ؛ وهى تنهى أزواج الرسول ﷺ الطيبات الطاهرات تنهاهن عن الخضوع بالقول (وهو ترقيق العبارة ، وتليين اللفظ ، وترخيم الصوت عند مخاطبة الرجال الأجانب) وتأمرهن إذا قلن أن يقلن قولاً معروفاً (أى غير زائد على الحاجة ، ولا خارجاً عن حد القصد والاعتدال ، وذلك بالاستطرادات فى الحديث ، وتكرير العبارات ، وذكر ما لا حاجة إليه ، ولا يتوقف عليه فهم الكلام .

كما تأمرهن أن يقرن فى بيوتهن ، ويلزمن دورهن ، فلا يخرجن إلا من حاجة ضرورية تستدعى خروجهن ، وتطلبه . وإذا خرجن بحكم الحاجة فلا يخرجن سافرات ولا متبرجات ، وإنما يخرجن مستترات غير متجملات ولا متعطرات . . .

وقد يقال لك إن هذا التشديد فى شأن الحجاب هو خاص بأزواج النبى لهم : ولماذا ؟ ألأنهن محط ريبة دون نساء المؤمنين ؟ أم لأن الله تعالى أراد أن يضيق على أزواج رسوله ﷺ ويعذبهن . وحاشاهن أن يكون محط الريبة وهن الطيبات الطاهرات ، ومعاذ الله أن يكون تعالى يريد التضييق على أزواج نبيه ﷺ وتعذيبهن وهو يقول : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ (٣) .

وإنما خصهن بالذكر وهن الأميرات الشريفات ليكن مثلاً عالياً لسائر المؤمنات يقتدين بهن فى الكمال النفسى ، ويتمثلن حياتهن حياة الطهر ، والعفة ، والحياء ، والاحتشام .

وإن لم يكن هذا صحيحاً وإلا فما معنى قوله تعالى وهو يخاطب كل مؤمنة قاعد عن الحيض والحمل والزواج لكبر سنها وشدة ضعفها ويقول : ﴿ **والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن ، والله سميع عليم** ﴾ (٤) .

---

(١) الأحزاب : ٥٩ . (٢) الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣ . (٣) الأحزاب : ٣٣ . (٤) النور : ٦٠ .

أليس معنى الآية أن الله تعالى قد رفع الحرج عن المؤمنة الكبيرة السن فأذن لها فى ترك الحجاب بشرط أن لا تتبرج بزينة . ثم أرشدها إلى ما هو خير وهو لزوم الحجاب وعدم تركه فى حالة الكبر والعجز كما هو فى حال الفتوة والقوة ؟.

والآن يا فتاة السعودية ما موقفك من هذه الهداية الإلهية ، وهذا الكمال الذى وهبك الله ، والفضل الذى فضلك به ؟

أترضين بما رضى الله لك ، وتحمدينه تعالى وتشكرينه على ما وهبك من نعمة الهداية ، وكمال الشرف ، فتحافظى على حجابك وحيائك ، ولزوم بيتك ، وطاعة ربك وزوجك ؟ وتضربى بكل دعوة إلى السفور باسم التحرر والتطور عُرْضَ الحائط ، وتهزئى بأصحابها ، وتسخرى منهم ، معلنة لهم سخطك عليهم ، وبغضك لهم ، لأنهم أرادوا ذبح شرفك ، وهدركرامتك ، وتلويث طهرك ، والقضاء على شرف آبائك وسيادة بلادك . أم تسخطين ما رضى الله ، وتكرهين ما أحب ، وتكفرين هدايته ، ولا تشكرين نعمه فتجرى وراء سراب السعادة الخادع الذى ما برح دعاة السفور يلوحون به إليك ، تغريراً بك ، وتضليلاً لك ، حتى أقنعوا ــ مع الأسف ــ بعضاً من أخواتك بأن سعادة المرأة لا تتم إلا بمشاركتها للرجل فى سائر مجالات الحياة ، وفى كل شؤونها بحيث توجد حيث يوجد الرجل ، وتكون حيث يكون فإن كان فى جوقة الطرب فهى فى جوقة الطرب ، وإن كان فى الإذاعة فهى فى الإذاعة ، وإن كان على شاشة التلفزيون فهى على شاشة التلفزيون ، وإن كان فى الجامعة أو الدائرة فهى فى الجامعة أو الدائرة ، وإن كان فى ساحة المصنع ، أو واجهة المعرض فهى معه فى المصنع والمعرض ، وبالجملة تكون رجلة كالرجل وفى كل شىء حتى فى لبس البنطلون ، وحسر الرأس وترجيل الشعر وتصفيفه وتصنيفه ، وبذلك فقط تتم سعادة المرأة ، ويسود قومها ، وتعز بلادها . هكذا أقنعوها كما أقنعوا كثيرا من أخواتها فأصبحوا يرون ويعتقدون أن نهضة البلاد وعزتها ، وسعادة الأمة ، وتقدمها مرهون بسفور المرأة ، وخلاعتها بحيث تتخلى عن الحجاب ومستلزماته من إيمان ، وحياء ، وطهر ، وصفاء . ولذا ترينهم اليوم ــ لاقتناعهم ــ لمكتبون على الصحف والمجلات داعين إلى حرية المرأة ، حاضين على نهضتها وتقدمها ، مطالبين بتعليمها وتثقيفها ، مروجين لخلاعتها وسفورها ، متمنين بجدع أنوفهم أن يرونك حاسرة الرأس ، كاشفة الوجه ، والصدر ، والنحر ، تلبسين نصف الدرع ، وتملئين دور الحكومة ومكاتبها ، ومحلات التجارة وأسواقها .

وأخيراً لكى تعرفى ويعرفوا معك أن هذا الذى اقتنعوا به ، وأصبحوا دعاة إليه ، ليس من موجبات العزة ، ولا من مقومات النهضة ، ولا من محققات السعادة ، وإنما هو من موجبات الذلة ومن عوامل السقوط ، وأسباب الخذلان والشقاء ، أعرض أمام أنظاركم الصورة الكلامية الآتية : ـ

الصورة القاتمة

أو

المصير الأسود

اعلمى يا فتاة السعودية أنه منذ نيف وخمسين عاماً بدأت حركة تحرير المرأة فى العالم العربى على أيدى جماعة من العرب التقدميين كما يسمونهم ، فارتفعت أصوات خطباء ومحاضرين تطالب بتحرير المرأة المسلمة ، وانعتاقها من الحجاب ، وانطلقت أقلام كتاب بارعين تحرر المقالات وتنشرها على أنهر الصحف ، وأعمدة المجلات ، ونادت تلك الأصوات والمقالات جميعها بحرية المرأة ، وتخليصها من عادة الحجاب ، ولزوم البيت ، والخضوع للآباء ، والخنوع للأزواج ، والبعد عن الحياة الاجتماعية والسياسية . وواتتها فرصة وجود الأمة العربية المسلمة مستعبدة للأجنبى الكافر ، مستعمرة له ، ترزخ تحت نيران استعماره ، وتئن تحت كلكله الثقيل ، تتوجب لما يصب عليها من جام غضبه ، وما يسومها به من سوء العذاب ، فنسبوا ــ مكرا وخديعة ــ كل ما حل بالأمة المسلمة من تأخر ، وضعف ، وهون ، ودون ، إلى حجاب المرأة وعفتها وحيائها ، وبعدها عن التعليم العقيم ، والسياسة الفاجرة ، والحياة الاجتماعية الفاسدة . وانخدع كثير من النساء وأولياؤهن بتلك الأقوال المعسولة الكاذبة ، وأخذت الفتاة المسلمة تتمرد على الحجاب ، وتحاول التخلص منه ، فبدأت لأول مرة بإلقاء البرقع الذى كان على وجهها ، ونزع النقاب من على الوجه كذلك ، فظهرت الوجوه وضيئة مشرقة ، ما يحجبها برقع ولا يغطيها نقاب ، مثل ما أخذ يحدث الآن من بعض أخواتك المتعلمات ومع كامل الأسف .

وكانت خطوة جريئة من المرأة ؛ يومئذ صفق لها دعاة السفور ، وهتف بها رواد الفجور من عملاء الماسونية اليهودية العالمية .

ثم سارت الحال على سنة التدرج المعروفة ، فما هى إلا فترة من الزمن حتى امتدت يد التحرر إلى الخمار الذى كان يستر شعر الرأس الأسود الفاحم أو الأصفر الفاقع فأسقطته ، وبدى لأول مرة رأس المرأة المسلمة مكشوفاً لا شىء عليه يستره عن أعين الناس من أجانب وأقارب . وبذلك شُل جسم الحياء فى المرأة ، ولم يعد قادراً على منعها من أن تحدث و تجالس ، أو تصافح ، وتضاحك أيضاً من شاءت من الرجال خاصة وخاصة أصدقاء الزوج وأقاربه وإن بعدوا أو سفلوا . . .

وتأتى بعد ذلك الخطوة الأكثر جرأة على الملاءة « العباءة » فتلفها كالثوب الخَلِق وترمى بها بعيدا من ساحة الحياة . وتخرج المرأة المسلمة لأول مرة فى تاريخ إسلامها في درع سابغ « طويل » جميل تحته غلالة لطيفة ، وما فوقه شىء .

وسفرت المرأة المذكورة فى بلاد الإسلام سفورا واضحا تاما كما أراد لها عباد الهوى وأرباب الشهوات ، وبذلك كفرت السافرة وكفر معها مشجعوها على السفور بعدة آيات من القرآن الكريم . والكفر بالبعض كالكفر بالكل عند جميع المسلمين . . .

ويحسن هنا أن ننبه إلى أن خطوات السفور كان الزمن بينها متفاوتاً جداً بحسب قوة المؤثرات وضعفها . ففى بعض البلاد كانت الفترة ما بين كشف المرأة وجهها وتعرية رأسها عشر سنوات أو أكثر ، وما بين كشف وجهها ورأسها والتجرد من العباءة عشرين سنة أو تزيد ، وفى بعض قد تكون مدة الانتقال من خطوة إلى أخرى أقل مما ذكر أو أكثر . نبهت إلى هذا لأن كثيراً من المخدوعين والمخدوعات عندنا يحسبون أن المرأة السعودية إذا كشفت عن وجهها لا يسرى الكشف فيها إلى رأسها ولا إلى جسمها لعصمة خاصة بها . وما ندرى من أين أتتها هذه العصمة أو العصامية ؟ إلا أن تكون من خداع المضللين والمفتونين ، بل الذى نجزم به أن المرأة فى السعودية إن فتح لها باب السفور لولجته فى شهور معدودة ، وليس فى سنوات محدودة . وإن كانت هناك عصمة والحق يقال ففى فيصل الإسلام وحكومته . فما دام هذا الفيصل العظيم وما دامت حكومته القرآنية فالعصمة للفتاة السعودية موجودة متوفرة والحمد لله . ولكن هل يخلد فيصل الإسلام وهل تخلد حكومته ؟

ومن هنا يجب أن نطلب العصمة لفتاتنا من إيمانها ، وحيائها ، وحجابها ، وطهارة روحها ، من تمسكها بإسلامها ، والمحافظة على طاعة ربها ونبيها ﷺ لا من سوط السلطان ، ولا من عامل الزمان .

وبعد هذا التنبيه نعود إلى الحديث عن المصير الأسود الذى صارت إليه المرأة المسلمة فى شتى بلاد المسلمين والذى تقاد إليه الفتاة السعودية وهى لا تشعر ولا تريد . فنقول : وجاءت أيام استقلال الأمم والشعوب وتحررها من ربقة الاستعمار الغربى ، وأخذت بلاد العرب تستقل وتتحرر ، وتكونت فيها حكومات وأنشئت فيها وزارات للتعليم ، وفتحت فيها مدارس ، واحتلت البنت المسلمة الكثير من مقاعدها والحمد لله ، غير أنه على أعتاب تلك المدارس ذبح الإيمان والحياء قرباناً للشهوات والأهواء ، وأصبحت حقائب بعض المتعلمات ملأى برسائل الحب والغرام المتبادلة بين الطلاب والطالبات ، وتطورت الحال فأزهقت روح الطهر والعفاف عند كثير من الطالبات ، وأصبحت الفتاة الطالبة تقدم فى غير خجل ولا حياء خطيبها لأبيها وتقول : هذا أحبه يا أبى ويحبنى وأريد أن أتزوج لأنى جربته وجربنى وعرفت عنه وعرف عنى ، وهذه هى طريقة الزواج السعيد كما يقول العلم السيكولوجى « النفسى » ولم يجد والدها بداً من أن يقرن بينهما فى الظاهر بعد أن قرن الشيطان بينهما فى الباطن . . .

وتفاقمت الأزمة ولم يعد حل عقد القران لها حلاً ، فأنشئت دور الحضانة لإيواء اللقطاء المنحدرين فى أكثرهم من أصلاب الطلاب وبطون الطالبات ، غير أن الأيام لم تبخل على بنيها بنفحة حبوب ضد الحمل ، فأصبحت حقائب الطالبات لا تخلوا من تلك الحبوب ، وبها تنفس الكثير الصعداء ووجد للمعضلة حلها ، لولا أن مشكلة البكارة ما زالت تعكر صفاء الزوج السعيد ، فقد يريد متلاعب أن يخزى فتاة وأسرتها فيعلن ليلة زفافها إليه أنها مفتضة ولا بكارة لها ، ويقيم الدنيا ويقعدها بالصياح والضجيج ، ويغرق الفتاة وأسرتها فى بحر من الخزى والعار ، فكانت هذه مشكلة أخرى ، غير أنها لم تعدم حلها أيضاً ، فقد نُمِىَ إلينا أن مسؤولاً كبيراً فى تلك البلاد الإسلامية المنكوبة بمثله ، والموبوءة بهذا الوباء صرح قائلاً فى غير خوف ولا حياء : يجب أن لا تعطى مسألة البكارة أية أهمية أبداً ، وخاصة بين المثقفين والمثقفات ، ولازم هذا القول : أن على القضاء الشرعى أن يهمل مثل هذه الشكوى ، ولا يقيم لها وزنا ، وعلى المواطنين أن يترفعوا عن هذا السفساف الذى هو من بقايا تركة القرون المتخلفة . . .

وكنتيجة حتمية لذلك السفور ، وهذا التبرج الجاهلى الكبير ، ولنفس التعليم الفاسد الذى غايته المثلى ، وهدفه الأسمى الوظيفة الحكومية وغير الحكومية امتلأت دور الحكومة ، ومصالحها بالموظفات ، وازدحمت بالتالى بهن المسارح ، ودور السينما ،

وكذلك المسابح ، والمصطفات ، وضَمّتْ البلاد بالخبث وعمها فساد وانْمَسَخَ المجتمع الإسلامى فأصبح غيره بالأمس فى مظهره ومخبره وظاهره وباطنه .

وفى خضم هذا التدهور والفساد ساد الآباء والأمهات اعتقاد أن فتاتهم إذا لم تتعلم لا تتوظف ، وإذا لم تتبرج حتى تلبس « المينى جيب » نصف الثوب لم تتزوج . فأقبل الآباء والأمهات على زج بناتهم فى مذابح الشرف والدين (المدارس ، والوظائف) ، وأذنوا لفتاتهم أيضاً أن تخرج من البيت تتجمل بكل ممكن من أنواع التجميل ، ثم تخرج عارية شبه كاسية ، يفوح مسكها ، ويعبق عطرها لتريح الشيطان من فتنته ، وتنهض وحدها بمهمته ، وهى بهذا جديرة ، وعلى مثله قديرة .

غير أن الحال لم تدم طويلاً حتى ملّ الشباب هذه الحياة وأخذ كثير منهم ينزلقون من مستواهم الرجولى إلى منحدر التخنث والميوعة ، فحلقوا وجوههم ودهنوها ، وصبغوا شعورهم وأطالوها ، ونافسوا الفتيات الفاتنات فى ضروب التجميلات . وساءت الأحوال ، وتدهورت الأخلاق ، واختلط الحابل بالنابل ، والمقبل بالمدبر ، والذكر بالأنثى . وفقدت المرأة التى كان يلوح لها بسعادة التحرر والتطور ، فقدت لا سعادتها فحسب بل وجودها كله كامرأة ذات قيمةٍ فى المجتمع ووزنٍ فيه ، إذ لم تعد ـ مع الأسف ـ تلك المرأة التى تتمتع باحترام الآباء والأزواج ، ولا تلك التى تحاط بالقداسة والتعظيم ، وإنما أصبحت أشبه بمحترفة تطلب العيش ، وتقرع كل باب للعمل لعلها تحصل على وظيفة ـ ولو غير شريفة ـ تدر عليها دراهم معدودة تنفق أكثرها فى المساحيق للتجميل ، وفى الثياب القصيرة الجميلة للفتنة ولفت الأنظار . . .

وأخيرا هذا المنحدر الفظيع الذى انحدرت إليه المرأة المسلمة فى كثير من بلاد الإسلام . وهذا هو المصير الأسود الذى صارت إليه فهل ترضين يا فتاة السعودية لنفسك بمثله ؟ ؟ فتواصلى إصغاءك لخادعيك ، وحسن استماعك للمُغَرّرِين بك ، تقرأين ما يكتبون ، وتعين ما يقولون ، وهم يشجعونك على اقتحام هذا الخطر ، والنزول فى هذا المنحدر . . .

إنهم اليوم لا يطلبون منك أكثر من كشف وجهك ، وبحجة أن كشف الوجه مختلف فيه بين أهل العلم فى كونه من الزينة التى يجب أن تخفيها المسلمة أو من غير الزينة مما لا يجب عليها إخفاؤها .

غير أنهم يعلمون علم اليقين ـ بحكم التجارب الطويلة العديدة ـ أنك يوم تكشفين عن وجهك ويذهب ماؤه وحياؤه ستكشفين لهم عن رأسك وصدرك ، ثم عن ساقيك وإلى نصف فخذيك .

إنهم يا فتاة السعودية لا يشكون ولا يرتابون فى هذا منك أبداً . لأن التجارب قد سبقت مع مثلك من الفتيات فى وقت كان الإيمان أعمق جذوراً فى النفوس ، والحياء أكثر سيطرة على الروح والوجدان .

ومرة أخرى فهل ترضين يا فتاتنا الطاهرة بهذا المصير الأسود الذى أوقفناك على صورته القاتمة ؟ هل ترضين ؟

والله تعالى أسأل أن يكون جوابك ، لا ، لا ، لا نرضى ، وكيف وأنا فتاة الإسلام ، وغادة ينابيع الطهر والهدى . . .

والآن وقبل أن أقدم نصيحتى الأخيرة إليك اسمحى لى أن أهمس فى أذنيك بالكلمات التالية :

ـ إنك اليوم بحجابك مُتَوَسَّلٌ إليك ، مخطوبة . وغداً يوم ترمين الحجاب كما يريد لك المغرورون بك تصبحين أنت المُتَوَسِلَةَ للأزواج الخاطبة لهم .

ـ أنك اليوم بحجابك وطهرك تُخدمين فى قصرك ، ويوفر لك جميع حاجاتك ، وغداً يوم تتخلصين من الحجاب كما يحب منك عملاء الماسونية ، الأذناب تخدمين وغير زوجك وأبى أولادك ؛ وإنمامدير عملك ، ورئيس شغلك ، وتوفرين له ما يحتاج إليه .

ـ إنك اليوم مرموقة يُتطلع إليك ، وغداً يوم تتركين الحجاب تصبحين رامقة متطلعة ، تتعرضين لعل هناك من يُقبل عليك ، ولا أحسبك واجدة غير نذل عربيد يعبث بك أياماً ، ثم يرمى بك كالخرقة البالية لا ترفعين ، ولا ولا ترقعين .

ـ إنك اليوم بحجابك تتمتعين باحترام والديك ، وكل قريب إليك ، وغداً يوم تنسلخين من الحجاب تصبحين محتقرة مدفوعة بالأبواب .

ـ إنك اليوم بحجابك تشعرين بإيمانك وكرامتك ، وغداً يوم تتنكرين للحجاب ستفقدين حتماً ما تشعرين به اليوم من رفعة الكرامة ، وعزة الإيمان .

ـ إنك اليوم بحجابك واجدة إسلامك وإيمانك وحياءك ، وغداً يوم تكفرين

بالحجاب لا تجدين حياءً فى وجهك ، ولا إيماناً فى قلبك ، سنة الله فيمن مضين قبلك .

هذا ما أردت أن أهمس فى أذنيك به وقد همست . ولم يبق إلاّ أن تحفظى ولا تضيعى ، وإن حفظت فلك ، وإن ضيعت فعليك .

ونصيحتى لك

ـ إنها أيتها الفتاة السعودية : أن تقابلى كل دعوة لترك حجابك بكشف وجهك ، أو ترك ملاءتك ، تقابليها والقائمين بها بالاحتقار والازدراء . وسواء كانت من معلمة مشفقة ، أو مرشدة ناصحة ، أو كاتب يتباكى على حريتك ، أو مذيع يزعم العمل على تأديبك وتهذيبك.

ـ إنها أن ترضى بما رضى الله لأمهات المؤمنين ، أزواج سيد المرسلين . من لزوم البيت ، وترك التبرج الجاهلى ، حيث قال لهن : ﴿ **وقَرْنَ فى بيُوتِكُنَّ ولا تَبَرّجْنَ تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله** ﴾ (١) .

ـ إنها أن تفضلى حياة التستر والحياء ولو مع شغف العيش ، وقلة الريش ، على حياة الكشف والوقاحة ولو مع سعة الرزق والرفاهة .

ـ إنها أن تتخذى من البيت مقر حياتك ، ووكر فراخك ، فيه تعيشين وبه تبضين وتفرخين . وأن تحيليه للزوج والأولاد جنة وارفة الظلال ، وإن ضاق الرزق ، وقل المال ، وذلك بإيمانك وحيائك وطهرك وصفائك ، بحمايتك له ، ورعايتك لما فيه ، بطاعتك الزوج بطاعة الله ، وبتربية الأولاد على سنن الآباءِ والأجداد ، أقوياء فى أبدانهم وأديانهم ، سالمين فى عقولهم وأفكارهم ، عمداً للبلاد ، وعُدَداً للجهاد .

ـ إنها أن تعلمى أن الحياة زهرتها إلى ذبول ، ونجم سعادتها فيها إلى أفول ، ولأن تقدمى فيها لآخرتك ركعتين صالحتين خير لك مما بين المشرقين والمغربين .

ـ إنها أن تعلمى أن السعادة الحقة فى الدنيا ليست فى وفرة الطعام والشراب ولا فى لذة النكاح ، وطيب المنام ؛ إن هذه لسائر الحيوان كما هى للإنسان . وإنما السعادة الحقة فى إيمان بالله ورسوله صحيح تشرق له النفس ، وينقى به الضمير ، وفى عمل صالح

---

(١) الأحزاب : ٣٣ .

ينشرح به الصدر ، وتسمو به الروح .

ـ إنها أن تعلمى أن الجمال المطلوب للفتاة ليس هو فقط جمال الذات ، وإنما هو كذلك جمال النفس ؛ ولئن تقدم الفتاة جمال ذاتها خير من أن تقدم جمال نفسها ؛ إذ الأول تُعْذَرُ فيه ؛ لأنه ليس من كسبها ، والثانى قد تؤاخذ عليه ؛ لأنه من كسبها وعمل يدها .

ـ إنها أن تعلمى أن أجمل ما فى الفتاة الحياء ، وأنك إن تفقديه تفقدى معه كل جمال ، وتصبحين بدونه شيطانة فى زِيِّ إنسانة . ولن يعوضك إياه يوم تفقدينه علم ، ولا وظيفة ولو كانت شريفة ، ولن يكون لك بدلاً عنه بحالٍ من الأحوال لإطلاء وجه ، وتعرية جسم ، ولا كثرة مال .

ـ إنها أن تعلمى أن فتنة المرأة اليوم كانت فى التعليم فاحذرى أن تقعى فيما وقع فيه غيرك ، إنه باسم العلم والمعرفة حدث كل ذلك الذى عرضت عليك فى الصورة القاتمة التى مرت بك . وعليه فإذا طلبت العلم فاطلبيه لمعرفة الله تعالى ، ومعرفة الطريق الموصل إليه عز وجل ، إذ هو العلم الواجب عليك تعلمه ومعرفته ، وإياك أن تطلبيه لمجرد المعرفة ، أو لغرض الوظيفة وإن كانت شريفة . فإن أكثر الهالكات من المتعلمات والموظفات .

ـ أنها أن تعلمى أنه يكفيك من العلم ما تعرفين به طريقك إلى الله تعالى . وذلك بالإيمان به وعبادته ورجائه ، وليس متعذراً عليك أن تطلبى هذا القدر من غير الثانوية والجامعات . فقد كانت المرأة المسلمة تتعلم فى بيتها من أفراد أسرتها من أبيها أو أخيها أو عمها أو خالها . تتعلم من علوم الدين والأخلاق والآداب ما لم تفز به اليوم أو تظفر به منْ تتنقل طول عمرها بين مدارس الدنيا وجامعاتها . وإياك أن تصغى إلى قول من يقول : الوظيفة أمان من الفقر . فإن هذا القول باطل وغير صحيح بالنسبة إليك ، وقد يصح بالنسبة إلى رجل يعيل زوجاً وأولاداً . أما امرأة يُعليها زوجها ويعيل أولادها فغير صحيح أبداً .

واعلمى أخيراً أن أمك ، وجدتك ، وأم جدتك ، وجدتها إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام قد عشن طول حياتهن آكلات شاربات كاسيات مستورات وبدون هذا العلم المادى ، ومن غير هذه الوظيفة السخيفة .

فهلا تقتدين بأولئك الصالحات ، وسلام عليك فى القانتات الحافظات .

وأنتم أيها المسؤولون

إليكم يا آباء الفتيات ، ويا أمهاتهن ، إليكم جميعاً نوجه الكلمة التالية تذكيراً وتحذيراً ، وما يذكر إلاّ أولوا الألباب : ـ

ـ أيكم يقدر على أن يفرغ على ابنته برميلاً من النفط « البنزين » ثم يشعل فيها النار فَتَحْرَقُ حتى تصير فحماً ؟

إنكم تقولون ـ وبدون شك ـ : ما منا أحد يقدر على فعل ذلك أبداً . ونحن نقول : إن الذى يسمح لابنته أن تطلب هذا العلم المادى ، ويشجعها على طلبه حتى تسفر وتتبرج وتلبس « المينى جيب » نصف الثوب تتجمل به للمدارى ورؤساء العمل ، ورفقاء المهنة ، لرجل أقدر على أن يفعل بابنته ما بادرتم بنفيه من إفراغ النفط عليها وإحراقها بالنار ! !

وبيان هذا أن البنت التى زج بها فى مدرسة مادية الغاية من دراستها فيها أن تتأهل لوظيفة ، وأثناء طلبها العلم تروض شيئاً فشيئاً على السفور ونبذ الحياء فلا تنتهى دراستها إلا وهى سافرة متبرجة لا إيمان لها ولا حياء ، ثم تطلب وظيفة تقضى فيها جل وقتها مع زملاء العمل تصافح هذا ، وتسلم على هذا ، وتتصنع للجميع بحكم قانون اللياقة والصلاحية للعمل . إن فتاة كهذه لم يبق لها مجال أن تعبد الله ، وتبكى من خشيته ، وإذاً فمآ لها مآل عبد لم يعبد الله ، ولم يبك يوماً من خشيته : النار وبئس المصير .

والذى هيأ لها هذا المصير أب شجعها على هذا السلوك ، وأم حببت لها هذه الطريقة فى الحياة . كل ذلك باسم السعادة والمستقبل الأفضل ، والحياة الكريمة ، وما إلى ذلك من كلمات الخداع والتضليل ! ! !

ـ أيكم يعلن عن استعداده لمعصية الله ورسوله ، والله تعالى الذى تؤمنون به رباً وإلهاً قوياً عزيزاً لا يخلف الميعاد يقول : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾ (1) .

قد تقولون ـ وبدون تردد ـ : ما منا أحد مستعد لمعصية الله والرسول أبداً .

---

(1) الجن : ٢٣ .

فنقول لكم : ألم يأمر الله تعالى بغض البصر وحفظ الفرج ؟

وإذا قلتم : بلى أمر الله تعالى المؤمنين بالغض من أبصارهم ، وبحفظ فروجهم .

قلنا لكم : وكيف يتأتى لكم ذلك إذا كان نساؤكم وبناتكم سافرات ومتبرجات ، تمتلىء بهن المحلات العامة والخاصة ، وتغص بهن الأسواق والشوارع يوجدن فى كل مكان بلا ساتر من ثياب ، أو حياء من دين ؟ والجواب الصحيح أن معصية الله والرسول والحال هذه لا مناص منها ، ولا محيد عنها ، تلك المعصية التى قلتم : إنكم غير مستعدين لها ؛ لأنها توجب العذاب ، وتحتم الشقاء .

ـ أيكم ينكر أن يكون غير مسئول عن زوجه وبناته اللائى فى حجره وتحت رعايته والله تعالى يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة** ﴾ (١) .

وإن قلتم : نحن لا ننكر مسئوليتنا على نسائنا وبناتنا ، قلنا لكم : ألم يأمر الله تعالى المؤمنات أن يدنين عليهن من جلابيبهن بمعنى يخفين زينتهن عن الرجال الأجانب وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ (٢) . ألم ينه تعالى المؤمنات مطلق المؤمنات عن إبداء زينتهن لغير محارمهن بقوله لأجل من قائل : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن** . . . الآية ﴾ (٣) .

وإذا فهل يتفق ومسئوليتكم ترك الحبل على الغارب ، وإهمال أزواجكم وبناتكم يعصين الله تعالى ، ويستبحن ما حرم عليهن ، فيخرجن متعرضات للرجال وهن بلا جلباب ولا نقاب . فى تبرج جاهلى كبير ! ! !

ـ أيكم يرى أن كشف المرأة لوجهها ليس كشفاً لزينتها ، وإظهاراً لأحسن محاسنها ؟ ؟ قد تقولون بسرعة : نعم كلنا يرى أن كشف المرأة لوجهها ليس كشفاً لزينتها ، وإبداءً لمحاسنها ، ولا معصية فى ذلك لله ولا للرسول ﷺ .

ونحن نقول لكم ما أدلتكم الشرعية على ما رأيتم من جواز كشف الوجه ؟ فتقولون : الاستثناء فى قول الله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** . . . الآية ﴾ (٤) . وحديث أسماء عند أبى داود وفيه أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله ﷺ

---

(١) التحريم : ٥ . (٢) الأحزاب : ٥٩ .
(٣) النور : ٣١. (٤) النور : ٣١ .

وقال لها : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا وهذا . وأشار إلى وجهه وكفيه » .

فنقول لكم مبينين الحق لكم : إن قوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** .. ﴾ (١) الآية تدل على أمرين :

أولهما : تحريم إظهار المرأة المسلمة زينتها لغير محارمها .

والثانى : العفو عما ظهر من تلك الزينة . **فالأمر الأول** : دلالته من الآية قطعية مجمع عليها بين كافة أهل الإسلام سلفا وخلفاً ، وهو تحريم إبداء المرأة لشىء من زينتها لغير محارمها . **وأما الثانى** : وهو عدم مؤاخذتها عما ظهر من زينتها فمختلف فيه اختلاف كبير . فمن قائل المستثنى هو ما ظهر من زينتها بغير إرادتها واختيارها ، وذلك كالثياب الظاهرة فوق جسمها ؛ لقول اللّه عز وجل : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ الآية (٢) . والمراد بالزينة هنا الثياب التى تصح بها الصلاة . ومن قائل المستثنى فى الآية هو ما لا تقدر على إخفائه فى كل حال وذلك كالكف ، إذ به تتناول وتعطى ولا بد من ظهوره عند ذلك ، وكعينها التى تبصر الطريق بها ، وكالخاتم فى الأصبع ، والخضاب فى اليد ، والكحل فى العين ... إذ كل هذا يتعذر على المؤمنة إخفاؤه ، وإذا تعذر القيام بالواجب سقط .

ومن قائل المستثنى : الوجه والكفان . ولما كانت الدلالة ضعيفة جداً ، ولا يستطيع مؤمن أن يجزم بأن اللّه تعالى أراد بما استثناه الوجه والكفين ، ولا سنة صحيحة بينت مراد اللّه فى هذا الاستثناء ؛ إذاً حديث أسماء ضعيف أعله أبو داود راوية بعلة الإرسال ، وأجمع أهل الحديث على ضعفه ، وآخرهم شيخ المحدثين اليوم : ناصر الدين الألبانى حفظه اللّه تعالى ، وأهل العلم من المسلمين مجمعون على أن الحديث ضعيف لا يحل الأخذ به فى تحليل حرام ، أو تحريم حلال أو إثبات معتقد دينى ، أو حكم شرعى أبداً ، وإنما قد يؤخذ به فى بعض فضائل الأعمال فقط ، لا فى مسألة كهذه فيها تحليل ما حرم اللّه تعالى . ومن هنا الجمهور من علماء السلف والخلف على أن كشف المرأة وجهها لغير ضرورة لا يحل أبداً إذ هو من سائر المحرمات فى الشرع الإسلامى .

ولنسمع إلى بعض أقوال أهل التفسير فى هذه الآية : قال ابن كثير : ـ

---

(١) النور : ٣١ . (٢) الأعراف : ٣١ .

(أى لا يُظْهِرّنَ شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه) . قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : ـ كالرداء ، والثياب ، وقال بقول ابن مسعود : الحسن البصرى ، وابن سيرين ، وأبو الجوزاء ، وإبراهيم النخعى ، وقال مالك إمام دار الهجرة : « إلا ما ظهر منها : الخاتم والكحل . وقال القرطبى : ـ ظاهر الزينة هو الثياب . وقال ابن عطية أحد أئمة التفسير : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لا تبدى شيئاً من زينتها ، وأن تجتهد فى الإخفاء بكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه ، أو إصلاح شأنها ونحو ذلك . فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فهو معفو عنه . وقال البيضاوى فى تفسيره : ـ إلا ما ظهر منها : أى عند مزاولة الأشياء : كالثياب ، والخاتم فإن سترها حرج ، والحرج مرفوع يقول اللّه تعالى : **﴿ لا يكلف اللّه نفساً إلا وسعها ﴾**[1] ، **﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾**[2] .

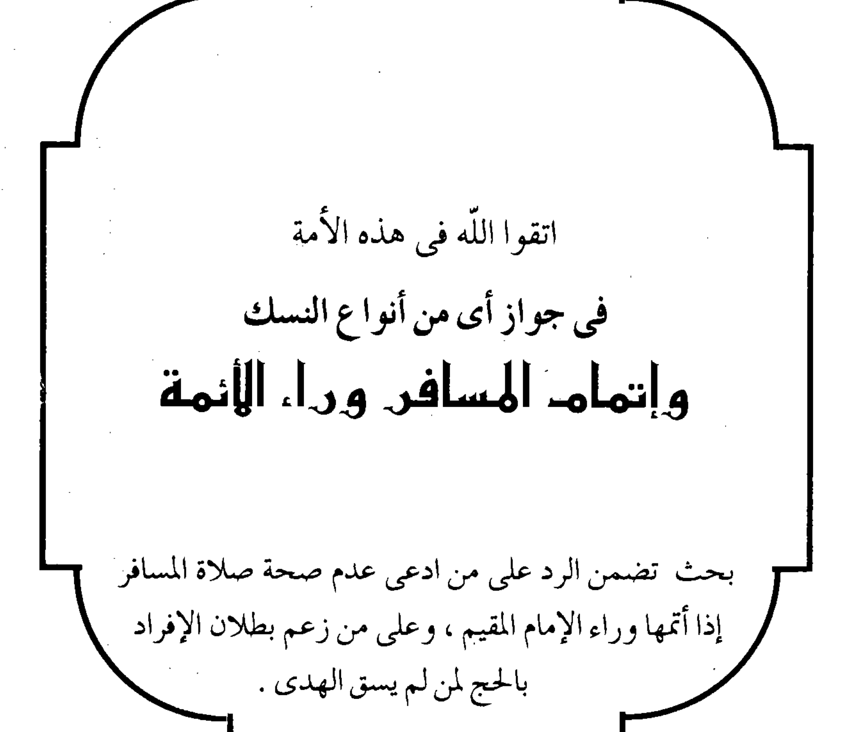
هذا وشىء آخر نقوله لكم فى صراحة : وهو أن بداية السفور والتبرج الجاهلى الذى عليه جل نساء المؤمنين اليوم فى ديار المسلمين ، إنما بدأ من كشف الوجه بإزالة البرقع والنقاب عنه حتى بات وأصبح وأضحى وظل وأمسى من المعلوم بالضرورة أن من كشفت من الفتيات عن وجهها اليوم . ستكشف غداً حتماً عن رأسها وصدرها وساقيها ، وحتى فخذيها ، ولا يجادل فى هذا أولا يسلمه إلا مغرور مخدوع ، أو مُضَلّلٌ مُغَرِر خَادِعٌ يعمل لحساب الماسونية العالمية التى جعلت من أهدافها القضاء على الإسلام عقيدة ، وبيتاً ، ومجتمعاً ، ودولة .

وبناء على هذا فإن اليد التى تحاول أن تحسر الحجاب عن وجه فتاتنا اليوم يجب الضرب عليها ، وأن اللسان الذى يدعو فتاتنا إلى نزع حجابها بإسقاط ملاءتها ينبغى أن يقطع ، وذلك حفاظاً على طهارة مجتمعنا ، وإبقاء على الكرامة التى أكرمنا اللّه تعالى بها حيث أُهّلَنَا لحماية دينه ، وإظهار شريعته بتحكيم كتابه ، وإحلال حلاله ، وتحريم حرامه ، فى وقت انحسر فيه ظل الإسلام من كثير من بلاد المسلمين حيث عُطلت الحدود ، وضُيّعت الفرائض ، وأميتت السنن ، وأحييت البدع ، واستبيحت المحارم ، وأحل الحرام ، وحرم الحلال . فى هذا الوقت بالذات اتخذ اللّه تعالى منا ومن بلادنا وحكومتنا شاهداً ، وحجة على الناس لئلا يقولوا : وُجِدنَا فى عصر ظننا فيه أن الإسلام لم يعد صالحاً ليحكم كتابه ، ولا لتظهر شرائعه ، ولا ليهتدى بمناره فى سبل الحياة القاتمة ، ودروبها المظلمة .

(١ ، ٢) البقرة : ٢٨٦ .

وإذاً فكيف لا نعتز بهذا الكمال ، ولا نفاخر به ، ولا نحافظ عليه ، ومن أجل إرضاء حفنة من عباد الشهوات ، وأرباب الأهواء نسمح لفتاتنا التى هى مضرب المثل فى العفة ، والطهر ، والاحتشام ، والحياء فى ديننا اليوم أن تقع فى الهواة التى وقع فيها ملايين من نساء الناس بالإغضاء عنها . وهى التى تحاول أن تكشف وجهها اليوم لتكشف عن رأسها غداً .

لا . لا يا إخواننا بل يجب أن نقف صفاً واحداً فى وجه كل دعوة يقصد بها المساس بحجاب فتاتنا ، أو النيل من عفتها وطهارتها بأىّ وجه من الوجوه . والله حسبنا وناصرنا ، وهو نعم المولى لنا ونعم المصير .



اتقوا الله فى هذه الأمة

فى جواز أى من أنواع النسك

وإتمام المسافر وراء الأئمة

بحث تضمن الرد على من ادعى عدم صحة صلاة المسافر إذا أتمها وراء الإمام المقيم ، وعلى من زعم بطلان الإفراد بالحج لمن لم يسق الهدى .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأرحم الراحمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد المرسل رحمة للعالمين ، وعلى آله الطيبين ، وصحابته المهتدين .

وبعد : فإن من الأمثلة العامية التى ما زالت العامة فى بلادنا تردها : قولهم : (إن البعير إذا طاح [1] كثر جزاروه) وهذا المثل ينطبق اليوم تمام الإنطباق على أمتنا المسلمة ؛ فإنها منذ ألف سنة وزيادة لا تخرج من محنة إلا إلى أخرى ، ولا تنجو من هلكة إلا لتقع فى مثلها ، تكالب عليها أبناء الدنيا أجمعون فلم يبق من لم يضرب بسيفه المسموم فى جسم هذه الأمة الرحيمة الكريمة ، وهى ثابتة تصبر وتتحمل لطيب أصلها وزكاة فرعها إلى أن تُسَلِّمَ الدنيا كلها ، وتعترف لها بالفضل والخير ، على العالم أجمع . ومن أقسى المحن وأشد الضربات على هذه الأمة الطيبة الخيرية تلك التى تتلقاها من أبنائها وفلذات أكبادها . وقديماً قال الشاعر الحكيم :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

إن من أبنائها من تنكر لها ، وأخذ يتجهمها ، ومنهم من شرع لها المذاهب لتذهب كل مذهب فلا تجتمع ولا تلتقى ، ومنهم من سن لها الطرق لتخطىء طريق الله فلا تهتدى ، ومنهم من قاد لها جيوش الاحتلال والاستعمار لا متلاكها والسيادة عليها ، ومنهم من استورد لها المبادئ الهدامة لهدم قواعد دينها ، ونسف عقائدها ، ومنهم من سن لها القوانين الوضعية لصرفها عن قانون الحق ، والبعد بها عن هدى الكتاب والسنة . ومنهم ... ومنهم ...

وآخر هؤلاء علماء أفاضل تكن لهم الأمة ــ ونحن معها ــ كل احترام ، وتبدى لهم كل تقدير ، رأوا بأم أعينهم أشلاء الأمة ممزقة ، وعظامها مكسرة ، ودماءها فى كل بلد

---

(١) طاح : أشرف على الهلاك .

مهدورة فلم يرق لهم ويا للأسف إلا أن يضربوا فى ذلك الجسم المكدود [1] ، والهيكل المتداعى المهدود . غير مبالين بالنتائج ، ولا مكترثين بالعواقب بلغت ما بلغت من السوء والوخامة ، ومن المحزن للقلوب جداً أن تكون ضرباتهم باسم التخلص من التقليد ، وتحت شعار الاجتهاد ، وعدم إهمال الأدلة من الكتاب والسنة ، فقالوا بلسان حالهم وشاهد أعمالهم : إن من الجائز أن يخطىء سلف هذه الأمة الصالح ، وصدرها الطيب الطاهر ، ويَرِث خطأهُ خلفُه بعده ، وتستمر سلسلة الخطأ إلى يومنا هذا . ولا غرابة ولا عجب . ومن ذلك ـ حسب زعمهم أو فهمهم خطأ الخلفاء الراشدين ، وأصحاب رسول الله ﷺ أجمعين ، ومن بعدهم من التابعين وأئمة المسلمين المحسنين فى تجويزهم الإفراد بالحج وتصحيحهم صلاة المسافر وراء الإمام المقيم .

وهذا وأيم الله مما زاد فى محنة الأمة وحيرتها وبلبلة أفكارها ، وشكوكها ومخاوفها . وما كان أغنى هؤلاء الأفاضل عن إثارة مثل هذه الفتن ، أو ما كان أشغل الأمة عن مثلها ؛ إذ هى تعانى من آلام الفرقة وتقاسى من أتعاب الإلحاد الذى يغزو بنيها ، والفسق العام الذى انتظم جل أفرادها . فلو بر هؤلاء العلماء الأفاضل بأمتهم المسلمة لتجنبوا معها مثل هذه المسالك الدقيقة ، والإثارات المزعزعة لطمأنينة النفوس ، والمحيرة للعقول والأفكار ولا سميا أن الأمة تقف اليوم فى مفترق الطرق حيرى تتطلع إلى من يمد يده إليها لينقذها من فتنتها ويخلصها من محنتها ، ويخرجها من ورطتها الكبرى التى تعيشها ، وورطة الفرقة والانقسام والضعف والتخلف . إن الأمة اليوم ـ أيها العلماء الأفاضل ـ فى حاجة إليكم لتضمدوا جراحتها ، وتجبروا كسورها لا لتزيدوا فى تعميق الجروح وتضعيف الآلام . ألا فلنتق الله فى هذه الأمة ، ولنعمل على لم شعثها ، ورأب صداعها ، وجمع شتاتها ، ولكتن لها فى صدق كما هى لنا بحق ؟

إن الأمة فى حاجة إليكم أيها العلماء الأفاضل لتطهروا عقائدها مما تراكم عليها من أكوام الخرافات ومركوم الشركيات فحجبها عن نور القرآن ومنعها من هداية السنة وحال بينها وبين السير فى جادة الحياة حياة الطهر والصفاء والعزة والكرامة .

ألم يكفيكم أيها العلماء الأفاضل خدمة لهذه الأمة أن تقوموا أخلاقها وتهذبوا مشاعرها ، وتثقفوا عقولها ، وتنقوا أفكارها فتعدوها بذلك لتعرف مكانتها وتنهض بمسئوليتها بين أمم العالم وشعوبه ؟

---

(١) المكدود : المغلوب .

ألم يكن جديراً بكم أيها العلماء المحترمون وأنتم نور حياتها ، وقادة سفينتها وهداة مسيرتها وروادها إلى كل خير أن تعملوا على تخليصها من أسر الأهواء والشهوات وتحريرها من رق العبودية لغير اللّه تعالى ، وسلطان الحكم بغير ما أنزل اللّه تعالى .

كل هذا وغيره كان المفروض فيكم أيها العلماء المصلحون ، أن ينهضوا به ، وتنطلقوا في ميادينه عاملين مصلحين براً بأمتكم ، وأداء لرسالتكم ، وإبراء لذمتكم من تبعة البلاغ والبيان . غير أنكم مع الأسف تركتم كل هذه الميادين أو بعضها ورحتم تبحثون عن خلافات قديمة قد اندملت جراحاتها ، وزالت آلامها وإن بقيت آثارها بقعاً سوداء في تاريخ الأمة فتبعثونها من جديد لتزيدوا بها في آلام الأمة وأتعابها ومحنتها .

إن الأمة اليوم أيها العلماء الأفاضل لتدعوكم في صدق ومرارة إلى ترك مثل هذه الخلافات وعدم إثارتها والخوض فيها تضييقاً لشقة الخلاف بينها ، وتقريباً لساعة وحدة الصف فيها . كما أنها تسائلكم عن النتائج الطيبة ، والآثار الحميدة التي يمكن أن يخلفها مثل هذه المسائل الشاذة التي هي ـ والواقع يشهد ـ بمثابة قذائف يُرمَى بها في صفوف الأمة فتنسف بناءها ، وتهد من كيانها ، وتتركها هاوية ضعيفة .

وذلك كقول بعضكم : إن المسافر إذا أتم صلاته وراء الإمام المقيم بطلت صلاته . وهذه واحدة ، والثانية : إصرار بعضكم على تخطئة من حج مفرداً ومطالبته بالتوبة من إفراده بالحج ، والتحلل الفوري بعد طوافه وسعيه ولو كان بمنى ليلة عرفة .

وقبل إيضاح خطأ القوم في كلتا المسألتين ، وتبيين ذلك للأمة لِتُعرض عنه ولا تلفت إليه ، وتبقى لها ثقتها في سلفها الصالح تقتدي به وتهتدي بهداه الذي هو من هدَى اللّه تعالى وهَدْيِ رسوله ﷺ نقول لهم : يا علماءنا ، ومحط ثقتنا ، وأدلاءنا في متاهات هذه الحياة نناشدكم اللّه تعالى ونسائلكم به أن تقدروا ظروفنا وتراعوا ضعفنا ، وأن تمتثلوا أمْرَ نبينا فينا : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا وسددوا وقاربوا »[1] فلا تحملونا على عزيمة وأنتم تجدون لنا في دين اللّه تعالى رخصة .

ومن عرف منكم شيئاً في هذا الدين وفتح اللّه تعالى له فيه ، ولم يكن معلوماً لسلف أمتنا ولا معمولا به فيها فليعمل به في خاصة نفسه ، ولا يدع الناس إليه ، حتى لا يفتح على

---

(١) هذا بعض حديث صحيح .

الأمة باباً من الشكوك والأوهام فتزداد حيرتها ، وتتسع شقة الخلاف بينها ، ولكم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد قال لعائشة رضى الله تعالى عنها فى الحديث الصحيح : لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين ... ؟

إن الأمة المسلمة اليوم أحوج إلى الرفق بها والمواساة منها فى أى يومٍ مضى . فارحموها أيها العلماء يرحمكم الله تعالى .

وبعد فهذا أوان الشروع فى بيان الخطأ فى المسألتين المشار إليهما سابقاً :

المسألة الأولى

فى بيان خطأ من زعم أن صلاة المسافر

تبطل إذا أتمها وراء الإمام المقيم

إن خطأ صاحب هذا الزعم فى هذه المسألة لا يحتاج بيانه إلى أكثر من إيراد الأسئلة التالية : والإجابة عنها ، ومن خلال ذلك يفهم القارىء المسلم خطأ القوم وبطلان ما ذهبوا إليه فى هذه المسألة التى بلبلوا بها أفكار العوام وشوشوا بها على العلماء ، فأساءوا إلى الأمة والدين معاً من حيث أرادوا الإحسان إليهما . وهذا شأن العبد إذا حرم توفيق الله تعالى .

اللهم لا تحرمنا توفيقك ولا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد سواك .

وهذه هى الأسئلة المطلوبة لبيان خطأ أصحاب الزعم المذكور :

١ ــ هل تعلمون أن قول الله تعالى من سورة النساء : ﴿ **وإذا ضَرَبْتُم فى الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تَقْصُروا من الصلاة إن خفتم أن يَفتنكم الذين كفروا** ﴾ (١) دالٌّ على أن قصر الصلاة للمسافر رخصةْ ، وأن علماء كثيرين من السلف والخلف فهموا من هذه الآية الواضحة الدلالة أن القصر رخصة وليس بعزيمة ، ومن بين هؤلاء العلماء عالم قريش الإمام محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله تعالى ، وكذا مالك ، وأحمد من الأئمة ، وأن فهمهم هذا من الآية صححته السنة النبوية الصحيحة فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن على بن أمية قال : قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال

(١) النساء : ١٠١ .

الله تعالى : ﴿ **فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا** ﴾[1]... وقد أمِنَ الناس ؟ فقال له عمر : لقد عجبت مما عجبت (أنت) منه فسألت رسول الله ﷺ فقال : « **صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته** » .

٢ ـ وهل تعلمون أن عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو أحد الخلفاء الراشدين المأمور باتباع سنتهم بقول الرسول ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ ... » قد أتم الصلاة بمنىً وهو مسافر وأتمّ معه وراءه آلاف من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وهم مسافرون وبدون شك ، فلو كان قصر الصلاة عزيمة لا رخصة فهل يجوز للآلاف من الصحابة والتابعين أن يتموا صلاتهم فتبطل عليهم ، ويسكتوا على ذلك . اللهم إن هذا لا يظن بأصحاب رسول الله ﷺ ، ولا بسلف هذه الأمة الصالح .

٣ ـ وهل تعلمون أن عائشة أم المؤمنين راوية حديث (فرضت الصلاة ركعتين ركعتين) هذا الحديث الذى هو دليلكم فى المسألة ، قد أتمت صلاتها فى السفر غير ما مرة ، وكانت تُسأل عن ذلك فتقول : إنه لا يشق عليها ذلك ، والحديث مخرج فى الموطأ لمالك رحمه الله وفى غيره من مصادر الشريعة الصحيحة .

فهل يظن بأم المؤمنين وهى راوية الحديث الذى استدللتم به أنها تتعمد بطلان صلاتها فتصليها فى السفر أربعاً ؟ اللهم لا . ولكنها فهمت من كلام ربها عز وجل أن قصر الصلاة كان رخصة كما هو ظاهر نص الآية الكريمة ، وكما بين الرسول ﷺ فى قوله لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « صدقة تصدق الله بها عليكم » . فمن احتاج إلى الصدقة أخذها ومن استغنى عنها تركها . وكيف وهى التى كانت يأتيها الرجل من الصحابة أو التابعين فيقول لها : إن رسول الله ﷺ قال كذا .. وكذا .. فترى ما حدث به مخالفاً للآيات الكريمة ، فتقول له : لا يابن أخى إن رسول الله ﷺ لم يكن ليخالف ربه فإن الله تعالى يقول كذا وكذا .. فترد رواية الحديث إذا وجدتها تخالف القرآن ، أو تتعارض معه فلله درها من أم ، ولله درها من عالمة نحريرة ، وفقيهة بصيرة !!

٤ ـ وهل تعلمون أن ابن مسعود رضى الله عنه كما روى ذلك عنه أبو داود فى سننه بسند صحيح : صلى أربعاً ، فقيل له : لم عبت على عثمان ثم صليت أربعاً ؟ فقال : الخلاف كله شر ، وفى رواية : إني لأكره الخلاف . فهل يظن بعبد الله بن مسعود أنه يعتمد بطلان صلاته فيصليها أربعاً ثم يتعلل بكراهيته للخلاف ؟ لا ... ولكن يقال :

---

(١) النساء : ١٠١ .

إنه كان يفهم أن القصر رخصة واظب عليها رسول اللّه ﷺ وحث على فعلها ، فكانت سنة من السنن التى لا ينبغى تركها إلا لعذر كهذا ، وإن تركت لأمر مَا فلا تبطل صلاة العبد لتركها .

وإذا تبين من هذه الأسئلة أن القصر للمسافر رخصة واظب عليها رسول اللّه ﷺ وحث على قبولها فكانت بذلك سنة مؤكدة لا ينبغى أن تترك إلا لداعٍ اقتضى تركها ، فهل يصح لأحد كائناً من كان أن يقول : من أتم صلاته وهو مسافر فصلاها أربعاً بطلت عليه ؟ اللهم لا . وإذا كان هذا فيمن أتم وهو منفرد أو إمام فكيف بمن أتمها مع إمام مقيم تجب متابعته ، وتحرم مخالفته بقول النبى ﷺ : « إنما جعل الإمام ليؤتم به » ، وقوله : « لا تختلفوا على إمامكم ... » الحديث .

ومن هنا ما أصبحنا فى حاجة إلى مزيد بيان لتخطئة من زعم بطلان صلاة المسافر إذا أتمها وراء الإمام المقيم ، غير أننا قطعاً لدابر هذه الفتنة التى أشعلوا نارها بين المسلمين نزيد الأمر إيضاحاً فنقول : لقد روى مالك فى الموطأ : أن ابن عمر رضى الله عنهما وهو صاحب رسول الله ﷺ والراوى لحديث « صلاة السفر ركعتان من ترك السنة فقد كفر » . روى عنه مالك بسند من أصح الأسانيد : أنه رضى الله عنه كان إذا صلى فى السفر مع إمام مقيم أتم صلاته ، وإذا صلى وحده قصر . وهذا نص الرواية : حدثنا نافع أن ابن عمر : كان يصلى بمكة عشر ليال يقصر الصلاة إلا أن يصلى مع الامام فيصلى بصلاته . وقال مالك أيضا : حدثنا نافع ، أن ابن عمر كان يصلى وراء الإمام بمنىً أربعا ، فإذا صلى لنفسه صلى ركعتين . وروى مسلم فى صحيحه أن ابن عباس رضى الله عنهما سئل عن إتمام المسافر وراء المقيم فقال : نعم يتم ، وتلك سنة أبى القاسم . وهذا نص الرواية : عن موسى بن سلمة قال : كنا مع ابن عباس رضى الله عنهما بمكة قلت : إذا كنا معكم صلينا أربعا ، وإذا رحنا إلى رحالنا صلينا ركعتين ؟ قال : سنة أبى القاسم .

وقد أجمع الأئمة الأربعة مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأبو حنيفة الذى يرى وحده : أن القصر عزيمة أجمعوا ورب محمد ﷺ على أن المسافر إذا صلى وراء المقيم وجب عليه أن يتم صلاته مع الإمام ، ولا يسلم من ركعتين ولا يجلس ينتظر أمامه حتى يسلم فيسلم بعده كما قال هؤلاء الزاعمون بطلان صلاة المسافر وراء المقيم إذا أتمها ، وقد احتج بهذا الإجماع الإمام الشافعى رحمه الله على أن قصر الصلاة رخصة وليس بعزيمة ، وقال : لو كان عزيمة ما أجمعت الأمة من عصر النبى ﷺ إلى عهد الشافعى على أن من صلى من مسافر وراء مقيم وجب عليه أن يتم : وسبحان الله كيف غفل هؤلاء عن مثل هذا

وقالوا ببطلان صلاة من أتم وراء المقيم ؟ وأعظم من هذا أننا نتحداهم علنا أن يأتونا بنقل صحيح يثبتون فيه أن أحدا ممن كانوا يفدون على رسول الله ﷺ بالمدينة من الوفود ، وكذا من وفدوا إليها من المسلمين على عهد الصحابة والتابعين ، وتابع التابعين ، ومن بعدهم إلى يومنا هذا ممن يحجون ويزورون المسجد النبوى ، كان يخالف إمام المسجدين الحرام والنبوى فيصلى معه ثم يسلم من ركعتين قبل سلام الإمام ، أو يجلس ينتظر الإمام حتى يسلم فيسلم بسلامه كما يفعل هؤلاء الزاعمون ، نتحداهم فى هذا وإن لم يفعلوا ولن يفعلوا فليتقوا الله فى هذه الأمة وليكفوا من إثارة هذه الشبه والشكوك التى لن يستفيد منها إلا دعاة الهدم والتخريب ، وليرجعوا إلى الحق فإن الرجوع إلى الحق فضيلة .. وقد يقولون : إنكم ما أنصفتمونا فى هذا البيان حيث أغفلتم الأدلة التى اعتمدنا عليها فى زعمنا بطلان صلاة المسافر إذا أتمها وراء المقيم . ونحن نصفة لهم ودفعا لهذا الاحتمال نقول : إن ما اعتمده هؤلاء من النصوص هو ثلاثة أحاديث أولها : حديث عائشة رضى الله عنها فى الصحيح ونصه قالت : « فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر ، فأقرت صلاة المسافر ، وزيد فى صلاة الحضر » وفى رواية للبخارى فى كتاب الهجرة عن عروة عن عائشة قالت : « فرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر النبى ﷺ ففرضت أربعا » . وثانيها : حديث ابن عمر عند ابن حزم « صلاة السفر ركعتان من ترك السنة فقد كفر » . وثالثهما : حديث ابن عباس : « إن الله فرض الصلاة على نبيكم فى الحضور أربعا ، وفى السفر ركعتين » . هذه أقوى الأدلة وأشهرها التى استدل بها الأحناف على وجوب القصر مع إيجابهم الإتمام مع الإمام المقيم ، وعدم السماح للمسافر أن يقصر مع الإمام المقيم بحال من الأحوال واستدل بها هؤلاء على بطلان صلاة من أتم من المسافرين وراء الإمام المقيم وعدوا الإتمام وراءه منكرا يجب تغييره .

وهذا بيان وجه الحق فى هذه الأدلة التى تمسكوا بها . أما حديث عائشة وهو أقواها فهو **أولا** : موقوف عليها ، فلم ترفعه إلى الرسول ﷺ كما أنها لم تشهد زمن فرض الصلاة .

وثانيا : أنه معارض بالآية الكريمة الدالة على أن الصلاة كانت تامة ثم رخص الله تعالى فى قصرها لعلة السفر ، ودلالة الكتاب أقوى للقطع بصحة سندها ولظهور لفظها فى محل النزاع أكمل ظهور إذا رفع الجناح فى القصر واضح فى ذلك .

وثالثا : هو متناقض مع حديث ابن عباس عند مسلم : « فرضت الصلاة فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين » وهى تقول : « فرضت ركعتين ركعتين ثم زيدت فى الحضر وأقرت فى السفر » . كما هو أيضا معارض برواية الطبرانى عن على رضى الله عنه أن تجارا سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نضرب فى الأرض فكيف نصلى ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة** ﴾(١) . ومعنى هذا أن الصلاة لم تفرض ركعتين وإنما فرضت أربعا ، ورخص الله تعالى للمسافر فى قصرها فكانت ركعتين فى السفر . ومعارض بما فى شرح المسند لابن الأثير من أن قصر الصلاة كان فى السنة الرابعة للهجرة ، وهذا يوافق نزول سورة النساء ومشروعية صلاة الخوف ، وأكبر من كل ما سبق أن عائشة راوية الحديث رضى الله عنها قد خالفته وأتمت صلاتها غير مرة فى السفر .

ومن أجل هذه الإحتمالات قال الأئمة الثلاثة : مالك ، وأحمد ، والشافعى رحمهم الله تعالى أجمعين قالوا : إن قصر الصلاة فى السفر رخصة وليس بعزيمة ، بيد أن مواظبة الرسول عليها جعلته أى القصر للمسافر سنة من السنن التى لا يسع البعد تركها .

وأما حديثا ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما فيكفى فى ترك العمل بظاهرهما أن كلا من الراويين رضى الله عنهما كان إذا ائتم بمقيم أتم صلاته ، وإذا صلى وحدْه قصرها ، كما تقدمت الروايات بذلك مع أن حديث ابن عمر صريح فى كون القصر سنة وليس بواجب لقوله : ومن ترك السنة فقد كفر . كما أن قوله : فقد كفر ، لا يحمله على ظاهره إلا ذو غفلة أو جهل كبير ، إذ اللفظ إما أن يكون خارجا مخرج التغليظ نحو قول النبى ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . وإما أن يكون المراد من ترك السنة تركها استخفافا بها وإنكارا لها ، أو يكون المراد بها جميع السنن فتكون أل فى لفظ السنة لاستغراق الجنس ؛ إذ ما من مسلم إلا وهو تارك لسنة أو سنن ، ولم يقل أحد سلفا ولا خلفا أنه كافر بتركه سنة من السنن .

هذا وهناك أحاديث أخرى غير هذه الثلاثة ولكنها متعارضة متضاربة لفظا ومعنى . أَلْهَمَ الله جل جلاله الحافظ بن حجر عالم السنة الذى لم تظل الخضراء ، لم تقل الغبراء رجلا أعلم منه بسنة رسول الله ﷺ فى عصره وإلى يومنا هذا فيما نعلم ، ألهمه الله تعالى فجمع شتات تلك الروايات وقال : والذى يظهر لى أن الصلاة فرضت ليلة الإسراء

---

(١) النساء : ١٠١ .

ركعتين ركعتين إلا المغرب ، ثم زيدت بعد الهجرة عقبها إلا الصبح ، ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف منها فى السفر عند نزول الآية : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة** ﴾ الآية ...

ويؤيد ذلك ما رواه ابن الأثير فى شرح المسند : من أن قصر الصلاة كان فى السنة الرابعة من الهجرة ، فعلى هذا يكون المراد من قول عائشة رضى الله عنها فأقرت صلاة السفر أى باعتبار ما آل إليه الأمر من التخفيف ، لا أنها استمرت منذ فرضت .

وحينئذ فلا يلزم أن يكون القصر عزيمة ، ولا أن من أتم صلاته فى السفر تبطل عليه لا سيما إذا كان مؤتما بإمام مقيم تجب متابعته وتحرم مخالفته .

ويشهد لهذا الجمع والتخريج أن جميع من رووا أحاديث فرض الصلاة ركعتين فى السفر قد أتموا الصلاة فى السفر ، سواء فى ذلك عائشة أم المؤمنين أو ابن عمر ، أو ابن عباس رضى الله عنهم أجمعين .

وأخيرا فقد يقول لنا هؤلاء الأفاضل : إنكم مقلدون حيث تركتم ظواهر النصوص ، واتبعتم عائشة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن سعود ، والأئمة الأربعة فى جواز إتمام المسافر صلاته إذا صلاها وراء إمام مقيم . ونحن نقول لهم : إنا لم نترك العمل بظواهر النصوص إلا بعد النظر فيها ومعرفة ظواهرها وبواطنها . ووجود ما عارضها من نصوص أخرى أقوى منها ، وأحوال وقرائن تجعل العمل بظواهرها مجازفة بدين الله تعالى وتغريرا كبيرا به .

وبناء عليه فنحن لسنا بمقلدين كما تظنون أو تعولون ، وإن أبيتم إلا وصمنا بالتقليد فنحن مقلدون ولكن لكتاب الله ، وعائشة ، وعثمان ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وكل الصحابة ، والتابعين ، والأئمة الأربعة وغيرهم من علماء المسلمين ، وأنتم مقلدون أيضا ولكن لمن من الناس ؟ ؟

والجواب لابن حزم الظاهرى فقط . وحينئذ فأينا أهدى سبيلا ؟ من قلد أمة يستحيل أن تجتمع على ضلالة ، أم من قلد رجلا واحدا بقدر ما يصيب يخطىء ؟

وإذا كان الجواب معلوما . فسلام على المنصفين بعد المرسلين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المسألة الثانية

في بيان خطأ من زعم أن الإفراد بالحج لا يصح

إنا لنكتفي في بيان بطلان هذا الزعم بمجرد عرض المسألة على القارىء عرضاً يتناول أحداثها وجميع ملابساتها، وبين يدى ذلك نقدم المعادلة والمقارنة التاليتين؛ ليكون القارىء على علم مسبقاً بنتيجة البحث:

المعادلة:

من يقول بوجوب (1) التمتع		من يقول بجوازه أو استحبابه
ابن عباس رضي الله عنهما	*	الصحابة كلهم وعامة التابعين
فالنسبة واحد إلى عشرات الملايين ١ / ١٠,٠٠٠,٠٠٠		
ابن حزم غفر الله له	*	الأئمة الأربعة والأمة كلها
فالنسبة واحد إلى مئات الملايين ١ / ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠		
ابن القيم رحمه الله	*	كل أهل العلم في أمة السنة والجماعة
فالنسبة واحد إلى آلاف الملايين ١ / ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠		
عالم فاضل عفا الله عنه	*	جميع أمة الإسلام باستثناء الروافض
فالنسبة واحد إلى ملايين الملايين ١ / ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠		

المقارنة:

قد يقول قائل: العبرة ليست بالكثرة وإنما بإصابة الحق، فنقول: هل من المعقول والمشروع أن يجتهد فرد في معرفة الحق في مسألة ما، وتجتهد أمة بكاملها في معرفة ذلك الحق فتخطىء الأمة ويصيب الفرد، وفي تلك الأمة من هو أعلم وأصلح وأتقى وأبر من ذلك الفرد، اللهم إنه لا يقول بمعقولية هذا أو مشروعيته إلا أحد رجلين: مجنون، أو جاهل بدين الله لا يتوقع منه شيء.

(١) لازم وجوب التمتع فساد الإفراد وبطلانه.

وهذه صورة المقارنة :

من يقول بوجوب التمتع	من يقول بجوازه أو استحبابه
ابن عباس رضى الله عنهما	* أبو بكر ، عمر ، عثمان ، على ، ابن مسعود ، ابن عمر ، وكل الصحابة .

هل هناك من يفضل فهم وعلم ابن عباس على فهم وعلم الشيخين وأصحاب رسول الله ﷺ ؟

ابن حزم غفر الله له	* مالك ، الشافعى ، أحمد ، أبو حنيفة ، كل علماء السلف

هل هناك من يفضل فهم وعلم ابن حزم ، على فهم وعلم الأئمة الأربعة وكل علماء السلف ؟

ابن القيم رحمه الله	* ابن تيمية ، النووى ، ابن حجر ، ابن كثير ، وكل علماء الأمة المعاصرين

هل هناك من يفضل فهم وعلم ابن القيم ، على فهم وعلم شيخه ابن تيمية والنووى وكل علماء السنة أجمعين .

عالم فاضل عفا الله عنه	* عبد العزيز بن باز ، محمد الأمين الشنقيطى ، محمد ابن إبراهيم ، وكل العلماء المسلمين المعاصرين

وبعد فهذا هو العرض :

١ ـ روى الشيخان واللفظ لمسلم : عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع فقال رسول الله ﷺ : « من أراد منكم أن يهل بحج وعمرة فليفعل . ومن أراد منكم أن يهل بحج فليهل . ومن أراد أن يهل بعمرة فليفعل . قالت : فأهل رسول الله ﷺ بحج ، وأهل ناس معه ، وأهل ناس بالعمرة والحج ، وأهل ناس بعمرة . وكنت ممن أهل بعمرة » .

من هذا الحديث أخذت الأمة دليلها على جواز أنواع النسك الثلاثة ومنه أخذ أفضلية الإفراد من قال بذلك : كمالك والشافعى رحمهما الله تعالى .

٢ ـ روى مسلم عن جابر رضى الله عنه فى صفة حج النبى ﷺ قال : « أهللنا مع رسول الله ﷺ بالحج ، فلما قدمنا مكة أمرنا أن نحل ونجعلها عمرة ، فكبر ذلك علينا وضاقت به صدورنا ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فما ندرى أشىء بلغه من السماء ؟ أم شىء من قِبَلِ الناس ؟ فقال أيها الناس : أحلوا ، فلولا الهدى الذى معى فعلت كما فعلتم . قال جابر : فأحللنا » .

٣ ـ وفى لفظ له : قال : « أحلوا من إحرامكم فطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة ، وقصروا ، وأقيموا حلالاً حتى إذا كان يوم التروية فأهلوا بالحج ، واجعلوا التى قدمتم بها متعة ، قالوا : كيف نجعلها متعة ، وقد سمينا الحج ؟ قال : افعلوا ما آمركم به فإنى لولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به ، ولكن لا يحل منى حرام حتى يبلغ الهدى محله » .

٤ ـ وفى لفظ له : حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال : « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لم أسق الهدى وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحلل وليجعلها عمرة ، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله : ألعامنا هذا أم لأبد الأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى وقال : دخلت العمرة فى الحج ، لا ، بل لأبد أبد .

٥ ـ وفى لفظ له أيضاً قال : أمرنا أن نفضى إلى نسائنا فنأتى عرفة تقطر مذاكيرنا المنى قال : فقام النبى ﷺ فينا فقال : « قد علمتم أنى أتقاكم لله ، وأصدقكم ، وأبركم ، ولولا هديى لحللت كما تحلون ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لم أسق الهدى ، فحلوا فحللنا ، وسمعنا وأطعنا » .

٦ ـ وفى لفظ لعائشة فى الموطأ : قالت : فنزلنا بسرف فخرج إلى أصحابه فقال : « من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان منكم معه هدى فلا . قالت عائشة : فالآخذ بها والتارك من أصحابه فأما رسول الله ﷺ ورجال من أصحابه فكانوا أهل قوة وكان معهم هدى فلم يقدروا على ا لعمرة » .

٧ ـ وفى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانوا يرون أن العمرة فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ، ويجعلون المحرم صفراً ، ويقولون إذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر حلت العمرة لمن اعتمر . قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة

رابعة مهلين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاظم ذلك عندهم ، فقالوا يا رسول الله : أى الحل ؟ قال : الحل كله .

هذه سبع روايات أحاديثها كلها صحاح إن أعدنا النظر فيها تجلت أمامنا الحقائق التالية :

١ ـ أن النبى ﷺ خير أصحابه فى ذى الحليفة بين الإحرام بالإفراد ، والقران والتمتع .

٢ ـ أنه ﷺ لما وصل إلى سرف قال لأصحابه : من لم يكن معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ففعل بعض ، ولم يفعل بعض آخر .

٣ ـ أنه ﷺ لما وصل مكة وطاف وسعى أمر من لم يسق الهدى من أصحابه أن يفسخ حجه إلى عمرة ، فعظم ذلك على الصحابة وكبر فى نفوسهم فترددوا طويلاً ، وتلكئوا حتى قالوا ما قالوا : غير أن رسول الله ﷺ ما زال يأمرهم ويرغبهم فى الفسخ ، ويطيب نفوسهم ، حتى سمعوا وأطاعوا وحل منهم من لم يسق الهدى ، أما من ساق الهدى فإنه لا يتأتى له الفسخ والتحلل لقول الله تعالى : ﴿ **ولا تحلقوا رءوسكم حتى يَبْلُغَ الهَدْىُ مَحِلّه** ﴾ (١) ومحله بمنىّ أيام التشريق .

٤ ـ أنه ﷺ سئل عن هذا الفسخ الذى أمر به من لم يسق الهدى ورغب فيه هل هو خاص بتلك السنة أو عام ؟ فأجاب السائل بأنه عام وليس بخاص بل لأبد الأبد .

٥ ـ أنه ﷺ أخبر بأن العمرة دخلت فى الحج إلى يوم القيامة .

وبعد أيضا فإن هذه الحقائق الخمس التى تجلت لنا من النظر فى تلك ـ الروايات الصحيحة هى مدار الخلاف بين أهل العلم منذ عهد الراشدين حتى إن أبا جعفر الطحاوى كتب فى مسألة واحدة منها وهى هل حَجُ النبى ﷺ كان إفراداً أو قراناً كتب فيها أكثر من ألف صفحة . . .

وإلى القارىء خطوط الخلاف ليتتبعها ويسير عليها إلى نهاية البحث ، ساعتئذ يخرج بالنتيجة الصحيحة وهى أن كلاً من أنواع النسك الثلاثة جائز وفاضل أيضا ولكن باعتبار خاص .

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

فإلى تلك الخطوط :

توفى رسول الله ﷺ بعد حجة الوداع ، وتولى أبو بكر الصديق خلافة المسلمين وجاء الحج من العام نفسه ، فحج أبو بكر بالناس مفرداً وحج معه المسلمون مفردين تبعاً لإمامهم . ووالى أبو بكر الحج سنى خلافته فكان لا يحج إلا مفرداً ، والناس تبعا له حتى توفى ، وولى عمر بن الخطاب أمر المسلمين فكان يحج مفردا ويأمر الناس بالإفراد ويقول : أنشئوا للحج سفراً ، وللعمرة سفراً ، فإنه أكمل لحجكم وعمرتكم ، وكان المسلمون لا يخالفونه فى ذلك فقد جاء فى الصحيح أن أبا موسى الأشعرى لما قدم من البلاد التى كان فيها أفتى بالتمتع ، فقال له قائل : رُوَيْدَكَ بعض فتياك ، فإنك لا تدرى ما أحدث أمير المؤمنين فى النسك بعد ، فلقى أبو موسى عمر رضى الله عنهما فسأله فقال عمر : قد علمت أن النبى ﷺ قد فعله ـ بمعنى أذنَ فى التمتع ـ لا أنه تمتع ؛ إذ حج رسول الله ﷺ قارنا كما تقدم ـ ولكن كرهت أن يظلوا معرسين بهن فى الأراك ثم يروحوا بالحج تقطر رءوسهم . فكف أبو موسى عن فتياه رضاً بقول عمر واقتداء به .

ومات عمر رضى الله عنه وولى أمر المسلمين بعده عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فكان يحج بالمسلمين مفرداً ، وكان ينهى عن التمتع وعن القران كذلك ، حتى إن علياً رضى الله عنه لما رأى نهى عثمان عن القران قرن بالحج ولبّى جهرة بحج وعمرة فقال : لبيك اللهم حجاً وعمرة . وقال : ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحدٍ كما ورد ذلك في الصحيحين .

ومات عثمان وولى خلافة المسلمين عليّ رضى الله عنهما ، وحصل الذى حصل وولى ابن الزبير أمر المسلمين فى الحجاز فحج بالناس مفرداً ونهى عن التمتع ائتساء بالخلفاء الراشدين ، فتصدى له ابن عباس وكان يعارضه فى النهى عن التمتع ، ويحتج إليه بالأحاديث التى تقدمت فى هذا البحث ، والناس من وراء ابن الزبير يخالفون ابن عباس فى رأيه ويحتجون عليه بعمل الخلفاء الراشدين ، وعمل الأنصار والمهاجرين . ورواية البخارى التالية ترينا ما كان عليه ابن عباس رضى الله عنهما من إصرار على جواز التمتع ، وأنه سنة النبى ﷺ ، ولا ينبغى تركها . قال البخارى : أخبرنا ابن جمرة قال : تمتعت فنهانى الناس ـ هذا فى زمن ابن الزبير ـ فسألت ابن عباس فأمرنى بالتمتع ، فرأيت فى المنام كأن رجلا يقول لى : حج مبرور وعمرة متقبلة . فأخبرت ابن عباس فقال : الله أكبر سنة أبى القاسم .

فهذه الرواية فى الصحيح تكشف لنا عما كان عليه ابن عباس من الرغبة فى التمتع والناس يخالفونه في ذلك ، وتزيد هذه الحقيقة وضوحاً وثبوتاً رواية مسلم الآتية : روى مسلم عن مسلم القرى قال : سألت ابن عباس عن متعة الحج فرخص فيها ، وكان ابن الزبير ينهى عنها . فقال ابن عباس : هذه أم ابن الزبير تحدث أن رسول الله ﷺ رخص فيها فادخلوا عليها ، فدخلنا عليها فإذا امرأة ضخمة عمياء فقالت : قد رخص رسول الله فيها .

والمدقق للنظر حقاً فى أمر ابن عباس رضى الله عنهما يرى أنه كان فى بداية أمره يدعو إلى الاعتراف برخصة التمتع فقط ، وأن التمتع جائز ومشروع ، ثم مع مرور الزمن وموت الخلفاء الراشدين ، وكثير من أصحاب رسول الله ﷺ تغير نظره فى المسألة ، فأصبح لا يكتفى بتقرير جواز التمتع بالعمرة ، بل يطالب بوجوب التمتع وحتميته ، فقد روى ابن حزم فى المملى عن كريب مولاه أن ابن عباس كان يقول : ما طاف رجل بالبيت إن كان حاجاً إلا حل بعمرة إذا لم يكن معه هدى ، ولا طاف ومعه هدى إلا اجتمعت له حجة وعمرة .

ويقول : والله ما تمت حجة رجل قط إلا بمتعة إلا رجل اعتمر فى وسط السنة . ويدل لهذا التطور فى رأى ابن عباس رضى الله عنهما الرواية التالية :

روى مسلم أن رجلاً قال لابن عباس : ما هذه الفتيا التى قد تشغبت بها الناس تقول : إن من طاف بالبيت فقد حل . فقال : سنة نبيكم وإن رغمتم . وقال عبد الرازق حدثنا معمر بن كريب قال : قال عروة بن الزبير لابن عباس : ألا تتقى الله ترخص فى المتعة . فقال ابن عباس : سل أمك يا عروة . فقال عروة أما أبو بكر وعمر فلم يفعلا . فقال ابن عباس : والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله ، أحدثكم عن رسول الله ﷺ ، وتحدثونى عن أبى بكر وعمر فقال عروة : لهما أعلم بسنة رسول الله ﷺ وأتبع لها منك . فسكت ابن عباس لجواب عروة له ، إذ من غير المشكوك فيه أن الشيخين أعلم بسنة رسول الله ﷺ من ابن عباس وأتبع لها منه .

وواصل ابن عباس دعوته فى التابعين يطالب بوجوب التمتع ، ويرى أن من طاف بالبيت فقد حل ، ولا يرى للمفرد بالحج أن يطوف بالبيت حتى يأتى عرفات . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يخالفه فى ذلك ويرد عليه ، ورواية مسلم التالية تؤكد ذلك . روى مسلم عن وبرة قال كنت جالساً عند ابن عمر فجاء رجل فقال : أيصلح لى أن أطوف

بالبيت قبل أن آتى الموقف ؟ فقال : نعم . فقال : إن ابن عباس يقول : لا تطف بالبيت حتى تأتى الموقف . فقال ابن عمر : فقد حج رسول الله ﷺ فطاف بالبيت قبل أن يأتى الموقف فبقول رسول الله أحق أن نأخذ أو بقول ابن عباس ، إن كنت صادقاً ؟

وفى لفظ لمسلم : سأل رجل ابن عمر : أطوف بالبيت وقد أحرمت بالحج ؟ فقال : وما يمنعك ؟ قال : إنى رأيت ابن فلان يكرهه وأنت أحب إلينا منه رأينا قد فتنته الدنيا . فقال ابن عمر : سنة الله ورسوله أحق أن تتبع من سنة فلان إن كنت صادقاً .

وأخيراً رواية الشيخين : عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل القرشى : أن رجلاً قال له : سل لى عروة بن الزبير عن رجل يهل بالحج فإذا طاف بالبيت أيحل أم لا ؟ قال عروة : قد حج النبى ﷺ ، فأخبرتنى عائشة رضى الله عنها أن أول شىء بدأ به حين قدم أنه توضأ ، ثم طاف بالبيت ثم لم تكن عمرة ، ثم حج أبو بكر رضى الله عنه فكان أول شىء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم تكن عمرة ، ثم حج عمر رضى الله عنه ففعل ذلك ، ثم حج عثمان رضى الله عنه فرأيته أول شىء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم تكن عمرة ، ثم معاوية وعبد الله بن عمر ، ثم حججت ، مع أبى الزبير بن العوام فكان أول شىء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم تكن عمرة ، ثم رأيت المهاجرين والأنصار يفعلون ذلك ، ثم لم تكن عمرة ، ثم آخر من رأيت فعل ذلك ابن عمر ثم لم ينقضها عمرة ، وهذا ابن عمر عندهم . فلا يسألونه ؟ ولا أحد ممن مضى ما كانوا يبدءون بشىء حتى يضعوا أقدامهم من الطواف بالبيت ثم لا يحلون ، وقد رأيت أمى وخالتى حين تقدمان لا تبتدئان بشىء أول من البيت تطوفان به ثم لا تحلان . وقد أخبرتنى أمى أنها أهلت هى وأختها والزبير وفلان وفلان بعمرة فلما مسحوا الركن حلوا .

(تضاد فى المسألة)

وإذا كان ابن عباس يرى فى آخر عهده وجوب التمتع ، ولا يرى لأحد أن يطوف بالبيت مفرداً إلا حل بعمرة إلا أحداً اعتمر وسط السنة ، فإن هناك غيره من يرى عكس ما يراه فى هذه المسألة ، والروايات التالية تبين لنا ذلك :

روى مسلم فى صحيحه عن أبى نضرة قال : كنت عند جابر بن عبد الله رضى الله عنه فأتانا آت فقال : ابن الزبير وابن عباس اختلفا فى المتعتين ، فقال جابر : فعلناهما مع رسول الله ﷺ . ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما .

فهذه الرواية فى الصحيح تُثْبت نهى عمر رضى الله عنه عن متعة النساء ومتعة الحج ، وأن جابراً كغيره من أصحاب رسول الله ﷺ تركوا ذلك اقتداء بعمر رضى الله عنهم أجمعين .

روى البيهقى فى السنن الكبرى : أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ أتى عمر بن الخطاب فشهد عنده أنه سمع رسول الله ﷺ فى مرضه الذى قبض فيه ينهى عن العمرة . قال النووى : وروى هذا الحديث أبو داود فى سننه ، وقد اختلفوا فى سماع سعيد بن المسيب عن عمر لكنه لم يرو هنا عن عمر بل عن صحابى غير مسمى والصحابة كلهم عدول .

وروى أبو داود والبيهقى أيضاً : أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما قال لأصحاب النبى ﷺ : هل تعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن كذا . . وكذا . . وعن ركوب جلود النمور ؟ قالوا : نعم . قال : فتعلمون أنه نهى أن يقرن بين الحج والعمرة فقالوا : أما هذا فلا . . فقال : أما إنها معهن ولكنكم نسيتم . والقصد من إيراد هاتين الروايتين إثبات جانب مضاد من أصحاب رسول الله ﷺ لابن عباس فى رأيه فى وجوب التمتع .

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قوله : كانت المتعة في الحج لأصحاب محمد ﷺ خاصة .

وروى عنه قوله : كانت لنا رخصة . يعنى المتعة فى الحج .

وروى عنه قوله : لا تصلح المتعتان إلا لنا خاصة يعنى متعة النساء ومتعة الحج .

وروى عنه أنه مر به أبو إبراهيم القمى بالربذة فذكر له المتعة فقال : كانت لنا خاصة دونكم .

فهذه الروايات فى الصحيح عن أبى ذر تدل على أن هناك من أصحاب رسول الله ﷺ كأبى ذر ، وعمر ، وغيرهما من يرى عدم جواز الفسخ أى فسخ الحج إلى العمرة . واسمع إلى سعد بن أبى وقاص والضحاك فى رواية الموطأ ، وقد ذكرا التمتع بالعمرة إلى الحج فقال الضحاك : لا يفعل ذلك إلا جاهل بأمر الله عز وجل . فقال سعد : بئس ما قلت يابن أخى ، فقال الضحاك ، فإن عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك ، فقال سعد : صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه .

وقد تقدم رد عمر بن الخطاب عن أبى موسى الأشعرى فى الصحيح وقد أقنع عمر أبا موسى فترك الإفتاء بالتمتع ، إذ جاءفى رد عمر رضي الله عنه قوله : أن نأخذ بكتاب الله فإنه يأمر بالتمام قال تعالى : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ (١) ، وأن نأخذ بسنة النبى ﷺ فإنه لم يحل حتى نحر هديه . ويفهم من قول عمر هذا : أنه كان ينهى عن الفسخ أى فسخ الحج إلى عمرة الذى يراه ابن عباس واجبا ولعل هذا كان لفهم منه أن الفسخ الذى حصل لأصحاب رسول الله ﷺ عام حجة الوداع كان خاصاً بتلك السنة (٢) كما فهم ذلك أبو ذر الغفارى رضى الله عنه ، وأنها مجرد رخصة . أما الكمال والأفضلية ففى إتمام الحج والعمرة بأن يحرم بالعمرة فى غير أشهر الحج حتى إذا أتمها عاد إلى أهله ، وإذا جاء شهر الحج أحرم بالحج مفرداً ولم يحل حتى يأتى الموقف « عرفه » ويرمي جمرة العقبة .

وهذا لعمر الله أتم وأكمل وأعظم أجراً ، ويشهد له قول المصطفى ﷺ فى الصحيح : « إنما أجرك على قدر نصبك » ، وقوله : « عن ربه فى مباهاته تعالى ملائكته بالحجيج يوم عرفة : « هؤلاء عبادى أتونى شعثاً غُبْراً » .

وكيف تكون الشعثة أو تحصل الغبرة لمن اغتسل يوم التروية بمكة وتطيب ثم أتى عرفة صباح غد ؟

وهل قول الله تعالى : ﴿ **فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى** ﴾ (٣) الآية . . . يدل على غير أن التمتع بالعمرة إلى الحج رخصة من فعلها وترك الأكمل الأتم ، وهو إتمام الحج إفراداً إلى الموقف عليه جزاء وهوذبح ما استيسر من الهدى ، فإن عجز صام عشرة أيام بدلاً عن ذلك . وسبحان الله ماذا أعطى عمر بن الخطاب من دقة الفهم فى شرع الله . وكيف وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « لو كان فى أمتى محدثون لكان عمر » ، وقال فيه وفى الصديق : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر »(٤) . وكيف وهو الذى نزل القرآن غير مرة بموافقته ، وكان يقول : وافقت ربى فى كذا وكذا ويذكرها تحدثاً بنعمة الله عليه . وفيه قال رسول الله ﷺ : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . ورضى الله عنه وهو يُعرب عن رغبته فى إسعاد المؤمنين وإصلاحهم إنى

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

(٢) الظاهر أن معنى كونه خاصا أى فى كونه واجبا عليهم فى تلك السنة لكون رسول الله ﷺ وجه إليهم الخطاب وأمرهم ، فالفسخ وإن كان جائزاً أصبح من حقهم ، واجبا ، إذ لا يحل لهم مخالفة أمر رسول الله ﷺ .

(٣) البقرة : ١٩٦ .

(٤) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة عن حذيفة وهو صحيح لا مطعن فيه .

أعلم أن التمتع جائز ولكنى كرهت أن يظلوا معرسين بهن فى الأراك ثم يروحوا إلى عرفات تقطر رؤوسهم . يعنى بالاغتسال من الجماع .

وقد يقول قائل ممن لا نصيب لهم فى فهم نصوص الشريعة إلا ما طفا على سطح العبارات : كيف يقول عمر هذا ويكرهه والرسول ﷺ قد أمر به وغضب لتركه ؟ ولو شئنا لتركنا هذا القائل فى حيرته يتردد حتى يهلك بتجهيل عمر رضى الله عنه وتفسيقه . ولكننا نقول : إن عمر رضى الله عنه فهم فهماً لا نشك أنه وافق فيه مراد الله ورسوله ، من أن الأمر بالفسخ كان تشريعاً بيّن الله تعالى فيه على لسان رسوله ﷺ رخصة التمتع والفسخ لما فيهما من الرفق بالمؤمنين ولذا قال ﷺ : « إنها للناس كافة » وقال « إنها لأبد الأبد » . ولم يكن ذلك الأمر دالاً على وجوب الفسخ ولا على أفضليته أبداً وإنما الأفضلية فى إتمام الحج والعمرة . على النحو الذى أمر الله تعالى به فى قوله : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ [1] . وهى أن يحرم بعمرة فى وسط السنة ثم يعود من عامه فيفرد الحج ، ويحج ولا يتحلل حتى يرمى جمرة العقبة كما كانت أم المؤمنين عائشة تفعل وكما كان جل أصحاب رسول الله ﷺ من مهاجرين وأنصار يفعلون ، وما مثل هذه الرخصة فى الفسخ والتمتع بالنسبة إلى إفراد الحج والعمرة إتماما لهما إلا كرخصة ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمن كان لا يقدر على تحمل العذاب بالضرب والسجن أو القتل . أما من قدر على التحمل والصبر وقال كلمة الحق وعذب فى ذلك فهل من قائل يقول : إن الذى أخذ بالرخصة فسكت ولم يمسه سوء هو ومن أمر ونهى فعذب وقتل فى الأجر سواء ؟ معاذ الله أن يقول هذا عاقل والرسول ﷺ يقول :« سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائرٍ فأمره ونَهَاه فقتله »[2] .

فلينظر هؤلاء الشغوفون برخصة الفسخ وهم يفسقون من يتركها طلباً للأفضل منها . كيف يقعون فى أسوأ فهم وأقبحه وحاشا الحبر ابن عباس فإنه كان يقول بتفضيل عدم الفسخ لمن يعتمر وسط السنة وقد تقدمت الرواية عنه فلتراجع هناك .

والآن نعود إلى مواصلة السير بالقارىء على تلك الخطوط التى نحن سائرون عليها فى بيان خطأ القائلين ببطلان حج الإفراد فنقول :

مات ابن عباس رضى الله عنهما ولم يرَ رأيه ويقل به إلا نفر قليل من تلامذته ،

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

(٢) رواه الحاكم الضياء عن جابر وعلم عليه السوطى بالصحة .

ككريب مولاه ، وعنه عطاء ، وطاووس من التابعين ، وأما كل الصحابة والتابعين فكانوا كما علمت ما بين من يأمر بالإفراد وينهى عن التمتع والفسخ ، وبين من يجيز الكل الإفراد والتمتع والقران والفسخ أيضاً وانقرض عصر الصحابة والتابعين والأمر ما علمت بلا زيادة ولا نقصان .

وجاء عصر تابعي التابعين والأئمة الأربعة وغيرهم من علماء السلف وقد انتهى من يقول : بوجوب التمتع كابن عباس ، ولا من يمنع الفسخ والتمتع ، كعمر ، وعثمان ، وابن الزبير وغيرهم من الصحابة والتابعين ، فأجمعت الأمة على جواز أنواع النسك الثلاثة ، الإفراد والتمتع والقران .، واختلفت فى أىّ هذه الأنواع أفضل فذهب مالك والشافعى إلى أفضلية الإفراد ، وذهب أحمد إلى أفضلية التمتع ، وذهب إلى أفضلية القران أبو حنيفة ورحم الله الجميع فإن لكل مستنداً رجح به وجهة نظره فيما رآه الأفضل .

كما أنهم أجمعوا على أن من اعتمر فى غير أشهر الحج أو اعتمر فيها وعاد إلى أهله ، ثم أحرم من عامه حاجاً فإن الإفراد أفضل له وهذا الذى أجمع عليه الصحابة كابن عباس وعمر وعثمان وأصحاب رسول الله ﷺ ولم يختلفوا فيه .

كما أن من لم يعتمر فى وسط السنة فالتمتع له أفضل من الإفراد ثم الاعتمار بعد الحج فى أشهره فقد روى مالك فى الموطأ عن ابن عمر قوله : والله لأن اعتمر قبل الحج وأهدى أحب إلىّ من أن أعتمر بعد الحج فى ذى الحجة .

وهذا الذى صرح به شيخ الإسلام فى منسكه وفتاواه ، وحكى إجماع الصحابة والأئمة عليه ، وهو أن كلاً من النسك أفضل باعتبار ، فالإفراد أفضل إذا كان المفرد بالحج قد اعتمر فى تلك السنة وعاد إلى أهله ثم حَجّ من عامه . كما أن من ساق الهدى من بلده أو من الحل إلى الحرم فالقران له أفضل لموافقته حج رسول الله ﷺ الذى اختاره الله تعالى له ، والله لا يختار لرسوله إلا ما كان أفضل . وأما من لم يسق الهدى ولم يعتمر فى وسط السنة فإن التمتع له أفضل من أن يفرد بالحج ثم يعتمر فى شهر ذى الحجة ، إذ تقدم أن ابن عمر أقسم بالله تعالى على أنه يتمتع ويهدى أحب إليه من الإفراد ثم الاعتمار بعد نهاية الحج فى شهر ذى الحجة كما يفعل العوام اليوم ، ومن لا بصيرة لهم .

ومضت أربعة قرون ودخل الخامس والأمة مجتمعة على جواز أى من أنواع النسك الثلاثة إلا ما كان من الشيعة فإنهم يقولون : بوجوب التمتع ، وبحكم تكفيرهم لأصحاب

رسول الله ﷺ وخاصة الشيخين أبا بكر وعمر فإن خلافهم لا يلتفت إليه ، ولا يعد قادحاً فى إجماع الأمة على جواز أى من النسك . وأثناء القرن الخامس برز للوجود على بن حزم الأندلسى المعروف بأبى محمد الظاهرى فخرج عن الإجماع وشنع عن أئمة الإسلام وجهلهم ، وقال : بوجوب التمتع وبعدم جواز الإفراد ، غير أنه لم يقل برأيه أحد ، وبقى إجماع المسلمين على ما كان قبل لم يتأثر بقول ابن حزم ومخالفته ، واستمرت الأمة على اجماعها كذلك إلى القرن السابع ، فجاء ابن القيم وكتب كتابه زاد المعاد فأثار قضية التمتع مرة أخرى ورأى أن التمتع أفضل أنواع النسك ، وأن المفرد إذا لم يَسُق الهدى وجب عليه أن يفسخ حجه إلى عمرة وهو رأى اين حزم الظاهرى بلا زيادة ولا نقص حتى أنه نقل كلامه من المحلى حرفياً .

غير أن إجماع الأمة لم يتأثر أيضاً بما كتب ابن حزم ولا بما نقل ابن القيم غفر الله لهما ، ومضت الأمة على إجماعها على جواز أنواع النسك الثلاثة إلى السبعينات من هذا القرن اطلع من اطلع على ما كتب ابن حزم ، وما نقل ابن القيم فقال : بوجوب التمتع وفساد الإفراد إذا لم يكن مع المفرد هدى ساقه من الحل إلى الحرم . وصادفت القضية الوعى الإسلامى الجديد ، ورغبة المؤمنين فى العودة إلى الكتاب والسنة فأحدثت فى نفوس صغار الطلبة بلبلة فكرية واضطرابا نفسياً متعباً . وكثرت التساؤلات وتحيرت العقول . ورأينا أنه لا بد من الوقوف بأبنائنا الطلبة والمتعلمين على حقيقة هذه القضية تبياناً للحق وهداية للناشئة المسلمة من هذه الحيرة . وبناء على هذا فقد عرضنا المسألة عرضاً سليماً خاليا من التعصب ، أو المغالطة لا كما يفعل المغرضون وأصحاب الأهواء ، وتحقيقاً لهذا المبدأ وسيراً فى هذا الخط المستقيم نورد ما اعتمد عليه من قال : بعدم صحة الإفراد إلا بشرط الهدى وهم من عرفت : ابن عباس من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وابن حزم الظاهرى فى القرن الخامس

والروافض من غلاة الشيعة وغيرهم

وابن القيم فى القرن السابع

وعالم فاضل فى القرن الرابع عشر

وبإسقاط الروافض من الحساب وهم ساقطون قطعاً يبقى من يقول بعدم صحة الإفراد إلا بشرط سوق الهدى أربعة أفراد من مجموع أمة الإسلام التى لا يعرف عدد أفرادها فى

كل عصورها إلا الله تعالى وحده .

وهذه هي الأمور التي اعتمدها الزاعمون بطلان الإفراد نوردها مجملة إثباتاً لها ، ثم نوردها مفصلة لبيان وجه الحق فيها وبذلك يتضح أنها ليست أدلة صالحة للاحتجاج بها على ما ذهبوا إليه وأرادوه من بطلان حج الإفراد :

١ ـ صيغة الأمر في قوله ﷺ « افعلوا ما آمركم به » .

٢ ـ غضبه ﷺ لما تلكأ أصحابه وترددوا ولم يحلوا .

٣ ـ تمنيه ﷺ عدم سوق الهدى حتى يجعل حجه عمرة . موافقة لأصحابه الذين لم تطب نفوسهم بالتحلل دونه ﷺ .

٤ ـ قوله ﷺ لسراقة لما سأله عن الفسخ الذى أمر به : « لا ، بل لأبد أبد » .

٥ ـ قوله ﷺ : « دخلت العمرة فى الحج مرتين » .

هذه خمسة أمور هى أحوال لابست المسألة فمن جمد على ظواهر ألفاظها ولم يعط قيمة للقرائن والأحوال اللفظية والمعنوية قال : بوجوب التمتع ووقع فى ورطة نسخ القران ، أو تخصيص آية بمجرد فهم من السنة لم يقل به أهل السنة ورجالات العلم وحذاق الشريعة كأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وابن عمر ، والزبير ، وجابر ، وأبى موسى ، وأبى ذر ، وابن الزبير ، وعروة ، وعائشة أم المؤمنين ، والتابعين وتابعيهم بإحسان ، والأئمة الأربعة ، وسائر المؤمنين .

وأما من أعطى قرائن الأحوال والألفاظ ما تستحق من العناية والاعتبار فقد قال بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وعمل بهما معاً ولم يضرب أحدهما بالآخر ، وكان قد أجلّ أصحاب رسول الله ﷺ ولم يجهلهم أو يفسقهم ولم يتّبع غير سبيل المؤمنين . وأراح واسترح .

وهذا تخريج تلك الأحوال وحملها على أحسن محاملها فلنقف عليه لنزداد يقيناً بصحة ما ذهب إليه أصحاب رسول الله ﷺ وخاصة الراشدين منهم ، وما قال به وعمل كل المؤمنين من سلف وخلف ما خلا الأربعة [1] الأنفار الذين سبق أن وضحنا أسماءهم غير مرة .

---

(١) هؤلاء يعتبرون رؤوسا فى المسألة ولا مانع أن يكون لكل تابع فى رأيه هذا .

أما صيغة الأمر فإنها ليست فى خطاب الله ولا رسوله ﷺ دائماً للوجوب . إذ قد تكون لمجرد الإباحة ، أو للندب أو للإرشاد إلى ما هو أولى وخير ، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم ، وذلك لوجود قرينة لفظية أو معنوية تصرف الأمرعن الوجوب إلى غيره من الإباحة أو الندب ، أو الإرشاد وهنا فى هذا الأمر النبوى الكريم « افعلوا » قرائن وأحوال تصرفه عن الوجوب إلى بيان الجواز ، أو الندب والاستحباب ، منها : إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من منع الاعتمار فى أشهر الحج . فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يفسخوا حجهم إلى عمرة يتمتعون بها إلى الحج قطعاً لدابر شرع الجاهلية واستئصالاً لما كانوا عليه من تحريم ما لم يحرم الله تعالى على عباده افتراء على الله عز وجل . وقد يحلو لهؤلاء الزاعمين وجوب التمتع أن يقولوا : ما هناك حاجة إلى هذا ؛ لأن النبى ﷺ قد اعتمر فى ذى القعدة وهو من أشهر الحج ، كما أنه قد أذن لأصحابه فى التمتع فى ذى الحليفة وأن هناك من أهل به ، كما أنهم لما وصلوا إلى سرف رغّبهم أيضاً فى التمتع ، ولم يعزم فيه على أحد فأخذ به من أخذ وترك من ترك كما قالت عائشة رضى الله تعالي عنها فى حديثها المتقدم .

ونحن نقول سبحان الله ألم يكفهم قول الحبر ابن عباس رضى الله عنهما فى حديث الصحيحين المتقدم ونصه : كانوا يرون العمرة فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ، ويجعلون المحرم صفراً ، ويقولون : إذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر حلّت العمرة لمن اعتمر . فقدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة راحة مهلين بالحج الخ ...

وقوله فى المسند الصحيح : والله ماأعمر رسول الله ﷺ عائشة فى ذى الحجة إلا ليقطع بذلك أمرأهل الشرك ، فإن هذا الحى من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون : إذا عفا الأثر وبرأ الدبر وانسلخ صفر حلّت العمرة لمن اعتمر . وما أعمرها إلا بعد نهاية أعمال الحج كما هو معروف .

وإن قدروا على إخفاء هذه أو تأويلها ، فهل يقدرون على تأويل أو إخفاء قول جابر رضى الله عنه : أمرنا أن نفضى إلى نسائنا فنأتى عرفة تقطر مذاكيرنا المنى !! فليسألوا قائلى هذه المقالة هل قالوها فرحين متبجحين بها أمام رسول الله ﷺ ؟ أم قالوا مستعظمين لأمر التحلل منكرين للفسخ بالعمرة فى أيام الحج ؟ حتى قام فيهم رسول الله ﷺ خطيباً وقال : « أيها الناس قد علمتم أنى أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم ، ولولا هديى لحللت كما تحلون » . وكيف المخرج لهم إذا أضفنا قول جابر : فكبر ذلك علينا وضاقت به صدورنا ؟

ألم يكف كل هذا قرينة دالة على أن الأمر لم يكن إلا للتشريع وبيان جواز الفسخ والاعتمار فى أيام الحج ، وليس لإيجاب التمتع وإبطال ما عداه من الإفراد أو القران .

وإن جاز أن ينكروا هذه القرينة الصارخة بصرف الأمر عن الوجوب ، فهل يمكنهم إنكار قرينة مخالفة الراشدين والصحابة والتابعين لظاهر هذا الأمر ، حيث حج الشيخان ، وعثمان رضى اللّه عنهم نحواً من أربع وعشرين عاماً مفردين ، ومعهم كافة أصحاب رسول اللّه من أنصار ومهاجرين . فأىّ قرينة حالية أكبر من هذه القرينة لصرف ذلك الأمر عن الوجوب إلى بيان الجواز . أرأيت لو أضفنا إلى ذلك نهى عمر عن التمتع طيلة أعوام خلافته . فهل يعقل أن يكون الأمر للوجوب كما يقولون ويتركه الراشدون ويعملون بخلافه وتتبعهم أمة الإسلام كل أمة الإسلام على ذلك ، اللهم إنا نبرأ إليك من أن يظن هذا بأصحاب نبيك وأمته .

وقد يقولون فراراً من هذه المواجهة : لعل الراشدين كانوا يسوقون الهدى معهم فلذا كانوا يفردون . ومعناه : أن الراشدين كانوا يَحْتالُون على أمر رسول اللّه الواجب اتباعه بسوق الهدى حتى يتمكنوا من ترك الأمر وإهماله ، ليفردوا بالحج إمعاناً فى الخروج عن أمر رسول اللّه ﷺ . اللهم إنا نبرأ إليك أن يظن هذا فى الشيخين اللذين قال فيهمارسولك : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » . وفى أصحاب رسولك الذين رضيت عنهم ، وأثنيت عليهم .

وإن أبوا إلا هذا الظن وجاروا الشيعة فى الطعن فى الشيخين ، وأصحاب رسوله ﷺ فإنا نقول : هل تستطيعون بطريق صحيح إثبات سوق الهدى فى كل تلك السنوات التى كانوا يفردون فيها وهى نحو من أربع وعشرين سنة ؟ فإن لم تستطيعوا لن تستطيعوا فاعترفوا بالحق وأذعنوا له وقولوا بجواز الإفراد والتمتع والقِران كما قال كتاب اللّه ورسول اللّه وأَوْلِيَاءُ اللّه ، وعندها تريحون وتستريحون .

وأما غضبه ﷺ فإنه لم يكن إلا غضباً طبيعياً أثاره تردد القوم الطويل ، وتحرجهم من فسخ الحج إلى عمرة ذاك التحرج الذى لا معنى له ما دام رسول اللّه ﷺ يأمرهم ويرغبهم ويذكر لهم أنه أتقاهم وأبرهم وأصدقهم ، وأنه لولا هديه لحل معهم كما يحلون ، وهم يقفون حيارى مترددين كالمنكرين ، فطبيعى إذاً أن يغضب رسول اللّه ﷺ وأن يكون غضبه لا لأن مأموريه تركوا واجباً من واجبات الشرع أو فريضة من فرائضه . وإنما لعدم مبادرتهم لما أرشدهم إليه ، ورغبهم فيه وحثهم عليه ولا سيما أن مراد الشارع من إبطال ما

كان عليه أهل الشرك لا يتحقق كاملاً إلا بفسخهم حجهم إلى عمرة ؛ وفى هذا الوقت بالذات ..

وأما تمنيه ﷺ عدم سوق الهدى والتحلل فلم يكن دالاً على أكثر من تطييب خواطر أصحابه لما فاتهم من الإبقاء على إحرامهم ، ولم يفهم منه أهل المعرفة بلغة العرب وأحوال الكلام وأسراره غير ترغيب المخاطبين فى الفسخ وحملهم عليه حتى يتم التشريع عن طريقهم . نظير هذا حمل اللّه عز وجل رسوله ﷺ على الزواج بزينب بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ليبطل بذلك عادة التّبنّى وأحكامه فى الجاهلية فهل من قائل بعد ذلك : إنه يجب على كل من كان له متبنّى فى الجاهلية أن يتزوج مطلقته ؟ اللهم لا . ومن هنا كان القران لمن ساق الهدى أفضل بإجماع المسلمين من فسخ الحج إلى العمرة ، وكيف وهو الحج الذى اختار اللّه لرسوله ﷺ وهل يختار إله لنبيّه مفضولا ؟ اللهم لا . وحتى لو عاش النبى ﷺ إلى قابل ولم يسق الهدى وجعل حجه عمرة لبيان جواز الفسخ وحمل الناس عليه ولإبطال شرع المشركين لما دل ذلك على أفضلية الفسخ على القران ؛ وإنما دل على أن الرسول ﷺ تنازل من فاضل إلى مفضول تحقيقاً لهدف خاص ومصلحة عامة ، فيكون أجره أعظم ومثوبة أكبر لما فاته من حجة الفاضل ، على حد من ترك شيئاً للّه عوضه اللّه خيراً منه . يدرك هذا كل ذى بصيرة فى دين اللّه ومعرفة بأسرار شرعه وأحوال نبيّه ﷺ .

وأما قوله ﷺ : « لا ، بل لأبد أبد »(١) لما سئل عن الفسخ الذى أمر به ، فإنه دال دلالة واضحة على جواز الفسخ والاعتمار فى أشهر الحج لكل مسلم أراد ذلك بلا تحرج أبداً ، ولم يكن تشريعاً خاصاً ينتهى بتلك السنة أو بأولئك الأصحاب رضوان اللّه تعالى عليهم ؛ إذ لم يكن القصد من الأمر بالحل مجرد التخفيف عن أصحابه فى تلك السنة فقط كما فهم بعض ، وإنما أراده تشريعاً عاماً لا ينتهى ما دام البيت يحج ، فلكل مسلم أن ينتفع بهذه الرخصة متى شاء بلا حجر ولا نكير . تمشياً مع قول اللّه عز وجل : ﴿ **فمن تمتع**

---

(١) هنا مسألتان أولاهما : أن المباح إذا أمر به الرسول شخصاً أصبح واجباً من حقه ، لأن طاعة النبى ﷺ واجبة . وأما من لم يؤمر به فإنه يبقى فى حقه مباحاً على الأصل مثال هذا : مسألة الفسخ هذه فإنها فى حق المأمورين بها فى حجة الوداع واجب ، وأما من عداهم فهى بالنسبة إليهم على الأصل وهو الجواز . وثانيتهما : أن النبى ﷺ إذا فعل المكروه والمباح بقصد بيان الجواز ، انقلب فعله له طاعة أى قربة من القرب مثاله : لو أن الرسول ﷺ عاش إلى قابل ولم يسق الهدى وتحلل بعمرة لكان فعله هذا قربة له ، وإن كان فى الأصل مباحاً أى الفسخ وليس بقربة بل رخصة .

بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ... ﴾ الآية (١) .

وأما قوله ﷺ : « دخلت العمرة فى الحج مرتين » حال إجابته سراقة بن مالك لما سأله عن حكم فسخ حجهم إلى عمرة ، فلنسمع أولاً إلى ما قال فيه أهل العلم من السلف : روى ابن حزم فى المحلى عن طاوس أنه سئل عن قول الرسول ﷺ : « دخلت العمرة فى الحج » ؟ فأجاب قائلاً : هو الرجل يفرد بالحج ويذبح ، فقد دخلت له عمرة فى الحج فوجبتا له جميعاً . وروى عن مجاهد أنه كان يقول : من جاء حاجاً فأهدى هدياً فله عمرة مع حجة . فهذان التفسيران عن السلف دلا على معنى واحد ، وهو أن المفرد إذا ساق الهدى أو اشتراه من الحرم وذبحه كان له مع حجته عمرة ؛ لأن أفعال الحج هى أفعال العمرة ولا فرق . ومن هنا إذا ذبح المفرد هدياً فى منى كان كمن قرن حجة وعمرة فتمتا له معاً ، والعلة هى أن أعمال الحج والعمرة واحدة : طواف وسعى ، فكل من طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة فقد حج البيت واعتمر . غير أنه إن لبّى بهما معاً وسماهما ، أو تحلل بعد طوافه وسعيه وجب عليه دم وإن عجز عنه فصيام ، وإن لم يتحلل لم يجب عليه شىء . غير أنه إن ذبح تطوعاً كان له أجر حج وعمرة ؛ لأن عمل الحج هو عمل العمرة وليس هناك شىء زائد إلا الهدى فمن أهدى وهو مفرد حصل له أجر حج وعمرة والحمد لله . هذا الذى فهمه طاوس ، ومجاهد رحمهما الله تعالى من قوله ﷺ : « دخلت العمرة فى الحج » . وهو فهم صحيح سليم . ولم يكن دالا على وجوب الفسخ لمن أفرد ولم يسق الهدى كما فهم الزاعمون ذلك .

وزيادة فى الإيضاح نورد ما نقله النووى عند شرح هذه العبارة فى صحيح مسلم قال : واختلف فى معناه على أربعة أقوال :

أصحها وبه قال الجمهور معناه : أن العمرة يجوز فعلها فى أشهر الحج إلى يوم القيامة ، والمقصود به بيان بطلان ما كانت الجاهلية تزعمه من امتناع العمرة فى أشهر الحج ، وهذا القول الذى قال به الجمهور : لا منافاة بينه ، وبين قول طاوس ، ومجاهد .

وثانيها : جواز القران : وتقدير الكلام دخلت أفعال العمرة فى أفعال الحج إلى يوم القيامة . وهذا ملائم أيضاً لما سبق .

ثالثها : سقوط العمرة لدخولها فى الحج وهذا باطل ضعيف لا قيمة له لمعارضته

(١) البقرة : ١٩٦ .

بالقرآن الكريم ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ... ﴾ الآية [٢] .

رابعها : وهو قول أهل الظاهر جواز فسخ الحج إلى العمرة قال : وهذا ضعيف .

ويبدو أن ضعفه من حيث دلالة اللفظ عليه لا من حيث الحكم ؛ إذ جواز الفسخ دل عليه ما تقدم .

والآن فهذه ستة أقوال فى تفسير هذه العبارة النبوية الكريمة من السلف والخلف ولم يكن قول منها دالاً على وجوب التمتع ، فهل يعقل أن يقول رجل برأيه ، ونسبة الصواب إليه نسبة واحد إلى سبعة . إن هذه العبارة النبوية دالة على وجوب التمتع ، ويجيز لنفسه أن يطالب المسلمين بوجوب اعتقاد فهمه ، وإلا فهم عصاة مخطئون ومقلدون جامدون . وسبحان الله ما فى هذه الحياة من عجائب !!

(١) البقرة : ١٩٦ .

خاتمة البحث

بناء على هذه الدراسة الدقيقة لهذه المسألة الفقهية نسجل بحمد اللّه تعالى نتيجتها لتكون فى متناول كل من يطلع على هذا البحث الذى تم فيه بتوفيق اللّه تعالى ، ومعونته إحقاق الحق وإبطال الباطل فى هذه المسألة التى بلبلت الأفكار ، وأثارت تساؤلات كثيرة ما كانت لتكون لو فكر مثيروها فى نتائجها قبل إثارتها والخوض فيها . ولكن ما قدر يكون ، والحمد للّه الذى وفقنا لإظهار الحقيقة فيها ، والوقوف بالإخوة المسلمين عليها كما هى .

وهى :

١ ـ جواز الإحرام بأىّ من أنواع النسك الثلاثة : الإفراد ، والتمتع ، والقران لقول الرسول ﷺ فى حديث الشيخين :« من أراد منكم أن يهل بحج وعمرة فليفعل ، ومن أراد منكم أن يهل بحج فليهل ، ومن أراد أن يهل بعمرة فليفعل » .

٢ ـ جواز فسخ الحج لمن أراد أن يفسخ حجه إلى عمرة بشرط : أن لا يكون قد ساق هدياً معه وذلك ؛ لترخيص الرسول ﷺ لأصحابه فى ذلك لما طافوا وسعوا بين الصفا والمروة ، وإعلانه أن هذه الرخصة عامة وليست خاصة ، ولأبد أبد كما تقدم فى حديث الصحيحين .

٣ ـ من أفرد بالحج ولم يفسخ حجه إلى عمرة ، ثم ذبح هدياً كان له حجة وعمرة لقول الرسول ﷺ : « دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة » . على تفسير طاوس ، ومجاهد له بذلك .

٤ ـ لأنْ يتمتّع الحاجّ بعمرة ، أو يفسخ حجه إلى عمرة ويهدى خير له من أن يفرد بالحج ، ثم يعتمر بعد انقضاء الحج من التنعيم أو الجعرانة كما يفعل بعض من لا علم لهم . وذلك لقول ابن عمر رضى اللّه عنهما فى الموطأ : واللّه لأن أعتمر قبل الحج وأهدى أحب إلى من أن أعتمر بعد الحج فى ذى الحجة .

٥ ـ تفضيل أحد النسك على غيره يحتاج إلى قدر زائد يفضل به ، فالإفراد أفضل

من التمتع والقِران لمن اعتمر فى وسط السنة وعاد إلى أهله ثم حج من عامه ذاك . والقِران أفضل لمن ساق الهدى ، والتمتع أفضل لمن لم يعتمر فى وسط السنة ولم يسق الهدى معه .

هذا التفصيل الذى أوردناه ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن عليه إجماع الأمة ، وبمراجعة هذا البحث الذى نختمه بهذه الخلاصة يتضح صحة ما قاله شيخ الإسلام : من إجماع الأمة على هذا التفصيل فى التفضيل . واللّه الموفق للحق والهادى إلى سواء السبيل . وصلى اللّه على النبى محمد وآله وصحبه أجمعين .



التدخين

مادة وحكماً

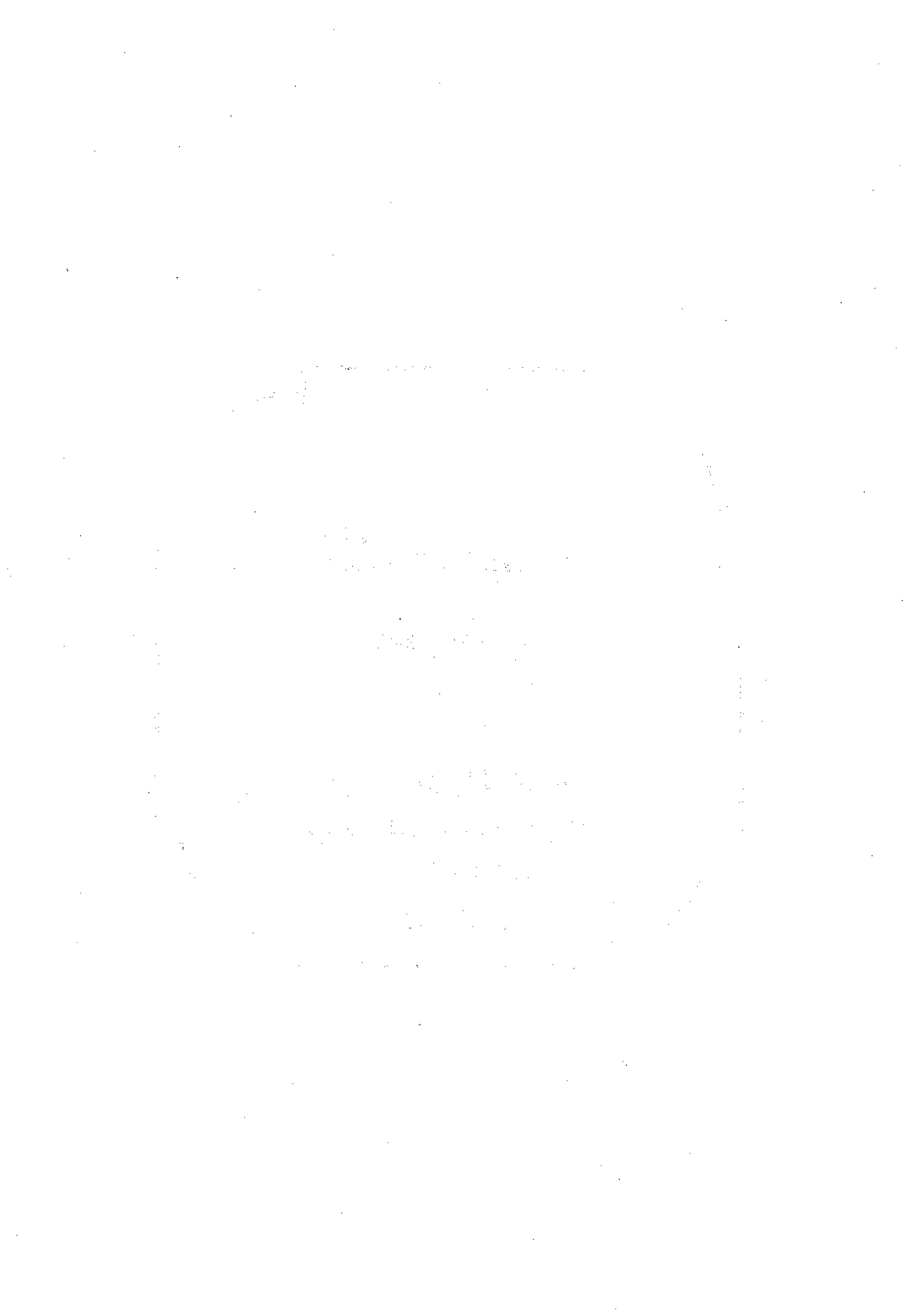
حررها

أبو بكر جابر الجزائرى

الواعظ بالمسجد النبوى الشريف

والمدرس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة



الإهــداء

الحمد لله وبعد :

فإلى أولئك الباحثين عن الحق ، الراغبين فيه ، والطالبين له ، والذين يسوءهم أن يعتقدوا غيره ، ويقولوا أو يعملوا سواه .

إليهم جميعاً أتقدم بهذه الكلمة حول التدخين « مادة وحكما » .

راجياً لهم أن يجدوا فيها ما يشفى صدورهم وينير طريقهم وهم راكضون إلى الحق سائرون على ساحة الطمأنينة والرضى .

انلنى اللهم وإياهم ذلك إنك كريم قدير .

القائل أخوكم : **أبو بكر الجزائرى**

التدخين
مادة وحكماً

مقدمة :

بسم الله رب العالمين الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وآله وصحابته أجمعين ، وبعد :

إن عقلاء الناس مجمعون على وجوب طلب ما ينفع ، وترك ما يضر ، ورحى الحياة دائرة منذ أن كانت على هذا المبدأ المسلم من كافة العقلاء وهو طلب ما ينفع وترك ما يضر ، بيد أن إدراك الناس لما ينفع أو يضر يختلف اختلافاً كبيراً بين إنسان وآخر ، وهذا عائد إلى تفاوت المدارك البشرية فى القوة والضعف والسلامة والنقص ، فكم من نافع نافع رأى قوم أنه ضار فتركوه لما توهموا من ضرره ، وكم من ضار ضار أقبل عليه الناس اعتقدوا نفعه فأتوه وفعلوه ، يضاف إلى ذلك أن أشياء كثيرة قد يخفى أمرها ويلتبس حالها ، ولا يدرى هل هى من النافع الذى يجب أن يطلب أو من الضار الذى يجب أن يجتنب ويترك ، ويشهد لهذه الحقيقة الحكمة المحمدية القائلة « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس »[1] إن الحلال هو النافع ، والحرام هو الضار ، ومنهما ما هو معلوم النفع بالضرورة ، ذلك كنفع العسل ، أو معلوم الضرر بالضرورة كضرر السم ، وكنفع الإحسان ، وضرر الإساءة ، ولكن دون ذلك أمور كثيرة لا يعرف نفعها أو ضررها إلا ذوو الخبرة . والإدراك الصحيح من عقلاء البشر وحكمائهم ، ومن ذلك مادة التبغ أو الدخان كما يقول العوام ، فقد خفى أمرها والتبست على كثير من الناس حالها فقال أناس : بضررها وتركوها ودعوا إلى تركها واجتنابها ، وقال آخرون : بخلاف ذلك ونفوا عنها الضرر وقالوا : بإباحتها لسلامتها من الضرر واستعملوها (كيفاً) وأباحوها واتجروا فيها بيعاً وشراء وتهادوها هدايا فاخرة إلى الأقارب والأحباب .

والحق : أن هذه المادة السامة الفاسدة قد شغلت أذهان كثير من الناس فى الشرق والغرب ، وأصبح من الضرورى المساهمة بكلمة عادلة منصفة بعيدة عن مؤثرات الهوى والمنفعة تبين للناس الحيارى الباحثين عن الحق حكم هذه المادة المكيفة ليكونوا على بينة من

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه عن نعمان بن بشير .

أمرهم إن هم شربوها أو تركوها .

ومن هنا رأيت أن أقول كلمة فى هذه القضية العالمية التى استعصى حلها على الناس ، سائلاً اللّه تعالى التوفيق فيها لما هو الحق الذى يرضيه ، وأن ينفع بها من يقرأها أو يسمعها من عباده ، إنه قدير وبالإجابة جدير .

مـادة التدخـــين

يسمح لى الإخوة القراء والسامعون إن أنا تكلمت فى بعض الأسطر بلغة النحاة لأبين حقيقة مادة كلمة التدخين أولاً ، ثم أعود وإياهم إلى لـغة المعرفة السهلة والبيان الواضح القريب .

إن التدخين أيها الإخوة فى لغة العرب : مصدر فعله دخن مضعفاً يدخن تدخيناً ، إذ صيغة التفعيل دائماً مصدر لفعل مضعف العين ، كالتكليم من كلم والتسليم من سلم والتعليم من علم .

فالتدخين إذا مصدر ، وهو فعل المرء المدخن إذا هو أشعل السيجارة أو الغليون وامتصها بشدقتيه ، ليخرج بذلك دخاناً أبيض كثيفاً من فمه ومنخريه .

ومن هنا أصبح لفظ الدخان الخارج من فم المدخن ومنخريه يطلق فى أكثر بلاد العرب والعجم على مادة التدخين نفسها ، بغلبة كثرة الاستعمال وله مع هذا أسماء أخرى منها : التتن يطلقه عليه غالباً أهل البلاد الذين يكرهون عنه ، ولم أعرف وجه اشتقاق هذا اللفظ له ولعله مشتق من النتن ، يكرهون التدخين وينهون عنه ، فلخبثه وكراهية المؤمنين له أطلق عليه لفظ التتن محرفا عن كلمة النتن ، ومنها : التبغ وهو الاسم الذى يعرف به الدخان فى أغلب بلاد العالم ، وهو أصدق اسم أطلق عليه ، لأنه مأخوذ من كلمة تباغو التى هى اسم لجزيرة فى خليج المكسيك قد وجدت فيها هذه النبتة الخبيثة ، ومنها نقلت إلى أسبانيا ، ثم إلى أوربا ، وبعد ذلك انتشرت فى كامل القارة الأوربية ، ومن ثم دخلت بلاد العرب بواسطة الغزو الأوربى يحملها المستعمرون النصارى فانتشرت فى بلاد المسلمين عرباً وعجماً ، وقد يقال لما لم يقاوم العلماء المسلمون عادة التدخين بين المسلمين قبل انتشارها واستفحال أمرها ؟ والجواب أنهم قد قاوموها كأشد ما تكون المقاومة بيد أن سنة تأثر المغلوب بالغالب لم تنجح معها مقاومة العلماء للتدخين ، فعم وطم وتورط فيه كثير ممن ينتسبون إلى العلم فكانوا مثالاً سيئاً للمسلمين والعياذ بالله تعالى .

ومن هنا قد يعد التدخين فى بلاد المسلمين مظهراً من مظاهر آثار الاستعمار الغربى ومخلفاته السيئة ، وعاداته القبيحة التى ورثها فى البلاد التى نكبت باستعماره واحتلاله ومن تلك المخلفات الفاسدة : تربية الكلاب فى الدور ، والإسلام يحرم ذلك وينهى عنه ،

وسفور المرأة المسلمة وحلق لحى الرجال ، ولبس البنطلون الضيق ليس فوقه شيء ، وحسر الرأس ، ومجاملة أهل الفسق والنفاق ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدعوى حرية الرأى ، والسلوك الشخصى ما لم يمس بحقوق الغير إلى غير ذلك من سيىء العادات وقبيحها .

وقد يقال : إن هناك عادات سيئة مخالفة لحياة المسلمين لم يخلفها الاستعمار ، وإنما وجدت بين المسلمين بعد خروج الاستعمار من بلادهم ورحيله من ديارهم ، فبما تفسر هذه الظاهرة الغريبة ؟

والجواب : إن التأثير النفسى الذى كان للمستعمرين الغربيين على نفوس المسلمين مازال كما كان أو أشد به ، لأن ولوع المغلوب بتقليد الغالب وهى سنة بشرية ما زال مسيطرا على نفسية الفرد المغلوب بالأمس ، وإن تخلص من سيطرة غالبه باستقلاله السياسى عنه ، إن صح أنه فعلاً قد استقل عن سالبة حريته واستقلاله أمس ، وتأكيداً لهذه الحقيقة أقول : إننى الآن والقلم بيدى أبيض هذه الكلمة تناولت جريدة يومية (الشرق الأوسط) فطالعنى فى صفحتها الأولى العنوان التالى (عيد الآباء) وتحت العنوان صورة لأسرة أوربية تحت الصورة الكلمات الآتية : هذا العيد لم نحتفل به بعد فى العالم العربى ، إنه عيد الآباء الذى احتفلت به أوربا والولايات المتحدة ، والعرب ينتظرون الآن أن ينقل هذا العيد إلى ديارهم لينسوا فى هذا اليوم متاعبهم وهمومهم ويحسوا بلمسة تقدير من أبنائهم لما يفعلونه من أجلهم .

إنه لمن البديهى أن يفهم أن الواضع لهذا العنوان وما رسم تحته ، وما كتب عليه ، قد نصب نفسه وكيلاً لتوريد محاسن الغرب ومساوئه لبلاد العرب المسلمين ، وهو يدعو فى حرارة إلى استيراد العرب لهذا العيد الجديد ، ولا لشيء سوى أنه جديد فى الغرب يجب أن ينقل إلى بلاد العرب كغيره من عشرات البدع والضلالات .

إن الهزيمة النفسية التى أصابت المسلم جعلته لا يفكر فيما يريد أخذه من الغرب أو عن الغرب ، إذ الغالب السابق طبع فى نفسه أن كل ما يحدثه الغرب ، أو يأتى به أو يفعله أو يقوله هو غير قابل للنقض فضلاً عن الرفض وعدم القبول ، ومن هنا قام صاحب العنوان المذكور يجر بكلتا يديه جيفة العيد الأوربى ليقدمها للعرب المسلمين ، ظاناً أنه قدم خيراً كثيراً للعالم العربى ، وغاب عن ذهنه تماما أن العرب المسلمين هم أصحاب رسالة الإسلام الكاملة الخالدة والتى لا ترضى بالتلفيق ولا بزيادة فيها ولا نقصان منها ، وهذا نص قانونها

يقول :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١) .

إن العيد فى الإسلام ليس مجرد أكل وشرب ولهو ولعب كأعياد الكافرين وإنما هو زيادة على ذلك ذو شعائر تعبدية هى المقصودة منه بالذات ، العمل بها يزكى النفس ويطهرها فيعدها للكمال والخلود ، وهذه الشعائر لا ترقى عقول البشر لوضعها بحال من الأحوال ، فمن هنا كانت دعوة صاحب العنوان للعيد الأوربى دالة على غفلة كبيرة أو جهل عظيم ، وهو فى الواقع معذور .، لأن جل المسلمين اليوم بحكم الانهزام للغرب الذى ورث الولوع بتقليده ، أصبحوا لا يفقهون إلا بقلوب الغربيين ، ولا يبصرون إلا بأعينهم ولا يسمعون إلا بآذانهم . وصدق اللّه العظيم إذ يقول لهم : **﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾** (٢) .

فلننظر كيف علل القرآن بما أصابهم من فقدهم الانتفاع بحواسهم علله بالغفلة التى ضربت أطنابها على قلوبهم ، فقال أولئك هم الغافلون ، فحسر الغفلة فيهم إشارة إلى عليتها أصابهم ، ونزيد هذه الحقيقة وضوحاً وهى تأثر المغلوب بالغالب والولوع بتقليده من غير فكر ولا رؤية وفى كل شىء حسنا كان أو قبيحاً فنذكر هنا أن رباط الرقبة وهو ما يسمونه (قرفاط) لم يكن فى أول أمره رباطا للزينة والتجميل كما هى الحال اليوم إنما الأصل فيه أن جيشاً من أوربا الشرقية غزا إحدى الممالك فى أوربا الغربية وانتصر عليها ، وكان ذلك الجيش يعلق أفراده قلادة فى أعناقهم هى فى الواقع تميمة يراد بها دفع المكروه وجلب المحبوب فرآها أفراد الأمة المهزومة فى أعناق أفراد الجيش الغالب ، فقلدوه فيها على سنة المغلوب مولع بتقليد الغالب ، ويمضى الزمان واستعملت تلك القلادات فى أعناق الرجال فطورت حتى أصبحت رباطا يعنى به المتحضرون ويتنافسون فيه للأناقة والتجميل .

وزيادة فى تقرير حقيقة أن المسلمين فى الجملة مادخنوا إلا تأثرا بالغرب الذى استعمر بلادهم وحكم شعوبهم زمناً غير قصير وذلك بالدليل أنهم يعرفون أن التدخين ليس بفضيلة ، ولا هو من مكارم الأخلاق ، أو من شيم الرجال بل ترى أكثرهم يمقته بل

---

(١) المائدة : ٣ .　　(٢) الأعراف : ١٧٩ .

ويلعنه ، وعلى سبيل المثال نورد القصة التالية :

كنت أعرف رجلاً أحسبه من الصالحين ولا أزكى على اللّه أحداً وكان مبتلى بالتدخين ، فكان إذا أراد الخلاء حمل علبة السجائر حتى إذ جلس على كرسى بيت الخلاء (المرحاض) أشعل سجارته ودخن أثناء تبوله وبذلك يقضى حاجتيه معاً ، ويخرج فيتوضأ ويقول : إن الدخان خبث فليؤت فى محل خبيث ، وصدق هذا الرجل الصالح فإن نتن التدخين لا يناسبه إلا العذرة ، ومن هنا تعين على العقلاء إذا ما ابتلوا بهذه العادة أن يختاروا لها ما يناسبها من المحل اللائق بها كالكنف والمراحيض ، ومن غريب شعور هذا الرجل وقد توفاه اللّه أنى سمعته يوماً يقول : لعن اللّه اليهود والنصارى ، إنهم من حقدهم على الإسلام والمسلمين وكيدهم لهم بمكرهم بهم إنهم أطلقوا لفظ السيادة على الدخان الخبيث فهم يقولون : (سيقريط) وهو يريد بذلك أن كلمة سيد وهى عند أهل المغرب الإسلامى ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، بمعنى السيد اختصارا فبدل أن يقول أحدهم : السيد أحمد ، أومحمد يقول : سى أحمد ، وسى محمد ، ومن ذلك (سيقريط) فهو يرى أن كلمة سيقريط ، مركبة من كلمة سى بمعنى السيد وقريط . وهذا من غريب شعور هذا المؤمن إزاء الدخان ومورثيه فى أمة الإسلام ، فالغرب فيما أظن أنهم لم يريدوا ما فهمه هذا المؤمن من إطلاق لفظ السيادة على أخبث شىء وأنتنه وهو التبغ وعربه بعض العرب إلى سيجارة وجمعها سجائر .

ومن حال هذا العبد الصالح يعرف أن العادة إذا تأصلت فى النفس وتمكنت منها يصعب تركها ، وأن شعور المرء بفسادها وعدم إياقتها غير كاف فى أن يتركها من ابتلى بها ، ولذا ما رأينا أحداً ترك عادة التدخين لأنها فاسدة وغير لائقة ، وإنما تركها من تركها إما بمنع الطبيب له منها ، وإما بإيمانه بأن اللّه حرمها وما حرمه اللّه وجب تركه والابتعاد عنه ، ومهما كانت حال المؤمن إلا ما استثنى اللّه تعالى من الضرورات التى قد تبيح المحظورات ، هذا وقبل أن ننتقل من بيان مادة التدخين إلى حكمه فى الإسلام نعود فنذكر ما سبق أن عرفنا به مادة التدخين حيث قلنا : ومنها أى من أسماء الدخان « التبغ » وهو الاسم الذى يعرف به الدخان فى أغلب بلاد العالم وهو أصدق اسم أطلق عليه ، لأنه مأخوذ من كلمة (تباغو) التى هى اسم لجزيرة فى خليج المكسيك ، وقد وجدت فيه هذه النبتة الخبيثة ومنها نقلت إلى أسبانيا ، ثم انتشرت بسرعة إلى أوربا ، ومن ثم دخلت بلاد العرب بواسطة الغزو الأوربى يحملها المستعمرون النصارى فانتشرت فى بلاد المسلمين

عرباً وعجماً .

ومع كفاية هذا التعريف فإني أورد هنا بعض ما كتبه في تعريفه محمد فريد وجدى صاحب دائرة معارف القرن العشرين ، حيث قال في المجلد الثاني من صفحة خمسمائة وست وعشرين : (التبغ) وهو ما يسميه الناس الآن بالدخان ، وهي شجرة أمريكية الأصل ولكنها تزرع الآن في سائر بلاد أوربا فتبلغ من متر إلى متر ونصف ، وهي تنبت في جميع البلاد المعتدلة ولكنها تنبت في البلاد الحارة ، وتصل في الطول إلى نحو خمسة أمتار ، وأوراقها المخففة تستخدم تدخيناً ومضغاً وسعوطاً هذه العادة من آخر العادات التي مني بها هذا الإنسان الضعيف : فقد زعم باحث في مجلة من المجلات الفرنسية عن خسائر تعاطي هذه المادة يوازي خسائر الخمر على النوع البشري .

هذه العادة لم تكن موجودة في العالم قبل اكتشاف أمريكا في القرن الخامس عشر ، وسبب سريانها في أوربا هم النوتية الأسبانيون ، فإنهم رأوا متوحشي أمريكا يدخنون فقلدوهم وجاءوا بهذه العادة إلى أوربا فانتشرت فيها وقد بحث العلماء كثيراً في سبب شيوع هذه الآفة بين النوع الإنساني على ما فيها من ضرر فزعمه أن السبب في ذلك هو الخدر الذي يحدثه على المخ فيهدئه إذا كان مضطرباً ، فينساق صاحبنا إلى تعاطيه وهو غافل عما يحيق به من المعاطب الصحية التي لا تنفح بعج ،،

هذا ولصاحب دائرة المعارف كلاماً طويلاً يتعلق بمضار التدخين وبيان الكميات المستهلكة منه في العالم ، ونصائح للمدخنين بترك التدخين فوراً أو تدريجياً لما له من الآثار السيئة على حياتهم فمن أراد ذلك فليرجع إليه في المجلد الثاني المشار إليه آنفا .

وأخيراً فذلكم هو التبغ أو الدخان من حيث التعريف بمادته وصناعته وتاريخه أما من حيث حكمه في الشرع الإسلامي وما ، ينبغي للمسلم أن يقف عليه من ذلك ففي الأسطر التالية :

إن الدخان (التبغ) لم يكن معروفاً في زمن التشريع الإسلامي ولا موجوداً يتعاطاه الناس بينهم حتى يعرض له الشارع فيذكره ويذكر حكمه إنه لم يزل آن ذاك في طي الغيب ، وليس معقولاً أن يسمي الشيء قبل ولادته ووجوده ، فكيف إذا يخص التدخين بحكم شرعي وهو لم يزل غيباً ، وإنما عندما يستهل ويظهر للوجود يسمى باسم يخصه ويحكم عليه بالحل أو الحرمة بحسب إثارة من النفع أو الضرر ، ولذا ما كان من حق أحد منا أن يقول : لو كان الدخان حراماً لما لم يذكر تحريمه في الكتاب أو السنة ؟ ومع هذا فإن

فى القرآن والسنة كليات يدخل تحتها كل جزئى من جنسها ، وقواعد يوضع عليها كل مشابه لها فى الحكم أو المشارك لها فى الوصف ، ويثبت هذه الحقيقة ويقررها مثل قوله تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ **وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ (٢) .

ومن تلك الكليات العامة فى الكتاب العزيز تحريم اللّه تعالى للإثم وأمره بتركه فى قوله تعالى : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون** ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ **قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا باللّه ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على اللّه مالا تعلمون** ﴾ (٤) .

فقوله تعالى : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ (٥) أمر صريح للمسلمين بترك الإثم ، سواء ما كان منه ظاهراً أو باطناً سرياً أو علنياً ، كما أن تحريمه بنص صريح فى الآية الثانية ، إذ قد اشتملت الآية على تحريم أصول المفاسد والمضار الستة ومن بينها الإثم .

وهو لفظ يطلق على كل ضار فاسد قبيح كالذنب ، والخمر ، والقمار ، وكل مالا يحل اعتقاده أو قوله أو عمله ، وبالتتبع الاستقرائى يوجد أن سائر المحرمات فى الشرع تدور عللها على ما فيها من ضرر أو قبح أو فساد وهذه تنافى النفع والحسن والصلاح ، وإذا خلت الأشياء من النفع والحسن والصلاح كانت ذنوباً وآثاماً يجب تركها ، ويحرم فعلها ومن هنا كان حكمنا على التدخين بالإباحة أو الحظر متوقفاً على معرفة ما فيه من النفع والحسن والصلاح ، أو الضرر والقبح والفساد فإن كان الدخان نافعاً حسناً صالحاً كان مباحاً ، وإن كان ضاراً فاسداً قبيحاً كان محظوراً .

وهنا يجب التنبيه إلى أن الناس قد يختلفون فى تقدير كل من موجبات الإباحة والحظر ومعرفتها والحكم بوجودها أو نفيها فى الأشياء وذلك لاختلاف الفهوم بينهم ، ومن هنا كان المرجع الوحيد فى ذلك هو شرع اللّه تعالى الذى لا يتطرق إليه الخطأ ولا الإغفال بحال من الأحوال فهو الحكم العدل فى كل الأمور ، فما أباحه فهو المباح وذلك لخلوه من موجبات الحظر ، وما حظره فهو المحظور لمقتضى الحظر فيه وليس معنى هذا إننا لا نرى الاستحسان العقلى ولا نقول به ، وإنما لا نقول باستقلاله عن الشرع لا سيما عند

---

(١) النحل : ٨٩ . (٢) الحشر : ٧ . (٣) الأنعام : ١٢٠ .
(٤) الأعراف : ٣٣ . (٥) الأنعام : ١٢٠ .

التعارض ، ولا يخفى على العقل علة ذلك وهى أن العقول تختلف قوة وضعفاً وسلامة وعطبا ، وقد يعرض لذى العقل عارض هوى أو شهوة فيغلب على عقله فيفسد عليه الحكم على الشىء بأنه نافع غير ضار أو صالح غير فاسد أو حسن غير قبيح أو العكس ، إذ آفة الهوى أو الشهوة من أخطر الآفات على العقل البشرى .

وبعد هذه المقدمة العقلية الشرعية نعود إلى ما نحن بصدد الحكم عليه وهو الدخان ، فلنستعرض أحواله وأحوال متعاطيه علنا نستشف من ذلك ما يساعدنا على الحكم عليه بالإباحة أو المنع ، بناء على كونه إثماً أو غير إثم ، والإثم كما قدمنا ما كان قبيحاً ضاراً فلننظر إلى رجل أمامنا وهو جالس أو قائم أو ماش وقد أخرج من جيبه علبة صغيرة فاستخرج منها ملفوفاً أبيض وفوراً أوقد ناراً ووضعها على رأس ذلك الملفوف الأبيض فأحرقه ، ولما أخذت النار تسرى فى أجزائه والدخان يتصاعد أدخل طرفه فى فيه وأخذ يمتصه بشدقتيه بقوة مما يساعد على احتراقه فجعل الدخان الأبيض الكثيف يخرج من فم الرجل ومن منخريه ، وهو يواصل الامتصاص بشدة ، والدخان الأبيض يتصاعد وهو يقذفه عن يمينه مرة وعن شماله أخرى ، وثالثة أمامه . فهل فعل هذا الرجل ومنظره حسن غير قبيح ؟ أنا لا أشك أن كل عاقل راجح العقل سيقول : إنه منظر قبيح ، وقبيح جداً لا سيما إذا عرف أن فعله هذا لم يكن لغاية صحيحة ، كمنفعة راجحة أو دفع مضرة حاصلة وإنما فعله إرضاء لشهوته ، واتباعا لهواه ، أو تقليداً لغيره ممن هم ليسوا بقدوة صالحة لعباد اللّه ، ومن هنا يصدر الشرع حكمه على التدخين بأنه قبيح فاسد ، ويلحقه سائر الذنوب والآثام التى يحرم ارتكابها ويجب اجتنابها .

وإذا ثبت قبح التدخين وفساده فإن الضرر قطعاً سوف لا يفارقه ، إذ كل فاسد قبيح ضار لا محالة ، وكيما نصل إلى الحقيقة بالبحث ، والحقيقة بنت البحث كما يقولون . فإن البحث يتطلب منا تحقيق شيئين الأول معنى الضرر ، والثانى المحل الذى يصاب بالضرر ، أما الضرر فإن لفظه يدل على عدة معانى كلها تدور على كون الشىء خالياً من المنفعة أو مسبباً شدة وضعفاً أو سوء حال أو نقصا فى شىء آخر ، وأما المحل الذى يصاب بالضرر فهو بالنسبة إلى المسلم بدنه ، ودينه ، وعقله ، وعرضه ، وماله .

وهذه هى الخمس الكليات التى أطبقت الشرائع الإلهية على صيانتها للإنسان وحفظها عليه ، إذ هى قوام حياته وعليها مدار سعادته فى الدنيا والآخرة .

ومن هنا وضعت الشريعة الإسلامية العقوبات الزاجرة لكل من يفسد على المسلم هذه الكليات أو يضره فيها بأدنى ضرر فوضعت عقوبة القتل لمن جنى على إنسان بقتله، أو فساد عقله أو دينه ووضعت عقوبة القطع لمن يسرق مال غيره، وعقوبة الرجم حتى الموت لمن ينتهك أعراض الناس فيزنى بنسائهم، وعقوبة الجلد لمن يقذف المحصنين فيخل بشرفهم ويمس أعراضهم وهم أعفاء طاهرون.

واعتبرت ـ أى الشريعة ـ أن كل ما أدخل ضرراً أو نقصاً على تلك الكليات منفردة أو مجتمعة فهو جناية محرمة يستوجب فاعلها العقوبة عليها.

وأن كل ضار بها أو بواحدة منها هو ممنوع الاستعمال فاسد الاعتبار، قبيح الصورة لا يصح فعله ولا يجوز إقراره ولا السكوت عليه، هذا وبعد تحقيقنا لمعنى الضرر، والمحل الذى يصيبه نتسائل فنقول: هل فى التدخين من ضرر ؟ وهل الكليات الخمس تتعرض لضرر التدخين عند المدخنين ؟ والجواب أما كون التدخين مضراً فهذا مما لا شك فيه أبداً، وبإثبات الضرر بالتدخين تثبت إصابة الكليات الخمسة به.

وهذا بيان ذلك

الكلية الأولى: الجسم البشرى:

إن الأجسام البشرية محترمة ومحرمة معا فلا يحل إصابتها بأى أذى إلا ما كان من جسم المحارب فإنه لا حرمة له فى سائر الشرائع، ومن جنى على غيره جناية أو ألحق به أذى فيها فإنه يضرب على يديه ويؤخذ منه ما يهدر به حقه فى حرمة جسمه واحترامه.

والتدخين مضر بالجسم فاتك به معرض له للتلف والهلاك ولما كان معرفة كون التدخين مضراً بالأجسام البشرية من خصائص الأطباء واختصاصاتهم فإننا نترك الكلمة هنا لأحد الأطباء المسلمين هو الدكتور محمد على البار عضو الكلية الملكية للأطباء فى لندن يقول كلمته فى ضرر التدخين ويؤدى شهادته على ذلك، قال حفظه الله تعالى: إن للتبغ مواد سامة كثيرة أخطرها ما يلى:

١ ـ النكتين: وهو أخطر السموم التى عرفها الإنسان لحد اليوم، إذ يكفى فى قتل إنسان فى أوج شبابه أن يعطى مقدار (مليجرام) وهو جزء من مليون من الكيلو جرام ـ فى وريده، مع العلم أن السيجارة الواحدة لا تخلو أبداً من مليجرام إلى ثلاثة منه بحسب كبرها وصغرها وتركيبها.

٢ ـ غاز أول أكسيد الكربون ، وهو غاز سام يستنشقه المدخن فيسبب له نقصاً كبيراً فى كمية الأكسجين الموجودة فى دمه ، مما ينتج عنه أن تدخين عشرين سيجارة فى اليوم يفقد المرء خمس دمه ، ومعنى هذا أنه أفقد خمس طاقة جسمه ، وأى ضرر أكبر من هذا الضرر ؟

٣ ـ القار ، أى الزفت أو القطران ويوجد فى كل سيجارة ما بين ١٥ ـ ٣٠ مليجراماً من هذه المادة السامة ، والتى يتسبب عنها عند المدخنين التهابات الشعب الهوائية الحادة المزمنة ، هذا ويقول الدكتور البار فى أثناء بحثه العلمى فى مادة التدخين : معلومات تهمك ويوجزها فى النقاط التالية :

* ـ إن كل سيجارة تدخن تنقص من عمر المرء خمس دقائق ونصف ، وهو نفس الوقت الذى يقضيه المرء فى تدخين السيجارة .

تقول الإحصائيات الرسمية التى نشرها تقرير الكلية الملكية للأطباء ببريطانيا عن التدخين : إن من بين كل ثلاثة مدخنين ، واحداً منهم على الأقل سيلقى حتفه قبل الأوان بسبب التدخين .

* ـ إن من يدخن عشرين سيجارة فأكثر معرض للإصابة بجلطة القلب بأضعاف أضعاف غير المدخنين .

* ـ وأخيراً إن أمراض السرطان ـ الربو ـ العقم ـ ضعف النسل ـ تصلب الشرايين ـ تشوية الجنين ـ جلطات القلب ، كل هذه الأمراض أثر من آثار التدخين ، ومع أضرار بالغة بالإنسان لا يصبح معها أى شك فى حرمة التدخين ، ووجوب تركه والإبعاد عنه ، وإلا فعلى الدين والعقل العفا والسلام .

الكلية الثانية : العقل :

إن العقل هو الخصيصة التى امتاز بها الآدمى عن غيره من سائر الحيوانات ، وعليه ـ أى العقل ـ مناط التكليف ، إذ بدونه لا يكلف المرء فعلاً ولا تركاً ، ومن هنا كان كل ما يعرض العقل البشرى للضعف أو التلف من سائر المؤثرات الداخلية أو الخارجية محرماً تحريماً شرعياً لا يحل استعماله ، ولا يجوز ارتكابه أبداً ، ولأجل هذا حرم السحر ووضعت له عقوبة زاجرة وهى القتل [1] الحديث حد الساحر ضربة بالسيف وأقل عقوباته

(١) نقلاً عن مجلة الخطوط الجوية السعودية أهلاً وسهلاً الصادرة هذا العام ١٤٠٠ .

السجن والعذاب حتى التوبة أو الموت ، هذا إذا لم يقتل متعاطى السحر بسحره ، أما إن قتل فلا خلاف فى قتله ، وحرمت الخمر والحشيشة وسائر المسكرات والمخدرات على اختلافها وتباين أجناسها ووضع لها حداً زاجراً وهو الجلد ثمانين جلدة فى ملاء من الناس تنكيلاً بالفاعل المجرم على نفسه ، ونكالا لغيره ممن قد تحدثه نفسه بارتكاب هذه الجريمة الضارة بالعقل وهو الجوهر الفرد الذى لا يعوض أبداً من فقده الإنسان .

وما شرع هذا الحد وهو جلد ثمانين جلدة للجانى إلا أن الإسكار والتخدير والتفتير كلها مضرة بالعقل موقفة لنشاطه ولو ساعة إصابة المرء مادة ذلك .

وحرم الكذب وشهادة الزور وقول الزور مطلقا لما فى ذلك من إضلال العقول البشرية وإيقاعها فى التصورات الخاطئة والمفاهيم الباطلة والتصديقات الكاذبة .

ووضعت لذلك العقوبات الزاجرة أقلها السجن والتأنيب والتأديب .

وحرم الشرك بأنواعه لما فيه من الإضرار الكبير بالعقل البشرى والهبوط بالفكر الآدمى إلى أسواء ما يمكن أن يصل إليه المرء من الإسفاف والهبوط ، هذا وإذا أمعنا النظر فى سائر المكيفات وعلى رأسها التبغ وجدناها بلا مراء تؤثر فى العقل الإنسانى وتضر به ، ولا أدل على ذلك من أن المدمن على التدخين إذا فقد الدخان يكاد يفقد رشده وكل قواه العقلية ، ولا يخفى ذلك على غيره أبداً بل يصرح قائلاً : إنى لا أكاد أفهم أن عينى مغمضتان ، إن ذهنى كال تماما ، إن عقلى قد أخطأنى ، وذلك لأنى لم أدخن ....

وبهذا كان أضرار التدخين بالعقل أمراً بديهيا من القبحة والعيب المكابرة فى ذلك والتشكيك فيه ، ولذا وجب تحريم الدخان والامتناع عنه ، والدعوة إلى تركه ، بل وجب إلحاقه بالمسكرات بجلد المدخن ثمانين جلدة أمام طائفة من المدخنين تنكيلاً به ، ونكالا لغيره .

الكلية الثالثة : المال :

إن حرمة المال فى سائر الشرائع كحرمة الدم والعرض لا تقل خطراً عنها أبداً ، إن الشريعة الإسلامية كثيراً ما تقرن نصوصها بين المال والدم والعرض ففى معرض البذل والجهاد قرن القرآن الكريم بينهما في مثل قوله : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** ﴾ [(١)] وقوله : ﴿ **وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم** ﴾ [(٢)] ، وفى

---

(١) التوبة : ١١١ .   (٢) الصف : ١١ .

معرض المنع والتحريم قرنت السنة النبوية الصحيحة بهما فى خبر « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام » . وفى معرض الموت والفداء قرنت السنة بينهما كذلك « من قتل دون ماله فهو ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

ولما لا يكون المال بهذه المثابة وهو قوام الحياة وعصبها ولا تقوم الحياة بدونه أبداً ، وهذه آيات الكتاب شاهدة بذلك فمن سورة النساء يقول تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا** ﴾ (١) فقوله : قياما وقيما ، وهما قراءتان سبعيتان معناه : أنه تعالى جعل الأموال قوام حياتنا أى حياتنا تقوم عليها كما يقوم البناء على أساسه ، إذ مقاييس الناس متوقفة على المال ، ولما كانت كذلك وكان المال فعلا قوام الحياة وعصبها الذى يشدها وتقوم عليه .

وليس أدل على ذلك من أن الله تعالى تولى قسمتها بنفسه فأعطى كل ذى حق حقه ، ولم يكن ذلك إلى غيره سبحانه وتعالى فأعطى البنت النصف وكذا الأخت ، وأعطى الأم الثلث والسدس ، وأعطى الزوجة الربع والثمن ، وجعل الذكر مثل حظ الأنثيين ، فهذه إشارة قوية إلى أهمية المال فى الإسلام ، وأكثر من ذلك تحريم الله تعالى لتبذيره والإسراف فى إنفاقه ، والأمر بالعدل فى ذلك إذ قال تعالى : ﴿ **ولا تبذر تبذيراً** ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ (٣) .

ولذا كان الإجماع على تحريم إفساد المال كإتلافه أو تحريفه ، أو إهماله أو تضييعه ، ومن هنا كان الثمن الذى يشترى به الدخان قل أو كثر إتلافا له ، وإحراقا وإفسادا وتضييعاً فلا يحل أبداً لأنه مال ينفق فى إدخال الضرر على جسم الإنسان ، وكل ما أدخل الضرر على جسم الإنسان فهو حرام كما تقدم بيان ذلك ، ولأنه مال ينفق فى غرض غير صحيح بل ينفق في هوى نفس وشهوة فاسدة وتقليد لأهل الكفر والفسق .

بهذه الاعتبارات عرفنا أن التدخين عمل فاسد ، وأنه مضر بالمال كما هو مضر بالجسم ، ولذلك فهو حرام حرمة الخمر ، والإسراف والتبذير ، وفساد المال .

---

(١) النساء : ٥ . (٢) الإسراء : ٢٦ . (٣) الفرقان : ٦٧ .

الكلية الرابعة : العرض :

إن العرض وهو نفس الإنسان أو ما يصونه منها ، وهو موضع المدح أو الذم منه تعريفات لأهل العلم وهى تدور حول ذلك المعنى الكريم الذى يشعر المرء العاقل أنه هو حياته المعنوية التى يرضى بموت جسمه وفنائه ولا يرضى أن تمس تلك الحياة بأدنى مساس ، ولذا نراه عندما يمس عرضه يثور كالأسد يحمله ويدافع عنه ، إن العرض جوهر غال نفيس عند كل عقلاء الناس مؤمنهم وكافرهم يخاطر أحدهم بنفسه وماله دفاعا عن عرضه وحماية له ، حتى لا يمس أو يخدش بأى عيب قد يلحق به واعترفت بقدسية الأعراض كل الشرائع والقوانين ، وناهيكم بشريعة الإسلام التى قد جعلت جلد ظهر الآدمى المحرم ثمانين جلدة حدا مانعا من التعرض لأعراض الناس والمساس بها فمن قال فى أخيه قالة سوء فقذفه بفاحشة الزنى واللواط وجب عليه أن يقيم البينة على دعواه ، أو يكشف على ظهره ليجلد ثمانين جلدة على ملأ من الناس قال تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ (1) .

كما حرمت الشريعة الإسلامية كل ما يضر بعرض الإنسان ويخدش فيه إذ حرمت الكذب والافتراء والبهتان والغمز واللمز ، والتنابز بالألقاب ، والسب والشتم ، وما إلى ذلك من كل ما يؤذى الإنسان فى عرضه ويمس به كسائر الفواحش والقبائح .

والسؤال الآن هو هل التدخين يضر بالعرض فيحرم لذلك ؟

والجواب الصحيح هو أن التدخين ضار بالعرض ، ماس به مؤثر فيه بالغض والحط ، بل معرض له للإهانة والابتذال ، ويستدل لذلك بأمور منها : أن المرء قبل أن يشتهر بين الناس بالتدخين لا يجرؤ حياء أن يدخن أمام أقاربه كأبويه وإخوته وأعمامه وأخواله ، ولا أمام أهل الفضل والصلاح كالعلماء والصالحين من الناس ، وهذه ظاهرة معروفة لا تنكر وتفسيرها هو شعور المرء بقبح التدخين لأن مناره مجرد الشهوة والهوى ، لأنه من عمل غير الصالحين ، وهذه شهادة الفطرة السليمة على أن التدخين ماس بالعرض مضر له وكفى بها شهادة ! ! !

ومنها : أنه قبل التدهور الأخلاقى للمسلمين ما كانت المرأة العفيفة تدخن بحال من

---

(1) النور : ٤ ، ٥ .

الأحوال ، ولقد عشت فى المغرب الإسلامى قرابة ثلاثين سنة ما رأيت امرأة واحدة تتعاطى التدخين اللهم إلاما كنا نسمعه من أن بنات الخطيئة فى دور البغاء يدخن ، وهذا دليل قاطع على أن التدخين ضار بالعرض ، فإنه لما كانت المرأة أشد حياء من الرجل ، وأكثر حفاظا على عرضها تأخر ظهور هذه المفسدة بين النساء ، وما ذلك إلا لقبحها وكونها مظهرا من مظاهر السفة واتباع الشهوة والهوى ، وتقليد من لا خير فيهم .

ومنها : لو أن إمام يخطب الناس على منبره يوم الجمعة فجلس بين الخطبتين لتلك الاستراحة القليلة فأخرج سيجارة وأشعلها يدخن بها أثناء خطبته لخرج الناس كلهم من المسجد وهم يلعنونه وما صلى معه أحد ، وما ذاك إلا أن تعاطى الدخان يتنافى وكمال الإيمان والرجال وأنه مظهر من مظاهر الهبوط النفسى ، وهو دليل على أضرار التدخين بالعرض والكرامة والمروءة فإذا لا غرابة فى إلحاقه بالمحرمات الضارة بإحدى الكليات الخمس التى يحرم كل ما ألحق بها ضرراً أو فساداً .

الكلية الخماسة والأخيرة : الدين :

إن هذه الكلية ليست بأقل شأناً من سابقاتها فأخرناها لذلك ، لا أبدا ، بل هى أم تلك الكليات وأساسها ، إذ هى علة الوجود البشرى بل علة كل الحياة ، ولذا فقد يتسامح المرء المسلم فى دمه أو ماله أو بعض عرضه ، ويحتسب ذلك أجرا عند ربه ، ولكنه لا يتسامح أبدا فى دينه بل يفديه بنفسه وماله وبكل ما يملك فى حياته ، وذلك لأنه سبيل كماله ومفتاح دار سعادته .

إن الدين وهو بهذه الدرجة من القدسية والجلال يضر به التدخين ضررا فاحشا كبيرا وقد يفسده على صاحبه ويحرمه جناه الطيب من الجنة ورضوان الله تعالى .

وهذا بيان ذلك :

إن الصلاة وهى عمود الدين وسعادة العبد ونجاته تدوران عليها صحة وفسادا ، وقبولا ورفضا إذ أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صحت وقبلت صح كل عمل له صالح وقبل ، وإن فسدت ورفضت رفض كل عمل صالح له ، فلا يثاب عليه ولا يجزى وهذه حقيقة صرحت بها كل الأحاديث الصحيحة ولشهرتها لسنا فى حاجة إلى إيرادها .

هذه الصلاة وهى بهذه المثابة فى التأثير على سعادة العبد وشقائه يضر بها التدخين ضررا بالغا إلى حد أنه يبطلها ، وذلك لأنه الصلاة تتوقف على شرط الطهارة من الحدث أعنى تتوقف على الوضوء لقول رسول الله ﷺ فى الصحيح : « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » وقوله : « لا يقبل الله صلاة بغير وضوء » ، وبما أن التدخين عبارة عن ابتلاع الدخان والنار فى جوف المدخن ، وقد كان المسلمون فى أول الإسلام يتوضؤون مما مست النار ونسخ الله تعالى الوجوب وبقى الندب والاستحباب.

والثانية ما تصاب به أنسجة الجسم وخلاياه من الفتور والاسترخاء أثناء التدخين وهذه علة موجبة للوضوء بلا خلاف بين المسلمين ويشهد لذلك مشروعية الوضوء من أكل لحم البعير فقد قيل لرسول الله ﷺ « أنتوضأ من لحم الغنم يا رسول الله ؟ قال : « لا » ، فقالوا : أنتوضأ من لحم الإبل ؟ قال : « نعم » وذلك لما فى لحوم الإبل من الذهومة القوية والدسم الكثير بحيث يحصل لأكله فتور فى أنسجة جسمه وخلاياه يتعين معه الوضوء متى أراد الصلاة وهى مناجاة الله تعالى ، وعروج روحانى يحتاج معه صاحبه إلى نشاط جسمه وخفته وطهارته من كل عوائق السمو والكمال الروحى ، ومن هنا كان من يدخن ويرمى بالسيجارة عند باب المسجد ويدخل ويصلى كمن أحدث حدثا موجبا للوضوء ودخل يصلى ولم يتوضأ فهل تصبر على ذلك ؟ اللهم لا ، ولوأنصفنا الشرع وأنصفنا أنفسنا لقلنا : اللهم إنه لا فرق بين الرجلين ، وطالبنا المدخن أن يتوضأ بعد التدخين ، كما نطالب من أحدث أن يتوضأ ولكن غفلة العلماء وعدم البصيرة فى الدين فإن المدخن يحشو جوفه دخانا ونارا فكيف لا يتوضأ ، إن المدخن ينفث عفونة ونتنا كعفونة الغائط فكيف لا يتوضأ ؟ إن المدخن تصاب أنسجة جسمه وخلاياه بالفتور أكثر مما يصيبه من أكل لحم الجزور فكيف لا يتوضأ ؟

والنتيجة الحتمية أن الدخان مضر بأعظم أصل من أصول الدين ، وركن من أركانه ، ألا وهو الصلاة ، فكيف لا يكون بذلك حراما يجب تركه وعدم فعله من المسلم الذى يرجو الله والدار الآخرة ؟ ؟ ؟

هذا وإن ضرر التدخين بالدين ليس مقصورا على الصلاة فحسب بل هو ضار بجوانب أخرى من دين المرء منها : أن المدخن يؤذى الحفظة من الملائكة الكرام والكاتبين ، إذ هو ينفث بقوة الدخان الأبيض برائحته الكريهة على الملكين وهما يتأذيان

من كل رائحة كريهة لحد أنهما لا يدخلان مع المرء بيت الخلاء كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ ولذا يكره أن يبصق المرء عن يمينه أو عن شماله حتى لا يؤذى الملكين كما جاء ذلك فى الخبر وأدل من ذلك حديث الصحيح « من أكل ثوما أو بصلا أو كراتا فلا يقربن مساجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » ولذا فإنهم لا يدخلون بيتا فيه كلب ولا صورة ولا يحضرون الجنب ما دام على جنابته .

ومنها أن المدخن يؤذى زوجته بالمسلمة برائحة فمه إذا قبلها ، إذ لا يسلم فمه من رائحة الدخان الكريهة وأذية الزوجة محرمة وإصابتها بضر يخولها أن تطالب بدفعه أو تطلق كما هو معلوم من الشريعة عند من درسها وعرف أحكامها .

ومنها أنه أى المدخن يؤذى جلسائه من غير المدخنين أذى كبيرا وأذى الناس حرام ، إذ القاعدة الشرعية تقول « لا ضرر ولا ضرار » ، عرف هذا حتى الهنادكة الكفار فقد ركبنا طائرة هندية فرأينا الملاحين يركبون غير المدخنين على مقاعد خاصة بعيدة عن مقاعد المدخنين . ذلك الدين هو كل شيء عند المؤمل شعورا منهم بأذية التدخين ، وهذا كاف فى الاستدلال بأن التدخين مضر بدين المرء ذلك الدين الذى هو كل شيء عند المؤمن ، فالذى يؤذى كل يوم بتدخين خلقا كثيرا معناه أنه يعود يوميا بحصيلة من الذنوب تزيد على حسناته إن كانت له حسنات فيخسر خسرانا مبينا ، والعياذ بالله تعالى .

ومنها أن المدخن قد تشبه بالكفار وبأهل النار وكلاهما حرام على المسلم أن يتشبه بهما ففى الصحيح « نهى رسول الله ﷺ عن التشبه بالمجوس ، والمشركين ، واليهود والنصارى » ، فى غير ما حديث لحكم عالية وأهداف سامية ليس هذا مجال بحثها والكشف عنها ، وفى السنن « نهى رسول الله ﷺ أن يضطجع المؤمن على بطنه وقال إنها ضجعة أهل النار » والمدخن قطعا متشبه بالكفار والفساق لأنهم الذين ورثوا هذه العادة السيئة إلى المسلمين .

كما هو متشبه بأهل النار أن أهل النار عند زفيرهم فى جهنم يخرجون الدخان والنار من أفواههم ومناخرهم كما يخرج ذلك المدخن اليوم والعياذ بالله تعالى من أهل النار وحالهم ومن التشبه بهم .

وأخيرا فهل يعد هذا البيان من بيان فى كون التدخين ضارا فاسدا قبيحاً يساوى الإثم

ويعادله فيحرم كما حرم ، ويجب تركه كما يترك والله تعالى يقول : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون** ﴾ [1] .

وصدق الله العظيم وصلى الله وسلم على نبيه الكريم

(١) الأنعام : ١٢٠ .



إلى الإيمان والجهاد

كتبهـــا

أبو بكـر جابـر الجـزائـرى

الواعظ بالمسجد النبوى الشريف

والمدرس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الإيمان والجهاد

بين يدى هذه الدعوة

المحمود لله جل جلاله ، والمصلى والمسلم عليه محمد عبده ورسوله ، والمرضى عنهم صحابته وآله ، والمترحم عليهم خلفاؤه وأتباعه .

أما بعد ، ،

فإنه بين يدى دعوتى هذه المسلمين إلى الإيمان والجهاد ، لينقذوا أنفسهم من الورطة الكبرى التى وقعوا فيها نتيجة لعدم اتباعهم هدى ربهم ، وإعراضهم عن ذكره ، وهو سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى ، وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ، ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ (١) .

بين يدى هذه الدعوة ، إلى الإيمان والجهاد أضع بين يدى مدعوى من المسلمين المرآة التالية ، لينظروا فيها وجه الواقع الذى هم عليه ، وهو واقع كما يعلم الله مر شديد المرارة ، سيىء إلى أبعد حدود السوء ، رجاء أن يكون ذلك باعثا لهم على الاستجابة لهذه الدعوة ، فيؤمنوا ويجاهدوا ، فينقذوا أنفسهم ، فينجوا ويكملوا ويسعدوا فى كلتا الحياتين إن شاء الله تعالى .

وها هى ذى المرآة صافية فليتناولها المسلمون ، ولينظروا وجه واقعهم فيها ، فإنها تظهره لهم بحمد الله واضحا جليا .

---

(١) طه : ١٢٣ ـ ١٢٨ .

إن هذه المرآة ، آية من كتاب الله ربنا نزل بها جبريل على نبينا ، إنها قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ، من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾ (١) .

..... إن كل من ينظر بصدق فى هذه الآية الكريمة وهى كالمرآة الصافية تتجلى له الحقائق التالية :

١ ــ أن الله تعالى قد أكرم المسلمين وأنعم عليهم ، أكرمهم بالإسلام ، وأنعم عليهم بالقرآن ، واجتباهم وهداهم ، اجتباهم لحمل رسالة الحق والهدى والنور والعدل والخير للناس كافة ، وهداهم إلى سبل السلام والسعادة والكمال فى الدنيا والآخرة .

٢ ــ أن ماتم للمسلمين فى سالف عهدهم وماضى تاريخهم من الرفعة والكرامة ، والعزة والسيادة كان بتمسكهم بالقرآن الكريم وأخذهم به ، واتخاذهم له إماما وقائدا لهم فى كل دروب الحياة ومسالكها ، بوصفه هدى الله الذى لا يضل ولا يشقى من اتبعه ، فاتبعه المسلمون الأولون وأخذوا به فما ضلوا يومئذ ولا شقوا .

٣ ــ أنه نتيجة لانسلاخ المسلمين من آيات الله انسلاخا جزئيا أو كليا فى كثير من ديارهم وبلادهم قد فقدوا المناعة العلمية والحصانة القرآنية فأتبعهم الشيطان فكان أكثرهم من الغاوين ، ولما غوت أكثريتهم سقطوا وهبطوا ففقدوا سيادتهم وانتزعت من أيديهم قيادتهم ، فضربت عليهم الذلة ، وحرموا شرف الملة فتنكر أغلبهم للإسلام منبع سعادتهم ومصدر سيادتهم وقيادتهم ، وتعرفوا على الكفر مبعث شقائهم وبلائهم ، فعظمت لذلك محنتهم ، وازدادت حيرتهم ، وصدق عليهم هذا المثل الذى ضربه ربهم لغيرهم ويا للأسف .

٤ ــ أنه لا سبيل إلى استرداد العز والمجد المفقودين ، واستعادة السيادة والقيادة المسلوبتين إلا بالأخذ بالآيات القرآنية ، لأنها الرافعة الإلهية ، إنها كما رفعت أسلافهم السابقين من هوة الشرك والكفر والضلال ، وصيرتهم فى أقل من ربع قرن سادة الدنيا

---

(١) الأعراف : ١٧٥ ــ ١٧٨ .

وقادتها : رحمة وعدلا ، وحكمة وعلما ، فسترفعهم اليوم من هوة السقوط ، ووهدة الهبوط ، وترد عليهم ما فقدوا من عزة ومجد ، وما سلبوا من قيادة وسيادة ، بعد أن ترفع ما حل بهم من عار وما نزل بساحتهم من ذل وصغار .

٥ ـ أن المسلمين اليوم وقبل اليوم ومن زمن غير قصير قد أخلدوا إلى الأرض ، وركنوا إلى الحياة الدنيا ، وكيفوا حياتهم على متطلباتها المادية الهابطة ، وتخلوا عن القيم الروحية ، وابتعدوها من كل ما يؤدى إليها ، وبذلك تعذر على من يروم رفعهم ورفقهم بالآيات القرآنية وهى الرافعة الحقة الفذة تعذر عليه أن يرفعهم من الحضيض المادى الذى هدوا إليه ، وسقطوا فيه واأسفاه ، ويا لشدة حسرتاه ! ! !

٦ ـ أن المسلمين بتركهم هدى ربهم وإعراضهم عن ذكره عوقبوا باتباع أهوائهم ، والتنكر لهداية عقولهم ، فهاهم أولاء يعيشون بغير هداية من عقل أو دين ، فعمتهم بذلك الحيرة ، وانتابهم القلق ، واضطربت حياتهم اضطرابا ينذر بأوخم العواقب وأسوء الأحوال .

٧ ـ أن مثلهم فى حيرتهم وقلقهم واضطراب حياتهم كالمثل الذى ضرب الله تعالى فى هذه الآية ، وهو مثل ضربه الله تعالى لمن أتته آيات ربه فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فغوى ، واتبع هواه بدل عقله ، أو هدى ربه ، فكان فى حيرته واضطراب حياته كالكلب إن يحمل عليه يلهث ، وإن يترك يلهث .

٨ ـ أن اختيار الكلب فى هذا المثل القرآنى ليكون مثلا لمن ترك آيات الله بعد أن جاءته فعرفها وآمن بها ، ثم تنكر لها وأعرض عنها فأخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فحاطت به الخطايا وأصابته الرزايا ، وحلت به الويلات والنكبات فتحير واضطرب وقلق ، وفقد الهدى والرشد ، وحرم الطمأنينة والسكينة ، إنما كان لصفتين فى الكلب لا توجدان فى حيوان غيره ، ألا وهما : الحيرة ، والتبعية ـ فالحيرة والقلق والاضطراب النفسى كل هذه الصفات بارزة فى الكلب وقد عبرت عنها الآية الكريمة أيما تعبير ، إذ قالت : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث** ﴾[1] ، وكذلك حال المنسلخين من آيات الله ، والمخلدين إلى الأرض المتبعين أهواءهم بدل عقولهم وهدى ربهم ، وهى حال أكثر المسلمين المسؤولين اليوم وغير المسؤولين ، وإن لم يكن منهم غير مسؤولين .

وأما التبعية ، ، وهى العجز عن الاستقلال بالنفس صفة ظاهرة فى الكلب أكثر من

(١) الأعراف : ١٧٦ .

غيره من سائر الحيوانات ، فهو إذا فقد إنسانا يتبعه ويمشى وراءه ويعيش فى كنفه طلب إنسانا آخر يتبعه ويعيش فى كنفه ،كما قال أحد الحكماء ، وهو أحمد شوقى فى خواطره : الذليل بغير قيد مقبل ، فهو كالكلب ، إذا لم يسد بحث عن سيد ، وهذه حال المخذولين ممن أتتهم آيات الله فتركوها وأعرضوا عنهاواتبعوا أهواءهم فانتابتهم الحيرة وساورتهم المخاوف ، فاضطربوا وزلزلوا زلزالا شديدا .

وشاهد هذه الحقيقة المؤلمة أن أقاليم كثيرة من بلاد المسلمين ما إن تحررت من حكم المستعمرين الغربيين حتى وضعت نفسها باختيارها فى تبعية عدو لها شرقيا كان أو غربيا ، بحيث لا تستطيع أن تستقل عنه بحال من الأحوال ، وإن خادعوا أنفسهم وضللوها بأن تبعيتهم لعدوهم إنما هى تبعية صداقة ومنافع متبادلة لا غير ، والواقع لا يقر هذا بل يكذبه ويرده ، إذ عدو كبير شرس طاع طامع كروسيا الحمراء أو البيضاء ذات العشرات الملايين ، والقوات المادية التى لا تقاوم تبذل صداقتها لمجموعة من شبه البدو قد لا يزيد عددهم على المليون نسمة ، فتضع على رأس أحدهم قبعة من نسبها ، وعلى كتفه بندقية من صنعها ، وترفع من شاءت منهم إلى قمة القيادة وتدعوه قائداً ، وقد تستضيفه فى بلادها وتحتضن به بين رجالاتها ، وتسمح له بأن يخطب فيقول ، وتصفق له فيطرب وينتشى حتى لكأنه كسرى فى أيامه أو قيصر على عهد حياته وما يدرى هذا المصنوع المخدوع أنه بذلك يسخر منه ، ويضحك عليه ، ويسخر لخدمة أطماع الدب الأحمر فى نسف العقائد الإسلامية ، وتدمير الروح الإيمانية وإلا فمتى كان الحمل صديقا للذئب ، وهل كان فى تاريخ البشر أن العاجز الضعيف يخطب الأقوياء وده ، ويطلبون صداقته ؟ اللهم لا .

وأخيرا ، فإن هذه الأرقام الثمانية التى سقناها فى مقدمة هذه الدعوة لتمثل الصورة الحقيقية لأمة الإسلام اليوم ، والتى قد انعكست على مرآة الآية الكريمة صورة دميمة شوهاء سيئة المنظر ، ترهب وتفزع .

وبما أن سنة الله ماضية فى أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم أى لا يغير ما بقوم من ذلة ومهانة ، وعجز وضعف ، وشر وفساد حتى يغيروا ما بأنفسهم من صفات الكفر والنفاق ، والشرك والشك وسيىء الأخلاق فإن تغيير ما عليه المسلمون اليوم من تلك الصورة الشوهاء لتصبح صورة حسناء لا يتم إلا على مبدأ الإيمان الصحيح والجهاد الصادق لا يمكن أن يحصل أى تغيير فى هذه الأمة يبدل عجزها نشاطاً ، وضعفها قوة ،

وفسادها صلاحا وشرها خيرا .

ولذا فإنا ندعوها فى صدق وحرارة إلى الإيمان فآمنوا أيها المسلمون آمنوا بالله ربا إذ لا رب لكم غيره ، ولا إله على الحقيقة لكم سواه ، إنكم أيها المسلمون مربوبون لله قطعا ، وإلا فدلونا على من خلقكم ، أم خلقتم من غير شىء أى بدون خالق ، أم أنتم الخالقون ؟ اللهم أنه لا ذا ولا ذاك فلم نخلق من دون خالق ، ولم نكن الخالقين ، بل الله خلقنا وخلق كل شىء وهو أحسن الخالقين .

ألا فليرفع الغافلون رؤوسهم إلى السماء فوقهم وليسألوها : من بناها ؟ والكواكب فيها من كوكبها ، والأفلاك بها من أدارها ؟ وليسألوا الشمس من خلقها ناراً ، وضربها دينارا ، وعلقها فى السماء منارا والقمر من أناره وأداره والرياح من أرسلها وصرفها ، والسحب من أثارها وسخرها وأجراها ، وأنزل منها ماءهاوأمطارها ، ألا فلينظر الغافلون المعرضون إلى الأرض تحتهم من خلق تربتها وبارك فيها فهى تمدهم بأغذيتهم التى بها حياتهم ، ولا تكل من الإنبات ولا تمل من الإخراج والإنتاج ، ليلها ساج ونهارها داج ، فليسألوا جبالها من أرساها وأنهارها من أجراها ، وليسألوا أشجارها من أنبتها ، ومن أخرج ثمارها ، وليسألوا الأرض وعليها مستقرهم وفيها مستودعهم من أودع باطنها معادنها : فحمها ونفطها ، وما بينهما من غالى المعادن ورخيصها ، وسافلهاوعاليها ، وليعلموا أن كل ذلك لم يخلقوه ، ولولا الله لما أمكنهم أن يستخرجوه ، ولا أن ينتفعوا به .

وهذه أنعامهم إبلها وبقرها ، وأغنامها ومنها شطر غذائهم وكسائهم فليسألوها من خلقها وسخرها فبعضا يأكلون ، وبعضا يركبون فما لهم إذا لا يؤمنون ؟

ودون الأنعام حيوانات كثيرة برية ، وبحرية لا يأتى عليها عد ، ولا يحصرها أحد ، منها الطائر فى السماء ، ومنها السارح فى الغبراء ، ومنها السابح فى الماء ومنها المستكن فى الإحشاء ، فليسألوها من خلقها وكملها وجملها ، وألهمها سنن حياتها فى تناسلها وتربية أولادها ، وهداها إلى طلب أقواتها ، لتحفظ حياتها إلى آجالها المقدرة ، لها فليسألوها تخبرهم بأنه الله الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه ، وما لهم إذا لا يؤمنون ، ولهداه يتبعون ؟ ؟

وليسألوها من الحشرات النحلة من ألبسها الحبر ، وقلدها الإبر ، وسخرها طاهية للبر من ألهمها أن تتخذ من الجبال بيوتها ، وليسألوها كيف تصنع خلاياها وتحفظ رعاياها وليسألوها كيف تأكل الثمر ، وكيف تحيله عسلا فيه شفاء البشر فإنها تخبرهم بلسان حالها

إنه الله الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وليستنبئوا النملة من أدق خلقها ، وأعظم خلقها ، ومن علمها إنشاء عساكرها وقرأها ، ومن ألهمها صبرها ، ووهبها ذكاءها ؟ فليستنبئوها كيف تدبر ممالكها ، وتسوس أفرادها وجماعاتها فإنها تنبئهم بأنه الله ، وليس إلا الله ، وما لهم إذا لا يؤمنون ولهداه لا يتبعون ، ولندائه لا يسمعون .

وليسألوا دودة الحرير عن كيفية خلقها ، وأطوار نشأتها ، إنها تخرج من بيض كبزر التين ، وتصبح أما والدة فى خلال شهرين ، كيف تفرز لعابا لزجا فيجف بمخالطة الهواء ، وتصير خيوطا حرير تلتف بها ، وتتراكم عليها ، حتى إذا اكتملت وبلغت منتهاها ، أتاها مربوها فنزعوا عنها ثيابها وباعوها حريرا هو أجود أنواع الحرير وأثمنه وأعلاه ، فليسألوها من خلقها ، ومن لصنع الحرير هداها تخبرهم بأنه الله ، الذى لا إله غيره ولارب سوه ، فمالهم إذا لا يؤمنون ولهداه لا يتبعون ، ولندائه لا يستجيبون ؟ ؟ !

وليسألوا بينهم ، كيف كان أحدهم ؟ ألم يكن نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة ، ثم مضغة ، ثم أصبح بشرا سويا ؟ فليسألوه عن عناصر تكوينه من جمعها وألف بينها فتمازجت واتحدت ، وكونت إنسانا يكاد يكون عالما مستقلا بذاته ، لما فيه من شتى عناصر الكون ؟ وليسألوه كيف يسمع ويبصر ، وكيف يعقل ويفكر ، وكيف يضحك ويبكى ، ويفرح ويحزن فليسألوه من أين أتاه ذلك وكيف تم له ، فإنه يخبرهم بأنه أتاه من ربه ، وتم من خالقه ، الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه ، إذا فما لهم لا يؤمنون ولهدى ربهم لا يتبعون؟

وليسألوا القرآن العظيم من أنزله وحفظه فليسألوه عن العلوم التى حواها ، والغيوب التى أنبأ بها ، هل جاءت على خلاف ما أشار أو ذكر فليسألوه عن نظام الزوجية فى الكون كله ، كيف أخبر به وأعلنه ، وكيف صدقه العلم الحديث وادعى له ، ليسألوه عن كل العلوم والمعارف من ضمنه إياها فحواها كلها ووعاها ، فهى مكنونة فى ثناياه ، ومودعة فى حناياه .

فليسألوا فإنه يخبرهم بأنه الله الذى لا إلا هو ولا رب غيره ، فما لهم إذا بربهم لا يؤمنون ، ولهداه لا يتبعون ؟ ؟

وإن قالوا : آمنا وصدقنا ، قلنا : وما لهم لا يؤمنون ، وآيات الله تتلى عليهم ورسوله منهم وفيهم ، وهذه أحاديثه قد ملأت سمع الدنيا وبصرها وتلك معجزاته أخبارها متواترة

بين الورى شائعة ذائعة ، ومبالغة فى النصح لهم والبيان نقول : إن لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانكم أيها المؤمنون ؟

أهى فى إضاعة الصلوات واتباع الشهوات ، أم هى فى استبدال الحكم الشرعى بالقانون الوضعى ؟

أهى فى استباحة الربا أم فى إشاعة الزنا ؟ أهى فى محادة الله ومناقشة الرسول بتعطيل الكتاب وهجر السنة أم هى موالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين ؟ ؟

أهى فى تجزئة بلاد المسلمين وتقسيم ديارهم ، أم هى فى الحدود المظروبة ، والقيود المشدودة .

فليخبرونا بربهم عن حقيقة إيمانهم ، أهى فى الغش والخيانة أم هى فى خلف الوعد ، ونكث العهد ، أهى فى شرب الخمر ، أم هى فى مظاهر اللهو والباطل ، أهى فيما شاع بينهم من الكذب والزور ، أم هى فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى أصبح المعروف بينهم منكرا والمنكر معروفا ، ألا فليخبرونا عن حقيقة إيمانهم فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا فليؤمنوا ، وذلك ما طلبناه منهم ودعوناهم إليه ، ألا فليؤمنوا وليعلموا أن حقيقة الإيمان لا توجد بغير الإيمان الظاهر والباطن بحكم الله ورسوله ، وقضائها ، قال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾ (١) . فمن بلغه حكم الله أو حكم رسوله فى النفس أو الولد أو المال ، ثم يرى أنه يملك حق الرفض والقبول فما هو بمؤمن ما هو بمؤمن ، وإن صام وصلى ولم يزن ولم يسرق ، ومن دعاه الله ورسوله لأمر فيه حياته الروحية أو الجسمانية أو هما معا فتوانى أو رفض فهو عرضة لأن يسلب الإيمان ، ويحرم الهدى فلا يؤمن بعد ولا يهتدى قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون** ﴾ (٢) .

من دعى إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ، أو إلى حكمها فرفض وأعرض ولم يقبل حكم الله ولا حكم رسوله ، ولم يدعى لحكمها فما هو بمؤمن ، ما هو بمؤمن وإن تصدق وجاهد وحج قال تعالى فى شأن المنافقين : ﴿ **ويقولون أمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله**

---

(١) الأحزاب : ٣٦ . (٢) الأنفال : ٢٤ .

ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾ (١) وقال في المؤمن حقا وصدقا : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ (٢) .

والآن ، ، هل حقيقة الإيمان ثابتة لنا متوفرة بيننا بالصورة التى نطمئن على صحة إيماننا وإجابيته ؟ وما دمنا لا نجزم بصحة الدعوى أليس من الخير لنا أن نجدد إيماننا ونؤمن ، وهل غير الإيمان طريق إلى النجاة والسعادة ؟ أم هانت علينا أنفسنا حتى لا تطلب لها نجاة ولاسعادة وهل بين العقلاء من لا يطلب لنفسه النجاة والسعادة ؟ إذا فإلى الإيمان الحق أيها المسلمون ، فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزل على رسوله فلنؤمن بالله ربا وإلها ونعبده ونتقيه ، ونؤمن بمحمد نبيا ورسولاً ونحبه ونتبعه ونطيعه ، ونؤمن بالقرآن إماما وشرعا ومنهجا ونهتدى به ونتبعه ، ولنعلم أننا لا نطمئن إلى صحة إيماننا حتى نرى صفات المؤمن متمثلة بالفعل فينا ، ومتجلية فى كل مظاهر حياتنا ، ومن أخص صفات المؤمنين : الموالاة بالحب والنصح والنصرة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله وطاعة رسوله قال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾(٣) .

كما هى أى صفات المؤمنين ، وجل القلب ، عن ذكر الرب ـ وزيادة الإيمان عند سماع آيات الرحمن ، توكل على الله وحده دون سواه ، وإقام الصلاة ، وإنفاق من رزق الله ، قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ (٤) .

هذا وإن غم علينا الأمر ولم نتبين صحة إيماننا فى معارض صفات المؤمنين الصادقين ، ومظاهر حياتهم : حياة الإيمان والجهاد ، والعلم والتقوى ، فلنزن إيماننا فى ميزان آية الأحزاب فإنه ميزان قسط لا يبخس وحكم عدل لا يزيد ولا ينقص قال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** .... ﴾ (٥) .

---

(١) النور : ٤٧ ، ٤٨ . (٢) النور : ٥١ . (٣) التوبة : ٧١ .
(٤) الأنفال : ٢ ـ ٤ . (٥) الأحزاب : ٣٦ .

إن هذه الآية المحكمة من كتاب الله تعالى نص صريح قطعي فى أن العبد المؤمن لا يملك خيرة إزاء حكم الله تعالى وحكم رسوله وقضائهما وأنه لا يسعه إلا الإذعان والتسليم، وبناء عليه فإن من رأى أنه يملك حق الرفض والقبول لأحكام الله ورسوله بمعنى إن شاء استجاب للحكم ، وإن شاء لم يستجب ، فما هو بالمؤمن ولا يدخل فى عداد المؤمنين بحق وصدق .

هذا هو الميزان الحق فلنزن أيها المسلمون إيماننا فيه فإن وجدنا أنفسنا مؤمنين حقا وصدقا فلنحمد الله تعالى على أن خطونا فى سبيل النجاة والسعادة الخطوة الأولى ، ولنستعن الله تبارك وتعالى لنخط الثانية ، وهى الجهاد فى سبيل الله ، فبسم الله تعالى وإلى ميادين الجهاد .

وإن قلتم : ما هو الجهاد الذى تدعونا إليه ؟ وأين مبادئه ؟ وكيف نجاهد ؟ وبماذا نجاهد ومن نجاهد ؟ قلنا : نعم لكم الحق أن تتبينوا خطواتكم الحاسمة والأخيرة فى طريق النجاة والسعادة قبل أن تخطوها ، واسمحوا لى قبل الإجابة والبيان أن أنبه إلى جميع الأمراض النفسية والخلقية وحتى الجسدية ، والتى يشكوا منها المسلمون اليوم وقبل اليوم إنما هى نتيجة حتمية لترك الجهاد فى سبيل الله ، ولذا فلا علاج لتلك العلل والأمراض المستعصية فى الأمة الإسلامية إلا بالجهاد بعد الإيمان .

ولنجب الآن ، على أسئلتكم لنبين طريق الجهاد حتى نجاهد إن شاء الله تعالى فنقول : إن الجهاد هو بذل الجهد ، واستفراغ الطاقة ، وما فى الوسع فى دفع الشر والفساد فى الأرض .

ولما كان دفع الشر والفساد لا يتأتى إلا بمجاهدة من يثيرهما ويسببهما وهو أربع طوائف الكفار والفساق والنفس والشيطان ، وهذه هى ميادين الجهاد التى سألتم عنها وطلبتم بيانها ، إما بماذا نجاهد فإن وسائل الجهاد والآن تختلف باختلاف العدو الذى يجاهد ، فالعدو الكافر يجاهد بالمال والنفس واللسان ، لقول الرسول ﷺ : « جاهدوا المشركين[1] بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » .

وجها دالفساق يكون باليد واللسان والقلب لحديث : « من رأى منكم منكرا فليغيره

---

(١) رواه أحمد وأبوداود .

بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

وجهاد الشيطان يكون بدفع ما يأتى به من الشبهات ، وترك ما يزينه من الشهوات ، إذ لا شوكة للشيطان يؤذى بها ، ولا سلاح يستخدمه ضد الإنسان إلا الشبهات يلقى بها فى القلوب ، والشهوات يثيرها فى النفوس للإغواء والإفساد والإضلال .

وجهاد النفس وهى أخطر الأعداء الأربعة المذكورة فجهادها يكون بحملها بقوة وشدة على أن تتعلم شريعة الله وتعمل بها ، وتعلمها لغيرها من الناس ، كما يكون بصرفها عن هواها ، وإبعادها عن دعواتها التى لا تبرح تعاودها ، وتحس إليها كلما تركت مجاهدتها ، وأهملت مقاومتها .

وبعد هذا البيان المجمل عن معنى الجهاد وبماذا يكون ،وما هى ميادينه فإننا ، ، إيضاحا للسبيل ومواجهة للواقع كما هو بصعوباته وملابساته وظروفه غير العادية نبسطه ونوصله للمسلمين الغافلين إعذارا وإنذاراً فنقول : إن الجهاد أحد سهام الإسلام ، وذروة سنامه ، ومن أفضل أعماله ، وأحبها إلى الله تعالى ، وبه قوام الملة وسلامة الأمة وعليه المعول بعد الله تعالى فى تقويم الأخلاق وإصلاح النفوس وتزكيتها ، أوجبه الله تعالى بقوله : ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ (١) ورغب فيه قوله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ (٢) ، وحذر من عاقبة تركه بقوله : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ (٣) وبالغ فى الترغيب فيه ، والدعوة إليه ، والاضطباع بأعبائه فقال : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب** ﴾(٤) .

كل هذا الخطر الجهاد وعظيم دفعه ، وكثرة خيره وبركته ويمنه ألا فليجاهد المسلمون المؤمنون حتى ينجوا ويسعدوا بعد أن يكملوا ويعزوا .

وإليهم هذا البيان بكيفية الجهاد والسير فى مضماره حتى الوصول إلى أهدافه وغاياته ، فأولا وقد خطونا الخطوة الأولى فحققنا الإيمان وبذلك سهل علينا اقتحام المشاق ، وخوض الصعاب ، وفعل المكروه للنفس غير المحبوب لها ، ولا المرغوب عندها .

---

(١) الحج : ٧٨ . (٢) العنكبوت : ٦٩ . (٣) البقرة : ١٩٥ . (٤) الصف : ١٠ ــ ١٣ .

فلنجاهد ولنبدأ بأخطر الأعداء **وهو النفس** ، وجهادها يكون بحملها وهى كارهة أو راضية على أن تعرف الله ربها جل جلاله بأسمائه وصفاته وتعرف محابه من العقائد والعبادات والآداب والأخلاق ، وتعتقد ، وتعبد وتتأدب وتتخلق حتى تبلغ الكمال فى ذلك ، كما تعرف مكارهه تعالى من فاسد العقائد ، وباطل العبادات ، وقبيح الآداب السيىء الأخلاق فتكره ذلك كله وتتجنبه ، وتتبرأ منه ومن أهله براءة صحيحة صريحة ، لا يشوبها ود ولا ولاء لمن حاد الله ورسوله ، ولو كان أقرب قريب ، ولنعلم هنا أن هذا العلم لا يحصل لها إلا بالتعلم لحديث : « إنما العلم بالتعلم » وأن هذه التربية للنفس لا تتم إلاعلى يد مرب عليم حليم ، ورث ذلك عن الربانيين ورثة النبى ﷺ وخلفائه فى أمته من بعده وهذا المطلب وإن عز فإن هناك سبيلا قد توصل إليه ، أو تقرب منه ، ألا وهى أن يأخذ أهل الأحياء فى المدن ، وأهل القرى فى قراهم أن يأخذوا أنفسهم بالحزم والعزم ، فى جدية المسلم وصدق المؤمن يأخذوا أنفسهم فيفرغوها قبل صلاة المغرب من كل أعمالهم الدنيوية ، ليذهبوا بنسائهم وأطفالهم إلى مسجد الحى أو القرية الجامع ليتلقوا كل ليلة العلم والحكمة من أهلها ممن أهلهم الله تعالى لذلك من مشائخ العلم والتربية الروحية وذلك كل ليلة من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وطوال السنة ، وعلى مدى الحياة وبذلك يفوزون بالعلم والتربية ويصبحون فى وقت قصير علماء حكماء أهلا لكل كمال وخير نتيجة مجاهدتهم نفوسهم وانتصارهم عليها حيث أرغموها على أن تعلم وتعمل وتعلم ، ففازت بالطهر والكمال وتهيأت لسعادة الحال والمآل .

هذا **جهاد النفس** ، ، أما جهاد الفساق وهم الذين فسقوا عن أمر الله وأمر رسوله بتركهم الواجب ، أو بفعلهم الممنوع ، فإنه يكون بالاتصال الشخصى بهم ، ودعوتهم إلى طاعة الله ورسوله والاستقامة على الطريقة المفضية بالعبد إلى النجاة والسعادة والكمال ، ويكون ذلك بأسلوب الترغيب بوعد الله لأوليائه والترهيب بوعيد الله تعالى لأعدائه ، كما يكون بنقلهم إلى مجالس التعليم والتربية بالمساجد ، وبإظهار العطف عليهم والتردد إليهم ، مما يذهب نفرة نفوسهم ويزيل قساوة قلوبهم .

ومما قد يساعد على هداية هذه الطائفة من الناس وإصلاحهم اعتبارهم أسرى فى يد العدو ، ومد يد العون لهم مساعدة لهم على التخلص من أسر العدو لهم ، وفك العانى ومقاداة الأسير واجب إسلامى ، ومن حق المؤمن على أخيه المؤمن ، وأسر الشيطان أضر من أسر الإنسان ، بيد أنه أيسر منه وأهون ، أضعف كيد الشيطان قال تعالى : ﴿ **إن كيد**

الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (١) ، إنه مهما كان انحراف الفرد المسلم بغشيانه كبائر الإثم والفواحش فإن توبته ممكنة وعودته إلى الطاعة والاستقامة ليست مستحيلة . إن زيارة إخوان له فى منزله المرة بعد المرة بتودد إليه ، وتحبب إلى ذقه ، وتقديم هدايا مناسبة له تدل على صدق الـود ، وتأكيد الحب تفعل فى نفسه ما لا يفعله السحر بأصحابه ، وقديما قال الشاعر الحكيم :

أحسـن إلى النـاس تستعبد قلوبهـم فطالمـا استعبـد الإنسـان إحســان

وفى الخبر تهادوا تحابوا ، والنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها ، وإذا أحب المرء أخاه أطاعه ، وقبل منه ما يقول ، واستجاب لما يدعوه إليه ، لا سيما بالمعروف والخير .

وأخيرا ، ، إن من أنجح الوسائل وأنفعها فى إصلاح الفرد المسلم إذا فسد وانحرف واستحوذ عليه الشيطان فأدخله فى حزبه بعد أن أوقعه فى أسر زيارة الإخوان الصالحين وتوددهم له ، وإكرامهم إياه ، وإظهار الشفقة له والرحمة به ، وتذكيره بكرامته الإيمانية وفضيلته الإسلامية ، وفتح باب الرجاء له ، والأخذبيده شيئا فشيئا حتى يخلص من أسره ويعود إلى وطنه وأهله أى إلى المسجد ومجالس التعليم والتربية فيه .

وأما جهاد الشيطان فإنه وإن كان أيسر أنواع الجهاد وأقله مشقة وأحقه مؤونة فإنه لاستمراره الليل والنهار ، وعدم انقطاعه إلا فى حال اللجأ إلى الله تعالى والاستعاذة به وقد لا يسمح للعبد أن يلجأ إلى ربه ويستفيد به ، فلذا كان جهاد الشيطان جهادا عسيرا .

وأنفع ما يدفع به هذا العدو الملازم الشرس هو معرفة أنواع أسلحته التى يستخدمها فى إغواء الإنسان وإفساده وهى تكاد تنحصر فى ثلاثة أنواع :

الشبهة ، والشهوة ، والتزيين ـ فإنه يقذف بالشهوة فى نفس العبد فيفجر كل طاقات غرائز الإنسان ويهيج أعصابه فيشعل نار الفتنة التى لا سبيل إلى إخمادها إلا بالاتصال الفورى بالله سبحانه وتعالى وطلب العون منه : **﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾** (٢) .

كما يرمى بالشبهة فى القلب فيثير الشكوك ، ويحرك خواطر السوء فيصيب الضحية بالحيرة والتردد ، فيختر العزم ، ويقل العمل ـ ويتعرض الإنسان لشبه الموت أو الجنون ، أما سلاح التزيين فهو أقوى أنواعه وأكثرها فتكا بالإنسان إذ قال لعنه الله فى

---

(١) النساء : ٧٦ . (٢) الأعراف : ٢٠١ .

صفاته وعدم خوف من الله أو حياء : ﴿ **لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين** ﴾ (١) ، فإنه لديه من القدرة ما يقلب به العجوز الشيطان من النساء فى عين ناظرها وكأنه حوراء أو غادة حسناء ، ويضفى مسحة خيالية من الجمال على الأشياء الدميمة القبيحة فإذا هى فى نظر الضحية من أجمل الأشياء وأحسنها ، إنه قد يجعل المر حلوا والخبيث طيبا والعياذ بالله تعالى .

ومن هنا فحرب هذا العدو اللعين يجب أن تعتمد على رد كل شبهة يلقيها ، وإبعاد كل شهوة يثيرها ، والتفطن الواعى لكل طلاء وتزيين يحاول به الإيقاع فى شراكه وحبائله ، فرد الشبه ومقاومة الشهوات ، وكشف ستر التزيين هو السلاح الذى يحارب به هذا العدو اللعين ، وقبل كل ذلك وبعده اللجأ الصادق إلى الله تعالي والاحتماء بجنابه من الشيطان ومكائده ، فجلمة « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » يقولها المؤمن تبعد الشيطان وتبطل كل عمل له ، والقلب الحى واللسان الذاكر لا يقرب صاحبهما الشيطان ولا يحوم حول حمى قلبه ونفسه .

هكذا ، ، يقاوم هذا العدو ويجاهد وبالانتصارعليه يخلو أمام المرء المجال للنظر الصحيح ، والتفكير النافع ، وبالتالى العمل المثمر الصالح .

وأخيرا جهاد الكفار وهو أعظم أنواع الجهاد وأنفعها وأكبر بركة ويمنا وخيرا .

وهو لا يتم إلا على مراحل متتالية ، الثانية بعد الأولى ، والثالثة بعد الثانية ، فأولى مراحله القيام بأنواع الجهاد الثلاثة المتقدمة ، وهى جهاد النفس ، وجهاد الفساق وجهاد الشيطان ، ولا يصح الانتقال من هذه المرحلة إلا بعد أدائها كاملة والفراغ منها تماما ، إذ بها يتكون المجتمع الإسلامى القادر على تحمل أعباء جهاد الكفار ، ومواصلته حتى النصر فلا تبقى فتنة ويكون الدين كله لله .

إن الفرد كالجماعة فالذى لا يجاهد نفسه ولا ينتصر عليها لا يقدر على جهاد غيرها بحال من الأحوال ، وقد دلت التجارب الحاسمة على صحة هذه النظرية وسلمها واقع حياة هذه الأمة فى تاريخها الطويل .

وبعد هذه المرحلة تأتى المرحلة الثانية مباشرة وهى تكوين الدولة الإسلامية التى تمثل الإسلام قلبا وقالبا مظهرا ومخبرا لأن أفرادها أصبحوا صالحين قادرين على تحمل

---

(١) الحجر : ٣٩ .

مسؤولياتهم فى الحياة فإذا وجدت هذه الدولة الإسلامية القائمة على أسس متينة وهى عقيدة التوحيد ، والعبادة الخالية من البدع ، والحكم السليم والأدب الرفيع ، والخلق الفاضل ـ والاستقلال الكامل عن دول الكفر والشرك والضلال .

ومع هذا فلا بد من قضاء فترة قد تطول أو تقصر تبنى فيها قوتها المادية بعد أن بنت قوتها الروحية القائمة على مبدأ الإيمان والعلم والتقوى واليقين .

والقوة المادية ذات جناحين متكاملين لا تتم إلا بهما وهما : القوة الاقتصادية والقوة البشرية .

فالقوة البشرية تقوم على أساس إعداد كل فرد فى الأمة ليكون سليم الجسم قوية صحيح العقل راجحة ، ليمكنه أن يقوم بواجب الجهاد بجدارة واستحقاق .

فيتلقى كل فرد فى الأمة التعليم العسكرى والتدريب الحربى حتى يحدق كل فنون الحرب والقتال فتصبح الأمة كلها قادرة على أداء فريضة الجهاد التى لا تنتهى إلا بانتهاء الفتنة فى الأرض وكون الدين كله لله سبحانه وتعالى .

وأما القوة الاقتصادية فإنها تنبنى على أساس الإنتاج الصناعى والزراعى حتى لا تأكل الأمة المسلمة المجاهدة إلا مما تزرع وتنسج ، ولا تتسلح إلا مما تصنع ، فتحشد الدولة الإسلامية كل طاقاتها لتحقيق هذا المبدأ الضرورى وفى أقرب أوقاتها .

فإذا تمت هذه المرحلة على وجهها المطلوب واكتملت بها القوتان الروحية والمادية فإنها تنتقل إلى المرحلة الثالثة والأخيرة وهى مرحلة جهاد الكفار وقتالهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ـ وذلك أداء لرسالة الإسلام وقيامابفريضة الجهاد فى سبيل الله والتى هى عنصر حياة وكمال الأمة الإسلامية وسعادتها وأداة الصلاح والخير فى الأرض كلها .

والقيام بهذه المرحلة ، يفتقر إلى أمرين أساسيين : هما الهجرة إلى الله ، والغزو فى سبيل الله .

أما الهجرة فحقيقتها أن تفتح الدولة الإسلامية أبوابها لكل مسلم ومسلمة يعيش خارج حدودها لينضم تحت لوائها ويؤدى واجبه معها فى الغزو والجهاد لإعلاء كلمة الله ولا تكتفى بقبول المهاجرين فقط بل عليها أن تطالب المسلمين بالهجرة وتدعوهم إليها على سبيل الحتم والوجوب لأن دارها هى دار الإسلام ، وما عداها فدار الحرب ، وعليها

أن تتحمل أعباء هذه الهجرة كما تتحمل أعباء الجهاد ، ويسهم فى هذا التحمل كل فرد فى الدولة المسلمة من أنصار ومـهاجرين على حد سواء ، كما كانت الدولة الأولى فى الإسلام حيث فرض الله الهجرة ، والجهاد وآخى رسول الله ﷺ بين أفرادها ونزل القرآن فيهم يقول : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا** ﴾ (٢) .

ومعلوم بالضرورة ،، إن الدولة ما فتحت أبوابها للمهاجرين ودعتهم إلى الهجرة إليها حتى كانت قد أعدت لكل فرد قادر على العمل عملا زراعيا أو صناعيا أو وظيفيا يتقاضى بموجبه أجرا يسد حاجته الضرورية من غذاء وكساء ، إذ ما من شبر فى بلادها إلا وعليه حقل زراعة أو دار صناعة .

وبالمهاجرين يعظم جانب الدولة ويعز ، إذ عماد الدولة المجاهدة ومركز قوتها ومصدر طاقتها : القوة البشرية الصالحة للدفاع والقتال ، تلك كانت الهجرة وقد وضحنا صورتها وبينا حقيقتها ، أما الغزو فإنه الغاية التى تذرعت الدولة للوصول إليها وبذلت الغالى والرخيص فى سبيل تحقيقها ، فإن كلمة الغزو تعنى أن الدولة الإسلامية بمجرد أن استكملت قوتيها الروحية ، والمادية ، ودعت المسلمين إلى الهجرة إليها قد استجابت لنداء الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ (٣) .

فإن كان ما يلى حدودها حكومة تحكم شعبا مسلما فإنها تعرض عليها بكل صراحة ووضوح قبول الحكم الإسلامى والانضمام إلى الدولة الإسلامية التى يسودها شرع الله ويسكنها أولياؤه من المسلمين والمفروض بل الواقع أن تلك الدولة سوف لا تتردد فى قبول العرض وتنضم فورا وتصبح جزءاً من دولة الإسلام ، وإن كان ما يلى حدودها دولة كافرة فإنها تسلك معها المسلك السليم الصحيح الذى سلكه رسول الله وأصحابه مع أمثالها من دول الكفر وأمته ، وهو مراسلة تلك الدولة وتخييرها بين ثلاث لا رابع لها هى : الإسلام فتصبح جزءا من الدولة الإسلامية لأفرادها ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، إذ

(١) الحشر : ٨ ، ٩ . (٢) الأنفال : ٧٢ . (٣) التوبة : ١٢٣ .

الكل عبيد الله تجرى عليهم شرائعه وأحكامه العادلة وينالون فضله ويفوزون برحمته ورضوانه على حد سواء فإن أبت الإسلام فقبول الحماية بالدخول فى ذمة الدولة الإسلامية لتجرى فيها أحكامه العادلة وتفسح المجال لأفراد تلك الأمة للتعرف إلى الإسلام ودراسته عليهم حتى يسلموا فينجوا من عذاب الدنيا والآخرة وخرابهما ، ويسعدون فى حياتهما .

فإن أبت فإعلان القتال ـ لا القتل ـ حتى يحكم الله بينهما ، والعاقبة للمتقين وهكذا تواصل دولة الإسلام نشر رسالة الخير والعدل والرحمة فى ربوع الأرض ، والناس يدخلون فى رحمة الله ويخرجون من عذابه يوما بعد يوم وعاما بعد عام، حتى لا تكون فتنة فى الأرض أى لا يضطهد مؤمن من أجل عقيدته وعبادة ربه ، ويكون الدين كله لله فيعبد وحده ويسود حكمه ، وتلك الغاية من الحياة ، والهدف منها ـ والله المستعان وعليه التكلان .

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

القضاء والقدر

كتبها
أبو بكر جابر الجزائري
الواعظ بالمسجد النبوي الشريف
والمدرس بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

مواضع الرسالة

١ ـ المقدمة .

٢ ـ الكون ومظاهر التنظيم فيه .

٣ ـ كيف كان الكون ؟

٤ ـ سر النظام فى الكون .

٥ ـ القضاء والقدر .

٦ ـ ثمرة الرضاء بالقضاء .

٧ ـ لا جبر ولا نفى للقدر ، الإنسان فاعل مختار والله خالق الإنسان وخالق أفعاله .

٨ ـ إرادة الله تعالى ومشيئته .

٩ ـ سوء فهم إرادة الله تعالى أوقع الكثير فى الحيرة والخطأ .

١٠ ـ الجزاء من ثواب وعقاب قائم على أساس الرحمة والعدل .

١١ ـ الحسنة والسيئة من الله تعالى .

أو الحسنة من الله والسيئة من النفس ؟

بسم اللّه الرحمن الرحيم

القضاء والقدر

الحمد للّه الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا ، وصلاة اللّه تعالى وسلامه على صفوة خلقه محمد وآله وصحبه .

وبعد : فإنه لا تزال العقيدة الإسلامية منذ أحداثها فى العالم ذلك الانقلاب العظيم ، وهزتها العنيفة لاركانها المتداعية ، وخلخلتها للكيان البشرى المهزوز ، منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذى أطاح بصروح الباطل ، ودك عرش الشر والكفر والفساد ، لا تزال العقيدة الإسلامية تستهدف للطعن الشديد ، وتتعرض للنقد القاسى المرير من خصومها الألداء رأعدائها الأشداء ، من يهود ونصارى ، ومجوس وملحدين على حد سواء .

علماً منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذى وقع فى الكون على أيدى أصحاب رسول اللّه ﷺ ، وأتباعهم من التابعين من المؤمنين المحسنين إنما كان فى العقيدة الإسلامية ، فلهذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها ويطعنون حتى زلزلوها فى نفوس أكثر المسلمين ويومها فقط تسنى لهم أن يوقفوا تيارها ، ويقطعوا أسلاك أنوارها ، فتعود الظلمة إلى العالم الإنسانى ، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوى الرد وأسقطتها فى جحيم لا يطاق .

ولنذكر فى هذا وعلى سبيل المثال فقط ــ أيها الإخوان والأبناء ــ إن عقيدة القضاء والقدر وهى أحد أجزاء العقيدة الإسلامية وليست كلها أبداً ، وقد تعرضت لطعن عنيف ، وتشكيك سخيف بصورة تدعو إلى العجب والإستغراب ، فإنه لم تكد تذهب آثار شمس النور المحمدى المتخلف مع البقية الباقية من أصحاب رسول اللّه ﷺ حتى ظهر فى المسلمين مبدأ نفى القدر ، والقول بالجبر ومذهب الاعتزال ، والتشييع ، ونجم الشر واستطار ، وطرق كل الأقطار ، وتعرضت أمة الإسلام بعقائدها وبلادها ، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التى زلزلت كيانها ، وأخذ ت تتهاوى تحت ضربات الخانقين وطعنات الناقمين .

ولما هوى ذلك النجم الذى أضاء المعمورة ، وغمر الحياة بالهدى والخير قال الذين كفروا : تشفينا من الإسلام ، وإمعانا فى الإجرام : إن ما أصاب المسلمين من انهيار وسقوط ، بعد التفك الكبير والضعف ، كان نتيجة بعض العقائد عندهم ، وخصوا بالذكر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ، وكان ذلك منهم إفكا مفترى وكذباً مقلوباً ، مشوهاً للحقيقة ، إذ الواقع هو أن ـ الذى أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهون ودرن ، إنما كان نتيجة فساد عقيدة القضاء والقدر عندهم ، بما دس فيها الأعداء ، وما شوهوها به من تأويل باطل ، وتحريف قضى عليها وأماتها فى نفوسهم أو كاد .

وهذا من أشد ما يملأ النفس أسى وحزنا ، فإنهم الأعداء ما زالوا يفسدون على المسلمين عقائدهم ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها فضعفوا لذلك وهانوا ثم انبروا يقولون : إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التى يعيشون عليها معتقدينها ، منفعلين بها ، مستجيبين لها ،،

ومن المؤسف حقاً أن أكثر المسلمين ما زالوا إلى اليوم لم يعرفوا داءهم ولا ما كادهم به أعداؤهم فإننا نرى كثيراً منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر ، ويحتج بها مرة على فسقه وتهربه من مسؤوليته ومرة يتجنى بها على اللّه تعالى ربه ، فينسب إليه الظلم ، ويعترض عليه فى قضائه ومجارى أقداره وعادل أحكامه .

ومن هنا رأيت أن أقول كلمة فى هذا المعتقد ـ القضاء والقدر ـ لعل اللّه تعالى ينفع بها من يسمعها أو يقرأها ممن هم فى بلبلة فكر ، واضطراب نفس من عقيدة القضاء والقدر ، فينقطع بلبال فكرة ، وينتهى اضطراب نفسه فيؤمن ويرضى ويعمل فينجو ويسعد ، واللّه المستعان وعليه التكلان ، وها هى الكلمة فى الصفحات التالية مقدماً لها بثلاث كلمات تهميدية .

الأولى : الكون ومظاهر التنظيم فيه

إن كلمة الكون ـ أيها الإخوان والأبناء ـ تعنى هذا الوجود من العوالم العلوية والسفلية كالأرض والسماء وما فيهما ، وما بينهما ، وهو كون هائل عظيم يحوى عوالم كثيرة لا تحصى عدداً ولا حدا كل عالم منها يقف العقل البشرى أمامه حائراً مدهوشاً ، ففى سمائنا الدنيا هذه وحدها بلايين الكواكب والنجوم ، وإنها لتختلف فى أحجامها ، وأبعادها ، وقوانين سيرها كما أنها من غير شك تختلف فى أجرامها ، ومحتوياتها ،

وخصائصها .

وفى أرضنا هذه التى نعمرها ونعيش عليها عوالم لا تقل عظمة وروعة عن العوالم العلوية ، ففى عالم الإنسان ، كعالم الحيوان ، كعالم النبات عجائب فى الخلق وعجائب فى العدد والكثرة ، وعجائب فى الخصائص والطباع .

كل هذا الكون الضخم العجيب ـ أيها الإخوان والأبناء ـ قد ربطت بين أجزائه كلها علويها وسفليها أنظمة من السنن الإلهية الدقيقة المدهشة ، فسار الكون كله متحدا متناسقا إلى غاية لم ينته إليها بعد ، وإذا ما وصلها يكون قد استنفذ طاقته وانتهى ، ولذلك قطعا أجل مسمى عند الله لا بد وأن ينتهى إليه ، قال تعالى من سورة الأنعام : ﴿ **وهو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون** ﴾[1] .

هذا الكون المدهش المحير تجرى فيه ـ أيها الإخوان والأبناء ـ حوادث هائلة عظيمة كل حادثة منها لها عواملها وأسبابا ، ومقتضياتها الخاصة بها فدورة الأفلاك ، وسير الكواكب ، وهبوب الريح واختلافها ، وتراكم السحب ، وسقوط الأمطار ، ونبات الزرع ، وتوالد الإنسان والحيوان ، وما يتجدد من موت وحياة ، كل هذا خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية ، وأعراض صالحة سامية ، فليس بين هذه الأحداث والحوادث الجارية فى الكون ما هو عار عن حكمه متوخاة ، ولا ما هو جار على غير قانون ثابت يربطه بكل أجزاء الحياة .

ومن أجل هذا التنظيم السارى فى كل أجزاء هذا الكون ـ أيها الإخوان والأبناء ـ ما شك الذين أوتوا العلم فى أن رب هذا الكون جل جلاله وعظم سلطانه قد علمه قبل خلقه كلا وتفصيلا ، ووضع له هذا النظام الذى يحكمه قبل وجوده ، ثم ربطه به بعد أن أوجده فهو يسير فيه لا يتخلف عنه ولا يخرج عليه ، وهذا النظام هو سر إطراد الحياة الدنيا وبقائها إلى أجلها الذى تنتهى إليه ، وهو بالتالى نظام القضاء والقدر الذى دعت رسل الله جميعاً إلى الإيمان به والرضى بكل مجاريه خيرها وشرها سواء .

الثانية : كيف كان الكون أو الوجود

الوجود ـ أيها الإخوان والأبناء ـ قائم لا معنى لإنكاره ، ولا حاجة إلى إقامة الدليل على وجوده ، وإنما المسألة التى شغلت أذهان الباحثين فيه قديماً وحديثاً فهى قدم العالم

(١) الأنعام : ٢ .

وحدوثه ـ أى هل الوجود قديم أزلى ، أو حادث سبقه عدم وطرأ عليه وجود ؟

أطبق أكثر علماء البشر على حدوث العالم وذلك لعله التغير ، فإن العقول البشرية قاضية بحدوث كل متغير ، والكون أو الوجود متغير فهو إذا حادث غير أزلى قطعاً ، هذا كان استدلال العلماء على حدوث العالم ، واستمر كما هو إلى القرن التاسع عشر الميلادى الذى نعيشه ، حتى اكتشف قانون الطاقة المتاحة والذى أثبت بما لا مجال للشك فيه ـ كذا يقول علماء الكون اليوم ـ إن العالم لم يكن أزليا أبداً ، وإنما هو حادث مخلوق ، كما لم يكن أبدياً أبداً بل لابد له من نهاية حتماً ، وسر ذلك أن الطاقة الحرارية المتاحة تنتقل دائماً من جسم حرارى إلى آخر على خلافه ، ولا يمكن أن يكون العكس ، فهذه الطاقة المتاحة لابد أن يكون هناك من أتاحها أولاً ، إذ العدم السابق لا يمكن أن ينتج شيئاً ، فتعين أن يكون هناك خالق أزلى ، وبه بطل أن يكون الوجود أزلياً كما أدعى بعض الفلاسفة الملحدين ، ولزم أن يكون حادثاً له بداية ، وما كان له بداية كانت له نهاية حتماً ، وفى تقرير هذه الحقيقة العلمية يقول أحد علماء الغرب : وهكذا أثبتت حتماً ، وفى تقرير هذه الحقيقة العلمية يقول أحد علماء الغرب : وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية ، فأثبت تلقائياً وجود الإله ، لأن كل شيء ذى بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته ، ولابد أن يحتاج إلى المبدىء الأول وهو الإله الخالق سبحانه وتعالى ، وفى القرآن الكريم مصداق هذا حيث جاء فيه قوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ (١) .

ويحكم هذا القانون السابق الذكر ـ أيها الإخوان والأبناء ـ وهو قانون انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى غيرها ، وهى عملية مستمرة فإن هذه الطاقة ستنفذ فى يوم من الأيام وعندئذ تنتهى هذه الحياة ، هكذا يقول علماء الكون ، وهى نظرية سليمة غير أن نهاية الحياة أخبر عنها خالقها بأنها تكون عند نهاية الأجل المسمى لها ، ولا تكون بفقد الطاقة الحرارية ، ولكن باختلال الأفلاك ، كما قال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ **إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا** ﴾ (٢) ، ﴿ **إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت** ﴾ (٣) ، و ﴿ **إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت** ﴾ (٤) . بيد أن أولئك العلماء حسبهم أنهم قد أثبتوا بطريقتهم العلمية الخاصة حدوث العالم ، وعدم أبديته ، وأنه

---

(١) فصلت : ٥٣ .
(٢) الواقعة : ١ ـ ٦ .
(٣) التكوير : ١ ـ ٣ .
(٤) الإنفطار : ١ ، ٢ .

لابد من فنائه ونهاية هذه الحياة الدنيا .

وبعد هذا ـ أيها الإخوان والأبناء ـ فإن السؤال الملح وهو كيف كان بدء الوجود أو كيف كان هذا الكون ؟ وعند الجواب عن هذا السؤال انقطعت السنة الماديين من كونيين وغيرهم فلم يحاروا جواباً وأنى لهم أن يجيبوا بشيء سوى الهوس والتخمين والحدس ، أو الظن والكذب والخرص ، ومن تلك الظنون والتخرصات قول بعضهم : إن الأرض قد انفصلت عن الشمس شرارة ملتهبة ثم بردت بعد ملايين السنين وتحجزت وأصبحت ذات قشرة ترابية ، فتهيات بذلك للخلق والحياة عليها ، وأما الحياة فإنهم يقولون : إنها بدأت خلية بسيطة ثم أخذت تتطور وتتكاثر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن ، ثم لو سئلوا وقيل لهم : إذا كانت الأرض قد انفصلت عن الشمس ، والشمس قد انفصلت وسائر الكواكب والنجوم وهي ملايين بتقديراتكم عم كان انفصالها ؟ وخلية الحياة وهو يقولون : إنه لا يبعد أن تكون قد جاءت فى شكل جرثومة من بعض الكواكب الأخرى ، لم لا تكون إذا خلية أخرى قد وقعت على كوكب القمر مثلاً ونمت فيه كما نمت على الأرض ، وأصبح فى القمر عالم من الأحياء كعالمنا الأرض هذا ؟ وهم يقولون : القمر خال من الحياة حسب ما أودعوه من مشاهدة سطح القمر عند نزولهم على سطحه كما يزعمون !! والحمد لله القائل : ﴿**ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا**﴾ [(١)] . فقد أغنى سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن هذه الهواجس والوساوس والتخرصات والظنون ، حيث أخبر تعالى وهو الخالق عن كيفية خلقه الكون وكفى بمن خلق مخبرا ، وكيف لا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، إذ يقول تعالى : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون وجعلنا فى الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون**﴾ [(٢)] ويقول : ﴿ **قل أئنكم لتفكرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ [(٣)] هذا

(١) الكهف : ٥١ . (٢) الأنبياء : ٣٠ ـ ٣٣ . (٣) فصلت : ٩ ـ ١٢ .

خبره تعالى عن خلق الكون ، وأما عن خلق الإنسان والجان والحيوان والنبات فيقول تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ (٢) ، ويقول : ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ، منهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير** ﴾ (٣) ، ويقول : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا ، وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ (٤) .

أين هذا الإيمان الوافي والقول الشافي والنبأ اليقين في خلق الإنسان والكون من ذلك الهراء الخواء ، والخرص والتخمين ، بل الكذب والإفك المبين بينهما كما بين الوجود والعدم ، والسمع والصمم .

وأين ـ أيها الإخوان والأبناء ـ هؤلاء من أولئك ، هؤلاء هدوا بإيمانهم لمعرفة الحق فعرفوه وقبلوه وسكنت له نفوسهم وآثروه ، وأولئك ضلوا بكفرهم فآثروا العمى على الهدى ، فعارضوا العلم الحق بالشبهات ، وردوا اليقين بالشك واليمين .

المؤمنون أضاء لهم نور الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في آرائهم يعمهون ، وفي ضلالتهم يتهوكون ، وفي ريبهم يترددون والكافرين لاح لهم في بيداء الهوى سراب ، فجروا وراءه ظانين أنه الحكمة وفصل الخطاب ، ولما انتهوا إليه بعد كلال وجدوه خيبة أمل وسوء ما آل قال تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ...** ﴾ (٥) .

الثالثة : سر النظام في الكون

لقد أصبح ـ أيها الإخوان والأبناء ـ معلوماً بالضرورة لدى العالمين بأحوال الكون ، أن الكون كله علوية وسفليه مربوط بنظام دقيق هو غاية في الدقة ، فمن أكبر حجم فيه

---

(١) الرحمن : ١٤ ، ١٥ . (٢) الحجر : ٢٦ ، ٢٧ . (٣) النور : ٤٥ .
(٤) عبس : ٢٤ ـ ٣٢ . (٥) النور : ٣٩ ، ٤٠ .

ككوكب الشمس مثلا إلى أصغر شيء كنواة الذرة ، الكل مشدود بقوانين عجيبة ، ومحكوم بسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، كما صرح بذلك القرآن الكريم : ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾(١) ، ولو فرض أن سنة من تلك السنن التى تربط الكون قد اختلت لخرب العالم أجمع ، ففى العالم العلوى مثلا لو أن خللا طرأ على النظام الشمسى بخروج بعض الكواكب عن مسارها واصطدامها ببعض الكواكب الأخرى لكانت نهاية العالم ، ولو أن حرارة الشمس زادت نسبتها على ما هى عليه الآن بعض الزيادة أو نقصت على ما هى عليه بعض النقص لما أمكن الحياة على الأرض للاحتراق الذى يصيبها فى الحال الأولى ، أو التجمد الذى يصيبها فى الحال الثانية ، هذا فى العالم العلوى ، وفى العالم السفلى لو أن نسبة الأكسجين وهى واحد وعشرون فى المائة زادت على نسبة الهواء فكانت خمسين مثلا لاحترق كل شيء قابل للاحتراق ، كما أنها لو نقصت عن هذه النسبة المحددة لاختنق البشر ، ولم تمكن الحياة أبداً ، هذا مجرد مثال سقناه للأنظمة العامة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون وربط بها الحياة وجعلها متوقفة عليها ، وأما النظام الخاص والموضوع لكل كائن فى الحياة فهو نظام مدهش جداً ، إنه يوجد لكل كائن سنن خاصة به فى وجوده ، ونشأته ، وتطور حياته ، وفى طرق معاشه ، وإكتساب رزقه ، وسنن تناسله ، وحفظ نوعه ، وكيفية موته وفنائه ، وأكثر هذه السنن الخاصة بالأحياء معلومة لمن تأملها وفكر فيها ، ومن هذه السنن أذكر على سبيل المثال ثلاث سنن من سنن اللقاح فى الإنسان والحيوان والنبات . فأقول :

إن الميل الفطرى الذى يجده الرجل إلى امرأته ، والمرأة إلى زوجها ، وذلك الغشيان الخاص للنسل وحفظ النوع ، عمل يتم وفق سنة موضوعة للإنسان لحفظ نوعه ، ولتحقيق تعاون بين الزوجين ينتج عنه حفظ الأولاد وتربيتهم توجد الظاهرة التالية وهى أن الرجل يبقى فى حاجة إلى غشيان المرأة حتى فى حال حبلها بخلاف الحيوان فإنه إذا حبلت أنثاه عافها وتركها مما يدل على أنه مفطور على إتيانها لا لغريزة الشهوة المركبة فيه كما هو الظاهر فقط ، وإنما للنسل ، والذى بواسطته يتوفر للإنسان غذاءه من اللحم والدين ومشتقاته ، والصوف والشعر والوبر لفراشه ولباسه فى حين أن الحيوان ينصرف عن أنثاه فى حال حبلها ، وتنقطع المودة بينهما وذلك لعدم الحاجة إلى التعاون بينهما على تربية الولد وحفظه كما هى الحال فى الإنسان فى تربية أولاده وحفظهم ولعل هذه الظاهرة توجد فى الحيوان الذى يفتقر إليه ولده فى تربيته وحفظه إلى أمد معين . فسبحان من

---

(١) فاطر : ٤٣ .

أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

هذا ـ أيها الإخوان والأبناء ـ فى الإنسان والحيوان ، وأنه ليبدو معقولاً ، أما فى النبات فإنه والله لم يأخذنى العجب من شيء من ظواهر هذا الكون كما أخذنى من ظاهرة كيفية عملية لقاح شجر التين ، وحقاً إنها لظاهرة جد عجيبة تأخذ بلب وعقل المتأمل فيها ، الناظر إليها : إنه يوجد فى نوع شجر التين شجر منه يعرف بذكر التين ، وفى أواسط الربيع وبعد ما يورق كل من ذكره وأنثاه يخرج كل منهما حباً صغيراً هو ثمره المعتاد ، غير أن الملاحظ فى ذلك أن حب الذكر يكبر بسرعة حتى إذا ما تهيأ حب الأنثى للقاح حسب سنة الله تعالى فيه ، كان حب الذكر قد ينع فيأخذ الفلاح ثمرة الذكر اليافعة فيعلقها بأغصان الشجرة الأنثى فيخرج من حبة الذكر المعلقة ذباب صغير فى غاية الصغر ، ويعرف ذلك الذباب طريقه إلى حبة الأنثى فيدخل من مكان على سطحها قد أعد لذلك هو أشبه ما يكون بفرج حيوان ، فيدخل ذلك الذباب ، حاملاً معه مادة بيضاء قد علقت بجسمه الصغير ثم يخرج منها بعد أن يكون قد أتم عملية اللقاح ، ليدخل فى حبة أخرى ليلقحها ، وهكذا حتى يلقح عدداً كثيراً من حبات التين الصغيرة المهياة للتلقيح ، وبعدها يموت وقد أتم مهمته التى خلقه الله تعالى لها ، وهكذا ـ أيها الإخوان والأبناء ـ تتم هذه العملية المعقلة العجيبة التى هى من أقوى البراهين على وجود الله وعلمه وقدرته وعظيم تدبيره ، فسبحانه الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، والآن وأنا فى غاية التأثر والإعجاب بهذه الظاهرة الكونية فى لقاح شجر التين لا يسعنى إلا أن أسجل كلمة استودعها الله تعالى ليردها على يوم القيامة فينفعنى بها ، وهى أن ظاهرة كهذه فى لقاح هذا الشجر الطيب المبارك يستحيل أن تتم بالضرورة أو الصدفة أو الطبيعة كما يقول الملاحدة والطبيعيون : (وإنما ـ والله لا تتم إلا بخلق وتقدير وتدبير خلاق عليم مدبر حكيم وهو الله رب السموات والأرض وما بينهما ورب كل شيء ومليكه ـ الذى أشهد شهادة علم ويقين أنه الله الذى لا إله إلا هو القائم بالقسط العزيز الحكيم) .

وأخيراً : فهذا النظام فى الكون كله علوية وسفليه لم يكن إلا نتيجة قدر وعلم سبقاه ، فكان كل شيء فى هذا الكون على مقتضى ذلك التقدير الأزلى القديم الذى هو القضاء والقدر ، والذى لا يتم إيمان عبد مؤمن إلا به ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

القضاء والقدر

إخوانى وأبنائى ، لكى يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغى أن نرجع بالذاكرة إلى تلك المقدمات الثلاث ، وما سقناه فيها من أحاديث فى خلق الكون والنظام الذى ربط به ، والسنن التى تحكم كل أجزائه ، وما وقفنا عليه من عجيب الخلق والتدبير فى هذا الكون كله ، فى الإنسان فى الحيوان ، فى النبات ، فى الجمادات .

لقد رأينا أن النظام الشمسى فى غاية الدقة أن لكل كوكب من الكواكب بل لكل نجم من النجوم ، وهى ملايين مساره الذى يسير فيه ومداره الذى يدور فيه على مر هذه الحياة الطويلة ، ولم يقع أن خرج كوكب عن مداره الذى يدور فيه ، أو نجم عن مساره الذى يسير فيه ، إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود ، كما رأينا سنن اللّه تعالى فى حياة الإنسان ، والحيوان ، والنبات نشوءا وتطورا ، ونماء وبقاء وفناء ، وأن ذلك مربوط بسنن لا تتبدل وبذلك انتظمت الحياة فهى تسير إلى غايتها المحدودة لها ، وعرفنا أن هذا هو سر القدر وتفسيره .

ومن هنا صح لنا أن نعرف القضاء والقدر بأنهما علم اللّه تعالى الأزلى بكل ما أراد إيجاده من العالم والخلائق ، وتقدير ذلك الخلق وكتابته فى الذكر الذى هو اللوح المحفوظ ، كما هو حين يقضى بوجوده فى كميته وكيفيته ، وصفته وزمانه ، ومكانه ، وسبابه ، ومقدماته ونتائجه بحيث لا يتأخر شئ من ذلك عن إبانه ، ولا يتقدم عما حدد له من الزمان ، ولا يتبدل فى كميته بزيادة أو نقصان ، ولا يتغير فى هيئة أو صفة بحال من الأحوال ، وذلك أولا لسعة علم اللّه تعالى الذى علم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعظيم قدرته عز وجل والتى لا يحدها شئ ولا يعجزها آخر ، فما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن . وثانياً لربطه تعالى الوجود كله بقانون السنن الذى يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء ، هذان هما القضاء والقدر ، اللذان لا ينكرهما إلا مكابر مجاحد أو جاهل معاند ، إذ هما يتجليان فى شكل قوانين ثابتة فى كل كائن فى هذا الوجود من الفلك ، إلى النور والحلك ، ومن الإنسان إلى الحيوان ، ومن النباتات إلى الجمادات ، ولنستمع بآذان صاغية إلى الخلاق العليم والصانع الحكيم سبحانه وتعالى وهو يخبر عن قدره وحكمته فيه ، ومشيئته له وقضائه به : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك**

على اللّه يسير ﴾[1] ، ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾[2] ، ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين ، وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾[3] ، ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[4] ، ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾[5] ، ﴿ خلق كل شئ فقدره تقديرا ﴾[6] ، ﴿ وكان أمر اللّه قدرا مقدورا ﴾[7] ، ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾[8] .

هذا ـ أيها الإخوان والأبناء ـ ولم ينكر القدر ، والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر التى يستطيع أن يخرج عنها بحال من الأحوال ، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبنى منزلا أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة ثم يأخذ فى بنائه فيخرجه ـ إن كان قادراً عليما ـ صورة طبق الأصل ، فلا يتخلف شئ مما قدره فيه ، ولا يختلف فيه شيء عما رسمه له ، إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يستغرب منه ذلك ـ بل يحمد عليه ، ويثنى عليه به ، فكيف يستغرب مثل ذلك من اللّه الخلاق العليم ذى القوة المتين !

وإذا فكيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه ؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نذكر هنا أن القدر قدران : قدر سلمه وآمن به كل المؤمنين باللّه تعالى ولم ينكره أحد أو يمار فيه آخر ، وهذا النوع من القدر هو ما كان مثل خلق العالم وما فيه من سنن ، ويجرى فيه من أحداث كالحياة والموت ، والقحط والجدب ، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها ، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها ، وككونه يولد جميلاً أو دميما ، طويلاً أو قصيراً ، وفى زمن كذا دون غيره من الأزمنة فى بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً ، وككون القدر مضى بسعادة المرء أو شقائه ، كما مضى بتحدد رزقه وأجله ، فهذا النوع من القدر هو من مراد قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على اللّه يسير** ﴾[9] ، وقول الرسول ﷺ فى رواية الترمذى الصحيحة : « **اعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه اللّه لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشئ قد كتبه اللّه عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف** » .

وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به يجب الرضا به والتسليم للّه تعالى فيه فإنه

(1) الحديد : ٢٢ . (٢ ، ٣) الحجر : ١٩ ـ ٢١ . (٤) القمر : ٤٩ .
(٥) طه : ٤٠ . (٦) الفرقان : ٢ . (٧) الأحزاب : ٣٨ .
(٨) الأعلى : ١ ـ ٣ . (٩) الحديد : ٢٢ .

جار على وفق علم اللّه ، وبناء على مشيئته وحكمته ، وواقع على أساس تدبيره ملكه وخلقه ،، إنه ما من حادثة تحدث فى الكون إلا ولله تعالى فيها حكمة عالية مقصودة ، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدورة ، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضا ومطلق التسليم .

ثمرة الرضا بالقضاء

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة وثمرات طيبة ، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة : أنه يكسب صاحبه قوة الشكيمة ومضاء العزيمة ، إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ماأصاب المرء لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد وانتفى من حياته القلق والاضطراب ، لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه ، فى غير خوف ولا هيبة أو تردد ، ومنها : أنه لا يحزن على ماض ، ولا يغتم أو يكرب لحاضر ، ولا يؤلمه هم المستقبل ، وبذلك يكون أسعد الناس حالا ، وأطيبهم نفساً وأصلحهم بالا ، وأهداهم خاطراً ، ومنها أيضاً : أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلباً وأكرمهم قولا ونفسا من عرف أن أجله محدود ، ورزقه معدود ، فلا الجبن يزيد فى عمره ، ولا الشح يزيد فى رزقه نافس فى البطولات ، وسابق فى المكرمات ومما لا شك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة فى سلف هذه الأمة أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة فى نفوسهم قوية فى قلوبهم ، فقد فاقوا الناس شجاعة وكرما ، وصبرا وحلماً ومعرفة وعلماً ، الأمر الذى تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة .

والآن يحسن بنا أن نجيب عن السؤال الذى أرجأنا الإجابة عنه وهو : كيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه ؟ فيقول : لقد علمنا من الكلمة التى استطردناها هنا عند إرجائنا الإجابة عن هذا السؤال ، إن القدر الذى وجد بين المسلمين من ينكره ويجادل فيه ليس هو القدر العام الذى يشمل الكون كله ، وما يجرى فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها ولا قدرة على دفعها أو تغييرها إذ هى جارية على نظام السنن التى يقول تعالى فيها : ﴿ **سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾[1] ، وإنما هو القدر الخاص المتعلق بفعال العباد سيئها وحسنها ، صالحها وفاسدها ، وأول ما ظهر القول فيه كان على عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الراشد ، وذلك فى حدود المائة الأولى من الهجرة قال به وأظهره ودعا إليه غيلان الدمشقى حتى قتله هشام بن عبد الملك ، وهذا لا ينافى ما روى من أن القول بنفى القدر كان فى أواخر أيام الصحابة رضى الله عنهم ، إذ ما قيل فى تلك الأيام لم يعد كونه مجرد قول ، قاله فرد أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من

(١) فاطر : ٤٣ .

أصحاب رسول الله ﷺ ، كابن عمر ، وابن عباس رضى الله عنهم حتى قضوا عليه ، وأخمدوا فتنته إلى حين ، ونفى أولئك النفر للقدر معناه أن الأمور المتعلقة بأفعال العباد لم تقض أزلا ، ولم تكتب فى كتاب المقادير ولم يعلمها الله تعالى قبل اللوح المحفوظ ، ويبدو أن الطائفة التى قالت : بنفى القدر بهذا المعنى قد دحضت حجتها ، وذهب باطلها وانتهت ، لأن نصوص الكتاب والسنة فى إثبات القدر بمعناه الخاص والعام متكاثرة متضافرة بحيث يعد منكرها كافراً لا مقام له بين المسلمين ، وها نحن نورد تلك النصوص تسجيلاً لها فى هذا المقام بهذه المناسبة ليرتادها القلب كلما ران عليه من آثار الشبه التى لا تبرح تمن للقلب وتتواجد حوله للإغواء والفتنة ومن تلك النصوص قوله تعالى : ﴿ **إنا كل شئ خلقناه بقدر** ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ **وخلق كل شئ فقدره تقديرا** ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى** ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ، ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسيرا** ﴾ (٤) ، وقول الرسول ﷺ فى رواية مسلم : « إن الله تعالى قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » ، وقوله ﷺ فى رواية البخارى : « كان الله ولم يكن شئ معه ، وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شئ ، ثم خلق السموات والأرض » ، وقوله عليه الصلاة والسلام فى رواية أبى داود : عنوان ، فقال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى٥٧٧٥٧٧« أول ما خلق الله القلم يوم القيامة » ، وقوله ﷺ لبعض أهل بيته وقد لاموا أنسا فى بعض تقصيره فى إحضار شئ طلبوه منه : « دعوه فلو قضى شىء لكان » وقول ابن عمر رضى الله عنهما فى صحيح مسلم : وقد أخبر بأن ناساً يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف ـ قوله لمن أخبره بذلك : « إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أنى برئ منهم ، وأنهم برآء منى » ، والذى يحلف به ابن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه فى سبيل الله ، ما قبل ذلك منه حتى يؤمن بالقدر ، وقد تقدم حديثه عند الترمذى وفيه قوله ﷺ : « رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

غير أنه قد وجد فيما بعد من يقول بنفى القدر عن أفعال العباد ، فزعم أن العبد يخلق أفعاله بنفسه ، وأن الله تعالى لا دخل له فى ذلك ، ولا عمل ، وأن أفعال العباد [redacted] تقدر ، ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها ، وقالوا : كيف يفعل الله تعالى القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه ، وهذا هو أساس شبهتهم التى بنوا عليها مذهبهم فى كون الله تعالى لم يخلق

---

(١) القمر : ٤٩ . (٢) الفرقان : ٢ .

(٣) الأعلى : ١ ـ ٣ . (٤) الحديد : ٢٢ .

أفعال العباد ولم يقدرها ، وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله ، وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى ، وهى قولهم كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها ، وأصبحوا بهذا يعرفون بالقدرية أى نفاة القدر ، ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح ربا يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال ، وبطل بذلك التوحيد الذى هو أصل الدين وأساسه ، ومن هنا سموا بمجوس هذه الأمة لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم فى أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه ، لا بمقتضى قدرة اللّه تعالى وعلمه .

وعلى العكس من نفاة القدر كانت طائفة الجبرية من المعتزلة ، وأول من ظهر منهم الجعد بن درهم ، وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودى من يهود الشام ، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان رئيس الطائفة الجهمية نفاة الصفات المعطلين .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مذهب القدر كمذهب الجبر كلاهما من صنع اليهود ، لإفساد عقيدة المسلمين ، إذ سبق أن ذكرنا أن أول من قال بنفى القدر غيلان الدمشقى الذى قتله هشام بن عبد الملك ، ولا يبعد أن يكون غيلان هذا قد تلقاه من يهود الشام أيضاً .

وحقيقة الجبر : أن الإنسان لا يخلق أفعاله ، ولا ينبغى أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز ، فهى نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار إذ هى أفعال الله تعالى أجرأها على يد العبد ، بدون إرادة من العبد ولا اختيار ، ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله ، وأنه لا يعاب منه فعل ولا يلام عليه ولو كان فى غاية القبح والفساد ، ولذا كان هذا المذهب أفسد وشرا من سابقه المذهب القدرى المجوسى .

والذى ينبغى أن يلاحظ هنا أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً وفساداً من عقيدة نفى القدر ، فقد ظلت ظاهرة فى المسلمين سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها ، ولا رغبة لهم فيها ، ولعل السبب يعود فى ذلك إلى أن عقيدة الجبر تلقى التبعة عن العبد فيها يرتكب من المعاص ويقارف من الذنوب وتجعله معذوراً أمام نفسه ، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير :

أصبحت منفعلاً لما يختار   منى ففعلى كله طاعات

وكم قعد هذا المعتقد الخاطئ الفاسد بكثير من المسلمين عن العمل الجاد النافع فضعفوا وهانوا وأصيبوا بكل قاصمة لظهر ، حتى أصبحوا مضرب المثل فى العجز

والكسل والتخلف فى ميادين العمل والإنتاج ، ووجد ـ بسببهم ـ العدو الكافر مجالاً للطعن فى عقيدة الإسلام ، والاحتجاج على المسلمين فيما أصابهم ونزل بهم بسلوك هؤلاء الذين قتلهم معتقد الجبر ، وأفسد عليهم دينهم ودنياهم فأصبحوا يرون أحياء وهم أموات ويبررون موتهم وقعودهم عن كل خير يكسبه غيرهم ويسعد به فى حياته يبررونه بمثل قول شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون

جنون بك أن تسعى لرزق ... ويرزق فى غيابته الجنين

فلننظر كيف انتقل مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل لا يقود أهله إلا إلى خسران الدنيا والآخرة ، أرأيتم لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب ماذا كان يحدث فى الحياة ؟ كانت تنتهى ، وكفى ،،

فسبحان اللّه ! ماذا يفعل التضليل بالناس ، وهذا شأن كل المذاهب الهدامة التى هبطت بالإنسان إلى منزلة دون منزلة الحيوان ، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة فى العالم كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية والناقمين عليها ، ومن هنا فإنى لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر كمذهب التشيع كأكثر طرق التصوف ، الكل طبخ فى مطابخ اليهود وقدم طعاماً مسموماً للمسلمين ليموتوا به ، ويهلكوا عليه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

والآن حان لنا أن نعرض عقيدة القدر والقضاء عرضاً أكثر وضوحاً وتحديداً من ذى قبل وتحت عنوان :

لا جبر ولا نفى القدر .

الإنسان فاعل مختار .

واللّه خالق الإنسان .

وخالق أفعاله .

إنه قد صعب على غير الموفقين من الناس التوفيق بين كون الإنسان لأفعاله مريداً لها مختاراً فيها ، مهيأ للثواب عليها إن كانت خيراً ، وللعقاب عليها إن كانت شراً ، وبين كون اللّه تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها مع عدل اللّه ، وتنزيهه عن الظلم

أيضاً .

ومن هنا انقسموا فرقاً فقالت فرقة منهم : أن العبد هو خالق أفعاله بنفسه ، وليس للّه تعالى فيها دخل البتة ، واعتذروا بكون أفعال الإنسان منها ما هو شر قبيح ، ومثله ينزه عنه اللّه تعالى ، ولا تجوز نسبته إليه ، فالتزموا بناء على هذا بمبدأ نفى القدر عن أفعال العباد أى لم يعلمها اللّه أزلا ، ولم يقدرها ، ولم تكتب فى الذكر : كتاب المقادير ، ولزمهم فى معتقدهم هذا أن يكون للكون غير خالق واحد ، وهو رد صريح لقول اللّه تعالى : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ **واللّه خلقكم وما تعملون** ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ **ذلكم اللّه ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل** ﴾ [3] .

فكانوا بهذا مجوساً ، لإثباتهم خالقين مع اللّه تعالى فى الكون ، وقد روى أحمد وأبو داود بسند حسن أن النبى ﷺ قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » .

وقالت فرقة أخرى : بعكس ما قالت الأولى (القدرية) فكانوا على النقيض معهم ، إذ قالوا : إن العبد لا إرادة له فى أفعاله ولا اختيار ، وليس هو بالفاعل على الحقيقة أبداً ، وإنما الفاعل هو اللّه عز وجل ، وما ورد فى القرآن من نسبة الفعل إلى العبد كقوله تعالى : ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه اللّه** ﴾ [4] ، وقوله : ﴿ **واللّه عليم بما يفعلون** ﴾ [5] إلى غير ذلك من الآيات التى تسند الفعل إلى العبد خيراً كان أو شراً ، فإنما هى نسبة مجازية علاقتها السببية ، ولم تكن نسبة حقيقية أبداً ، إن هى إلا أفعال اللّه تعالى أجراها على يد العبد ، والعبد مجبور عليها غير مريد لها ولا اختيار له فى فعلها وتركها ، ولزمهم بذلك أن لا يكون فى فعل العبد قبح ولا حسن ، ولا خير ولا شر ، وبالتالى فلا حساب عليها ولا عقاب ، وبناء على مذهبهم هذا فإنه لم يبق من معنى لبعثة الرسل : وإنزال الكتب ، ووضع الشرائع ، ومن هنا كان هذا المذهب مذهب التعطيل والجبر ، أسوأ وأفسد من مذهب نفى القدر .

وقال فريق ثالث : إنه ما دام اللّه تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه فى قوله : ﴿ **إن اللّه لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ [6] ، ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ [7] ، وحرمه عليه وعلى عباده فى قوله فى حديث مسلم : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ،

---

(١) الأعراف : ٥٤ . (٢) الصافات : ٩٦ . (٣) الأنعام : ١٠٢ .
(٤) البقرة : ١٩٧ . (٥) النور : ٤١ . (٦ ، ٧) النساء : ٤٠ .

وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » فكيف يجوز إذا عقلا أن يكتب على العبد أزلا أعماله ليقوم بها حتماً ، ثم يؤاخذه عليها ، بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشجاعة وقبحاً فقالوا : ما دام اللّه تعالى علم مصير العبد وقرره حيث قدره بكتابته فى كتاب المقادير العام : اللوح المحفوظ ، وأصبح العبد لا محالة صائراً إليه شاء أم أبى أحب أم كره ـ فكيف يؤمر العبد إذا وينهى ويطالب بالطاعة وترك المعصية ، والأمر قد بت فيه وفرغ منه ، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير ، وتقرر له نهاية ، فبدل هذا يؤمر وينهى ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به ونهى عنه ، وعدمها ، هذا ملخص هذا المذهب الثالث ، وإنه ليبدوا أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه ، والقول بالجبر وعدمه ، ولزمهم فى مذهبهم هذا ما أصبحوا به شراً من إبليس ألا وهو الاعتراض على اللّه تعالى ونسبة الظلم إليه ، وهو المنزه عن الظلم ، البعيد عن كل نقص ، سبحانه لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وأخيراً : قد يحسن أن نسمى هذه الفرقة الحيرى المترددة بالإبليسية وإن كانت شراً من إبليس .

وهدى اللّه أهل الإيمان والتقوى إلى الحق الذى اختلفت فيه تلك الفرق فصلت عنه وجانبته وعاشت بعيدة عنه وهى ما بين مجوسية نافية لأقدار اللّه تعالى مثبتة باطلاً فى العالم متعددين ولا خالق إلا اللّه سبحانه وتعالى ، وبين جبرية معطلة لشرع منكرة للعقل ، وبين إبليسية معترضة على اللّه تعالى فى قدره نافية لمشيئته وحكمته شاكة فى عدله ورحمة قضائه .

هداهم ـ أى أهل الإيمان والتقوى ـ إلى الحق بإذنه فآمنوا بقضاء اللّه وقدره ، وعدله ورحمته ، وإرادته ومشيئته وحكمته ، وحسن تدبيره ، فقالوا : لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بقدر اللّه ، ذلك القدر الذى هو سر لنظام الحياة ، وهو علم اللّه الأزلى وتقديره لكل شئ وكتابته فى اللوح المحفوظ ، فلا يزيد شئ عما كتب ولا ينقص ، الأحداث الصغار التى تجرى فى الكون كالأحداث الكبار ، والأعراض والصفات : كالأجسام والذوات ، كل شئ منذ كان الكون ، أو سيكون إلى انقراض الكون قد جرى به العلم ومضى فيه التقدير وكتب فى الذكر حتى عجز الخاملين ، وكيس النابهين ، روى مسلم فى صحيحه عنه ﷺ قوله : « عنه كل شئ بقدر حتى العجز والكيس » . وأخرج الشيخان عن على رضى اللّه أعنه ن النبى ﷺ قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » ، وقالوا يا رسول اللّه : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : « اعملوا فكل

ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة ، ثم قرأ : ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى** ﴾ (١) الآية ، كما روى البخارى أن النبى ﷺ قال لأبى هريرة : « جف القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو ذر » .

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء والقدر والعدل والإرادة والمشيئة والحكمة ، ولم يصعب عليهم كما صعب على غيرهم التوفيق بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى له ، وكتبه عليه وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء ، وبين كون العبد فاعلا لفعله مريداً له مختارا فى فعله وفى تركه ، يحاسب به ويجزى عليه ، ولا بين كون العبد فاعلا لفعله وبين كون الله تعالى خالقا للعبد وخالقا لفعله ، ولا بين كون الله تعالى يقضى العبد ما شاء من قضاء ، ثم يأمره وينهاه ويجزيه حسب عمله الذى قدره له وكتبه له .

فقالوا : إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير وشر ، وسعادة وشقاء قد قدره مربوطا بأسبابه ، فاللخير أسبابه وللشر أسبابه كما قدر أن العبد يأتى تلك الأسباب ويعمل بها بمحض إرادته التى قدرها له ، وحرية اختياره الذى قضى له به ، فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقدر له من سعادة أوشقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التى يفعلها غير مكره عليها ، ولا مجبور على فعلها ، والحجة ، فى ذلك قول الرسول ﷺ : « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار » رواه مالك وغيره . ودلالته ظاهرة فى أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلاً السعادة أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التى تسعد أو تشقى ، تلتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب ، كما أن الاستدلال بنظام الكون العام له وجه أيضا فإن الإنسان جزء من الكون كله ، والكون جميعه مربوط بسنن وقوانين تحكمه إلى نهاية أجله فلم لا يكون ـ إذا ـ الإنسان كذلك ، مبدؤه وسعيه مصيره مربوط كذلك بسنن تحكمه لا يمكنه الخروج عنها بحال من الأحوال ، وهى نظام القضاء والقدر ، وما الفرق بين الإنسان والكون إلا أن الإنسان منظور فى سعيه إلى إحدى غايتين : السعادة أو الشقاء فهو واصل بسعيه إلى إحداهما لا محالة ، فلذا اختلف سعيه عن سعى غيره من سائر الخلق ، ومن أجل هذا أعطى قدرا زائدا عن سائر الخلق وهو الإرادة

(١) الليل : ٥ ، ٦ .

والاختيار فى سعيه فالكون من غير الإنسان يسعى مسعاه الذى قدر له لا يخرج عنه ، لأنه غير منظور فى سعيه إلى إحدى الغايتين ، وإنما إلى غاية واحدة لا تتخلف فلذا لم يعط إرادة ولا اختيارا ، وكان بعكسه الإنسان الذى أعطى الإرادة والاختيار فتحمل بها الأمانة بعد أن رفضها الكون كله : ﴿ **إن عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ (١) .

إن الإنسان مخلوق لله تعالى مربوب له كسائر الخلق ، كالشمس والقمر والنبات والحيوان ، يقوم بفعله كما تقوم سائر المخلوقات بما أناط بها ربها تعالى من أفعال تقوم بها ، وإنما الفرق بين الإنسان وسائر الخلق أن الإنسان أعطى إرادة واختيار العلة التكليف والجزاء عليه بخلاف غيره فإنه لا جزاء له على عمله الذى يقوم به لعدم منحه إرادة حرة واختيارا كاملا ، إن شاء فعل ، وإن شاء ترك ، فيصل إلى إحدى غايته بما أراد من عمل واختياره لنفسه بمحض إرادته واختياره .

ومن هنا لو أن العبد أكره على عمل وأجبر عليه لم يترتب عليه حساب ولا جزاء بثواب أو عقاب ، لعلة فقده الإرادة والاختيار التام .

وبهذا تم لأولئك الموفقين التوفيق بين كون فعل العبد قد قضاه الله تعالى أزلا على العبد ، فهو فاعله لا محالة ، وبين كون العبد مريدا لفعله مختارا له يثاب على حسنه ويعاقب على سيئه .

وقالوا : فى كون العبد فاعلا لفعله قائما به ، والله خالقه وخالق فعله : إن الكون كله مخلوق لله تعالى وليس ثم من خالق غيره سبحانه وتعالى : ﴿ **ذلكم الله ربكم خالق كل شىء** ﴾ (٢) ، والإنسان من جملة أجزاء الكون المخلوق فهو إذا مخلوق والله خالقه وخالق الكون كله ، وهل المخلوق يخلق ؟ اللهم لا ، إن الأفلاك تدور ، والكواكب تسير ، والشجر ينمو ، والحيوان يعمل عمله ، فيأكل ويشرب ويتوالد ، فهل يقال لهذه المخلوقات من الكون : إنها خالقة لأفعالها ؟ أم الله هو الذى خلقها وخلق أفعالها وإذا كان الجواب واحداً وهو أن الله تعالى هو الذى خلقها وخلق أفعالها فبأى منطق نخرج أفعال العباد عن هذا الحكم العام ؟ والإنسان من جملة أجزاء الكون مربوط بنفس السنن التى تربط الكون ، أم من أجل كون الإنسان مريدا لأفعاله مختارا لها ، فإن ذلك منحه دون

---

(١) الأحزاب : ٧٢ . (٢) غافر : ٦٢ .

سائر الخلق لعلة أن يثاب على فعله أو يعاقب فقط ، وليس بمخرجه عن كونه عبدا لله ربوبا ، الله خالقه وخالق أفعاله ، كما خلق غيره وخلق أفعاله وسائر المخلوقات فى الأرض والسموات.

وبهذا تقررت هذه الحقيقة وثبتت ناصعة وهى أن الإنسان فاعل لأفعاله ليس خالقا لها ، والله خالق الإنسان وخالق لأفعاله ، ونزيد الأمر توضيحا ، والحقيقة تقريرا فنقول أليس الإنسان ينطق ، ويسمع ويبصر ويعقل والله هو الذى جعله كذلك ؟

أليس الإنسان يذهب ويجئ ويأخذ ويعطى ، ويرفع ويضع والله هو الذى أقدره على ذلك ؟

أليس الإنسان يحب ويكره ، ويريد ويشاء ويختار والله هو الذى هيأه لذلك ؟

إذا فما دام الله تعالى ، هو الذى جعله وأقدره ، وهيأه لكل أفعاله تلك فهو خالقه وخالق أفعاله بلا جدل ولا يراع ، وكل ما فى الأمر أن الإنسان مريد لأفعاله الإرادية ، مختار لها والله هو الذى جعله كذلك لعلة الابتلاء والجزاء ...

وهنا يقال للذى لا تنتهى وساوسه فى هذا الباب : يا عبد اخسأ ، لا تعد قدرك! ولا تعترض على ربك ، إنك تسأل ولا يسأل ، خلقك ولم تخلقه ، كنت به ، وكان ، ولم تكن...

وقالوا : فى كون الله تعالى قدر للعبد أزلا ما شاء من قدر وقضى به عليه ، ثم هو يأمره وينهاه ويجزيه بحسب استجابته لأمره ونهيه وعدمها ـ قالوا :

أولا : إن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، له الملك وله الحمد ، ولا يسأل عما يفعل وذلك لكمال علمه وعدله وحكمته ورحمته .

وثانيا : أن فعل الله وتقديره وحكمه كله عدل وخير ، فليس فى أفعال الله تعالى ، ولا تقديراته ولا أحكامه ظلم ، أو شر قط ، قضى بهذا العقل وصح به النقل فهو سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ [1] ، ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ [2] ، ورسول الله ﷺ يقرر هذه الحقيقة فيقول : « والخير بين يديك ، والشر ليس إليك ... »

---

(١) النساء : ٤٠ . (٢) فصلت : ٤٦ .

إن الظلم والشر وإرادتهما لم تكن من صفات المحدثين وسمات المخلوقين ، أما ذو العرش المجيد الفعال لما يريد الغنى فقد تنزه عن الظلم وفعل الشر ، وكيف وهو الزمر بالعدل فى قوله : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[1] ، والناهى عن الظلم فى قوله : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » ، والمرغب فى فعل الخير بقوله ، ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾[2] ، والآمر به فى قوله : ﴿ **وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** ﴾[3] .

وثالثا : ما هو الظلم ، وما هو الشر ؟ أليس الظلم فى مفهوم كل العقلاء هو وضع الشئ فى غير موضعه ، وأن الشر هو كل فعل خلا من نفع أو زاد ضرره عن نفعه ، بلى ...

إذا فهل تعذيب عاص متمرد على ربه فاسق باختياره وإرادته عن أمر مولاه ، عازم على مواصلة الفسق مصمم على المعصية ولو عاش دهر الدهارير ، وأبد الآباد وما يحدث نفسه بالتوبة ولم يردها وهو قادر عليها بما وهبه الله من قدرة وما منحه من إرادة .

فهل يا معشر العقلاء تعذيب هذا الإنسان يعد ظلما وشرا ؟ اللهم لا ...

رابعا : إنه بحكم ملكية الله تعالى لعباده بخلقه إياهم ورزقه لهم ، وتدبيره لأمورهم له الحق المطلق أن يتصرف فيهم بما يشاء فلو عذبهم أجمعين لما كان ظالما لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا من أعمالهم ، وبهذا صح الخبر ، إذ روى أحمد وأبو داود وابن ماجة بسند لا بأس به عن زيد بن ثابت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قوله : « لو أن الله عز وجل عذب أهل السموات ، وأهل الأرض عذبهم ، وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهبا فى سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار » .

وخامسا : **أن الله تعالى لما قدر مقادير العباد من عمر ورزق وسعادة وشقاء ، قدر ذلك مع موجباته وأسبابه ، بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه ــ إلا أن شاء الله ــ** كما هى الحال بالنسبة إلى سائر أجزاء الكون فإن الكل مربوط بنظام السنن محكوم

---

(١) النحل : ٩٠ .　　(٢) البقرة : ١٩٧ .　　(٣) الحج : ٧٧ .

بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة ، ويشهد لهذه الحقيقة مثل قول الرسول ﷺ : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » ـ من حديث ابن مسعود عند مسلم ، والشاهد من الحديث إثبات نظام الأسباب ، فلما كان لدخول الجنة أسباب ولدخول النار أسباب ، فإن العبد مهما عمل بخلاف أسباب سعادته أو شقائه فإنه لا بد فى النهاية أن يعمل مريدا مختارا بأسباب ما كتب له أو عليه فى كتاب المقادير ليوافق علم الله وتقديره ، وهو فى نفس الوقت مريد مختار لم يكره على ما فعل ، ولم يجبر على ترك ما ترك .

إن هذه الحقيقة مدهشة حرية بالوقوف عندها ، والتفكير فيها ، إنى لا أشك فى أن عبدا أدرك كنه هذه الحقيقة العظيمة إدراكا صحيحا سليما ، ثم لا يتصدع أمام عظمة الله ولا يخر ساجداً بين يديه . وبيان هذه الحقيقة أن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الكون بخمسين ألفا من السنين علم أنه سيخلق فى يوم كذا ، وتاريخ كذا ، فى مكان كذا وكذا ، عبدا اسمه كذا ووصفه كذا وكذا ، وعلمه الذى سيختاره بمحض حريته هو كذا وكذا ، ليتحقق له به كذا وكذا من خير أو شر سعادة أو شقاء وكتب كل ذلك فى كتاب عنده وفى نفس الوقت المعين ، والمكان المحدد يوجد ذلك العبد ويربيه إلى غاية بلوغه أشده وهو صحيح الحواس سليم العقل ، ثم تعرض له أمور متعددة ، وأحوال مختلفة فيختار منها ما يراه لنفسه وهو بعيد عن كل إكراه أو جبر ، فيفعل الذى اختاره لنفسه بكامل إرادته واختياره ثم يجد نفسه بالتالى قد وافق ما كتب له فى ذلك الأزلى القيم ، ولم يخالفه فى شئ ولم يخطئه فى قليل أو كثير فسبحان من هذا عامه ، وهذه قدرته ... سبحان الله العظيم ، سبحان ذى العز والجبروت ، والملك والملكوت والكبرياء والعظمة .

إرادة الله تعالى ومشيئته

إن مما له صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر ـ مسألة الإرادة والمشيئة ، فلنسمع كلمة فى هذا الموضوع تبين وجه الحق فيه ، وتهدى للتى هى أقوم فى هذه المسألة الخطرة من مسائل الاعتقاد المهمة وكلمتنا فى هذا تدور حول شيئين : الأول ـ إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته بالبرهانين النقلى والعقلى ، والثانى ـ إن إساءة فهم إرادة الله تعالى أوقع كثيرين فى ضلال مبين ، وخطأ وشر عظيمين .

أما إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته فيكفى فى ذلك سرد الأدلة السمعية وهى أخباره تعالى وأخبار رسوله ﷺ ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ (٢) ، هذا فى إرادته ، ويقول فى مشيئته : ﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون** ﴾ (٣) ويقول : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ (٤) ، يقول الرسول ﷺ **فى إثبات إرادة الله تعالى** « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ويقول **فى إثبات مشيئته تعالى** : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » إن فيما ذكرناه من أخباره تعالى وأقوال رسوله ﷺ وهو قليل من كثير ، لدليل كاف فى إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته سبحانه وتعالى ولنشفع هذا الدليل السمعى بدليل عقلى فنقول : إن كون الله تعالى خالق كل شىء وربه ومليكه مستلزم لإرادته تعالى ومشيئته ، إذ لو لم يكن مريدا لكان مكرها ولو كان مكرها لما تأتى له إيجاد العوالم ، والتصرف فيها ، وتدبيرها بمقتضى الحكمة والمصلحة ، كما أن كون الإنسان مريدا شائيا مقتض إرادة الله تعالى ومشيئته إذ من غير المعقول أن يكون المخلوق مريداً شائياً ، ويكون الخالق لا إرادة له ولا مشيئة ، بل العقل يقضى بإثبات إرادة الخالق ومشيئته مخلوقتان معه ، فلذا ما أراد المخلوق شيئا ولا شاءه إلا وقد أراده الخالق وشاءه قبل ذلك وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق مستقلا بالأمر عنه ، وهو محال عقلا وشرعا ، قال تعالى :

---

(١) البقرة : ١٨٥ .
(٢) النحل : ٤٠ .
(٣) الأنعام : ١١٢ ، ١٣٧ .
(٤) التكوير : ٢٩ .

﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾ (١) ، وقال : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ (٢) .

هذا فى إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته ، وأما عن إساءة فهم كثير من الناس لهما ، وما ترتب على ذلك من ضلال وشر وفساد ، فإننا نقول : إنه من غير المجازفة فى الكلام أن قلنا : أنه ليس هناك فى المؤمنين من ينفى إرادة الله تعالى ومشيئته ، وإنما هناك سوء فهم لهما ترتب عليه ضلال لايقل خطورة عن ضلال أهل الجبر ونفاة القدر ، وهذه المسألة أيضا الناس فيها طرفان ووسط فهى نظير مسألة القضاء والقدر ، وقد تقدم بيانها بما فيه كفاية من أخذ الله بيده فحماه من زيغ القلوب وضلال العقول ، فالوسط نجا هنا كما نجا هناك ، والطرفان ضلا هنا كما ضلا هناك والله المستعان ، وهذا بيان ضلال القوم : إن الطرفين منهما مفرط ومنهما مفرط ، فالطرف المفرط هو من زعم أن لا إرادة يخضع لها ، ولا مشيئة إلا إرادته هو ومشيئته ، فجميع أفعاله فى زعمه لا تخضع إلا لإرادته وحده ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما أكره على قوله أو فعله بقوة سلطان قاهر له ، فألجأه بالقوة المادية إلى قول ما لا يريد أو فعله ، وما عدا ذلك من تصرفاته فهو لا يخضع إلا لإرادته ومشيئته فقط وهذا الضلال فى هذه المسألة هو ضلال الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود الله تبارك وتعالى ولا بسلطانه على خلقه .

بيد أن شاركهم فيه طائفتان من المؤمنين ، إحداهما ، تقول : إن الله تعالى منزه على أن يريد ضلال ضال ، أو كفر كافر ، أو يشاء فعل الفواحش ، وارتكاب القبائح ، فنفوا بهذا إرادة الله تعالى ، ومشيئته فى أكثر حوادث العالم الجارية فيه ، ولزم هذا أن الله تعالى قد يقع فى ملكه ما لا يريد ، وأن هناك مشارك له فى خلق الحوادث ، وإيجادها بإرادة مستقلة عن إرادة الله تعالى ، وهذا قطعا ضلال وشرك يتبرأ منهما ويستعاذ من مثلهما ، وقالت الأخرى وهى مما لا رأى لهم فى هذا الموضوع ولا علم وإنما هى مجموعة من جهلة المسلمين ومقلدهم ، وأكثرهم من مثقفة المستغربين ، قالوا : إنه لا دخل لمشيئة الله تعالى فى أفعالنا ، وإنما مرد أفعالنا إلى إرادتنا الخاصة ومشيئتنا ، فما شئنا فعلناه ، وما لم نشأه لم نفعله ... ولذا نراهم ينكرون بشدة على من يقول سأفعل كذا غدا إن شاء الله ، ويردون عليه فى غضب وزمجرة لا تقل : إن شاء الله ، قل : سأفعل فقط ، لا تقل لنا : إن شاء الله هذه الكلمة خليها جانبا ، وقل : سأفعل كذا وكفى ...

(١) النحل : ١٧ .   (٢) التكوير : ٢٩ .

ومن مظاهر ضلالهم هذا أن أحدهم يتكلم بأخبار مستقبلة خالصة فلا يقيد خبرا واحدا منها بمشيئة الله تعالى ، فيخبر أنه سيسافر ، أو يبيع أو يشترى ، أو يبنى أو يهدم أو يأخذ أو يعطى ، ولا يقيد من ذلك بمشيئة الله شيئا ـ بل يطلق أقواله إطلاق من لا يؤمن بغير إرادته ومشيئته ، ولا أدل على ذلك من أن مذيع النشرات الجوية فى أغلب الإذاعات والتلفزات الإسلامية من عربية وعجمية ، يطلقون أقوالهم جازمين بوقوع مداولاتها كأن الأمر لهم وحدهم وليس لهم فيه مشارك فيقول أحدهم : ستهب الرياح غدا شرقية وغربية ، وستنزل أمطار غزيرة فى منطقة كذا ، وستتراكم السحب على كذا وتنزل ضخات من مطر خفيف إلى غير ذلك من أخبارهم اليومية ، ولم يقيدوا منها شيئا بمشيئة الله تعالى ، فدل ذلك على عدم إيمانهم بمشيئة الله تعالى ولا إرادته ، ولا أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومن كان بينهم يؤمن بإرادة الله ومشيئته فإنه يترك الاستثناء بمشيئة الله تعالى ، خوفا من الملاحدة حوله أو مجاملة لهم فيصبح قرينا لهم فى الشرك والضلال ، هذا حال الطرف المفرط ... وأما الطرف المفرط ، وهو لا يقل ضلالا وباطلا عن مقابله فإنه يهدر ما منح الله عبده من إرادة ، وما وهبه من مشيئة تليق بآدميته ، وتتفق مع ما هيأه له من التكليف الذى يتقرر به مصيره فى الحياتين كما سبق بيانه عند الكلام على القضاء والقدر ، فقالوا : إنه لا إرادة لعبد ولا مشيئة البتة ، وإنما الإرادة والمشيئة لله تعالى وحده ، وأنكروا أن يكون للعبد إرادة أو مشيئة ، فساقهم هذا المعتقد الفاسد إلى ضلال لا حد له ولا حصر ، حتى أصبحوا به معطلة أسوأ حالا من الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا بشرعه أو لقائه ، وانعكست عندهم الأمور واختلطت الأشياء ، فأصبح القبيح عندهم حسنا ، والحسن قبيحا ، والكفر كالإيمان ، والفسق كالفجور ، فكل عامل هو مطيع لله سواء من عمل بطاعته أو عمل بمعاصيه ، الكل مبرأ من تبعة عمله وجريرة فعله ، فلا ذنب ولا وزر ، ولا عذاب ولا عقاب ، وذلك لأن كل عامل هو يعمل بإرادة الله تعالى ومشيئته ، لا بإرادة نفسه ومشيئته ، فالعبد لا إرادة له ولا مشيئة ، ولنستمع إلى أحدهم وهو يترجم هذا المذهب الفاسد القبيح فى بيت واحد من العشر فيقول :

أصبحت منفعلا لما يختاره منى ففعلى كله طاعات .

ومبنى هذا المذهب الباطل الذى أهدر ما وهب الله من إرادة ومشيئةوأهدر بالتالى كل القيم والشرائع مبناه على قاعدة تقول : العبد الفاعل مطيع للإرادة موافق للمراد ، يريدون إرادة الله ومراده ، وعليه فلم يبق ذنب ولا مذنب على وجه الأرض ، إذ الناحر

للإنسان مطيع للديان ، والصائم الظمآن موافق لمراد الرحمن ، فهما إذا في هذا المذهب متساويان .

ودون هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت كذلك مبدأ الإرادة للإنسان ولا مشيئة ، ولكن لا عن علم وفهم وإنما اتباعا للهوى ، وجريا وراء الشهوات ، فإن أحدهم يأتي ما يأتي من الباطل ، ويرتكب ما يرتكب من الذنوب ، وإن قيل له في ذلك ، قال : هذه إرادة الله ومشيئته ، ولو شاء الله ما فعلت وإنما أنا عبد لا أخرج عن إرادة الله ومشيئته . وهذه حال كثير من المسلمين اليوم وقبل اليوم ومنذ فشا الفساد في عقائد الأمة وانتشر الزيغ في صفوفها نتيجة عمل يد الهدم والتخريب التي ما برحت تطعن في جسم أمة الإسلام حقداً عليها وحسدا لها ، ولو كان هذا القول منهم نابعا من اعتقاد صحيح : وهو أنهم خاضعون لمشيئة الله وأقداره فيهم لكان حسنا منهم وصح لهم ، ولكنه لا صلة له بقلوبهم البتة ، وإنما هو مجرد قول يلوكونه بألسنتهم لدفع المذمة عنهم ، والملامة عليهم ، فكان شأنهم شأن المشركين الذين حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء** ﴾ (١) ، فإنهم لما دعوا إلى عبادة الله تعالى وحده ، وإلى ترك التحريم لما أحل الله تعالى من بحائر الإبل وسوائبها ، احتجوا مبررين شركهم وافترائهم على الله بمشيئة الله وأنه لو شاء الله عدم شركهم لما أشركوا ، ولو شاء عدم تحريمهم لما حرموا ، ولم يكن هذا منهم إلا دفاعا عن باطلهم وضلالهم ، وما كان أبدا عن اعتقاد صحيح بأنهم خاضعون لأقدار الله ، عاملين بمراده ، طالبين لرضاه نازلين عن مشيئتهم لمشيئته ، إذ لو كان هذا هو المراد من قولهم لكانوا مؤمنين صادقين ، وكان من السهل إقناعهم بترك الشرك بالله والافتراء عليه ، لأن الله تعالى حرم ذلك ونهى عنه ، ولو كان مرادا له محبوبا لديه لما نهوا عنه ولا ما حرمه .

وهنا يحسن التذكير بقاعدة جلية وحكمة ثمينة ، وضعها الهداة المهتدون من فرقة الوسط الناجون وهي لا يحتج بالإرادة والقدر على المعائب ، ولكن يحتج بهما على المصائب ، فالمعائب وهي الذنوب والمعاصي ما دام الله تعالى قد حرمها على عباده ، وكرهها لهم ، ، ومنهم وأنزل بذلك كتبه وبعث رسله ، فإن العبد إذا غشيها مريدا وتلبس بها مختارا لا يصح عقلا أن يحتج بالقدر الذي هو علم الله وتقديره لأحداث الكون خيرها وشرها ، وكتابتها في الإمام المبين بخلاف المصائب التي تصيب المرء ولم يكن قد

---

(١) الأنعام : ١٤٨ .

تسبب فيها بترك طاقة ، أو مخالفة سنة من سنن الله الشرعية أو الكونية ، فإنه قد قيل له فى ذلك : صح منه الاحتجاج بالقدر والإرادة الكونية ، إذ لم يكن ذلك بإرادة منه ولا اختيار ، كالرجل يسقط عليه جدار أو تلسعه حية ، أو تنقلب به سيارة ولم يكن قد علم بتصدع الجدار وجلس تحته ، ولا بوجود الحية ونام عليها ، ولا تجاوز حد السرعة المعتادة لسيره ، أما إن تسبب فى هذا فلا حق له فى الاحتجاج بالقدر بل عليه أن يتحمل نتائج معصيته ، ومعاقبة ربه له بمخالفة سننه وإهماله الأسباب المشروطة لسلامتها .

وبالمناسبة يذكر هنا احتجاج آدم وموسى عليهما السلام ، فإن موسى عليه السلام قال لآدم لائما له : أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فرد عليه آدم عليه السلام محتجا على المصيبة التى شكاها موسى ، وهى الخروج من الجنة قائلا : أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ، فحج آدم موسى وغلبه فى الحجة ، لأن المصائب يحتج فيها بالقدر بخلاف المعائب ، لأن المصيبة لم يردها الإنسان ولم يأتها مختارا لها مؤثرا إياها ، وإنما تقع عليه بدون علم منه ، ولا إرادة ولا اختيار ، فيحسن الاحتجاج عليها بالقدر تخفيفا من آلامها ، وثقل وطأتها على النفس المصابة ، أما المعائب أى الذنوب فإن العبد يأتيها مريدا لها وهو يعلم أن الله حرمها وكرهها ، فإذا فعلها لم يصح منه عقلا ولا شرعا أن يحتج عليها بإرادة الله وقدره بحال من الأحوال .

وقد يكون من اللائق هنا رواية حديث احتجاج موسى وآدم ـ عليهما السلام ـ لسماع نصه كاملا كما رواه الشيخان إذ جاء فيها عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال آدم : أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وأعطى لك التوراة بيده ، أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أنْ يخلقنى بأربعين سنة ، فقال النبى ﷺ : « فحج آدم موسى » وقد روى الحديث بألفاظ أخرى نكتفى بهذه من بينها والله المستعان .

سوء فهم إرادة الله تعالى أوقع الكثير فى الحيرة والخطأ

قد ثبت بالتجربة والملاحظة أن خللا بسيطا يقع فى جهاز ضخم كطائرة الكونكورد الفرنسية البريطانية ، أو بناية كبرى كناطحات السحاب الأمريكية قد يفسده ويدمره ويحيله إلى خراب ودمار ، وكذلك فهم عقيدة القدر والإرادة والمشيئة إذا وقع فيه أدنى انحراف ، وبأى وجه أو صورة أوقع صاحبه فى ضلال وخطأ لا حد لهما ، إن أكثر الذين تبلبلت أفكارهم ، واضطربت نفوسهم فى عقيدة الإرادة والمشيئة من المسلمين كانوا ممن

غفلوا عن كون القدر هو نظام الحياة الذى يحكمها من نواتها إلى نهايتها ، وأنه يجب أن يمضى كما علم وكتب ، وأن تغيير شيء منه معناه خراب الحياة بكاملها و لذا تحتم على العبد التسليم به وله ، وحرم عليه إنكاره ، والاعتراض عليه ، كما لا يحل بحال الاحتجاج به ، أو الاتكال عليه ، هذا هو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

أو كانوا ممن جهلوا أن إرادة الله تعالى ومشيئته منها تنقسم إلى إرادة كونية قدرية ، وهى تلك التى لا يناط بها تكليف الإنسان ، ولا إثابته ولا معاقبته ، وهى الإرادة التى كان بها القدر ونظامه ، والتى لا حق للإنسان أن ينظر إليها بغير عين الرضا والتسليم ، وإلا أصبح محاربا لله معارضا لنظامه ، يدعى السمو إليه والتعالى عليه ، وهو مخلوقه الذى لا غنى به عنه حتى فى أنفاسه التى يرددها والهواء الذى يتنفس فيه ، والضوء الذى يبصر به ، والظلام الذى يهجع فيه .

وإلى إرادة شرعية دينية وهى التى أناط بها سبحانه وتعالى تكليف الإنسان وثوابه ، وهى التى يجب على العبد أن ينزل عليها ، ويطيع ربه فيها كما يحرم عليه التمرد عليها والخروج عنها ، وهى التى قد نزلت ببيانها وتفاصيلها كتب الله تعالى ، وبعثت للدعوة إليها وتعليمها رسل الله ، وهى جميع ما شرع الله لعباده من عقائد وعبادات ، وأحكام وحدود وآداب ، ومحاسن أخلاق ، وهى التى من أجلها منح الله تعالى العبد ما منحه من القدرة والإرادة ، والمشيئة والاختيار ، ليبتليه مختبرا له أيستجيب لما أراده ربه منه وشاءه له من عبادته وطاعته ، أم يرفض الاستجابة فلا طاعة ولا عبادة : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا** ﴾[1] ، وهى الإرادة التى قد يختلف فيها مراد الله تعالى ومحبوبه ، فيأمر بها عباده وينهى ، ومنهم من يمتثل ومنهم من لا يمتثل فقد أمر الله تعالى عباده بالإيمان به وبرسله وبطاعته وطاعة رسله ، وأحب لهم الطاعة والإيمان وكره لهم الكفر والعصيان ، وبما منحهم من القدرة والإرادة والمشيئة أمكنهم من أن يمتثلوا ، أو يرفضوا بمحض إرادتهم وكامل اختيارهم ، ليترتب على ذلك جزاءهم بإثابة المحسنين ، وعقوبة المسيئين .

هذه هى الإرادة الدينية الشرعية كما ينبغى أن تعلم ، وأما الإرادة الكونية القدرية ، والتى سبق بيانها فإن الله تعالى لم يجعل للعبد قدرة على الخروج عنها والتمرد عليها بحال من الأحوال ، لأنها لا تتعلق بأفعال العبد الإرادية الاختيارية التى هى التكليف والجزاء ، إلا

---

(١) الإنسان : ٢ ، ٣ .

من حيث أنه تعالى شاءها أن تكون أزلا كذلك فكانت ، طردا لعموم إرادته حتى لا يخرج شيء من الكون عنها .

وزيادة فى إيضاح الإرادة الكونية والتى لا سبيل للإنسان إلى الخروج عنها نقول : فهل يمكن للإنسان أن يرفض أن يكون ذكرا إذا كان أنثى ، أو العكس ، أو يرفض أن يكون أسود إذا كان أبيض ، أو يرفض أن يكون قصيرا إذا كان هو طويلا ، أو يرفض أن يولد فى بلد كذا ، أو تاريخ كذا ، إذا كان فى بلد وزمان غير ما كان فيه ؟ والجواب فى كل هذا لا ولم ؟ والجواب هو أن إرادة الله تعالى الكونية لا يعصى فيها ولا تتخلف بحال من الأحوال ، لأنها مناط نظام الكون ، وآية الربوبية وموجب الألوهية لله سبحانه وتعالى وبخلافها الإرادة الشرعية التكليفية المتعلقة بأفعال العباد الإرادية الاختيارية ، فإن الله تعالى أقدر العباد على امتثالها ورفضها ليبتليه ، ثم يجزيه ، وأخيرا إنه لا يسع العبد أمام هذه العظمة الإلهية إلا أن يسجد لله هيبة وإجلالا ، وأن يذكره ويشكره اعترافا وتقديرا ، وبذلك تتم كرامته ، وتكمل إنسانيته ، ويستقيم فى حياته استجابة لما أراد الله منه كونا وقدرا ، وشرعا ودينا .

الهداية والضلال

ومثل الخطأ فى فهم الإرادة الخطأ فى الهداية والإضلال ، فقد أساء كثيرون فهم مثل قوله تعالى : ﴿ **فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾ [١] ، وقوله : ﴿ **كذلك زينا لكل أمة عملها** ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ [٣] . فقالوا : كيف يضله ويعذبه ؟ وكيف يزين له عمله ، ثم يعاقبه عليه ؟ وقالوا : أين العدل والرحمة فى ذلك ؟ ونصبوا أنفسهم بجهلهم خصوما لربهم ، فهلكوا بجهلهم وشقوا بسوء فهمهم ، ولو وفقوا لسلموا لله تعالى فى حكمه ، ولم يعترضوا عليه فى تدبيره لأمر خلقه ، إذ الخلق له والأمر ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون** ﴾ [٤] ولكن القوم لم يوفقوا فسلكوا مسلك الشيطان ، فى الاعتراض على الرحمن ، فأصابهم بذلك إبلاس وخذلان ، لو وفقوا ـ وقد عرفوا أن الله يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، للجأوا إليه راغبين خائفين يسألونه أن يهديهم ، ويستعيذونه أن يضلهم ، لأنه مالك ذلك وقادر عليه ، لو وفقوا لأتوا بابه سائلين ولاذوا بجانبه محتمين ، حيث لاح لهم سبيل الهدى : ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ [٥] ، ولكن ما وفقوا فاتبعوا خطوات الشيطان فباءوا بالحرمان والخسران والذى قادهم لهذا الهوان ، جهلهم بربوبية الله ، وسوء ظنهم في الديان ، فجهلهم بالربوبية التى من مقتضياتها التربية والإصلاح ، ومن مستلزماتها الهداية والإضلال ، هو الذى جعلهم يسألون كيف ، وليس من حقهم أن يسألوا ، وسوء ظنهم بربهم فى تقديره وحسن تدبيره جعلهم يعترضون على حكمه ، ويستخفون بحكمته ، فهلكوا بجهلهم وسوء ظنهم بربهم فما أسوأ حالهم ، وما أخسر مآلهم ....

والحقيقة التى خفيت عليهم فضلوا هى أنهم لم يعلموا أن الله تعالى إنما يضل من يضل بعد أن يعذر إليه بتبيين سبل الهدى واضحة ، وبمنحه القدرة الكافية على السير فيها ، فإذا آثر العبد ـ بعد العلم ـ الضلال على الهدى ، ولاه الله ما تولى فكان ذلك عدلا منه

---

(١) إبراهيم : ٤ . (٢) الأنعام : ١٠٨ . (٣) فاطر : ٨ .

(٤) الأنبياء : ٢٣ . (٥) الكهف : ١٧ .

تعالى لا ظلم فيه ، ﴿ **وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ (١) ، إنهم لم يعلموا أن الهداية كالضلال كل منهما يتم حسب سنن الله تعالى فى خلقه ، والسنة فى الإضلال كالسنة فى الهداية وهى الإيثار ، والرغبة ، والطلب ، والعمل ، فمن آثر الهداية ورغب فيها وطلبها وعمل بأسبابها تمت له ووجد من الله تعالى عونا له على تحصيلها وتحقيقها ، وهذا ، من رحمة الله بعباده وفضله عليهم ، ومن آثر الضلالة ورغب فيها وطلبها وعمل بأسبابها تمت له ، ولم يجد من الله تعالى صارفا عنها ، وهذا من عدل الله تعالى فى عباده وحسن تدبيره فيهم .

وجهلوا سنة الله تعالى فى تزيين الأعمال لأصحابها فأنكروا على الله ذلك ، وقالوا : كيف يزين الباطل والشر لعبده حتى إذا فعله عاقبه عليه ؟ وما علموا أن هذا التزيين إنما يتم حسب سنة إلهية لا تتخلف وهى أن المرء إذا آثر العمل باختياره وأحبه من نفسه ، ولازمه غير منفك عنه زمنا طويلا أصبح ذلك العمل زينا حسنا عنده ، وإن كان شيئا قبيحا عند غيره ، والعمل الفاسد كالعمل الصالح فى هذه السنة كلاهما يزين لفاعله بهذه الطريقة ، غير أنه من رحمة الله تعالى بعباده وعظيم إحسانه إليهم حذرهم فى كتبه وعلى ألسنة رسله من استدامة العمل الفاسد والإصرار عليه ، ودعاهم إلى تركه والتوبة منه قبل أن يبلغ من نفوسهم حد التزيين ويصل إلى مستواه ، فيزين لهم حسب سنة الله ويومها يتعذر عليهم تركه والإقلاع عنه ، وفى هذا يقول تعالى : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا** ﴾ (٢) ، ويقول : ﴿ **كذلك زينا لكل أمة عملهم** ﴾ (٣) ، فمن استجاب لتحذير الله وترك فاسد الأعمال وسيئها نجا ، ومن تجاهل التحذير ، وواصل فى سبيل الغنى السير ، هلك ، ومن نجا فقد نجا برحمة الله وفضله حيث هيأ له أسباب النجاة وأعانه على الأخذ بها ، ومن هلك فقد هلك بعدل الله حيث نهاه عن الغى فآثره على الرشد ، ودعاه إلى التوبة فرفضها ، وأصر على خلافها ، حتى وصل فى عمله حد التزيين ، فزين له فرآه حسنا ، وبذلك فقد الاستعداد لقبول دعوة الخير والهدى ومضت فيه سنة الله فى التزيين ، فهلك مع الهالكين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، رما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين .

---

(٦) التوبة : ١١٥ .　　(٢) فاطر : ٨ .　　(٣) الأنعام : ١٠٨ .

الجزاء من ثواب وعقاب
قائم على أساس الرحمة والعدل

ومن غفلة بعض المؤمنين عن كيفية إجراء الثواب والعقاب على العباد فى الدنيا والآخرة ، تورطوا فى جدل وخصومات لا معنى لها ولا داعى إليها فى مسألة العدل والظلم ، حتى ضل منهم خلق كثير ، وفتنتهم جاءت من غفلتهم عن نظام السنن الذى هو نظام القدر ، نابع منه ، وداخل فيه ، وليس خارجا عنه ولا متنافيا معه ، وهذا بيان ذلك أن الله تبارك وتعالى جعل للأعمال الإرادية الاختيارية التى يقوم بها الإنسان أثرا فى نفسه وبحسب ذلك الأثر يكون الجزاء من ثواب وعقاب .

ومن هنا كان العمل الإرادى كعمل الناسى ، والمخطىء ، والمكره ، والمجنون لا تأثير له على النفس أعنى أن النفس البشرية لا تتأثر بذلك العمل حسب سنة الله تعالى فى ذلك ، فلا ثواب ولا عقاب ...

أما ما كان من العمل إراديا اختياريا فإنه لا محالة من تأثر النفس به ، فإن كان العمل صالحا ، أى من الأعمال التى شرعها الله تعالى لعباده ، لتزكية أرواحهم وتطيهرها ، لتتأهل بذلك لمجاورته فى الملكوت الأعلى كان التأثر والانطباع وصفا حسنا للنفس ، ويسمى ذلك الانطباع حسنة ، وقد يطلق لفظ الحسنة على نفس العمل المسبب لذلك على سبيل المجاز الذى علاقته السببية .

وإن كان العمل سيئا أى مما جعله الله تعالى حسب مؤثرا على النفس بالظلمة والتدسية ليكون مؤهلا للإنسان لمجاورة الشيطان فى جهنم من عالم الشقاء كان الانطباع أو الأثر وصفا سيئا للنفس ، ويسمى ذلك الانطباع سيئة وجمعها سيئات ، كما قد يطلق لفظ السيئة على العمل المكسب لها إطلاقا مجازيا علاقته السببية أيضا ، وقد جاء هذا فى عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ (١)

---

(١) الشمس : ٩ ، ١٠ .

وقوله : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم** ﴾ [1] ، ، فالوصف مشعر بعلية الحكم فالبرور والفجورهما سبب دخول النعيم والجحيم ، وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير** ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ **إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمون** ﴾ [3] .

فالإيمان والعمل الصحيح سبب فى تطهير النفس ، والإجرام بالشرك والمعاصى سبب فى تدسيتها وبحسب ذلك الأثر الطيب أو الخبيث يكون الجزاء بالثواب والعقاب ، ومصداق هذا ورد فى كتاب الله من سورة الأنعام حيث جاء قوله تعالى : ﴿ **سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم** ﴾ [4] وأنه وإن كان للآية معنى غير الذى أردنا وهو أنه تعالى سيجزى المشركين بوصفهم الكذب بما حرموا من الأنعام والحرث افتراء من الله ، فإن المعنى الذى أردناه قائم بالآية وهو أن الجزاء على الأعمال الصالحة البشرية التى اقتضت سنة الله انطباعها بأفعال العبد الإرادية الاختيارية ، ما جعله الله تبارك وتعالى مؤثرا فى النفس ، وذلك من كل ما شرع من الأعمال الصالحة ، وما حرم ومنع من الأعمال الضارة الفاسدة مما يقوم به ويعلمه قلب الإنسان وجوارحه على حد سواء .

وبناء على هذا فإن الجزاء جار على أساس من الرحمة الإلهية والعدل فالعبد كسب عمله بمحض إرادته واختياره ، فإن كان الكسب مما يجب الله تعالى حيث شرعه لعباده وأمرهم به ورغبهم فيه أعانه عليه ، بعد ما وفقه للقيام به ، ثم أثابه عليه الحسنة بعشر أمثالها ، فكان جزاء تغلب عليه الرحمة والإحسان وإن كان الكسب مما كره الله لعباده ، ونهاهم عنه وحظره عليهم تخلى الله عن فاعله خذلانا له ، لأنه آثر معصيته على طاعته ، وسخطه على رضاه ، ثم هو إن لم يغفره له بموجب من موجبات المغفرة كالتوبة أو العفو الإلهى ، وعاقبه عليه كان العقاب بمحض العدل : السيئة بمثلها فلا حيف ولا ظلم .

وهكذا قد تقرر ما توخيناه من إثبات هذه الحقيقة وتقريرها ، وهى أن الجزاء والثواب والعقاب على كسب المرء قائم على أساس الرحمة والعدل الإلهى ، خال من الإساءة والظلم ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما** ﴾ [5] .

---

(١) الانفطار : ١٣ ، ١٤ . (٢) البروج : ١١ . (٣) الزخرف : ٧٤ ـ ٧٦ .
(٤) الأنعام : ١٣٩ . (٥) النساء : ٤٠ .

الحسنة والسيئة

من الله

أو من النفس

بين يدى الحديث من الحسنة والسيئة ، وهل هما من عند الله تعالى ، أو الحسنة من الله ، والسيئة من النفس ، نظرا إلى قوله تعالى من سورة النساء : ﴿ **وإن تصيبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا** ﴾ (١) ، مع قوله عز وجل من نفس السورة : ذات السياق : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا** ﴾ (٢) .

أقول : بين يدى تحقيق هذه المسألة ، والتى هى جزء هام من مسائل العقيدة الإسلامية ، وذات صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر والجبر والاختيار ، والإرادة والمشيئة ، والجزاء بالعدل والرحمة وهو ما سبق لنا القول فيه بالتفصيل ، وبالقدر الذى فتح الله علينا به ، ورأينا أنه كاف ــ والحمد لله ــ فى تحقيق المعتقد الذى يرضى الله تعالى ، ويرضاه من عبده ويرضى به عنه أقول : إن الحسنة وهى ما يحسن لدى الإنسان مما يتلائم مع مزاجه فيورث باطنه صفاء وطهرا ، أو جسمه نعومة ونضرة ، وهى بهذا المعنى قسمان : حسنة سببها الإيمان والعمل الصالح ، أو هى حسنة الطاعة لله ورسوله ﷺ ، وحسنة سببها الإنعام الإلهى على العبد بما يريح جسمه من الوصب والنصب ، ونفسه من الغم والهم وذلك بما يؤتيه من مال وولد ، وسلامة بدن ، ونصروعز ومجد .

والسيئة ضد الحسنة وهى ما لا حسن لدى الإنسان حسن مما لا يتلائم مع مزاجه وطبعه أو هى ما يسوءه فى باطنه ، ويضره فى ظاهره ، وهى بهذا قسمان أيضا : سيئة سببها الشرك والمعاصى إذ هما حسب سنة الله تعالى يورثان النفس ظلمة وخبثا فتمرض لذلك وتشقى ، وسيئة سببها الانتقام الإلهى ، وذلك كأمراض الجسم وعلله وضياع المال ،

(١ ، ٢) النساء : ٧٨ ، ٧٩ .

والهزيمة فى الحروب وفقد الكرامة ، وذهاب الشرف ، وبناء على هذا فالحسنة التى هى بمعنى طاعة الله ورسوله ﷺ يوفق الله تعالى العبد لفعلها ، والإتيان بها على الوجه الذى شرع الله سبحانه وتعالى هذه الحسنة لا تنسب إلا إلى الله تعالى ، إذ هو الذى شرعها للعبد وعامه إياها وأمرها بفعلها لها ، وأعانه عليها ، ووعده بحسن المثوبة عليها ترغيبا له فى فعلها ، كما أنه كتبها له أزلا ، وقضى بها له قدرا ، فهذه الحسنة نسبتها إلى غير الله تعالى خطأ فاحش لا يقر عليه أبدا .

والسيئة التى هى بمعنى معصية الله ورسوله ﷺ ، ومخالفتهما فى أمرهما ونهيهما هذه السيئة إذا فعلها العبد بإرادته واختياره ، مؤثرا المعصية على الطاعة ، والمخالفة على الامتثال فهذه السيئة لا تنسب إلا إلى العبد فاعلها ، ولا يصح نسبتها إلى الله تعالى لأن الله تعالى لم يشرعها ولم يأمر بها ولم يرغب فيها ، بل حرمها ، وتوعد عليها منفرا منها ، فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى ، اللهم لا وكيف والله تعالى يقول : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ (١) .

وأما إن كانت الحسنة بمعنى النعمة والبلاء بالخير كالمال والولد ، والصحة والعافية فى ذلك وكالنصر والظفر والعز والجاه ، وكانت السيئة بمعنى النقمة والابتلاء بالشر وذلك كالنقص فى المال والأنفس والهزائم فى الحروب وما إلى ذلك من الشدائد والكروب فكلاهما ــ أى الحسنة من هذا النوع والسيئة ــ كلاهما من عند الله تعالى ، لأنه عز وجل هو الذى يبلو عباده امتحانا وانتقاما حسب مقتضيات حكمته فى تربية عباده وتدبير شأنهم ، قال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا ...** ﴾ (٣) .

ومن هنا لما كان المنافقون بالمدينة ينسبون الحسنة بمعنى النعمة له تعالى ، وينسبون السيئة التى بمعنى النقمة والبلاء والشر ينسبونها إلى رسول الله ﷺ رد الله تعالى عليهم قولهم هذا وعابه لهم ، ونسبهم إلى سوء الفهم ، وقلة الإدراك وأخبر مقررا أن كلاً من هذين النوعين من الحسنة والسيئة هما من عند الله تعالى عز وجل : ﴿ **قل كل من عند الله ، فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً** ﴾ (٤) ، وبهذا زال والحمد لله الإشكال

---

(١) النساء : ٧٩ .
(٢) الأنبياء : ٣٥ .
(٣) الفجر : ١٥ ــ ١٧ .
(٤) النساء : ٧٨ .

الذى كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى ، لا يكادون يقولون : إن فى الآيات تناقضاً ، أو أن بينها تعارضاً ، فى حين أنه لا تناقض بينها ولا تعارض فيها ، وحاشاً كتاب اللّه أن يضرب بعضه بعضا ، تناقضاً أو تعارضاً ، وكيف يكون ذلك واللّه منزله بنفيه عنه يقول : ﴿ **ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا** ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ (٢) .

ويحسن التنبيه هنا إلى أن العبد وإن نسبت إليه السيئة التى هى المعصية للّه ورسوله ، والتى يرتب عليها تدسية النفس وتلويثها ليس معنى ذلك أن العبد قد فعل ما لم يكن قد كتب عليه أزلا ، وقضى به عليه قدراً ، لا واللّه ، بل ما فعل إلا ما كتب عليه أن يفعله ، كما أن كون العبد أتى المعصية باختياره وفعلها بنفسه مريداً لها ، لا يدل على أنه خالق فعله فيها ، بل الخالق هو اللّه الذى خلق إرادته واختياره .

وإنما لم تنسب السيئة التى هى المعصية للّه ورسوله ﷺ إلى اللّه تعالى ، لأن اللّه تعالى حرمها ونهى عن فعلها ، وتوعد عليها ، ولم يرضها لعبده كما رضى له الطاعة ، إذ قال تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ (٣) ، مع العلم والتسليم أن اللّه لو شاء أن يحول بين العبد بين فعله المعصية أو الطاعة لفعل ، وهو على ذلك لو شاء قدير ، لكنه لم يفعل ، لأنه خلق هذا المخلوق ليبتليه فى هذه الحياة : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ (٤) . فلذا منح العباد إرادة واختيارا يتأتى لكل واحد بهما أن يسلك أى سبيل شاء من سبل الهدى أو الضلال ، وبسلوكه الذى أراده واختاره يصل إلى الغاية التى جعل السبيل مؤدياً إليها ، وأصلا بالسالك إلى بابها ومنتهيا به إليها ، سنة اللّه . ﴿ **فلن تجد لسنة اللّه تبديلا ، ولن تجد لسنة اللّه تحويلا** ﴾ (٥) .

وأخيراً : أنه قد يظن البعض أن مشيئة العبد كافية فى إيجاد ما يريده ويرغب فى حصوله ، وهو ظن باطل خاطىء قطعاً ، وذلك أولا أنه قد ثبت بالمشاهدة والحس أن العبد كثيراً ما يريد الشيء ويرغب فى تحصيله ويبذل كل وسيلة من شأنها أن تحقق الشيء المطلوب ، ثم يخيب العبد فى سعيه ، ولم يفز بمراده ، وثانياً أن القدر قد سبق فى كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فلم يكن فى الكون إلا ما كتب أزلا وقدر أن يكون ، وبهذا يعلم أن مشيئة العبد التى يتحقق بها المراد هى نفسها مكتوبة أزلا ومحكوم بوجودها فى إبانها

---

(١) النساء : ٨٢ . (٢) فصلت : ٤١ ، ٤٢ . (٣) الزمر : ٧ .
(٤) الملك : ٢ . (٥) فاطر : ٤٣ .

ليتحقق بها ذلك الفعل الذى أراد العبد أن يفعله ، وآثر فعله واختاره على غيره ، وفى هذا نقرأ قوله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ (١) .

وتوضيح ذلك أن العبد ليس له أن يشاء إلا ما سبق به الكتاب ، فإذا سبق كتاب المقادير بشىء يقع على يد العبد أوجد الله تعالى للعبد مشيئة تدفعه إلى إتيان العمل وخلق له اختيارا فى نفسه يرجح به الفعل على الترك ، فيكون ذلك المقدور .

وبهذا تتأكد الحقيقة العظمى وهى أن الرب غير العبد ، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى ، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب وسابقة لها ، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى : لم فعل كذا ؟ أو لم لم يفعل كذا ؟ قال تعالى : ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ (٢) .

---

(١) التكوير : ٢٩ .

(٢) الأنبياء : ٢٣ .

المشاكل التى تعترض الدعوة الإسلامية ودعاتها وسبل معالجتها

حررها
أبو بكر جابر الجزائرى
الواعظ بالمسجد النبوى الشريف
والمدرس بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

المشاكل التى تعترض الدعوة الإسلامية ودعاتها وسبل معالجتها

بسم اللّه ، والحمد للّه ، والصلاة والسلام على رسول اللّه وعلى آله وصحبه ومن آمن به ووالاه .

وبعد :

إنه قبل الحديث عن المشاكل التى تعترض الدعوة والدعاة يحسن بنا أن نقدم كلمة قصيرة موجزة نجدد بها معنى الدعوة فى أذهاننا ، ونحيى بها الصورة الحقيقية للدعوة الإسلامية فى نفوسنا ، وبعدئذ نتحدث عن المشاكل التى تعترض الدعوة الإسلامية ودعاتها ، وعن سبيل معالجتها ، ووضع الحلول الملائمة لها ، فنقول :

إن الدعوة الإسلامية هى حمل رسالة الإسلام ، رسالة محمد ﷺ إلى الناس كافة ، تلك الرسالة الربانية التى تقوم على المبادىء الثلاث الآتية :

١ ـ الإيمان .

٢ ـ الإسلام .

٣ ـ الإحسان .

كما جاء ذلك فى صحيح مسلم حيث أعلن عنها الرسول الكريم وصدق عليها الروح الأمين ، وشهد عليها خيرة المؤمنين ، وفى ملأ لا نظير له فى العالمين .

فالمبدأ الأول : وهو الإيمان معناه التصديق الجازم بكل ما جاء به رسول اللّه عن اللّه ، وأخبر به عنه من شأن التوحيد ، والشرع والمعاد والحساب والجزاء .

والمبدأ الثانى : وهو الإسلام معناه : الانقياد التام ، والتسليم الكامل ظاهراً وباطناً بقبول شرائع اللّه تعالى ، وتنفيذ أحكامه ، وعدم التخير فيها ، أو الرفض ولو لأقل قليل منها .

والمبدأ الثالث : وهو الإحسان معناه : مراقبة اللّه تعالى فى كل عمل يقوم به العبد ، حتى تكون سائر أعماله موافقة تمام الموافقة لما شرع اللّه تعالى فى كتابه القرآن الكريم وعلى لسان رسوله محمد النبى الأمين .

وحتى تكون جميع نياته ومقاصده وأعماله خالصة للّه تعالى : خالية من الالتفات إلى غيره عز وجل .

هذه الرسالة بمبادئها الثلاثة ذات الطبيعة الخيرة ، والروح الإصلاحية النيرة هى الدعوة الإسلامية التى بعث بها محمد رسول اللّه رحمة للعالمين وحرزا للأمين ، وهى الرسالة التى حملها رسول اللّه وجاهد دونها وجالد حتى بلغت كل دار فى شبه جزيرة العرب ، وبلغ هداها ديار فارس والروم ، وقام بحملها بعده حواريوه وأنصاره من أمته فبلغوا بها البربر والروم غرباً ، وفارس والهند والسند شرقاً .

تلك هى رسالة محمد ﷺ ، وهى الدعوة الإسلامية التى يجب على المسلمين بعد أن يكملوا بها ، ويسعدوا عليها أن يحملوها إلى الناس أجمعين ليكملوا أيضاً بها ، ويسعدوا عليها ، إذ هى رحمة اللّه التى يجب أن تعم سائر عباده ، ونعمته التى ينبغى أن ينعم بها كل عبيده .

إنه ليس من الإنصاف والعدل فى شىء أن تستأثر أمة أو شعب برحمة اللّه ونعمته ، ويحرمها سائر الأمم والشعوب عن خلقه .

ومن هنا كان لابد لرسالة الإسلام أن تحمل إلى الناس ، وتقدم لهم وتعرض عليهم ليكملوا بها ويسعدوا عليها ، إذ لا سبيل إلى أكمالهم وإسعادهم إلا برسالة الإسلام ، ولذا لو أكرهوا على قبولها ، وأجبروا على الأخذ بها لكان الإكراه والإجبار أمراً معقولاً ، وشيئاً محبوباً مرغوباً كحال المريض يأبى الدواء فيكره عليه ، ويجبر على استعماله ولم يكن إكراهه واجباره غير مستحسن ولا محمود .

إن الناس اليوم ما بين مؤمن بدعوة الإسلام ورسالته وكافر بهما جاحد لهما ، غير أن الجميع فى حاجة ماسة وملحة أيضاً إلى رسالة الإسلام .

فالمؤمنون فى حاجة إليها لزيادة كمالهم وإتمام إسعادهم ، والكافرون فى حاجة إليها لتكسبهم الكمال والسعادة ، وبحكم الظروف الراهنة فقد أصبحت طرق توصيل هذه الدعوة إلى الناس مؤمنهم وكافرهم أصبحت واحدة وهى الإبلاغ والإقناع .

وإلى أن تتغير هذه الظروف وأحوال الناس فيها فستبقى طرق التوصيل واحدة لا تختلف بين توصيلها إلى المسلمين ، وإلى الكافرين ، إذ أغلب شعوب العالم اليوم باستثناء المعسكر الشيوعى ، تسمح بفتح مراكز للدعوة الإسلامية فى بلادها وبين سكانها

ومواطنيها ، كما تسمح بالكتابة والنشر والخطبة والمحاضرة للدعوة إلى الإسلام والتمسك به ، والعمل بما جاء فيه من خير وهدى وبناء على هذا فمجال الدعوة الإسلامية ودعاتها كل العالم الإنسانى على رحابته وسعته اللهم إلا ما كان من شعوب المعسكر الشيوعى فإن الستار الحديدى المضروب عليها لا يسمح بدخول دعوة الإسلام إليها ، فإن هذا الجزء من العالم ينبغى أن يرجأ إلى أن تتغير الظروف وتسمح بدخول دعوة الإسلام إلى تلك الشعوب المنكوبة بالمذهب المادى ، والمحرومة من هداية اللّه ورحمته . والسؤال الآن هو ، كيف تكون الدعوة ؟ وبم تكون ؟

أما عن كيف تكون فإنا نجيب : أنها تكون بإبلاغ الناس رسالة الإسلام ، وتعريفهم بها ، وتفهيمهم أصولها ومبادئها وتبيين ما فيها من الخير والهدى وإقناعهم بخيريتها وصلوحها ، وبأنها طريق نجاتهم ، وسبيل سعادتهم ، وأنها رسالة اللّه تعالى إليهم ليكملوا بها فى آدميتهم ، ويسعدوا بها فى كلتا حياتهم : الأولى والأخرى.

وأما بم تكون فإنا نجيب بأنها تكون بالدعاة المؤهلين بالعلم والتقوى المزودين بالفطنة والذكاء ، المتميزين بالورع والزهد فى الدنيا ، أولئك الدعاة الذين تجد دعوتهم طريقها إلى قلوب الناس فتفتح مغاليقها ، وتصل إلى أعماق النفوس فتستميلها وتستهويها ، وإلى العقول فتقنعها وتستحكم فيها .

هذا وإن قيل : من أين اليوم للدعوة الإسلامية بمثل هؤلاء الدعاة ؟ وكيف الحصول على مثلهم ؟

كان الجواب : أن يفتح معهد تربوى تعليمى ذو منهج خاص مهمته تخريج أمثال أولئك الدعاة تناط بهم مهمة الدعوة إلى اللّه تعالى بين عباده ليعبدوه ويتوكلوا عليه ، ويذكروه ولا ينسوه ، ولا يكفروه وإلى أن يتم افتتاح هذا المعهد ، ويتكون أولئك الدعاة يجب أن تستمر الدعوة فى سيرها الحالى ومهما كان السير بطيئاً وكان الوصول إلى الغاية فى هداية العباد بعيداً .

وإن نحن اعترفنا بأن قلة وجود الدعاة الأكفاء الصالحين المؤهلين مشكلة فى حد ذاتها تعترض سبيل الدعوة ، وتعوق سيرها كما هو الواقع ، فإن حلها الملائم لها لن يكون إلا بافتتاح مثل المعهد الذى أشرنا إليه واقترحناه آنفا ، ذلك المعهد التربوى التعليمى الكفيل إن شاء اللّه تعالى بإمداد الدعوة الإسلامية بطاقات جديدة من الدعاة كل عام .

وليشارك فى إنشاء هذا المعهد وتسييره كافة الجهات المسؤولة فى البلاد الإسلامية ، وليختر له صفوة البقية الباقية من رجال العلم والتربية فى دنيا المسلمين .

وإذا ما تم إنشاء هذا المعهد وأخذ يمد الدعوة الإسلامية كل سنة بعشرات الدعاة الأكفاء الصالحين ذوى المؤهلات العلمية والنفسية ، فإن مشكلة كبيرة من المشاكل التى تعترض طريق الدعوة الإسلامية ، وتقف كحجرة عثرة فى طريق سيرها ، ووصولها إلى أهدافها المنشودة لها من هداية الناس وإصلاحهم تعتبر قد انحلت والحمد للّه رب العالمين .

هذا ، وربما أن المشاكل التى تعترض طريق الدعوة الإسلامية ، وتعوقها عن السير فيه كثيرة وكثيرة جداً فإنا نكتفى بذكر طرف منها يعد من أهم تلك المشاكل وأكثرها تعويقاً للدعوة فى سيرها ، وطريق انتشارها واتساع نطاقها .

ولنضع له الحلول الملائمة فى حدود ما يتسع له نطاق البحث فى هذه العجالة من الكلام ، علنا وعسانا نقدم بذلك خدمة للدعوة الإسلامية التى هى واجب الأفراد كما هى واجب الجماعات ، وإن اختلفت المسؤوليات بحسب القدرات والإمكانيات المعنوية والمادية بين فرد وآخر ، وجماعة وأخرى قوة وضعفاً .

وإلى السادة أعضاء المؤتمر تلك المشاكل مقرونة بحلولها الملائمة لها فليتأملوها وليروا فيها ما يرون .

المشكلة الأولى :

المشكلة الأولى من المشاكل التى تعترض طريق الدعوة اليوم هى عدم وجود دولة إسلامية قوية تغزو وتجاهد تفتح البلاد وتنشر دعوة اللّه تعالى بين عباده من أجل إكمال آدميتهم وإسعادهم فى الدنيا ، وإعدادهم لسعادة الدار الآخرة ، كما كانت الحال فى صدر أمة الإسلام وعلى عهد سلفها الصالح .

هذه مشكلة عويصة مستعصية للغاية ، ولا سبيل إلى حلها إلا بإيمان المسلمين اليوم بضرورة توحيد دويلاتهم المبعثرة هنا وهناك ، وإدماجها كلها فى دولة واحدة لتصبح الدولة الإسلامية القوية المنشودة التى يحكمها شرع اللّه ، ويسودها قانون السماء ، ويصرف أمورها بإذن اللّه عبد صالح من عباد اللّه الصالحين تبايعه أمة الإسلام كل أمة الإسلام عن طواعية واختيار تبايعه على السمع والطاعة ، والجهاد فى سبيل اللّه لإعلاء

كلمة اللّه يسوسها هذا العبد الصالح بسياسة الإسلام ويساعده على ذلك حكومة إسلامية قوية ، ومن ورائها الأمة المحمدية بكل أفرادها وسائر طاقاتها .

فإن لم يؤمن المسلمون بهذه الضرورة الملحة حتى لا يوجدوا الدولة الإسلامية القوية القادرة على الغزو والفتح ، ونشر دعوة الإسلام بين الأنام فلا أقل من أن يقوم قائم منهم للّه فى تلك الدويلات الموزعة الممزقة الضعيفة الهزيلة لعدم صلة قوية تربطها باللّه مصدر كل قوة فى هذه الحياة ويعلن فى صرامة عن قومه للّه ، ويعد أمته للجهاد والغزو والفتح وليعز باسم اللّه ، وليجاهد على بركة اللّه ، ويفتح البلاد بإذن اللّه ، ولينشر دعوة اللّه بين عباد اللّه ، ولترتفع راية الحق والعدل فى بلاد اللّه بين عباده وليسد العدل ، وليعم الخير والهدى ولتغمر رحمة اللّه ، كل خلق اللّه ولتجد دعوة الإسلام فى ظل الدولة طريقها إلى كل البلاد والعباد .

المشكلة الثانية :

المشكلة الثانية التى تعترض طريق الدعوة الإسلامية هى عدم وجود جماعة للمسلمين يدينون لها بالولاء والطاعة تقوم بشؤون الدعوة الإسلامية تجهيزاً وتنظيماً وإعداداً وإنفاذا ، مستخدمة طاقات الأمة المسلمة من مال ورجال .

إنه بدون هذه الجماعة المسلمة التى تنوب عن الدولة المجاهدة فى حال غيابها وعدم وجودها بين المسلمين لسبب وآخر ، لا يمكن لدعوة الإسلام أن تنتشر وتحقق أغراضها فى هداية الناس وإصلاحهم على أيدى أفراد مبعثرين متباعدين لا تربطهم رابطة ولا يوجه عملهم ويحدده لهم منهج ولا نظام .

هذه مشكلة ، وحلها مستعصى أيضاً وإلى حد كبير ، إذ مضى زمن غير قصير ونحن ننادى بتكوين هذه الجماعة لضرورة العمل الإسلامى والدعوة الإسلامية إليها ولم تكن هناك استجابة تذكر اللهم إلا ما كان من تكون رابطة العالم الإسلامى ، تلك الرابطة التى لو خلصت فيها النيات ، وصحت فيها العزمات ، وقام أعضاؤها بواجبهم فيها ، وأدوا أمانتهم لها كاملة غير منقوصة ، لكانت الرابطة هى جماعة المسلمين المنشودة ولكانت حال المسلمين ودعوتهم اليوم غير الحال ، ولكن ـ ومع بالغ الأسف ـ إلى الآن لم يعرف المسلمون أن لهم رابطة ، وأنهم مطالبون بالالتفات حولها والتعاون معها ، وتقديم الولاء والطاعة فى صدق لها ، لأنها الممثلة الشرعية لهم ، ولم تعرف الرابطة نفسها أنها رابطة

المسلمين فتطالبهم بحقها فى الطاعة والتعاون والولاء .

المشكلة الثالثة :

والمشكلة الثالثة من المشاكل التى تعترض طريق الدعوة وتعوقها عن سيرها مشكلة عدم وجود تنظيم كامل ، وتنسيق تام بين الدعاة المسلمين ، إذ فى البلاد الإسلامية جماعات عدة من أشهرها جماعة الإخوان المسلمين ، وجماعة التبليغ ، وجماعة أنصار السنة ، وجماعة السلفيين وكل هذه الجماعات تقوم بنشاط فى حقل الدعوة الإسلامية كل فى حدود طاقته وإمكانياته ، غير أنه لما لم تكن لهذه الجماعات رابطة تربطها ببعضها البعض فتوحد جهودها ، وتنظم سير عملها ، وتوفق بين أهدافها وأساليب دعوتها ، كانت جهودها مبعثرة ، وطاقاتها مبددة ـ فلم يظهر لها أثر محسوس قوى فى مجال الهداية والإصلاح يطمئن المسلمين على عقائدهم وأخلاقهم ، ومستقبل بلادهم وأولادهم ، بل نجم عن تفرق هذه الجماعات العاملة فى محيط الدعوة الإسلامية بلبلة أفكار واضطراب نفوس كثير من أفراد الأمة ، وأوجد شكا عاماً فى الدعاة والدعوات على حد سواء .

وحل هذه المشكلة أتى عن طريق وضع منهج موحد لكل تلك الجماعات ما ذكرنا منها لأهميتها وما لم نذكر وهى كثيرة على أن يكون المنهج الموضوع لها وافياً بغرض الجميع ، يشترك فى وضعه عناصر عليمة من ممثلى تلك الجماعات ، ثم تدمج تلك الجمعيات بعد توحيد أغراضها وأهدافها ووسائل عملها تدمج فى جماعة واحدة هى جماعة المسلمين التى هى ضرورة من ضرورات أمة الإسلام عند فقد السلطان أو فساده أو ضعفه لتقوم بواجباتها ، وتحافظ على وجودها .

وبعد إتمام عملية الدمج والتوحيد تكون لها هيئة عليا تتولى الإدارة والتسيير والتنظيم ، والسير بالدعوة الإسلامية إلى غاياتها المقصودة وأهدافها المنشودة فى هداية الناس وإصلاحهم وإسعادهم .

المشكلة الرابعة :

المشكلة الرابعة من المشكلات التى تعترض الدعوة الإسلامية ودعاتها وتقف حائلاً عائقاً دون وصول الدعاة إلى نتائج حاسمة فى دعوتهم بسيادتها بين الناس وانتشارها هذه المشكلة هى مشكلة عدم وجود موارد مالية كافية ودائمة تنهض بعبء الدعوة والدعاة .

إنها مشكلة تعترض طريق كل من الدعوة والدعاة ، فالدعوة إن لم يصحبها بذل وعطاء مالى قد لا تقتصر على الفقراء وأصحاب العاهات وذوى الحاجات بل يتعدى هؤلاء إلى الأغنياء والموسرين ، لأن السخاء والإحسان لهما سلطان وأى سلطان على النفوس فى استمالتها ، والقلوب فى استمالتها ، وقديماً قال الحكيم :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإحسان إنسانا .

فأيما دعوة لا ينال الناس منها خيراً ، ولا يصيبهم بها معروف ، فهى دعوة مرغوب عنها لا يفرح الناس بها ، ولا يميلون إليها ولا يسمعونها ، حتى تفتح الأسماع بالعطاء القلوب بالسخاء .

والداعى إن لم يتفرغ للدعوة ، وتستقل به حتى لكأنه وقف عليها لا يتعداها إلى غيرها ، فتكون ــ الدعوة ــ شغله الشاغل ، وهمه الكامل لا يمكنه أن يسمع دعوة اللّه تعالى ، أو يبلغها ، فضلاً عن أن يهدى العباد ويصلح فاسدهم .

ولا سيما إذا كانت الحاجة تدفعه إلى أن يقبل الإحسان ، ويرضى بالمعروف ويصنع لهم ممن يعلمهم ويرشدهم ، أو يربيهم ويهديهم .

إن الداعى إذاً عنصر الزهد فيما عند الناس ، ومبدأ اليأس مما فى أيديهم فإنه يفقد كل مقومات دعوته ، ولم ينفعه بعد ذلك علمه ولا إخلاصه ولا حرصه ولا اجتهاده .

فلا بد إذاً من إغناء الدعاة ، وسد جميع حاجاتهم بالصورة الكاملة التى لم يبق معها للداعى أى التفات إلى غير دعوته ، وحمل رسالته وإنفاذها وإبلاغها إلى غاياتها من الهداية والإصلاح .

هذه المشكلة المالية لا تقل عسراً وصعوبة عن المشكلات السالفة الذكر وحلها يكون ــ إن شاء اللّه ــ بإنشاء صندوق للدعوة الإسلامية التى هى واجب كل المسلمين ، يساهم فيه كل الحكومات الإسلامية بمبالغ مالية ثابتة وذات قيمة فعالة ، لا مجرد رمز أو مشاركة للبركة .

كما يدعى الأغنياء المسلمون من أرباب الشركات والمصانع والمؤسسات التجارية والفلاحية للمساهمة الجادة الفعالة بأموالهم فى هذا الصندوق وسواء كانت الأموال من الزكوات أو المبرات والهبات الخيرية أو كانت فريضة الجهاد الواجبة على كل مسلم فى هذه الحياة .

وقد يوسع نطاق هذا الصندوق حتى يشمل الأوقاف توقف عليه والنذور تنذر له والكفارات تصرف فيه ، لأنه ما من باب من أبواب مصارف الزكاة والصدقات إلا وفى هذا الصندوق باب مفتوح منها له .

وما يدرينا أن هذا صندوق قد يشتد ويقوى ، ويكبر ويعظم حتى يصبح فى يوم من الأيام صندوق جهاد ، ودعوة ، فيمول الدعاة ويجهز الغزاة ؟؟

المشكلة الخامسة :

المشكلة الخامسة من المشاكل التى تعترض الدعوة والدعاة معاً ، وتتطلب الحل السريع الناجز مشكلة أن بعض الحكام فى البلاد الإسلامية يمنعون بواسطة نظراء الأوقاف الدعاة من دخول المساجد لإلقاء المواعظ والدروس فيها فيوقفون سير الدعوة ويعرقلون عمل الدعاة فيها مما كان له أثر سيء للغاية فى نفوس المؤمنين ، إن هذه المشكلة قائمة وتعانى منها الدعوة الإسلامية ، إذ كثير من الأقطار الإسلامية لم يسمح فيها لأى داعية إسلامى أن يقول فيها كلمة ، ومهما كانت سلامة دعوته وصفاتها ، وصدقها .

وحل هذه المشكلة يكون بالاتصال الرسمى بالحكومات القائمة فى الديار الإسلامية ، ومطالبتها بمنح الدعاة الإسلاميين الذين تبعثهم الهيئة العليا للدعوة الإسلامية يحملون شارتها الخاصة بها ، إذناً خاصاً يمكنهم من الاتصال بسائر المسلمين فى مساجدهم ، ومحلات اجتماعاتهم من أندية وغيرها لأداء رسالتهم فى توجيه المسلمين ووعظهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم دنيا وأخرى .

هذه هى أهم المشاكل التى أرى أنها فعلاً تعترض طريق الدعوة الإسلامية ، وطريق دعاتها قد بينتها فى إيجار ، ووضعت لكل مشكلة حلها المناسب لها بعد ذكر المشكلة وبيانها مباشرة ، وإننى أعتقد أن لا يوجد فى تلك الحلول الموضوعة ما لا يعقل أو لا يقبل متى صح العزم وصدقت النيات وأريد الوصول إلى تحقيق المأمول .

وأخيراً : أتقدم بكل تواضع وأدب إلى أعضاء المؤتمر الموفقين بهذا المقترح الذى أرى أن انفضاض المؤتمر بدون تحقيقه يعد فشلاً للمؤتمر فى مهمته التى انعقد من أجلها وأنفق ما أنفق من جهد ومال .

هذا المقترح :

هو تكوين هيئة من رجال هذا المؤتمر يطلق عليها اسم الهيئة أو اللجنة التحضيرية

للإعداد لتكوين الهيئة العليا لجماعة المسلمين وتعطى هذه اللجنة التحضيرية مهلة ستة أشهر تجرى خلالها اتصالات مكثفة وتنقلات واسعة بين البلاد الإسلامية لاختيار الأعضاء الصالحين للهيئة العليا لجماعة المسلمين للدعوة الإسلامية ورعاية شؤون المسلمين ، وبعد أن تتم اتصالاتها واختياراتها لأعضاء الهيئة تعقد اجتماعاً خاصاً بالمدينة المنورة لتأسيس الهيئة الدائمة ، ثم الإعلان ، تكوينها وعن مقرها الدائم بالمدينة المنورة تيمناً وتبركاً .

ثم تأخذ الهيئة فى العمل على حل تلك المشاكل الخمسة التى أسلفنا ذكرها مع الحلول الملائمة لها .

فلحل المشكلة الأولى :

تتقدم ببرنامج وحدة للدول الإسلامية واضحاً مفصلاً كافلاً لحقوق الفرد والجماعة ، محققاً للسعادة والكمال البشرى ، مرشحاً أمة الإسلام لقيادة البشرية وسيادتها ، وتطلب من الحكام المسلمين تحقيق وحدة المسلمين بإنشاء الدولة الإسلامية الموحدة ذات التطلعات إلى القوة والعزة والكرامة والسعادة .

ولحل المشكلة الثانية :

وهى عدم وحدة جماعة المسلمين ، فإنها لم تفعل أكثر من أن تعلن عن وجودها ، وتعرف المسلمين بها ، وتطالبهم بطاعتها ، والالتفات حولها ، إذ هى الجماعة المنشودة بنفسها ، ثم تأخذ فى العمل فتنشىء لها فروعاً فى كل البلاد الإسلامية ، وتفتح لها مراكز عمل فى شتى أنحاء العالم وتوصل رسالتها فى الدعوة ، والعمل إلى أن يكتب الله تعالى لها ما تستحق من فوز وكرامة .

ولحل المشكلة الثالثة :

وهى عدم وجود تنظيم وتنسيق بين الدعاة فى البلاد الإسلامية ، فإنها بحكم أنها أصبحت الهيئة الشرعية الوحيدة التى تمثل المسلمين فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها ، لها الحق فى أن تنظم عمل الدعاة ، وأن تنسق بين مختلف الجمعيات التى أصبحت المهيمنة عليها والقائمة عليها . فلم تعد هناك مشكلة عدم وجود تنظيم أو تنسيق بالمرة .

ولحل المشكلة الرابعة :

وهى عدم وجود موارد مالية تنهض بالدعوة الإسلامية فإنها تعلن عن إنشاء صندوق

للدعوة الإسلامية وتطالب الحكومات الإسلامية بالمساهمة والمشاركة لأنه صندوق الدعوة والجهاد ، فلا يعفى منه أى مسلم مكلف ولا تبرأ ذمة أحد من المسلمين إلا بالمساهمة والمشاركة فيه بحسب حاله من اليسار والإعسار .

ولحل المشكلة الخامسة :

وهى منع بعض الحكام المسلمين رجال الدعوة من إلقاء دروسهم ومواعظهم بالمساجد بين المسلمين ، فإنها تتصل رسمياً بأولئك المسؤولين وتطالبهم بمنح أذونات خاصة لرجال الدعوة المنتسبين إليها ممن يحملون شاراتها المميزة لهم ، وسوف لا تعدم الاستجابة من كل من تتصل به وتطالبه باسم الإسلام وأمته ورجال دعوته .

هذا هو المقترح وقد قدمته فى صدق وقناعة ، وإنى لأطالب بإلحاح السادة أعضاء المؤتمر أن يقروه فى توصياتهم ويعزموا على تحقيقه قبل اختتام المؤتمر أعماله ، كما أعيد إلى الأذهان ما سبق أن قلته وأعلنته : وهو أن انقضاء المؤتمر على غير تحقيق ما جاء فى مقترحى هذا يعد بدون شك فشلاً ذريعاً للمؤتمر ، وهذا ما نستعيذ باللّه تعالى منه لأنه من باب حبوط الأعمال وخسرانها ، وقانا اللّه وإياكم من كل فشل وخيبة وخسران ، واللّه المستعان وعليه التكلان .



أدب الزيارة

للمدينة النبوية

كتبها

أبو بكر جابر الجزائرى

الواعظ بالمسجد النبوى الشريف

والمدرس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فضـل الـمديـنة

الحمد للّه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام الأكملان التامان على من أرسله ربه رحمة للعالمين ، محمد عبد اللّه ورسوله ، وآله الطاهرين ، وصحابته أجمعين .

أما بعد : فاعلم أخى المسلم أن لـمدينة رسول اللّه ﷺ شرفاً كبيراً ، وقدراً رفيعاً ، ومنزلة عند الرسول والمؤمنين عظيمة فى رواية البخارى :

وإليك دليل ذلك من أحاديث رسولك ﷺ إذ قال : « أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب وهى المدينة ، تنفى الناس ، كما ينفى الكير خبث الحديد » .

وقال أيضاً : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز (١) الحية إلى جحرها » .

وقال ﷺ : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لنا فى صاعنا ، وفى مدنا ، وكان بأبى هو وأمى إذا قدم من سفر ، فنظر إلى جدران (٢) المدينة أوضع راحلته (٣) ، وإن كان على دابة حركها من حبها أى حب المدينة » .

وقال : « المدينة حرم ما بين عائر (٤) إلى ثور ، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة اللّه والملائكة ، والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل ، أى لا يقبل منه فرض ، ولا نفل مادام محدثاً أو مؤويا لمن أحدث .

وبناء على هذا أخى المسلم فإنه يجب عليك إن كنت ترجو اللّه والدار الآخرة يجب عليك ما يأتى :

١ ـ أن تحب مدينة الرسول ﷺ بحب الرسول ﷺ لها ، إذ محبة ما يحب اللّه ورسوله إيماناً وديناً ، وكراهة ما يحب اللّه ورسوله كفراً ونفاقاً .

---

(١) معنى يأرز : ينضم ويتجمع فيها ، كما تنضم الحية وتتجمع فى جحرها .

(٢) لفظ البخارى جدران جمع جدار .

(٣) الراحلة : البعير وأوضعها أسرع مشيها .

(٤) عائر : هو جبل عير المعروف بآبار عليٍّ جنوبا وشرقا ، وثور جبل صغير وراء جبل أحد من شماله

٢ ـ أن تحذر جهدك أن تحدث فيها حدثاً وإن وجدت نفسك عاجزاً عن عدم الإحداث فيها ، فإن كنت من غير ساكنيها فلا تأتها ، وإن كنت من المقيمين بها فارحل منها إلى بلاد أخرى فإن أرض اللّه واسعة ، حتى إذا تاب اللّه عليك فارجع . فإن المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد ، وإن كنت من أهل أحداث الشر فيها ورأيت حالك صالحة معافى فى بدنك ومالك فلا تغتر بذلك ، فإنك ممهل فقط لعلك تتوب ، وإلا فلابد من نفيك بخبثك .

وأذكر هذه الموعظة : دعى الخليفة عبد الملك بن مروان عمر بن عبد العزيز دعاه إلى الشام ، لأمر ما فركب عمر دابته ، وخرج متجهاً إلى الشام حتى إذا تجاوز ثنية الوداع أوقف دابته واستقبل المدينة وبكى طويلاً ثم انصرف ، فقال له مولاه : بأبى أنت وأمى يا عمر ما أبكاك ! فقال له عمر رحمه اللّه تعالى : خشيت أن أكون ممن نفتهم المدينة يا فلان .

بيان معنى الإحداث :

إنه أخى المسلم من النصح لك أن أبين لك معنى الإحداث بالمدينة ، ذلك الذى لا يقبل من فاعله صرف ولا عدل ، ويلعنه اللّه والملائكة والناس أجمعون ، رجاء أن تتجنبه وتتحاشى فعله ، اعلم أن الحدث هو الظلم هكذا فسره غير واحد من علماء هذه الملة ملة الإسلام ، والظلم معناه عام يشمل كل ما وضع من الأمور والأشياء فى غير موضعه .

وبما أن المدينة بلد قدس وحرم حرمها رسول اللّه بإذن اللّه ، لا يصاد صيدها ، ولا يعضد شجرها ولا يقيم بها غير مسلم ، كان معنى الإحداث فيها : ارتكاب ما لا يجوز فيها من جميع ما لم يأذن اللّه تعالى ورسوله فى اعتقاده أو قوله أو فعله من سائر المحدثات من البدع والضلالات ، والمحرمات من كل أنواع الباطل والمنكرات ، ومبالغة فى النصح لك أخى المسلم فإنى أذكر لك بعض الإحداث لتتجنبها وتتجنب من أحدثها فلا تؤويه بنصرته ، لا حمايته وإليك هى :

١ ـ فتحك « استوديو » للتصوير صور فيه الرجال والنساء ، وذلك للعن رسول اللّه ﷺ للمصورين .

٢ ـ فتحك « صالون » حلاقة تحلق فيه لحى الرجال من المؤمنين والشبان المسلمين ، للعن رسول اللّه ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء وحلق الوجه هو عين التشبه

بالنساء ، ولأمر رسول اللّه ﷺ بإعفاء اللحى وقص الشوارب .

٣ ـ فتحك مصرفاً « بنكاً » تعطى فيه قروضاً بفوائد قلت أو كثرت .

٤ ـ فتحك دارا للسينما تعرض فيها أفلام اللهو والباطل وأفلام الدعارة والخلاعة .

٥ ـ فتحك متجراً تتعامل فيه بالعنية ، فتبيع السلعة إلى أجل وتشتريها بثمن أقل فى الحال ، لتحريم رسول اللّه ﷺ ذلك والتنديد به فى قوله : « إذا ظن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة » إلخ .

٦ ـ اتجارك فى بيع المحرمات كالصور والتماثيل ، وأدوات الطرب ، والشعور الصناعية « لبروك » .

٧ ـ إقامتك حفل عرس واستجلاب مغنية تغنى بأعلى صوتها للنساء والرجال طوال الليل بأثمان باهظة أو قليلة .

٨ ـ اتخاذ آلة تلفاز تبث صور النساء والرجال وتملأ بيتك بأصوات الغناء والمزامير .

٩ ـ فتحك دكاناً تبيع أشرطة الأغانى على اختلافها لكبار أهل العهر والفساد .

١٠ ـ إقامتك للموالد ، وحضرات الذكر المبتدعة ودعوتك إلى ذلك وتشجيعك عليه .

هذه كلها من أحداث الشر والفساد فى مدينة الرسول ﷺ ، والتى يشملها قوله ﷺ : « المدينة حرم من عائر إلى كذا ... من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل » .

إن كل ما لم يكن فى المدينة على عهد رسول اللّه ﷺ من الباطل والشر ، والظلم والفساد من كل ما حرم اللّه ورسوله ، أو سبب شراً وفساداً فى المدينة النبوية فهو حدث يعرض فاعله لذلك الوعيد الشديد .

فضل المسجد النبوى

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن المسجد النبوى الشريف هو من أفضل المساجد وأكبرها قدراً ، وأعظمها شرفاً ، وحسبه أنه أول مسجد أسس على التقوى بناه رسول اللّه ﷺ

بيديه ، وأقام عشر سنين به ، فيه نزل الوحى ، وفى رحابه تردد جبريل ، الصلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه من بيوت اللّه ، إلا المسجد الحرام ، ولذا شرعت زيارته ، واستحب السفر إليه ، بقوله ﷺ : « ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

فاعرف هذا ــ أخى المسلم ــ والتزم الأدب فيه ، فاخفض صوتك وقلل كلامك إلا من ذكر اللّه ، وما والاه ، ولا تنم فيه إلا ضرورة ، ولا ترم فيه بقذارة ، ولا تؤذ فيه أحداً من عباد اللّه لا بيدك ولا بلسانك ولا بعينك فإن أذية المسلم حرام ، وكونها فى مسجد رسول اللّه أشد حرمة ، وقد ورد الترغيب فى الصلاة فيه ، بقوله ﷺ : « الصلاة فى مسجدى هذا بألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام » وورد أن من صلى [1] فيه أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبرئ من النفاق » .

والمقصود من هذا ــ أخى المسلم ــ أن تحرص على الصلاة فى مسجد رسول اللّه ﷺ ، حتى لا تفوتك صلاة فيه رجاء أن تفوز بهذا الفضل وتحصل على هذا الخير ، وأن ينجيك اللّه من العذاب ويقيك من النار ، ويبرئك من النفاق .

فضل الروضة الشريفة

واعلم ــ أخى المسلم ــ أن بمسجد رسول اللّه ﷺ مكاناً هو ما بين الحجرة الشريفة التى فيها قبر رسول اللّه ﷺ وبين المنبر الذى يخطب عليه الخطيب اليوم ــ يسمى الروضة ، وهو أشرف مكان فى المسجد النبوى ، قال فيه رسول اللّه ﷺ : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى » .

فلهذا يتنافس الصالحون فى الجلوس للعبادة فى هذا المكان الذى هو روضة من رياض الجنة فإن استطعت ــ أخى المسلم ــ أن تجلس فيه لقراءة القرآن والصلاة والذكر والدعاء من غير أن تؤذى أحد بالمزاحمة فافعل فإن فى ذلك الفضل العظيم والخير الكثير ، وإياك أن تحدث حدث سوء بها بالحديث بكلام الدنيا أو بإلقاء قذر ، أو تقول باطلاً أو تعمل ببدعة ، أو تدعو إليها ، فإن فى ذلك الخطر العظيم .

(١) رواه أحمد وقال المنذرى : رواته رواة الصحيح وراه الترمذى ، والطبرانى .

فضل الحياة بالمدينة والموت بها

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن سكنى المدينة والعيش فيها حتى الموت بغية الصالحين ، وأمل كل المؤمنين الكاملين ، وذلك لما فى سكناها والموت بها من الفضل العظيم ، قال فى ذلك رسول اللّه ﷺ : « لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة ، أو شهيداً » (١) .

وقال ﷺ : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل اللّه فيها من خير منه ، ولا ثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة » (٢) . وقال ﷺ : « من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت ، فإنه من مات بها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » (٣) . وكان عمر رضى اللّه عنه يقول : « اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك ﷺ . فإذا عرفت هذا ـ أخى المسلم ـ وجب عليك أن تصبر على طاعة اللّه ورسوله ﷺ وفعل أمرهما وترك نهيهما ، كما تصبر على ما قد يصيبك من المكروه ، فلا تجزع ولا تتسخط ، أو تضجر ، بل عليك أن تحتسب تصبر حتى يدركك الموت وأنت فى مدينة رسول اللّه ﷺ فتفوز بشفاعته أو شهادته لك يوم القيامة ، وذلك خير يرجو المؤمن ويأسله .

كيفية زيارة المسجد النبوى الشريف

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن على من أراد زيارة المسجد النبوى للصلاة فيه ، أن ينوى ذلك عند خروجه من بلده إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فإذا أتى المدينة توضأ ولبس أحسن ثيابه ، وأتى المسجد ، فإذا دخل قدم رجله اليمنى وقال : بسم اللّه ، والصلاة والسلام على رسول اللّه ، أعوذ باللّه العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك ، ثم يأتى الروضة الشريفة ، أو ما جاورها من المسجد فيصلى ما كتب اللّه له من صلاة ركعتين فأكثر ، يدعو فى سجوده ، وبعد فراغه من الصلاة بما فتح اللّه عليه وليختر من الدعاء أعجبه إليه ، كما قال رسول اللّه ﷺ ، وبهذا تمت زيارته للمسجد النبوى الشريف .

---

(١) رواه مسلم والترمذى . (٢) رواه مسلم . (٣) رواه الطبرانى بإسناد حسن .

السلام على رسول اللّه ﷺ فى قبره وعلى صاحبيه أبى بكر وعمر رضى اللّه عنهما

ثم يأتى الحجرة المشرفة من جهة القبلة فيقف مستقبلها فى أدب واحترام ، ويسلم على رسول اللّه ﷺ قائلاً : السلام عليك يا رسول اللّه ورحمة اللّه وبركاته ، صلى اللّه عليك وعلى آلك وأزواجك وذرياتك أجمعين ، وبارك عليك وعلى آلك وأزواجك وذرياتك أجمعين ، كما صلى وبارك على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد .

ثم يتنحى قدر ذراع إلى اليمين ، ويسلم على أبى بكر الصديق قائلاً السلام عليك أبا بكر الصديق صفى رسول اللّه وثالثه فى الغار ورحمة اللّه وبركاته . جزاك اللّه عن أمة محمد خيرا ، ثم يتنحى قليلاً إلى اليمين أيضاً ويسلم على عمر بن الخطاب قائلاً : السلام عليك عمر الفاروق ورحمة اللّه وبركاته جزاك اللّه عن أمة الإسلام خيراً .

وإلى هنا تمت زيارتك لرسول اللّه ﷺ ولصاحبيه رضى اللّه تعالى عنهما ، فانصرف .

التوسل إلى اللّه تعالى بالرسول ﷺ وهل يجوز ؟

اعلم ــ أخى المسلم ــ أن العبد لا يؤمن إلا إذا آمن بالرسول محمد ﷺ لقوله تعالى : ﴿**آمنوا باللّه ورسوله**﴾ (١) .

ولا يصح إيمانه بالرسول ﷺ إلا إذا أحب الرسول ﷺ أكثر من حبه لنفسه وولده ووالده وماله والناس أجمعين ، لقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده وماله والناس أجمعين » (٢) .

ولا يكمل إيمانه به ﷺ إلا بطاعته ، موالاته وموالاة المؤمنين به المتبعين لما جاء به المطيعين له ، وبناء على هذا فإذا تعذر عليك قضاء حاجة ، أو تعسر عليك أمر من أمور دنياك التى ترجوا الخير فيها من اللّه تعالى فتوسل إلى اللّه تعالى بإيمانك بالرسول ﷺ أو

---

(١) البقرة : ١٣٦ .

(٢) رواه البخارى وفى لفظ أهله وماله والناس أجمعين .

بحبه أو طاعته ، أو العمل بسنته فتقول : اللهم إنى أسألك متوسلاً إليك بإيمانى بنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ أن تقضى حاجتى ، أو تقول : اللهم إنى أسألك متوسلاً إليك بمحبتى لنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ فى قضاء حاجتى فاقضها لى ـ وسم حاجتك ـ فإنها تقضى بإذن اللّه تعالى ، أو تقول : اللهم إنك تعلم أنى ما خرجت من دارى ، ولا أتيت من بلادى إلا لزيارة مسجد رسولك ﷺ للصلاة فيه ، وقد صليت وسلمت على رسولك محمد ﷺ وصاحبيه ، فإن كنت قبلت منى ذلك فاقض حاجتى ، سم حاجتك ، فإنها تقضى لك إن شاء اللّه تعالى واعلم ـ أخى المسلم ـ أن هذه هى الوسيلة المشروعة التى يعطى اللّه تعالى بها ، ويستجيب ، وأما الوسائل المحرمة التى لم يشرعها اللّه تعالى فإن العمل بها ضلال وباطل فاحذرها ولا تتوسل بها فإنها لا تنفعك بل تضرك .

الأدعية الفاضلة المأثورة

اعلم ـ أخى المسلم ـ أنه لم يرد عن رسول اللّه ﷺ دعاء معين ندعو به فى مسجد رسول اللّه ﷺ ولا فى غيره من المساجد .

ولذا فكل مؤمن يتخير من الدعاء ما يعجبه ويدعو به .

وها أنذا أذكر لك جملة من الأدعية المأثورة عن رسول اللّه ﷺ ، فاحفظها على ظهر قلب وادع بها دائماً فى سجودك وبعد الصلاة ، وبعد أداء أية عبادة ، أو فعل طاعة من الطاعات وإليك هى :

* اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ﷺ .

* اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله .

* اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل .

* اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك العدل فى الرضا والغضب وأسألك القصد فى الغنى والفقر .

* اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

* اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى .

* اللهم اجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، والموت راحة لى من كل شر .

* اللهم إنى أعـوذ بك مـن الهم والحزن ، ومن العجز والكسل ، ومن الجبن والبخل ، ومن المأثم والمغرم ، ومن غلبة الدين وقهر الرجال .

* اللهم إنى أعـ بك من البرص والجنون والجذام ومن سيىء الأسقام .

* اللهم إنى ـلك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى .

* اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، واحفظنى من بين يدى ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى .

* اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى .

* اللهم رب النبى محمد ﷺ اغفر لى ذنبى ، وأذهب غيظ قلبى ، وأعذنى من مضلات الفتن وما أبقيتنى .

* اللهم متعنى بسمعى وبصرى وسائر قواى ما أحييتنى واجعله الوارث منى ، واجعل ثأرى على من ظلمنى ، وانصرنى على من عادانى ، وألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى .

* اللهم إنى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى .

* اللهم أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها .

* اللهم إنى أعـوذ بك من عـلم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ومن دعـوة لا يستجاب لها .

* اللهم اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين والمؤمنات ، وارحمنى ووالدى والمؤمنين والمؤمنات ، وصل اللهم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا .

آداب زيارة قبر الرسول ﷺ

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن حرمة رسول اللّه ميتاً كحرمته وهو حى ، فما لا يجوز أن تعمله معه وهو حى لا يجوز أن تعمله معه بعد وفاته ﷺ ، ولذا أحذرك من فعل الجهال الذى يفعلونه عند زيارة قبره ﷺ وهو :

١ ـ أنهم يقفون واضعى أيديهم على صدورهم كأنهم فى الصلاة .

٢ ـ أنهم يطأطئون رؤوسهم ويغمضون أعينهم .

٣ ـ أنهم يقفون يدعون طويلاً وهم مستقبلون القبر الشريف .

٤ ـ أنهم يرفعون أصواتهم بالدعاء ، وبعضهم يقرأ الدعاء من كتاب مكتوب عنده .

٥ ـ أن منهم من يقف بعيداً فى نواحى المسجد ويستقبل الحجرة الشريفة ، ويضع يديه على صدره ويغمض عينيه ويدعو ويصلى ويسلم .

اعلم ـ أيها المسلم ـ إن هذا الذى ذكرت لك كله سوء أدب مع رسول اللّه ﷺ وسوء الأدب معه ﷺ حرام إذ لو كان فداه أبى وأمى حياً كما كان مع أصحابه لما تجرأ أحد أن يفعل ذلك معه أبداً ، وما كان ﷺ يسمح لأحد يسلم عليه أن يطأطئ رأسه ويغمض عينيه ويضع يديه على صدره ثم يسلم عليه ، ولا كان يسمح لأحد أن يأتى بين يديه ويدعو اللّه تعالى عنده ، ولا كان يقف الرجل بعيداً عنه بعشرات الخطوات ، ويطأطئ رأسه ويغمض عينيه ويضع يديه على صدره ، ويسلم عليه ولو فعل هذا أحد لأدبه ، وإنما كان الرجل يأتى إليه ﷺ فيقف قريباً منه ويسلم عليه بصوت خافض كله أدب ووقار ، فاحذر يا أخى عمل هؤلاء الأعجام أو الجهال فإنهم فرقوا بين حياة الرسول وموته فى التعظيم والطاعة والأدب وذلك لجهلهم .

زيارة المسلمة للمسجد النبوى وقبر الرسول ﷺ

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن المسلمة إذا زارت المسجد يجب عليها أن تدخل من أبواب النساء وهى مستترة كاملة السترة فلا يبدو منها شعر ولا وجه ولا صدر ولا ساق ،

ولا تتقدم إلى الأمام بل تصلى فى آخر المسجد إذ ذاك أفضل لها وأعظم أجرا لقول الرسول ﷺ « خير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » ، وتصلى ما كتب الله تعالى لها وبذلك تمت زيارتها للمسجد النبوى الشريف ، والأفضل لها أ ن تلزم منزلها ولا تأتى المسجد إلا قليلا ، وخاصة إذا كان الزحام كأيام الحج والأعياد .

وليس لها أن تأتى الحجرة لتسلم على رسول الله ﷺ في قبره ، لأن النساء على عهد الرسول ﷺ ما كان يأتينه يسلمن عليه أبدا ، اللهم إلا إذا كان للمرأة حاجة عنده فإنها تأتيه وتعرض حاجتها عليه ليقضيها لها ، أو تسأله عن أمر من دينها ، أما أنها تأتيه وهو بين الرجال لتسلم عليه فهذا ما كان أبدا .

ولذا فلتتق الله المؤمنة ، ولا تفعل ما يفعله الجاهلات اليوم من الباطل والمنكر ، وهو الإتيان جماعات جماعات يسوقهن المزورون من الرجال ويقفون بهن أمام الحجرة ويلقنوهن السلام والدعاء ، إن هذه بدعة منكرة ما عرفتها النساء المؤمنات على عهد الرسول وأصحابه ولا فى عهد التابعين والأئمة رحمة الله عليهم أجمعين .

فيكفى المؤمنة إذا دخلت المسجد أن تجلس فى آخره في رواق النساء و تصلى ما كتب الله تعالى لها من صلاة ، ثم تستقبل القبلة وتصلى على نبيها وتسلم عليه بقدر ما يفتح الله عليها عشر مرات أو مائة أو أكثر فإن من صلى على النبى ﷺ مرة صلى الله عليه بها عشرة .

زيارة مسجد قباء

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن مسجد قباء هو أول مسجد بنى فى الإسلام ، فقد أمر النبى ﷺ ببنائه لما نزل مهاجرا بديار بنى عمرو بن عوف ، فبنى وصلى فيه رسول الله ﷺ بضعة أيام ، ثم دخل المدينة فبنى مسجده الشريف ، ولذا كان النبى ﷺ يزوره يصلى فيه ، وكان يأتيه راكبا أحيانا وماشيا أحيانا . وقال : « من تطهر فى بيته ، ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة » (١) .

ولذا كان ابن عمر رضى الله عنهما يأتيه يصلى فيه ، ويرى أن زيارة مسجد قباء للصلاة فيه يوم السبت أفضل ، لفعل الرسول ﷺ ذلك .

---

(١) رواه أحمد والنسائى وابن ماجة والحاكم .

واعلم أن المسلمة فى زيارة مسجد قباء كالمسلم ، فإنها إن تطهرت فى بيتها وأتت مسجد قباء للصلاة فيه وصلت كان لها كأجر عمرة .

فلذا يؤذن للمسلمة فى زيارة مسجد قباء ، كما يؤذن لها فى مسجد الرسول ﷺ إن أمنت الفتنة وزحام الرجال .

زيارة مقبرة البقيع

اعلم – أخى المسلم – أن زيارة القبور للرجال سنة مستحبة لفعل الرسول ﷺ وإذنه فى ذلك : « لا سيما زيارة مقبرة البقيع فقد صح أنه ﷺ كان يزورها ليلا وقال : إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها ، وأن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتى عليهم » .

وقال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة » (١) وكان إذا زار البقيع قال : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لا حقون ، أنتم فرطنا ، ونحن لكم تبع ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم اغفر لهم ، اللهم ارحمهم » .

ولهذا يشرع للمسلم إذا زار المدينة النبوية ، أو كان قاطنا بها أن يزور مقبرة البقيع ، فيسلم على أهلها ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة وله على ذلك أجر .

وأنبهك – أخى المسلم – إلى أن النساء معفوات من زيارة القبور – فلا تتكلف مؤمنة الذهاب إلى أية مقبرة لتسلم على أهلها وتدعو لهم .

وهذا من رحمة الله تعالى بهن ، كما أسقط عنهن كثيرا من التكاليف كالجهاد ، وصلاة الجمعة والجماعة وما إلى ذلك ، غير أن زيارة القبور شدد الشارع فى منعهن منها ، فلم يسمح لهن بحال فى زيارة القبور حتى قال رسول الله ﷺ : « لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد ، والسرج » وذلك لضعف قلب المرأة ، ودقة شعورها ، فإنها قد لا تتمالك إذا رأت قبر وليها من أب ، أو أخ ، أو ابن ، أن تبكى وتنوح ، وتقول ما لا يرضى الله تعالى ، فلهذا لا يجوز للمسلمة أن تزور القبور مطلقا ، لا مقبرة البقيع ، ولا

---

(١) رواه مسلم .

مقبرة الشهداء بأحد ، ولا غيرهما من مقابر المسلمين .

زيارة الشهداء بأحد

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن من زار المدينة النبوية فى حج أو عمرة أو استقلالا ، أو كان من سكانها أنه يشرع (١) له زيارة قبور شهداء أحد وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، ومصعب بن عمير صاحب رسول الله ﷺ وغيرهما من شهداء وقعة « أحد » رضى الله عنهم أجمعين ، وزيارتهم لا تختلف عن زيارة سائر المقابر فيسلم عليهم الزائر ، ويدعو لهم بما ورد عن رسول الله ﷺ كما تقدم فى الكلام على زيارة البقيع ، ولا يشرع لأحد أن يدعو لنفسه أو لغيره من الناس عند زيارة المقابر وإنما يخص بالدعاء أهل المقبرة فقط .

وعليه فإن ما يفعله المزورون من تلقين الزائرين بعض الأدعية ليس من السنة فى شئ ، وكان عليهم أن يعلموهم الكلمات الواردة عن رسول الله ﷺ فى السلام على أهل المقابر ، ويكتفون بذلك .

فضل جبل أحد

اعلم ـ أخى المسلم ـ أن جبل أحد فاضل لقول الرسول ﷺ فيه :

« أحد جبل يحبنا ونحبه » فلذا يحبه المسلم بحب الرسول ﷺ له ، ومشاهدته ممكنة إذ كل من زار شهداء أحد شاهده من بعد ، ولما لم يشرع الرسول ﷺ الوقوف عليه أو الصعود إليه ترك السلف الصالح ذلك ، ما يفعله الجهال من الذهاب إليه ، والوقوف عليه ليس دالا على مشرعية ذلك .

وحسب المؤمن أن ينظر إليه من بعد ويحبه بحب رسول الله ﷺ له .

---

(١) (**تنبيه**) : لا تشرع زيارة جبل أحد وليس فى الذهاب إليه من أجر لأن زيارته ليست بقربة من القرب ، وإنما الزيارة لشهداء أحد للسلام عليهم والترحم والاستغفار لهم .

هل هناك أماكن بالمدينة

يتقرب بزيارتها

اعلم ـ أخى السلم ـ أنه لم يبق بعد الذى بينت لك من مكان تشرع زيارته بالمدينة ويثاب عليه فاعله فقط .

غير أن الناس يأتون كثيرا من مساجد المدينة كمسجد القبلتين ومسجد الغمامة ، ومسجد الإجابة ، وعملهم هذا ليس بحجة ولا دين وإنما هو من حب الاستطلاع والوقوف على الآثار فقط .

ولو أن أحدهم جلس فى مسجد رسول الله ﷺ ساعة يتعلم فيها علما ـ أو يقرأ فيها آية من كتاب الله ، أو يصلى ركعتين خير له وأفضل من تلك الزيارات المحدثة التى لم يأمر بها رسول الله ﷺ ، ولم يرغب مجرد الترغيب فيها .

هذا وأنصح لك أخى المسلم أن تلزم المسجد النبوى وحلق العلم فيه ما دمت بالمدينة النبوية ، وأن تقلل من التجوال فى الأسواق والجلوس فى المقاهى ، لأنك دخلت حرم رسول الله ﷺ ونزلت بداره وأنخت بساحته فالزم الأدب جهدك ، وراع حرمة هذا الحرم ، واذكر ما علمتك إياه ، وما نصحت لك به فى هذه الرسالة ، فاعمل به فإنك تفوز بأفضل زيارة ، وتحصل على أعظم أجر ومثوبة ، حقق الله لك ذلك ، آمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والتابعين والأئمة رحمة الله عليهم أجمعين .

الموضوع	الصفحة

مقدمة : ٥

دراسات فى مسائل علوم القرآن

المسألة الأولى : فى بيان المراد من علوم القرآن ٩
المسألة الثانية : فى بيان كيفية نزول القرآن ١٢
المسألة الثالثة : فى أسباب النزول ١٨
المسألة الرابعة : فى القراء رالقراءات ٢٣
المسألة الخامسة : فى التفسير والتفاسير والمفسرين وطبقاتهم ٣٤

نماذج من الدعاة الصالحين

نوح عليه السلام ١٣٩
إبراهيم عليه السلام ١٤٥
موسى الكليم ١٦٢
عيسى ابن مريم عليه السلام ١٧٦
إمام الدعاة محمد ﷺ ١٨٢

نماذج أخرى من الدعاة الصالحين :

أبو بكر الصديق ٢٠٦
عمر بن الخطاب ٢١٩
عثمان بن عفان ٢٢٩
على بن أبى طالب ٢٣٦

السلسلة الثالثة من نماذج الدعاة الصالحين :

الحلقة الأولى : الإمام أحمد بن حنبل ٢٤٥
الحلقة الثانية : شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢٥٥
الحلقة الأخيرة : محمد بن عبد الوهاب ٢٦٣

الدولة الإسلامية

تعريف : ٢٧٣
أساس الدولة الإسلامية : ٢٧٤
الأساس الأول : الإيمان ٢٧٨

الموضوع	الصفحة

الأساس الثانى : الأمة ٢٨٨
الأساس الثالث : الحكم الإسلامى ٢٩٥
الأساس الرابع : الحاكم ٢٩٩
الأساس الخامس : الحكومة ٣٠٢

هذا هو الطريق : إلى الحاكمين ، وإلى جماعات المسلمين

بين يدى الطريق : استعراض للواقع الذى يعيشه المسلمون اليوم ٣٥٨
إلى الحاكمين أولا ٣٦١
وإلى الجماعات الإسلامية ثانيا ٣٦٤

كيف يتطهر المؤمن ويصلى

الطهارة ٣٨٣
الصلاة ٣٨٨

التربيـة فى الإسـلام

تربية الجسم ٣٩٨
تربية العقل ٣٩٨
تربية الخلق ٣٩٨

هذه نصيحتى إلى كل أخ شيعى

الإهداء ٤١١
مقدمة ٤١٣
الحقيقة الأولى : استغناء آل البيت وشيعتهم من القرآن الكريم ٤١٥
الحقيقة الثانية : اعتقاد أن القرآن الكريم لم يجمعه ولم يحفظه إلا على والأئمة من آل البيت ٤١٦
الحقيقة الثالثة : استئثار آل البيت وشيعتهم دون المسلمين بآيات الأنبياء ٤١٨
الحقيقة الرابعة : اعتقاد اختصاص آل البيت وشيعتهم بعلوم ومعارف نبوية ٤١٩
الحقيقة الخامسة : اعتقاد أن موسى الكاظم قد فدى الشيعة بنفسه ٤١٢
الحقيقة السادسة : اعتقاد أن أئمة الشيعة بمنزلة رسول الله ﷺ ٤٢٢

الموضوع	الصفحة

الحقيقة السابعة : اعتقاد ردة وكفر أصحاب رسول اللّه ﷺ ... ٢٢٤

هؤلاء هم اليهود فاعتبروا يا أولى الأبصار

نشأة اليهود ... ٤٣٢
سبب هجرة إبراهيم ... ٤٣٣
يعقوب بأرض كنعان ... ٤٣٤
عهد الإنقاذ ... ٤٣٩
ظاهرة خطيرة ... ٤٤١
بداية استقلال ... ٤٤٢
ساعة الخلاص والنجاة ... ٤٤٣
العهد الجديد أو عهد الحرية لبنى إسرائيل ... ٤٤٥
الزلة الكبرى ... ٤٤٦
زلة أعظم ... ٤٤٨
زلة ثالثة ... ٤٤٩
إلى الأرض المقدسة ... ٤٥٠
حادث التيه ... ٤٥٢
العهد الثانى لبنى إسرائيل ... ٤٥٤
تشرد اليهود فى العالم أو العهد الأخير ... ٤٥٦
اليهود بالمدينة النبوية ... ٤٥٨
للاعتبار ... ٤٦١

إلى الفتاة السعودية والمسئولين عنها

يا فتاة السعودية افهمى ما أقول لك ... ٤٧٠
بإيمانك أخِطابك ... ٤٧٤
الصورة القائمة أو المصير الأسود ... ٤٧٧
ونصيحتى لك ... ٤٨٢
وأنتم أيها المسئولون ... ٤٨٤

الموضوع	الصفحة

في جواز أي من أنواع النسك وإتمام المسافر وراء الأئمة

مقدمة ٤٩١
المسألة الأولى : في بيان خطأ من زعم أن صلاة المسافر تبطل إذا أتمها وراء الإمام المقيم ٤٩٤
المسألة الثانية : في بيان خطأ من زعم أن الإفراد بالحج لا يصح ٥٠٠
خاتمة البحث ٥١٨

التدخين مادة وحكما

إهداء : ٥٢٣
مادة وحكما ٥٢٥
مادة التدخين ٥٢٧

إلى الإيمان والجهاد

بين يدي هذه الدعوة ٥٤٥

القضاء والقدر

مواضيع الرسالة ٥٦٣
القضاء والقدر ٥٦٥
ثمرة الرضا بالقضاء ٥٧٦
إرادة اللّه تعالى ومشيئته ٥٨٧
الهداية والضلال ٥٩٤
الجزاء من ثواب وعقاب ٥٩٦
الحسنة والسيئة من اللّه أو من النفس ٥٩٨

المشاكل التي تعترض الدعوة الإسلامية ودعاتها وسبل معالجتها

المشكلة الأولى ٦٠٨
المشكلة الثانية ٦٠٩

الموضوع	الصفحة
المشكلة الثالثة	٦١٠
المشكلة الرابعة	٦١٠
المشكلة الخامسة	٦١٢

أدب الزيارة للمدينة النبوية

فضل المدينة	٦١٧
فضل المسجد النبوى	٦١٦
فضل الروضة الشريفة	٦٢٠
فضل الحياة بالمدينة والحدث بها	٦٢١
كيفية زيارة المسجد النبوى الشريف	٦٢١
السلام على رسول اللّه فى قبره وعلى صاحبيه	٦٢٢
التوسل إلى اللّه تعالى بالرسول ﷺ	٦٢٢
الأدعية الفاضلة المأثورة	٦٢٣
زيارة المسلمة للمسجد النبوى وقبر الرسول ﷺ	٦٢٥
زيارة مسجد قباء	٦٢٦
زيارة مقبرة البقيع	٦٢٧
زيارة الشهداء بأحد	٦٢٨
فضل جبل أحد	٦٢٨
هل هناك أماكن بالمدينة يتقرب بزيارتها	٦٢٩
الفهرس	٦٣١

* وجدت فى الطبعة الأولى بعض الأخطاء المطبعية ـ الغير مقصودة ـ لذا وجب التنبيه عليها .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٧	٣	للتقوى	وأقرب
			للتقوى﴾(٣)
			﴿وإذا حكمتم
	٤	تحكموا	تحكموا
		بالعدل) (٣)	بالعدل﴾ (٣)
	الهامش	ـ	(٣)النساء :٥٨.
١٤٨	١	حنفا	حنيفًا
	١٦	إبلاع	إبلاغ
	١٨	والبلاع	والبلاغ
١٥٠	١٤	بحفظ	يحفظ
	١٩	براعب	براغب
	٢٤	البلاع	البلاغ
١٥١	١٢	النمروز	النمروذ
١٥٤	١٩	تقصير	على تقصير
١٦٥	٢٤	حيث وكزة	حيث وكز
١٦٩	٢٢	فعلتها	﴿ فعلتها
	٢٣	الضالين	الضالين ﴾
١٧٦	١٨	ال سلام	السلام
١٧٩	١٣	البلاع	البلاغ
	٢٢	وصاع	وصاغ
١٨٣	٣	نمادج	نماذج
١٨٤	١٢	نضفر	نظفر
١٨٦	١١	بوفل	نوفل
١٩٩	١	أنطلق	أنطق
٢٠٢	١٦	تكلف نفسك	تكلف إلا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
			نفسك
٢٠٥	١٠	يعملون	تعلمون
٢١٥	١٦	وستة	وثلاثة
٢١٧	١٧	يوم	قوم
	٢١	ولت	ولست
	٢٢	إحسانى	إحسانه
	٢٦	للإصلاح	للأصلح
٢٢٠	٩	يجاهد	يجاهر
٢٢١	١	تساوى	تساوى عن الله
٢٢٥	٥	فإذا	وإذا
٢٢٩	٨	إصابته	أصابته
٢٣١	٢٥	سول	رسول
٢٤٢	١٣	الرسائل	الوسائل
٢٤٩	٥	أن	أنا
	١٨	مالاً	ما
	١٩	بأس	لا بأس
٢٥٠	١٠	فاستعرض	فاستعاض
٢٥١	٢٤	فتخمل	فتحمل
٢٥٢	٥	خرجًا	خرج
	٢١	لا	إلا
	٢٥	ينصب	ينضب
٢٥٣	٥	أتينا	ائتيا
	١٨	ماجاك	ما جاءك
	٢٣	صحابه	أصحابه
٢٥٤	٦	الإثنين	الأنين

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥٧	٩	والتقسى	والتقى
	٢٢	اشداد	اشتداد
٢٥٨	١٦	فساد	فساداً
	٢٠	لينحلى بيته وبيين	ليخلى بينه وبين
٢٥٩	٤	عاهد فوفنا	عاهدا فوفيا
	٥	المسملين	المسلمين
٢٦٠	١٨	معاصيره	معاصريه
٢٦١	٩	يتعله	يستعمله
	١١	فيم	فيما هم
٢٦٣	٩	للملكة	للمملكة
	١٤	الاتيساء	الاتساء
٢٦٧	٢٠	ألقوا	ألفوا
٢٦٩	١٩	عند	عندما
	٢٤	أسفروا	استقروا
٢٧٧	١١	للعالملين	للعالمين
٢٨٠	٢	وطبعم	وطبعهم
	٣	عى	على
٢٩٣	٩	االفاضل	الفاضل
	١٣	ولا	فلا
	١٤	وءاثار	وآثار
٢٩٤	١	بانتقاضة	بانتقاصه
٢٩٦	١٦	بناء	وبناء
	١٧	بادة	لعباده
٣٠٠	٣	إنقاذ	إنفاذ
	١٠	عى	على
	٢٥	والأفقه	وإلا فقد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠١	٤	وإنقاذ	وإنفاذ
٣٠٣	١	مرادة	مراده
٣٠٤	٢٥	إيمانـا وجا ورجاء	إيمانا ورجاء
٣١٤	١٧	فجلسا	فجلسنا
٣١٧	٢٢	وشكرًا لله لك	وشكرًا لله ثم لك
٣٢٩	١٣	زايدًا على قدر	زائدا عن قدر
	١٤	نهيًا	نهيا
٣٣٠	٢	يكمن	يمكن
	٥	شهريًا يكفل	شهريًا ما يكفل
	٢٣	واتقوا	اتقوا
٣٣١	١١	إلا من أن	إلا أن
٣٤٧	١	به ذا	بهذا
٣٥٩	٩	والعجون	والمجون
٣٦١	٢٣	صواب لا	صواب
	٢٤	حق	لاحق
٣٦٦	٢٥	الخيرات	الخبرات
٣٧٨	١٠	الغائط من	من الغائط
٣٩١	٤	كأن يهو	في السطر ١١
	٥ ، ٦	–	في السطرين ١٢ ، ١٣
	١١	كان	كأن
٤٠٠	٨	أن أن	أن
٤٠١	٦	للتتناول	لتتناول
٤٠٢	١٨	إذا	إذ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٢٤	٢٥	التفكير	التكفير
٤٢٥	٧	، واليهودى	اليهودى
	١٠	كفر	كُفِّرَ
٤٢٩	١٢	الذماء	الدماء
٤٣١	٧	الله	لله
٤٣٦	٢	الس جن	السجن
٤٣٧	١	ومج اراتهم	ومجاراتهم
	٢٥	بأهليكم	بأهلكم
٤٤٢	١٣	يرواع	يرواغ
	١٦	ربك	ربك بما عهد عندك
	١٦	كشف	كشفت
٤٤٧	١	وقال	﴿ وقال
	٢	المفسدين	المفسدين ﴾
٤٤٨	٥	يسوع	يسوغ
	١٧	لأهلكتهم	أهلكتهم
٥٣٧	٣	فهو ،	فهو شهيد ،
٥٣٩	٥	السفة	السفه
	١٠	الخماسة	الخامسة
٥٤٠	٢	لأنه	لأن
٥٤١	٦	بالمسلمة	المسلمة
ـ	١٤	بتدخين	بالتدخين
٥٤٥	٤	لله	الله
٥٤٨	١٠	طاع	طاغ
	١٢	نسبها	نسجها
٥٥١	٢٤	يدعى	يذعن
٥٥٤	٢٠	الخطر	لخطر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٥٧	١٠	فجلمة	فجملة
٥٥٨	٩	راجحة	راجحه
٥٥٦	٢	تشفينا	تشفيًا
	٣	التفك	التفكك
	٥	درن	دون
	١٨	فكرة	فكره
٥٦٧	١١	وأسبابا	وأسبابها
	١٤	وأعراض	وأغراض
	١٥	حكمه	حكمة
٥٦٨	٢	لعله	لعلة
	١٢	ـ	يحذف السطر
	١٢	وفى تقرير	تنقل إلى سطر ١٣
٥٦٩	٦	وتحجزت	وتحجرت
	١٤	أو دعوه	ادعوه
	٢٣	لتفكرون	لتكفرون
٥٧٠	٢٥	علوية	علويه
٥٧١	٢٣	والدين	واللبن
٥٧٢	١٥	المعلقة	المعقدة
	٢٤	علوية	علويه
٥٧٤	٢٣	ضروك	يضروك
٥٧٧	١٦	« أول ما خلق الله القلم	تنقل أول السطر
	١٦	عنوان	تحذف
	١٦	٥٧٧ ٥٧٧	تحذف
	٢٤	م	لم
٥٧٨	١٥	أجرأها	أجراها

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصـواب
	٢١	فيها	فيما
	٢٢	المعاص	المعاصى
٥٨٠	٢٤	ضاعفها	يضاعفها
٥٨١	٥	فرع	فرغ
	١٣	فصلت	فضلت
	١٥	لشرع	للشرع
٥٨٢	١٢	فاللخير	فللخير
	٢٠	تلتسم	تلتثم
٥٨٥	٢	الزمر	يأمر
٥٨٦	٢٠	عامه	علمه
	١٠	مفرط	مفرّط
٥٨٨	١٠	مفرط	مفرِط
	١٠	المفرط	المفرّط
٨٩	١٢	المفرط	المفرّط
ـ	١٢	المفرط	المفرِط
٥٩٤	١٢	يهيديهم	يهديهم
٥٩٥	١	لضل	ليضل
٥٩٧	١٠	من	على
	١٦	يجب	يحب
٥٩٨	٤	تصيبهم	تصبهم
٥٩٩	٤	عامه	علمه
	٤	أمرها	أمره
	٤	لها	تحذف
٦٠٩	٦	قومه	قومة
	٢٥	بالالتفات	بالالتفاف
٦١١	١٤	إذًا	إذا لم يتحقق
٦١٢	١٩	إتجار	إيجار

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصـواب
٦١٣	١٤	لم	لن
٦٢٩	٣	السلم	المسلم

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢٢٢ / ١٩٩١